



الأنوار

الفتح القسّي ف الفتح القدسي

للعلماء الكاتب الأصفهاني
٥١٩ - ٥٩٧ هـ

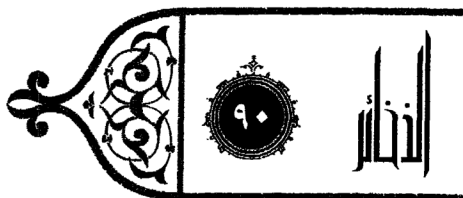
تحقيق وشرح وتقديم
محمد محمود صبح

قدم له

أ.د. حامد زيان غانم



الهيئة العامة لقصور الثقافة



الفتح القسّی ف الفتح القسّی

للعامد الکاتب الأصفهانی

٥١٩ - ٥٩٧ هـ

تحقیق وشرح و تقدیم

محمد محمود صبح

قدّم له

أ.د. حامد زیان خانم




رقم الإيداع : ٤٣٠٥ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى : 977 - 305 - 384 - 9 I.S.B.N.

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ : 

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الذخائر

رئيس مجلس الإدارة
أنس الفقى

أمين عام النشر
محمد السيد عيد

الإشراف العام
فكرى النقاش

رئيس التحرير
أ.د عبد الحكيم راضى

مدير التحرير
د. محمود فؤاد

سكرتير التحرير
جمال العسكرى

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ ش أمين سامى قصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١٢٥٦١

مستشارو التحرير

أ.د. إبراهيم عبد الرحمن
أ.د. السباعى محمد السباعى
أ.د. حسين محمد ربيع
أ.د. حسين نصار
أ.د. عبد الله التطاوى
أ.د. عبده على الراجحى
أ.د. محمد حمدى إبراهيم
أ.د. محمد عونى عبد الرؤوف

الإشراف الفنى : غريب ندا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعريف

عزيزى القارىء . . الكتاب الذى تقدمه (الذخائر) فى هذه الحلقة هو كتاب (الفتح القسّى فى الفتح القدسى) لمؤلفه عماد الدين الأصفهانى الكاتب (٥١٩ - ٥٩٧ هـ) ، يقدم الكتاب جانباً من الصور البطولية لكفاح المسلمين والعرب ضدّ الغزو الاستيطاني الصليبي ، وهو الكفاح الذى قاد أعظم فصوله السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولعلّ هذا ما حدّا بنشره صاحب طبعة ليُدنّ التى صدرت سنة ١٨٨٨ م إلى أن يطلق عليه عنوان (فتح صلاح الدين لسورية وفلسطين) - Conquete de la Syrie et de la palestine par Salah ed . . dim

عنوان الكتاب كما فى هذه الطبعة هو « الفتح القسّى فى الفتح القدسى » ، ولقد وردّ العنوانُ على هذا النحو فى (إرشاد الأريب . . .) لياقوت المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، وكذلك فى (سير أعلام النبلاء) للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وبهذا اللفظ نفسه ورد العنوانُ العربى فى طبعة ليدين التى سبقت الإشارة إليها .

بينما جاء فى (مفتاح السعادة . . .) ل : طاشكبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨ هـ كلمة (الفتح القسّى) بدلاً من (الفتح القسّى) أما فى (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) لحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ فقد ورد اسم كتاب (قلع القسّى فى الفتح القدسى) ضمن عدد من الكتب فى تواريخ القدس ، دون ذكر لاسم المؤلف .

وأغلب الظن أنه نوع من التحريف ، تماماً كما فى كلمة (الفتح) ، وإن كان للكلمة الأخيرة وجهها ، فإذا كان المقصود (بالفتح القسّى) ما فُتِحَ به على المؤلف من بلاغة ومقدرة فى وصف فتح القدس ومعارك صلاح الدين ، وهى بلاغة ومقدرة تستمدان صفتاهما من اتسابهما إلى بلاغة قسّ بن ساعدة الإيادى الخطيب الجاهل المَقوّه ، الذى يقال : إن الرسول محمداً ﷺ قد استمع فى طفولته إلى خطبة له مشهورة ذات معان سامية . . فإن الأمر نفسه أو المعنى قائم باستخدام كلمة (الفتح) بالياء ، إذ هى : النقحة أو العبير ، أو لنقل - مرة أخرى - الأثر القسّى ، أو البلاغة المستمدة من بلاغة ذلك الخطيب .

والحقيقة أن البحث عن وجه لكلمة (الفتح) لا يعدو أن يكون بحثاً عن عُذر أو تبرير لوقوع التصحيف فيها من حيث إنّ لها وجهاً من المعنى ، أما العنوان الحقيقى للكتاب فبِهِ

كلمة (الفتح) صراحةً باعتراف المؤلف ثم براويته قصة حول العنوان ، وأنه كان من اقتراح القاضي الفاضل - أحد بلغاء عصره من كتاب صلاح الدين - لأن الله سبحانه قد فتح على العماد « بفصاحة قُسر وبلاغته ... ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته »

[ص ٥٧ ، ٥٨ من الكتاب]

بذلك يتأكد صدقُ رواية كلٍّ من ياقوت والذهبي للعنوان ، وتسقط روايةُ صاحب (مفتاح السعادة) وكذلك روايةُ صاحب (كشف الظنون) - إن كان الأخير قد قصد بعنوان (قدح القسني) إلى كتاب العماد - فالثابت المؤكد أن عنوان الكتاب هو : (الفتح القسني) (الفتح القسني)

ويبدو أن لكلمة (الفتح) نوعاً من المجازية الدينية ، فقد وردت في القرآن الكريم أكثر من عشر مرات مقترنةً غالباً بمعنى النصر ومناسبتة ، منها (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) (١) ، ومنها (إذا جاء نصر الله والفتح) (٢) ، ومنها (. . . نصر من الله وفتح قريب) (٣) ، ومنها (. . . فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) (٤) .

من هنا - فيما يبدو - كان غرامُ الشعراء والأدباء عامة بتلك اللفظة ، خاصةً عند ذكر الوقائع والانتصارات ؛ إذ نسمع أحدَ شعراء الرشيد - في معرض العمل على تخفيف غضب الخليفة وثورته ، وقد بلغه أن (نقفور) امبراطور الروم قد نقض عهده معه وتحذاه - قال الشاعر :

نَقَضَ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ نِقْفُورُ فَعَلِيهِ دَائِرَةٌ الْبَوَارِ تَدُورُ
أُبَشِّرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ فَتَحَ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهَ خَطِيرُ

أما أبو تمام فقد أطلق كلمة (الفتح) على انتصار الخليفة العباسي المعتصم بالله على الروم في وقعة عمورية ، ووصف ذلك الانتصار بأنه (فتح الفتوح) الذي تعجز بلاغة الشعراء والخطباء عن الإحاطة بوصفه فقال :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

أما العماد الأصفهاني فقد أضاف إلى (الفتح) - بمعنى الانتصار في الحرب - فتحاً آخر ووصفه بـ (القسني)

(١) سورة الفتح آية (١) .

(٢) سورة النصر آية (١) .

(٣) سورة الصف آية (١٣) .

(٤) سورة الفتح آية (١٨) .

وقد سبق القول إن كلمة (القُسَي) هي نسبة إلى قُس بن ساعدة الإيادي ، الخطيب الجاهلي المشهور الذي عاش قريبا من عصر البيعة النبوية ، أما تسمية العماد إنشائه ، أو إبداعه ، في وصف انتصارات صلاح الدين فتحًا .. فهو ما تفرقه أعراف الأدباء في استعمال اللغة في مثل هذه المواقف ، فالشاعر ، أو الأديب عموماً (يفتح القول) أى يبتدئه ، وحين يعسر الكلام على الأديب فلا يجد ما يقوله ، يقولون : قد استغلق عليه القول ، فإذا واتته القرية بعد هذه الحال ، قالوا : لقد فُتح له القول .

بذلك يكون لدينا في العنوان الذي حملَه كتابُ العماد .. (فتحان) : (فتح) باللسان والقلم ، و(فتح) بالسلاح والقوة ، أحدهما أداته حدّة القرية وصفاء الذهن وقوة الطبع والموهبة ، والآخر أداته العزيمة والإصرار ثم جودة السلاح وشجاعة الأبطال . وقد سُمي العمادُ كلا العاملين - أى الإبداع الأدبي والانتصار في الحرب - فتحا . ومن قبل جَنَحَ المتنبي إلى أسلوب (المشاكلة) وذهب إلى عكس مذهب العماد فسُمي العاملين معاً (كتابة) ، وذلك حيث يقول في فلسفة القوة :

حتى رجعتُ وأقلامى قَوَائِلُ لى المجد للسيف ، ليس المجد للقلم

اكتُب به أبداً قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسياف كالخدم

هكذا اطلق المتنبي على فعل السيف وأثره في توجيه الأحداث اسم (الكتابة) ، فهناك الكتابة بالسيف والكتابة بالقلم ، والأولى أكثر فاعلية وأثراً ، أما الأخرى فتَلَوها وتسجل ما سبق للسيف أن دونه على صفحة التاريخ ، وهذا - على الأرجح - هو ما قصد إليه العماد في كتابه ، أعنى قضده إلى إيراد ما جاش به خاطره وجادت به قريحته ، أو ما (فُتح) له به من إبداعات في وصف انتصارات صلاح الدين .

ومع ذلك .. ففي العنوان الذى وَرَدَ تحته الكتاب بصورتيه : (الفتح) و (الفتح) - بفرض صحتها - روحُ العماد في غرامه بالصنعة البديعية ، خاصّة الجناس والمزاوجة والطباق والسجع . واللون الأخير - أعنى السجع - واضح في العنوان بصورتيه ، وكذلك الجناس ، حيث يجيء تائماً باستخدام كلمة (الفتح) وناقصاً باستخدام كلمة (الفتح) ، وكذلك هو بين (القُسَي) و(القدسي) ، وكذلك المزاوجة الواضحة في توازن كلمات الجزئين في العنوان .

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن المؤلف الذى أتقن الكثير من المعارف وإن غلب عليه الأدب والتاريخ ، ففي المجال الأخير يذكر له كتاب (البرق الشامي) في سبع مجلدات ، وكتاب (نصرة الفترة) في أخبار بنى سلجوق ، و (الفتح القسّي في الفتح القدسي) في مجلدين ؛ أما في مجال الأدب فقد ترك ديوان شعر في أربع مجلدات ، وديوان رسائل في عدة مجلدات ، ويمكن تصنيف كتابه الكبير (خريلة القصر وجريلة العصر) ضمن كتب

تاريخ الأدب ، ويغلب على إنشائه من الشعر والنثر - كما قلنا - الصنعة البديعة التي أصبحت طابع العصر ، خاصة تلك الألوان التي سبق أن أشرنا إليها ، يضاف إليها لون آخر هو استخدام العبارات التي تصلح لأن تُقرأ معكوسة فلا يتغير معناها ويظل نطقها كما هو ، هذا فضلاً عن إجادته الاقتباس من القرآن الكريم والشعر السابق عليه .

أما محقق الكتاب الأستاذ محمد محمود صبيح فلم تسعفى المصادر ، ولا معلوماتي الخاصة بالكثير عنه ، سوى أنه سبق له تحقيق كتاب (النوادر السلطانية والمعاسن اليوسفية) المعروف بـ (سيرة صلاح الدين) لابن شداد ، وهو الكتاب الذى سبق إصداره فى هذه السلسلة بتحقيق المرحوم الدكتور جمال الدين الشيتال .

وأما مقدم هذه الطبعة فهو الأستاذ الدكتور حامد زيان غانم ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، وقد تخرج فى نفس الكلية ، وحصل على الماجستير والدكتوراه منها ، وتدرج فى سلك أعضاء هيئة التدريس ، وعُيّن رئيساً لقسم التاريخ ومديراً لمركز البحوث والدراسات التاريخية بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وللدكتور زيان عديد من المؤلفات فى مجال التاريخ ، من بينها :

- الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية .
- العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبي .
- الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك .
- الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة .

عزيزى القارئ .. إن كتاب (الفتح القسى فى الفتح القدسى) هو الكتاب الثانى الذى تصدره الذخائر فى تاريخ صلاح الدين وتسجيل انتصاراته ، وهو يجمع - بصورة ما - بين الأدب والتاريخ ، الأدب المتمثل فى إنشاء العماد ورسائله وحكاياته الخاصة ، والتاريخ المتمثل فى تسجيل فروسية صلاح الدين الذى لم يكن رجل حرب من أجل الحرب ، فهو إنما حارب من أجل السلام .. السلام القائم على الحق والعدل .. لذلك ظل دائماً - حتى خلال الحرب - رافعاً شعار الحوار والتفاهم ، لكن الغرب جاءه رافعاً لواء العداة والتصادم .

عزيزى القارئ .. إلى أين سينتهى المطاف بالعالم .. إلى الحوار أم إلى الصدام ؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين ، ولكن الذى أثبتته الأيام .. أنه حتى الحوار ، بل وحتى الدعوة إلى السلام .. يحتاج كلاهما إلى قوة تحميه وتؤكده ، بل وتفرضه ، شأنه فى ذلك تماماً شأن مسلح الصدام .

سَمَرُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

مؤلف هذه (الذخيرة) هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله ، المعروف بـ(أله)^(١) الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهاني ، ولد بأصبهان فى ثانى جمادى الآخرة عام ٥١٩ هـ / عام ١١٢٥ م ، ونشأ بها حيث تلقى تعليمه الأول على المذهب الشافعى ، ثم التحق بالمدرسة النظامية ببغداد حيث تفقه على يد كبار علمائها فى تلك الفترة ، ثم رجع إلى بغداد ليعمل بصناعة الكتابة فبرع فيها وذاع صيته وصار ملازماً للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة^(٢) ، وزير الخليفة المقتضى لأمر الله العباسى ، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط ، واستمر العماد يلى هذه الوظائف حتى وفاة الوزير ابن هبيرة عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م «فاضطربت أحواله وأقام . . . مدة فى عيش منكدر وجفن مسهد» على حد قول معاصره ابن خلكان^(٣) .

ونتيجة ما حدث للعماد من حساده بعد وفاة ابن هبيرة ، غادر بغداد متجهاً إلى دمشق عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م حيث تقابل مع القاضى كمال الدين أبى الفضل محمد بن الشهرزورى الذى كان متولياً أمور دمشق من قبل السلطان نور الدين محمود (حاكم الموصل وحلب ودمشق) ، وارتبط العماد بالشهرزورى ارتباطاً كبيراً حيث كان يحضر

(١) آله : بفتح الهزمية وضم اللام وسكون الهاء ، اسم فارسى معناه باللغة العربية العقاب ، وهو الطائر المعروف . [راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ١٥٢] .

(٢) قال عنه ابن خلكان : « حصل من كل فن طرفاً وقرأ الكتاب العزيز ، وقرأ النحو ، واطلع على أيام العرب وأحوال الناس ، ولازم الكتابة ، وحفظ ألفاظ البلغاء ، وتعلم صناعة الإنشاء » وتولى الوزارة للخليفة المقتضى لأمر الله عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩م وبعد ولايته للوزارة لقب بعون الدين ، ثم استمر فى الوزارة بعد وفاة المقتضى حيث استوزره الخليفة المستنجد بالله العباسى ، واستمر يلى الوزارة حتى وفاته عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ . [راجع وفيات الأعيان ، ج ٦ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣] .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ١٤٨ .

مجالس علمه . ويعد أن عرف الشهرزوري مكانة العماد العلمية ولاه التدريس بالمدرسة النورية^(١) بدمشق عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وهي التي عرفت بعد ذلك باسم المدرسة العمادية نسبة إلى العماد الأصبهاني نفسه .^(٢) وفي دمشق توطدت علاقة العماد الأصبهاني بالأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي ، وكان قد سبق تعرفه عليه عندما كان نجم الدين والياً على تكريت^(٣) ، ويذكر ياقوت الحموي^(٤) أن نجم الدين أيوب هو الذي سعى إلى العماد ، وذهب للترحيب به بعد وصوله إلى دمشق .

ولم يلبث القاضي الشهرزوري أن رشح العماد الأصبهاني ليعمل في ديوان إنشاء السلطان نور الدين محمود ، وذلك بعد أن تأكد مما بلغه العماد من النبوغ في العلم ، غير أن العماد تردد في قبول هذا العمل ؛ لأنه لم يسبق له الاشتغال في الكتابة بديوان الإنشاء من قبل « خوفاً من التقصير فيما لم يمارسه . . . مع توفر مواد هذه الصناعة عنده »^(٥) ، لكن العماد لم يلبث أن قبل هذه الوظيفة وأثبت جدارته في العمل بها ، وتفوق على القاضي الشهرزوري نفسه ، حيث كان يكتب بالفارسية بالإضافة إلى العربية « وعلت منزلته عند نور الدين محمود وصار صاحب سره » ، ولذلك ولاه نور الدين محمود الإشراف على ديوان الإنشاء عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م^(٦) .

والمعروف أن ديوان الإنشاء ، وهو الذي يماثل وزارة الخارجية في وقتنا الحاضر - يجعل القائم على العمل به قريباً من السلطان وشئون الحكم ؛ لأن هذا الديوان منه وإليه تخرج وترد مختلف الرسائل والمكاتبات إلى مختلف الملوك والسلطين ، ومن خلاله يتم صياغة وكتابة المعاهدات والهدن التي تعقد ، وهذا يجعل القائم على أمر هذا الديوان قريباً من السلطان بل كاتم أسراره^(٧) . تقلبت الأحوال بالعماد الكاتب بعد وفاة السلطان نور

(١) نسبة إلى السلطان نور الدين محمود .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأديب ، ج ١٩ ص ١٣ .

(٣) المعروف أن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الكردي كان والياً على تكريت ثم غادرها على أثر خلاف مع حاكمها عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م .

(٤) معجم الأديب : ج ١٩ ص ١٣ .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأديب : ج ١٩ ص ١٤ .

(٦) ياقوت : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٧) عن ديوان الإنشاء ، راجع الموسوعة المصرية : تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، مادة كاتب وكتاب ص ١١١٦ .

الدين محمود (٥٦٩هـ / ١١٧٤م) ، كما تقلبت أحوال البلاد بموته ، حيث ورثه في الحكم ابنه الملك الصالح إسماعيل الذي كان في الحادية عشرة من العمر ، فالتف حوله جماعة من الأفراد كان همهم المصلحة الشخصية وتصفية من يقف ضد هذه المصلحة ، فخاف العماد على نفسه من غائلتهم ؛ فرحل عن دمشق متجهاً صوب بغداد ، وأصابه وهو في الطريق مرض جعله يستريح بالموصل ، وأثناء وجوده بالموصل سمع عن خروج صلاح الدين الأيوبي من مصر متجهاً صوب دمشق ؛ ليقف بجوار ابن سيده الملك الصالح إسماعيل ويعيد الأمور إلى نصابها بعد اضطرابها عقب وفاة نور الدين محمود . وكان العماد قد تماثل للشفاء من مرضه فعزم على التوجه إلى الشام ، وبالفعل خرج من الموصل عام ٥٧٠هـ / ١١٧٤م متجهاً صوب صلاح الدين حيث اجتمع به في حمص ، ومنذ تلك اللحظة لم يفارق العماد الكاتب صلاح الدين الأيوبي لا في حله ولا ترحاله^(١) .

ازداد قرب العماد الكاتب من صلاح الدين الأيوبي وصار كاتبه ، واعتمد عليه صلاح الدين اعتماداً كبيراً ، « فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة ، وعلا قدره وطار صيته ، وكان إذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه وألقى إليه السلطان مقاليدته ، وركن إليه بأسراره ، فتقدم الأعيان ، وأشير إليه بالبتان»^(٢) .

غير أن الدنيا لا تدوم لأحد سوى لله سبحانه وتعالى ، فبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ، وما حدث من الصراع بين أولاده وأخوته وأبناء عمومته ، اختلت أحوال العماد فلزم بيته ، حيث أخذ في التأليف والتصنيف حتى وافته المنية يوم الاثنين أول رمضان عام ٥٩٧هـ / ١٢٠١م ، ودفن بدمشق في مقابر الصوفية خارج باب النصر ، بعد أن قضى حياة مليئة بالعمل والنشاط بين سراديب الحكم منذ أن التحق بالعمل في ديوان الإنشاء للسلطان نور الدين محمود حتى وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي^(٣) .

وقد مدحه معاصروه فقال عنه ابن الأثير الجزري^(٤) : « وكان كاتباً مفلحاً ، قادراً على

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ١٤٩ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٩ ص ١٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٥٢ .

(٤) الكامل ، ج ١٢ ص ١٧١ .

القول ، ، أما أبو شامة ^(١) فقال : « كان ميرزاً فى النظم والشعر عارفاً بالأدب ، حافظاً لدواوين العرب » .

أما العصر الذى عاش فيه العماد الكاتب فيعرف باسم عصر الحروب الصليبية ، وهو عصر ذو طابع خاص من الناحيتين السياسية والثقافية . فقد ولد العماد فى وقت كانت فيه الخلافة العباسية تمر بمرحلة من التدهور السياسى ، وكان السلاجقة هم الحكام الحقيقيين للدولة .

والواقع أن السلاجقة نفخوا روحاً جديدة فى جثمان الدولة العباسية المنهار ، ويعود ذلك لجهود ثلاثة من أعظم سلاطين السلاجقة هم طغرليک (٤٢٩ - ٤٥٥ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٦٣ م) ، وألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) ، وكان آخرهم السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) الذى كانت وفاته إيذاناً بانتهاء وتفكك قوة السلاجقة وتبع ذلك انهيار قوة الشرق الإسلامى ^(٢) .

فى تلك الأثناء أخذ الغرب الأوروبى فى تنظيم عدة حملات لغزو الشرق ، هى التى أطلقت عليها اسم الحروب الصليبية ، وذلك من أجل سلب خيرات الشرق والاستيلاء على أراضيه ، ونتيجة ذلك الانهيار والتفكك الذى كان يمر به الشرق نجح الفرنج فى تحقيق هدفهم واستطاعوا إنزال الهزائم بقوة السلاجقة المنهارة ، واستولوا على عدة مناطق بالشرق مؤسسين أربعة كيانات لهم هى : الزها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس ^(٣) .

واستمر هذا الوضع إلى أن ظهر على مسرح الأحداث أحد رموز الوحدة الإسلامية وهو عماد الدين الزنكى بن قسيم الدولة أقتنقر الحاجب (٥٢١ - ٥٤١ هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦ م) ^(٤) ، الذى نشأ وسط هذا الجو المشحون بالفرقة والانقسام ، وأيقن زنكى أن الحل الوحيد للخروج من هذه الكارثة هو توحيد الجبهة الإسلامية ^(٥) .

(١) الذبيل على الروضتين ، ص ٢٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ، ج ١ ص ٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ١ ص ٢٣ ، حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، ص ٩ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٦٣ وما بعدها .

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٢٤ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٥) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٢٧ .

وبالفعل أخذ عماد الدين الزنكي يجاهد من أجل توحيد الجبهة الإسلامية للمصمود أمام العدوان الصليبي ، واستطاع إنزال أول هزيمة ساحقة بالفرنج ، وسقطت في يده أول إمارة صليبية تأسيساً وهي إمارة الرّها عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م^(١) ، ليدق بذلك أول مسمار في نعش الصليبيين ، وذلك بعد أن بلغ العماد الكاتب العشرين من عمره وأصبح في زهرة شبابه .

وإذا كان زنكي قد قتل بعد استيلائه على الرّها بعامين (٥٤١هـ / ١١٤٦ م) ، فإن ابنه نور الدين محمود قام بأمر الجهاد ضد الصليبيين من بعده خير قيام ، واستطاع أن يعيد توحيد الجبهة الإسلامية^(٢) ، ويصمد أمام الحملة الصليبية الثانية^(٣) ، ثم أخذ في تصفية إمارة إنطاكية ولم يبق منها سوى حصون مهذمة^(٤) .

وهكذا استطاع نور الدين محمود تصفية الوجود الصليبي بشمال الشام ، ولم يبق أمامه سوى الصليبيين الموجودين بجنوب بلاد الشام (بيت المقدس - طرابلس) ، ولم يكن أمام نور الدين محمود إلا أن يوحد الجبهة الإسلامية بالجنوب حيث يضم إليه دمشق ثم مصر ، وبذلك يحصر الصليبيين بين ثِقَى الرّحى ، وبالفعل استطاع نور الدين ضم دمشق^(٥) ، ثم تبسم له الحظ نتيجة الخلافات التي سرت بين وزراء الخليفة الفاطمي الشيعي حاكم مصر ، وجاءته دعوة لإرسال جيوشه إلى مصر ، فلم يتردد نور الدين محمود وأرسل قائده أسد الدين شيركوه وبصحبته صلاح الدين الأيوبي ابن أخت شيركوه إلى مصر ، وبعد صراع استطاع شيركوه أن يتولى وزارة الخليفة العاضد الفاطمي عام ٥٦٤هـ /

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٠٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ص ١٢٣ .

(٣) نتيجة سقوط الرها جهز الغرب الأوربي حملة صليبية جديدة هي الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤١هـ / ١١٤٧ م ، التي تزعمها ملك فرنسا لويس السابع وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٢٩ وما بعدها .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٢٩٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥٨ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣١٨ .

١١٦٨ م ، وهو فى نفس الوقت قائد جيش نور الدين ^(١) ، ولكنه لم يستمر فى الوزارة طويلاً إذ توفى بعد خمسة وستين يوماً ^(٢) .

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة خلفاً لعمه ^(٣) ، ولم تلبث الخلافة الفاطمية نفسها أن سقطت ^(٤) ، وبذلك أصبح صلاح الدين الأيوبي طليق اليد فى مصر .

ولم يلبث أن دب نزاع خفى بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، ويعزو البعض سبب هذا النزاع وتلك الجفوة إلى غضب نور الدين من صلاح الدين ، حينما أرسل إلى الخليفة العباسي بشارة بسقوط الخلافة الفاطمية مباشرة متغاضياً عن نور الدين الذى هو سيده وصاحب مصر من الوجهة الشرعية ^(٥) .

ثم تابعت بعد ذلك شكوك كل فى صاحبه ، فصلاح الدين يخشى من نور الدين ، لذلك رفض الاجتماع به فى حصن الأكراد ، ثم إنه جمع أهل بيته ؛ ليستشيرهم فيما يفعل حينما نعى إلى سمعه أن نور الدين يستعد لقصده ^(٦) .

غير أن وفاة نور الدين محمود فى شوال سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤ م ، أتاحت لصلاح الدين الأيوبي فرصة تأسيس دولة تحمل اسمه وتصبح مصر هى قاعدته ^(٧) .

وفى بلاد الشام جلس الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود والبالغ من العمر إحدى عشرة سنة محل والده فى السلطنة ، مما أتاح الفرصة للطامعين من الأمراء أن

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٩ - ٣٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٧٣ .

(٤) سقطت الخلافة الفاطمية فى أول جمعة من شهر المحرم عام ٥٦٧هـ / ١١٧١ م ، وكان العاضد

آخر الخلفاء الفاطميين مريضاً فلم يعلم نبأ سقوط دولته ، وتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام .

[راجع : ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٠١] .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٤ ، حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٧٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢٣ .

(٧) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٧٥ .

يتلاعبوا بهذا الصبى ، وأتاح الفرصة أيضاً للصليبيين أن يسترجعوا ما فقدوه من أراضٍ (١) ، وقد استاء صلاح الدين كثيراً بعد سماعه بالفوضى والاضطرابات التي عمت مملكة نور الدين بعد وفاته ، كما غضب لما فعله الصليبيون بالبلدان الإسلامية وغاراتهم المتتالية عليها ، لذلك قرر التوجه إلى الشام ؛ لمعاقبة هؤلاء الأمراء الذين فزطوا فى دولة نور الدين ؛ وليضع حداً لهجمات الصليبيين على الممتلكات الإسلامية ؛ ولإعادة توحيد الجبهة الإسلامية (٢) .

وما أن وصل صلاح الدين إلى الشام حتى فتحت دمشق أبوابها له ، وبعد صراع مع الأمراء الطامعين ، استطاع صلاح الدين إعادة توحيد الجبهة الإسلامية تحت رايته ليحمل عبء الجهاد ضد الصليبيين (٣) .

وكانت معركة حطين هى أولى معارك صلاح الدين الحاسمة ضد الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ، حيث استطاع من خلالها تصفية الوجود الصليبي بجنوب الشام واستعادة بيت المقدس من الصليبيين ، مما دفع الغرب الأوروبى للدعوة إلى حملة صليبية جديدة ، هى التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الثالثة ، والتى تزعمها ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا هم : ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، والإمبراطور فريديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا (٤) .

وإذا كان فريديريك بربروسا قد لقي حتفه فى بداية هذه الحملة (٥) ، فإن كلاً من فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد قد أخذوا يعملان من أجل استعادة بيت المقدس ، غير أن فيليب أوغسطس فضل العودة إلى فرنسا ، بينما ظل ريتشارد فى بلاد الشام يتصارع مع صلاح الدين ، لكنه بعد أن أحس بعدم جدوى محاربة صلاح الدين فضل أن يعقد معه اتفاقية ، هى التى عرفت باسم صلح الرملة عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢ م ، ويعود أدراجه إلى أوروبا (٦) .

(١) حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٢ ، حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى ، ص ٧٨ .

(٣) حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى ، ص ٧٩ - ٨٣ .

(٤) حامد زيان : الإمبراطور فريديريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ، ص ١٠ - ١١ .

(٥) المرجع السابق : ص ٥٨ - ٥٩ .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٦٠ - ٨٦٥ .

وفى العام التالى (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ، توفى صلاح الدين الأيوبي وهو ابن سبعة وخمسين عاماً لتتقسم مملكته الواسعة بين أبنائه وأخوته وأبناء عمومته ^(١) ، وبعد رحيل صلاح الدين الأيوبي بثمان سنوات لحق به صاحبنا العماد الكاتب (عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) ، بعد أن عاش فترة من أخصب فترات التاريخ من النشاط السياسى والعسكرى والثقافى أيضاً .

ذلك أن العماد الكاتب عاصر فترة مزدهرة ثقافياً ، فالمعروف أن السلاجقة عملوا على تشجيع الحركة العلمية والأدبية فى دولتهم بخرسان وسائر البلاد التى خضعت لحكمهم ، وتعتبر المدارس من أهم منشآت السلاجقة ، وتأتى على رأسها المدرسة النظامية ببغداد ^(٢) ، كذلك يعتبر العصر الزنكى من العصور التى ازدهرت فيها العلوم والثقافة ، وقد جاء هذا الازدهار مصاحباً للحروب الصليبية وهو ما يدعو للمتعب ؛ فكيف تستقيم الحرب وعدم الاستقرار مع النمو والازدهار العلمى الذى يتطلب الهدوء والاستقرار ؟ .

وتكمن الإجابة فى أن كثيراً من الحكام اتخذوا من النشاط الأدبى والعلمى وسيلة لهم فى الحرب والسياسة ، وأهم مثل على ذلك ما كان عليه العماد الكاتب مع نور الدين محمود ؛ فقد روى العماد أن السلطان نور الدين محمود طلب منه يوماً أن ينشده بعض الأبيات فى معنى الجهاد فأنشد :

أقسمتُ بيوى الجهاد مالى أَرْبُ والزَّاحَةَ فى سِوَاهِ عِنْدِي تَعَبُ
إِلَّا بِالْجِدِّ لَأُيْنَئِلَ الطَّلَبُ والعِيشُ بِلا جِدِّ جِهَادٍ لَعِبُ

ويطلب نور الدين محمود من العماد مرة أخرى أن يصف له معركة دارت بينه وبين الصليبيين ، ويطلب مرة ثالثة أن يكتب على لسانه رسالة يبعث بها إلى بغداد ، يتحدث فيها عن جهاده ضد الصليبيين وما أصابهم من هزيمة وخذلان ، كذلك يطلب نور الدين محمود من أسامة بن منقذ الفارس والشاعر المعروف أن يرد بالشعر على الملك طلائع بن رزيق وزير الخليفة الفاطمى بمصر فى إحدى رسائله ^(٣) .

هكذا أصبح الأدب شعراً ونثراً أداة من أدوات الحرب والقتال ، وقد أدرك العماد الكاتب نفسه قوة قلمه وكثيراً ما مدح هذا القلم وقال عنه : إنه أقوى من السيف وأكثر أثراً

(١) عماد الدين الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٦٢٩ - ٦٣٦ .

(٢) نسبة إلى الوزير نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى .

(٣) أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٣٠ .

منه ، من ذلك الحوار الذى دار بينه وبين صلاح الدين إذ قال العماد الكاتب لصلاح الدين مازحاً : « ... وسلاح قلمى أخذُ وأجُدُ وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساکر الإسلامية إلا بقلمى ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها من جولمع كَلْبِي » (١) .

كذلك من الأسباب التى أدت إلى اهتمام بنو زنكى بالعلم والأدب ، أن بنى زنكى حملوا على عاتقهم محاربة المذهب الشيعى ببلاد الشام ونشر المذهب السنى ، وكان من المنتظر أن يقوم العلماء والأدباء بتلك المهمة ، وقد سار صلاح الدين الأيوبي على نفس هذه السياسة عندما أخذ فى محاربة المذهب الشيعى بمصر (٢) .

أما عن المدارس فيعتبر العصر الزنكى هو عصر ازدهارها ببلاد الشام (٣) ، وبطبيعة الحال يرجع إلى السلاجقة بداية إنشائها ببغداد ، حيث أنشأ الوزير نظام الملك أول مدرسة ببغداد وهى المدرسة النظامية عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م (٤) ، بعد أن كان التعليم يتم فى المساجد ، وهى المدرسة التى تعلم بها صاحبنا العماد الكاتب . ومنذ ذلك الحين توسع السلاجقة فى إنشاء المدارس فى أنحاء الدولة الإسلامية ، وقد سار عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود على نفس سياسة السلاجقة فى إنشاء المدارس ورعايتها ، كما تبعهم فى ذلك صلاح الدين الأيوبي .

ولم يقتصر الأمر على إنشاء المدارس ورعايتها ، وإنما اهتم بنو زنكى برعاية العلماء حيث كان نور الدين محمود يكرم العلماء ويعظمهم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ويستقدمهم من شتى البلاد (٥) ، « وكان مع عظمتهم إذا دخل عليه أحد العلماء يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه » (٦) ، وأجزل له العطاء ، وحينما أشار عليه أحد أصدقائه بقطع إدرات الفقهاء والقراء بدولته واستخدامها فى إعداد

(١) العماد الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القلمى ، ص ٦٥٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، التعمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٦٠٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٥ ، المقرئى : الذهب المسبوك ، ص ٦٧ ، محمد كرد على : خطط ، ج ٤ ص ٣٨ .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٤ ص ١٩٣ .

(٥) التعمى : الدارس ، ج ١ ص ٦٠٨ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٢٥٣ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

الجيش ؛ لمحاربة الصليبيين رفض هذا بشدة وقال : « إن هؤلاء [هم] الذين يدافعون عنا بسيف لانتل »^(١) .

وعلى هذا النحو كان عصر العماد الكاتب الأصفهاني عصرًا مليئًا بمختلف التيارات السياسية والثقافية ، مما أهله لأن يلعب دوراً كبيراً في هذا العصر في النواحي السياسية والثقافية .

وعلى الرغم من اشتغال العماد بأمور السياسة والعمل في ديوان الإنشاء ومصاحبة السلطان في حله وترحاله ، لكنه استطاع أن يؤلف عددًا من الكتب الهامة ، لعل أشهرها كتابه : « خريدة القصر وجريدة العصر » ، وهو كتاب كبير جمع فيه تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس الذين عاشوا في القرن السادس الهجري إلى عام ٥٧٢ هـ . كذلك له كتاب « البرق الشامي » يؤرخ فيه لحياته ورحلته مع الحياة وأخباره مع السلطان نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبي .

أما كتابه « الفتح القسبي في الفتح القدسي » فهو هذه الذخيرة التي تقدمها اليوم ، وتتناول أحداث السنوات التي تبدأ من عام ٥٨٣ هـ ، وهي السنة التي شهدت معركة حطين واستعادة بيت المقدس ، إلى أن يصل إلى بداية عام ٥٨٩ هـ ، تاريخ وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وما حدث من تقسيم مملكته بين أولاده و إخوته وأبناء عمومته . أي إنه يؤرخ لحوالي سبع سنوات من أهم سنوات التاريخ بصفة عامة ؛ لأن أحداث هذه الفترة كان لها آثار كبيرة على كل من الشرق والغرب جميعاً . ذلك أن معركة حطين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وما نتج عنها من استعادة صلاح الدين لبيت المقدس جعلت الغرب الأوروبي يحسب لصلاح الدين ألف حساب وجعلت اسمه يملأ الأرض شرقاً وغرباً .

ومن المفيد أن نذكر أن العماد الأصفهاني بدأ هذا الكتاب بعام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، على اعتبار أن هذا العام شهد معركة حطين واسترداد بيت المقدس واعتبره تاريخاً جديداً ، حيث سماها هجرة ثانية ، فيقول العماد : « وأنا أرخت بهجرة ثانية ، تشهد للهجرة الأولى ، بأن أمدّها بالقيامة مغذوق ، وبأن موعدھا الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممنوق ، وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٣٣ .

السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ...^(١) .

وأشار العماد الكاتب فى مقدمة كتابه إلى سبب تسميته بهذا الاسم فىقول : سميت (الفتح القدسى) تنيها على جلالته قدره ، وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضى الأجل الفاضل ، وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل ، فقال لى : سمه (الفتح القسّى فى الفتح القدسى) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته^(٢) . وعلى هذا النحو أخذ العماد برأى القاضى الفاضل وسماه بما أشار عليه به .

ولم ينس العماد أن يحيطنا علماً فى مقدمة كتابه بأنه توخى الدقة الكاملة فى تسجيل أحداث هذه الفترة ، وكيف سار على منهج الكتابة التاريخية الصحيحة التى يلتزم صاحبها بذكر الحقيقتى المجردة المتأكد من صدقها ، بعد التأكد من صدق رواة أحداثها فىقول : « وما شهدت الا بما شاهدته وشهدته ، وما عنيت إلا بإيراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة إلا على أسس ماتينته فينته ، وما توخيت إلا الصدق ، وما انتهيت إلا بالحق ، ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت إلا ما يرضى الله ولا يسخط^(٣) .

وقد ساعد العماد الكاتب على أن يلم بدقائق الأمور كونه قريب الصلة من دوائر الحكم والسلطان ، لذلك جاء هذا السفر حاوياً قدراً كبيراً من المعلومات التى لا يعرفها غيره ، والتى رواها لنا العماد بعد أن تأكد من صدقها وصحتها كما سبق أن أشار إلى ذلك ، لذلك يعتبر كتاب الفتح القسّى وثيقة هامة لكاتب عاصر وشارك فى أحداث هذه الفترة .

تناول العماد فى هذا الكتاب الأحداث التى أدت إلى معركة حطين ، عندما تأزم الموقف بين صلاح الدين وبين القوى الصليبية خاصة ملك بيت المقدس ، ذلك الموقف الذى انتهى بإعلان الحرب ضد الصليبيين ، واستنفاذ همم كافة الدول الإسلامية للاشتراك فى الحرب المقبلة ضدهم ، وفى ذلك يقول العماد : « كتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر الغزو ، من الحضرة والبدو^(٤) .

(١) العماد الأصفهاني : الفتح القسّى ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القسّى ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) العماد الأصفهاني : الفتح القسّى ، ص ٥٨ .

(٤) العماد الأصفهاني : الفتح القسّى ، ص ٥٨ .

ثم تحدث العماد بعد ذلك عن أحداث معركة حطين وهزيمة الصليبيين ، ووقوع ملك بيت المقدس وبقية أمراء الفرنج أسرى فى يد صلاح الدين ، وما تلا ذلك من أحداث من فتح بقية بلدان الشام التى استولى عليها الفرنج .

كذلك تناول العماد أهم نتائج معركة حطين ، خاصة قيام الغرب الأوروبى بتجهيز حملة جديدة من أجل ضرب صلاح الدين واستعادة بيت المقدس ، وهى المعروفة باسم « الحملة الصليبية الثالثة » ، وشرح العماد أحداث هذه الحملة بالتفصيل وما انتهى إليه أمرها ، من فشل وعقد هدنة بين صلاح الدين والصليبيين ، وهى المعروفة باسم صلح الرملة .

ثم ينتقل العماد إلى أهم أحداث عام ٥٨٩ هـ ، وما حدث فى بدايته من وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي (صفر ٥٨٩ هـ) ، وما حدث من تقسيم مملكته بين أولاده وإخوته وأبناء عمومته .

وينهى العماد كتابه بذكر مناقب السلطان صلاح الدين الأيوبي وأهم ما تميز به رحمه الله .

أما أسلوب العماد فى الكتابة فكان أسلوب عصره ، وهو ما كان يسمى باسم « مذهب التصنُّع » ، وهو الإتيان بالمحسنات من سجع وجناس وطباق وغير ذلك بصورة مفرطة ^(١) ، وإن كان هذا الأسلوب يؤدى إلى بعض الصعوبات أمام المستفيدين من هذا السفر .

وصفوة القول أننا أمام ذخيرة من أهم ذخائر تراثنا الإسلامى ، كاتبها علم فى صناعته ، قريب من دوائر الحكم والسلطان ، على دراية بخفايا الأمور ، تناول أحداث فترة محددة (سبع سنوات) شرح خلالها أدق التفاصيل التى من الصعب على غيره الإحاطة بها ؛ لذلك جاء مؤلفه ذا قيمة أدبية عالية وأهمية تاريخية لا مثيل لها .

أ.د. حامد زَيَّان غانم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٣٦٤ - ٣٧٢ .

الفتح القسري
في
الفتح القسري

للعقاد الكاتب الأصفهاني
٥١٩ - ٥٩٧ هـ

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	صفحة
المحراط	١٥
مقدمة المحقق	١٧
رموز التسخ	٣٩
مقدمة المؤلف	٤١
دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسائة	٥٨
ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف	٦٧
ذكر دخول صلاح الدين بالسكر إلى ديار الفرنج	٦٩
ذكر فتح طبرية	٧٦
ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف	٨٤
ذكر فتح حصن طبرية	٨٥
ذكر ما اعتده في الأسارى الداوية والاصتارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطاهم	٨٦
ذكر فتح صكاء	٨٨
ذكر فتح عدة من البلاد	٩٢
فتح الناصرة وصفورية	٩٣
فتح قيسارية	٩٤
فتح نابلس	٩٥
فتح القولة وغيرها	٩٧
فتح تبتين	٩٩
فتح صيداء	١٠٢
فتح بيروت	١٠٤
فتح جبيل	١٠٨
ذكر هلاك القومص ودخول المركيس إلى صوز	١٠٩
ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمائل التي يأتي ذكرها	١١٢

الموضوع	الصفحة
فتح بيت الله المقدس	١١٦
ذكر كنيسة قمامة	١١٨
وصف البيت المقدس	١٢٢
ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى رجب	١٣٠
ذكر حال في المود إلى الخليفة	١٣٢
ذكر ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس	١٣٥
ذكر ما أظهره السلطان في القدس من الحسنات وعماه من السيئات	١٣٧
وصف الصخرة المظلمة عمرها الله	١٤١
ذكر حراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام وتعطيل الكنائس وإنشاء المدارس ومما كتبه إلى الديوان العزيز بمجده الله لبشارة بفتح القدس مع الرسول غياث الدين الشهرزوري	١٤٥
من رسالة	١٤٧
عاد الحديث إلى ما جرى بعد فتح القدس	١٥٠
ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور	١٥٣
ذكر ما تم على الأسطول	١٦٠
ذكر خروج الفرنج للقتال	١٦٤
ذكر ما دبروه من الرأي وما رأوه من التدبير	١٦٨
ذكر فتح حصن هونين	١٧٠
ذكر الحادثة التي تمت على محمد أخى جاولى حتى استشهد هو وأصحابه	١٧٧
ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكاه بعد عودته من صدور	١٨٠
ذكر رسل ورداوا في هذا التاريخ	١٨١
ذكر وصول أخى تاج الدين أبى بكر حامد من دار الخلافة للرسالة في المنب على إحداث ثقلب	
الخ و ذكر السبب في ذلك	١٨٣
وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفة	١٨٨
نسخة كتاب جامع لفتح القدس الأيمن أنشأها إلى سيف الاسلام أخى السلطان بايخن ودخلت	
ودخلت ستة أربع وثمانين وخسمائة	٢٠٣
ذكر حال الكرك من أول الفتح	٢٠٥
ذكر ما دبره في عمارة عكاه	٢٠٨
ذكر وصول بهاء الدين قراقرش لتولى عمارة عكاه	٢٠٩
ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسلان وغيره من الرسل	٢١١

- ٢١٢ ووصل في تلك المدة أيضاً الصلاح قتلغ ابيه
- ٢١٤ ذكر رحيل السلطان صوب دمشق
- ٢١٦ ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق
- ٢١٩ ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به
- ٢٣٣ ذكر فتح جبلة
- ٢٣٥ ذكر فتح اللاذقية
- ٢٤١ ذكر فتح صهيون
- ٢٤٤ ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل
- ٢٤٥ ذكر فتح حصن يكاس والشفر
- ٢٤٨ ذكر فتح حصن يرزيه
- ٢٥٢ وفيها كتبت
- ٢٥٥ ذكر فتح حصن دربساك
- ٢٥٧ ذكر فتح حصن يفراس
- ٢٦٠ ذكر عقد الهدنة مع انطاكية
- ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودودين زنكي وعاكر البلاد وعود السلطان إلى دمشق
- ٢٦٢ يتنجح المسراد
- ٢٦٦ ذكر فتح الكرك وحصونه
- ٢٦٦ وكتبت عن السلطان في بعض البشائر
- ٢٦٨ ذكر محاصرة صغد وفتحها وادراك السمي فيه ونجحه
- ٢٧٠ ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير
- ٢٧٢ ذكر حصار كوكب وفتحها
- ٢٧٦ ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسائة
- ذكر وصول رسول دار الخلافة والخليفة لولي العهد عماد الدين أبي نصر محمد بن الإمام الناصر
- ٢٧٨ لدين الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين
- ٢٨١ فصل مما كتبت في للمنى عن السلطان إلى الديوان العزيز مع الرسول
- ٢٨٥ ذكر خروج السلطان من دمشق لأجل شقيف أرنون وما جرى له مع صاحبه
- ٢٨٩ ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الأحوال
- ٢٩٣ ذكر ما تم من استشهاده من أمراء العرب
- ٢٩٦ ذكر مسير الفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالهم إليها

الموضوع	الصفحة
ذكر وقعة تمت يوم الأربعاء سادس شعبان	٣٠٤
ذكر وفاة حسام الدين طمان	٣٠٥
ذكر وقعة للمرب أريت لنا بالأرب	٣٠٦
ومن نوادر ما جرى	٣٠٦
ومن الاتفاقات النادرة	٣٠٧
ذكر الواقعة الكبرى	٣٠٨
ذكر حصة النصره بمد صحة الكسرة وكيف أدال الله الاسلام وأذال الكفر بتلك الكرة ...	٣١١
ذكر مكاتبة أنشأتها إلى بعض الأطراف بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الألطاف ...	٣١٣
ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر فصد عن قصد المباكرة لمناجزة أهل الكفر ...	٣١٨
ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث وتجدد للهمم من البواعث	٣٢٦
ذكر رأى راتب عن النظر في الغاي غائب اسفر عن داء دائب وابان عن غرارة بفرائب ...	٣٢٢
ذكر الرحيل إلى الخروبة عند خيم الأتقال المضروبة	٣٢٤
ذكر مجلس عقد ورأى عليه اعتمد وصواب اقتقد وقد فقد	٣٢٧
ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حذب من الخلل	٣٢٨
ذكر وصول ملك الألمان	٣٣٠
ذكر رسالة دار الخلافة	٣٣٢
ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخى السلطان والاستظهار بجموعه والاجتماع يظهره	
لنصرة الإيمان	٣٣٥
ذكر فصل الديوان إلى العزيز اشتمل على مجارى الأحوال	٣٣٧
ذكر وصول الأسطول المبصور من مصر	٣٤٠
ذكر فصول انشأتها فيها منها فصل	٣٤٢
فصل من كتاب	٣٤٣
فصل من مكاتبة أخرى	٣٤٤
ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والنخائر والعدد	٣٤٥
ذكر حال نساء الترنج	٣٤٧
ذكر ما أهدها عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن اقتنقر صاحب الموصل من النقط	
الأبيض والرياح والتراس	٣٥٠
وكتبتنا في شكره	٣٥٠
ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده	٣٥٢

- ٣٥٢ فكتب إليه السلطان من مكاتبة
- ٣٥٢ وفي آخر هذه السنة نذب السلطان الرسل إلى الأقطار والأمصار
- ٣٥٤ ذكر وصول سلطان المعجم
- ٣٥٥ وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى المكارى
- ٣٥٥ وفاة شرف الدين عبد الله بن محمد ابن أبي عسرون
- ٣٥٥ وفاة الأمير عز الدين موسك
- ٣٥٦ ودخلت سنة ست وثمانين
- ٣٥٧ ذكر وقعة الرملة
- ٣٥٨ ومن نوادر هذه الوقعة
- ٣٥٩ ذكر فتح شقيف أرنون
- ٣٦٠ ذكر حال عكاك ودخول العوامين إليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها
- ٣٦٢ ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار بالانتهاء
- ٣٦٥ ذكر وصول رسول دار الخلافة مع ضياء الدين الشهرزورى في جواب رسالته
- ٣٦٧ ذكر مقاتلة الفرنج عكاك والابراج والإعجاز بها والازعاج
- ٣٦٧ واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين صاحب دارا
- ٣٦٨ ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين عوام يخبر بقوة المشركين المحاصرين
- ٣٦٩ وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن على كوجك
- ٣٧٠ ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان ومن كان في طباقها
- ٣٧٣ ذكر فصول انشائها من كتب البشائر بالنار
- ٣٧٤ فصل
- ٣٧٥ فصل
- ٣٧٦ فصل إلى الديوان العزيز
- ٣٧٧ فصل من كتاب إلى اليمن في وصف الأبراج واحتراقها
- ٣٧٩ فصل
- ٣٨٠ ذكر تاريخ وصول الأكابر في هذه السنة واولهم عماد الدين زنكى
- ٣٨١ ثم وصل بعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة
- ٣٨١ ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل
- ٣٨٣ فصل من كتاب إلى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده
- ٣٨٣ ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب اربيل

الصفحة	الموضوع
٣٨٥	ذكر وصول الأسطول من مصر
٣٨٦	ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها الصورة وتكشف القضية المستورة ...
٣٨٧	فصل آخر
٣٨٨	فصل
٣٨٩	ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله
٣٩٥	عاد الحديث إلى ملك الألمان
٣٩٧	وكتبت إلى الديوان فصلا يخبر ملك الألمان عند ارباب الارجاب به
٣٩٩	فصل فيه في جواب أمير
٤٠٠	فصل من كتاب الاستتار
٤٠١	فصل من كتاب
٤٠٢	فصل فيه
٤٠٣	ذكر الوقعة المادية
٤٠٨	فصل في ذكر حالم
٤٠٩	فصل فيه
٤١٠	فصل
٤١١	فصل
٤١٢	وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة وود في عصره نجاب من حلب ... ذكرا ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكند هرى بالمال والرياش وما اعتمد السلطان
٤١٣	من الاحتياط اشفاقا من التصريط والانفراط
٤١٥	ذكر حريق المنجنيقات
٤١٧	ذكر وصول بطسة بيروت
٤١٩	ذكر وصول بطس الفلة من مصر إلى عكاه
٤٢١	فصل من كتاب إلى سيف الإسلام بهذا المعنى
٤٢٣	ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الآخر من رجب
٤٢٤	ذكر وصول ولد ملك الألمان الذي قام مقام أبيه إلى الفرنج بمكاه
٤٢٧	ذكر برج الذبان
٤٢٩	فصل مشيع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب إلى سيف الإسلام بائمين
٤٣١	فصل في المعنى
٤٣٢	ذكر الكيش وسريته بعد تمب العدو في إحكامه وتسوية طريقه
	وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت سواكر الشمال يتقدمهم الملك الظاهر صاحب حلب

- ٤٣٤ وقدم الملك الأحمَد عبد الدين جهرام شاه
- ٤٣٤ واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد
- ٤٣٦ ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت
- ٤٣٦ وفي هذا التاريخ ألقَت الريح إلى ساحل الزيب بطستين
- ٤٣٧ وفي عشية الاثنين تاسع عشر رحلنا إلى منزل يعرف بشفرعم
- ٤٣٨ ذكر وفاة سيف الدين صاحب أربيل
- ٤٣٩ وغلت الأسعار عند الفرنج
- ٤٤١ ذكر نوبة رأس الماء وغروجهم بعزم القاء
- ٤٤٣ وسار الفرنج شرقاً إلى نهر
- ٤٤٦ فصل من كتاب في المعنى
- ٤٤٨ ذكر وقعة الكمين
- ٤٥١ فصل من كتاب يشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال
- ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من السواكر إلى البلاد على
- ٤٥٣ رسم الاستراحة والاستعداد
- ٤٥٥ فصل من كتاب إلى صاحب الموصل عند عود ولده إليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين
- ٤٥٦ ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة
- ٤٥٨ وبتاريخ يوم الاثنين ثانی ذی الحجة وصلت من مصر بالقلعة بطس سبع
- ٤٥٩ وفي ليلة السبت مابح ذی الحجة وقمت قطعة عظيمة من سور عكاه
- ٤٥٩ وفي ثاني عشر ذی الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف
- ٤٦٠ وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذی الحجة عاد المستأمنون من الفرنج
- ٤٦١ وفي الرابع والعشرين من ذی الحجة أخذ من الفرنج بركو سان
- ٤٦١ وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضاً بركوس
- ٤٦٢ وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل
- ٤٦٣ ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة
- ٤٦٣ وخرج أسطولنا في هذه السنة ليكبس شوانى الفرنج
- ٤٦٤ واستشهد أيضاً في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدى
- ٤٦٤ واستشهد في تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضى ابن قريش الكاتب
- ٤٦٥ ودخلت سنة سبع وثمانين
- ٤٦٧ ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر الغزائم من الجوامع

- ٤٦٨ ... وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد أسد الدين شيركوه
- ٤٦٩ ... وفي أول ليلة من شهر ربيع الأول خرج أصحابنا من البلد على العدو
- ٤٦٩ ... وفي الأحد ثالث هذا الشهر شهر سلاح الحرب أهل الكفر
- ٤٧٠ ... ووصل إليه (السلطان) من بيروت خمسة وأربعين أسيراً من الفرنج
- ٤٧٢ ... ذكر جماعة وصلوا من عسكر الإسلام وأولم علم الدين سليمان بن جندر
- ٤٧٢ ... وقدم في ذلك التاريخ بقدمه الملك الأعمد مجد الدين بهرام شاه
- ٤٧٣ ... وقدم بدر الدين مودود إلى دمشق بعد ذلك
- ٤٧٤ ... ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج إلى عكاه واسمه فيليب
- ٤٧٥ ... نادرة
- ٤٧٦ ... خبر فادرة في غنيمة وأفرة
- ٤٧٦ ... وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية ... النج
- ٤٧٧ ... خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت إلى قبرس واستيلائه عليها
- ٤٧٨ ... وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر وصلت من ثغر بيروت كتب ميشرة بالنجح
- ٤٧٨ ... وفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف العدو إلى البلد
- ٤٨٠ ... قصة الرضيع
- ٤٨٢ ... ذكر انتقال السلطان إلى تل الميضية
- ٤٨٤ ... ذكر وصول ملك الانكتير
- ٤٨٦ ... ذكر غرق البطسة
- ٤٨٧ ... ذكر حريق الدبابة
- ٤٨٨ ... ذكر وقعات في هذا النهر
- ٤٩٠ ... وقعة أخرى
- ٤٩١ ... وقعة أخرى
- ٤٩٣ ... وقعة أخرى
- ٤٩٤ ... ذكر المركيس ومفارقه القوم ووصف السبب في ذلك
- ٤٩٥ ... ذكر من وصل في هذا التاريخ من الساكر الإسلامية وأولم عسكر سبجار
- ٤٩٥ ... وفي يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة وصل جماعة من صكر مصر والقاهرة
- ٤٩٥ ... وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل
- ٤٩٦ ... وفي يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة وردت من مصر كتبية ثانية
- ٤٩٧ ... ذكر ضعف البلد

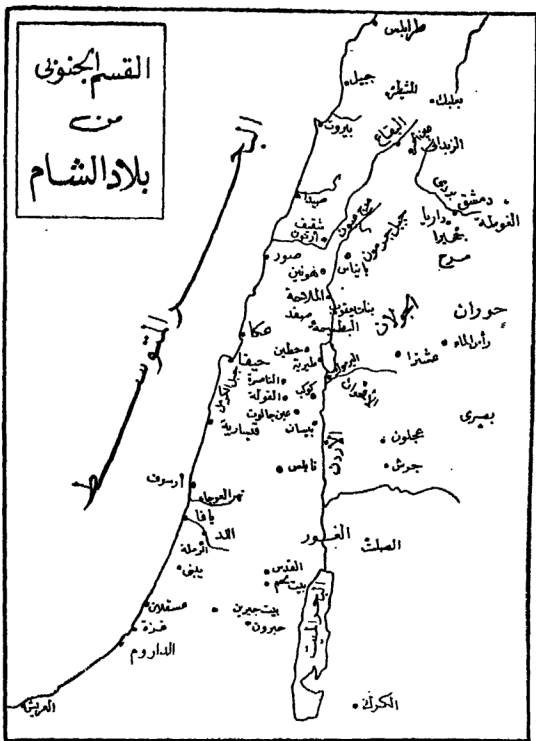
- فصل من كتاب إلى صاحب الموصل في شكر بلده ووصف الحال في ضعف البلد ... ٤٩٨
- فصل في وصف عسكر عماد الدين ... ٤٩٩
- فصل في الاستنفار ... ٥٠٠
- ذكر خروج رسل الفرنج ... ٥٠١
- ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر ... ٥٠٣
- وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة ... ٥٠٤
- ذكر خروج سيف الدين على المشطوب إلى ملك الافرنسيس ... ٥٠٥
- ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد ... ٥٠٦
- فصل من كتاب إلى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال ... ٥٠٧
- ذكر ما جرى من الحال ... ٥٠٨
- ذكر جماعة من العسكرية وصلوا ... ٥١١
- ذكر ما طلبه الفرنج في المصالحة على البلد ... ٥١٢
- ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها ... ٥١٣
- وأنشأت في استيلاء الفرنج على عكا هذه الرسالة وسيرت بها كتابا ... ٥١٤
- فصل من كتاب إلى قطب الدين بن نور الدين بن قري أرسلان ... ٥٢٠
- ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من أربل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال
الجارية فيها ... ٥٢١
- ذكر لطف من الله في حق خني ... ٥٢٥
- ذكر ما جرت عليه بعد استيلاء الفرنج على عكا من الوقائع ... ٥٢٦
- وفي يوم الجمعة ثامن من رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقررة ... ٥٢٦
- ذكر غدر ملك الانكثير وقتل المسلمين المأخوذين بعكا ... ٥٢٨
- وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها . . الخ ... ٥٢٨
- ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا بلقائهم ... ٥٣١
- فصل من كتاب إلى مظفر الدين بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا إلى هذه الناية لاستدعائه ... ٥٣٥
- وقمة قيسارية ... ٥٣٧
- مقتل اياز الطويل ... ٥٣٩
- وقمة لمر الدين بن المقدم ... ٥٤١
- ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكثير ... ٥٤٢
- وقمة أرسوف ... ٥٤٣
- فصل من كتاب السلطان إلى الديوان العزيز يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل
من عكا ... ٥٤٦

- ٥٤٩ ... ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج إلى يافا
- ٥٥٠ ... ذكر خراب عسقلان
- ٥٥٢ ... وفي يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وصل صاحب ملطية
- ٥٥٢ ... وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكثير في خياله متكررا
- ٥٥٢ ... وجرت أيضاً يوم الجمعة ثاني عشر الشهر حرب بين البركية وأهل الكفر
- ٥٥٣ ... فصل من كتاب إلى الديوان العزيز وصف مطولة الحروب والجراح وقناه الخيل والعدد والسلاح
- ٥٥٥ ... ذكر ما تجدد ملك الانكثير من المراسلة والرغبة في المواصلة
- ٥٥٧ ... وفي يوم العيد وهو الثلاثاء أعد السلطان من الليل خلع الأكابر
- ٥٥٨ ... ذكر نزول السلطان جريد بالرملة ليقرب من العدو ومواقفه له في كل يوم
- ٥٥٩ ... ذكر وقعة الكمين
- ٥٦٠ ... ذكر اجتماع العادل بملك الانكثير
- ٥٦٠ ... وفي يوم الأحد سابع عشر شوال عاد السلطان إلى الخيم بالنترون
- ٥٦٠ ... وفي يوم الخميس سبتهل ذي القعدة سار ابن قليج أرسلان
- ٥٦١ ... ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذي القعدة
- ٥٦٢ ... ذكر الرحيل إلى القدس
- ٥٦٢ ... وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين أبو الهيثم من مصر
- ٥٦٣ ... يوم عيد الأضحى بالقدس
- ٥٦٤ ... وقصة
- ٥٦٥ ... ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سورته وإعادة رونقه
- ٥٦٦ ... ذكر من توفى من الأكابر والمروفين في هذه السنة
- ٥٦٦ ... وفاة تقي الدين
- ٥٧١ ... وتوفى في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر لاجين ابن أخت السلطان
- ٥٧١ ... وتوفى في هذه السنة علم الدين سليمان ابن جنتر
- ٥٧٢ ... وفي هذه السنة فلك ياتايك مظفر الدين قز أرسلان بن ايلدكر في همدان
- ٥٧٦ ... وتوفى في هذه السنة بدمشق من المروفين من أصحاب السلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القبايض
- ٥٧٦ ... وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفى الحكيم الموفق بن مطران
- ٥٧٧ ... وفي آخر هذه السنة توفى الفقيه تيم الدين الخيوشاني بمصر
- ٥٧٨ ... فصل كتب إلى بعض الأكابر في الشغول إلى القدس
- ٥٧٩ ... فصل في شكر صاحب الموصل على إنقاذ الحصانين بحفر الخندق

- وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجفي بولاية القدس ٥٧٩
- ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ٥٨١
- ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة ٥٨٣
- وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة ٥٨٣
- ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت ٥٨٥
- وفي يوم الثلاثاء ثامن صفر أغارت المرية وفيها جرديك على ظاهر عسقلان ٥٨٥
- سرية فارس الدين ميمون القصرى ٥٨٦
- ذكر خروج سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر ٥٨٧
- تكتة ٥٨٨
- هلاك المركيس بصور ٥٨٩
- ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم ٥٩١
- ذكر كيسة الفرنج عسكر مصر الواصل ٥٩٣
- ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول ٥٩٥
- ذكر رحيل ملك الانكثير صوب عكاه مظهراً أنه على قصد ثغر بيروت ٥٩٧
- ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وتحتها ٥٩٨
- فصل في وصف الحال من الكتاب إلى الديوان العزيز ٦٠١
- ذكر الهدنة العامة ٦٠٣
- فصل من كتاب إلى الديوان العزيز في شرح نوية يافا ثم انقضاء الأمر إلى عقد الهدنة ٦٠٦
- ذكر ما جرى بعد الصلح ٦١٠
- ذكر ما عزم عليه السلطان ٦١١
- ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون ٦١٣
- ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول ييموند الايرنس صاحب انطاكية عليه والاستجاره به وذكر أسامة ٦١٦
- ذكر وصول الايرنس ييمند ودخوله على السلطان ٦١٨
- ذكر وصول السلطان إلى دمشق ٦١٩
- وفي هذا الشهر (شوال) خلص بهاء الدين قراقرش من الأسر وخرجت السنة ٦٢٠
- ٦٢٣ ومن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج أرسلان
- ٦٢٣ ومن توفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفرائش

٦٢٣ ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة ...
٦٢٧ ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق ...
٦٢٩ ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده ...
٦٣٠ ذكر من تولى ممالكه بعده من أهله ...
٦٣٢ ذكر دمشق وما جرى معها ومن تولاها ...
٦٣٤ ذكر حلب وما جرى معها ...
٦٣٦ ذكر الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب أخى السلطان وما جرى له بعد وفاة أخيه ...
٦٣٧ ذكر أهل الشام وما قدر الله لهم من الشتات ...
٦٣٧ وأول بادى بالخروج متولى مارددين ...
٦٣٩ ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل ...
٦٤٠ فصل فى المعنى أنشأته إلى الديوان المزيز فى آخر رجب عن الملك الأفضل ...
٦٤٤ ذكر سيف الإسلام باليمن ...
٦٤٥ وهذا كتاب يشتمل على سيرته (السلطان) ...
 ذكر ما اقترضه الأفضل من خدمة دار الخلافة المحظمة وافتقاده رسوله بمدة والده مع هدايا
٦٥٠ وتحف سنايا ...
٦٥١ فصل من الكتاب إلى الديوان المزيز ...
٦٥٦ ذكر مناقب السلطان رحمه الله ...
٦٦٧ فهرس الأعلام ...
٦٧٩ فهرس البلدان ...

القسم الجنوبي
من
بلاد الشام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

لله تعالى الحمد والمنة، وبه العون والقوة ، ومنه الفضل والنعمة . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير قدوة للناس في الخلق والعمل ، وللإنسانية إلى يوم الدين أسمى مثل ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

ويعد ...

في كل جيل من الأجيال ، أو عصر من العصور ، تبرز شخصيات في الوجود يجعلها الله - سبحانه وتعالى - التاريخ الحي لزمانها ، والتزوع الدافع للحياة فيه ، تنفخ فيه من روحها ، وتصنع أحداثه ، وتسطر بأعمالها المجيدة صفحاته .

صلاح الدين في التاريخ :

ولقد كان ما تجرى به الأقلام على الصفحات ، وما تحفل به المؤلفات في تراجم الأشخاص ، أبطالا كانوا أو علماء أو مفكرين ، محببا إلى نفوس القارئ - يقبلون عليه ويؤثرونه على ما سواه . ولهذا الحب وذلك الاقبال « أسباب نفسية وفنية ، إذ هي مرايا تراءى فيها صور أشخاص صانعي التاريخ ومحركي الحياة » (١) ، وأمثلة عليا تتطلع إليها أنظار المبدعين من الأجيال التالية لهم ، ومشاعل يهتدى بها في ظلمات الحياة حينما تنفرق السبل بالسائر في طريقها .

ومن السير التي أثار اهتمام الناس في حياة صاحبها ، وستظل هكذا عبر القرون والأجيال « سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب » ذلك البطل السرى المجاهد ، الذي يستوقف النظر في تاريخ الحروب الصليبية .

(١) مالك تجارب حياة للاستاذ أمين الحول .

وحينما أذكر الحروب الصليبية ، لا أريد أن أتناولها بالوصف التفصيلي وذكر الأسباب التي دفعت إليها ..و.. الخ ، فقد كثر الحديث فيها وتناولها بذلك كثير من الكتاب من قبل ، وإنما أريد أن أبين الدور الذي لعبته القيادة الحكيمة المخلصة ، والتكتل الشعبي الذي التف حولها ، تدفعه وتسانده يقظة واعية . أثمرت تلك الانتصارات الساحقة التي أحرزها أبطال ثلاثة حملوا لواء الفكرتين وعملوا لهما مخلصين لله تعالى معتمدين به ، تحوطهم قلوب الشعب المؤمنة ، وتعمل معهم لبلوغ هدف مشترك ، ألا وهو طرد العدو المستعمر ، واستعادة الأجزاء السليبية من الوطن العربي .

ضعف في الشرق يؤدي إلى كارثة :

يحدثنا التاريخ بأن الشرق الاسلامي شقى منذ القرن الثالث الهجري بالفرقة والانقسام والتطاحن بين أمرائه وحكامه ، ثم عمته يقظة عامة على يد السلاجقة بلغت أوجها على يد « ملكشاه » ثم آذن موته ٤٨٥ هـ - ١٠٩٢ م بعودة الفرقة والشحناء ثانية إليه ، وزاد الطين بلة ذلك الصراع الذي كان بين خلافتين ضعيفتين متهاويتين ، سنية في بغداد وشيعية في مصر .

فالأمراء والخلفاء يتناحرون ويتطاحنون ، والشعوب في العراق والشام ومصر تكتوى بنار هذه الفرقة وذلك الصراع .

أدت هذه الحالة إلى استقرار الغزاة الصليبيين في إماراتهم الأولى التي أقاموا صروحها في « الرها » و« أنطاكية » و« بيت المقدس » و« طرابلس » بعد أن ارتكبوا من الحماقات الحربية ، وسفك الدماء بلا حساب ، وقتل الأبرياء والضعفاء ، وألوان التخريب والتدمير والقتل ، في أنطاكية ومعة النعمان وبيت المقدس ، ما تقشعر من هوله الأبدان ، وماسيظل سبة في تاريخهم في كل آن وزمان .

خير توالد من شر :

وإذا جاز أن نقول : ان من الشر خيرا . فقد كانت هذه الفظاعات التي ارتكبت ، وهذه الشدائد التي صبتها المستعمر على بلاد الشرق الاسلامي وشعوبه - ليقاظا له ولها من رقدته التي طال أمدها ، وصحوة له من سباته

العميق ، ومساعدنا كبيرا على نبذ عوامل الفرقة والانقسام والتشتت ، وعونا على ظهور فكرتي القيادة الموحدة والتكتل الشعبي المتمسك باليقظة والوعى لبلوغ هدف مشترك واحد .

برزت الفكرتان في أول الأمر في صورة « غزوات جهادية ضد الكفار » يقوم بها الخليفة العباسي تارة ، والسلطان السلجوقي أخرى ، أو بعض من الأمراء في العالم الإسلامي - لا في صورة حرب منظمة موجّهة تحت قيادة واحدة لوحدة اسلامية شعبية متماسكة . ولم تكن هذه الغزوات إلا جهوداً ضائعة - أمام عدو متشبث قوى عنيد - يزول أثرها بزوال وقتها .

دعت هذه الحالة الرأي العام إلى التفكير في الأمر ، فلا بد لبلوغ النصر على العدو وتدميره وطرده ؛ من قيادة واحدة لوحدة شعبية دافعة .

فكرنا القيادة الموحدة والوحدة الشعبية نخرجان إلى الحيز العملي :

وشاء الحق جل وعلا أن يمن على الذين استضعفوا في الشرق وبلادهم ويجعلهم أئمة ويلهمهم من بعد خوفهم أمناً ، ومن بعد ظلمهم وفرقتهم عزاً وقوة ، فحمل لواء الأمر رجال ثلاثة ، اتسموا بصلابة العود ، وصعوبة المراس ، في صراع العدو ومنازلته .

كان أول من فطن إلى الأمر وهب يعمل نه في عزم وثبات ، أمير الموصل « عماد الدين زنكي » ، إذ سرعان ما أصبح الشخصية المرموقة التي التف حولها الشعب بعد أن كون له ملكاً واسعاً بين الجزيرة العراقية والشام فقد أخضع « حلب » و « حماة » و « حمص » و « بعلبك » وأقام في سورية الداخلية دولة قوية البنيان يحميها جيش قوى وتصرف أمورها إدارة منظمة يسيرها رجال أكفاء ، ثم اندفع إلى معقل الصليبيين الأول في « الرها » و « سروج » ، فزلزل أركانه ، وأسقطه سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م ، وظل يوجه ضرباته السديدة القاصمة إليهم حتى فارق الدنيا ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م مهددا لابنه وخلفه الطريق ليضرب الضربة الثانية ضد العدو الجاثم على صدر البلاد .

آمن « نورالدين محمود » الملقب بالشهيد - ذلك المجاهد التمي المخلص -

بأن رضاء الله تعالى لا يتم إلا بالجهاد في سبيله - ضد عدو البلاد وتحقيق السياسة التي بدأها أبوه من قبل ، فاشترى الآخرة بالحياة الدنيا ، لا يهمه مطامع شخصية ، ولا مكاسب مادية ، وآثر الوحدة والتكامل - ضد العدو المشترك - على القرقة والتنازع ، وضرب لذلك مثلا بتسامحه - مع القدرة - في استرداد « بعلبك » من أمير دمشق. ذلك الذي كان قد اقتنصها عقب وفاة « عماد الدين زنكي » .

وافتح عهده بضرية سديدة وجهها إلى الصليبيين استرد بها الرها وكانوا قد استعادوها عقب وفاة زنكي ، ثم قصم ظهري امبراطور ألمانيا وملك فرنسا أمام أسوار دمشق فعادا وجنودهما إلى بلادهم خائبين مدحورين . وفتحت « دمشق » أبوابها له مرحبة سنة ٥٤٩ هـ فنقل عاصمة ملكه إليها ، وازداد بهذا الفتح المبين تدعيم الجبهة الداخلية ، كما ازداد التكامل الشعبي تحت رايته ، وسارت جيوشه تحرسها عناية الله سبحانه تلك صروح الصليبية الغاشمة وجنودها في الشام ، وسرت روح اليقظة والتكامل والوحدة القيادية في ربوع العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه .

ثم تابعت الأحداث في مصر ، وشاء الله سبحانه أن تتضافر الظروف المختلفة على شد أزره وتقوية مركزه ، وتوحيد الجبهة الاسلامية كلها تحت قيادته الحكيمة ، وتحقيق حلم طالما سعى الشرق إلى تحقيقه - ذلك هو سقوط مصر في قبضة جيوشه التي قادها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سنة ٥٦٤ هـ ، وزوال الفتن الداخلية التي عمتها ، والتي كادت أن تتمكن الأسد الصليبي من أن ينشب أظفاره فيها ، ثم سقوط الخلافة الشيعية واحلال الخلافة السنية مكانها سنة ٥٦٧ هـ .

ظل نور الدين - والشعب حوله - مخلصا للهدف الذي كرس حياته له حتى انتقل إلى الدار الآخرة سنة ٥٦٩ هـ ، بعد أن أثبت في مدة ربع القرن التي حكمها بأنه بطل خدم القضية الاسلامية العربية والوحدة الشعبية ، وسياسي مخلص قدير ، حقق ما رسمه وأعد له أبوه من قبل ، واستطاع أن يسير في سبيل وحدة الصف وقيادة الشعب خطوات واسعة موفقة ، ويستفيد من الوعي واليقظة الشعبية التي سرت في بقاء العالم الإسلامي العربي ، وأن

يرسى القواعد التي بلغ بها خلفه في القيادة خروة النصر في حطين من بعد ،
هذا إلى ما امتاز به من نشر عدل ، وقوامه خلق ، وسلامة دين ، وتشجيع
للعلم والعلماء .

صلاح الدين يصل بالهدفين إلى الذروة :

كانت وفاة نور الدين خطراً هدد الوحدة القيادية ، وهز كيان التكتل
الشعبي ، إذ آل الملك إلى ابنه الطفل ، فتنازعته أهواء القادة من حوله ومطامعهم
وأوشك ذلك البنيان الشامخ الذي شاده الشعب بدمائه، ودعمته حكمة وقوة
القائدين — عماد الدين ونور الدين — على الانهيار، لولا أن قيض الله تعالى له
برحمته من ساربه إلى نهاية الشوط ، وارتفع به إلى الذروة التي تطلع إليها
الشعب المخلص الأمين في دفعه ، ذلك هو البطل « صلاح الدين الأيوبي » .

امتاز صلاح الدين بصفات شخصية واجتماعية وحرية ودينية ، جمعت
حوله قلوب الرعية وجذبت لحيه نفوسهم ، فانتقدوا له ، وتكلموا حول
لوائه .

فلقد رأوا فيه رجلا صائب الرأي حصيفاً ، يبدو في معالجة الأمور كأنه
موحى إليه أو ملهم ، ذو عزم ماض ويقظة دائمة وتنبه ، وهمة عظيمة
بعيدة الآمال ، ومقابلة للشدائد بصدر رحب وصبر ، مع استعذاب ولذة
في عراكها ، وزهد في الحياة الدنيا وزخرفها ، وعفة في قلرة ، وتواضع
في عزة ، ولين لا يمس الهيبة ، وكف ندى ، وشجاعة في إقدام ، ومراقبة
لله سبحانه في كل عمل ، وابتغاء لرضاته في السر والعلن .

وضع صلاح الدين نصب عينيه منذ أن دانت له وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ
العمل على إتمام توحيد القوى ضد الصليبيين ، والوصول إلى نهاية الشوط
الذي بدأه عماد الدين ، وتوجيه هذه القوى ضد العدو وطرده من أرض
العالم الاسلامي العربي إلى غير رجعة .

أحسن منذ اللحظة الأولى بأن الله قد أعده لأمر عظيم ، فقال كلمته

« لما يسر الله لى اللديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى » (١) .

وشاء الحق جل وعلا أن يمدّه بأسباب تثبيت سلطانه فى مصر وأن يجعل له من أهلها وشعبها الوفى المخلص ، الدرغ القوى الأول ، فانطلق به تحلوه قلوبهم ، وتدفعه عزماهم ، وتؤيده جموعهم ، يدافع عن مصر ضد من هاجمها من الصليبيين فى دمايط سنة ٥٦٥ هـ ، وفى الاسكندرية سنة ٥٦٩ هـ حتى ردهم عنها أذلاء ملحورين . ثم تغلب به على المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهته ، كما ثبت به قواعد ملكه فى الثوبة والحجاز واليمن وشمال افريقية . ودفع عنها غائلة الطامعين والمفسدين ، ثم انطلق إلى الشام يقضى فيه على التوضى وعوامل الضعف التى أخذت تهدده ، فسارت رايته من ظفر إلى ظفر ، ومن نصر إلى نصر ، تسبقها سيرته العطره ، ومآثره الحميدة ، وانتصاراته على الفرنج ، وفتحت له دمشق أبوابها مرحة به سنة ٥٧٠ هـ كما رحبت بنور الدين من قبل ، ودانت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها . وتم له ما تمناه من وحدة قوية تسودها وتدفعها يقظة الشعوب ووعياها .

ثم بدأ بها الجولة التى بلغ بها ذروة النصر فى حطين سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م وما أعقبه من سقوط بيت المقدس وغيره من البلاد ، ذلك النصر الذى زلزل أوروبا ودمر أكبر قوة للصليبيين فى الشرق الاسلامى العربى . وتمت كلمة ربك بنصر المعتمدين بجملة المتين ، المخلصين لبلوغ الهدف النبيل « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

والناظر فى الكلمات السابقة يرى أن القدر قد رسم بريشته الحكيمة صورة بديعة لتطور الوحدة القيادية ، والتكامل الشعبى الذى اتسم باليقظة والوعى الدافع لهذه القيادة . والتى كانت سراجا وهداية لمن خلف صلاح الدين من القادة والشعوب حتى طهر الشرق من العدو الصليبي فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م .

(١) صلاح الدين لابن شداد تحقيق محمد محمود صبح نشر الدار القومية فبراير ١٩٦٢ .

أثار نصر حطين وسقوط بيت المقدس في قبضة صلاح الدين نفوس الشعراء ، وحرك أقلام الكتاب فجرت تشيد بهذا النصر المبين ، وتذكر إلاء الله تعالى على المحاربين والمجاهدين ، ومن اتخذ سنة عودة القدس أساساً لمؤلفه عن عهد صلاح الدين « العماد الأصقهانى » صاحب كتابنا هذا .

مؤلف الكتاب :

مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله محمد بن صق الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله القرشى الأصقهانى ، المعروف بـ « آله » - وأله اسم أعجمى معناه العقاب وهو الطائر المعروف ، وقد اشتهر به العماد الأصقهانى .

ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ ونشأ بها ، ثم قدم بغداد مع أبيه شاباً حدثاً فأقام بها مدة ، انتظم فيها في سلك المدرسة النظامية ، وتفقه على الشيخ أبى منصور سعيد بن محمد بن محمد بن الوزان (١) ، وسمع الحديث من أبى الحسن على ابن هبة الله بن عبد السلام ، وأبى منصور محمد بن عبد الملك بن جبرون (٢) ، وأبى المكارم المبارك بن على السمرقندى ، وأبى بكر أحمد بن على بن الأشقر وغيرهم . وأجاز له أبو عبد الله الفراءى وأبو القاسم بن الحصين .

اشتغاله بالكتابة :

ثم عاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه - أصبهان - ففقه بها على محمد بن عبد اللطيف الخجندى ، وأبو المعالى الوركاني ، ثم رجع إلى بغداد ، وشاء الله تعالى أن يكون في هذه الرجعة بدء صعوده سلم المجد كأديب وكاتب له مكانته السامية في عالم الأدب وديناء . اشتغل العماد بصناعه الكتابة فبرع

(١) في معجم الأدباء بتحقيق د . فريد رفاعى « للرزاز » .

(٢) « خبرون » في المرجع السابق .

فها ونيغ ، ثم بدأ نجمه في الصعود والتألق ، فاتصل بالوزير عون الدين يحيى ابن هبيرة (١) ، فولاه النظر بالبصرة أولاً ثم بواسط .

ظل العماد مسر العيش ، هائئ البال في حياة ابن هبيرة ، ولم يدر ما خبأه له الدهر من شدائد ومنغصات ، فما أن وافت المنية ذلك الوزير حتى صدرت أوامر الخليفة باعتقال جماعة من أتباعه من بينهم العماد ، فكتب من حسبه إلى عماد الدين بن عضد الدين ابن رئيس الرؤساء — وكان حينئذ أستاذ الدار (٢) المستجديبه وذلك في شعبان سنة ٥٦٠ هـ قصيدة منها :

قل للإمام علام حبس وليكم أولوا جميلكم جميل ولاته
أو ليس إذ حبس الغمام وليه خلى أبوك سبيله بدعائه (٣)
فأمر باطلاق سراحه وتخليته سبيله .

أقام العماد في بغداد فترة كان فيها متكد العيش ، مسهد الجفن وما أشد على النفس من ذل بعد عز ، ومن ضيق بعد فرج وسعة — فعزم على أن يرحل منها إلى دمشق ، عاه أن يجد في كنف سلطانها العادل نور الدين محمود ، الأمن والطمأنينة ، وسعة العيش ورغده ، فشد الرحال إليها فدخلها في شعبان سنة ٥٦٢ هـ .

كان حاكم دمشق ومتولى أمورها لنور الدين محمود آنئذ هو القاضي

(١) ابن هبيرة : هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني ، وزير بغداد ، ولد سنة ٤٩٧ هـ بقرية الدور من نواحي بغداد - وزر المقتدى ثم المستجد ، وتوفى سنة ٥٦٠ هـ . كان علما دينيا وله عدة مصنفات منها «الانصاح في شرح الأحاديث الصحاح» (الروشتين تحقيق . د . محمد حلمى أحمد قسم ثان ص ٣٥٩)

(٢) (ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ : ٩٣) أنه من «إليه أسر بيوت السلطان كلها من المصالح والنفقات والكسوى وما يجرى مجرى ذلك . وهو من أسراء المئين . وذكر الإمام السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم في ص ٢٦ : بتحقيق محمد علي النجار وزميليه أنه المتكلم في اقتلاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم ، وهى كلمة فارسية الأصل صواب كتابتها «استار» أو «استار» .

(٣) في البيتين إشارة جميلة إلى حادثة استغناء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب من النبي صلى الله عليه وسلم .

كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري (١) ، فحرف به العماد ، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية ، وكان يحضر مجالسه ، وبذا أكره بمسألة الخلاف في الفروع . وعرفه الأمير نجم الدين أبو الشكر أيوب والد صلاح الدين - وكان العماد له سابق معرفة به وبأخيه أسد الدين شيركوه منذ أن كان عمه (أى عم العماد) معتقلاً بتلعة تكريت ، « ونجم الدين إذ ذاك وليها » فانتسجت المودة بينهما من هناك ، فلما سمع ابن أيوب بوصوله « بكر إلى منزله لتبجيله » وأحسن إليه وأكرمه ، وميزه عن الأعيان والأمثال ، فمدحه العماد بقصيدة منها :

موفق الرأي ، ماضى العزم ، مرتفع على الأعاجم مجدا والأعاريب
أحبك الله إذ لازمت نجدتـــــــــــــــه على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك (٢) صدقاً منهما ، اعتصما بالله ، والنصر وعد غير مكنوب

بده اتصاله بصلاح الدين :

ولما عاد أسد الدين وصلاح الدين من مصر ، اتصلت بين العماد وصلاح الدين المودة ، وأخذ يستهديه نظمه ونثره ، وكأنما شاء الله تعالى أن يمهده بهذه الصلة لما سيكون فيما بعد بين الاثنين من وشائج قوية .

ارتفع ذكر العماد في دمشق ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعوضه ما فقد من عز أيام ابن هبيرة في بغداد ، وما لاقاه من عنت ومذلة بعد وفاته ، فنوه « الشهرزوري » بذكره أمام « نور الدين » وعدد عليه فضائله ، وأهله لكتابة الانشاء ، ولما كانت مواد هذه الصناعة عتيبة عنده ، إذ لم يكن قد مارسها من قبل ، خاف الاقدام في أول الأمر ، وبقي متحيراً . ومجدثنا العماد عن نفسه فيقول : « فبقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله الفقيه الشافعي ، كان قاضى الموصل أيام عماد الدين زنكي ، ثم قدم دمشق ٥٥٠ هـ فولاء نور الدين قضاهما سنة ٥٥٥ هـ ، وكانت وفاته سنة ٥٧٢ هـ (ارجع إلى طبقات الشافعية الكبرى) .

(٢) يشير العماد إلى أسد الدين وصلاح الدين اللذين كانا آنذ بمصر للدفاع عنها ضد الصليبيين .

ولا وظيفتي ، ولا تقدمت لي به دراية ، ، غير أنه ما لبث أن تيسر له أمرها ، وهانت له حين مارسها وأجادها إجادة لم تكن له في الحسبان، وأتى فيها بالغريب الذي لفت إليه الأنظار ، وأثار انتباه ذوى الحجا والأقلام . فبرز اسمه بين أسماء البارزين في هذه الصناعة ، وعلت منزله عند نور الدين ، وصار صاحب سره .

وسيره رسولا إلى بغداد ، كما فوض إليه في سنة ٥٦٧ هـ أمر المدرسة النورية الشافعية وهي التي عرفت فيما بعد بالعمادية نسبة إليه ، كما ولاه الاشراف على ديوان الانشاء سنة ٥٦٨ هـ .

ابن العماد يتقلب في نعم الله ، وطاب عيشه ، واستقام حاله ، طيلة حياة نور الدين . حتى إذا مات وخلفه ابنه الصالح اسماعيل سنة ٥٦٩ هـ ، نفس الحاقدون عليه مكانته السابقة ، فأخذوا يدبرون له المكائد ، ويضايقونه بشتى المضايقات، وينسجون حوله ما أخافه وأفرعه، فتأثر السلامة بترك جميع ما هو فيه ، وشد الرحال إلى بغداد ، حتى إذا باع « الموصل » في طريقه ، هاجمه المرض هجوما شديدا ، وكاد يقضى عليه . لولا أن تداركته رحمة الله الواسعة فبريء منه .

في هذه الفترة سرى خبر خروج صلاح الدين من مصر قاصدا دمشق لتخليص الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود من حاشية السوء والانتهازيين الذين أحاطوا به ، ولتوحيد الدولة في قوة تقف أمام الصليبيين — سريان ضوء الشمس ، فانثنى عزم العماد سنة ٥٧٠ هـ عن مواصلة السير إلى بغداد ، ورأى في العود إلى دمشق والالتقاء بصلاح الدين خيرا وبركة ، وأمنا وطمأنينة ، فقد سبق أن توثقت عرا الصداقة بينهما، وتوطدت العلاقات، وتأكدت المودة فعاد إليها، وكان صلاح الدين قد غادرها إلى حلب ثم إلى حمص فلحق به، وكان قد تسلم قلعتها فمدحه بقصيدة طويلة ، ولزم بابه ، يتزل لتزوله ، ويدخل لرحيله ، واستمر مدة يعيش مجالس صلاح الدين متقربا إليه وإلى القاضي الفاضل، ينشد السلطان المدائح ويعرض بصحبته القديمة، حتى نظمه في سلك جماعته .

هكذا طويت صفحة مليئة بالمتاعب والشدائد من حياة العماد، ونشرت صفحة جديدة سيبلغ فيها أوج المجد ويرتفع ذكره ، ويخلد اسمه بين الخالدين من أدياء ومؤرخين .

فقد استكتبه صلاح الدين ووثق به ، وقربه إليه ، وصار من خاصته ، يضاهاى الوزراء ويمجى فى مضمارهم ، « صاحب السر المكتوم إذا غاب القاضى الفاضل والثائب عنه » وأن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التى كانت للفاضل فى نفس صلاح الدين .

مكانة العماد بين القاضيين الفاضل وبهاء الدين بن شداد :

ويطيب لى فى هذا المقام أن أبين فى بضع سطور ، الفارق فى المكانة بين رجال ثلاثة ، كانوا دعامة الحكم فى عهد صلاح الدين ، وموضع ثقته البالغة . أولئك هم القاضى الفاضل . والعماد الكاتب . وبهاء الدين بن شداد .

كان القاضى الفاضل عبد الرحيم اليبسافى رجلا أتاحت له ظروفه ومنصبه أن يعاصر فترتين من فترات الحكم فى مصر . سقوط الفاطمى . وقيام الأيوبي ، كما كان صاحب ديوان الانشاء فى عهده شريكه وصلاح الدين ، وقد كان للكفاءة الإدارية التى امتاز بها . ولطول باع قلمه . ولاخلاصه فى عمله وتدينه ، الفضل الأكبر فى أن يصبح الساعد الأيمن لصلاح الدين « يعتمد عليه فى كل ما يتعلق بشئون دولته » . ينبيه عنه فى مصر إذا غاب . ويستتمده النصيح والمشورة إذا أشكل عليه أمر أو عرضت له شدة . ولذلك كانت له فى قلب صلاح الدين المكانة الأولى التى لا تدانىها مكانة : وما أجمل قول صلاح الدين فى تقدير منزلته ، لانتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفاكم بل بقلم الفاضل « .

أما القاضى بهاء الدين بن شداد فقد كانت صلته به بسبب إعجابه بعلمه وبشخصيته ، إذ رأى فيه من السمات والصفات والعلم ما يدعو إلى احترامه والركون إليه . فعرض عليه فى سنة ٥٨٤ هـ تولى قضاء العسكر فقبل . وبدأت الصلة تقوى بينهما منذ هذا التاريخ . وزادت القرى والمحبة . وظل ابن شداد ملازما لصلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ . ولذلك نرى أن مكانته

بالنسبة لتدبير شؤون دولة صلاح الدين بين الثلاثة، هي التالية للعماد ، والثانية بعد الفاضل في الدين والعلم وفي الميل والاطمئنان الشخصي .

صلة وطيدة بين العماد والفاضل :

توطدت الصلة بين العماد والفاضل وتألفا اجتماعيا ، ولاعجب في ذلك فقد كان العماد ينحو في كتاباته نحو « مذهب أصحاب التصنع » ذلك المذهب الذي كان الفاضل يتبعه ويدعوله ، والذي كان لديه فيه من البراعة الفنية ما جعله « ينهض بصعوباته دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من أثمان » ، وما من شك في أن الفاضل « كان أبلغ كتاب العصر الأيوبي فدفع العصر كله من ورائه في دوائر نماذجه » ، وكان العماد يقول عنه « رب القلم والبيان ، واللحن واللسان » كما كان الفاضل يقدره بقوله « العماد الكاتب كالزناد الوقاد » .

وقد سجلت لنا كتب الأدب والتاريخ بعضا من المحاورات اللطاف التي كانت بين الكاتبين :

فقد لقي العمادُ الفاضلُ وهو راكب على فرس فقال له : « سرُّ فلا كِبَا بك الفرس » فرد عليه الفاضل : دام عُملا العماد (١) .

واجتماعا يوما في موكب صلاح الدين ، وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد الفضاء ، فتعجبا من ذلك ، فأنشدا العماد في الحال :

أما الغبار فأنسه مما أثارته السَنَابك
والجسو منه مظلم لكن أثارته السَنَابك
يا دهرُ لي عبد الرحيم فلست أخشى مس نابك (٢)

حجج الفاضل سنة ٥٨٤ هـ من مصر وركب البحر في طريقه فكتب العماد إليه رسالة نذكر منها :

« طوبى للحجر والحجون من ذى الحجر والحجا ، منيل الجلدا ، ومنير

(١) وهذا ما يقرأ مقلوبا وصحيفا ، سواء . وهو ضرب من البديع يسونه القلب ، وهو من المحسنات القفية .

(٢) لقد اتفق له الجناس في الأبيات الثلاثة وهو في غاية الحسن .

الدجا ، ولندى الكعبة من كعبة النداء ، وللهدايا المشعرات من مشعر الندى
وللمقام الكريم « إلى أن قال « لقد عاد « قَسَسَ » إلى عكاظه ،
وعاد « قيس » لحفاظه ، وباعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال ،
ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والاقبال « ...

وقد ذكر العماد فضل الفاضل عليه في عدة مواضع من كتابه « الفتح
القدسي » من ذلك قوله عنه حين قدم على صلاح الدين بالشام سنة ٥٨٧ هـ
« رب الفضائل والفواضل ... » ثم يذكر كيف تحدث مع السلطان في رفع
رتبته وراتبه « ونبه قدرى ، ونوه بذكرى ، وسعى في رفع رتبتي وزيادة
راتبي ... ولولا أنني قويت به لأقويت ، ولولا أنه أولاني عارفته لما عرفت
ولا توليت ، فأنا شاكر نعمه عمري ، وعامر كرمه بشكرى » .

العماد الشاعر :

لم يكن العماد كاتباً فقط ، بل عرف أيضاً كشاعر من شعراء العصر الأيوبي
المعدودين ، غير أن قدرته في الشعر وشهرته فيه ما كانت لتقف أمام قدرته
ومكانته كأديب وكاتب رفعة قلمه ، وسمت به أساليبه الفنية إلى صفوف المبرزين
من أهل الكتابة . وقد جمع لنفسه ديواناً من شعره في أربعة مجلدات ، وديواناً
آخر صغيراً ، فمن قوله من قصيدة يمدح بها صلاح الدين :

جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت ملائكة الرحمن أجنادك الخمسا
وكم لبني أيوب عبسك كعنتر إذا ذكروا بالناس لم يذكروا عبسا

ومن قوله ينوه بكرم صلاح الدين :

وقيل لنا : في الأرض سبعة أبحر ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

ومن قوله وهو يطمح في أن يفتح صلاح الدين القدس ، ويوحد بلاد

الإسلام :

توكل على الله الذي لك أصبحت كلاءته درعا ، وعصمته ترسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا بماء الطلي من صاديات الظبا الخمسا
فان بلاد الشرق مظلمة ، فخذ خراسان والنهرين والترك والفرسا

ولم يقتصر في شعره على الوصف والمدح بل قال في الغزل أيضاً ، وإليك
بعضاً مما قال :

أفدى الذى خلبت قلبى لواحظه وخلفت لذعات الوجد فى كبدى
صفات ناظره سقم بسلا ألم . . . سكر بلا قدح جرح بلا قود
على عيائه من نار الصبا شعل وورد خديه من ماء الجمال ندى
كما طرق ضرورياً أخرى فمن حكمياته .

اقنع ولا تطمع فان الغنى كماله فى عزة النفس
فانما ينقص بدر الدجى لأخذه الضوء من الشمس
وقوله أيضاً :

وما هذه الأيام إلا صحائف يؤرخ فيها ثم يمحي ويمحق
ولم أر فى دهرى كدائرة المني توسعها الآمال والعمر ضيق
ومن قوله فى معاملة الناس :

دار غير اللبيب إن كنت ذالِبَ ولاطفه حين يأتي بحذق
فأخو السكر لا يخاطبه الصا حى إلى أن يفيق إلا برفق
ومن مرثية من قصيدته التى رثا بها صلاح الدين التى بلغت مائتين
واثنين وثلاثين بيتاً :

شمل الهدى والملك عم شتائه والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى كانت له طاعانتنا مبنولة ، ولرببه طاعاته
أين الذى شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه ذلاً ومنها أدركت ثاراته

نعم العماد بثقة صلاح الدين واطمئنانه إليه فى تصريف الأمور ، والرضا
بقسمة الأموال التى يسلمها إليه ، والتوقيع على ما يوقع عليه دون مراجعة ،
وقضاء حاجات من لجأ إليه من الناس عن طريقه ، وقد سجل لنا ذلك فى

كاتبه . « وان أصحاب المطالب ، والراغبون^(١) في الرغائب ، والذاهبون في المذاهب ، يحضرون عندي ويعرفون في إنجاز أمورهم وإنجاح قصدهم ، فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم ، وأنتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم ، فيجربها ويمسحها ، ويضع علاماته فيها ويرتضيها ، فاذا ألتى توقيعا بخطي ، علم فيه ، ولم يقف بنشره على سر مطاويه : الفا بما ألفه من صحبتي ومناصحتي ، وكفاءة للمهمات بكفائتي . »

والناظر في هذا الكتاب يرى أن العماد قد اعترى بقلمه ، ووثق بأسلوبه وبأثره في عدة مواضع . وفي كثير من المناسبات ؛ اعترازا وثقة تدفعان إلى الظن بآهانهما نجواز حد التواضع إلى الزهو والخيلاء ، فتارة يقول : فبشرت بأقلامى أقاليم البشر ، وعبرت بأعاجيبى عن عجائب العبر ، وملأت البروج بالدرارى . والدروج بالدرر . »

وأخرى يذكر « وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزيره ، وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، وأقوا السقم في غيره فأنفوه . »

ويبلغ قمة الاعتزاز بقلمه حين يذكر أن خطره أشد من سيوف أصحاب السيف والرمح « وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ، ومن رماحهم أخطى وأخطب ، ومن سهامهم أنجى وأنجب ، ومن قسيهم أكسى واكسب » ، بل نراه يجاوز حد هذا القول بأن آثار قلمه لا تحمل ولا تحمد بينما يصيب آثار السيف الطوى والنسيان فيقول : « وآثار السيف من الجراح قدرقأ دمها ، وآثارى من الذكر لا تحمل ولا تحمد . »

وها هو ذا يحدثك عن نفسه فيبلغ قمة الاعتزاز ، إذ يقول بأن أخباره التي يحدث بها عن صلاح الدين لا تموت ولا تنسى ، بينما تموت أخبار غيره « فكل أثر خير به غيرى يموت الخبير بموته ، ويتقطع صيت الأثر بانقطاع صوته ، والذي أخبر أنا به عنه روض زهو إذا أقلعت الأيام

(١) الراغبون ، الذاهبون ، هكذا في الأصل ، ولعل وجهة نظر المؤلف أن هذه الجملة مقطوعة عما قبلها ولذلك رفعت بتقدير الخبر ، وهذا مثل قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى ... » (الآية ٦٩ سورة المائدة)

سحبا ، ونجم يبلو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهابا ، فهو قول يذكر ، وينسى كل فعل وفاعله ، لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتى فى غد إلا جاهله .

صنف العماد عدة مؤلفات تعتبر مراجع قيمة فى الأدب والتاريخ هى :
« خريدة القصر وجريدة العصر » ذكر فيه الشعراء الذين كانوا بعد المائة الحامسة إلى سنة ٥٧٢ هـ وجمع فيه شعراء الشرق الاسلامى والشام ومصر والمغرب فى عشر مجلدات (١) ، ولم يذكر فيها النادر الخامل .

وكتاب « نصرة الفطرة وعصرة القطرة فى أخبار الدولة السلجوقية » وهو يشمل تاريخ من اتصل بهم من ملوك الدولة السلجوقية قبل قدومه إلى الشام .

كما أن له كتابا فى سبع مجلدات ، هو مجموع تاريخ ، بدأه بالحديث عن نفسه ، وصور فيه انتقاله من العراق إلى الشام ، وتاريخه فى دولة نور الدين وخدمته لصلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ ، وذكر شيئا من الفتوحات بالشام وقد سماه « البرق الشامى » لأنه شبه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف لطبيها وسرعة انقضائها .

وغير ما ذكرنا فإن له أيضاً ديوان رسائل ، و « كتاب السيل على الذيل » ، و « كتاب الفتح القسى فى الفتح القدمى » الذى نحن بصدده .

هذا الكتاب :

أما كتاب الفتح القسى « فهو سجل لما قام به صلاح الدين من جهاد وحروب منذ سنة ٥٨٣ هـ حتى سنة ٥٨٩ هـ ضد الصليبيين ، أى منذ السنة التى فتح فيها بيت المقدس إلى السنة التى توفى فيها ، وما أعقب هذه الوفاة من أحداث .

وقد تميزت هذه الفترة بمظهر الوحدة الكاملة للعالم الإسلامى الذى يقوده صلاح الدين ضد عدو البلاد ، وبحدوث الضربة القاصمة له فى « حطين » ،

(١) لا يزال هذا الكتاب فى معظمه مخطوطا ، ولم ينشر منه إلا جزءان عن أدباء مصر وجزء عن أدباء الشام والجزيرة .

وما أعقبا من سقوط بيت المقدس في قبضته ، وسقوط كثير من البلدان والقلاع الصليبية التي كانت تعد مراكز هامة للفرنج في فلسطين والشام ، ثم سقوط عكا ثانية في يد الفرنج ، والصراع الذي كان بين صلاح الدين من جهة ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا من جهة أخرى - ذلك الصراع الذي انتهى بمعاهدة الرملة سنة ٥٨٩ هـ .

كما سجل طرفا من صفات وسجايا صلاح الدين ، وما أعقب وفاته من تقسيم للبلاد بين أولاده وآله . ويشمل الكتاب كذلك الكتب والرسائل التي بعثها صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد ، وإلى سائر الملوك والسلاطين المسلمين لاستنفارهم إلى الجهاد ، أو وصف حالة الحرب ، أو تبشيرهم بالنصر - أو غير ذلك - من إنشاء العماد . كما أنه تبيان للعلاقات التي كانت قائمة بين مصر وغيرها من البلدان في هذه الفترة ، ولذلك فهو وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين ، تضاف إلى الوثائق الأخرى مثل كتاب « سيرة صلاح الدين لابن شداد » ومراسلات القاضي الفاضل .

ولما كان المؤلف أديبا واسع الأفق والثقافة ؛ وكانبا بليغا صادق الحس ؛ فقد استطاع في سرده للأحداث التاريخية ؛ ووصفه للمعارك الحربية ؛ أن يربط بينها وبين المسرح الجغرافي لهذه الأحداث ، ربطا ممتازا بالدقة وتجلت فيه مقدرته على إبراز الصورة الواضحة التي تكاد تنبض بالحياة ، وتبين مواطن الضعف والقوة فيها ، ومشاعر المحاربين في البر والبحر أثناءها . كما نجح نجاحا كبيرا في وصف البقاع والبلدان والمنشآت التي تناولها ، والحالة الاجتماعية التي عليها سكان البلدان .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه حديث من شاهد الأحداث بنفسه أو وقف عليها في أثناء عمله بديوان الانشاء ، أو سمع عنها فتحرى الدقة والتثبت فيما سمع .

وقد اتبع المؤلف في إيراد الأخبار « نظام الحوليات » الذي كان سائدا في عصره ، ولم يتعرض لترجمة الأعلام سواء أكانوا علماء أو رجال سيف أو حكاما إلا في النادر القليل .

ويعدثنا العماد في مقدمة كتابه هذا أنه اختار اسم « الفتح القدسي »
لكتابه قبل عرضه على القاضي الفاضل ، فلما عرضه عليه قال له : « سمه الفتح
القسى في الفتح القدسي » تنبيها على جلالته قدره ، وتنويها بدلالة فخره ،
فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس (1) وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه
ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته .

وقد اختار العماد الأسلوب الأدبي للكتاب ليكون روضا يعيش الأديب
فيه ، ويطوف أرجاءه ، ويمشى في جنباته ، يقطف من أزهاره اليانعة ،
وينهل من غدرانه ، كما يجد فيه المورخ ضالته ، وفي ذلك يقول : « وهذا
كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الفرر المتجلية ، وبين
المستخزين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على
قدر الفرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع ، والأديب أن
يقول » .

أسلوب الكتاب :

الترم العماد في هذا الكتاب « اللغة الفنية المصنوعة من ألف الكتاب إلى
ياته » كما التزم السجع التزاما لم يتخل عنه ، واعتمد على الاكثار من استعمال
المحسنات البديعية واللفظية إلى درجة كبيرة ، « تجعل استخلاص الحقائق
التاريخية منه أمرا صعبا ، ومهمة شاقة » على بعض القراء ، ولكن الصدق
الذي امتازت به هذه المعلومات يجعلها تستحق ما يصرف في سبيل استخلاصها
من عناء وجهد .

وإذا تحدثت عن أسلوب العماد فتجد الإشارة إلى أنه نهج منهج
أصحاب مذهب التصنع - وهو مذهب ساد المشرق والأقاليم الاسلامية في
القرن السادس الهجري ، وكان العماد كغيره من أدباء عصره يعيش في
الاطار الفني العام له ، من استعمال للمحسنات البديعية واللفظية : من تنظير ،
وتشخيص ، وتورية ، وجناسات منقوصة وغير منقوصة ، واقتباس من آتى

(1) يقصد قس بن ساعدة الايادي خطيب العرب وفصيحا في الجاهلية .

الذكر الحكيم وتضمين بديع لها ، وبراعة في ذكرها في مواضعها ، وكذلك تضمين الشعر ، كما استخدم عناصر التصنع لمصطلحات العلوم والنحو ، ومراعاة النظير ، والطباق؛ والجناس المقلوب، كما عني بالتشخيص والتصوير

في خضم المذاهب الكتابية التي كانت سائدة ؛ من تصنيح (١) وتصنع نشأ العماد وترعرع واستوى عوده ، وبلغ أشده ، ومنها أخذ ونهل ، فلا غرابة أنه قد التزم مذهب التصنيح في الأغلب في كتابة الفتح القسي وفي كتبه الأخرى ورسائله جميعها .

تحقيق هذا الكتاب :

كان للأهمية التي حظي بها - بفضل الله تعالى - كتاب « سيرة صلاح الدين لابن شداد » بتحقيقي والذي نشرته الدار القومية للطباعة والنشر في ١٥ فبراير سنة ١٩٦٢ - أثر بليغ ؛ ودافع قوى لي ؛ للبحث عما يفيد كمصدر هام في تاريخ صلاح الدين ، ذلك البطل الذي وهب نفسه وحياته وضحي براحته والعيش الرغيد لاعلاء كلمة الله سبحانه ، والدفاع عن ديار الاسلام

(١) عني كتاب المصير العباسي بحرفة الكتابة من ناحية قيامها على الزخرف والتنميق ، وقد أخذت هذه العناية ترداد شيئاً فشيئاً على مر الزمن حتى برز مذهب أدبي أطلق عليه مذهب التصنع - وهو مذهب كان يتعد على السجع من جهة والبديع من جهة أخرى وكان أستاذ هذا المذهب هو ابن العميد - فهو الذي وسع - لأول مرة - طاقة الزخرف في تعبير النثر وتجميله . ثم أخذ هذا المذهب يتطور حتى أصبحت كتابة الكتاب زركشة خالصة « من تفريز بالسجع ، وترصيع بالبديع » وازدادت هذه الحالة قوة حتى بلغت درجة الحد في القرن الرابع الهجري ، وقد اصطلحت « أعمال الكتاب والأدياء بهذه الصيغة ولم يسلم منها أحد حتى كتاب التاريخ أنفسهم ، إذ ظهر منهم من اختار لنفسه هذا الأسلوب ، فطرز ما ساقه من أخبار بهذا الأسلوب وكان أول كتاب ظهر في هذا الثوب هو « كتاب التاجي في أخبار بني بوية للمصنف » ثم تبعه « كتاب الجيبي العتيبي » . ولم يلتزم هذا المذهب التزاماً تاماً بل أخذت تظهر على أساليبهم بوادر مذهب التصنع وهو مذهب « يقوم على تصويب طرق الأداء وتمقيدها ضرورياً مختلفة من التقيد » ويعتبر أبو العلاء أبرز من « حقق لهذا المذهب ، كل ما يمكن من صور التصويب » ثم تبعه الكتاب . حتى إذا أرقى القرن السادس الهجري نجد أن الكتاب في الاقاليم المختلفة قد غرهم « ذوق التصنع في الكثير الأكثر وقلما تركوا هذا اللوق إلى ذوق التصنيع » (النثر الفني ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف) .

والعروبة ، ضد مستعمر ظلوم تستر بستر دينه ليحقق أطماعا سياسية واقتصادية في الشرق ، ويستذل أهله ويسلبهم ما بأيديهم من خيرات .

وحدا بي هذا الدافع إلى تناول الكتاب ، إذ لم يتناوله أحد بالشرح أو التعليق، أو الدراسة التي تيسر مفاهيمه وتفتح مغاليقه ، وتجعل معانيه دائية القطوف للدارسين ، على الرغم من أنه قد حقق من قبل ، في نسخة طبعت في لندن سنة ١٨٨٨ م عن نسخة مخطوطة بمكتبه لندن ، كتبت بعد وفاة المؤلف بأربع سنين ، وقوبلت نسخة لندن بنسخة أخرى كانت من طرابلس ، كما طبع بعد ذلك في القاهرة عدة طبعات . وقد اخترت لتقوم نص هذا الكتاب لإحدى النسخ المطبوعة في القاهرة بمطبعة الموسوعات سنة ١٣٢١ هـ وقابلتها على نسخة لندن المذكورة ، ثم على نسخة مخطوطة بمكتبة الجامعة الأزهرية مؤرخة ١١٦٦ هـ بقلم عبد الله الإدكاوي في ٤١٨ لوحة وهي نسخة كاملة .

وبمقابلة النسخ الثلاث استطعت تقوم النص واثبات الفروق بينها . ثم قمت بالشروح اللغوية بقدر الطاقة مكتفيا بذكر معاني الكلمات الصعبة بما يتفق والعبارة ، إذ من المعلوم أن كثيرا من معاني الكلمات العربية لها مترادفات عدة ، وما يصلح من معنى في مقام لا يصلح لآخر ، وأشرت أحيانا إلى ما يقصد الكاتب بعبارته . على أني في معظم الشروح اللغوية تركت للقارئ إعمال الفكر قليلا ليصل هو إلى المعنى المقصود . كما قمت بالترجمة لما ورد من أعلام وخصوصا البارز منهم ، وكذلك التعريف بالبادان ، والتعليق على الأحداث التاريخية ، والتعريف بالألات الحربية ، وشرح الكلمات الدخيلة في العربية من فارسية وغيرها ، معتمدا في ذلك على المراجع الهامة التي ذكرتها في ثبوت بآخر الكتاب .

على أني أرى من الواجب على واعترافا بالنفضل قبل أن أختتم كلمتي هذه أن أوره بالتشجيع الصادق الذي دفعني به الأستاذ الأديب الكبير محمد عطا لتيسير هذا الكتاب وتقديمه للقارئ العربي ، والعون الكبير الذي عاونني به كل من الأستاذ الفاضل الأديب الجليل محمد عبد اللطيف بن الخطيب ،

وزوجتي الفاضلة فيه حتى خرج في هذه الصورة . فجزاهم الله تعالى خير
الجزاء .

وإني لأرجو بعد بذل كل ما استطعت من جهد أن أكون قد وقفت -
بفضل الله ورحمته إلى تحقيق الهدف الذي قصدته من نشر هذا الكتاب
كما أرجو الله تعالى أن يوفق غيري في إكمال ما عجزت عنه - إن كان هناك
عجز أو تقصير - والحمد لله الذي بنعمته وبعونه يبارك كل خير ويتم
كل فضل .

المحقق

محمد محمود صبح

رموز النسخ

- (أ) النسخة المحفوظة بمكتبة الجامع الأزهر وهي
مخطوطة . ي = يمين ، ش = شمال .
- (ب) النسخة المطبوعة بمطبعة الموسوعات بالقاهرة .
- (ل) نسخة ليدن .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقّه (وإن حقّه لعظيم) (١). ومن الرشد ما يكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه (٢) إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستريده ونستديمه نعمه (٣) ولن يجيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل (فلذا الذي بيننا وبينه (٤) عداوة كأنه وليّ حميم . والحمد لله الذي بدأ بنعمه متطولا ، وبمزيده متفضلا ، وعلمنا شكر فضله الموفور ، وقبل منا عفو خاطرنا المزور (٥) . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة ، ولا يطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد (٦) الساقية . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب (٧) غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عد منا يتاب مستتابه (٨) راجيا وداعيا ، ومستيقظا وساهيا ، وصامتا ومتقاضيا ، لنا منه على كل حال كلّ حال من مواهب ربما عطل (٩) عنها لسان شكرنا ، وضمير ذكرنا ، وباتت ساوية

(١) في أ « وإن حق الله لعظيم »

(٢) في أ « إحسانه » .

(٣) في أ « نعمته »

(٤) في ب و ل « فاذا وهو الذي بيننا وبينه » والمذكور من أ .

(٥) المزور ، التليل .

(٦) ساقية في أ شبه في ب و ل

(٧) الساقية : مؤخر الجيش .

(٨) في أ « و رب » .

(٩) يتاب متتابه : يأتي فضله مرة بعد أخرى . والنوبة : الفرصة .

(٩) عطل عنها : سكت . والتطيرغ والاخلاء وترك الشيء ضياعا .

إلينا لا طيفًا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم ان الله (تعالى) (١) ساعنا في حقه من الشكر فقبله من عيننا وبلغنا ، ومتجرنا ومسينا : فتارة يقبله ضميرا مجمعا (٢) ، وتارة يحيط به قولاً (٣) مترجماً . ومرة يعلمه نظراً من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه ، ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات مسموعه ، وكيف لا يعلم السر وأخفى من بعينه ممارحه . وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاحه .

ونرغب إليه في أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فإننا لانرضى بفضو استحقاقه من الوصف جهداً ، فنصل إليه صلواتنا ونودى إليه ودنا ، ونعظم موقعه حين كان منه قاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسرى به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهماً فكان كقاب قوسين في اقترابه . ما كذب القواد ، ولاخاب المراد . ولاصدق المراد (٤) . وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأنك (بالوادي المقدس طوى) (٥) .

فمن كان في روض القرآن يسرح ، فرق بين المنزلتين من (رب اشرح) و (ألم نشرح (٦)) ونصلى على آله وأصحابه (ولاة الحق . وقضاة الخلق (٧)) ورتقة الفتق (٨) ، وغرر السبق ، وألسنة الفرق ، وفتحة الغرب والشرق .

(١) مثبته في أ ، ساقطة في ب و ل .

(٢) مجمعا : الجمعية ، عدم ايانة الكلام وإخفاء الشيء في الصدر .

(٣) في أ « فضلا » .

(٤) المراد : جمع مارد ويطلق على العائق المتجر وأكبر ما يطلق على الجن .

(٥) في ب « بأنك بالواد » وما ذكر من أ .

(٦) « رب اشرح لي صدري » الآية ٢٥ من سورة طه وهي دعاء موسى عليه السلام لربه :

و « ألم نشرح لك صدرك » الآية ١ سورة الانشراح وهي خطاب الرب تعالى لحاتم أنبيائه عليه صلوات الله وسلامه .

(٧) في ب و ل « ولاة الحق ، وقضاة الخلق » .

(٨) رتق الفتق : أصلحه والمقصود بالكلمة ، المصلحون .

منهم (١) من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هاهما . وأحمد عبدة نيرانه أن يطعموها (٢) حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم ، وأحمد (٣) عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهته ، ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على الكفار ، ومنهم الأسداء إذا زاغت الأبصار . ومنهم الساجدون الراكعون ، ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل الزمن الآخر ، وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر . وسمانا إخوانا واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والباديء أكرم ، وإنما نرجو شفاعته (٥) بالمودة التي قدمها والفضل للأقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السيز المتحلية . يأخذ (الفريقان منه) (٦) على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخير أن يسمع والأديب أن يقول . فان فيه من الألفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من السنة العجائب التي نوردها .

وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإماماستفتحة بمعقب من الدول الأخرى . فلاأمة من الأمم ذوات الملل (٧)؛ وذوات الدول ، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ، ويعولون عليه . ينقله

(١) في ب « منه » والتصحيح من أ و ل .

(٢) في أ « أن تطعمها » .

(٣) في أ « أخل » .

(٤) ساقطة في أ .

(٥) في أ « الشفاعه » .

(٦) في أ « منه الفريقان » .

(٧) في أ « الملك » .

خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها ! . تقيد به شوارد الأيام ، وتنصب به معالم الأعلام .

ولولا ذلك لاتقطعت الوصل ، وجهلت الدّول ومات في أيام (١) الآخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس أنهم امرق الثرى ، وأنهم نطف في ظلمات الأصلاب طويلة السرى (٢) . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذى تقادم لآدم . وقد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم (٣) لما أراده من ظهورهم .

(ليعلم المرء) (٤) قبل انقضاء عمره ؛ وقبل نزول قبره ؛ ما استبعده اهل الطى (٥) من حقيقة النشر ، وتقيل في واحدة من الأطوار شهادة عشر ، فقد قطع عمرا بعد عمر ، وسار دهرأ بعد دهر ، وثوى وأنشر في ألف قبر ، وإنما كان من الظهور في ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر .

ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها ، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها ، وما وراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومه ، وكان أول من اشترى الموت نفسه ، وقام النزع مقام سومه (٦) ، ثم أرخ الأولون بالطوفان الذى بلل الأرض وأغرقها ، ثم بالعام الذى بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت القرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولها كلشاه (٦) ومعنى هذا الاسم ملك الطين ، فاليه ترجع

(١) في آء الأيام .

(٢) السرى : سير عامة الليل ، والمقصود هنا ، طول سير النطف في الظلمات وتنقلها في الأصلاب .

(٣) قال الله تعالى في الآية ١٧٢ من سورة الأعراف « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » .

(٤) ما ذكر من أوقب ول « فليل المرء » .

(٥) الطى : ضد النشر والمقصود بأهل الطى ، المنكرون للبحث والتشور .

(٦) سومه : أى مساومته على بيع نفسه .

(٦) كلشاه : كلمة فارسية معناها : آدم . وهو اسم أول ملك من البشاديين « كيومرت »

(انظر معجم الألفاظ الفارسية د . محمد موسى هنداوى) .

الفرس بأنسابها . وعليه يتسق (١) عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد (٢) آخر ملوكها . وهو الذى بزّه الإسلام تاج إيوانه . وأطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس (٣) أبى الاسكندر (٤) وإلى قلوبطرة (٥) آخرهم ؛ وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون . وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره ، وشهرة أثره . وأرخ النبط (٦) - بالعراق - والقبط - بمصر - بتواريخ موجودة فى الكتب التى خلدها ، والأزياج (٧) التى رصدها . وأرخ اليهود بأنيابهم وخلفائهم ، وبعمارة البيت المقدس (٨) وبخرابه (٩) على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فكانت

(١) فى أه يتسق .

(٢) هو يزدجرد الثالث وقد قتل سنة ٣١ هـ = ٦٥٢ م فى عهد الخليفة عمان بن عفان رضى الله عنه وموته زالت النولة الساسانية . من حكم فارس (تاريخ الإسلام السياسى د . حسن ابراهيم حسن ج ١ : ٢٣٢) .

(٣) هو فيليب الثالث ملك مقدونيا من ٣٥٩ ق . م . إلى ٣٣٦ ق . م .

(٤) يقصد الاسكندر الأكبر المقدونى الذى ترامت امبراطوريته من مقدونيا وشملت اليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس والشام ومصر من (٣٣٦ ق . م . - ٣٢٣ ق . م .) .

(٥) يقصد كليوباترا آخر ملكة من أسرة البطونية - الذين حكموا مصر من ٣٣٣ ق . م . إلى ٣٠ ق . م . - بعد هزيمتها فى موقعة اكتيوم هى وحليفتها أنطونيوس على يد أوكتافيوس الرومانى

(٦) النبط : قوم ظهوروا على مسرح التاريخ حوالى القرن الخامس قبل الميلاد واتسرو بقاؤهم قرابة ستة قرون ، كانوا بمنطقة الحجاز الأعلى ثم نزحوا إلى وادى العربية وخليج العقبة بعد تملئهم على الأدوميين ، وقد امتدت دولتهم حتى شبك دمشق ، وظلت قوية حتى احتلتها الرومان بعد احتلال عاصمتهم البتراء سنة ١٠٦ م .

(٧) الأزياج : جمع زيچ وهى كلمة فارسية الأصل معناها الجدول الذى يستعمله الفلكيون فى رصد النجوم (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير) .

(٨ و ٩) عمره نبى الله الملك سليمان بن داود (٩٦٠ - ٩٣٥ ق . م .) ، وقد استقرت عمارة ، سبع سنوات . أماخرابه فقد قام به بختنصر (نبوخذ نصر) الكلدانى بعد أن أسقط بيت المقدس ٥٨٦ ق . م . وأرسل السكان أسرى إلى بابل حيث ظلوا سبعين عاما ثم سمح لهم كورس ملك فارس بالعودة وبناء الهيكل ثانية .

حمير تؤرخ بالتبابعة (١) ممن يلقب بـ « ذو » (٢) ويسمى بـ « قيل » (٣). وكانت غسان (٤) تؤخ بعام السد (٥) حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشه على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه (٦). وأرخت معد (٧) بغلبة جرهم (٨) للعمالق واخراجهم عن الحرم . ثم أرخوا بعام القناد - وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار

(١) حمير والتبابعة : قبائل من العرب القحطانيين أنشأوا مملكة بين سبأ والبحر الأحمر في جنوب الجزيرة العربية حوالي ١١٥ ق . م وكان مقر ملكهم مدينة ظفار التي عرفت فيما بعد باسم ويدان . وكان ملوكها يلقبون بالتبابعة (جمع تبع) وقد دامت هذه المملكة قرابة ٦٤٠ سنة حتى قضى عليها أرياط الحبشى سنة ٥٢٥ م (ارجع إلى تاريخ اسلام السياسي د . حسن ابراهيم ج ١ : ٢٩ - ٣١) و (تاريخ العرب العام لسيدو ص : ٤٨) .

(٢) القيل : الرئيس وهو لقب كان يطلق على الملك من الحميريين . وكلمة تبع كانت تطلق عليه إذا ضم إليه حضرموت . وكلمة ذو كانت تضاف إلى اسمه ، مثل ذو نواس .

(٣) (٥) بعد تهتم سد مأرب وكان ذلك حوالي ٥٤٣ م (كما جاء في كتاب العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان ص ١٦٨) هاجرت قبائل من الأزد واستقرت على ماء يقال له غسان على حدود الشام بعد تغلبها على السكان الأصليين وهم الضباجنة ، وعرفوا باسم هذا الماء وكان أول ملك لهم هو جفنة بن عمرو وظلت هذه الدولة تحت حماية الروم حتى قضى عليها المسلمون سنة ١٣ هـ (تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٤١) و (تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان ج ١) .

(٦) في سنة ٥٢٣ م اعتنق يوسف ذو نواس ملك حمير اليهودية واضطهد المسيحيين وكانت حادثة الأخذ التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم . فقام الأحباش باخضاع اليمن ٥٢٥ م وأذلوا أهل البلاد قرابة خمسين عاما . ثم استنجد سيف بن ذي يزن الحميري بالفرس على الأحباش فأغضبوا اليمن لسלטاتهم سنة ٥٧٥ م وأصبح سيف حاكما من قبل الفرس (تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٣١ - ٣٢) و (تاريخ العرب العام لسيدو ص : ٤٨ - ٤٩) .

(٧) (٨) معد : هو ابن عدنان وينتهي نسبه إلى رسول الله اسماعيل عليه السلام ومن أجداد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أما جرهم : فهم القبائل القحطانية الأولى التي هاجرت من اليمن واستقرت حول الحرم المكي وقد اختلطت بهم هاجر زوجة النبي ابراهيم عليه السلام . ثم صاهرهم بعد ذلك اسماعيل عليه السلام . والعبارة في (أ) (وأرخت معد بغلبة جرهم للعمالق) وعبارة (واخراجهم من الحرم) ساقتة .

فنقلوا منها ، وافترقوا عنها . ثم أُرخوا بحرب بكر وتغلب (١) - ابني وائل - وهى حرب البسوس (٢) . ثم أُرخوا بحرب عيس وذبيان - ابني بغيض - وهى حرب داحس والغبراء (٣) ، وكانت قبل البعث بستين سنة . ثم أُرخوا بعام الخننان (٤) . قال النابغة الذبياني (٥) .

فمن يك سائلا عنى فانى من الفتیان فى عام الخننان
وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخاتق ، وعام
الذنائب (٦) : ويوم ذى قار (٧) ، وبحرب الصغار (٨) ، وهى

(١ و٢) حرب البسوس : حرب قامت قبل الاسلام من ٤٩٤ م إلى ٥٣٤ م بين قبيلتي بكر وتغلب وسبها أن كلييا بن ربيعة عقر ناقة لامرأة عجوز تدعى « البسوس » بنت منقذ التميمية وهى خالة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، فقتل جساس كلييا فقامت الحرب (تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٢٢ و ٥٠ - ٥٧) .

(٣) حرب داحس والغبراء : بعد انتهاء حرب البسوس بقليل ، قامت هذه الحرب بين قبيلتي عيس وذبيان وسبها أن دحسا حل قيس بن زهير سبقت الغبراء فرس « حمل بن بدر » بعد أن رد قتيبة قيس الغبراء عن بلوغ الغاية وقد ظلت من (٥٦٨ - ٦٠٨ م) .

(ارجع إلى تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٥٧ - ٥٩) و (تاريخ العرب العام لسديو : ٥٥)

(٤) الخننان : داه يأخذ الطير فى حلوقها وأعنيها ، وزكام يصيب الابل كالوباء . وانتشر هذا الوباء فى الابل فى أحد أعوام حكم المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (٥١٠ - ٥٣٣ م) .

(٥) النابغة الذبياني : هو أبو امامة ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني النخعي المصري ، أحد أشراف الجاهلية وأفن شعراء الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، كانت تقرب له قبة بسوق عكاظ ، ويقصد الشعراء يعرضون عليه أشعارهم وكان حظيا عند التمنان بن المنذر ، وكان حسن شعراء العرب ديباجة ولا تكلف فى شعره أو حشو ، مات ٦٠٤ م تقريبا (الأعلام لزركل ج ١ : ٣٤٢) .

(٦) عام الذنائب : عام حدثت فيه واقعة من وقائع حرب البسوس عرفت بيوم الذنائب ، طفر فيه التليليون وقتلوا من بكر مقتلة عظيمة (العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان : ٢٦٦) .

(٧) يوم ذى قار : فيه انتصر عرب بكر على اياس بن قبيصة حاكم الحيرة وحلفائه من الفرس وذلك من سنة ٦١٣ م = ٣ فى البعثة النبوية وقد فر اياس على فرسه (الحمامة) وبقيت الحيرة تحت حكم الفرس حتى فتحها خالد بن الوليد ١٣ هـ = ٦٢٣ م (تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٤٠) (والعرب قبل الاسلام لجورجى زيدان) .

(٨) حرب الفجار : حروب أربعة وقعت بين قبائل العرب فى الأشهر الحرم قبل البعثة النبوية ، ودامت تسع سنوات وقد خاضها النبي مع أعمامه وهو ابن ١٤ سنة (تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٥٩ - ٦٣) (وتاريخ العرب العام : ٦٦) .

أربع حروب ذكرها المؤرخون ، وأسندها الراون . وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول (١) منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيين (٢) - وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل (٣) وهو الجار ذوالقربي لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة (٤) فطويت الصحف وجفت الأقلام .

وأظهر الله على الأديان الدين القيم (٥) ، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم ، فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم ، وجبت الهجرة ما قبلها جباً الأنوار للظلم . ودفع الله الناس بعضهم ببعض ، واستدار الزمان كهيشته يوم خلق الله السموات والأرض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس ما يعيده اليهم مضاعفاً من القرض .

ووقت هذه الهجرة الوقت (٦) الذي أمر به أمر الاسلام ، ويومها اليوم (٧) الذي ما ولدت الليالي مثله من بينها الأيام ، وعامها الخالص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامه

(١) حلف الفضول : حلف أخذت فيه قريش على نفسها ألا تجرد في مكة مظلوماً إلا نصرته ولا ضالاً إلا آوته وقيل كان في سنة ٥٩٥ م (تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٥٠) و (تاريخ العرب العام : ٦٧) .

(٢) حلف المطيين : حلف عقده عبد مناف من ولد قصي بن كلاب مع بعض بطون العربية ضد بني عمروهم - بني عبد الدار - وكانوا قد رفضوا النزول عن امتيازات لهم من عهد جددهم قصي ، وسعى بذلك لأن الطرفين المتخالفين غمسا أيديهم في إثناء طيب على مقربة من الكعبة (سيرة ابن هشام) .

(٣) عام الفيل : كان تقريباً عام ٥٧٠ م وقد هاجم فيه أبرهه مكة ليهدم الكعبة ويحول الناس للحج إلى كنيسته بناها في صنعاء بآيمن ، وقد أهللكه الله تعالى وجيشه كما جاء في القرآن الكريم .

(٤) هو النبي محمد صل الله عليه وسلم وهو امام الأنبياء .

(٥) في آاه القويم .

(٦) ساقطة في آاه مثبتة في ب و ل .

(٧) ساقطة في آاه مثبتة في ب و ل .

معلوق (١) ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير المملوق (٢) ، وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت المقدس ، وقائمها السلطان «صلاح الدين أبوالمظفر يوسف بن أيوب» . وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلنها دآء (٣) المداد وتنشق (٤) ، وهي وان كانت هجرة الاسلام الى القدس (٥) ثانية ؛ فقد كان انثى عن وطنه منها لما تثته يد الكفر ثانية .

وهذه الهجرة أبى المجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبى (٦) الكرّتين . فان العرب كانت اذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت (كأنه كسر ثم جبر) . والحق أن نقول : إن أطول الحياتين حياة المرء اذا مات ثم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السويدين ماعمر بعد أن تُغر ، والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الأمر فرق يتبين تبيين الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر .

فان الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل في طريقه من السماء الى الأرض يريد (٧) ، والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل (٨) سيوفها من أجفائها ، والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بجزيره في الفتح منها بعيانها . ورسول عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات الموثقة مختلفة ، ونجدات السماء الى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفة (٩) .

(١) يقال اعتق فلانا بكذا ، إذا اختصه به والمقصود أن أمد الهجرة مختص بالقيامه

(٢) أى المخلوط .

(٣) دآءى : جيع داداه ودوؤد ، من اليالى : الشديدة المظلمة والمقصود هنا سواد المداد الذى يشبه الظلمة في لونه .

(٤) في «أ» تناسق .

(٥) في «أ» البيت المقدس .

(٦) في «أ» أقوى .

(٧) الرسول ، أو المسافة التي يسيرها وقدرت بانثى عشر ميلا .

(٨) في «أ» تسال .

(٩) مسومة : معلمة . مردفة : متتابعة .

وقد اخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها .
 وأنه سيلبغ ملك أمته المثوبة (١) المرحومة ماضمت عليه جوانبها . والروم
 حيثئذ بغاث ما استنسر (٢) : والفرس يومئذ رخم ما استبصر (٣) ،
 والحديد ماتنوعت أشكاله الرائعة ، ولا طبع سيفه هذه القاطعة ، ولا نسجت
 ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف الامشيدة لامجلة (٤) ، والمنجنقات (٥)
 لايوتوب مايتوب (٦) اليوم من خشبها المسندة . والأقران لانتراجم بالنيران
 المدكاة ، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة (٧) .

وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا ،
 والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون الى الموقف حفاة غرلا (٨) ، وكانوا
 أحرص على الموت منا على البقاء ، وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على
 لقاء الأعداء بذلك اللقاء .

والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس
 شيبا ، وهريق شبابه ، واستشسَن (٩) أديمه ، وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا ،
 وقد اطلع شرف السمتانة وهى للملك المعترك ، وكثرت معائره بما نصب
 الشرك من الشرك ، وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب (١٠) ، وذوى
 غصنه وكان الرطيب ، ونصلت كفه (١١) . وكانت الخضيب .

(١) في «أ» المثابة .

(٢ و٣) بغاث الطير : شراره . الرخم ، طائر من الجوارح الكبيرة الوحشية الطباع .

والمقصود بالبارتين ، أن الروم والفرس كانوا ضعفاء على الرغم من شرورهم .

(٤) البروج المجلدة : أى الحصون التى فى حاجة إلى التمكن والتقوية .

(٥) المنجنق : آلة لرمى الحجارة على الأمكنة البعيدة المرتفعة . (القاموس المحيط) .

(٦) في «أ» توتوب .

(٧) أى المقطعة .

(٨) النزل : الذى يخبئ ، والمراد بذلك أنهم «حماة عمارة غرلا» .

(٩) أى بلى جلده .

(١٠) الجديده للتنظيف الأبيض .

(١١) نصلت كفه : حرمت من الحصاب ، وكان من عادة سادة القوم وكبرائهم الاختصاب

بالحناء ونحوها .

وطال الأمد (١) على القلوب ففتت ، ورائت (٢) الفتن على البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه ، ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الجزل في الآخرة كسبه. والكفار قد خشنت عرائكهم (٣) واتسعت بمالكهم ، واستبصروا في الضلال (٤) ، واستبضعوا للقتال ، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون امامهم من البرناشية الصوت (٥) . .

وقاتلوا جندا ورعية ، واستباحوا الأنفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) (٦) وامدهم في طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ، واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها الامزور الشفاه على القطوب بلا بشر ولا مزح . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم (٧) (وهم فيها كالحون) (٨) ، زرقا كأنما عيونهم من حديدهم فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قلوبهم ، ونقلها (٩) الى غروبهم ، وعذب بهم لما يريد من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم ، تستعيد المردة (١٠) من مردتهم ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفتلتهم .

فضاظ غلاظ ، جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ (١١) ،

(١) في واه الأمل .

(٢) رائت : غطت .

(٣) شديد المريكة : أب شديد النفس .

(٤) استبصروا في الضلال : المقصود هنا أنهم تمادوا فيه .

(٥) ناشية : رائحة ، ونشأ الخبر ، علمه . والمقصود أنهم يطلبون كل ناطق ليقطروه .

(٦) الآية ٤٣ سورة الأنعام .

(٧) في واه لفحت وجوههم النار .

(٨) الآية ١٠٤ سورة المؤمنون .

(٩) في واه نقلها .

(١٠) المردة : الجن العاتية .

(١١) شواظ : لهب لادخان فيه ، حر النار أو الشمس .

(لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولم أعينٌ لا يبصرون بها ولم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أوائك هم الغافلون) (١) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة ، فهم المكئي عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (٢) . وإلا فالحجارة لاستحق الوقود ، إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود .

ومضت ملوك الاسلام ، ومضت (٣) أيامهم كالبارق وان لم يخلع الاضلام ، وزادت أيامهم الأيام خيالا فتنازع الناس (٤) طرائف الأحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم ، وكانوا محاربين كسالمين وبدلوا جهدهم فلا تقول أنهم مظلومون بالعجز وما نسيمهم ظالمين .

اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (٥) و (كل يوم هو في شأن) (٦) ولكل مقدور أجل ، ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير ، والأيام تمخض وتمطل بالزبدة (٧) ، والسور تتلى الى أن تأتي بالسجدة (٨) ، والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عدة ، والعذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدّرت وما العجز الا ما تجر المقادر وأبى (٩) الله من يقبل عذرا صحيحا ، وكفى بلفظة النبوة لوما صريحا (١٠)

(١) الآية ١٩ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٦ سورة التحريم .

(٣) التصحيح من «أه» وفي ب و ل ومضت .

(٤) زيادة من «أه» وهي ساقطة في ب و ل .

(٥) الآية ١٩ سورة الرعد .

(٦) الآية ٢٩ من سورة الرحمن .

(٧) مطل : سوف وأخر . الزبدة : الخلاصة والعبارة كناية عن أن الأيام تبخل بالمطلوب

والنفيس .

(٨) في «أه» السجدة .

(٩) في «أه» أي والله .

(١٠) أي أن الله تعالى عاتب رسوله عليه الصلاة والسلام في بعض الأحيان فكيف لا يلام هؤلاء على تقصيرهم في الجهاد .

فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها ؛ وأظهر الآية التي لا أخت لها ؛
 فنقول : فهي أكبر من أختها ؛ أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها ، ووصلت
 الدنيا الحامل الى تمام شهرها . وجاءت بواحدتها الذي تضاب اليه الأعداد ،
 ومالكها الذي له السماء خيِّمة والحبك (١) أطناب والأرض بساط والجبال
 أوتاد ، والشمس دينار والقطر دراهم والأفلاك خدم والنجوم أولاد
 (صلاح الدنيا والدين) . ومهما دعونا له فان الله قد سبق اليه كونا ،
 ورأينا بين منانا وبين كرمه بؤنا . فهو سبحانه أكرم بالنوال منا بالسؤال .
 والكريم بكرم الله مجزى ، والساكت عن الدعاء له مكفى .

فان قلنا : أحسن الله اليه : فقد قال (إننا لا نُضِيعُ أجر من أحسن
 عملا (٢)) . وان قلنا : جزاه الله بالاحسان : فقد قال (هل جزاء
 الإحسان إلا الإحسان) (٣) وان قلنا : هداه الله سبيله : فقد قال (والذين
 جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٤) : وان قلنا : لا ضيع الله عمله : فقد قال
 (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل) (٥) . وإن قلنا : لاجعل
 الله لدهر عليه سيلا : فقد قال (ما على المحسنين من سبيل) (٦) . وان
 قلنا : زاده الله هدى : فقد قال (والذين اهتدوا زادهم هدى) (٧)

كل مستول سائل في معاليه قد كل
 لا يسئل منه (٨) سائل سبق الجود ما سأل
 ولتُصحح (٩) تأملا تجمد (١٠) الله قد فعل

(١) الحبك من السماء : طرائق النجوم .

(٢) الآية ٣٠ سورة الكهف .

(٣) الآية ٦٠ سورة الرحمن .

(٤) الآية ٦٩ سورة التكبوت .

(٥) الآية ١٩ سورة آل عمران .

(٦) الآية ٩١ سورة التوبة .

(٧) الآية ١٧ سورة محمد .

(٨) في (أ) منه وفي ب ول فيه .

(٩) في أ ولتصح وفي ب ول وليصح .

(١٠) في واه تجمد وفي ب ول يجمد .

ونعود إلى ذكره - أعز الله ذكره - فجاد إلى أن لم يبق مال ولا أمل ،
 وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قتل (١) فلا كفتح على يديه فتح (٢)
 وما هو فتح واحد ؛ ما هو الا فتحان : فتح والدم ذائب ، وفتح الذهب
 جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا ، بأغرب من البلاد التي فرقها مانحا .
 فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن حديدا ، وزاد لأنه ضرب
 بالسيف التي كسرهما (مدى ومثالا) (٣) ثم ضربها ، [واستوعب جوده
 ما وادت المعادن ذهباً وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع ثم نهبها فوهبها .
 فكل معاد معادى الا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسود الا هذا المداد .
 (أفسح هذا أم أنتم لاتبصرون) (٤) ، أما يرى الناس ما على وجه الصدق
 من قبول القرائح ! وما على يد الجود من قبل المدائح] (٥) .
 الناس أكيس من أن يمدحوا ملكا ولم يروا عنده آثار احسان

وانا لرجو أن نكون قد كتبنا بملحه مع الصادقين الذين أمر الذين
 آمنوا أن يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لأننا أحسنا وصف
 احسان الله الى عباده ، ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإننا وان كنا رعاياه لرى
 أنفسنا ملوكا ورى الملوك وهم له سوقة ، وان القلم في ايدينا ليهتز طربا
 لذكره كأنه جان : وكان السيف يشنع بأنه فروقه . ولستا نسميه قصيرا
 وان جلع أنفه . ولكننا نركبه كما ركب قصير العصا الى وصف هذا السلطان
 ليلرك وصفه .

ونقول للقلم اذا فاخره السيف (ان شانك هو الأبر) (٦) ونريد
 اذا أوردناه وصف مولانا ؛ (إننا أعطيناك الكوثر) (٧) . على أن هذا
 القلم يلزم الأدب لذكره - أعلاه الله - فينكس رأسه ، ويقبل بين يديه

(١) في «أه فلل . والقتل : جيع قلة وهي أعلى الجبل .

(٢) في «أه (فالفتح على يديه فتح) .

(٣) زيادة من «أه .

(٤) الآية ١٥ سورة الطور .

(٥) ما بين المقوفين ساقط في «أه .

(٦) (٧) الآية ٣ و ١ سورة الكوثر .

[كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولست يبعيد في تقييد هذه المفاخر ، وتشديد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتنوا بين يديه وأوجبوا الحق عليه ، بل حتى من حقوقهم أوجه وأوجب ، وقلبي من سيفهم أضرى وأضرب ، ومن رماحهم أنخطى وأنخطب ، ومن سهامهم أنجى وأنجب (١) ، ومن قسيهم أكمى وأكسب ، (٢) ومن جيادهم أسرى وأسرب (٣) . ومدادى من نغمهم أغلى وأغلب (٤) ، وقرطاسى من رايانهم أجلى وأجلب (٥) . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد (٦) ، وآثار السيف من الجراح قد رقأ دهما (٧) ، وآثارى من الذكر لا تحمد ولا تحمد .

وما السيف أسوى ضربة من لسانيا

فكل أثر خبير به غيرى يموت الخبير بموته ، وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته ، والذى أخبر أنا به عته روض يزهو اذا أقلمت الأيام سحبا ، ونجم يبدو اذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهباً ، فهو قول يذكر وينسى كل فعل وقاعله ، لاقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتى في غد الاجاهله . فهذه الكتب تهب الأعمار الثانية . وتُفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية (٨) .

(١) أى أن قلته أقطع وأشد أثرا .

(٢) من قسم أكمى وأكسب : الكناء بفتح الكاف : المجد والشرف والمعنى أن قلته يكسب المجد والشرف .

(٣) ومن جيادهم أسرى وأسرب : السرب بسكون الراء : الطريق والوجهة والمقصود أن قلته أسرع وجهة .

(٤) النقع : رفع الصوت ، والغيار يثار عند الحرب .

(٥) أجلى وأجلب : أى أشد ظهوراً ، وأقوى في جميع الناس لقيام بالحرب .

(٦) يقال: عمد الشيء : إذا أسقطه أو ضربه بالعمد - والمقصود أنه لا يضرب بالعمد كما تضرب السيوف .

(٧) رقأ الدم : جف وانقطع .

(٨) ما بين المقوفين ساقط في أ

[فانظروا الى ايوان كسرى (١) وسينية البحرى (٢) في وصفه ،
تجدوا الايوان قد خرت شعثاته (٣) ، وعفرت شرفاته ، وتجدوا سينية
البحرئى قد بقى بها اسم كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقى شخصه في ايوانه ،
وانما نراوح بين الأوصاف الغادية ، ونناوب بين السمات السامية ، للإشارة
الى من ينبه على مسماه ، وينوه بسماه .

فأما من يقول الله لاسمه « أنت من معقبات حمدى » ويقول
الدهر لذكره « أنت الباقى من بعدى » فأما يلزم الأدب بوصف فضل
العظيم ، ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم [(٤)] .

[ويسر الله هذه الفتوح وأنزل بها الملائكة والروح ، في أيام سيدنا
ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد (٥) بن الامام
المستضىء بالله أبى محمد الحسن بن الامام المستنجد (٦) بالله أبى المظفر
يوسف بن الامام المقتدى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن الامام المستظهر بالله
أبى العباس أحمد بن الامام المقتدى بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام
القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبى العباس أحمد بن الأمير
اسحاق بن الامام المتقدر بالله أبى الفضل جعفر بن الامام المتضد بالله] (٧)

(١) ذكرى ياقوت أن ايوان كسرى الذى بالمدائن هو من بناء كسرى ابرويز ، وأنه كان
هناك ايوان آخر لسابور بن أردشير .

(٢) هى القصيدة التى قالها البحرئى الشاعر في وصف الإيوان ومطلعها :

صنت نفسى عما يندى نفسى وترفت عن جدا كل جيس

والبحرئى : هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى ، أبو عبادة ، ولد بمنج سنة ٢٠٦ هـ ،
ورحل إلى العراق واتصل بالخلفاء وأولم المتوكل العباسى ثم عاد إلى الشام ، وتوفى بمنج سنة
٣٨٤ هـ (الأعلام للزركلى ج ٣ : ١١٨٣) .

(٣) الشمعات : رهوس الجبال والمقصود أعالي الايوان .

(٤) ما بين المعوقين ساقط في «أه» .

(٥) الناصر لدين الله أبو العباس أحمد : ولد سنة ٥٥٣ هـ وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه
المستنجد بالله سنة ٥٦٥ هـ وقد لبث في الخلافة ٤٦ عاما ولم يزل الخلافة من هو أطول مدة منه ،
توفى سنة ٦٢٢ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦١-٢٦٢ ط . دار الكتب) .

(٦) في ب المستنجد والتصحيح من ل .

(٧) ما بين المعوقين ساقط في «أه» .

[أبي العباس أحمد بن الموفق بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله
 أبي الفضل جعفر بن الامام المعتصم بالله أبي اسحاق محمد بن الامام الرشيد بالله
 أبي جعفر هارون بن الامام المهدي بالله أبي عبد الله محمد بن الامام المنصور
 أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صلوات الله عليه
 وعلى آبائه (١) الطاهرين والخلفاء الراشدين ، وهي الأيام التي زواهر أيامها
 زواه ، ومضاء مضاربها في القضاء مضاه .

فما أجملها فضلا وأفضلها جلالا ، وأقبلها جدا وأجدها اقبالا ، وأقربها
 ندى ونوالا ، وأبعدها مدى ومنالا] (٢) وما أعلى سنى مجدها ، وأحلا جنى
 رقدتها ، وأفعم ريا رياض فضائلها . وأفعم حيا (٣) حياض فواضلها ،
 وأسح سماء سماحها أمطارا ، وأصح جناح نجاحها مطارا . والسلطان
 صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته وداعى
 نصرته ، ووليه الطائع وسيفه القاطع ، والمحكم بأمره ، والمؤمر بحكمه .
 قرأيت ابداء ميامن هذه الأيام الغرّ على الآباد بفرر الآداب ، وقيدت
 شوارد معانيها ، وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب ، وأودعته من فوائد
 الكلام والقرائد القذ والثّوام ، در السحاب ودر السحاب (٤) .

وسميته « الفتح القدسي » تنيها على جلالة قدره ، وتنويها بدلالة
 فخره . وعرضته على القاضى الاجل الفاضل (٥) ، وهو الذى فى سوق
 فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال لى : سمه (الفتح القمىّ فى الفتح

(٣) لقد تقال المؤلف رحمه الله فأجرى على العباس ما لايجرى لإهل الأنبياء دون سائر
 الناس .

(٤) ما بين المعقنين ساقط فى « أ » .

(٥) الحيا : المطر والمصّب .

(٦) السحاب : قلادة من سك وقرنفل ومحب بلا جوهر .

(٦) القاضى الفاضل : هو عبد الرحيم بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن حسن اللخنى
 البيسانى ، أبو علي ، محي الدين السقلا فى المولد ، المصرى الدار ، وزير صلاح الدين الأيوبي ،
 برز فى صناعة الانشاء وفى العلم والبيان ، وكان مع فضله كثير العبادة ، تاليا للقرآن الكريم
 ديننا خيرا ، مات سنة ٥٩٦ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ . ١٥٦-١٥٧ ط . دار الكتب) .

القدمى) فقد فتح الله عليك فيه بنصاحة قس (١) وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته .

ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها ، وأنشأت رياضى بسحبها ، وما شهدت الا بما شاهدته وشهدته ، وما استمطرت لإعهاد العهد الذى عهدته ، وما عنيت الا بإيراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على أس ما تيسرته فينته ، وما توخيت الا الصدق ، وما انتهيت إلا الحق ، ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت الا ما يرضى الله ولا يسخط . وبالله التوفيق والعصمة ، وله الحمد ومنه النعمة .

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الأقطار والبلاد ، يستنعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر الغزو ، من الحضرة والبلد .

وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استجداد الجنود ، واستحشاد (٢) الحشود ، واصحار (٣) الأسود ، واحضار البيض والأسود ، مضى العز ، ماضى العزم ، صائب السهم ، ثابت الفهم ، ثابت السعود ، كابت الحسود ، وخيم على قصر سلامة من بصرى (٤) ، وكفت (٥) يد رعيه الطولى من الفرنج اليد القصرى ، وأقام (٦) على ارتقاب اقتراب

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من بني ابياد ، أحد حكماء العرب في الجاهلية ، وأسقف نجران ، أول عربي خطب متكئا على سيف أو عصا ، وكتب « من فلان إلى فلان » وقال في كلامه « أما بعد » ، طالت حياته وأدركه النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ورآه في سوق عكاظ ، وسئل عنه فقال « يحشر أمة وحده » (الأعلام للزركلي ج ٢ : ٧٩٥) .

(٢) في ١٧ هـ أو احتشاد .

(٣) إصحار الأسود : مشيم في الصحراء ، يقال أصحرو القوم ، : إذا مشوا في الصحراء .

(٤) بصرى : بلد بالشام ، كانت من أعمال دمشق وهي قصة كورة حوران (معجم

البلدان ج ٤ : ٤٤١ ط . بيروت) .

(٥) كفت في بول أناني « أ » (كفت) .

(٦) في « أ » فأقام .

الحجاج ، وقد رتب الفرنج من الأرصاء أفواجا على تلك الفجاج ، لاسيما ابرنس الكرك (١) ، فانه كان حريصا على الدرك ، ناصبا شر الشرك . نصب الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد ، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . ووصل الحجاج في أول صفر وقد قضوا حاجهم ، ورضوا منهاجهم ، وخرجوا عن (٢) فرضهم ، ودخلوا الى أرضهم ، وفرغ القلب من شغلهم ، وخف (٣) ما لزم من ثقلهم . وانتظر السلطان وصول العسكر المصرى المستدعى ، ورعى منه حصول العدد المسترعى . فأبطأ عليه وروده ، واختلفت في الاسراع وعوده ، فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل ونور الدين عليا (٤) ؛ ولم يزل مكانه عنده عليا ؛ أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء (٥) ، وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء .

وتقدم السلطان في أتباعه وأشياعه ، الى الكرك وضياعه ، فأقام عليها يرهق ويزهق ، ، ويحرب (٦) ويحرق ، ويرعب بصاعقة بأسه ويبرق ؛ حتى ألحق الموجود بالمعدوم ، وأتى بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع ، وعرى الدرور ، واستأصل الأصول والفروع . حتى أقوت من الأقوات ، واستعرت الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت آجال الأرزاق ، وانحلت عرا الأرماق . وأقفر بلد الشرك ، وامتلأ من الكرد والترك .

(١) هو ارناط وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام *Renauld de Chatillon* (مفرج الكروب ٢ : تحقيق د . الشيال : ١٩٢) والكرك : قلعة بنواحي اللقاء بين أيلة والبحر الأحمر وبيت المقدس على جبل عال (معجم البلدان ج ١٦ : ٤٥٣ ط . بيروت .) .
(٢) في ١٧ هـ من .

(٣) في ١٧ هـ خفف .

(٤) الملك الأفضل نور الدين علي : هو أبو الحسن ، ابن صلاح الدين ، ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ ، كان ملك الشام في حياة أبيه ثم من بعده ، اختلف مع أخيه العزيز وعمه المعادل وتقلبت به الأحوال إلى أن صار صاحب سميساط وبقى بها إلى أن مات سنة ٦٢٢ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٢٢-٦٢٣ ط . دار الكتب) .

(٥) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب في حوران على بعد نحو عشرين ميلا شمال درعا

The Damascus Chronicle p 306

(٦) يقال حربه يحربه حربا . إذا سلب ماله ، ورجل حرب ومحرب : شديد الحرب شجاع .

وسار الى الشوبك (١) فأسأر به شوبيا (٢) ، وألحفه من عربيه ثوبيا . وأخلاه من زرع ونبات ، وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع ، وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال ، وداس الغلال . وقشر الرى وبشره ، وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون مسكونها ، وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها ، وقد عدم ليلها المصباح ، وصباحها الاصباح .

ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين ، وفرقه على أعمال القلعتين ، وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين . والمملك الأفضل ولده مقيم يرأس الماء ، فى جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة ، والحواصل الواصلة ، والعساكر الكاسرة ، والقساور (٣) القاسرة (٤) . والبواتر الواطرة . والخضرم (٥) الضرم (٦) ، والعمرم (٧) العرم ، واللهم (٨) الملتهم . والجيش الجائش (٩) ، والترك والأكادش (١٠) . والجنود والبنود (١١) والأسود السود . والقبائل (١٢) الفوائى (١٣) . والبيارق (١٤) البوارق .

- (١) الشوبك : بلد صغير كثير البساتين وغالب ساكنيه من النصارى وهو على طرف الشام من جهة الحجاز وينبع ، به قلعة حصينة (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤ حاشية ٣) .
- (٢) فأسأره شوبيا : الشوبية : الخديمة . والشوب ، الخلط . أسأر : أبى بقية .
- (٣) جمع قسورة وهو الأسد .
- (٤) القاسرة : القاهرة ، من قسره على الأمر .
- (٥و٦) الخضرم الضرم : أى السيد الجمول الجاد .
- (٧) الجيش الكثير .
- (٨) الجيش العظيم .
- (٩) الجائش : الفائر .
- (١٠) جمع أكديش وهو لفظ يطلق على الحصان الخليلط أو غير الأصيل أو الصغير غير الجيد ، وقد يستعمل اللفظ أحيانا للخيل الصغيرة الجياد . وقد كان سلاطين المماليك يقدمونها هدايا للأمرأه (Dozy. Supp. Dict. Arabe) و(مفرج الكروب ج ٢ : ٤٢٧ تحقيق د. الشيال)
- (١١) البنود : الأعلام الكبيرة ، مفردها بند .
- (١٢) القبائل : الجيوش ، الرجال النظام .
- (١٣) الفوائى : مفردها فلق يكسر الفاء وهو الداھية .
- (١٤) البيارق : جمع بيرق ، وهى الراية

وبنات الأعماد (١) قد برزن من خدورها حبا لمعاينة العدا ، ظامئات الى ورود (٢) الوريد وما أحسن حلى نجيع الكفر على عرائس الهدى .

والعزم يستنهضه ، والعز يحرضه ، والدين يستبطيه ، والنصر يستعطيه .
والقدر يحركه ، والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره ، والاسلام قد مت (٣) بعذره . وهو ينتظر أمرا من أيه يأتيه بما يأتيه ، ويكتب اليه ويقتضيه ، من رأيه بما رأيه يقتضيه .

ولما استمر تأخر الأمر استمر التأخير ، وقدم في الاقدام التبخير والتكبير . وانتهاز الفرصة وأحرز الحصاة . وانتخى (٤) وانتخب الأجناد الأجناد (٥) ، وجرّد الجرد (٦) واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية ، وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طَبْرِيَّة (٧) . و(عليهم) مظفر الدين بن زين الدين على كوجك (٨) المقدم المقدم ، والممام الهمام ، والأسد الأسود . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق وقايماز

(١) بنات الأعماد : تصد بها السيوف في أغنادها .

(٢) فب و أ (ورد) وما ذكر في ل .

(٣) مت : مد .

(٤) انتخى : افتخر وتعظم أى انتخب من يفتخر به .

(٥) الأجناد : جمع نجد ، وهو الشجاع الماضى فيما يعجز غيره ، السريع الإجابة إلى

مادعى إليه .

(٦) الجرد : جمع اجرد وهو السباق من الميل .

(٧) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بهذا الاسم ، وهى في طرف جبل ، وجبل

الطور مطل عليها ، من أعمال الأردن في طرف النور (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣١) .

(٨) مظفر الدين كوجك : هو مظفر الدين كوكبورى بن زين على كوجك بن بكتكين

التركافى ، وكوجك معناه اللطيف القدر ، ولى الملك يمد موت أبيه ولم يتجاوز الرابعة عشرة

إلا أنه عزل وولى أخوه مكانه ، ولما شب اتصل بصلاح الدين الأيوبي فزوجه أخته

الصغرى ، كانت له مواقف مشهودة في حروب صلاح الدين ، ولما مات أخوه صاحب أربيل ،

أخذ منه صلاح الدين حران والرها وولاه أربيل وشهرزور ، وكان من أحسن الملوك تمسكا بدينه ،

توفى سنة ٦٣٩ هـ (ارجع إلى النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٨٢ ، وشذرات الذهب ج ٥ : ١٣٩) .

التجى . وعلى عسكر حلب « دلدم الياروق » (١) . فساروا
مدججين ، وسروا مدبلجين (٢) . وصبحو صفورية (٣) وساء صباح
المندرين .

فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك ، وجمر ذاك . وقنطاريات (٤)
طائرات ، وسابريات (٥) سابغات . ولداوى (٦) دوى . وللاستارى (٧)
هوى . والبارونى يقدم على البوار ، والترمكبولى (٨) يلقي نفسه على النار .

(١) دلدم الياروق : هو ابن ياروق صاحب تل مياشر ، توفى سنة ٦١١ هـ
وغلفه ابنه فتح الدين (تاريخ أبو الفداج ٢ : ١١٥ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) ادليج القوم : إذا ساروا الليل كله أو آخره .

(٣) صفورية : كورة وبلد من نواحي الأردن قرب طبرية (ياقوت ج ١٢ : ٤١٤ ط) .

(٤) قنطاريات : جمع قنطارية أو قنطرة وهى فى الأصل خشب الرمح أو الحريرة
ثم اتسع استعمالها فأطلقت على الرمح نفسه ، وقد قال الأستاذ جب بأنها هى ما يطلق عليها كلمة
lances (ارجع إلى Dozy. Supp. وإلى The Damascus Chronicle P. 334
وإلى الروستين لأبي شامة بتحقيق د. محمد حلمى أحمد) .

(٥) سابريات : دروع دقيقة النسج محكمة تنسب إلى مدينة سابور .

(٦) لداوى : أحد أفراد فرقة الداوية أو الديوية ، وهم قوم من الافرنج وقفوا أنفسهم
على جهاد المسلمين وامتنعوا عن ملذات الحياة ، ولم يكن لأحد عليهم طاعة ، وكانوا يفسون
إلى حصن حصين بنواحي الشام ، أطلق المسلمون هذا الإسم على فرسان المبد *templars*
وهم جماعة أسسها Hugh de Payers سنة ١١٢٩ م لحماية طريق الحاج المسيحى
بين يافا والقدس ثم تحولت هذه الجماعة إلى هيئة حربية دينية كان لها شأنها فى التاريخ
الصليبيى الإسلامى (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٢) و (سيرة صلاح الدين لابن شداد بتحقيق
المحقق ، نشر الدار القومية ، ١٩٦٢) .

(٧) الاستارى : أحد أفراد فرقة الاستارية وهى جماعة من فرسان الصليبيين لها كثير
من خصائص الداوية ، ويطلق عليهم أيضاً اسم المستارية أوالمستالين *Hospitallers*
التي تأسست ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وان كانت قد نشطت قبل ذلك
بكثير وكان هدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم (المرجعان السابقان) .

(٨) الترمكبول : فرسان ينحدر أصلهم من أمهات يونانية وآباء أتراك أو عرب (للاعتبار
لأسامة بن منقذ : ٥١ نشر فيليب حتى) .

وقد ثاروا والثارق قد وقد ، والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج ، (١)
وارتجز عجاج العجاج . وانفض القضاء ، وانقض القضاء . وكادوا يفلون
الجمع ويجمعون الفل (٢) ، ويحلون العقد ويعقدون ما انحل .

فثبت « قايمز النجمي » في صلورهم ، وأشرع الأسته الى نخورهم .
وروى اللهازم (٣) من تامورهم (٤) وعطف « مظفر الدين » يشلهم ويقلهم .
ولايكثر بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم « دلدرم » بالوجه الأبيض ،
والعزم الأنهض . والحد الأجد ، والحد الأحد . وانجلى الغبار وقد عم الفرنج
القتل والأسار ، وفجع بقتل مقدمهم الاستار . وأفلت مقدم الداوية وله
حصاص (٥) ، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الملك محاص . وأخلفت
رنة السراء أنه الإسراء ، وكانت هذه النوبة بلا نوبة (٦) . والهبة
بلاهوبة (٧) .

وسكنت القلوب بهذه الحركة ، وركنت النفوس الى هذه البركة .
وسارت البشرية وسرت ، ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من اقبال
« الملك الأفضل » وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة بالنصر وأحسنت
الألسنة في الشكر . هذا والعساكر في كل يوم يفدون ويفيدون .
وفيما يجلدون الطريق اليه من النكاية في العدو يجلدون ويجلدون . وجاءتنا
البشارة ونحن بالكرك فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسارساطانا « الملك
الناصر صلاح الدين » ووصل السير بالسرى ، وخيم بعشرا (٨) ففصت بسبول
الخويل الوهاد والذرا . واجتمع به ولده ، وقر عينا بشبل العرين اسده .

(١) الزجاج : مفردما زج يضم الزاي ، وهو طرف المرقق أو الحديدية في طرف الريح

(٢) أى المنهزمون .

(٣) اللهازم : جمع لزم ، وهو القاطع من الأسته .

(٤) التامور : النفس وحياتها ، والقلب وحيته وحياته ودمه .

(٥) الحصاص : الفرار وشدة العدو في سرعة .

(٦) أى الكلال والضعف .

(٧) غبرة .

(٨) عشرا : موضع بجوران من أعمال دمشق (ياقوت ١٣ : ١٢٥ ط.ب)

وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر، ولا أكرث (١) للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (ولله جنودُ السماوات والأرض) (٢) . في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بجمرها . ويبارق كأنما حبتها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا ، وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمئي صات (٣) ، وقساطل (٤) بالقسي طلت . وفيلق لهام اللهم (٥) يفلق . وقلوب يمانية رفاق في صدور الأعماد تفلق ، وطيور سهام من أوتار الحنايا الى أوكار المنايا تمرق . وسوانج مفاضة ، وسوابق مرتاضة . وهضاب راسيات ، وهواضب (٦) ساريات .

ولما تمَّ العرض ، حُسم الفرض . وتعين الجهاد ، وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث (٧) ، وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم ، وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد الى التثليث (٨) ، وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث . فخافوا وخابوا ، وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزيهم مخنول ، وأن غريهم (٩) مفاول . وأن حدهم مثلوم (١٠) ، وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم مالا عهد لهم بمثله ، وأن الايمان كله برز الى الشرك كله .

(١) أشد غما .

(٢) الآية ٤ سورة الفتح .

(٣) صوت .

(٤) قساطل : جمع قسطل وهو التيار .

(٥) الجيش المنظم والمدد الكثير .

(٦) هواضب : جمع هضب بكسر الهاء وسكون الصاد وهو الفرس الشديد . وهضبت السماء أمطرت .

(٧) الوعوث : جمع وعث ، وهو المكان السهل تغيب فيه الاقدام ، والطريق المسر .

(٨) قصد المؤلف المسيحية لأنها تقول بأن الله ثالث ثلاثة (تمالى الله عن ذلك علواً

كبيراً) .

(٩) الغرب : الحدة والنشاط .

(١٠) مكسور .

وقد كان بينهم حينئذ خلف منبث ، وحلف متكث . ووقوع نفار بين الأتقار ، ووقود شرارين الشرار . ولما استدنوا حين حينهم ، سعوا في اصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص (١) ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه . فاصطحبا بعد ما اصطلحا . واصحبا بعد ماجمحا .

وتزاور الفرنج وتوازرروا . وتآمروا ماينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوهي هوى ، وعود اذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا ، والصليب معنا . والمعمودية (٢) عملتنا ، والنصرانية نصرتنا . ورماحنا . ورماحنا ، وصحافتنا صفاحتنا . وفي لوائنا الأواء (٣) . ومع أوداننا الداوية الأذواء . وطوارقنا (٤) الطوارق ، وبيارقنا البوائق (٥) . وسيف الاستبار بتار ، ولقرن البارونى من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص (٦) والصلاد (٧) ، والصباب والصباد . وفي كل قنطارى قنطار ، ولكل سابرى من أستنتا مسبار (٨) .

وقد عم بجرنا الساحل ، وشددنا به المعاهد والمعائل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة ، وما تضييق بنا في هذه السنة ، وأرماحتنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والأمكنة . وسلطين الاسلام ما صدقوا

(١) القومص : هو الكونت ريمون الثالث صاحب امارة طرابلس الصليبية ويلقب في بعض المراجع العربية بالصنجيل تحريفاً لقبه الفرنسى *The conte Raymond de Saint Angilles* (مفرج الكروب ج ٢ : ٢٩ تحقيق د. الشيال) .

(٢) المعمودية : ماء لتصاري يفسون فيه صغارهم معتقدين أنه تطهير لهم .

(٣) أى القوة والشدة والبأس .

(٤) الطوارق : أو الطارقيات جمع طارقة وهى الدرقة أو الترس (الروضتين لأبى شامه

ج ١ تحقيق د . محمد حلى أحد (عن Buckler)

(٥) البوائق : جمع بائقة وهى النازلة أو الداوية .

(٦) درع دلاص : ملاء لينة .

(٧) الصلاد : أى الأسلحة الصلبة للمساء .

(٨) السابرى : الدرع المحكة الدقيقة الصنع . والمسبار : الممتحن لنور الجروح وغيرها .

(٦٥) الفتح القسى فى الفتح القدسى ٦٥

أن يسلموا إلينا ويسالمونا ، ويذلو لنا القواطع ويقاطعونا ، وطالما ناصفونا وما صافونا ، وهادونا وهادنوننا . وفي جمعنا تفريقهم ، وفي وقتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا ، متدبرا متدربا « هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه ، وإقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغة والمغاورة والصبر . والصواب ألا نخالطه ولا نباسطه ، ولا نخالقه ونقبل شرائطه »

فقال له الملك « أنت قد قلبت الآفة ، وفي قلبك المخافة . وأنت للحرور رخو ، وللخشية حشو . وأنا لا بد أن أصدمه وأصده ، وأكدمه وأكدّه (١) ، وأرادده حتى أرده . وأقيم صليب الصليوت (٢) فلا يقعدعنه من أهل الأحد (٣) أحد . وأمد يد الأيد (٤) لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد »

فقبل القومص قوله على مضض ، وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما (٥) أحس منه الملك بالوفاء والوفاق ؛ وعدم أهل (٦) الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق ؛ اشتغلوا بالحشد والحشر ، والطى والنشر .

(١) أكده : ألح في طلبه .

(٢) صليب الصليوت : قطعة من الخشب يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صلب عليها وتذكر المراجع أن هذا الصليب قد نقل إلى جزيرة قبرص بعد جلاء الصليبيين عن الشام ثم استولى المسلمون عليه عند فتحهم للجزيرة سنة ١٤٢٦ م على أنه يبق بتلك الجزيرة ، وراه أحد الأوروبيين الرحالة سنة ١٤٨٨م P 102 *Ziada Mamlouk Conquest of Cyprus*, (ومفرج الكرب ج ٢ : ١٨٩ تحقيق د. الشيال) .

(٣) أهل الأحد : هم الصليبيون وذلك لعظم يوم الأحد عندهم .

(٤) الأيد : القوة .

(٥) في أ فلأ .

(٦) ساقطة في ب مثيبه في أ وول .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أمارى (١) بن فلك في آخر سنة تسع وستين (٢) وخمسماية خلف ولدا مجنوما ، وكان مع الوجود معدوما . قد أعضل داؤه ، وأيس شفاؤه ، وسقطت أعضاؤه . وطال بلاؤه . فوضع الفرنج التاج على رأسه ، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه (٣) . ونفخوا في ضرمه (٤) ، وتمسكوا بورمه ، وصحوا بسقمه ، ورقوا في سلمه ، ورضوا بتقدمه . وأكبروه وأركبوه . وأقدموا به وقدّموه . وهم يكرثون (٥) بجذاذ (٦) ملكهم هذا ، ولا يكرثون بجذامه ، ويخمون حماه أن يُحم حلول حمامه ، وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا ، معارا من إشفاقهم واتفاقهم مراعى .
فلما أحس بهلاكه ، وسكون حراكه . أحضر البطرک (٧) والقسوس ، والمقدمين والرؤوس . وكان له ابن أخت صغير ، عن التناول إلى الملك قصير ،

(١) أمارى : هو أمورى ومرى **Amaric I** ، تول ملكة القدس العليبية سنة ١١٥٦ م بعد وفاة بلدوين الثالث . **Baldwin III** . وكان عمره آنذ ٢٧ سنة ، وقد تقمعت جيوشه لغزو مصر مرتين في النزاع الذى قام بها بين الوزيرين شاور وضرغام ، توفى سنة ١١٦٩ م (الروميين ج ١ : ٢٩٣ تحقيق د. محمد حلى أحمد) .

(٢) في ب تسمين وهذا خطأ والتصحيح من أول .

(٣) أمراض : الحبال ، والمقصود بالعبارة أنهم تمسكوا به رغم مرضه .

(٤) ضرمه : جرة . يقال ما في الدار نافع ضرمه أى أحد .

(٥) (٦٥) كرته التم : اشتد عليه . جذاذ : حجارة الذهب والمقصود أنهم احتوا بذهب ملكهم ولم يهتموا بمرضه .

(٧) البطرک : أو البطريرك معرب اللفظ **Patricius** يعنى القائد وأحيانا يطلق على رؤساء الأساقفة على أقطار معينة أو على طائفة من طوائف المسيحيين ، وجاء في (تاريخ العرب العام لسديو) بأن الكلمة لقب سام جدا كان يمنحه الروم البيزنطيون لبعض الناس . وطبقة البطارقة في القسطنطينية كانت أعلى الطبقات الاجتماعية ، وهى أرق من رتبة قنصل ، وعلاقتها بالإمبراطور نسبة علاقة الكرادلة بالبابا ، والبطرك أعلى من فيلارك (ارجع إلى الألفاظ الفارسية المعربة لادى شيرط . ب ١٩٠٨ م) وال (تاريخ العرب العام لسديو) .

وقال لهم : « المُلْك في هذا ، ولكن القومص يكفله مدة سنى صغره ، وهو يستقل به بعد كبره . فهو الآن لا يستبد ، ومن أمر القومص يستمد . » فقبل القومص الوصية ، وجمع إليه الأطراف الدانية والقصية : وسكن بطبرية . فإن صاحبيتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه .

وهلك الملك المجنوم ، وظهر السر المكتوم . وطمع القومص في الملك استقلالاً ، فعدم موافقة الداوية . وقالوا « يلزمك العدل بشرط الوصية » . فكنل بالأمر وهو مغلوب ، وتفقد اختياره فإذا هو مسلوب . ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدنيا والدين ، ليقوى بجانبه ، ويحظى من مواهبه . فاشتد أزره ، واستد أمره ، واستقل بنفسه . واستولى على جنسه ، حتى مات الملك الصغير فانتقل الملك منه إلى أمه : وبطل ما كان في عزم القومص برغمه .

وانتقل الملك إليها ، واجتمع الفرنج عليها . فقالت لهم « زوجى أقدر . وهو أحق بالملك وأجدر » . وأخذت التاج من رأسها فوضعت على رأسه ، وعاش رجاءه بعد بأسه . وراش (١) غناه بعد إفلاسه ، وانتاش (٢) إبليس (٣) بعد إبلاسه (٤) وقامت قيادة القومص بإجلاسه . وطالبه الملك الجديد بحساب ماتولاه ، فما أجاب دعوته ولا بياه . واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر ، وأقام بطبرية في زى المتناول المتناصر . وضم إليه من الافرنجية من استرغبه ، بما استماحه من سلطاننا واستوهبه .

وحث العزم السلطاني على قصدهم ليرد إليه الملك ، ويحد له في نظم أمره السلك . فلما اجتمعت العساكر الاسلامية ، وتألقت منها الجزرية والديار بكرية والمصرية والشامية ؛ جاء الملك إلى القومص بنفسه ، وفتح له ما وجده من وحشته وعدمه من أنسه . وقال أصحاب القومص له « إن لم تنصره فنحن ما نخذل الدين ، ولا نكون بأيدينا مسلمين إلى المسلمين » . وتمت بينهم ليوم المصاف المصافاة ، وزالت المنافرة والمنافاة .

(١) راى : جمع المال والأثاث واغتنى .

(٢ و٣) انتاش إبليس : نهض شيطانه وأسرع في النهوض .

(٤) يمد إبلاسه : يمد بأسه . وأبلس : يئس وتحير ومنه سى إبليس لتحيروه وليأسه

ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر إلى ديار الفرنج

أصبح بالمخيم عارضا من العسكر لعارض نجاج (١) ، ويجر بالعجاج (٢)
عجاج . وخضم بالصواخل السوايح والمناصل والصنائع ذى أمواج . وقد
رتب أبطاله وأبطاله (٣) . وسحب على وجه الأرض سحابه ، ونقل
به من الثرى إلى الثريا ترابه (٤) . وأطاز إلى النسر الواقع من الغبار غرابه .
وقد فصر الفضاء ختام القتام (٥) . وشُدَّت للشدائد كتب الكبت على
حمام (٦) الحمام ، وحتت ضلوع الحنايا على أجنة (٧) السهام
وتكثلت العوجاء بالمعتدلة ؛ وضمت المنقلة (٨) إلى المنقلة . ووقف
الأوتار بالأوتار ، وثار كل طُلب (٩) لطلب النار . ووقف السلطان
يوم العرض يرتب العسكر ترتيبا ؛ ويوبه تبويا . ويعيه بعيداً وقريبا .
وقرر لكل أمير أمرا ولكل مقدم (١٠) مقاما . ولكل موفق موقفا .
ولكل كمين مكانا . ولكل قرن قرانا (١١) . ولكل جمر مطفئا ، ولكل

(١) العارض : السحاب الممطر . والتجاج : الذى يسيل مائه بفرارة .

(٢) العجاج ، بفتح الجيم ، الغبار والدخان . وبتشديد الجيم ، الصياح من كل ذى صوت .

(٣) الأطلاب : جمع طلب ، وهو لفظ كردى يطلق على الأمير الذى يقود مائتي فارس
في ميدان القتال ، كما يطلق أيضاً على القائد الذى يقود مائة جندى أو سجين . (Dozy. Supp.)
و(السلوك للمقرئى ج ١ : ٢٤٨ تحقيق دكتور زيادة) .

(٤) فى (أ) ونقل من الثريا إلى الثرى ترابه) وأما فى ب ول) ونقل من الثرى إلى الثريا
ترابه) .

(٥) أى الغبار .

(٦) فى ب حم والتصحيح من أول .

(٧) جمع جنين وهو الولد فى الرحم ويطلق على كل مستور ولعله أراد أن حنايا الضلوع
قد حنت على كل مستور من السهام .

(٨) فى المنقلة .

(٩) فى أ طالب .

(١٠) فى أ مقدم .

(١١) القرن : الكفة فى الشجاعة . والقران : حبل من سلك يشد فى العنق ، والمقصود .

أنه حبل لكل سيد شجاع من الأعداء حبلا يشد به عنقه .

جمع مُكْفَنًا . ولكل زئذ موريا ، ولكل حد ممهيا (١) . ولكل قضية (٢)
 حكما ، ولكل حنية (٣) سهما . ولكل يمين مقضبا (٤) . ولكل يمان
 مقبضا . ولكل ضامر مضمارا ، ولكل مغوار مغارا (٥) . ولكل رام
 مرتعى . ولكل نام متمى . ولكل سام مَسْمَى ، ولكل اسم مسمى .

وعين لكل أمير موقنا في المينة والميسرة لا ينتقل عنه . ولا يغيب جمع
 ولا يبرح أحدمنه . وأخرج الجاليشية (٦) الرماة الكمأة من كل طلب ، ووصى
 كل حزب بما يقربه من حزب . وقال « إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة
 عساكرنا . وصورة مواردنا ومصادرنا . ومواضع أطلابنا ، ومطالع
 أبطالنا . ومصارع أستاذنا . وشوارع أعتنا . وميادين جردنا (٧) ، وبساتين
 وردنا . ومواقف صروفنا . ومصارف وقوفنا . ومرامى مرامنا ، ومجالى
 مجالنا . »

وقوى الآمال بما بذله من الأموال ، وحقق في انجاز المواعد وانجاح
 المقاصد رجاء الرجال ، وجمع العدد : وفرق العدد . ووهب الجياد وأجاد
 المواهب : ورغب في العطايا وأعطى الرغائب . ونثر الخزائن ، ونثل (٨)
 الكنائز . وأنفق الذخائر ، واستنفد كرائمها والأخبار . وقسم أحمال النشاب (٩)
 ففترق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب . وأجرى الجرد وأجنى الأجناد (١٠) :

(١) أمهى الهديدة : أحدها وسقاما الماء .

(٢) في أوب قضية .

(٣) أى القوس وتجمع كلمة حنية على حنايا وحنى .

(٤) مقضب : ما قطع من الأغصان للسهم أو القسي .

(٥) أى الكهف .

(٦) الجاليش : الأصل في معناها هو الراية البظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلقت

على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه . ارجع إل (السلوك للمقرئى ج ١ : تحقيق د .

زيادة (و) سيرة صلاح الدين لابن شداد . تحقيق محمد محمود صبح ص ١٠١) .

(٧) الجرد : واحدها أجرد وهو السباق من الخيل .

(٨) نثل الكنائز : استخرج نبالها ونثرها .

(٩) النشاب : جمع نشابه وهو النبل أو السهام .

(١٠) أجنى الأجناد : كثرها .

وأذكى المذاكى وأشهد الأَشهاد . وأذال (١) مناقب المقانِب (٢) ، واستمال
معاطف المعاطب . وقوى القواطع ، وروى الروائع .

وعاد إلى المخيم مسرورا مجبورا ، مقبولا مبرورا ، موفورا مشكورا .
وقد رتب وربت (٣) ، وقنب (٤) وكتب ، وثبت ونبت . قد
بر عمله ، وأبر أمه . وفاح نشره ، ولاح بشره . وتأرج رياه ، وتبلج
مياه . وأيقن بالظفر وظفر باليقين ، وأمن إلى الدعوى المستدعية للتأمين ،
وتيمن بأوضح (٥) عرابه (٦) الميامين ، وإيضاح إعرابه في اقتضاء
دين الدين . وأنس بيهجة الخيل ولهجة الخير ، وسر سره بما سرى له من
وجه السير . وشد حزم الحزم ، وجد في الغزم الجزم . وقدم الإسراج
للإسراء ، وألجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة السابع عشر شهر ربيع الآخر والتوفيق مسايه ،
والتأييد موازره ، والتمكين مضافره ، والسعد مظاهره ، والجد مكآثره ،
واليمن محاضره ، والغز مسامره ، والنظفر مجاوره ، والاسلام شآكره ،
والله عز وجل ناصره . وسار على الهيئة التي قدمنا ذكرها من المقانِب المقنّبة ،
والكئآب المكتّبة ، والمراتب المرتبة . والمذآهب المهذّبة . والسلاهب المجنّبة (٧)
والصوآب (٨) المجعبة . والمواضب (٩) المقربة (١٠) . والثعالب

(١) أذال : أمان .

(٢) المقانِب : مغالب الأسد .

(٣) ربت : ربي .

(٤) يقال قنب الأسد مخلبه : إذا غيبه في فريسته .

(٥) أوضح : جمع وضح وهو النرة والتجميل في قوائم الأسد .

(٦) عراب : أى ليست بهجين بل عربية أصيلة .

(٧) السلاهب : واحدها سلهب وهو الطويل من الخيل . والمجنّبة : التى تسير جنباً

إلى جنب .

(٨) الصوآب : جمع صائب وهو الذى يميد التوصيب . والمجعبة نبة إلى الجعبة وهو

كناية للشاب .

(٩ و١٠) فى ب و ل القواضب المقربة والتصحيح من نسخة أ .

المفربة (١) . والهاذم الهاذمة (٢) . والصلادم (٣) اللاذمة (٤) . والضراغم (٥) الضاغمة .

وخيم على خسفين (٦) ، وقد أدنى الله الحسف بالعدو وخسوفه ، وكسف الكفر وكسوفه . وبات والوجوه سافرة ، والعيون في سبيل الله ساهرة ، والأيدى لسيوف الأيد شاهرة ، والألسن لأنعم الله شاكرة . والقلوب بالإخلاص عامرة ، والأنفس للأنس مسامرة . والإقدام بالأقدار متصافرة متظاهرة .

ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بنهر الأقمحوانة ، بزم الصيال (٧) وعز الصيانة . وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط ، وضاق ببساط خيامه ذلك البسط . وبرزت الأرض في قشب أثوابها (٨) ، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أثوابها . ورست سفن المضارب على تلك الأنياب (٩) ، وطمّت الأطلاب أمواجاً على أمواج . وانعقدت سماء العجاج (١٠) ، وطلعت فيها أنجم الخرصان (١١) والزجاج (١٢) .

(١) الثعالب المفربة : ثعالب هنا بمعنى أطراف الرياح الداخلة في جملة السنان ، والمفربة : الحادة .

(٢) الهاذم : واحد هاذم وهو القاطع من الأسد . والهاذمة : القاطعة .

(٣) الصلادم : جمع صلدم وهو الأسد ،

(٤) اللاذمة : في ب اللازمة والتصحيح من أول والمعنى أنها تمجيب ويولع بها .

(٥) الضراغم : جمع ضراغم وهو الأسد . والضاغمة : التي تمض .

(٦) خسفين : قرية من أعمال حوران في الطريق إلى مصر بين نوى والأردن - (ياقوت

ج ٧ : ٣٨١ ط . ب) .

(٧) الصيال : الذي يسطر ويستطيل على خصمه .

(٨) قشب أثوابها : أي جديدها . وسلاح قشيب : مجلوه .

(٩) الأنياب : جمع ثيب وهو وسط الثبي، ومعظمه .

(١٠) العجاج : الثبار والدخان .

(١١) الخرصان : جمع خرص وهو الرمح .

(١٢) الزجاج : جمع زج بضم الزاي ، وهو الحديدة في أسفل الرمح .

وأعاد الأحموانة رياضاً نصرية ، وحدائق مزهرة . من فرس ورد(١) ،
 وفارس كالأسد الورد(٢) ومشرفيات (٣) كطاقات الرياحين ، ويزنيات(٤)
 كأشجار البساتين ، ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين . وألوية حمر(٥)
 كشقائق النعمان . وموضونة زغف كالغدران ، ومصقولة بيض كالخلجان .
 ومريشة(٦) زرق كالأطيوار(٧) ، ومحنة(٨) عوج كالأنفان ، وبيض تلمع
 كغفور الأحموان . وحجب ترائك على محور الدارعين (٩) ، وعقبان
 صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين .

والفرنج قد صفوا ربايهم بصفتورية(١٠) . ولووا الألوية ، ومدوا
 على ممدود الضواهر الزواجر قناطر القنطاريات ، وأوقدوا في ظلام القتام
 النائر سرج (١١) السريحيات . وصوبوا إلى صوب قرا الأقران نياب
 اليزنيات(١٢) . وأحاطوا حول مراكزهم بلوائهم ، وحاطوا بواترهم
 بواترهم . وجمعوا الأوشاب(١٣) والأوباش(١٤) ، ورتبوا الجيش
 وثبتوا الجاش .

وحشدوا الفارس والراجل ، والرامي والنابل ، ونشروا ذوايب

-
- (١) ق ب (رده) - والتصحيح من ل و ١٨ أ ، وفرس ورد : أي الأحمر والأشقر .
 (٢) ورد : أي جرى .
 (٣) المشرفيات : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام .
 (٤) يزنيات : الرماح والسيوف المنسوبة إلى يزن أحد بطون حمير .
 (٥) ق ب حق والتصحيح من ل و ١٨ .
 (٦) مريشة : السهام يلمق عليها الريش ليحملها في الهواء كما يحمل الطائر .
 (٧) ق ب أ ١٨ كالظيان .
 (٨) محنة : قوس .
 (٩) ق ب أ ١٨ جثت ترائيل على محور الدارعين .
 (١٠) سبق التصريف بها .
 (١١) ق ب سروج والتصحيح من ل ومن ١٨ .
 (١٢) ارجع إلى هامش ٤ .
 (١٣) الأوشاب : مفردا وشب بسكون الشين وم غليظ الناس وأوباشهم .
 (١٤) الأوباش : سفلة الناس وأغلاطهم .

الذوايل (١) ، وحشروا أبطال الباطل ورفعوا صليب الصليبوت ، فاجتمع إليه عباد الطاغوت (٢) ، وضلال الناسوت (٣) واللاهوت . ونادوا في نوادي أقاليم أهل الأقاليم (٤) ، وصلبوا الصليب الأعظم بالتعظيم . وما عصاهم من له عصا ، وخرجوا عن العد والاحصا ، وكانوا عدد الحصى . وصاروا في زهاء خمسين ألفاً أو يزيدون ، ويكيلون ما يكيلون . قد توافوا على صعيد ، ووافوا من قريب وبعيد . وهم هناك مقيمون ، لا يرومون حركة ولا يريمون (٥) .

والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير إليهم ، ويشرف عليهم ، ويرامهم وينكى فيهم . ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله . فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا . فلو برزوا لبرز إليهم القتل في مضاجعهم (٦) ، وعابنوا مقام صارعهم في سوقهم إلى مصارعهم . وفزعوا مما فيه وقعوا . وجبنوا عما له تشجعوا .

فرأى السلطان أن يطيب ربه من طبريه (٧) ، ويشرف على خطتها بالخطية والمشرقية . ويحوز حوزتها ويملك مملكتها . فجز على الأردن أردان الردينيات (٨) ، وأطلع النقع المثار من البحر بجوافر الأعوجيات (٩) ،

(١) الذوايل : النقيقة .

(٢) الطاغوت : المسم أوهو كل رأس في الضلال .

(٣) الناسوت : طيبة الإنسان في مقابلة اللاهوت .

(٤) الأقاليم : بلخ أنتوم وهو الأصل ، ويقول بعض المسيحيين إن الله تعالى واحد ذواقاليم ثلاثة وهي الأب والابن وروح القدس (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) .

(٥) أي لا يرمح .

(٦) أي لكتب عليهم الموت ، يئى المؤلف قول الله تعالى « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

(٧) طبرية : سبق التبريف بها .

(٨) الردينيات : الرماح وتنسب إلى ردينة وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح .

(٩) الأعوجيات : جمع أعوج وهو فرس مشهور لبني هلال تنسب إليه الخيل الجياد .

واستسهل عليها ولم يستوعر بيات العربيات . فأمر عساكره ، وأمراء جيشه
وأكابره ؛ أن يقيموا قبالة الفرنج ، ويضيقوا عليهم واسع النهج . فان
خرجوا للمصاف بادروا إلى الانتقام منهم والانتصاف . وإن تحركوا إلى بعض
الجوانب ؛ وثبوا بهم وثب الأسود بالأرانب ؛ وإن فصلوا طرية لصونها ؛
وأن يكونوا في عونها ؛ عجلوا الإعلام ليعجل عليهم الإقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خواصه، وذوى استخلاصه. وأحضر الجاندارية (١) والنقائين والحراسانية والحجارين. وأطاف بسورها، وشرع في هدم معموها. وصدفها القتال، وما صدف عنها النزال، وكان ذلك يوم الخميس. وأخذ النقايون الثقب في برج فهده وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر. وامتنعت القلعة بمن فيها - من القومصية - ست طبرية - وبنيتها.

ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده: سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسده ولبده (٢). وقال لهم لا تعود بعد اليوم، ولا بد لنا من وقم القوم (٣)، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وزهبت الطراف والتلاد (٤). وما بقي لى صبر، وما بعد هذا الكسر لى جبر.

وكان الملك قد خالفه، فما خالفه، ووافقه فما نافقه، وماحضه فما ماذقه (٥)، ووادده فما رادده، وواعده فما عاوده، ورحل بجمعه، وبصره وسمعه. وثعابينه وشياطينه، وسراحيه (٦) وسراحيه. وأتباع غيه، وأشيايع بغيه. فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء من غبرته

(١) الجاندارية: وظيفة صاحبها كالتسلم لبياب يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم الديوان، وكلمة جاندار فارسية الأصل مركبة من كلمة جان بمعنى سلاح ودار بمعنى ماسك (السلوك المقرئى تحقيق د. زياد ج ١: ١٣٣) و(صبح الأضنى ج ٤: ٢٠).
(والتنجوم الزاهرة ج ٦: ١٣٢).

(٢) السبد: قليل الثمر، والبد: كثيره.

(٣) وقم القوم: أى إذ لالم وقهرهم وردهم أسوأ رد.

(٤) للطراف والتلاد: حديث المال وقدمه.

(٥) ماذقه: لم يخلص له الورد.

(٦) سراحيه: جمع سرحوب وهو القوس الطويلة. وسراحين: وأحدها سرحان وهو

الذهب أو الأسود.

ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن أثبات ثيابهم ووثبوا . وعبثوا
وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشبوا النار ، وليوا النار ، وقدموا للزول بالدار
البيدار . وذلك في يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر .

فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ؛ بما سبق به حكمه ،
وسرّحين أحاط بمسيرهم علمه . وقال وقد حصل المطلوب ، وكل
المخطوب . وجاءنا ما نريد ، ولنا بحمد الله الجلد الحديد ، والحد الحديد ،
والبأس الشديد ، والنصر العتيد . وإذا صححت كسرتهم ، وقتلت وأسرت
أسرتهم ؛ فطرية وجميع الساحل مادونها مانع . ولا عن فتحها وازع .

واستخار الله وسار ، وعدم القرار . وجاء يوم الجمعة رابع عشر
شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية بقضتهم وقضيضهم (١) ،
وكأنهم على اليفاع (٢) في حضيضهم . وقد ماجت خضارهم (٣) ،
وهاجت ضراغهم ، وطارت قشاعهم (٤) ، وثارت غماغهم (٥) ،
وسدت الآفاق غمائمهم ، وشاقت ضاريها جماجمهم .

وهم كالجبال السائرة ، وكالبحار الزاخرة . أمواجها ملتطمة ،
وأفواجها مزدحمة ، وفجاجها معتمدة . وأعلاجها (٦) مصطلمة (٧) . وقد
جوى الجو ، وضوى الضوى ، ودوى الدو . والقضاء منقض ، والقضاء
منقض . والثريا قد استزار الثرى ، وجر ذيل الخليل قد برى البرى (٨) .

(١) بقضتهم وقضيضهم : القضى ، الحصى الصغار والقضيض الكبار والمعنى أنهم
جاءوا بالكبير والصغير .

(٢) اليفاع : كل ما ارتفع من الأرض من تل وغيره .

(٣) خضارم : السادة الكرام الذين يتحملون عظام الأمور .

(٤) قشاعم : واحدها قشع وهو المن من التسور والرجال والنساء والمقصود كل القوم
خرجوا الحرب .

(٥) غامم : جمع غممة ، وهو صوت البطل عند القتال وصوت الثور عند اللرم .

(٦) أعلاج : واحدها علاج وهو الرجل الضخم من كفار العم ، ويطلق على الكافر
صوماً ، كما يطلق أيضاً على الحمار الوحشى .

(٧) اصطلم : استاصل .

(٨) البرى : التراب .

والخوافز الخوافز للأرض حوافر ، والقوارس اللوابس في البيض (١)
سوافر . وذئاب النباد (٢) وأجلاد الجلاذ ؛ قد حملوا كلُّ عدة ، وكلوا
كل عدة .

فرتب السلطان في مقاتلتهم أطلابه ، وقصر على مقاتلتهم آرابه . وحصل
بمسكره قدامهم ، ورقب على الحملة لإقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء ،
ومنع ذمامهم (٣) على اللماء (٤) . وحلاهم (٥) عن الورد ، وصدعهم بالصد.
ذلك واليوم قيقظ ، وللقوم غيظ . وقد وقدت الماجة ، فوقدتها غير هاجرة ،
وشربت ماكان في إداوتها (٦) فهي على الظماً غير صابرة . وحجز الليل
بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الإسلام للكفر مقابلا ،
والتوحيد للتثليث مقاتلا . والهدى للضلال مراقباً ، والإيمان للشرك محارباً .
وهيئت دركات النيران ، وهتت درجات الجنان ، وانتظر مالك واستبشر
رضوان (٧).

حتى إذا أسفر الصباح ؛ وسفر الصباح ؛ وفجر فجر أهدار النهار ؛
وتفرّ الغير غراب الغبار ، وانتهت في الجفون الصوارم ، والتهبت في الضوالم
الضوالم ؛ وتيقظت الأوتار ؛ وتغيظت النار ؛ وسل الغرار (٨) ؛
وسلب الغرار ؛ خرج الجاليشية تمحرق بنيران النصال أهل النار ، ورنّت
القسي وغطت الأوتار . ورقصت مرآن (٩) المراد ، بلحاء عرائس الجلاذ .

-
- (١) البيض : جمع بيضة وهي الخوفة من الحديد تلبس على الرأس لوقايتها عند الحرب .
 - (٢) النباد : الدفح أو البرد .
 - (٣) ذمام : الحق .
 - (٤) اللماء : أي بقية الروح .
 - (٥) حلا : طرد ومنع عن ورود الماء .
 - (٦) الإداوة : إناه صليح من جلد .
 - (٧) يقصد أن مالك خازن النار أهد نفسه لا استقبال أهل الكفر والضلال وأن رضوان
خازن الجنان مستبشر لاستقباله الشهداء من مجاهدي المسلمين .
 - (٨) الغرار : حد السيف ، أو الرمح ، أو السهم .
 - (٩) مران : رماح لدنه في صلابه .

وبرزت البيض من ملاءها في الملاء عارية ، ورتعت السمير لكلثها من الكلى راعية .

فرجا الفرنج فرجا ، وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا ، ويرح بهم حر الحرب فما يرحوا . وحملوا وهم ظماء ، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند (١) ماء . فثوتهم نار السهام وأشوتهم ، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية وأصمتهم . وأعجزوا وأزعجوا ، وأخرجوا وأخرجوا . وكلما حملوا رُدوا وأرذوا ، وكلما ساروا وشَدوا ، أسروا وشَدوا . وما دبت منهم نملة ، ولا ذبت عنهم حملة ، واضطرموا واضطربوا ، والتهفوا والتهبوا . وناشبههم الشباب فعادت أسودهم قنائف ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ . فأروا إلى جبل حطين (٢) يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشقتهم الظبا (٣) ، وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا ، وقشرتهم المنايا ، وقرشتهم البلايا ، وقرشتهم (٤) الرزايا ، وصاروا للردى درايا ، وللقضايا ومايا .

ولما أحس القومص بالكسرة ، حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة ، واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطراب الجمر ، واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطله يطلب الخروج ، واعوج إلى الوادي وماود أن يعوج (٥) . ومضى كومض البرق ، ووسع خطى خرقه قبل اتساع الخرق . وأفلت في عدة معدودة ، ولم يلتفت إلى ردة مردودة . وغاب حالة حضور الوغي ، ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وما وني .

ثم استجرت (٦) الحرب ، واشتجر الطعن والضرب : وأحيط بالفرنج

- (١) الفرند : السيف ، ويقال سيف فرندي أي لايشيل له .
- (٢) حطين : قرية بين طبرية وعمكا ، بينها وبين طبرية فرسنتين ، ويقرىة جبارة بالقرب منها قبر يقال أنه قبر النبي شبيب عليه السلام . (ياقوت ج ٧ : ٢٧٣ - ٢٧٤ ط . م . ب) . .
- (٣) النلبا : جمع نلبة بضم الظاء وسكون الباء ، وهي حد السيف أو السنان .
- (٤) رقتش : نقش . ورتش الكلام ، كتبه وزينه .
- (٥) يعوج : يعود .
- (٦) أي استمرت .

من حوالهم بما حووا إليهم ، ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم ، وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم ، وقلت حدود الرامة الكمامة مضاربهم . وأعجلوا عن نصب الخيم ورفعها ، وشغلوا عن أصل الحياة وفرعها . وترجوا خيراً فترجلوا عن الخيل ، وتجلدوا وتجاللوا فجرهم السيف جرف السيل . وأحاط بهم العسكر لإحاطة النار بأهلها ، ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطيبين (١) من سهلها . وأسر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده (٢) .

وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى ، وهم يتهادون في القيود تهادى السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية ، ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاستبائية . وأحضر الملك (كى) (٣) وأخوه (جفرى) و(أوك) (٤) صاحب جبيل و(هنرى) (٥) . و(البرنس أرناط) (٦) صاحب الكرك - وهو أول من وقع في الشرك . وكان السلطان قد نذر دمه ، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه .

فلما حضر بين يديه ، أجلسه إلى جنب الملك والملك يجنبه ، وقرعه على غره وذكره بذنبه ، وقال له : كم تحلف وتحث ، وتعهد وتنكث . وتبرم

(١) الطيبين : أحدا طيبى وهى حلقة الفرح لكل ذات غف أو ظلف أو سافر أو السباع والمقصود بالمباراة أنهم يلقوا وسطها ويقتوا أنفسهم بها .
(٢) كتود : اجمع كتد بضم الكاف وسكون التون ، وهو الفارس الباسل الشاكي السلاح . وهى كلمة فارسية الأصل بمعنى الثرس الشديد (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢١٤) .
(٣) والألفاظ الفارسية المعربة لإحدى شير) .

(٣) الملك كى : Guy of Lusignan king of Jerusalem أسره صلاح الدين يوم حطين وفك أسره بعد أن أقسم ألا يحاربه (مذكرات في تاريخ الصوڤ الوسطى في أوروبا والشرق لمحمد رفعت) .

(٤) أوك صاحب جبيل هو Hugh II Embriacol Lord of Jebail (مفرج الكروبي ج ٢ : ١٩٢ تحقيق د. الشيال) .

(٥) في ٢٢١ مقرى وهذا مخالف لما جاء في بوله وسيرة صلاح الدين لابن شداد .

(٦) سبق التعريف به .

(٧) زياده من ٢٢١ .

الميثاق وتنفض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض « فقال الترجمان عنه (١) يقول « قد جرت بذلك عادة الملوك ، وما سلكت غير السنن المسلوك » .

وكان الملك يلهث ظمياً ، ويميل من سكرة الرعب متشياً . فأنسه السلطان وحاوره ، وفناً سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبه ، وأمن قلبه ، وأتى بماء مثلوج أزال لهته ، وأزاح من العطش ماكرته . وناوله الأبرنس ليخمد أيضاً لهبه ، فأخذه من يده وشربه . فقال السلطان للملك « لم تأخذ مني في سقيه إذنا ، فلا يوجب ذلك له مني أمنا » ، ثم ركب وخلاهما ، وبنار الوهل أصلاهما . ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه ، وركزت أعلامه ويبارقه ، وعادت عن الحومة إلى الحمى فيالقه .

فلما دخل سرادقه ، استحضر الأبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه . وحين صرع أمر برأسه فقطع ، وجر برجله قدأم الملك حين أخرج فارتاع وانزعج . فعرف السلطان أنه خامره الفزع ، وساوره الملح ، وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ، ومكنه من قربه وسكنه . وقال له « ذلك ردايته أردته (٢) ، وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه (٣) ، ونبا زند حياته ووردها عن وريته وريته » .

وصحت هذه الكسرة ؛ وتمت هذه النصره ؛ يوم السبت . وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد ، وكانوا أسوداً فعادوا من التقدر^(٤) . فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد ، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد . وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الأسارى بالحبال واجفة القلوب ، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب .

(١) في ب ول أن والمذكور من ٢٢١ .

(٢) في ب ول أردته والتصحيح من أ (٢٢ ش) .

(٣) في أ (٢٢ش) ببنيه وفيه .

(٤) التقدر : جنس من الفم صغير الأرجل والعبارة كناية عن أنهم عادوا ضعفاً بعد أن كانوا متأسدين .

وحطت حطين تلك الخيف على منها ، وطاب نشر النصر بستها .
وعبرت بها فلقبت أشلاء المشلولين في الملقى لمقاة ، بالعراء عراة . ممزقة
بالمزاق ، مفصلة المفاصل مفرقة المرافق ، مفلقة المقاتل . محذوفة الرقاب ،
مقصوفة الأصلاب . مقطعة الهام ، موزعة الأقدام . مجدوعة الآناف ،
منزوعة الأطراف . معضاة الأعضاء ، مجزأة الأجزاء . مفقوعة العيون ،
مبعوجة البطون . محضوية الضفائر ، معضوية المرائر . مبرية البنان ، مفرية
اللبان (١) .

مقصومة الأضالع ، مقصومة الأشاجع (٢) . مرضوضة الصدور ،
مقصوضة النحور . منصفية الأجساد ، مقصفة الأعضاء . مقلصة الشفاه ،
مخلصة الجباه . قانية النوايب ، دامية الترائب . مشكوكة الأضلع ، مفكوكة
الأذرع . مكسورة العظام ، محسورة اللثام . بائدة الوجوه ، بادية المكروه .
مبشورة الأبشار (٣) ، معشورة الأعشار . منشورة الشعور ، مقشورة
الظهور . مهلومة البنيان ، مهتومة الأسنان . مهركة الدماء ، مرهقة الدماء .
هاوية النرا ، واهية العرا ، سائلة الأحداق ، مائلة الأعناق .
مفتوتة الأفلاذ ، مبتوتة الأفضاخ . مشلوخة الهامات ، مسلوخة اللبات .
عديمة الأرواح ، هشيمة الأشباح . كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولى
الأبصار

وصارت تلك المعركة ، بالدماء دأماء(٤) ، وعادت الغبراء(٥) حمراء .
وجرت أنهار الدم المنهر ، وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر .
فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث ، وما ألهب عذبات(٦) العذاب في تلك

(١) البان : الصدر أو ما بين الثديين .

(٢) الأشاجع : هي أصول الأصابع التي تتصل بمصب ظاهر الكف أو هي عروق ظاهر
الكف .

(٣) الأبشار : جمع بشر ، وهو ظاهر جلد الإنسان . والبشر : القشر .

(٤) في بول أدماه والتصحيح من أ . (٢٢ش) ، والدأماء : البصر .

(٥) في بول الثيرة والمذكور من أ (٢٢ش) .

(٦) في بول عذابات والتصحيح من أ (٢٢ش) .

الجنث ، وما أحسن عمارات القلوب بقيح ذلك الشعث ، وما أجزأ صلوات
البشائر بوقوع ذلك الحدث . هذا حساب من قتل . فقد حصرت السنة
الأمم عن حصره وعده . وأما من أسر : فلم تكف أطناب الخيم لقيده
وشده . ولقد رأيت في جبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ،
وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين (١) يحميمهم حارس . وهناك العناة عناه ،
والعداة عراه . وذوو الأسرة أسرى ، وأولو الأثرة عثرى . والقوامص
قنائص ، والقوارس فرائس ، وغوالي الأرواح رخائص . ووجوه الداوية
الداوية عوابس ، والرعوس تحت الأخماص ، (٢) ومطالع الأجسام ذوات
المقاطع والمخالص . فكم أصيد صيد ، وقائد قيّد وقيد . ومشرك مكشّر ،
وكافر مفكر . ومثلث منصف ، ومكيف مكثف . وجارح مجروح ، وقارح
مقروح . وملك مملوك ، وهاتك مهتوك . ومتبر مبتور ، ومحسر محسور .
وكابل (٣) في الكبول (٤) ، ومغتال في الغلول . وحر في الرق ، ومبطل
في يد المحتق .

(١) (و) في ب ول والتصحيح من أ (٢٣ ش) .

(٢) ساقطة في أ (٢٣ ش) .

(٣) في أ (٢٤ ص) كابل وفي ل مكثيل .

(٤) للكبول : القيود .

ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصليوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت . وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع ؛ سجد له كل نصران وركع . وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم . وقد غلقوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر . وأعدوه ليوم الروح المشهود ، ولوسم عيدهم الموعود . فإذا أخرجته القسوس ؛ وحملته الرعوس ؛ تبادروا إليه ، وانثالوا (١) عليه . ولايسع لأحدهم عنه التخلف ، ولايسوخ للمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف . وأخذته أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب هم في ذلك المعترك . فإن الصليب السليب ماله عوض ، ولأهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض . فهو لهم وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم . يتعاشون عند احضاره ، ويتعاشون لإبصاره ، ويتعاشون لإظهاره ، ويتعاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه . ويبدلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج . بل صاغوا على مثاله صليانا يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها .

فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيماً ، والموقف المنصور كريماً . فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب ، لم يتخلف أحد من يومهم العصيب . فهلكوا قتلاً واسراً ، وملكوا قهراً وقسراً . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر ، والقمر المبدر .

(١) انثالوا عليه : تقاطروا عليه ، انصبوا عليه .

ذكر فتح حصن طبرية

ونلب إلى حصنها من تسلمه أمانا ، وأسكنه بعد الكفر إيماناً . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته ، ونقلت إليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على أصحابها وأموالها ، وخرجت بنسائها ورجالها ورجالها ، وسارت إلى طرابلس (١) بلد زوجها القومص بما لها وحالها .

وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان ، وعين لولايتها (صارم الدين قايماز النجى) وهو من الأكابر الأعيان . هذا والملك الناصر ، نازل ظاهر طبرية ، وقد طب البرية ، وعسكره طبق البرية .

(١) طرابلس : أو أطرابلس ، بلد على طرف خارج في البحر ، فتحها المسلمون سنة ١٨٦ هـ ثم خربوها وصروا على مقربة منها وعلى بعد ميل مدينة باسمها (ياقوت ج ١٣ : ٢٥ - ٢٦ ط . ب) .

ذكر ما اعتمده في الأسارى الداوية والاسبتارية من ضرب

رقابهم وإعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشرى شهر ربيع الآخر بعد الفتح
بيومين ؛ طلب الأسارى من الداوية والاسبتارية وقال : أنا أطهر الأرض
من الجنسين النجسين ، وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين (١) ،
فأحضر العسكر في الحال مئتين (٢) . وأمر بضرب أعناقهم ، واختار
قتلهم على استرقاقهم .

وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف ، وعدة من ذوى التعفف
والتعيف (٣) . فسأل كل واحد في قتل واحد ، وسل سيفه وحسر عن
ساعد . والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف ،
والأمراء فى السماطين وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر ، ومنهم
من أبى ونبا وعذر . ومنهم من يضحك منه ، وينوب سواه عنه .

وشاهدت هناك الضحوك القتال ، ورأيت منه القوال الفعال . فكم
وعد أنجزه ، وحمد أحرزه ، وأجر استدامه بدم أجراه ، وبرأعتى إليه
بعق براه . ونصل خضبه ، لنصر خطبه . وأسل (٤) اعتقله ، لأسد عقله .
وداء داواه ، لداوى أدواه . وقوة أهداها لهداة قواها ، ولواء
نشره للأواء (٥) طواها . وكفر أماته لاسلام أحياء . وشرك هدمه
لتوحيد بناءه . وعزمة أمضاها (٦) لأمة أرضهاها . وعلو قصمه ، لولى عصمه .

(١) يقصد حسين ديناراً (الروضتين ج ٢ : ٧٩ تحقيق د. محمد حلى أحمد) .

(٢) مئتين : جمع مائة .

(٣) التعيف : التكنن ، وهو زجر الطير والاتصاف بالابتكار .

(٤) أى الرمح .

(٥) أى شدة وعنة .

(٦) فى أنفاسها وهذا تصحيف وفى ب مضاعفاً والتصحيح من ل .

وسير ملك الفرنج وأخاه وهنقرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية
وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجن ، وتستبدل بجركاتهم
السكون . وتفرقت العساكر بما حوته (١) أيديهم من السبي أيدي سبا .
وخذ جمر جمع الكفر وخبا .

(١) في أ (٢٥٠ ش) جمعت .

ذكر فتح عكاه

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهراً على أهل التلث ، مديلاً للطيب
مزيلاً للخبيث (١) . وسار عسكره ، وثار عثيره (٢) . وظهرت راياته ،
وبهرت آياته . ونعرت كوساته (٣) ، وصاحت بوقاته . وجالت خيوله ،
وسالت سيوله . وطلعت في سماء (٤) العجاج نجوم خرصانه ، وقلعت
قلائع تلك الجبال جبال فرسانه . وحضرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد
الصلاب ، وفصحت بإعراب الحماحم (٥) صواهل الجياد العرب .

والأسنة مشرعة ، والأعنة مسرعة . وبجور السوايح متموجة ، وغدران
السوايح مترججة ، ويوارق اليارق متموجة ، وأوضاع الجرد وغررها
كأوضاع النصر وغرره متبلجة . ونزل عشية بأرض لوية (٦) ، للداعي
الفتح ملياً ، ولجيش النصر معيماً ، وللولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان
مربياً . وبات بها معرساً بانياً على عروس الظفر البكر ، جانياً ثمار الأمانى
من غروس البيض والسمر . وأصبح وقد أصعب جماح الدهر ، وصح
نجاح الأمر ، وحص جناح الكفر . وأسفر فجر الفرج ، وسفر وجه البهج .
وسار ساراً سره ، بارأ بأرباب الدين بره . زائرة أسوده ، طائرة
بنوده . ظاهرة جنوده ، زاهرة جلوده . سامية أضواؤه . هامية أنواؤه .
رائحة مواكبه ، رائقة مراكبه . مجنبة عتاقه ، مندربة رفاقه . وكان أمير المدينة
النبوية — صلوات الله على ساكنها — في موكبه . فكأن رسول الله — صلى الله

(١) في ب الخبيث والتصحيح من ل ومن أ (٢٦ ص) .

(٢) العثير : التراب .

(٣) كوسات : أوكوس ، صنوج من نحاس تشبه التروس الصغيرة يندق بأحدها على
الآخر يليقاع مخصوص (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٥ حاشية ٣ ط . دار الكتب) .

(٤) في ب سماع والتصحيح من ل .

(٥) الحماحم : المحمصة ، أصوات التحليل الجياد .

(٦) لوييا : أرض بالقرب من طبرية (مفرج الكروب ج ٢ : ٨٩ تحقيق د . الشياح) .

عليه وسلم - سير للقبر إلى نصرته من يثرب به من يثربه (١) . وهذا الأمير
(عز الدين أبو فليته القاسم بن المهني الحسيني) قد وفد في تلك السنة أو أن
عود الحاج ، وهو ذو شيبة تقدر كالسراج .

وما برح مع الملك الناصر ، مأثور المأثر . ميمون الصحبة ، مأمون
المحية . مبارك الطلعة ، مشاركاً في الوقعة . فما تم فتح في تلك السنين^م
إلا بمضوره ، ولا أشرق مطلع من النصر إلا بنوره . فرأيت ذلك اليوم
للسلطان مسيراً ، ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً . وأنا أسير معهما . وقد
دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما . ولاحت أعلام عكا ، وكان ييارق الفرنج
المركوزة عليها ألسنة من الخوف تشكى . وكان عذبات النيران تصاعدت
بعذاب أهلها ، وقد توافرت عساكر الإسلام إليها من وعرها وسهلها .

فلما قرب منها خيم وراء ثلها ، وأذنت عروش معاشر الشرك بفلها ،
وعقود معاقدي الكفر بجلها . وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه (٢) ،
ووقف كالأسد في عريسه (٣) . فخرج أهل البلد يطلبون الأمان ، ويبدلون
الإذعان . فأمتهم وخيرهم بين المقام والانتقال ، وهب لهم عصمة الأنفس
والأموال . وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم ، ويسبي ذريتهم ونساءهم .
وأهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة ، واغتموا تلك المهلة .

وفتح الباب للخاصة ، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوى
الخصاصة . فإن القوم ما صدقوا من الخوف المزعج ، والفرج المحرج .
كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون ، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم
أنهم يغمون . فترك معظمهم المدينة ، وعندهم أنه ما كسب السكنية إلا من
ركب السفينة . وذلك أن الجند لما دخلوها استولوا على الدور ونزلوها .
وركز كل منهم بيرقه على دار ، وقال صاحبها « كيف يصح المقام مع الأسد
في غابة ولا مقام على زار » .

(١) يقصد يثرب وهو الاسم القديم لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي المدينة المنورة .

(٢) أى جيشه .

(٣) العريس بتشديد الراء وكسر العين ، مأوى الأسد .

وكان السلطان جعل للفقيه (عيسى الهكاري) (١) كل ما يتعلق بالدواية من منازل وضياح ، ومواضع ورباع ، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع . ووهب عكاء لولده الملك الأفضل ، فأجراها من نظره على الأحسن الأجل . ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فأقمنا بها الجمعة ، ووصلنا فريضتها المنقطعة . وأعدنا الكنيسة العظمى مسجداً جامعاً ، وعاد نور الهدى الخفافى بالضلالة لامعاً .

وحضر القاضي الأجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتسميم بيمامنه للإسلام بعد الإظلام سبب الصبح المسفر . وخطب (جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السهروردى) فإنه تولى بها القضاء والخطابة ، وملاًنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابة . وخطى سكان البلد دورهم ، ونخروهم ، ومنخورهم . وتركوها لمن أخذها ، ونبلوا ما حووه لمن حواها وما نبذها . وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء . ولو دخرت تلك الحواصل ، وحصلت تلك الذخائر ؛ وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر ؛ لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد فترمت في خضرتها بل صفراً وببيضائها سروح الأطماع ، وطال لمستحليها ومستحليها الامتاع بذلك المتاع .

وأقام السلطان باب عكاء على التل مخيماً ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً ، ولملكيتها متمماً . وكان قد كتب إلى أخيه الملك العادل (سيف الدين أبي بكر (٢)) - وهو بمصر بما أتاحه الله من النصر ، وقبضه له من افتتاض الفتح البكر . فوصلت البشرى بوصوله باشراً ، وللواء الحمد ناشرأ

(١) الفقيه عيسى الهكاري : هو أبو محمد ، عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد ابن القاسم ، ضياء الدين ، حضر فتح مصر مع أسدالدين شيركوه ، وحضر مع صلاح الدين فتح القدس والنزوات وكان صلاح الدين يميل إليه ويستشير به ، وكان ورعاً حفيظاً دينياً ، توفي سنة ٥٨٥ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ط . دار الكتب) .

(٢) الملك العادل : هو أبو بكر ، محمد أبو الشكر ، نجم الدين ، أيوب بن شاذي ابن مروان الدؤوبي ، التكريتي ، دمشق ، ولد سنة ٥٣٩ هـ ، وتولى حكم الديار المصرية سنة ٥٩٦ هـ ، توفي بمالقين إحدى قرى دمشق سنة ٦١٥ هـ ودفن بدمشق (النجوم الزاهرة ج ٦ : ط . دار الكتب) .

ولاستفتاح مائى طريقه من الحصون مباشراً . وأنه فتح حصن مجدل يابا (١) ومدينة يافا عنوة ، واغتمها غزوة ، وتسلمها حظوة . فقصدته من عساكرنا القصاد ، ووفد إليه من عندنا الوقاد . فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع (٢) والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالنعود ووعدهم مما سيحصل بالنسايا (٣) .

وشرع يستضيف حصناً فحصناً ، ويستفيض حسنى وحسناً . ويستزيد بلداً ، ويستزير (٤) مدداً . ويستنزل من الكفر يداً ، ويستميل إلى الهدى هدى . والدين بسيف سيفه منصور ، والإسلام بنصر ناصره مسرور . والملك العادل مالك بعدله ، سالك نهج النجاح بفضلته . فائز العزيمة ، حائز الغنمة ، ماضى الضريبة ، قاضى الكتيبة . ميمون النقية ، مأمول الرغبة (٥) .

(١) مجديابه : أو مجدل يابه ، قرية قرب الرملة بفلسطين ، بها حصن محكم (ياقوت ج ١٧ : ٥٧ ط . ب) .

(٢) المرباع : المكان ينبت زرعه فى أول الربيع .

(٣) النسايا : ما يتركه المرتحلون من متاعهم .

(٤) أن يسأله أن يزوره .

(٥) فى ب الرغبة والتصحيح من ل .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافراً بمغنمه ، ظاهراً بكرمه ، شاكرراً عرام^(١)
عرمرمه . ملهياً ضرام مخنمه^(٢) ، مروياً أوام^(٣) لهنمه . وأمر أمراءه
بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاورة .

(١) عرام : شدة .

(٢) مخنم : القاطع من السيوف . آلة الخنم .

(٣) أوام : عطش .

فتح الناصرة (١) وصفورية (٢)

فسار (مظفر الدين كوكبوري) إلى الناصرة فاستباح حماها ، واستبي دماها . وحلها واستحلها ، وأزالها وأزلتها (٣) وخف إليها واستخفها ، واستشفها وشفها (٤) . وشافهها يشفار البواتر ، فشفه منها موالد الذخائر واجتلى عرائسها ، واجتلى مغارسها ، وجمع نفاشها ، ونزع ملابسها ، واستلرُ طَبِيْها ، واسترد سبيها .

واستقل منها بما استقل به . من كل غانية عانية (٥) ، ورقيقة رقيقة ، ومصابة مُصَيِّبة ، ومسيية مصيية ، ومجلولة مجلولة ، وسالبة مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، وأسيرة من أسرة ، وحاسرة عن حسرة . وثاكلة لواحدتها ، وآكلة لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختمِ الدمع على خديها . وناهلة متنهدة ، وفريدة متفردة ، وناعمة شقية ، وقيسة نقية . وعذراء مفرعة ، وحسناء منزعرة . ومخطفة مخطفة ، وقوية مستضعفة . وعزيزة ذليلة ، وصحيحة عليلة . وساجية عبرى ، وصاحية سكرى . وغريرة غراء ، وظلية ظمياء . وغضيبضة غضة ، وفضة منفضة . وخمارة مخمورة . وسحارة مسحورة . ومخلدرة مهتوكة ، وموقرة منهوكة وجاعوا بالأسارى بين يديه مقرنين فى الأصقاف ، مقودين فى الأقياد . مسوقين إلى السوق ، والحديد منهم فى الأعناق والسوق . وصفورت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من الذخائر مبلغ وافر .

(١) الناصرة : قرية بينها وبين طبريه ١٣ ميلا ، منها اشتق اسم النصارى لأن المسيح عليه السلام سكنها فنسب إليها (ياقوت ج ١٨ : ٢٥١ ط . ب) .

(٢) سبق التحريف بها .

(٣) أى أسقطها .

(٤) شفها : أرونها .

(٥) هانية : مأسورة ، عنى . عنا فى القوم : صار أسيراً فهم .

فتح قيسارية (١)

وتوجه (بدر الدين دلدريم) و(غرس الدين قليج) وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس والفنائس بها حاكمي الختف والحيف ؛ وسبوا وحبوا وسلبوا وجلبوا . وجالوا ونالوا . ووقدوا (٢) وأخذوا ، واحتوا وارتوا ، وربطوا وضبطوا . واستفادوا واستقادوا ، وفرسوا الفوارس ، وكنسوا الكنائس ، واستبوا الأبيكار العرائس . والعون (٣) العوانس . وتسلمت بعدها (حيفا) و (أرسوف) (٤) واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف :

(١) قيسارية : بلدة على ساحل (البحر الأبيض المتوسط) من أعمال فلسطين (ياقوت ج ١٦ : ٤٢١ ط . ب) .
(٢) وقد : صرع .
(٣) العون : عانت المرأة ، تمون ، صارت عوانا أي في منتصف عمرها ، وعون جمع عوان .
(٤) أرسوف : مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا (ياقوت ج ٢ : ١٥٢ ط . ب)

فتح نابلس (١)

وسار (حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين (٢) على سمت نابلس حاصماً بحسامه داء الشرك، مائلاً بسهام الفتك جعاب الترك . تالياً آى الفتح ، جالياً رأى النجح . ووصل إلى (سَمْسَطِيَّة) (٣) فتسلمها . وتعجل مغنمها . ووجد مشهد (زكريا) عليه السلام - قد اتخذ القسوس كنيسة ، وأعادوها بالصور والآلات النفيسة أنيسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد والآلات . وأعادته مشهداً ، وردده مسجداً . ووضع فيه من بره بالإسلام متبراً ، وأصبح الدين به مُثرياً والكفر مقترأ .

ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف جده غير كاب .
وحد بأسه(٤) طرير ، وناظر الدواة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم إن أقاموا لا يأمنون المزون . فإن المسلمين بها وبأعمالها نهضوا إليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أمّاكنهم . وخلصوا دورهم وأخلوها ، وتسلبوا منها وسلوها . وتحول الأقوياء إلى قلعتهما ، وتحصنوا بتلعتها(٥) . ونازلها (حسام الدين) وحاصرها ، وطال عليه حصرها وصابرها . ولم يزل عليها مقيماً ؛ وقاتلها مديماً ؛ إلى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا بإحسانه . وسلموا وسلموا ، واستأمنوا وأمنوا . وخلصت

-
- (١) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبيلين (ياقوت ج ١٨ : ٢٤٨ ط.ب).
 - (٢) حسام الدين لاجين : هو محمد بن عمر بن لاجين ، ابن ست الشام أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي ، توفى سنة ٥٨٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦٤) .
 - (٣) سمسطية : ذكرها ياقوت «سبسطية» وهي مدينة من نواحي فلسطين من أعمال بيت المقدس (ياقوت ج ١ : ١٨٤ ط. ب) .
 - (٤) طرير : محدد .
 - (٥) تلعة : ماعلا أو ما هبط من الأرض ، الجبل ، المرتفع من الأرض وهو المقصود .

له نابلس وأعمالها ، وحليت به أحوالها . ولكون معظم أهلها وجميع سكان
نواحيها مسلمين ؛ لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم إلا أن يكونوا
لخصنهم مسلمين . فانمحي بالسعود رسم النحوس ، ونزعنا عنها لبوس
البوس ، واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس ، وقام جاه الآذان وانكسر
ناموس الناقوس .

فتح القولة (١) وغيرها

وكانت القولة أحسن قلعة وأحصنها ، وأملاها بالرجال والعدد وأشحنها . وهى للداوية حصن حصين : ومكان مكين ، وركن ركين . وطم بها منبع منبع ، ومربع مربع ، وهند مشيد ، ومهاد مهيد . وفيها مشتاهم ومصيفهم : ومقراهم ومصيفهم . ومربط خيولهم ، ومجر ذيولهم ، ومجرى سيولهم ، ومجمع اخوانهم ، ومشرع شيطانهم ، وموضع صلبانهم . ومورد جمعهم (٢) ، وموقد جمرتهم :

فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم : واثقين بأن الكفر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا وأسروا : وخسروا وتحسروا ؛ خلت طول القولة ؛ بمحدود أهلها المقلولة ، ودماء داويتها المقلولة ، ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلوطة .

ولم يبق بها إلا رعايا رعا ، وغلمان وأتباع ، وأشياع شعاع (٣) . فقدموا إمكان حماية المكان ، ووجدوا أمنهم في الاستئمان ، فسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان ، وكانت فيه أخاير الذخائر ونفائس الأغلاق (٤) ، فوثقوا بما أحكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين ، ودخلوا في النمام لاجين ، وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل (دَبْورِيَّة) (٥) و (جينين) (٦) و (زَرَعِين) (٧) و (الطور) (٨)

(١) القولة : بلدة بفلسطين (ياقوت ج ١٥ : ٢٨٠ ط.ب.) .

(٢) جه : هنا بمعنى الكثرة .

(٣) شعاع : أى متفرقين .

(٤) الأغلاق : واحدها علق وهو النفيس من كل شيء .

(٥) دبورية : بليدة قرب طبرية من أعمال الأردن (ياقوت ج ٨ : ٤٣٧ ط.ب.) .

(٦) جينين أوجانين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من الأردن ، بها مياه وعيون

(الفهرس الجغرافي لكتاب النوادر السلطانية ط. ليدن رقم G) .

(٧) زرعين : موضع من نواحي الأردن (المرجع السابق رقم S) .

(٨) الطور : جبل مغل على طبرية الأردن بينهما أربعة فرائخ (النجوم الزاهرة

ج ٦ : ٢٢١ ط. دار الكتب) .

و (اللجون) (١) و(بيسان) (٢) و(القيصون) (٣) . وجميع ما لطيرية
وعكا من الولايات . و (الزيب) (٤) و (معليا) (٥) و(البعنة) ،
و(اسكندرونة) (٦) و(منوات) (٧) .

-
- (١) اللجون : بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلا في وسطها صخرة ملدورة
عليها قبة يقال إنها مسجد ابراهيم عليه السلام (ياقوت ج ١٧ : ١٣ و ١٤ ط.ب.) .
- (٢) بيسان : مدينة بالأردن بالنور الشامي بين حوران وفلسطين (ياقوت ج ٤ :
٥٢٧ ط.ب.) .
- (٣) القيصون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين (ياقوت ج ١٦ : ٤٢٤ ط.ب.) .
- (٤) الزيب : قرية قرب عكا على (ساحل البحر الأبيض المتوسط) وتعرف بشارستان
عكا (ياقوت ج ١٠ : ١٦٢ - ١٦٣ ط.ب.) .
- (٥) معليا : من نواحي الأردن بالشام (ياقوت ج ١٨ : ١٥٨ ط.ب.) .
- (٦) اسكندرونة : مدينة في شرق انطاكية على (ساحل البحر الأبيض المتوسط) بينها
وبين أنطاكية ثمانية فراسخ (ياقوت ج ٢ : ١٨٢ ط.ب.) .
- (٧) منوات : بلدة بسواحل الشام قرب عكا(المرجع السابق ج ١٨ : ٢١٦) .

فتح تبنين (١)

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ؛ وقلصت من الضلال تلك الظلال ؛ وصفت الممالك ؛ ووفت المدارك ؛ أوعز السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر (عمر بن شاهنشاه تقي الدين) (٢) بقصد حصن تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين . فألقى عليه جران باسه ، ولقى بالتدليل حران ناسه ، وأخذ في مضايقته بأنفاسه ، ولمح ما لمع من قبس فتحة فشعف باقتباسه . وسنح له قنصه فاشرب باقتناصه واقراسه .

وكتب إلى السلطان يبعثه على الوصول إليه بمسكركه ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره . فضرب الكوس وسمت النفوس . وأنارت في ظلام القتام من الترك والتراتك (٣) الأقمار والشموس ، واشتعلت من شيب اليبارق في شعاع تلك البوارق الرعوس . وتحرك السواد كهليل النقا (٤) ، واشتبك على الآساد غيل القنا . وسالت الأودية بالسباحات العتاق ، وطالت على السير أعناق الإعتاق (٥) . ومالت إلى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر وراقب الرقاق . (وجرت الفجاج ، وجرّت الزجاج (٦) وتموجت الأفواج ،

(١) تبنين : أوتبينا . بلدة في جبال بئى عامر المطلّة على بانياس بين دمشق وصور (ياقوت ج ٥ : ١٤ ط . ب) .

(٢) الملك المظفر تقي الدين عمر : هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، أبو سعيد . أصله عمه صلاح الدين جهاء وعدة بلاد من جهاء إلى ديار بكر ثم طمع في بلاد الشرق فقامت بينه وبين صاحب خلاط عدة وقائع وحروب ، كان شجاعاً مقداماً ، كما كان شاعراً ، مات ببلاد الشرق سنة ٥٨٧ هـ فدفن في ميفارقين ثم نقل إلى مدرسته بجهاء بعد ذلك (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٤ ط دار الكتب) .

(٣) التراتك : واحدها ترك وهي بيضة الحديد (الخوذة) .

(٤) مهليل النقا : مكان رملي محدودب مخيف ذو أهوال .

(٥) أي الجماعة من الناس ، أو الرؤساء .

(٦) زيادة من أ (٣١ ش) .

وتفتّحت (١) الأمواج . وتحركت غدران السوايغ (٢) من رياح السوايغ ،
ولدركت ضوامن الضوامر بالارفاد في أرداف الحق اللاحق ، وأسفر من
بريق البيض (٣) والبيّض (٤) فتق القياتق .

وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوايل ، وساح الساحل ، وراح الراحل .
ووصلنا إلى (تبنين) في ثلاث مراحل . فرمينا أهل الثلث فيها بثلاثة
الأثافي (٥) ، وأوطأناهم بشفاه الشفار (٦) على حدود الأشافي . ونزلنا
عليها بالنوازل . وبسطنا من المجاتيغ عليها أيدي الغوازل . فتبلدوا من
الرعب ، وتجلدوا على الحرب . ثم نهاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا .
ورغبوا ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحوا . وعجزوا فجزعوا ،
وفزهم الحصر وفزعوا . وشكوا التوب وندبوا ، فدانا ودنوا . وأذعنوا
إذعنوا ، واعتنوا مما جنوا .

وراسلوا السلطان ، وسألوا الأمان . واستهلوا خمسة ايام لينزلوا
بأموالهم فأمهلوا . وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا . وأقلع من
بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق (٧) بالمهلة . وتقربوا باطلاق الأسارى
المسلمين . وتقربوا انقضاء المهلة لسلامة المسلمين . فخرج المأسورون -
مسرورين ، وأصبح الصبح للكسورون مجبورين . محبورين بالفرج بعد
الشدة مجبورين .

وسرّ بهم السلطان وسرّ بهم (٨) ، وأقرهم وقربهم . وكساهم

(١) أي صارت أفواجا .

(٢) العبارة في أ (٣١ ش) : وجرت الزجاج ، وتوجت الأمواج ، وتحركت غدران

السوايغ .

(٣) أي خوذات الحرب ومقردها بيضة بسكون الياء .

(٤) أي السيوف ومقردها أبيض .

(٥) يقال رميناها بثلاثة الأثافي ، أي بالشركله .

(٦) الشفار جمع شفرة ، والمقصود هنا حدود السيوف .

(٧) أي الأشغال .

(٨) أطلقهم .

وحياهم ، وآتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم . وهذا ذأبه في كل بلد يفتحه ، ومُلك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها ، ويحيى بعد اليأس آمالها . ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها . فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير للقيود إلف ، ووقع في أسرنا من الكفار مائة ألف .

ولما خلوا القلعة وأخلوا البقعة ؛ سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور^(١) ورتب في الموضع مملوكه (سُقَر الدوى) ، فأرشد به ذلك الصقع الغوى . فإن أعمال جبل عاملة^(٢) مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لأهل الكفر ، فوصى سُقَر بتأسيس النافر ، وتعكيس الكافر . وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل . وقال له « تَبْنِي تَبْنِينَ ما هدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق » ، ورحل ومعه رفيق التوفيق . وكان النزول على تبنين ، يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى ، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر منه .

(١) صور : بلد مشرف على البحر الأبيض المتوسط (بحر الشام) داخلة فيه ، يحيط الماء بها من جميع الجهات إلا من الجهة الداخلة . على بعد ستة فراسخ من عكاه إلى جهة الشرق منها (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٤ ط . ب .) .

(٢) جبل عاملة : يقع عند ملتقى الطرق الموصلة بين صفد وتبنين وبانباس

(The Damascus Chronicle)

فتح صيداء (١)

يوم الأربعاء الحادى والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها

وسنحت له صيداء فتصدى لصيدها ، وكانت همته فى قيدها ، وبادرها إشفافاً من مكر العداة وكيدها. وسرنا وسرنا مراتح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد والمزاح مزاح . والعزم جزم ، والحكم حتم . ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهدى تفوح . ونفحات (٢) الردى لأعين العدا تلوح . ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل . وفكر الكفر قد توزع ؛ وشرك الشرك قد تقطع وتقلع . وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف . والتدروع والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر . وأوجهنا وأوجه البشائر باشرة ، ونيوب التائب فى أوجه المشركين كاشرة ، والألسن لحديث الفتح الحديث ناشرة . وقد جفت أعضائها البواتر الواثرة . وجلت دياجير (٣) القمع من لمعان الحديد السوافر الوافرة . واتصلت للممالك (٤) من الملائك أمداد النصرة المتواترة .

ووصلنا فى يومين إلى صيداء إلى منهل فتحها صادين (٥) ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين. ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر ، وصفا من الأمر ما ظن أنه تكلر . فصرنا الأعنة إلى صرّفند (٦) ،

(١) صيدا : بلدة شرق صور على بعد ستة فراسخ منها ، سقطت فى يد الفرنج سنة ٥٠٤ هـ وقيمت فى حوزتهم حتى استنقذها صلاح الدين سنة ٥٣٨ هـ - (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٧ - ٤٣٨ طاب) .

(٢) فى ب نفحات والتصحيح من ل ومن ا (٤٣٣ى) .

(٣) دياجير : واحدها ديجور وهو الظلام أو التراب الأغبر الضارب إلى السواد كالرماد .

(٤) فى ب المالك والتصحيح من ل ، وأ (٤٣٣ى)

(٥) صاد أى عطشان بشدة .

(٦) صرّفند : من قرى صور ! بين صور وصيدا على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض

المتوسط) (ياقوت ج ١٢ : ٤٠٢ ط ب) .

وأسمنا(١) في مسارحها الجند . وهي مدينة لطيفة على الساحل ، مورودة المناهل . ذات بساتين ، وأزهار ورياحين . وأشجار النارنج والأترنج تعرب مسراتها لجنتها عن أشجان الفرنج . فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها . وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية . وقرتنا بما اشتهيانمن فواكهها تلك القرية .

ولم نخرج عليها حتى خيمنا على صيداء وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها . فقد جاءت رسل صاحبها . بمفاتيحها ، وأذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصاييحها ، وطلعت الراية الصفراء(٢) باليد البيضاء على سورها . وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها ، وفحت أبوابها ، وأنجحت آرابها . وعز مسلموها ، وذل مشركوها وسكن ساكنوها ، وهلك أهلوها . وعادت معالمها مأهولة بعد أن كانت مقفرة مجهولة . وصدق منبرها ، وصدق مفخرها . وريح منجرها ، ووضح منظرها . وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة .

(١) اسم : أى أرمى .

(٢) هذه إشارة إلى لون راية صلاح الدين .

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثاى عشرى جمادى الأولى وتسلمها

يوم الخميس السابع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبين ؛ وجمع لهما التحصين والتحسين ؛ قال لعصمة الله شيدى مابصيداء وتبين تبين . وألحفهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين ولا يطرق ما تحمين ، ثم صرف عنانه ، وأرهف سنانه (١) . ورحل على سمّت بيروت ، مائلاً بعسكره الآكام والمُروّت (٢) . وسار على الساحل ، بتلك الجحافل . يبحر على البحر مائج ، ومَجْرٌ مُجْرٌ إلى الهياج هائج ، وتقد من عقد الجسد رائج ، وعزم على صدق القصد عائج (٣) .

ووصل لايها ونزل عليها . وبنيت القباب ، وطفقا على خضم المعسكر من الخيم الجباب (٤) ، وزحف إلى الأعداء الأحباب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد . وأحاط الرجال بأرجائه ؛ ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال فى سمائه . واتقضت نجوم السهام من أراجاه ، وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه . وترجل دونه أناس ، وتمجل نحوه الياس ، واصطفت الراس ، واشتد المراس . واحتد القتال ، واحتدم التزال . وامتد المصاع (٥) والمصال (٦) .

واتصل خروج الجروخ (٧) للجروح ؛ ودام احتراق الروح على اقتراح

(١) الستان : نصل الرمح .

(٢) المروت : جمع مرت ، وهى المغازة أى الأرض لانبات فيها

(٣) عائج : عاج على بمعنى مال وعطف .

(٤) الجباب : الفقاقيع التى تملو الماء أو الخمر .

(٥) المصاع : القتال .

(٦) المصال : مكان الصولة أو الاستلاة .

(٧) الجروخ : جمع جرخ ، وهى آلة حربية كانت تستعمل لرمى السهام والنفط المشتعل

(المجارة (Dozy Supp. Dict. Arabe)

القروح . ومدت الجفاني(١) - كأنها أعتاق البخاني(٢) : وأنى العاني ، وعنا الآتى ، وأحمد النصر المواني المواني ، ودارت كوؤوس المنايا للأرواح بجندي وهاني . وطارت القوارير ، وثارت المساعير . واشتعل النفط ، واشتغل الرهط . والتهم الزرّاق ، والتهم الحرّاق . ومرق السهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، وأنى الوادى فطمّ على القرّى(٣) . ودبت الدبابة(٤) بلبوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث النبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وانتجزت مواعد الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالنوازل نوازي الأهوال .

ورعدت بوارق البوار ، وأسعدت الأقدار بالإقدار . وشغلت الرقاب قواضي القواضب ، وحملت العدد النواكب على المناكب . وخفت للأثقال أكثاف الفتاك ، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الإشراك .

ودام القتال أياما ، يتضاعف اصطلاءً واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا واضطرابا . وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة . ورجعت بشهب التفاسطات(٥) شياطين الداوية المردة ، وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة . حتى خرق الخندق وطرق ، وعلقت النقاب بالسور فنقب وعلقت .

(١) الجفاني جمع جفتا ، قال Dozy بأنها تقابل الكلمة الفرنسية *pallisade* بمعنى السياج الساتر ، وأضاف الدكتور جمال الشيال في مفرج الكروب ج ٢ : ٥٨ بأنها كانت نوعاً من المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو . أو السر الذي يستتر وراءه الجنود الرماة أثناء القتال .

(٢) البخاني : جمع بخت وهي الإبل الخراسانية .

(٣) القرى : كل شيء على طريق واحد ، وسيل الماء من الرية إلى الروضة وهو المقصود .

(٤) الدبابة : شبه برج متحرك يكون أحيانا من طبقات أربع من خشب أو حديد أو رصاص أو نحاس يتحرك على عجلات ، في طبقاته يستقر الجنود لمهاجمة الحصون أو تسلق الأسوار وأبسط صورة للدبابة هي أن تكون من خشب مكمو بجلد قد تقع في المل لعياتها من الاحتراق . *Supp. Dict* (و) السلوك ج ١ : ٦٦ تحقيق د. زياده .

(٥) التفاسطات : جمع فطاطه ، وهي أداة من النحاس يرمى فيها بالنفط (القاموس المحيط للفيروزابادي) .

وكاد النقب يتسع ، والبرج يقع . والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض
وترفض . وسوار السور ينكسر ، وقناع النقع لا ينحسر .

وخرج من البلد رجال ، إلى الموت عجال . وقفوا دون الباشورة^(١)
مباشرين ، ولعاشر أصحابنا بمعاطات كؤوس المنون معاشرين . ففلقوا
بسلام السلام ، وكلام الكلام . وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح .
وتواصلوا بالقواطع ، وتعانقوا بالمقارع ، وتصارعوا على المصارع . وتجادلوا
وتجادلوا ، وتواقحوا ، وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا . والبيض يقعد ،
والبيض تقد . والباسل يرد ، والباس يرد . والصقيل الصادى يصدأ بالدم
ويروى ، وحزب الكفر يضعف وحزب الإسلام يقوى .

ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللدد^(٢) . وضافهم الرعب ،
وضاق بهم الرعب . وذلوا وخاروا ، وضلوا وحاروا . ولما خاب المقاتلة
وذلوا ، ظن أهل بيروت أن المسلمين دخلوا . فأجفلوا إلى البحر إذ عدوا
سكيتهم ، ليركبوا سفيتهم ، ويحلوا مدينتهم .

فخرج احد المقدمين يستدعي الأمان ، ويستدعي الإيمان . ويطلب
مثالا يعصمهم ، وذماما يجرمهم . وعهدنا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدنا
في عقد الأمن ينظمهم . وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ،
ومفض أخفاني ولعيون العوادم أبرزني . وانقطعت عن الحضور عند
السلطان ، وضعفت عن تحرير كتاب الأمان . فطلب السلطان كل كاتب في
ديوانه . وكل من يمسك قلما من أفاضل الملائك وأعيانه . فلم يرضه ما كتبوه ، ولم
يكفه ما رتبوه . فجاءني في تلك الحالة من استملاء مني ، ومرضت أذهان
الأصحاء ولم يمرض ذهني . فتسلم بيروت بخطي ، وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى .
وكان الناس قد أنسوا لما أسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ما أذكره
وأحبره . وألقوا الصحة فيه فأنفوه ، ولقوا السقم في غيره فأنفوه . فلم يكن
في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله توثيق . فما فُتح فتح إلا بمفتاحه

(١) الباشورة : هي الحائط الظاهري من الحصن الذي يخفى وراءه الجند عند النضال

Dozy. Snpp. Diet. Arabe

(٢) اللد : شدة الحصومة .

ولارتق فتق إلا باصلاحه . ولا جلى ظلام إلا باصباحه ، ولا وري زلد إلا باقتداحه .

وكانت يومئذ جمره الحر متوهجة ، ووقدة القيظ متأججة . وضررم مرضى ملتها ، وروح روحى منتها . وبقيت مضطرا مضطربا ، ولقيت من ذلك الوصب نصبا . وحصات من الإقامة أو السفر ، على الخطر أو الحذر . وتعلم المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن آلاء شغلى بالآلام . وحملى انخلالى بنصبى على إخلالى بمنصبى . وعزت على مفارقة السلطان ، وهو باعزازى على مواصلة الاحسان . ففضيت على مضض ، وانصرفت بمضرة ومرض . وحملت إلى دمشق فى محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هواؤها بعد الثقل بمحفة . ففضل الله بالشقاء ، وبدل الكدر بالصفاء .

وعدت إلى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الوحشة إلى الأتس . وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى مطاع الأمر ، مشاع النصر ، مذاع السر فى تضيوع (١) النشر ، وتوضيح البشر . مستفيض السيادة ، مستضيف الزيادة ، ناجح الإرادة ، راجع العبادة . رابع المتجر ، واضح المفخر . قد شب غرب الهدى ، وجب راعب العدا . واستجلى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحاً ، واستفاد ملكاً ، واستزاد ملكاً .

وبر بيروت إذ برت ، وانبرى لبرى قوسها فأبرت ، وقرر مصالحها ومناجحها فاستقرت ، وحفلت له أخلاف الفتوحات فلدت . واستمرى صوب الصواب من عزائمه وصرأئمه فاستمرت .

(١) تضيوع : ضياع وذهاب الشيء .

فتح جُبَيْل (١)

يوم الثلاثاء سابع عشرى جمادى الأولى

ووصل (كتاب الصنى بن القابض) وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق إلى الكافي الناهض. يتضمن أن (أوك) صاحب جبيل - أسر إليه في أسره ، واستشاره في أمره - . وقال له « إن قنع منى بتسليم جبيل سلمت وسلمت وأبجتها لكم وتخرمت : وأخرجتها من عصمتى وخرجت واعتصمت . فأنأ أطلقها إن أطلقت ، وأزبلها من وثاقى إذا وثقت » ، فأجيب باحترازه من كيدته ، واحضاره في قيده . فأحضر في صفده ، وسمح بيلده . فخلص ناجيا ، وملص راجيا .

وملكت مدينة جبيل ، وجرت عليها الفتوح الذليل . ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون ، ولأعداء الله مصابرون مكابرون . وكان معظم أهل صيداء وبيروت وجبيل مسلمين مساكين ، لساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد الذلة ، وذاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر ، وصدحت المنابر . وترنمت المحاريب ، وترنحت المطاريب . وتليت الآيات ، وجلت الغيايات (٢) . وخربت الكنائس وعمرت المدارس . وظهر عيب البيع ، وشهر جميع الجمع . وقرىء القرآن ، واستشاط الشيطان . ونطقت الأعواد ، وحقت الأعياد . وخرصت النواقيس ، وبطلت النواميس .

ورفع المسلمون رموسهم ، وعرفوا نفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم (٣) ، وانتقشوا (٤) من شوكة عارهم ، وقرروا في ديارهم ، وقرروا أبصارا بأبصارهم ، وكان كل من استأمن من الكفار ، يمضى إلى صور عمى الذمار . وصارت صور عش غشهم ، ووكر مكرهم ، وملجأ طريدهم ، ومنجى شريدهم ، ومأمن خاشيهم ، ومكمن عاشيهم . وهى التى فر القومص إليها يوم كسرهم ، بل يوم حسرتهم .

(١) جبيل : بلدة شرق بيروت وعلى مسافة ثمانية فراسخ منها (ياقوت ج ٥ : ٢٠٩ ط.ب)

(٢) الغيايات : جمع غياية ، وهى كل ما أظل الإنسان من سحاب أو غيره .

(٣) أى السقوط .

(٤) انتقش الشوكة : أخرجها من رجله والمقصود أنهم تخلصوا نالحمهم من عار الذلة

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس إلى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلها ، وآوى إلى
ذرابلس وثواها . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغى نجوة من هلاك فهلك

فما أنجاه الفرار من القضاء ، وفر من البلاء إلى بلاده فوقع في البلاء .
وظن أن صور خلّت : وأن مجانيها حلت . وأن جماحها أذعن ، وأن كفاحها
أمكن . وأن فرصتها انتهزت ، وأن حصتها أحرزت . وأن قيادها أطاع ،
وأن مرتادها استطاع . لكنها تعوّضت عن القومص بالمركيس ، كما يتعوض
عن الشيطان بابليس . فأدرك ذمء (١) الكفر بعد ما أشق (٢) ، وأيقظ روع
الروع بعد ما أغفى . وضبط صور بمن فيها ، من مهزومي الفرنج ومنفيها .

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه ، وأضرى
سراحيته . وأنجبت ذلّابه ، وأنجس كلابه . وأنهش صلاله ، وأفحش ضلاله .
وأغوى أعوانه ، وأخون إخوانه . وأبغى بغاته ، وأجنى جفاته ، وأرعى
حماته ، وأحمى رعانه . وشر شراره ، وأنكر نكاره ، وأفجر فجاره .
وأروغ ثعالبه ، وألسب عقاربه . وأحنت معاهديه ، وأنكث معاقديه .

وهو الطاغية الداهية ، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل
إلى بلاد الساحل قبل هذا العام . ولا خلف مقدمى الكفر غيره في الاقدام على
خلاف الاسلام .

واتفق وصوله إلى ميناء عكاك وهو بفتحها جاهل ، وعمن فيها من
المسلمين ذاهل . فزعم على ارساء الشينى (٣) بالمينا . ثم تعجب وقال

(١) أى بقية الروح .

(٢) أشق : أشرف على الموت .

(٣) الشينى : هو السفينة البحرية الكبيرة كانت تقام فيها الأبراج والقلاع وكانت
تنزق على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجذافاً السلوك ج ١ : ٥٦ تحقيق د. زيادة (و) Dozy
(و) الروضتين ٢ : ٥٨٨ تحقيق د. محمد حلمى أحد (و) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ - ٥٢٣
(و) سيرة صلاح الدين لابن شداد : ٨٠ تحقيق محمد محمود صبح .

« ما نرى أحدا من أهلها يلتقينا ». ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه ،
فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه . وبان تندمه ، وتأخر تقدمه .
وسأل عن الحال فأخبر بها ، ففكر فى النجاة وكيف يتعلق بسببها . ثم وقف
بالقرب ، فلبث على الرعب . والهواء راكد ، والقضاء عنه راقد . فانه
لو خرج إليه مركب لأخذه ، ولو وقف له قاصد لوقذه . فاحتال كيف
ينجرح بسفينته ، ولا يدخل مع فقد سكيته .

وانظر هبوب الريح الموافقة له فلم تهب . . وماتم له الافلات على
ما أحب . فسأل عن البلد ومن إليه أمره ، ومن ييده نفعه وضره . فقيل :
هو الملك الأفضل ، والمالك الأكمل . فقال « خلوا لى منه أمانا حتى أدخل ،
وأرفع إليكم مامعى من المتاع وأتقل » فجيء إليه بالأمان . وقيل : هذا
بعلامة السلطان فقال : « ما أتى إلا بنحط يده ، ، ولا أنزل إلا بعهدته إلى
بلده » . فما زال يردد الرسل ، ويدبر الخيل ؛ حتى وافقته الريح فأقلع ،
وأقلت من الشرك بعد ما وقع . وصار فى صور ، فزم الأمور ، وأجم
إلحموره . « وجرأ الكفر بعد خوره ، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره .
فاستعلى بالخزى ، واستولى بالغي والبغى .

وأرسل رسله إلى الجزائر ، وذوى الجزائر . يستعدى ويستعدى ،
ويستودع ملة الصليب عباده ويسزعى ، ويستثير ويستزير . ويستنفر ويستنصر :
وثبت فى صور ونبت ، وجمع إليه من الفرنج من تشئت . وما فتح بلد
بالأمان . ؛ إلا سار أهله فى حفظ السلطان ؛ حتى يصيروا فى صور ،
ويأمنوا المحظور .

فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة ، بالقلوب المغفلة المقروحة .
فامتلات وكانت خالية ، وانتشأت وكانت بالية . وتمللت وكانت معتلة ،
وتعقدت وكانت منحلة ، وتسددت وكانت شخلة . ولم يحفل بها فأخر فتحها ،
وما ظن بها الضن (١) حتى علم شحها . فاستجدت رمقا بالمهلة ، وتصعبت
بعد مقادتها السهلة .

فقضى إمامها بإهمالها ، وعادت عيونها إلى الاغفاء باغفالها . وألمى

(١) الضن : البخل .

عن طلبها طلب ما هو أشرف ، والعزم بفتحته أشعف وهو البيت المقدس ،
فان فتحه من كل فتح أنفس . والمركيس في أثناء ذلك يحضر الخندق ويحكمه ،
ويعقد الموثق^(١) ويبرمه ، ويجمع الفرق وينظمه .

وسندكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع
آفاته .

(١) ق ب الموقمة والتصحيح من ل .

ذكر فتح عسقلان^(١) وغزة والداروم^(٢) والمعقل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة .
والفرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ، ثنى عنانه يجر ويجرى من العسكر
والعشير على السماء والأرض الذليل والسيل . وعاد عابرا على صيداء وصرقند ،
وقد أورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند .

وجاء إلى صور ناظرا إليها ، وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها ،
ولا متحدث في حصرها ، ولا معتقد في تعقدها ، ولا متدد في توردها . وعلم
أيضا أنها ممتنة ، وعن سوما مرتفعة . فعمل بالحزم ، وعمد إلى العزم .
ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب ، ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل
لد منها أحسن ، فعطف الأعتة إلى ما هو منها أهون .

وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية ، وشرط معهما وإستوثق
منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية ، متى تمكن بإعانتها من البلاد البقية .
وعبر والعيون صور إلى صور ، والمركيس ما شك أنه بها محصور محصور .
فلما أرخى من وثاقه ؛ واتسع ضيق خنائه . حلق في مطار أوطاره ، وحرك
أغواته أوتار أوتاره .

واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل ، واتفقا على طي المراحل ، ونشر
القساطل ، وحل معاهد المعقل ، وسل قواصم القواصل^(٣) . ونزل على
عسقلان ، وشديدها قد لان ، وقد آتاه الله الخذلان . فتجلد من بها على
الحصار ، وتحوفت أسودها الخادرة من الإصحار . وترى صواوتصبرا ، وترسوا
وتسروا . وحاصوا وصاحوا ، وحانوا وناحوا . وأبأسوا وأبسلوا^(٤) ، وأعولوا ؛

(١) عسقلان : بلدة من أعمال فلسطين على جانب البحر بينها وبين غزة نحو ثلاثة فراسخ
كان يقال لها عروس الشام (ياقوت ج ١٣ : ١٢٢ ط . ب) .

(٢) الداروم : أو الدارون ، قلعة بعد غزة لقاصد مصر بينها وبين البحر فرسخ (ياقوت

ج ٤ ط . الخاني) .

(٣) القواصل : السيوف القاطمة .

(٤) في ب أسبلوا والتصحيح من ل . وأبسلوا : وطنوا أنفسهم للموت .

مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا ، وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت واستقبلوا . وتعقدوا على الفتح وما تحلوا ، وأحزنوا قى الإباء وما أسهلوا . وجهلوا وجهلوا .

فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقها (١) ، وفرجت بالحجارة طريقها ، ورجت بالتفريق فريقها ، ووسعت بالتضييق ضيقها ، وأضعفت بالتوثيق وثوقها . وجمعت شمل الحجارة بالنار التي وقودها الناس والحجارة ، ولقحتهم نيرانها . وتوالت عليهم بعد الشرارة الشرارة ، وخربت منهم العمارة ، ووجبت بالحسرة منألم الحسرة . وتهدمت الصخور بالصخور ، وازم عبث يورهم بالثبور . وجسر الثقب فحسر الثقب ، وباشر الباشورة فرفع الحجاب . واشتد القتال : واحتد المصال .

وراسلهم عند ذلك الملك المأسور . وقال : قد بان عنركم حين نقب الدور . وجرت حالات ، وتكررت حوالات ، وترددت رسالات . وقال لم الملك الأمير « لانتخلفوا ما به أشير ، وأطيعوني ما استطعتم ، واسمعوا منى إذا سمعتم ، واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم ، وحلية حالكم ، ولا تخبطروا غيرى بيالكم . فانى إذا تخلصت خلصت ، وإذا استنقذت استنقذت » .

وخرج مقدمون وشاوروا الملك ، ونهبوا فى التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين ، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة ، وتلاآت السعود فى أوجها بالأوجه السافرة .

ومن استشهد على عسقلان من الأمراء الكبراء (ابراهيم بن حسين المهرانى) وهو أول أمير افتتح بالشهادة . واختتم بالسعادة . وكان السلطان

(١) نيقها : أرفع مواضع فى جبالها . ومع الشيء : كرهه ورى به .

قد أخذ في طريقه إليها الرملة (١) وبيّتي (٢) وبيت لحم (٣) والخليل (٤) .
وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية : غزة والنطرون (٥) وبيت جبريل (٦) .
وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه أنه متى سلم معاقلم
أطلقه . فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه .

واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر (الملك العزيز عثمان) (٧) على
عسقلان بشارة وبشارة ، وراية وآية . وهيثه وهيثية ، وثرّة (٨) وثروة .
وهزة وعزة . وعدة وعدة ، وجدة وجدة ، وشدة وشدة ، وحد وحدة .
وضوعة وروعة ، ونخوة وسطوة . وصوت وصيت . ومصايب ومصايلت .
ومساير ومغاير . ودّم ودّم . وشهب وكُمت . وصلاب وصلاد .
وأنجاب وأنجاد . وجلب ولب ، ويئض ولب (٩) . ويض وسود ،
وأساود وأسود . وجرود ومرد . وكهول وفحول . ورقاق وعتاق . وقود

(١) الرملة : كورة ومدينة عظيمة بفلسطين (ياقوت ج ٩ : ٦٩ - ٨٠ ط . ب) .

(٢) بيّتي : أويينا : بليد قرب الرملة (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٨ ط . ب) .

(٣) بيت لحم : بليد عامر قرب القدس ، مكان مهد عيسى عليه السلام (ياقوت ج ٤ :

٥٢ ط . ب) .

(٤) الخليل : اسم لموضع وبلدة فيها حصن وعارة وسوق يقرب بيت المقدس (ياقوت

ج ٨ : ٣٨٧ - ٣٨٨ ط . ب) .

(٥) النطرون : اسم محرف للماطرون وهو موضع قرب دمشق (ياقوت ج ١٧ :

٤٢ ط . ب) .

(٦) بيت جبريل : أوبيت جبرين ، بليد بين غزة وبيت المقدس . بينه وبين القدس

مرحلتان ، كانت فيه قلعة حصينة ضربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الإفرنج

(ياقوت ج ٤ : ٥١٩ ط . ب) .

(٧) الملك العزيز عثمان : هو أبو الفتح ، عاد الدين ، ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب ،

ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ ، وولى ملك مصر بعد وفاة والده سنة ٥٨٩ هـ وتوفى بها سنة ٥٩٥ هـ ،

(النجوم الزاهرة ج ٦ ط . دار الكتب) .

(٨) ثره : الاتساع في الخير .

(٩) اليب : الأروس أو الدروع اليمانية من الجلد ، وقيل جلود يخرز بعضها إلى بعض

تليس على الروموس في الحرب واحدها يلبه .

وقيلود (١) . وأطلاب وأبطال ، وفوارس ورجال ، وخفاف وثقال .
وعراب وأعارب ، وسراحين وسراحيب . وحد لا يكل ، وجد لا يمل .
وجمر يتقى ، وجمع لا يلتقى .

ومعه رماة الأحداق (٢) كإتراك الأتراك ، وهداة التوحيد عداة الأشرار .
فقرت عينه بولده ، واعتضد بعضده ، ووضع يده بتأييد الله في يده . وكان
قد استدعى الأساطيل المنصورة فوافت كالتفتيح (٣) الكواسر ، بالفلك
المواخر . وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً ، وأفواج تزاحم أفواجاً .
تدب على البحر عقاربها ، وتخب كقطع الليل سحائبها ، وتجر بالنوابل
ذوائبها ، وتزاحم مناكب الأطواد مناكبها . (والحاسب لؤلؤ (٤))
مقدمها ومقدمها ، وضريغام غابها وهمامها . فطفق يكسر ويكسب ،
ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر
البحر على مذاهبه . وسيأتى ذكر ذلك في موضعه ، ويظهر في وقائمه حسن
موقعه .

(١) القود : الخيل التي تقاد ولا تتركب . والقيلود : الناقة العلوية الظهر .
(٢) الأحداق : جمع حدقة وهي سواد العين الأعظم ويقال رماة الحدق أي المهرة في الرمي
والنضال .

(٣) الفتح : يقال أمد افتح ، أي عريض الكف . والفتحة حلقة تلبس في اليد أو الرجل
لاصق فيها ، والمقصود هنا أنهم كالأسود الكواسر .

(٤) الحناجب لؤلؤ : من كبار رجال الدولة الصلاحية ، كان مقدم المسكر ضد الفرنج
الذين أرسلهم أرناط صاحب حصن الكرك لحرب مكة والمدينة في البحر ، قيل إن لؤلؤ سار
جازماً بالنصر وأخذ معه قيوداً بعدد الفرنج من كرك الشوبك مع طائفة من العرب المرتدة
وقد أدرتهم لؤلؤ على بعد يوم من المدينة وبذل الأموال للعرب فانضموا إليه ، ونزل الفرنج
إلى الساحل واعتصموا بجبل ، فترجل لؤلؤ وصعد إليهم بالناس فهابوه ، وسلخوا أنفسهم
جيماً وقدم بهم إلى مصر ، كان لؤلؤ شيخاً أرمنياً من خدام القصر خدم مع صلاح الدين وأخلص
له ، مات سنة ٥٩٧ هـ (شذرات الذهب ج ٤) .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل عن عسقلان للقدس طالبا : وبالغزم غالبا ، ولانصر مصاحبا :
ولذليل العز ساجبا . قد أصحب ربيّض مناه ، وأخصب روض غناه .
وأصبح رائج الرجاء . أرح الأرجاء . صيب (١) العرف . طيب العرف .
ظاهر اليد ، قاهر الأيد . سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملاً
الملاً فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، وكأنما
أعاد العجاج راد (٢) الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف
الجحافل ، والسماء حاظية بأقساط التساطل .

وسار سارا بالأحوال الخوالى : مروية أحاديث فتوحه العوالى من
العوالى (٣) . مطوية مدارك مناجحه على ما تنشره الآمال من الأمالى (٤) .
وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه ، المجانى (٥) والمجالى (٦) .
والاسلام يخطب من القدس عروسا ، ويبذل لها فى المهر نفوسا ، ويحمل
إليها نعيم (٧) ليحمل عنها بوسى . ويهدى بشرا ليذهب عبوسا .

ويسمع صرخة الصخرة المستعدية المستعدية لإعدادها على أعدادها ،
واجابة دعائها وتلبية نداءها ، واطلاع زهر المصابيح فى سماها . وإعادة
الإيمان الغريب منها إلى وطنه . وورده إلى سكونه وسكنه . واقصاء المدين

(١) فى ب ول سيب والتصحيح من أ (٢٤: ٥) : والصيب : السحاب والمطر ، وصيب
العرف : كثير الجود والطاء .

(٢) راد الضحى : وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء .

(٣) العوالى : الأولى بمعنى العاليات ، والثانية جمع عاليه وتطلق على أهل القناة أو النصف
الأعلى من السنان ، أو على الرماح .

(٤) واحلعا املاء وهى ما يمل من الأقوان .

(٥) المجانى : جمع مجنى وهو الموضع الذى يجنى منه الشيء كالثمر مثلا .

(٦) المجالى : جمع مجلى ، وهو مقدم الرأس .

(٧) فى ب تمى والتصحيح من ل ومن أ (٤٢ ش) .

أقصاهم الله ببعثته من الأقصى ، وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات
التاقوس منه بانطاق الآذان ، وكف كف الكفر عنه بأيمان الايمان .
وتظهره من أنجاس تلك الأجناس ، وأدناس أدنى الناس . وافحام الأفهام
بإخراس الأجراس .

وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت ، وخفقت
أفتدبهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت : وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار
أنها ما عاشت . وكان به (١) من مقدمي الافرنج (باليان بن بارزان)
و(البطرك الأعظم) ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المتقدم .
فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران ، وخمدت نار بطر البطرك . وضاعت
بالتقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمُشرك (٢) . وقاموا بالتدبير
في مقام الإدبار ، وتقسمت أفكار الكفار . وأيس الفرنج من الفرج (٣) ،
وأجمعوا على بذل المهج .

(١) في أ (٤٢) ش) بها .

(٢) ما ذكر هو في ب ول وأما في أ (٤٣) ع) للمُشرك شرك .

(٣) في ب الفرج والتصحيح من ل .

ذكر كنيسة قُمامة(١)

وقالواها هنا نطرح الرعوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء ، ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح ، واجترأح الجروح ، ونسمح بالأرواح شحا يحل الروح . فهذه قمامتنا ، فيها مقامتنا ، ومنها تقوم قيامتنا ، وتصيح هامتنا ، وتصيح ندامتنا ، وتسيح علامتنا . وتسح غمامتنا ، وبها غرامنا وعليها غرامتنا : وباكرامها كرامتنا ، وبسلامتها سلامتنا ، وباستقامتها استقامتنا ، وفي استدامتها استدامتنا . وان نخلينا عنها لزمنا لآمتنا ، ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب ، والمذبح والمقرب ؛ والمجمع والمعبد ، والمهبط والمصعد . والمرق والمرقب ، والمشرب والملعب ، والموه والمذهب . والمطلع والمقطع ، والمرني والمرعب . والمرخم(٢) والمخرم ، والمحلل والمحرم : والصور والأشكال ، والأنظار والأمثال ، والآساد والأشبال . والأشباه والأشباح ، والأعمدة والألواح ، والأجسام والأرواح .

وفيها صور الحوارين(٣) في حوارهم ، والأخبار(٤) في اختبارهم ، والراهبين في صوامعهم ، والأقساء(٥) في مجامعهم . والسحرة(٦) وحياها ، والكهنة وحيالها . ومثال السيدة والسيد ، والهيك(٧) والمولد . والمائدة والحوت(٨) ، والمنعوت والمنحوت ، والتلميذ والمعلم ، والمهد والصبي

(١) كنيسة قمامة : بيت المقدس ويقولون إن بها قبر المسيح عليه السلام .

(٢) أي المكسور بالرخام .

(٣) هم أصحاب عيسى عليه السلام وعددهم اثنا عشر .

(٤) الأخبار : جمع خبر وهو العالم الكبير .

(٥) جمع قس .

(٦) أي السحرة الذين جمعهم فرعون معسر ليحتدي بهم موسى عليه السلام .

(٧) المقصود هيكل سليمان الذي أقامه بيت المقدس وقد سبق الحديث عنه .

(٨) أي المائدة التي أنزلها الله تعالى من السماء معجزة لعيسى عليه السلام وكان عليها الحوت

وقد ورد ذكر هذه الحادثة في سورة المائدة من القرآن العظيم .

التكلم (١) . وصورة الكباش والحمار ، والحنة والنار . والتواقيس والنواميس
 قالوا « وفيها صلب المسيح ، وقرب الذبيح ، وتجسّد اللاهوت (٢) ،
 وتأله الناسوت (٣) . واستقام التركيب ، وقام الصليب . ونزل النور ،
 وزل الديجور . وازدوجت الطبيعة بالأقنوم (٤) ، وامترج الموجود
 بالمعلوم (٥) . وعمدت معمودية المعبود ، ونحّضت البتول (٦) بالمولود » .
 وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ، ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج
 الدلالات . وقالوا : « دون مقبرة ربنا نموت ، وعلى خوف فوتها منا نفوت ،
 وعننا نذافع ، وعليها نقارع . ومالنا لا نقاتل ! وكيف لانازع ولانازل !
 ولأى معنى تركهم حتى يأخذوا ! وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه
 منهم ويستقنوا ! »

وتأهبوا وتباهوا ، وما انتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق أمات
 الأسواء على الأسوار . وسرّوا بظلمات السائر وجوه الأنوار . واستشاطت
 شياطينهم ، وسرحت سراحينهم ، وطغت طواغيتهم ، وأصلت مصاليتهم ،
 ونشرت طواميرهم (٧) ، وتسعرت مساعيرهم . وهاج هائجهم ، وماج
 مائجهم ، ودعت دواعيهم ، وعدت عواديهم ، وسعت أفاعيهم .

وحضتهم قسوسهم ، وحرضتهم رعوسهم ، وحركتهم نفوسهم ،
 وجاعتهم بجوى السوء جواسيسهم . وأخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصوره
 الجنود ، منشورة البنود ، موصولة القواطع بالأشاجع ، مهجورة الغمود .

(١) المقصود به عيسى عليه السلام حين تكلم في المهد ليبرئ أمه أمام قريتها .

(٢) أى تجسد الله (تمال الله عن ذلك علواً كبيراً) .

(٣) أى طبيعة الإنسان في مقابلة اللاهوت والمراد تأله عيسى وقد برأ نفسه وبرأه الله
 من ذلك في سورة المائدة .

(٤) الأقنوم : الأصل ، وأراد المؤلف بالعبادة ما يزعّمونه من أن الله سبحانه وتعالى
 واحد ذو أقانيم ثلاثة ، الأب والإبن وروح القدس (تمال الله عن ذلك علواً كبيراً) .

(٥) البتول : هى من انقطعت عن الدنيا إلى الله تعالى ، والمقصود بها مريم أم عيسى
 عليهما السلام .

(٦) أمات : جمع أم وتطلق على البهائم .

(٧) الطوامير : جمع طومار وهو الصعيقة .

مشهورة القواضب ، مشهودة الكتاب . مقودة الضوامر إلى نار العدا ،
موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة العزائم ، مجنوبة الصلادم . مسلوقة
الظبا . مطلوقة الربا . مجنونة أجنة أعدادها . مسنونة أسنة صعادها . مطلقة
أعنة جياها ، محققة مظنة طرادها .

قد سالت الوهاد بأكامها ، وجالت الأعلام في أعلامها . وسدت التجاج
أنواجها ، ومدت العجاج أمواجها ، وحجبت الغزاة عقبانها . وألمبت
الذبالة خرصانها . وجرت بالجلال رياحها ، وجرت كالحبال رماحها ،
واشتمل على الضراغم غيلها . وأقبل بالعظام قبيلها .

ووافي كل واف بعهد ربه ، كاف لكف خطيه ، شاف لهم قابيه ،
ضاف ببيض شربه : خاف في لبوسه ، ناف لبوسه ، باسل بياسه ، عامسل (١)
بأمراسه ، ناسل بنت الغمد من جفته ، غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل
بيض الهند (٢) بسواعده ، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده . حاد
بجده ، جاد بجده .

وكل شاب بنار الحرب شاب ، ورب دين لدين الرب راب ، وكل
جيش كالبحر عباب . وكل سال ذى ذباب (٣) عن الهدى ذاب . وكل
قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال ، سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال
مائل في سبيل الله إلى اتفاق مال .

وأقبل السلطان بإقبال سلطانه ، وأبطال يشجعانه ، وأقبال أولاده
واخوانه . وأشباه مماليكه وغلمانه . وكرام أمرائه ، وعظام أوليائه . في
مقانب (٤) بالمناقب مقنبة ، وكتائب بالمواكب مكتنبة (٥) . وذوابل بالكواكب

(١) عامسل بأمراسه : العبارة كناية عن أنه ذو شدة وقوة يطيب الثناء عليه جما .

(٢) يبيض الهند : أي السيوف الهندية .

(٣) ذو ذباب : اللذباب من السيف ، هو حده وطرفه ، وكذلك بمعنى جنون « في الدفاع

عن الحق » .

(٤) مقانب : جماعة من الخيل تجتمع للغارة . والمناقب : أطراف الجبل .

(٥) مكتبة : مجمعة ، كتب الجنود . جمعهم وجمعهم كتائب .

منصلة ، وجحافل بمضاء المضارب مخفلة . وألوية صفر للأواء بنى الأصفر .
بيض وسمر تزرُق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل ، وقنا
وقنابل ، وصوافن (١) وصواهل ، وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس (٢) ،
وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الأنصى
وطريقه الأذن وفريقه الأسنى ، ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من
الحسنى .

(١) واحدا صافن وهو الفرس القائم على ثلاثة قوائم .

(٢) فوارس : أى يدقون أعناق أعدائهم . فرس الأسد فريسته : دق عتقها . اصطلاحا ،

فرس الذبيحة : قطع نخاعها .

وصف البيت المقدس

وقال : « إن أسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا ، وأى يد له عندنا إذا أيدنا . فانه مكث في يد الكفر لإحدى وتسعين سنة ، لم يتقبل الله فيه من عابده حسنة ، ودامت همم الملوك دونه متوسنة (١) وخلت القرون عنه متخلية (٢) . وحلت القرنج به متولية . فما ادخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ، ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار ، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار .

وكيف لا يهتم بافتاح البيت المقدس الأقوى (٣) ؛ والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى ؛ وهو مقام الأنبياء ، وموقف الأولياء ، ومعبد الأنبياء ، ومزار أبدال (٤) الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر ، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جدة أبهاج (٥) من الإنهاج (٦) ، ومنها منهاج المعراج ، ولها القبة السماء التي على رأسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق . وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق .

ومن أبوابه : (باب الرحمة) الذي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول الخلود ، وفيه (كرسى سليمان) و(محراب داود) ، وله (عين سلوان) التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود . وهو أول القبلتين (٧) ،

(١) متوسنة : أى مسترخيه غير متيقظة .

(٢) هذه العبارة ساقطة في (د ؛ ش) والتي بعدها فيها كلمة خلت بدلا من حلت .

(٣) ساقطة في (ه ؛ ش) .

(٤) الأبدال : قيل إنهم قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم فإذا مات واحد أبدل الله

مكانه آخرها .

(٥) في (ه ؛ ش) أنها جها .

(٦) الإنهاج : هو الليل والاختلاق بكسر الهمزة .

(٧) يقصد القبة الأولى للمسلمين وهي بيت المقدس والقبة الثانية وهي تجاه الكعبة بمكة .

وثاني البيتين (١) ، وثالث الحرمين (٢) . وهو أحد المساجد الثلاثة (٣) التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال ، ويعقد الرجاء بها الرجال .

ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صورة ، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة ، وقال عز من قائل (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى(٤)) وله فضائل ومناقب لا تحصى . وإليه ومنه كان الامراء ، ولأرضه فتحت السماء ، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء ، وآلاء الأولياء ، ومشاهد الشهداء ، وكرامات الكرماء ، وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار ، ومسارح المسار .

وصخرته الطولى ، القبلة الأولى . ومنها تعالت القدم النبوية ، وتوالت البركة العلوية . وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبیین ، وصحب الروح الأمين (٥) ، وصعد منها إلى أعلى عِلين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه (كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا (٦)) ، ولنهاره التعبد ولليلة المحيا . وهو الذى أسسه داود ووصى ببناؤه سنيمان . ولأجل اجلاله أنزل الله سبحانه (٧) ، وهو الذى افتتحه الفاروق (٨) وافتتحت به سورة الفرقان .

فما أجنه وأعظمه ، وأشرفه وأفخمه ، وأعلاه وأجله ، وأسماه وأسناه . وأيمن بركاته وأبرك ميامنه ، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه ، وأزين مباحجه وأبهج مزايئه . وقد أظهر الله طُوله وطوُّله ، بقوله (الذى ناركنا حوِّله) (٩) . وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه ، وجعل مسموعنا

(١) أى البيت المقدس والبيت الحرام بمكة .

(٢) أى الحرم المكي والحرم المدني والمسجد الأقصى بالقدس .

(٣) أى المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة والمسجد الأقصى .

(٤) الآية ١ سورة الإسراء .

(٥) جبريل عليه السلام .

(٦) الآية ٣٧ سورة آل عمران .

(٧) الآية ١ سورة الإسراء .

(٨) الفاروق : هو الخليفة السامى الرشيد عمر بن الخطاب وكان حكمه من ١٣ هـ إلى ٢٣ هـ .

(٩) الآية ١ سورة الإسراء .

من فضائله مرثية . ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ، ما وثق على استعادة آلائه موثيقه وآلاياه . وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه ، ويرفع بأعلاه علمه ، وتخطو إلى زيارة موضع التدم النبوية قدمه . ويصنعي إلى صرخة الصخرة ، ويغنى بالبشرى بشر أسرة الأسرة .

وسار واتما بكنال النصره ، وزوال العسرة : وحسر التمرنج قناع الحسرة . ونزل على غربى القدس يوم الأحد خامس عشر رجب ، وقاب الكفر قد وحب ، وحزب الشرك قدشارف الشجى والشجب (١) ، والقدر قد أظهر العجب .

وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل ، من سائف ونابل ، وبطل للباطل ، وعاس (٢) عاسل بالعاسل (٣) . قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون ، ويعاجزون ويناجزون ، ويرمون ويدمون ، ويحمون ويحمون ، ويحتدون ويحتدمون . ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذيون ، ويشبون ويسبون . ويصرخون ويحرضون ، ويلهثون ويتفوثون ، ويلوذون ويلويون ، ويجولون ويجويون ، ويقدمون ويحجمون ، ويتلمامون ويألمون . ويتعاوون ويتضاعون (٤) ، ويحترقون للبلايا (٥) ، ويقترحون المنايا .

وقاتلوا أشد قتال ، وناضلوا أحد نضال ، ونازلوا أجد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح (٦) لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح ، وجالوا بالأوجال ، وأجالوا قداح الآجال ، وصالوا لقطع الأوصال . واتهموا

(١) الشجب : العنت يسيب الانسان من مرض أو قتال .

(٢) عاس : أى يطوف بالليل ، يحرس الناس ويكشف أهل الريبه ومنه العسس .

(٣) العاسل : السيف .

(٤) يتضاعون : تصاغى تصور من الجوع أو الضرب وصاح

(٥) فب اللبايا والتصحيح من ل ومن أ (٧ ٤)

(٦) الصفاح : جمع صفح يفتح الصاد وسكون الفاء ، عرض السيف

والتهبوا ، وتأشّبوا (١) ونشّبوا (٢) . واستهدفوا للسهام ، واستوقفوا للحمام . وقالوا « كل واحد منا بعشرين ، وكل عشرة بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة ، ولحب سلامتها تقلى السلامة » : ودامت الحرب ، واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالى وخيم هنالك ، وضيق على الفرنج المسالك ، ووسع عليهم المهالك . ونصب المجانيق ، ومرى (٣) من آفاتها الأفابيق (٤) . وأصرخ الصخرة بالصخور ، وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يُخرجون من السور الرعوس ، الا ويلقون البوس ، واليوم العبوس ، ويلقون على الردى النفوس .

« فلداوية » دوى ، و « للبارونية » من البوار فى الهاوية هوى . و « للاستبار » تبار ، وما « للقريرية » من الموت فرار . وما بين الحجارة المحلقة وبين المرعى اليهم حجاب ، وفى كل قلب من الفتيتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لُقبل النصال مكشوفة ، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والأيدى على قوائم السيوف المفتوحة مضومة ، والنفوس لاستبطاء الهمم فى الاهتمام مهمومة ، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفّات مهدومة مهتومة .

فكان المجانيق مجانين يرامون ، ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبتها جبال ، ورجال تنجدها رجال . وأمّات الدواهي والمنايا ، وحوامل تلد البلايا . لا حجرٌ عليها فى حجر ، ولا أمنٌ عندها من حذر ، ولا تحظر سهامها الا بالخطر . ولا يفطر (٥) مرورها الا مرارات ذوى الفطر . فكم نجم من سمانها ينقض . وصخر من أرضها يرفض ! وجعر من

(١) تأشّبوا : اختلطوا .

(٢) نشّبوا : ثاروا واشتبكوا .

(٣) مرى : استخرج .

(٤) الأفابيق : واحدها فيقه وهو اللبن الذى يجمع فى الضرع بين الحلبتين أو الماء المجمع فى السحاب يطر ساعة بعد أخرى والمقصود أنه صب عليهم المصائب .

(٥) فى بخطر والتصحيح من له ومن أ (٤٨ ى) .

شرارها ينقض ! وما شيء كآفات كفاتها ، وآيات نكاياتها ، ودركات ادراكاتها ، ولفئات فلئاتها ، وجذبات عذباتها .

فما زالت تفلح بمقالعها ، وتقرع بمقارعها . وتمتحن (١) بأشطانها ، وتمرح في أرسائها (٢) . وتصدم وتهلم ، وتصرع وتصدع ، وتنهز بدلائها ، وتمهز بيلائها ، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها ، وتفل شمل المياني بتفريقها وتبديدها ، وتقوض القواعد بضرها من أساسها ، وتنقض المعاهد يجذبها في أمراسها ، وتشفه الموارد بشرها من كأسها . حتى تركت السور سورا (٣) . وجعلت الذاب عنه محسورا ، وعاد العدو من نظمه المبتور متبوراً (٤) .

وخرق الخندق وحفر الزحف ، وظهر للإسلام الفتح واللكر الحثف . وأخذ النقب : وسهل الصعب . وبذل المجهود ، وحصل المقصود . وكل المراد ، وكلم المراد . وثغر الثغر ، وأمر الأمر . وأربى الأرب ، واستتب السبب . وخاف القوم الوشم ، واستعاضوا من الصحة السقم . وأسلم البلد وقطع زنا خندقه ، وبرز (ابن بارزان) ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الأمان لقومه ، وتمنح السلطان وتسامى في سومه . وقال « لأمن لكم ولا أمان وما هواناً (٥) إلا أن نديم لكم الهوان . وغدا تملككم قسرا ، ونوسعكم قتلا وأسرا . ونسفلكم من الرجال الدماء : ونسلط على الذرية والنساء السباء » . وأبى في تأمينهم إلا الإباء . فتعرضوا للتضرع ، وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع . وقالوا « إذا أيسنا من أمانكم ؛ وخفنا من سلطانكم ؛ وخبنا من إحسانكم ؛ وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح ؛ ولا صلح ولا صلاح ؛ ولا سلم ولا سلامة ، ولا نعمة ولا كرامة ، فانا نستقتل فتقاتل قتال الدم ؛ ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم

(١) تمتح : ترمى ب .

(٢) أرسان : جمع رسن وهو الخيل المعروف للذابه .

(٣) سورا : أى أصبح يمكن التسلق عليه .

(٤) أى هالك .

(٥) فى ب وهو والتصحيح من ل ومن أ (٨ ؛ ٥) .

إقدام المستشرى بالشر ، وتقتحم اقتحام المستضري من الضر ، ونلقى أنفسنا على النار ، ولا نلقى بأيدينا إلى التهلكة والعار . ولا يُجرح واحد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى تُرى أيدينا بالفتك منتشرة . وانا نحرق الدور ونحرب القبة ، ونترك عليكم في سبينا السبة . ونقطع الصخرة ، ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف ، وقد عرف أن كلاً منا من الذل عزوف ، وللغز ألوف . وأما الأموال فانا نعطبها ولا نُعطيها ، وأما الذراري فانا نسارع الى إعدامها ولا نستطيعها . فأية فائدة لكم في هذا الشح ، وكل خسر لكم في هذا الريح ، وربّ خيبة جاءت من رجاء النجح ، ولا يصلح السوء سوى الصلح ، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل إسفار الصبح .

فعدد السلطان محضراً للمشورة ، وأحضر كبراء عساكره المنصورة . وشاورهم في الأمر ، وحاورهم في السر والجهر ، واستطلع خبايا ضمائرهم واستكشف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم ، واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة ، وفاوضهم في المصالحة المربحة . وقال « إن الفرصة قد أمكنت فنحرص في انتهازاها . وإن الحصاة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها . وإن فاتت لاتستدرك ، وإن أفلتت لاتملك . » فقالوا « قد خصك الله بالسعادة ، وأخلصك لهذه العبادة . ورأيك راشد ، وعزمك لصالاة النصر ناشد ، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد ، وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد . »

واستقر بعد مراودات ومعاودات ؛ ومفاوضات وتفويضات ؛ وضراعات من القوم وشفاعات ؛ على قطيعة تكدل بها الغبطة ، وتحصل منها الحوطة . واشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم ، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه ؛ أو امتنع منه وما سلمه ؛ ضرب عليه الرق ، وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صغير أو صغيزة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان .

وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء ، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء فمن سلّم خرج من بيته آمناً . ولم يعد إليه ساكناً .

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة ، وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان ، من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب ، ورتب لعرضهم واستخراج مايلزمهم التواب : ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير . يمحصر الخارجين : ويحصى الواالجين . فمن استخرج منه خرج ، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الترح .

ولو حفظ هذا المال حتى يحفظه : لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنّما تم التفریط ، وعم التخليط . فكل من رشأ مشى : وتنكب الأمانة نهج الرشد بالرُشا . فمتمهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من حمل مخفياً في الرحال . ومنهم من غيرت لبيسته فخرج بزى الجند ، ومنهم من وقعت فيه شفاعاة مطاعة لم تقابل بالرد .

وكانت في القدس ملكة رومية متهربة : في عبادة الصليب متصلة : وعلى مصابها به ملتية : وفي التمسك بملتتها متصعبة متعصبة . أنفاسها متصاعدة للحنز : وعبراتها متحلدة تحدر القطرات من المزن . ولها حال ومال وأشياء وأشياء ، ومتاع وأتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج ، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج . فراحت فرّحى : وان كانت من شجنها قرحى .

وكانت زوجة الملك المأسور — ابنة الملك أمارى — مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والحول (١) والجوارى . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن ادعى أنه ممن صحبتها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فيليب أم هنفرى : أعفيت من الوزن ، وتوفر مالها عليها في الحزن . واستطلق صاحب البيرة (٢) زهاء خمسمائة أرمنى : ذكر أنهم من

(١) الحول : جمع حول وهم العبيد والامم وغيرهم من الحاشية .

(٢) البيرة : بلد قرب سميساط بين حنط والثفور الواقعة على حدود الروم (آسيا الصغرى)

ومى قلعة حصينة لها رستاق (ياقوت ج ٢ : ط . الثاني) .

بلده . وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده ، وطلب مظفر الدين ابن على كوجك (زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرّها ، فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى .

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين (١) ، في كل ديوان منها عدة من النواب من (٢) المصريين ومنهم من الشاميين ، فمن أخذ من أحد الدواوين خطأ بالأداء انطلق مع الطلقاء ، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك (٣) في مقاله ، أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله ، فرمما كتبوا خطأ لمن تقدمه في كيسهم ، ويليس أمر تلييسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه ، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار ، وبقى من بقي تحت رق وأسار ، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة ، والعجز عن الوفاء بالقطعية المطلوبة .

(١) في أ (٥٠ ش) عدة من الدواوين .

(٢) سابقة في أ (٥٠ ش) .

(٣) في أ (٥٠ ش) يشك . (مبنى للمجهول) .

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه (١) المعراج ، وتم بما وضع من مناهج النصر الابتهاج ، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهاج الالتهاج . وجلس الساطان للهناء ، للقاء (٢) الأكابر والأمراء ، والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلساته الأبرار . ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجاح واقر (٣) ظافر وبابه مفتوح ، ورفقه ممنوح . وحجابه مرفوع ، وخطابه مسجوع . ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبل . ومحياه يلوح ، ورياه يفوح . ومحبته تروق ومباهته تروع ، وآفاقه تضيء وأخلاقه تضيوع . ويده لقبض أهواه الدعاء ، وقض أفواه العطاء (٤) ؛ ظاهرها قبالة القبل : وباطنها كعبة الأهل .

قد حلت له حالة الظفر ، وكان دَسَمَه (٥) به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون ، والشعراء وقوف، يُنشِدون وينشدون . والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تزرير لتبشر . والعيون من فرط المصرة (٦) تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهاج الى الله تضرع ، والكاتب ينشى ويوشى ويوشع (٧) ، والبلبغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع .

(١) ساقطة في أ (٥٠ ش) .

(٢) في أ (٥٠ ش) ولقاء .

(٣) ساقطة في ب و ل مثبتة في أ (٥٠ ش) .

(٤) في أ (٥١ ش) العطاء .

(٥) اللست كلمة كردية لما معان كثيرة وهي هنا بمعنى صدر المجلس (الألفاظ الفارسية

المصرية لاندئ شيرط . ب ١٩٠٨ م) .

(٦) في أ (٥١ ش) الاسرة .

(٧) يوشع : أى يزيد وينتق ، ووشع في الجبل : أخذ يمينا وشمالا ، ووشعت الغنم في الجبل صعدت لترعاه ، والوشيع علم الثوب وما يجعل حول الحديقة من الشوك ونحوه منعا للداهلين .

فما شبهت قلمي إلا بشائر أرؤى (١) البشائر ، ولا وجهت كلمي الا لطائف وحى اللطائف . وما أرسلت يراعى الا ليراعى الرسائل ، ويوشع الفضائل (٢) ، ويشيع الفواضل . ويشيع القول ، ويسبح الطول . ويطول بالحجة وان كان في طوله (٣) قصر ، ويصول باللهجة وان كان في حجمه (٤) حصر . ويسمن (٥) الملك به وهو نحيف ، ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدى بياض الغرة من سواد الدهمة ، ويجلو بهجة الضياء من سحجة الظلمة . ويجرى بالآجال والأرزاق ، والمنع والاطلاق ، والخلف والوفاق ، والارفاق والإعتاق . والعدة والانجاز ، والجلدة والإعواز . والفتق والرتق ، والرقع والحرق .

وهو الذى يجمع الجيوش ، ويرفع العروش . ويوحش المستأنس ، ويونس المستوحش . وبه (٦) يتعش العائر ، ويعثر المتعش (٧) ويجرى بالإعداد على الأعداء ، وبالإيلاء للأولياء .

فشرت بأقلامي أقاليم البشر ، وعبرت بأعاجيبى عن عجائب (٨) العبر ، وملاّت البروج بالدرارى والدروج (٩) بالدرر . ورؤيت تلك البشرى حتى أطابت ربا (الرى) (١٠) وسمر (سمرقند) (١١) ، وأطربت وحلت حتى (فاقت القنئيد والقنئد) (١٢) . وعلقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت ، وشرحت فضيلتها وبينت ، وأديت فريضة زيارتها وتعينت .

(١) شائر أرى جامع عمل ومجتم له .

(٢) عبارة يوشع الفضائل ساقطة ، في ب ول مثبته في أ (٥١ ش) .

(٣) في ب ول حجمه ، والتصحيح من أ (٥١ ش) .

(٤) في ب ول حجمه والتصحيح من أ (٥١ ش)

(٥) في ب ول يسمى وهو تحريف والتصحيح من أ (٥١ ش) .

(٦) ساقطتان في ب ول مثبتتان في أ (٥١ ش) .

(٨) في أ (٥١ ش) أعاجيب .

(٩) الدروج : أى الرياح السريعة المورور .

(١٠) الرى : مدينة كبيرة بإيران .

(١١) سمرقند : يقال لها بالعربية سمران من بلاد ماوراء النهر وهو قصبه الصغد (ياقوت

١١ : ٢٤٦ ط . ب) .

(١٢) القنئيد : الكافور ، طيب يعمل بالزعفران . القنئد : عمل قصب السكر إذا جمد

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة ؛ لما عرض لي في (١) المرض من النوبة . فأقمت بدمشق أداوى مزاجي ؛ وأداوى منهاجي ؛ وأعالج تديري وأدبر علاجي ؛ الى أن وصل الخبر بأن السلطان نزل على القدس ، فوجدت خفة في النفس ، وأنست بابلالي بعض الأنس ، وأمنت لوثوق بالصحة والاستقامة من النكس .

فأوجهت الى تلك الجهة ، وسرت بطاعة النفس المنزهة ، وعصيان الطبيعة المتكرهة . واخترت تعب السفر على راحة الإقامة ، ورأيت في ركوب طريق العطب وجه السلامة . ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح .

فوصلني السلطان عند وصولي بأجلى بشاشة ، وأحلى هشاشة . وسرى عنه وسرّ ، وأبرّ وبر . وقال « أين كنت وما أبطأت ، وحيث أصبت في المجيء فما أخطأت . وقد كنا في انتظارك ، والسؤال عن أخبارك . وهذا أوان احسانك ، فأين احسان أوانك ، فأجّر بنانك بجرأة بيانك ، واجرّ في ميدانك . وما للبشائر إلا واصفها ، وللفرائد الا راصفها . وللفصاحة الافسها (٢) ، وللحصافة الا قيسها (٣) » .

وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها ، واقتضاب معان ما اقتضاها . وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز فقال

(١) في (٥٢ ص) من .

(٢) يقصد قس بن ساعدة الايادي فصيح العرب وخطيبها في الجاهلية وقد سبقت ترجمته
(٣) يقصد قيس بن زهير حضيف العرب في الجاهلية وهو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي ، أمير عبس وداهيتيا ، وأحد السادة القادة في عرب العراق ، وكان يلقب بقيس الرأي بلوذة رأيه ، كما يضرب بهامته المثل ، وسكته في مأثور كلامه مستفيضة وخطبه غير قليلة وشعره جيد فحل ، توفي سنة ١٠ هـ (الأعلام للزركلي ج ٢ : ٨٠ ط . المطبعة العربية ١٣٤٦ هـ) .

« لهذا مَنْ هو أقوم به » ، وعَتَانِي ، فلما رَأَى نادَانِي واستندانِي ، فصرفت الى امتثال أمره عتَانِي . وسلم الى الكتب التي كتبها بالألفاظ التي رتبها . وقال « غيرها ولا تسيرها » وغرضه أني أعدل معوجها ، وأبدل مشبها (١) وأفترع المعنى البكر للفتح البكر ، وأوشح ذكر آياته بآيات الذكر .

فاستجديتها فما استجدتها ، واستلمحتها فما استلمحتها . وشممتها وبها سهك (٢) ، وكشفتها وسرّها هتك ، وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فتسرعت في اقتضاض الأبيكار ، واقتضاء الأفكار . واقترأح القرية ، واقترأح رحاب الكلم الفصيحة الفسيحة . وافتحت في بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز ، وأوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشجت ووشعت ، وشعبت وأشعبت . وأطلت وأطبت ، وصبت (٣) وأصببت ، وأعجزت وأعجبت ، وأطريت وأطربت . وأبعدت وأبدعت ، وورصعت وصرعت . وطابقت وجانست ، ووافقت وأنست .

وينت فضل عصر الامام على الأعصار السابقة ، بالأبصار الصادقة . وأن هذا الفتح ادخره الله لزمانه ، ومكن منه لمكانه ، وسلط عليه بسلطانه ، وحسنه لنا باحسانه . وقد عبرت القرون الماضية على حسرته ، وظفر هو وأشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة أيامه ، وحرارة اعتزاه . وذكرت من هذا كل ما راق وشاق ، ونور الآفاق . وأن هذه الفتوح تفوح بأرج نشره ، ونجيا بجيا بره . فما أيمن أيامنا بأيامه ، وما أسعد آمالنا بانعامه .

وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف ، ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلئ ، وحليت المعالي ، وقرحت المعادى وفرحت الموالي . وسارت شواردي الى المشرق والمغرب ، مُعْرَبَةٌ عن

(١) مشبها : أي معظمها وأكثرها .

(٢) سهك : ريح كريمة .

(٣) صبت : صاب المطر يصب ، انصب ونزل والمقصود هنا أن المؤلف شبه نفسه

بالمطر المنهمر وأنه أصاب القصد والمعنى اللذين رمى إليهما .

هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بجلال
المسجد الأقصى . وتلوت (شرع لكم من الدين ما وصى) (١)

وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء (٢) ، ومنزل الوحي بمحل
الإسراء (٣) ، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء .
ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى - صلى الله عليه وعليهم أجمعين ،
وأدام أهل الاسلام بشرف بيته مستمتعين .

وتسامع الناس بهذا النصر الكريم ، والفتح العظيم ، فوفدوا للزيارة
من كل فج عميق ، وسلكوا إليه في كل طريق ، وأحرموا من البيت
المقدس الى البيت العتيق ، وتنزهوا من أزهار كراماته في الروض الأنيق .

(١) الآية ١٣ سورة الشورى .

(٢) يقصد الصخرة التي أقام عليها عبد الملك بن مروان القبة سنة ٧٦ هـ .

(٣) يقصد حادثة اسراء الرسول من مكة إلى القدس .

ذكر ماجرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الأمتعة ، واستخراج ذخائرهم المودعة .
وباعوها بالمجان في سوق الهوان ، وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص
الأثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى أكثر من عشرة ، وجدوا
في ضم ماوجدوا من أمور لهم منتشرة . وكنسوا كنائسهم ، وأخذوا منها
نفائسهم . ونقلوا منها الذهبيات (١) والقضيات من الأواني والقناديل ،
والحريريات والمدهبات من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس
الكنائس ، واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل
ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين ،
وجمع ما كان في قمامة من الجنسين والنسجين .

فقلت للسultan « هذه أموال وافرة ، وأحوال ظاهرة ، تبلغ مائتي
ألف دينار ، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار . فلا تركها
في أيدي هؤلاء الفجار » ، فقال إذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر ، وهم
جاهلون بسر هذا الأمر . ونحن نجريهم على ظاهر الأمان ، ولا نتركهم
يرمون أهل الايمان بنكث الأيمان ، بل يتحدثون بما أفضناه من الاحسان .

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ، ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة
قمامتهم الكف . وانتقل معظمهم الى صور . وكفوا بالديجور (٢) الديقور ،
وبقى منهم زهاء خمسة عشر ألفا امتنعوا من مشروع الحق ، فاختصوا
بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف فانهم ألفوا
ذلا لم يكونوا له بالآلاف . فاقسمتهم أيدي السبي أيدي سببا ، وتفرق
الغانمون يجمعهم في الوهاد والربا . وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف
نسمة ، عادت بيننا مقتسمة ، وأصبحت ييكأها وجوه الدولة بمتسمة .

فكم محجوبة هتكت ، ومالكة ملكت ، وعزباء نكحت ، وعزيرة

(١) في أ (٥٤ ي) ذهبياهم .

(٢) ساقطة في أ (٥٤ ي) والديجور : بمعنى التراب الأغبر الضارب إلى السواد ، الظلام

منحت ، وبخيلة تسمحت ، (١) وحية توقحت ، ومجلة مزحت ،
ومصونة ابتذلت ، وفارغة شغلت ، وعقيلة امتهنت ، وجميلة امتحنت ،
وعذراء افترعت (٢) ، وشماء قرعت ، ولما (٣) رشفت ، وظمياء (٤)
فرشت ، وريضة أصحبت ورضية أصحبت .

فكم تسرى منهن سرى ، وتجراً عليهن جرى . وقضى وطره عزب ،
ونبي نهمه سغب ، وفناً سورته شغب . وكم غانية استخلصت ، وغالية
استرخصت . ووالية اعتزلت ، وعالية استزلت . ووحشية صيدت ،
وعرشية قيدت .

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز ؛ وخلع لباس الذل
وليس خلع العز ؛ أبنى النصارى بعد أداء القطيعة أن يخرجوا ، وتصرعوا
في أن يسكنوا ولا يزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا يبذلوا ، وقابلوا كل
ما أزموا به بالزام وقبول . وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ،
وشحت (٥) أفواهم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في
الذمة ، وخرجوا الى العصمة ، وشغلوا بالخدمة ، واستعملوا في المهنة ،
وعدوا المحنة في تلك المحنة .

(١) في ب بحيه والتصحيح من ل ومن أ (٥٥ ي) .

(٢) افترعت : أزيلت بكارتها .

(٣) لياه : فعلها لى يلى ، وهى مؤنث ألى والمضى بشفتها سواد .

(٤) ظمياء : مؤنث أظمى والمقصود هنا بصفة عامة الرقيقة النحيفة .

(٥) في أ (٥٥ ش) شجيت .

ذكر ما أظهره السلطان في القدس من الحسنات وعماه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب . وحتم به أمر الإيجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا(١) ، وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بنوا(٢) من غربي القبلة دارا وسبعة ، وكنيسة رقيقة . فأوعز برفع ذلك الحجاب ، وكشف النقاب ، عن عروس المحراب . وهدم ما قدامه من الأبنية ، وتنظيف ماحوله من الأفنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة في العرصة(٣) المتسعة .

ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر . ونقض ما أحدثوه بين السواري(٤) ، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرقيقة عوض الحصير والبواري(٥) . وعلقت القناديل ، وتلى التنزيل ، وحق الحق وبطلت الأباطيل ، وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات ، وصفت العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأديمت الدعوات ، وتجت البركات ، وانجلت الكربات ، وانجابت الغيايات ، وانتابت الهدايات ، وتليت الايات ، وأعليت الرايات .

ونطق الأذان وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب التسوس ، وزال العبوس والبوس ، وطابت الأنفاس والنفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه ، وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء الأوراد ، واجتمع الزهاد والعباد ، والأبدال والأوتاد(٦) . وعبد الواحد ووجد العابد ، وتوافد الراكع والساجد ،

(١) هريا : مخازن للذلال .

(٢) ساقطة في (٥٥ ش)

(٣) العرصة : ساحة الدار أو كل بقعة لابناء فيها .

(٤) السواري : الاسطوانات التي تشبه الأعمدة ، أو الأعمدة التي تنصب في وسط السفينة

لتعليق القلوع .

(٥) البواري : الحصير المنسوج .

(٦) الأوتاد : أي الرؤساء .

والخاشع والواجد ، والزاهى والزاهد ، والحاكم والشاهد ، والجاهد
والمجاهد ، والقائم والقاعد ، والمتعهد الساهد ، والزائر والوافد .

وصدح المنبر وصدح المذكر ، وانبعث المعشر وذكر البعث والمحشر .
وأملى الحفاظ ، وأسلى (1) الوعاظ . وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء .
وتحدث الرواة وروى المحدثون، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون . وأخلص
الداعون ودعا المخلصون ، وأخذ بالعزيمة المترخصون ، ونخص المفسرون
وفسر المخلصون . وانتدئ الفضلاء ، وانتدب الخطباء . وكثر المترشحون
للخطابة ، المتوشحون بالإصابة ، المعروفون بالفصاحة ، الموصوفون
بالحصافة .

فما فيهم الا من خطب الرتبة ، ورتب الخطبة . وأنشأ معنى شاقفا ،
ووشى لفظا راتقا ، وسوى كلاما بالموضع لائقا ، وروى مبتكرا من
البلاغة فائقا . وفيهم من عرض على خطبته ، وطلب منى نصبته . وتمنى
أن ترجح فضيلته ، وتنجح وسيلته ، وتسبق منيته فيها أمنيته . وكلهم
طال الى الانتهاء بها عنقه ، وسال من الالتهاب عليها عرقه . وما منهم
الا من يتأهب ويترقب ، ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعرض ويتضرع ،
ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه ، وضرب في أحماسه
أسداسه ، ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لا يعين ولا يبين ، ولا ينخص
ولا ينص .

ومنهم من يقول « ليتنى خطبت في الجمعة الأولى ، وفزت باليد
الطولى . وإذا ظفرت بطالع سعدى ؛ فما أبالى بمن يخطب بعدى » .

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان ؛ أصبح الناس يسألون في تعيين
الخطيب السلطان . وامتلأ الجامع ، واحتفلت المجامع ، وتوجست الأبصار
والمسامع ، وفاضت لركة القلوب المدامع ، وراعت لولية تلك الحالة وبهاء
تلك البهجة الروائع ، وشاعت من سر السرور بلبس حبر الجبور الشوائع ،
وغصت بالسابقين اليها المواضع . وتوسمت العيون ، وتقسمت الظنون .

(1) أسلى : كشف عنهم الغم .

وقال الناس « هذا يوم كريم ، وفضل عميم ، وموسم عظيم . هذا يوم تجاب فيه الدعوات ، وتصب البركات ، وتسال العبرات ، وتقال العثرات . ويتيقظ الغافلون ، ويتعظ العاملون . وطوبى ان عاش ، حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الاسلام وارتاش . وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة ، والعصبة الطاهرة ، والأمة الظاهرة . وما أكرم هذه النصره الناصرية ، والأسرة الامامية ، والدعوة العباسية ، والمملكة الأيوبية ، والدولة الصلاحية . وهل فى بلاد الاسلام أشرف من هذه الجماعة ، التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة » .

وتكلموا فيمن يخطب ، ولئن يكون المنصب . وتفاوضوا فى التفويض ، وتحذوا بالتصريح والتعريض . والأعلام تولى ، والمنبر يكسى ويحلى . والأصوات ترتفع ، والجماعات تجتمع . والأفواج تزدحم ، والأمواج تلتطم . وللعارفين من الضميج ، مائى عرفات للحميج . حتى حان الزوال ، وزال الاعتدال . وخيعل (١) الداعى ، وأعجل الساعى . فنصب السلطان الخطيب بنصبه ، وأبان عن اختياره بعد فحصه . وأوعز إلى القاضى (محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى) (٢) بأن يرقى ذلك المرقى ، وترك جباه الباقيين بتقدمه عرقى . فأعرتة من عندى أهنية (٣) سوداء من تشريف الخلافة ، حتى تكمل له شرف الافاضة والاضافة : فرقى العود ، ولقى السعود . واهتزت أعطاف المنبر ، واعتزت أطراف المعشر .

وخطب وأنصتوا ، ونطق وسكتوا . وأفصح وأعرب ، وأبدع وأغرب ، وأعجز وأعجب ، وأوجز وأسهب . ووعظ فى خطبته ، وخطب بموعظته . وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه ، والمسجد الأقصى من

(١) خيعل : أى أليس .

(٢) محيى الدين أبى المعالى بن زكى الدين على القرشى : كان قاضى قضاة دمشق ، مات

سنة ٥٩٨ هـ عن ٤٨ سنة (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٨١ ط . دار الكتب) .

(٣) الأهبة كالمهبة بكسر الهاء وتشديد الباء : القلعة من الثوب .

أول تأسيسه ، وتطهيره بعد تنجيسه ، واخراص ناقوسه واخراج قسيسه .
ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان (١))
ونزل وصلى في المحراب ، واقتحح بيسم الله من أم الكتاب . فأنتم بتلك
الأمّة ، وتم نزول الرحمة ، وكل وصول النعمة هـ

ولما قضيت الصلاة انتشر الناس ، واشتهر الايناس ، وانعقد الاجماع
واطرده القياس . وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ، ليفرعه كبير .
فجلس عليه (زين الدين أبو الحسن على بن نجبا (٢)) ، فذكر من خاف ومن
رجا ، ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجبا ، وخوف بالحجة ذوى الحجبا ،
وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا . وأنى بكل عظة ، للراقدين
موقظة ، وللظالمين محفظة ، ولأولياء الله مرفقة ولأعداء الله مخلظة .

وضج المتباكون ، وعج المنشاكون . ورقت القلوب ، وخفت الكروب
وتصاعدت النعرات ، وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون ، وأتاب المتحوربون ،
وصاح التوابون ، وناح الأوابون . وجرت حالات جلت ، وجاوات حلت ،
ودعوات علت ، وضراعات قبلت ، وفرص من الولاية الالهية انتهزت
وحصص من العناية الربانية احرزت .

وصلى السلطان في قبة الصخرة ، والصفوف على سعة الصحن (٣) بها
متصلة ، والأمّة إلى الله بلوام نصره مبتهله ، والوجوه الموجهة إلى القبلة
علية مقبلة . والأيدى إلى الله مرفوعة ، والدعوات له (٤) مسموعة . ثم
رتب في المسجد الأقصى خطيبا استمرت خطبته ، واستمرت نصبته .

(١) الآية ٩٠ سورة النحل .

(٢) زين الدين ، أبو الحسن ، على بن ابراهيم بن نجبا ، ويعرف بابن نجيه ،
الغني الخبلي ، الواظ ، أحب الوعظ واشتغل به ، فرغ به . اقتنى أموالا عظيمة حتى قيل أنه
كان في داره عشرون جارية للفراش ، وكان يقدم في داره من الأطعمة الكثيرة الجيدة ما لا يقدم
إلا في دور الملوك ، ومع هذا مات فقيرا سنة ٥٩٩ هـ ، فكفته أصحابه (شذرات الذهب ج ٤ :
٣٤٠-٣٤١) و (الروضتين ج ٢ : ٣١٢ تحقيق د . محمد حلمي) و (النجوم الزاهرة ج ٦ ط .
دار الكتب) .

(٣) الصحن : صحن الدار ، ساحتها ووسطها .

(٤) ساقطة في أ (٥٨ ش) .

وصف الصخرة المعظمة عدها الله

وأما الصخرة فقد كان الفرنج (١) قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومطح الإنجيل ، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل . وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منصبة . وقالوا « محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسبيح » وكانت فيها صور الأنعام مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير أشباه الخنازير . والصخرة المقصودة المزورة ، بما عليها من الأبنية مستورة ، وبذلك الكنيسة المعمورة مغمورة .

فأمر السلطان بكشف نقابها ، ورفع حجابها ، وحسر لثامها ، وقشر رخامها ، وكسر رجامها ، ونقض بنائها ، وفض غطائها . وابرأها للزائرين ، واظهارها للناظرين . ونزع لبوسها ، وزفاف عروسها . واخراج حرها من الصدف ، واطلاع بدرها من السُدْف (٢) . وهدم سجنها ، وفك رهنها ، وارةا حسننها ، واضاعة يمنها . وابداء وجهها الصبيح ، وجلاء شرفها الصريح . ورددها إلى الحالة الخالية ، والقيمة الغالية ، والرتبة العالية . وهى التى حليها عطل ، وعُطّلها حلى ، وعريها كسوة وكسوتها عرى .

فعادت كما كانت في الزمن القديم ، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم ، وسيم بهاء حسننها الوسيم . وما كان يظهر منها قبل الفتح الاقطعة من تحتها ، قد أساء أهل الكفر في نحتها . وظهرت الآن أحسن ظهور ، وسفرت أيمن سفور ، وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبايك حديد ، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة إماما من أحسن القراء تلاوة ، وأزينهم

(١) ساقطة في أ (٥٨ ش) .

(٢) السدف : الظلمة أو الحجاب .

طلاوة . وأنداهم صوتا ، وأسماهم في الديانة صيتا . وأعرفهم بالقراءات
السبع بل العشر ، وأطيبهم في العرف والنشر . وأغناه وأقناه ، وأولاه لآ
ولاه . ووقف عليه داراً وأرضاً وبستاناً ، وأسدى إليه معروفًا داراً واحساناً .
وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات ؛ وربعات
معظمت ؛ لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسيها مرفوعة ، وعلى أسرتها
موضوعة .

ورتب لهذه القبة خاصة ؛ ولليت المقدس عامة ؛ قومة (١) لشمل مصالحها
ضامة . فما ترتب إلا العارفين العاكفون ، القائمون بالعبادة الواقفون .

فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع ! وزهرت الشموع ! وبان الخشوع !
ودان الخضوع ! ودرت من المتقين الدموع ! واستعرت من العارفين الضلوع !

فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره ، وكل (أشعث أغبر لا يؤبه
له لو أقسم على الله لأبره) (٢) وهناك كل من يحيى الليل ويقومه ، ويسمو
بالحق ويسومه . وهناك كل من يحتم القرآن ويرتله ، ويتردد الشيطان ويبطله .
ومن عرفته لعرفته الأسحار ، ومن ألفتته لتهجده الأوراد والأذكار .

وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوارها ، وتلحف الشمس
أنوارها ، وتحمل القلوب إليها أسرارها ، وتضع الجنة عندها أوزارها ،
وتسندى صبيحة كل يوم منها أسفارها ، وما أظهر من تولى إظهارها !
وأظهر من باشر إظهارها !

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحماوا منها إلى تسطنطينية ،
ونقلوا منها إلى صقلية . وقيل باعوا بوزنها ذبا ، واتخذوا ذلك مكسبا .
ولما ظهرت ؛ ظهرت مواضعها ؛ وقطعت القلوب لما بانق مقاطعها ؛ فهي الآن
مبرزة للعيون بجزها ، باقية على الأيام بجزها ، مصونة للإسلام في خدرها
وحرزها . وهذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع في العمران .

(١) قومه : أي قائمون بأمرها .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »

وأمر بترخيم محراب الأقصى ، وأن يبائع فيه ويستقصى . وتنافس ماوك
بني أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة ، وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر
الألسنة . فما منهم إلا من أجمل وأحسن ، وفعل ما أمكن ، وجلا وبين .
وحلا وزين . وأشفق وأنقى ، وأغنى وأفى (١) ، واعتنى وابنى . ووفى
وأوفى ، وأصنى وأضنى .

وأى (الملك العادل سيف الدين أبو بكر) بكل صنع بكر ، موجب
لكل شكر . وكل فعل جميل ، ورفد جزيل ، ومن جلى ومنح جليل .
ومكرمة حميدة ، ومحمدة كريمة . وفضيلة بها ترجح ، ووسيلة بها (تنجح)
وأى (الملك المظفر تقي الدين عمر) بكل ما عم به العرف وغمر ،
ونهى وأمر ، وبني وعمر . ومن جملة أفعاله المشكورة ، ومكرماته
المشهوره ؛ أنه حضر يوما في قبة الصخرة ، مع جماعة من السراة والأسرة (٢)
ومعه من ماء الورد أحمال ، ولأجل الصدقة والرفد مال . فانتهاز فرصة
هذه الفضيلة التي ابتكرها بالافتراض (٣) ، وتولى بيده كنس تلك الساحات
والعراس . ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ، ثم أتبع الماء بماء الورد
صبًا حتى تطهرت . وكذلك طهر حيطانها ، وغسل جدرانها . ثم أتى
بمجامر الطيب فتبخرت ، وتضوعت وتعرفت . وفغمت مناقش أهل
المدى ، وأرغمت آناف العدا .

وما زال مع قومه ؛ في تطهير البقعة المباركة طول يومه ؛ حتى تيقنت
طهارتها ؛ وبينت عمارتها ، وراقت نضارتها ، ووقفت عليها الاستحسان
نظارتها . ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق ، واقتخر بأن فاق
الكرام بالاتفاق .

وجاء (الملك الأفضل نور الدين على) ؛ بكل نور جلى ، وكرم ملى ،
واحسان سنى ، وانعام هنى ، وعرف زكى ، وعرف ذكى . وعطاء
مبتدع ، وسخاء مخترع . وجود مبتكر ، ورفد معتبر . وأتى بكل ما خلد

(١) أغنى وأعطى .

(٢) أى السالون بالأمر .

(٣) أى انتهاز الفرصة .

الأثر الحسن ، وأنطق بحمده الألسن . وبسط بها الصنعة ، وفرش فيها البسط الرفيعة . وهدى وأهدى ، وأعاد بعد ما أبدى ، وأثار وأسدى . وأفاض التدى ، وفض الجدا(١) . ونفض الأكياس ، حتى خلنا به الانفاض والافلاس .

وسياتى ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه ، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفة ولواحقه ؛ ما لم يشق أحد فيه غباره ، ولاملك سابق في مضماره .

وأما (الملك العزيز عثمان) ؛ فانه أتى بالاحسان الذى استظهر به الايمان . وذلك ؛ أنه لما عاد إلى مصر وقد شاهد الفتح والنصر ؛ ترك خزائنه سلاحه بالقدس كلها ، ولم ير بعد حصولها به نقلها . وكانت أحمالاً بأهوال ، وأثقالاً كجبال . وذخائر وافية ، وعددا واقية . ودروعاً سوانج ، ونصولاً دوامج . وخوذاً وترائك ، ورماحات ونيازك(٢) . وقنا وقنابل ، وصواقل وذوابل . وجروخا وقسيًا ، وبمانيًا وهنديًا ويزنيا ، ووردينا ومشرقيا . وجفاتي وجنويات ، وطوارق(٣) وقنطاريات . ورائات(٤) حديد وزانات . وآلات وزيارات(٥) وزراقات ، ونقّاطات وقطّاعات . وعدد النقوب ، وجميع أدوات الحروب . فاستظهرت بها المدينة ، وتوقفت بها عراها المتينة .

وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم ، ويخرجوا قبل أن يستوفى الباقيون في أداء القطيعة مدتهم . فتوفرت بذلك عدد البلد ، واستغنى بذلك عما يصل من المدد .

(١) فصر الجدا : فرق العطاء وقسمه .

(٢) نيازك : رماح قصيرة .

(٣) طوارق : جمع طارقه وهى الدرقة أو الترس (Buckler)

(٤) الران : كالتلف إلا أنه لا قدم له وهو أطول منه .

(٥) زيارات : جمع زيارة ، نوع من القسي الرامية للمهام يذكر غالباً مع القسي الأخرى

كالمبرخ والغفار ولكنها أكبر منها وأضخم (مفرج الكروب ج ٢ : ٢٦٢ تحقيق د . الشيال)

و (Dozy. Supp. Dict. Arabe) .

ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام

وتبديل الكنائس وانشاء المدارس

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى ؛ فإنه في حصن عند باب المدينة منيع ، وموضع عال رفيع . وهو الحصن الذي يقيم به الوالي ، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالمى (١) . ورتب له إماما ، وموذنين وقواما . وهو مثابة الصالحين . ومزار الغادين والرائحين . فأحياه وجدده ، ونهج لقاصديه جدده (٢) . وأمر بعمارة جميع المساجد ، وصون المشاهد ، وانجاح المقاصد ؛ واصفاء الموارد ، للقاصد والوارد ؛ وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام ، وكان يتنابها فيها الأنام .

وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صهيون ، وأجناده على بابها يقيمون ؛ وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار ؛ في مدرسة للفقهاء الشافعية ، ورباط للصالحاء الصوفية . فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنة (٣) — عند باب أسباط . وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة — للرباط . ووقف عليهما وقوفا ، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفان وارتاب أيضاً مدارس للطوائف ، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف .

وأمر باغلاق أبواب كنيسة قمامة ، وحرم على النصارى زيارتها ولا الإلمامة . وتفاوض الناس عنده فيها ، فمنهم من أشار بهدم مبانيها . وتعفية آثارها ، وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها ، وإزاحة أباطيلها ،

(١) أى المتغيرة المتقلبة .

(٢) الجدد : الطرق المختلفة والخطط تكون في الجبال .

(٣) كنيسة صند حنة : هذه الكنيسة يقال أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام ، وقد صارت مدرسة أقامها صلاح الدين ، (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ٨٣ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) ويبدو أن كلمة صند هي تحريف للكلمة الفرنسية saint بمعنى قديسه (المحقق) .

واطفاء قتاديلها ، واعفاء أناجيلها ، وازهاب تساوليها (١) ، واكذاب
اقاويلها .

وقالوا « إذا هدمت مبانيها ؛ وألحقت بأسافلها أعاليها ؛ ونبشت المقبرة
وعفيت ؛ وأخمدت نيرانها وأطفيت ؛ وحميت رسومها ونقيت ؛ وحرثت
أرضها ؛ ودمر طولها وعرضها ؛ انقطعت عنها امداد الزوار ، وانحسرت
عن قصدها مواد أطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة ؛ استمرت
الزيارة » .

وقال أكثر الناس « لا فائدة في هدمها ولاهدما ، ولا يؤذن بصد أبواب
الزيارة عن الكفرة وسدّها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد
من البناء ، ولا يتقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في
السماء ؛ ولما فتح أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - القدس في صدر الاسلام
أقرهم على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان » .

(١) لعل المؤلف أراد ، إذهاب الأباويل التي يسولها الشيطان لهم .

ومما كتبه إلى الديوان العزيز مجده الله للبشرى بفتح القدس

مع الرسول ضياء الدين الشهرزورى (١) من رسالة

وقد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم ، والنصر العميم ،
والعرف الجسيم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الأعز الكريم . والشرف
الذى ذخره الله لهذا العصر ليقضه على الأعصار ، وأراد تأخير فخاره إلى
هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته ،
واقضاض عثرته ، وخص من أجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته .
وأعاد به القدس إلى قلبه ، وأظهره وطهره من رجس الكفر ورجسه . وقد
رجع الاسلام الغريب منه إلى داره ، وخرج قعر الهدى به من سراره (٢) ،
وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة
به من التقديس ، وأمنت المخلوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ
التعريس (٣) . وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصى الأبعدون من الله الأبعدون ،
وتوافد إليه المصطفون الأقربون ، والملائكة المقربون . وخرس انناقوس
بزجل المسبحين ، وخرج المسلمون بدخول المصلحين .

وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلا ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة
الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا . ورفعت الأعلام الجبائية على
منبره فأخذت من بره أوقى نصيب ، وتلت بالسنة عليها (نصر من الله
وفتح قريب (٤)) . وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس
المشركين . وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد

(١) ضياء الدين الشهرزورى : هو القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم ، أبو الفضائل ،
الشافعي ، كان فقيها فاضلا ، جوادا كريما ، أدبيا شاعرا ، توفي سنة ٥٩٩ هـ (ارجع إلى النجوم
لرازة ج ٦ : ١٨٣-١٨٤ ط . دار الكتب) .

(٢) السرار : الخفاء الشديد .

(٣) عرس القوم : نزلوا للاستراحة من السفر والمقصود ، الإقامة والاستراحة .

(٤) آية ١٣ سورة الصف .

ينسى من عهد المعراج النبوي ، وقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي .
وصافحت الأيدي منها موضع القدم ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان
لها في القدم .

فهو ثاني المسجدين ، بل ثالث الحرمين . فليُهنّ البيت الحرام
خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، واسفار صبح الاسلام بعد طول
اعتكار ليل الكفر . وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس
الأرجاس ، وتضوع أرج الرجاء في أرجائه بعد الياس ، .

فالحمد لله الذي أبدل الايماش بالاناس ، ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة
عليه لباس الياس . وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - على
الأعصر مفضلاً ، وكل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه ، فأصبح فخر الدين
والدينايه مكملًا . ويسر بركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك
هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها . ولقد حلّ الكفر عروة عروة ،
وهُدّ ذروة ذروة . وعادت حباله رثائًا ، وعقوده أنكاثًا ، ومساكنه
أجداثًا ، وصار حديثاً بعد أن شوهد أهل الذمة أجداثًا .

فالتراج (١) مستفتح ، والرجاء مستنجح . والبلاد مستخلصة ، والقيم
العوالي منها بسوم العوالي مسترخصة . والعوائل مقتضة ، والمعاقل منفضة ،
ومناهل المني بمياه النجاح مرفضة ، ونجوم الرجوم (٢) على شياطين الكفر
بسيوف أهل الايمان منفضة . والثغور مبيتسة ، والأمور منتظمة ، والحصون
متسلمة ، والحصوم مدعنة مستسلمة . وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل
يوم من أطرافها ، بل يستولى على أوساطها وأكتافها ، ويعيد إلى الطاعة
كرها مذهب خلافها . ولقد أُنِعَ زرعها وثمرها من رؤوس المشركين ؛ وهذا
أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة ، والموهبة وإن خصت
هذا الاقليم فهي في جميع أقاليم المسلمين عميمة .

ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ؛ ودلالة المكرمة ؛ لكبا قلم

(١) التراج ، الباب المعلق عليه باب صغير .

(٢) الرجوم : أي التي يرمم بها كالذهب - قال الله تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا

بعصايب وجعلناها رجوما للشياطين » سورة الملك .

البلغ في مضممار البيان ولم يبلغ مدى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١)) ،
 والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري ، قد توجه لهذه النعمة واصفا ،
 وعند ما يؤمر(٢) به من انتهاء البشرى بها واقفا ، وأولى من وصف العرف من
 كان بأوصافه عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفى بشرح الصدور
 مصادر شرحه ، ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بأنهاء ما تسنى من فتحه .
 ويحدث وهو الضياء بأسفار صبحه .

(١) الآية ١٠٩ سورة الكهف .

(٢) في ب يأمر والتصحيح من ل .

عاد الحديث إلى ما جرى بعد فتح القدس

وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون ، واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الأفضل قبله إلى عكاء عائداً ، وعن حوزتها بياسه وجوده ذاتدا . ثم تبعه (١) الملك المظفر فرحل ، وسار إلى عكاء وبها نزل . ثم عمد السلطان إلى ما جمعه فقرقه ، وأخرجه في ذوى الاستحقاق وأنفقته . وفرضه بعوارفه ، وفضه في مصارفه . فسد خلة المعلى ، وأسهم منه ابن السبيل . وحمل به عن الغارم (٢) . وأحيا به سنن المكارم ووضع في أهله ، وأحلّه في محله ، وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوى الاضاعة ، والاتفاق في أهل الفاقة . وأجنى الأجناد منه مقاطف ، وجعل للمجاهدين منه وظائف . وأبقاه بافئاته ذخرا للأخرة ، وكسبا للمحامد الفاخرة .

فأكثروا عدله (٣) على بذله ، واستكثروا ما فضه بفضله . فقال « كيف أمنع الحق مستحقه ، وهذا الذى أنفقته هو الذى أبقيه ، وإذا قبله منى المستحق فلئمة له على فيه . فانه يخلصنى من الأمانة ويطلقنى من وثاقها ، فان الذى فى بلى وديعة أحفظها لذوى استحقاقها » .

فما عاد الوفد الأبوfer ودثر (٤) ، والافاضة فى نظم من حمده ونثر : وحاز كل ذى فضيلة منه فضلا ، وتغيا كل فئة من فيته ظلا . وكثر السائلون بالفضائل ، والقائلون بالوسائل . والقاصدون بالقصائد ، والوافدون بالهوائد ،

(١) فى (٦٣ ص) اتبعه .

(٢) الغارم : المشغل بالدين ، وكذلك الذى أصابه اضطهاد ، وغرم فى سبيل الدين والوطن ، قال تعالى : « إنما الصلوات للقراء والمساكين والعمالين عليها والمؤلفة قلوبهم والنارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (أوضح التفاسير لابن الخطيب : ١٦٠ الطبعة الخامسة) .

(٣) أى لومه .

(٤) أى كثير .

والواردون بالفوارد ، والسابقون بالشوافع ، والشافعون بالسوابق : والسالكون للطرائق ، والمالكون للحقائق .

فما ترى الافارثا باللسان الفصيح ، وراويا للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة ، ومتفحصا عن مشكلة . ومُوردا لحديث نبوي ، وذاكرا لحكم مذهبي ، وسائلا عن لفظ لغوي . ومعنى نحوي . أو مُقرضا بقريض ، أو معرضا بتصريح أو مصرحا بتعريض . أو جالبا للمدح ، أو طالبا لمنحة : أو مستمعنا بفاقة ، أو مستمعنا بافاقة . أو ناشدا بنشيد ، أو مسمعا بتغريب وتغريد .

وما فيهم لإمن أحظى بسهم ، أو أرضى بقسم . وأصيب بنصيب وأجيب ، وأجيز بتقرير وتقريب : قليل له ، لو ذخرت هذا المال للمال لشئيت به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال ، قتال ، أملى قوى من الله الكافل بنجح الآمال ، وجمع الأسماء المطلقين ، وكانوا الوفا من المسلمين : فكساهم وأساهم ، وواساهم وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره ، ناجيا من ضرره ووضره (١) .

ومكث السلطان عليه مقيما ، للنظر في مصالحه مستديما . قليل ، ما تعودك عن صور ؟ فأنهض إليها عسكريك المنصور . وأنت تلخلها يوم وصولك ، وتحظى منها بمرادك وسولك . فانثو السير واحو الخير . واحصر الخير ، واحظر التأخير . وفي تعجيل النهضة تحصيلها في القبضة ، وفي بدار الإمام بدارها بشرى أهلة الفتوح المقمرة بإدارها . فأسر بالعسكر وأسرع ، واقطع عن الكفر تلك الأعمال واقطع ؛

وأكثر من كان يستحته ؛ وعلى النهوض يبعثه ؛ الأمير (علي بن أحمد المعروف بالمشطوب (٢) . وكان من أكابر الأمراء الكافين للخطوب ، الكافين

(١) الوضر : وسخ الدم ، أثر الطمام في القصة ، غسالة القصة ونحوها .

(٢) الأمير سيف الدين المشطوب : هو علي بن أحمد الهكاري ، ملك الهكارية ، والمشطوب شهرة كانت له من أثر طمعة في وجهه ، كان شجاعا صابرا في الحروب مطاعا في قبيلته ، دخل مع أسد الدين شبركوه إلى مصر في مراته الثلاث ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين ، توفي سنة ٥٨٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٧ ط . دار الكتب) (ومفرج الكرب ج ٢ تحقيق د . الشيال) .

في الحروب . وكانت معه صيداء ويبروت وهما بقرب صور - وقد
أشفق أن فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحضر ، وحرص على الفرض ،
ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها ، وأنه يشق في هذا الوقت
التزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس بأحكام صور مشغولا ،
وعلى الاستهتار بتحسينها مشغولا . وقد استجد قدامها من البحر إلى البحر
خندقا ، وجعل الطريق إليها مضيقا . وأحكم أسباب الاحكام ، وأخذ
بالخزم في الاهتمام (١) .

(١) في أ (٤٦٥) بالاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان ، وقد عنا لأمره كل قاص ودان . وودعه ولده عزيز مصر في أول منزلة ، وسأيره لكرامية فراقه مقدار مرحلة . ثم وصاه وشيعه ، واستصحب أخاه الملك العادل معه . مستظها بإخائه ، مستشيرا بألائه ، مستصبرا بآرائه ، مستنصرا بمضائه ، مستغنيا بغنائه ، موفيا بوفائه . وهو بعقدته يعقد ويحله يحل ، وبشده يشد ويحلوه يحل . والساكر بالفضاء فائضة ، وللخطوب الريضة رائضة ، وإلى استنهاض النصر لانصارها ناهضة ، ومن هواها أنها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل إلى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخصمه . باهرا بتأخيره وتقديمه . قاهراً يشابه (١) المير (٢) ، زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره ، ظاهرا في بحره .

وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخبر . والمشطوب يستعجله ولايمهله . ويجرحض بالبعث ، ويحذر من المكث ، ويقول « الفرصة تدرك بالحث ، وتفوت باللبث » .. فسار لندائه ملييا ، ولجيش النصر معيا ولرأيه مقلدا ، وبالله - عز وجل - متأيلا . فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة بالحافل المحفلة ، والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها ، سعيدا في ترتيب أمورها . مضروبة قبانه ، مجنوبة عرابه . محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه ، منشورة غاياته . منصوره آراؤه : خافقة على الأعداء عذبات عذابه ، دافقة في ثرى النجاح في الأنحاء ثرات (٣) صوب (٤) صوابه . قد كست خيامه عرى العراء ، وفضت أشعة بيضه

(١) الشيا : جمع شياة وهو قدر مايقطع به من السيف .

(٢) أي المهلك .

(٣) ثرات : قطرات المطر الواسعة الغزيرة .

(٤) : صوب : المطر ، والمعطاء على التشبيه ، عدم الزوغان عن القصد يمينا وشمالا .

وسمره الفضة بالفضاء ، واحتوت مضاربه المضيئة بآلائه وآرائه على مضارب
المضاء ، وباحت استباحة حمى المشركين للموحدين بسر السراء .

فمكث أياما حتى تواصل المدد ، وتكامل العدد . واستحضر آلات
الحصار ، واستكثر من المجانيق الصغار والكبار . ثم تقدم إليها وخيم عليها
الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس ، (في خميس (١) يسير في الوشيج (٢)
كالأسد في الخيس (٣)) (٤)

ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس ، فوقع في
الدرديس (٥) ، والعذاب البئيس . فكأنما نفخ في صور (صور) : فحشر
أهل جهنم وملأوا السور . واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروح
وتوافقت مناجاة المجانيق بالخلدوش والشدوخ ، وأرسلت الحجارات حاجرة
حاجزة ، وألستة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزة .

وكانت صور على السوء مستوية ، وعلى كل من خرج من القدس وبلاذ
الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا ، وعاجوا وعجوا ، وبلأوا (٦) وبلجوا . ونصبوا
على كل نيق منجنيقا ، وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال ،
ومدوا في الجبال . ورموا من الشرافات بالشرور والآفات . وساب الحجار
حجاها وأمت الأمة وجاعها وجاها . فكم من رعوس أطارت ! ونفوس
أبارت ! وبرتخسفت ، وبلدركسفت ، وبجر نزفت ، وطودنسفت .

فحول السلطان إلى قريها له خيمة صغيرة ، وأنهض بنات الحنايا بالمنايا
عليها مغيرة . ووصف الجفاني ، فصدف أتيها الآتي . وعارض مجرها بعرض
بجره ، ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق في نجره . فأحبط

(١) في ل خمس غير أن المذكور أنسب للسياق والخديس هنا بمعنى الجيش

(٢) الوشيج : أي الرماح والمقصود أنهم يسرون حاملين رماحهم .

(٣) الخيس : غابة الأسد .

(٤) العبارة بين القوسين ساقطة في أ (٦٦ ي) .

(٥) الدرديس : الداهية .

(٦) في ب وبلجوا والتصحيح من ل ومن أ (٦٦ ي) .

أعمالهم بأعماله ، وأهبط رجالهم برجاله . وقابل الأبراج بالأبراج ، وحاول بالردى علاج الأعلاج . ووالاها حجارات وصخورا ، حتى جعلت سور صور سورا . وجد في أمرها ، وأجاد في حصرها .

ووصل إليه في تلك الأيام من قوى به ظهر الاسلام ؛ ولده (الملك الظاهر غياث الدين غازي (١)) ، وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي . فقدم مبارك القدم ، متدارك النعم ، على الهدم ، غالى القيم . ومعه عسكر مجر بلج ، جلبه من حلب ، قد استصحب البيض والسمر والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب ، وأغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب . ورأى نصب خيمته وراء خيمة أبيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام المنصوبة . وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لضم الصفاح مصافح . وكل جاندار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار . وكل منجنق من جنازه تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخى رضى البال بالهدى لإصماء أهل الضلالة .

وكل رام رام النجم في الافق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه . وكل مقدم قرنه دام ، وكل ضرغام صريعه في غرام . وكل قُمقام (٢) ضارب بصمصام (٣) ، وكل حام شارب بكأس حمام . وكل ذمر (٤) مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجلد مريح ، ولذماء (٥)

(١) الملك الظاهر غياث الدين غازي : هو أبو المنصور غازي بن صلاح الدين الأيوبي ، ولد بمصر سنة ٥٦٨ هـ وولاه أبوه سلطنة حلب في حياته ، كان ملكا مهييا ذا سياسة وفطنة ، حضر معظم الفترات مع والده ، وكان ملجأ للفرهاء ، وكهفا للفقراء ، مات سنة ٦١٣ هـ ودفن بحلب . (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢١٧-٢١٨ ط . دار الكتب) .

(٢) قُمقام : العدد الكثير .

(٣) صمصام : السيف الذى لا ينفى .

(٤) ذمر : شجاع .

(٥) ذماء : أى الحركة .

الزح مزيج . وكل فاتك لحبل الوريد باتك (١) ، ولستر الحياة هاتك ،
ولدم العدة سافك .

وكل شجاع إلى الموت داع ، وإلى المجد ساع ، وللإسلام راع ،
وللاشراك ناع . وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل في النحور غارس ،
وفي اليوم العابس غير عابس . وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسرّ البأس مناج ،
ومن شر الناس بشجاعته ناج ، وبباغت المنون لمن يلاقه شاج . وكل عتال
عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين ، وكل زائر للعدا بيمين .

فاجتمعوا وزحفوا ، وجفوا على القوم ورجفوا . وأصموا وصمموا ،
وأوقدوا نارا وأضرموا : وأطاروا من أعشاش الأقواس إلى أوكار الأحداق
أفراخا ، واستمخروا الأقدار لأقدارهم فحجبتهم حين أحيتهم إصراخا .
وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق (٢) ، وأولوا الشقاء لأولى الشقاق .
وتساعدوا وتناصروا ، وتطاولوا وما تقاصروا . وما فيهم إلا من أبان عن
جد ، وأبان بجد . وألان الشديد ، وأعان السديد ، وأفلح ففلح الحديد بالحديد ،
وجد الحديد ، ومد اللديد .

وصور مرتجة أبوابها ، مرتجة أربابها ، معتصة جوانبها ، مرتصة عصائبها ،
مشحونة أبراجها ، مسجونة أعلاجها ، محصورة كلابها ، محسورة ذئابها ،
محشورة ثعالبها ، محشودة كتابها : والمركيس بها متجهم ، وابليس عليه
متحكم . وقد سقط في يده ، وسخط لبلده ، وارتبط بجلده ، واختلط
بكمده . وغلت مراحل غلوائه ، وعدت غوائل عدوائه . وطاش وجاش ،
وأوخش (٣) الأوباش والأوخاش (٤) . وتوشح بالشر وتوحش ، وترشح
للردى ونحرش . واشتعل بجمره ، وبعل بأمره ، وضرى بضره ، وجال
بوجهه في مكر مكروه ، وكر في وكروه . وعشا (٥) عشّه ، وعشى غشه .
ونبت على بلججه ، ونبت في أجاجه . وتسعر وتعدس ، وتربص وتصبّر .

(١) باتك : قاطع .

(٢) الرقاق : السيوف .

(٣) أوخش : خلط .

(٤) الأوخاش : جمع وعش وهو الرذيل من الناس .

(٥) أى لزم موضعه .

والسلطان مصيب حكمه ، صائب سهمه ، ماض عزمه ، قاض حزمه ،
 بار حده ، جار جده ، وار زنده ، سار وفده (١) . باتك غربه ، فاتك
 ضربه . قاطع شبا باسه ، ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت أسبابه ، واتسعت
 رحابه ، واجتمع أصحابه . فازدحم على يابه ؛ وحول قبايه ؛ كل مبارز
 بار ، وكل ضارب ضار ، وكل حجار جار . وكل رامح ورام ، وكل
 حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف ، وكل عاصف قاصف .

وكل آكل للحرب شارب ، وكل طالع بالضرب غارب (٢) . وكل
 هاجم هائج ، وكل راجم رائج . وكل معتقل منقلد ، وكل مجرب مجرد .
 وكل ذكر مذكور ، وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث (٣) وكل غيث
 غياث ، وكل سفاك لدم الكفر سفاح ، وكل جرآد لسيف الفتك جراح .
 وكل مكتتم فى درعه ، مكتمن فى ثقبه . ملثم بزغفه ، مثلثم بجرفه . مقنع
 بلائمه ، ملقع بقتامه . سابع فى بحر الموت بسابحه ، سامع فى الصباح صوت
 صائحه .

فجمعع إليه أمراءه ، واستحضر عظماء ملكه وخبراءه . وقالوا : هذا
 بلد حصين ، ومكانه من الأرض مكين . فى البحر ثلاثة أرباعه ، وفى
 السماء ارتفاع يقاعه . وطريقه الذى يسلك من البر إليه ، قد أحاط به البحر
 من جانبيه . وقد قطعوه بخندق فى عرضه ، وعمقوه ونزلوا فى أرضه .
 وكان من احكام الحزم ؛ وإتمام العزم ؛ تكميل الآلات وتتميمها ، وتحصيل
 المنجنقات وتقدمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها ، وتقريب
 الخفائى والجنويات وتصفيها ، وتسوية مناصب المجانق وتسقيها ،
 وتنحية أشتال العسكر وتخفيفها ، وتنحية (٤) نُحْب الرجال وتصريفها .
 وتسنية الأسباب ، وهينة الأخشاب . واستحضار كل ما يراد للحصار ،
 واستنفار كل ما يرام من الأنصار .

(١) فى (٦٨ ص) رفته .

(٢) غارب : أى خوحة ونشاط .

(٣) الملاث : السيد الشريف يطاف ويلاذ به ، فعله آلات .

(٤) ملح .

فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياء ، وتيسرت وتوفرت الأصول والأبواب ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، وإذا حالت الأحوال وضاعت الأوضاع ؛ اختل واعتل الزال والتراع .

وأمر السلطان بازاحة العلل ، وإزالة الخلل ، وشغل الصانع بالعدل ، ونقل الأمل إلى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الفياض (١) ، وحمل ما بتلك النواحي من الأبقاض . فاجتمع هناك كل آلة (٢) وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقبض ، ومجرب ومجرب . وسهم وشهم ، وشهب ودُهم . وأحمال وأثقال . ونظمت السناثر (٣) من القضيبي ، وصفت من سور صور بالمكان القريب . وكنت من ورائها الكمامة ، واستترت بالجفاني قدامها الرماة . واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه . فمن جان بمنجنيق ، ودان إلى نيق . وداب بدبابة ، وذاب بذبابة . ونازع في حنية ، وناز بمنية . وقاذف بشرارة ، وحاذف بحجارة ، وهاتك من ستارة ، وفاتك بمسارة . وجاذب في جبال ، وجالب لوبال . وسرو في قلع ومسوقلقاع ، ومدبر بايخاف (٤) ومدمر بايخاف .

ولم تزل المنجنيقات ترمى ، والحجارات تدمر وتدمى ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ ، وأطباق البرج تُبنى وتغطي بالسلوخ حتى امتد الزمان ، واشتد الحران (٥) . وضاق الحصر ، واعتاق النصر . وكان العسكر قد أُلْف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين

(١) الفياض : جمع غيضة وهي الأجمة أو مجتمع الشجر في مغيض الماء .

(٢) آلة : الحربة ، أو جميع أدوات الحرب .

(٣) السناثر : جمع ستارة ، وهي من أهم معدات القتال عند المسلمين في القرون الوسطى ، وكانت تعمل من الجلود أو البود المبللة بالخل والشبه والنظرون وكانت تتخذ لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النبط واستعملت بوجه خاص لحماية آلات الحرب التي كانت تصنع من الخشب ، وكذلك لحماية الأبراج والسفن الحربية (مفرج الكروب ج ٢ : ٢٠٣ تحقيق د . الشيال) عن آثار الأول للحمين بن عبد الله .

(٤) أوجف الشيء : حوله وصيره يضطرب .

(٥) حرنت الدابة حرانا : أي استدر جريها فوققت .

صعب ، وتبع هواه لما تعب . ولم يألف الناس إلا إرواء ظمأهم بنهالة ،
والحصول على أكساب سهلة ، وفتح ما يقصدونه من البلاد بنير مهلة .
فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأفقوا . وانسلطان
مع ذلك يزداد في حدة حدة ، وفي شدة شدة ، وفي جده جدة . يثبتهم
بحنه ويثبتهم على الثبات ، ويقويههم بجوده ويوجدتهم القوات ، ويقول
« إن الله أمر بالمصابرة ، ولا مصابرة إلا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا ،
وصابروا تفتحوا » .

ذ ك ر ما تم على الأسطول

وكان السلطان قد نفذ من صور ، وأحضر إليها من عكاء ما كان بها من مراكب الأسطول المنصور . فوصلت منها عشر شوان ، على العدا جوان ، ولردي لهم جوان . فعمرها بالرجال ، وجهازها للقتال . واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجبيل ، فاستشعر المركيس وأشياعه منها الويل . وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها مناكب .

وسفنا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفظنا مضبوطة محوطة . ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواربها ، وتجري سواربها (١) ، وتسرى جواربها ، وتطير للقنص بزاتها ، وتغير للفرس غزاتها . وتكسر بكواسرها وتدور بدواثرها . وتلاطم الأمواج بأمواجها ، وتزاحم الأتجاج بأنباجها . وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواة بأقلاعها . وتنقض على شياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآيب (٢) الذعر سحبها .

فكأنها الأسود السود ، ركبها الأسود . من كل أقعوان يحمله أقعوان (٣) ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشتات العدا ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق . فيالها من أغربة دارت بعقبان ، وأجنحة طارت بظلمان . (٤) ورواس سوار ، وغواز بغوار . وقد ملئت برماة الحدق (٥) ، وحماة الحلق . وزراق النار ، وطراق الثار . والخطافين بالخطاطيف ، والقاذفين بالمقاذيف . والكالمين بالكلايب (٦) ، والسالين بالأساليب ، والحارين

(١) السوارب : جمع سرية وهي القطيع والجماعة من الخيل وغيرها .

(٢) شآيب : جمع شوبوب ، والمقصود شدة انفذاع الشيء .

(٣) الأقعوان : ذكر الأفعى .

(٤) ظلمان : واحدما ظليم وهو ذكر النعام .

(٥) أى المهرة في النضال والرمى .

(٦) الكلايب : جمع كلاب أو كلوب ، وهى المهاز أو الحديدية التى على عنق رائف

الخيل أو راكلها .

بالمحارِب . والراجمين بالرجام (١) ، والمعلمين على الأعلام .

فانشقت مرائر الفرنج ، وأزاحت سفنها عن النهج . وقرنصت بُزاة
البيزانية ، وتقلصت جناة الجنوية (٢) . وكثرت أدواء الداوية ، وكثرت
أسواء الاستبارية ، وزادت آلام الألمانية ، وعادت أسقام الافرنسيية .
وصارت مراكبيهم في المينا لا تيين ، وشدهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد
ربطوا عندهم السفن ، فلو خرجت كانت جبلا نسفن .

وأنس أصحابنا بعلو الأمر ، وخطو البحر . وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا
على الطوف . ودام تطوافهم ، واستقام إيجافهم . واغثروا بالسلامة ، وسروا
بالاستقامة . وباتت لنا شوان خمس ، لها بزوال الوحشة أنس . وربطت
بقرب ميناء صور راصدة ، ولأخذ ما يخرج من شوانيها قاصدة . والدياجي
مدلثة ، والدواهي ملتمة . وعيون الزهر راقدة ، وعيون الكفر ساهدة .
وللمكايد مصايد ، وللعوادي عوائد ، وللاغوائل طوائل ، وللمسائل دلائل
وللمقادير مقاد ، ولأولئك المراد مراد .

فحفظ أصحابنا إلى السحر الحرس ، وسهروا إلى أن شارفوا الغلس ،
وكل منهم لما استأنس نمس ، وغاص في النوم وما تنفس . فما انتبهوا إلا
وسفن الفرنج بهم عمدة ، ونيرانهم محرقة . فوبخوا في البحر والتجوا ،
وتطافروا (٣) إلى الماء لينجوا . وعدت العداة ، وأخذت تلك الشواني
الشناة . وأسروا منها عدة ، ولقي الباكون شلة .

فاغتم السلطان بسبب هذه النكبة ، وفرح الكفار بتلك الضربة . وكانت
تلك أولى حادثه كثرث وكراتة حدثت . ونائية رابت ، وراثية (٤) نابت .
فضاقت القلوب ، وضافت الكروب . وحصلت تجربة الفارين ، وانصلت
حركة الفارين . واستيقظ الناعس ، واستوحش الآس . وهب الراقد ،
ودب الراكد . وذاب الجامد ، وشب الخامد . وهاج الزائر ، وماج الزاخر .

(١) الرجام : جمع رجمة وهي الحجارة التي تنصب على القبر ككلامه ، ورجم القبر عليه
أو وضع عليه الرجام .

(٢) الجنوية : هم أهل جنوا بإيطاليا .

(٣) أي قفزوا .

(٤) يقال « راب دمه » أي حان هلاكه ، والراثية هنا بمعنى نازلة .

وتحرك الساكن ، وتورك (١) الراكن . وعقل من غفل ، وذهن من ذهل :
وتيقظ من غفا ، وتحفظ من هفا . وتقبض من انبسط ، وتقيد من نشط ،
ووهم من عف ، وألم من كف .

ورجفت الآفاق بالمرجفين ، وطالت السنة المعنفين . فمنهم من يؤنب
ويذنب ، ومنهم من يقول ويطنب ، والعاقل يتجنب ، ويقيم العذر لمن
يذنب ويقول « هذه من الله موعظة ، وآية لنا موقظة » .

وأشار الناس بانفاذ الشواني البواقى ، وقطعوا بأن هذه القطاع لا تكفى
للافاة من يلاقى . فجهزوها نهارا ، وصيروا سرها جهارا . وأمروا بتسييرها
إلى بيروت ، ورجوا أن تسبق وتفوت . وركب العسكر فى الساحل يباريها ،
وهى بالقرب تجاربه فى البحر وهو فى البر يجارها . فأبصر ملاحوها شوانى
الفرنج لبارزتها مبرزة ، وللأجهاز وراءها مجهزة .

وكانوا رجلا من بحرية مصر مجمعة ، وأصبحت قلوبهم بما جرى على
أنظارهم مروعة . فتواقعوا إلى الماء ، وخافوا على دماهم فى الدماء .
وخرجوا إلى البر على وجوههم ، وخافوا مكرهم فى مكروههم . وفروا
وفاروا ، وطاروا وثاروا . ولم يلفت أحد منهم لينا (٢) ولم يزدهم دعاؤهم
إلى التجمع الا تشتيتا .

فظهر بهذه النوبة الواقعة ، والنبوة الرائعة ، أن نواب مصر لم يجر منهم
بالأسطول احتفال ، ولم يرتب فيه على ما يراد رجال . وإنما حشدوا إليها
جمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة ، ومستضفة غير آلفة ولا مألوفة .
فلاجرم لماً شاهدوا الروع ارتاعوا ، ولماً أنزموا بالطاعة ما استطاعوا .

وكان فى جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس (جيبيل) كأنها جيبيل ،
وفىها بحرية من ذوى التجربة والتجربى والبحرية مالها جبن ولا ميل . فزال
بأسلحة الدفاع : وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات ، وهيهات
أن يدرك هيهات . فنجا التجباء ، وآب بهم الاباء . فقيت المراكب الباقية

(١) أى اعتمد على وركه .

(٢) البيت : هى صفحة المتق .

وقد أخلها حماها الواقية . فرفعناها إلى البر ، ورأينا الصحة منها في الكسر .
وفرغنا من شغل المراكب في البحر .

هذا والمنجنقات ترميهم ، والمفوقات (١) الموققات تعديهم وتصميمهم .
والقتال قائم ، والنزال دائم . والصخور تفلق ، والصدور تقلق . والأحجار
تقلقل ، والأسوار تحلحل . والأطواد تضعضع ، والأبراج القيام تسجد
وتركع . والأصلاد تقدح ، والأجلاد تفرح . والألواح تصدع ، والأرواح
تودع . والحدود لشفاه الشفار ملثومة ، والحدود بضراب الأضراب ملثومة .
والجروح بين أكفاء الكفاح مقسومة ، والقروح بها قوارح القوارع
موسومة .

والحنايا وائرة موترة ، والمنايا مأثرة مؤثرة . وظعائن الضغائن تُحدى
بصليل البواتر ، وصهيل الضوامر . وحقوق الحفود تقتضى بألسنة الأسنه
وعنت الأعنة من الغريم الكافر . والأوداج شاخبة كالعيون البواكي ،
والأبشار دامية من الزنبوركات (٢) والناوكات (٣) النواكي . وهناك العقل
معزول بالتهور ، والرأى مشغول عن التدبر . والعلم والحلم خالطهما
الجهل والسفاه ، والجرحى يبتدىء بيسم الله ، والمنجنيق يحتم بلا اله إلا الله .
والزراق بالنار يطيب القارورة ، ويحرق الساتورة ، والسباق إلى المضمار
يساور السور ويياشر الباشورة .

(١) فوق السهم ، وضع فوته في الوتر . وفوق الرجل السهم ، جعل له فوقا والمقصود
هنا السهام .

(٢) الزنبوركات : جمع زنبورك وهو نوع من السهام في سمك الإبهام وطول الذراع ،
ذو أوجه أربعة وطرف حديدي ، وهو مريش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتا)

(٣) ناركات : جمع ناوك وهو لفظ فارسي الأصل معناه : السهم الصغير (معجم الألفاظ

الفارسية للدكتور محمد مرسي هنلاوى : ٣٢١) .

ذكر خروج الفرنج لقتال

ولا عثر الفرنج على تلك العثرة ، وظنوا فينا الفتور لأجل تلك الفترة ، وقالوا : مراكبهم انحل تركيبها ، وكتائبهم اختل ترتيبها ، وستجرى بها عنا الندامة التي يجدها تجريبها . وهم الآن على صوت لهم مخيف ، وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم ، ولا وجه لتباعدا منهم . فلو خرجنا صدمناهم ، وأقدمنا عليهم وهزمناهم .

وخرجوا يوما قبل العصر ، في عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستأموا ، وانضموا وانتظموا ونقدموا ، وأقدموا للطوارق حاملين . وللجمالات (١) مطرقين ، وعلى الفرق مجتمعين وللجماعات مفرقين ، وبالرهنق (٢) جادين وبالجد مرهقين . وللعقود حالين ، ومن الغمود ساليين . وللمناصل (٣) منتضين (٤) ، وللطوائل (٥) مقتضين ، وللسيوف مجردين ، وللسيول مجردين ، وبالزغف (٦) ملتئميين ، وفي الختف مقتحميين . وبالقنطاريات طائرين ، وبالزيارات زائرين .

من كل مغوار وار ، ومحضار صار ، وفجار جار ، وجبار بار . وعلو عنود (٧) ، وكند كنود (٨) . وداوى ذى دوى ، وباروفى غوى . ومن كل مصمم اذا وتر ، ومصمم (٩) اذا أوتر ، مصمم إذا نمر ، مصر اذا

(١) الجمالات : جمع جمالة وهو الحبل الغليظ .

(٢) الرهنق : الأثم ، خنة العقل ، الجهل .

(٣) أى السيوف .

(٤) منتضين . فعله انتضى : أى رفع .

(٥) الطوائل : جمع طائل وطائلة ، يقال بينهم طائلة أى عداوة والمئى أنهم العداوات

مستوجبين .

(٦) الزغف : الدرع الواسعة الطويلة .

(٧) العنود : هو المخالف للحق وهو عارف به .

(٨) كافر بالنعمة جحود .

(٩) مصمم : أفعله أصمى ، والمقصود هنا أنه رام يصيب هدفه قاتل لصيده .

ذعر ، هائج اذا استعر ، مائج اذا ذخر ، متمر اذا زأر ، متمر اذا
زحر . فتناوبوا وتواثبوا ، وتجاووا وتجاوبوا . ودنوا من متارس المنجنقات ،
وجنوا من مغارس الجنويات . وبنوا أمرهم على أن الناس ناسون غارون ،
وأن أهل البأس في خيمهم هاجمون قارون .

فتلقاهم منا كل ضارب للهام ، ضار بالحمام ، جار إلى الإقدام .
ملب للصوت ، حجب للموت . مشتهر بالغناء ، مشته لقاء ، مستهتر بالبلاء .
ماض بالمواضي ، متقاض بالقواضب القواضي . وكل أبيض بالبيض
ضراب ولليبيض رضاض ، وأغلب للمغلب قضااض (١) ، والى الحرب
نهاض . وكل معتقل رماحه ، معتقد مراجه . مهتر لطرب الشهادة ، معتر
بأرب السعادة . متمن للمنون ، متجن على الجنون . مضمم نار الحديد في
ماء الوريد ، مغرم في تفريق العدا يجمع العديد . مفرغ ماء الظبا على نار
النجيع ، مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلّم باللام ، وتلفع بالثام .
وتقنع بالزرد ، وتلدع بالجلد . وتجوشن (٢) بالصبر ، وتخشن بالزير (٣)
وصال بالقضب ، وجال بالهضب . وطال بالمهندى على القرنجى ، وخاض
من دم الشرك في البحر اللجى .

فلم يسمع الا أنين الحنية ، لحنين المنية ، ورنين الأوتار ، من كنين (٤)
الأوتار . وهفيف السهام الذفيف (٥) اللهم . وصليل بنات الغمود ، من غليل
أبناء الحقود . وهممة الأبطال ، وغممة الأقتال . وزثير الضرغام ، وزفير
الضرام . وقرع الظبا بالظبا ، ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من
الحديد ، وعجة الشديد من الشديد . وجعجة رحي الحرب ، وقمقة
أداة الطعن والضرب . وجرجرة الفحول ، وزمجرة النحول (٦) د
وهديل حمام الحمام ، وهدير قروم الإقدام . ووعوعة ذئاب الوغى

(١) قضااض : أى مزرق كاسر لمدوه . يقال قضااض الأسد فريسته أى كسرها ومزقها .

(٢) تدوع .

(٣) الزير : يفتح الزاى وسكون الباء : الصبر ، والمقل الذى ينهى .

(٤) مستور .

(٥) الذفيف : الاهلاك ، ذف الطاعون فلانا أى أهلكه .

(٦) النحول : جمع ذحل وهو الثأر أو المداوة أو الحقد .

ومعمعة التهاب اللظى . ودعدة صاع المصاع (١) ، وجلجلة سباع
القراع . وصلصلة الزبر (٢) ، وولولة الزمر . وحيلة دعاة النصر ،
وهيضة (٣) رعاة الكفر .

ورفرقة المريشات (٤) الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة
أعطاف المران ، وزهزة أصوات الشجعان . ونعير الغالين ، وصخب
السالين ، ولجب الحالين ، وزجير الطالبين . ونهيت الأسود ، وقصيف
الرعود . وهدة الأركان ، ودهدمة الرعان (٥) ، وقهقهة الأقران .
وقرقرة كم الكماة ، وصرصرة بزة الغزاة . وكشيش (٦) صلال الضلال ،
ونشيش مراجل الرجال . وهزيز ريح الباس ، وهزيم رعد المراس .
ولرانن المعاجس (٧) ، وأرزام القناعس (٨) . وهيعة (٩) الصارخ ، وصيحة
النافخ . وزعقة المستزع ، ونعقة المستزع . وشعشة الخرصان ، وزهزمة
النيران . وهيمنة الأجل ، وجمجمة الزجل . وتكبير المؤمنين ، وتهلليل
المؤمنين . وصرير أبواب الجنان للشهداء ، وصرير أنياب الجنان (١٠)
للأعداء ، والدعاء الى اللقاء ، والنداء الى الارداء . وارتفعت الأصوات ،
واشبهت الأحياء والأموات . ووقع أصحابنا فيهم وقوح النار في الخطب ،
وأروهم في مرايا البيض وجوه العطب ، وولوا مدبرين ، بعد ماتولوا
مدبرين .

(١) القتال والمجادة .

(٢) الزبر : جمع زبره : قطعة الحديد .

(٣) أصوات .

(٤) السهام المريشة .

(٥) الرعان : جمع رعن وهو الجبل الطويل أو أنف الجبل . والدهدمة : الدرجة .

(٦) كشيش : صوت الأنفى من جلدها ، والمعنى في العبارة مستعار من ذلك .

(٧) المعاجس : جمع معجس وهو مقبض القوس .

(٨) أرزام : غضب . والقناعس : جمع قناعس وهو الرجل الشديد المنيع أو العظيم

الخلق .

(٩) صوت مفزع .

(١٠) الجن .

وجنودنا تثلهم ، وحدودنا تفلهم . ولتوتنا(١) ترضهم ، ونيوتنا
تفضهم . وعادوا إلى البلد ، عادى الجلد . وفيهم ندوب وعليهم نوادب ،
وأيدى الردى بهم لواعب ومنهم لواعب . ودخل الليل ، وعمهم الويل .
وأسرنا منهم مقدمين ، ثبتوا على الموت مقدمين .

ومن أسر فخر قومص عظيم ، بل شيطان رجيم . فترك في قيد الاسار ،
ليكشف عن حاله بالنهار ، وكان (الملك الظاهر غازى) لم يحضر فيما تقدم
من المغازى . فرأى أن يحقق اسمه بقتله ، فضرب عنقه بجد نصله . وكان
للمركيس شبيها ، وفي الفرنج وجيها . فظنوا أنه هو للشبه ، وبات أهل
الكفر بالعمى والعمه . ثم عُرف أن المركيس في نفسه لم ينسكأ ولم ينكب ،
ولما عطت أشياعه لم يعطب ، وندم على ما قدم ، ومن تقدم على غرة تندم .

(١) لتوت : جمع لت وهو القدم أو الفأس الكبيرة .

ذكر ما دبروه من الرأى ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد ؛ وارتدع الجلد ؛ وارتتج العدو ولج ؛ ضجر العسكر
وضج . واجتمع أمراء الجيوش الافلات ، ولا يكرهون القوات .

وقالوا « مطاولة ما تقصر عنه تُتعب ، ومزاولة ما لا يزول تصعب .
ومحاولة الممتنع محال ، ومطال غريم هذا الفتح مطال ، وما يتسع لنا في هذه
الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جأد على المصابرة ، مجدى المكابرة .
لا يكثر بالكوارث ، ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن يلى ،
ولا يفكر فيمن ولى أو ولى . ولا راحة له إلا في التعب ، ولا يعلم له نصيب
سلامة إلا من النصب . وكل ما جرى إلى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم
يردعه ، وقد قيل : إذا لم تستطع شيئا فدعه . فكيف السبيل إلى استعطافه ؟ ،
وما التدبير في استعطافه ؟ . وبم نتوصل ونتوصل ؟ وإذا عرفناه أن الداء
يعضل ، والخطب يشكل ، اعله يجتوى (1) الإقامة ويرحل . »

فاطلع على ما أسروه ، ومر به ما أمره . وأهمه ما به هموا ، وآله ما به
ألوا . فراسلهم بالحبات ، وواصلهم بالصلوات . ورغبهم فيما عند الله من
الزنى ، ووعدهم بكل ما على أملهم أوفى .

وقال لهم : « كيف نخلى هذا المكان ، وما استفرغنا في شغله الإمكان .
وما استنفدنا في مضايقة الوسع ، ولا أحسنا بعد في محاصرته الصنع ،
ولا زحف إليه الجمع ، ولا حفز منه المنع . ولا أصابنا من مكرب أهله مكروه
ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشقوه . وكيف تجرى بنا الخليل عنه قبل
التجريب ، وهذا الأرب ما يخظر بخاطر الأريب . وما عذرنا إلى الله وإلى
المسلمين إذا تركناه ، وكيف نقول فإتنا هذا القنص وما أدركناه . (والقرصة
إذا فاتت لاتدرك ، والبغية إذا واثت فحقها تملك) . ونواظر الناس إلى
ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلسة لا يجلوها إلا نور .
(ومن لا يتعب لا يستريح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح) . وان

(1) يجوى : يكره الإقامة في البلد .

يُجدّوا تجدّوا ، وان تردّوا على المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا ،
فارجعوا إلى الله وأنبيوا . وهذا الرجل متواصل ، والغرض به حاصل .
ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها ، ونلزم كلاً منهم ملازمة البقعة التي
هو بها ، وهذا البرج قد ارتفع ، والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال
طبقاته ، وتوالت منها في الكفر رشقاته ، والنصر قد آن أن تطيب نشقاته ،
والمركيس أبعده الله — قد قرب أن نخونه ثقاته . ورأينا طول الأرواح ،
لا التطاول إلى الرواح . وفي التثبيت على المقام ، التوثب على المرام .

ثم أخرج المال وصبه من أكياسه ، وفرقه على ناسه ، وأنفقته في أهل
باسه ، وواصل البذل ، وهجر العذل . وملاً الأيدي بالغنى ، وروج
للرجاء نجح المني . وأمر فامتل ، وقال فقبل . ونادى فسمع ، وحشر فجمع .
وعادت عادة الحصار ، وأسعدت سعادة الأنصار .

ذكر فتح حصن هونين (١)

ورود الخبر عن هونين أنها هانت ، ودنا أمرها ودانت ، وأن طريق فتحها بانت ، وأنها عنت فإن (٢) أظاف الله أعانت ، وأنها بذلت ماصانت ، ولم تبق للكفر على ما كانت ، وأن شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض أمرائه ، وأمله بمدد جنده وعطائه . فلبث (٣) إلى هذه الغاية ، يصميها بسهام النكاية . حتى طلب أهلها الأمان على الوفاء بما يشترطون ، ويشطون منها ولا يشطون ، فأول ما قالوا « أمهلونا حتى نعلم ما يكون من صور ، ونكشف هذه الأمور ، فان أخذتموها أخذتم هذه ، وشفعنا أمر السلطان بنفاذه . وان خليتموها فياهوان هونين ! . ونحن نجعل على هذا عدة من الأصحاب مرهونين » .

فندب السلطان (بلر الدين دلدوم الباروق) وهو من أكابر عظمائه ، وأكازم أمرائه ؛ وأمره باستزلاهم واستذلالهم (٤) ، والأمان لنسأهم ورجلهم . ففضى ورغبتهم في الأمن والسلامة ، وخوفهم عقبي الحسرة والتندامة . وقال لهم « أنتم بين حصنين هما تبين وبانياس ، وماذا تصنعون إذا خاب رجاؤكم وبان الياس . وإذا أبيتم التسليم عدتم سلامتكم ، وأقمتم قيامتكم ، واستباحكم السلطان واستباحكم ، وكرهكم وأباكم ، وحل بالقتل حياكم (٥) ، وقل شباكم » .

فما زال يغرب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا ، وأخذوا الأمان على أن

(١) هونين : بلدة في جبال عاملة تطل على نواحي مصر القريية منها (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٠ :

ط . ب .) .

(٢) في أ (٧٧ ص) وأن .

(٣) في أ (٧٧ ص) وليث .

(٤) في ب استزلاهم والتصحيح من ل ومن أ (٧٧ ص) .

(٥) الحيرة وجمعها حبي أو كسر الحاء ، ما يجتبي به أي يشتمل به من ثوب أو عصامة

والمنى هنا أنه حل بالقتل كل ما احتيتهم به .

بذهبوا . ووصل الخبر إلى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم ، ولقائمه أهلها مستديم ، وإلى ما عند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة وذخيرة ، وقوة وميرة ، وآلات وأدوات كثيرة . وتسلمها (بيرم) أخو صاحب بانياس ، واستشعر الفرنج منها اليأس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها ؛ وبرح بالقلوب برحها ؛ من عمل صيداء : قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون (١) ، ومن عمل طبرية والغور : صفد (٢) وكوكب (٣) - وهما من أحكم الحصون . وقد وكل بهما أميرين ، من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج (٤) ، ومنعا من الدخول والخروج .

وأقام السلطان على صور محاصرا ، ولالدين الخنيف ناصرا ، ولويد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح ؛ ويقابلها بكل كفاح ؛ حتى كادت تستكين ، وشدتا تلين ، وأبيتها تلدين ، وسريرها بين .

وكان قد دخل كانون (٥) ، وظهر من سر الشتاء المكنون . وقبض البرد الأيدي عن الانبساط ، وأعدم الهمم دواعي النشاط . وعادت العزائم التوهجة تبرد ، والصرائم (٦) المتأججة تخمد (٧) . والنخوات المتحركة تجمد ، والحميات المتيقظة ترقد . والضرام المحتدم يجبو ، والحسام المخدم ينيو . والطباع تتكهر ، والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل ، ومعاودة التزال تنحل . فلحاهم (٨) السلطان على ما لاح ، وعرفهم أن في الصبر

(١) شقيف أرنون : قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق

بينها وبين الساحل (ياقوت ١٢ : ٣٥٦ ط . ب .)

(٢) صفد : مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان (ياقوت

ج ١٢ : ٤١٢ ط . ب .)

(٣) كوكب : اسم قلعة حصينة على الجبل المطل على طبرية ، مشرفة على الأردن (ياقوت

ج ١٦ : ٢٩٤ ط . ب .)

(٤) العلوج : جمع علج وهو الكافر .

(٥) كانون : ديسمبر .

(٦) الصرائم : جمع صريمة وهي العزيمة .

(٧) في ب يخمد والتصحيح من ل .

(٨) لحاهم : قبحهم واستنكر فعلهم وقولهم .

الفلاح . وأمرهم بالمقام والاستقامة على الأمر ، وأنه لا ظفر إلا مع الصبر ، وأن الظلم تنجلي عند تجلي الفجر .

وكان في الأمراء جماعة منتخبون منتخون ، أبت أماتهم في حمية الدين أن نخون . مقيمون على الكريمة ولا كراهة منهم للمقام ، ويجبون أن تقام وظيفة الانتقام . ويؤثرون بأنفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان ، وعصيان الشيطان في مفارقة المكان . فإذا أرجف بالرحيل رجفوا ، وسخفوا رأى المشير به وضعفوا . واضطربوا واضطربوا ، وتلعموا وتلعموا .

وقالوا « كيف نترك ما حوينا ، ونعوج ما سويناه ، وننشر كفرنا طوينا ، ونهجر خيرا توينا . ونداوى توحيدا شفيناه ، ونشفي أشراكا أدوينا . وما للراحة اليوم طالب ؛ إلا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن أمسى وهو الآن غالب ، يوشك إذا ولي أن يصبح وهو مغلوب . وهذه صورة صور قد تشوهت ، وموارد قوتها سفهت ، وإذا تخلينا عنها وخليناها ترفهت واستفهرت (١) ، وإذا حلمنا عنها سفهت ، وهبت من غشية خشيتها وتبتهت . وتارك المصابرة مصاب ، والآخذ بالمثابرة مثاب » .

فمعنهم الأمير طمان بن غازي (٢) - ما اطمان يوما في الغزو ولا سكن . وعز الدين جرديك النوري (٣) - كم جرد على أعناق المشركين سيفه الذي به تمكن ، وهما همامان مقدمان مقدمان ، من عادتها

(١) كثرت وزادت .

(٢) طمان الدين غازي : هو الأمير حسام الدين طمان بن غازي صاحب الرقة ، كان شجاعا جوادا محبا للخير ، كثير الصدقات ، محبا للفقهاء والعلماء ، بئى مدرسة مجلب الحنيفية ، وكانت وفاته في تل العياضية قرب عكا في شعبان سنة ٥٨٥ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٠٩ ط . دار الكتب) .

(٣) عز الدين جوردك النوري : هو جردك بن عبد الله النوري ، كان من أكابر رجال الملك المعالي نور الدين محمود ، ثم خدم صلاح الدين الأيوبي في جميع غزواته وحروبها ، منذ أن قتل شاور بمصر واين الخشاب مجلب ، وقد كان شجاعا مهيبا جوادا ، ولاء صلاح الدين نيابة القدس إلى أن أخذها منه الأفضل بن صلاح الدين ، توفي سنة ٥٩٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٣ ط . دارالكتب) .

الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات، ولا يريمان . وجماعة آخر بهما يتشهون ، وبالكرهية لا يتكروهون .

وأما الباؤون فأنهم أحبوا البقاء ، وأبغضوا اللقاء ، واتفقوا الاتقاء ، وأبوا إلا الإياب . وقالوا « قد لغبنا وما بلغنا، وجرحنا وما رجحنا ، فلورحنا استرحنا ، ثم عجبنا ورجعنا . وما نحن بأول واضح للاصر ، راجع عن الحصر . معترف للعقل ، مستعف من الثقل . عامل بمحض الحزم ، عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ما عرا من ضروب الكروب ، وثلم ما يرى من غروب الحروب . وبقدر ما هدم من مباني البلد ، هدم أكثر منه من مباني الجلد » .

فقال السلطان « بل نجد في القتال أيا ما ، وتقديم بأسا واقداما (١) . ونزحف بجميع رجالنا ، ونصدقهم في نزائنا . ونقاتلهم من جميع النواحي ، فان تعذر لاح العذر للاحي (٢) » .

وأصبح العسكر وقد استعد ، وامتد قبالة البلد من البحر إلى البحر والنصر استمد . وركب الأمراء بأجنادهم ووقفوا ، وأتمر لهم ورق الحديد الأخضر فقطفوا . وتناوبوا في الزحف ، وتعاقبوا على الخطف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت ، وجاءت الطائفة الأخرى فصدقت وصدعت ، وقارعت وقرعت ، وصارعت وصرعت . فلم ير أشد من ذلك اليوم ، في وقم القوم . واجترأ أصحابنا وراض جماحهم لإصحابنا . وشاخصت خيلنا في البحر خلف منهزميهم ، وأقدم من أحجم منا لاحجام مقدميهم . فحيثند طارت للحين من السهام زنايرها ، وأسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلات السعير بقتلاهم وقالت : « هل من مزيد (٣) » ، وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت : « هل من شهيد » . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الأسلحة ، وملت الأجنحة . وانهاصت قوادم الإنهاض ، وانقضت الجموع من إقواء القوي والانفاض :

(١) في ب أقدام وهو خطأ لقوى .

(٢) اللاحي : لاحي فلان فلانا دافعه ومانته ولاومه واللاحى اسم الفاعل منه .

(٣) الآية ٣٠ سورة ق .

وبات الناس على ضجر وضجاج ، ويلجج ويلجج . فلو عاودنا البلد
بمثل ذلك اليوم أياما ، لنلنا من فتحه مراما . لكنهم أصبحوا على سأم ،
وألوا بإبداء ألم . وقالوا : قلت كثرتنا ، فلو أقبلت عثرتنا لنجبرت كسرتنا
وفينا الجريح والطيح(١) ، وحتى متى لا نستريح ! وقد توالى الأمطار
فلا مطار ، وعلينا هذا الحصار صار ! » .

وكانت الجراحات كثيرة ، والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من
العمل ، وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . وما زالوا يرسلون السلطان ويشيرون
بالرحيل ، ويقولون : لا تتعب على تحصيل المستحيل ولا تذهب الأيام في
إبرام السحيل . ودعنا نستجد دعة ، ونسترد قنوى عند لطف الله مودعة .
ونشتغل بفتح الأيسر وهو أكثر ، ونؤخر التشاغل بما لعله يتعسر » .

وكان السلطان في تلك المدة ، أنفق أموالا كثيرة على تلك الآلة والعدة .
وما أمكن نقلها ، ولا يمكن من نقلها ثقلها . ولو أبقاها لقوى بها الكفر ،
واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقصها ، وفك بعضها . وأحرق منها ما تعذر
حملها ، وشتت بعد التجمع شملها . وحمل بعضها إلى صيداء ، وبعضها إلى
عكاء . وجرت أعاجيب ما تكاد تحكى ، وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما
فأضحك وأبكى .

وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور إلى المنزلة الأولى ، ويد أيده
على جميع الأحوال طولى . فشرع العسكر في الانصراف ، وتزود للانكفاء(٢)
والانكفاف . وأخذ الجمع في الافتراق ، وانتشر في الآفاق . وذهب من ذهب
على مواعدة في المعادة ، ومسارة في الرجوع إلى المساعدة .

وودع (الملك المظفر تقي الدين) من هناك ، وأوعده بوعد عوده
الاشراك . وسار على طريق هونين إلى دمشق مغدًا ، وفارق الغزو وكان
له ذلك المغزى مغدئ . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ،

(١) المنزلة والمتعب إلى درجة كبيرة .

(٢) في الانكفاء والتصحيح من ل .

وكل طير منهم اشتاق إلى وكر . وما عرفوا أن هذه الراحة القليلة تعقبهم تبعاً كثيراً ، وأن هذا الهدوء الذى مالوا إليه يصير لحديث حركتهم مثيراً .

وبنى السلطان يتلهف على ما تركه ، ويتأسف على الفتح الذى ما أدركه والذين أشاروا بهذا رأى يسهلون الصعب ، ويهوتون الخطب . ويقولون « تمضى ونعود ، وتساعدنا السعود ، وتنجدنا الجنود ، وتتجدد الجلود ، ويورق العود ، وتصدق الوعود . وإذا أقبل (١) الريح ، أقبل الجميع . وطاب الزمان ، ووفى الضمان ، وأمكن الاسعاد وساعد الامكان » .

وما زالوا بنا حتى رحلنا ، وعلى الرأى الرائب منهم أحلنا ، ولو أقمنا لنقمنا ، وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدير وقدره محتوم ، وسر غيبه المكتوب فى اللوح المحفوظ مكتوم . وأراد ولا مرد لمراده ، وقضى ولا يحيد لما قضاه فى عباده . أن تبقى صور فى تلك الحالة للكفر وكرا ، وللمكر مكر ، وللشرك شركا ، ولنار جهنم دركا .

وقدمنا عن صور الاحتمال آخر شوال غرة كانون الثانى ، وعم البرد فى القاصى والدانى . وتوحمت السماء من حوامل السحاب ، وتوحدت الأرض من سوائل المذائب (٢) . والنكب (٣) الرياح عواصف عواصف قواصف قواصف ، والسحب الدلاح (٤) هوامل هوامل رواعد رواعف (٥) والبرد قارص قارس ، والماء جامد جامس (٦) . والشتاء شتات بتات (٧) ، وما مع مقامه وثباته مقام وثبات .

(١) ظهر .

(٢) المذائب : جمع مذنب بكسر الميم وهو سيل الماء والجدول إذا لم يكن واسعا .

(٣) النكب : جمع نكباه وهى الريح انخرفت عن مهاب الريح القويم ووقمت بين ريحين . عواصف : جمع عاصف ، وهى من الابل المصاب بالفة كالترع للانسان والمقصود أنها رياح مهلكة .

(٤) الدلاح : الكثيرة الماء .

(٥) رواعف : يقصد أنها كثيرة الماء حتى أنه يسيل .

(٦) متجمد .

(٧) بتات : مشتت ، قاطع الوصل .

وسرنا عباديد(١) في لبايد(٢) ، وبين جليد وجملايد . على الناقورة(٣)
وطريقها ، والأثقال قد ازدحمت في مضيقها . والأحمال تتواقع ، والأجمال
تتقاطع . والنسبل تنسد ، والسابلة ترتد . وسلكت الخيل الجبل ، وقطع
العسكر طريقه إلى المخيم ووصل . وتأخر الثقل إلى أن تخلص ، وتقدم من
سبق وتخلص .

ووصلنا إلى عكاء في ثلاث مراحل ، وقد غطى بحر عسكرنا الساحل .
وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل ، سامى المحل ، نامى الفضل .
دائم الفكر في تدبير الأمر ، وتدمير الكفر ، واثقا من الله بانجاز عدة النصر .

(١) عباديد : أى فرق (مجموعات) .

(٢) لبايد : جمع لبيد وهو الجولق أو الخلاة .

(٣) الناقورة : قرية ساحلية في لبنان على الحدود بين لبنان وفلسطين .

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخى جاولى حتى استشهد هو وأصحابه
 ويوم رحيلنا من صور نعى (محمود أخو جاولى) ، وكان من جملة
 الأمراء أعف ولى ولى . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد ، وقضى صابرا
 مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ، أن السلطان لعلمه بديانته وأمانته ؛
 وبأسه وبسالته ؛ ويقظته ونهضته وحزامة ؛ وكله بحصن كوكب الذى على الغور
 وكانت فيها جمره الاستبارية القرية الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم ،
 واشتدوا بمنعتهم . وهو حصن لا يرام ، وركن لا يضام ، ومعقل لا يسامى
 ولا يسام . وخروة لا تفرع ، ومرورة لا تفرع ، وعقيلة لا تفرع . وبكر
 لا تختب ، وقلعة لا تطلب .

ولما ملك الساحل ، وهلك الباطل ، ونظمت الحصون فى سلك الحصول
 وظفر الاسلام بالفتح المأمون المأمول ، وافتتحت طبرية وأعمالها ، وتملكت
 أغوار تلك البلاد وجبالها ، تمنعت قلعتنا صمد بالدوايه وكوكب بالاستباريه
 وتعلر فتحهما ، وتعرر منحهما ، ووقف أمرهما ، وأعدى البلاد ضرهما ،
 فرتب على صمد جماعة يعرفون بالناصرية ، من أهل الأية والنخوة والحمية .
 ومقدمهم (مسعود الصلتى) أصلتت سعادته منه سيفا لإصليتا ، لا يلفت عن
 لقاء العدو ليتا .

ورتب على كوكب هذا (محمودا) ، وكان بهما أمر الحفظ محمودا .
 وذلك بعد الكسرة ، وصحة النصره . فأحاطا بالحصنين واحتاطا ، وظهرت
 كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا والاحتياط مستقرا . حتى
 أنس محمود بضعف أهل الحصن ، وظن أنهم فى غاية الوهن . وسكن
 إلى سكونهم ، وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما
 حذب ، واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم ، وخلا من العزم . واحتقر
 عدوه ، وحسب من العجز هدهه .

وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا (١) ، قد أقام

(١) عفر بلا : بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (ياقوت ج ١٤ : ١٣١ ط . ب)

به جاما جامعا فيه ما أمرّ وحلا. وكان ذا دين متين ، ومكان من النسك ممكن . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا ، وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله ، يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال ، وهى ليلة ذات أهوال ، مظلمة ملهمة كافرة مكفهرة ، ليلاء قتساء ، باردة مةشعرة ، أنوارها بائدة ، وأنوارها جائدة ، وهزيع جناحها دجوجى (١) ، وهزيم ودقها (٢) لحتى ، وسحبها سحم (٣) ، وأقطارها دهم . وصيرها صيب ، وصنبرها مشيب ، لا يفرق فيها السماء من الأرض (ظلمتات بعضها فوق بعض (٤)) خرج أهل كوكب وقت السحر ، ومضوا إليه وقد رقد بعد طول السهر . والناس رقاد ، والحراس هجود ، والجنود جمود ، والأنفاس خمود ، والهمم رقاد . والسيوف أمرار أضمرتها الغمود ، والعلم قد دنا منه الوجود .

فما أحس محمود المحمود ، وأصحابه الحمود ، إلا بالفرنج وقد سلكوا إليهم ، وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع ، ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة ، وفجأتهم الشهادة . وبقى الأمير حتى استشهد محصورا ، (وكان أمر الله قدرا مقدورا (٥)) . وتقاوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع ، وخيل وكراع (٦) .

فلما عرف السلطان ما أصابهم ؛ احتسب عند الله مصابهم ؛ وأحمد إلى اللجنة مآبهم . فندب إلى كوكب (صارم الدين قايمز النجمى) — الصارم المخدّم ، والحازم المقدم . والغضب (٧) البتار ، والتدب (٨) المغوار . والأسد

(١) منظم .

(٢) ودقها لحتى . : مطرها دائم .

(٣) سحم : جمع اسحم ، أى أسود .

(٤) الآية ٤٠ سورة النور .

(٥) الآية ٣٨ سورة الأحزاب .

(٦) بقر وغنم وحدير وبغال .

(٧) السيف القاطع .

(٨) التدب : المغوار من الرجال الكثير الغارات ، الدريع إلى الفضائل ، الخفيف فى

الحاجة لأنه إذا ندب إليه حف لقصاتها .

الأسد ، والأحمى الأحمد . فى خمسمائة فارس من ذوى النجدة ، والبأس
والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها ، ومنع من الدخول إليها والخروج
منها . ولم يزل عليها مقيما ولحصرها مستديما ؛ إلى أن يسر الله فتحها ؛
وسهل للآمال فيها نجاحها . وسندكر ذلك فى موضعه ، وكيف أشرق صبح
النصر من مطلعته .

ذكر ماجرى بعد نزول السلطان على عكاه بعد عوده من صور

استأذن (الملك الظاهر) والده في العود إلى حلب فأذن له وودعه ،
بعد ما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبه .
وودع (الملك العادل) وأوجه إلى مصر ، مستقبل الظفر والنصر . وأقام
(الملك الأفضل) بعكاه مستقلا بالآراء ، مستهلا بالآلاء ، مستبدا بتدبير
أسباب الهدى ، مستعدا لتدمير أحزاب العدا .

وأقمتا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين ، ولإقامة شرائطها مداومين .
وكل يطلب اذنا في الانصراف ، ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف
من عندنا من الجند ، وثقل علينا عبء البرد . وتناوحت الموج (١) ،
وتراوحت الثلوج ، ورجت الدرّوج (٢) ، ونجت التّووج (٣) . وارتجز
عجاج الودق ، وارتجز ثجاج البرق . وجفت الحرجف (٤) ، وطفح
الأوطف (٥) . وتقطعت الخيام وتقلعت الأوتاد ، وتجلت بأبراد الجليد من
البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق ، ودام تواصل البوارق
والبوارق .

ودخل السلطان إلى المدينة ، وسكن بها في كنف السكينة ، مستقيما على
المحبة المستيينة ، مقيما للحجة المتينة . وشرع في إعداد العدد ، واستمداد
المدد . وابرأم معاهد الحل والعقد ، واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء
سنة السماح والفضل ، واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام
واكرام الوفود ، واعادة ما بدأ به من إفاضة الجود . واجازة الراجين ،
واجارة اللاجين ، واسعاف العافين ، وإبعاد العادين . وادناء أهل العلم ،
واغناء ذوى العلم . وانجاح المقاصد ، وانجاز المواعد .

(١) الموج : واحدها هوجاه وهى الرياح التى لا تستوى فى هبوبها وتقلع البيوت .

(٢) رجّت الدرّوج : تحركت الرياح السريعة المورور .

(٣) نجت التّووج : أسرع الرياح الشديدة .

(٤) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الميوب .

(٥) السحاب القريب من الأرض .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق ، عاكفين على بابه ، قاطفين جني جنباه ، واقفين لرفع حجابه . مستسعين لنعامته ، مستعطفين لإبائه . متعرضين لثوابه ، متضرعين في خطابه . وكلهم يهتبه بما أقرده الله بنضيلته ، وخصه بنجح وسيلته ، وأقرده عليه وقد عجز عنه الملوك ، وهدهاه إلى سبيله وقد تغذر بهم إليه السلوك ؛ وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الأولى ، وتفاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى .

فما منهم إلا من يعترف بيمينه ويعترف من يمه : ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة ويخاطب في الصدق ، ويحقق المظاهرة لآظهار الحق ، ويتقرب بالوفاء والوفاق ، ويتباعد عن الشقاء والشقاق .

ومن جملتهم رسول صاحب الرى (قتلغ إينانج ين بهلوان) ، ورسول (قزل أرسلان (١) - المستولى على ممالك همذان (٢) وأذربيجان وأران (٣) - وهو (عز الدين الطالبي) - الطالب للعز ، الراغب في الفوز .

فما من يوم يمضى ؛ وشهر يتقضى ؛ إلا ويصل منهم رسول ، ويتصل به سول . وتنجلي غمة ، وتنجلي نعمة . وتنتجى بشرى وتستبشر وجوه ، ويكف مكر ويكفي مكروه .

ونظر في أحوال حكاء فرتبها ، وفي أمورها فهذبها : وفي مضارها

(١) قزل أرسلان : هو ابن أيلدكر ، مظفر الدين ، ملك أذربيجان ، وأران وهمدان ، وأصبهان ، والرى ، كان قد خلف أخاه بهلوان محمد ٥٨٢ هـ ، قتل غيلة على فراشه ٥٨٦ هـ (شلوات الذهب ج ٤) .

(٢) همذان : إحدى مدن إيران .

(٣) أران : صنع من أصقاع أرمينية بينها وبين أذربيجان نهر الرس ، فكل ما شماله وغربه من أران . وأران قلعة مشهورة من نواحي قزوین (ياقوت ج ٢ : ١٣٦ ط . ب)

فأذهبها ، وفي منافعها فقرها . وولى (عز الدين جرديك) بها واليا ، وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الأفضل حاليا . ووقف بها وقوفا ، وأجنى المستحقين منها قطوفا ، وأسدى معروفًا ، وأعطى ألوفًا ، وأرغم من الأعداء أنوفا ، وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاستاررباطا للمتصوفة ، وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة ، ونصفها مدرسة للمتفهمة ، وللطلبة المتعفة المنتزعة . فجمع بين العلم والعمل ، والنجح والأمل ، وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الأسقف يمارستان المرضى وأنى بكل ما يجه الله وبه يرضى .

فلم يبق سنة لإاخذها ، ولامنة لإاقلدها . ولاأجرا لإأجراه ، ولاهدى لإأهداه . ولا أمرا لإأمره ، ولادراً لإأدره . ولافرضة لإأأداها ، ولا فضيلة لإأأاها . ولافرصة صواب لإأأنتهزها ، ولا حصة ثواب لإأأحرزها . ولا رمم (١) فواضل لإأأنشرها ونشرها ، ولا أمم فضائل لإأأحشدها وحشرها . وما ترك قارئاً لإأأقراه ، ولا راويا لإأأشبعه وأرواه . ولا حافظ حديث لإأأحفظه من الحدثنان ، ولا محسن صنعة لإأأصطنعه بالإحسان . ولا ناظم مدائح لإأأنظم له المناجح . ولا وافيا بقريض لإأأوفي قروضه ، وأعجز عن القيام بحمل حمده نهوضه .

وتقدم إلى الوالى بالتردد فى الأعمال ، وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال . وتعليل السقيم وتسقيم المعتل ؛ وتحليل العقد وتعقيد المنحل . فاستمرت بولايته الولاية ، واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفانيق (٢) الآفاق ، ودارت أسواق الأرزاق .

(١) رم : بال متقطع .

(٢) أفانيق : جمع فيق والمقصود خيراته واحساناته .

ذكر وصول أخى تاج الدين أبى بكر حامد من دار الخلافة للرسالة
فى العتب على أحداث ثقلت . وأحاديث ثقلت . ووشايات أثمرت
وأرثت (١) . وسعايات فى السلطان عشت (٢) . فى الأحوال وشعثت
وذلك فى شوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزاع

(ذكر السبب فى ذلك)

لما تم الفتح الأكبر ؛ وخص وعم النجح الأظهر ؛ وقطع دابر المشركين ؛
وحط لإقبال المسلمين أوزار ادبار الكفر بخطين ؛ أمرنى السلطان بإنشاء
كتب البشائر إلى الآفاق ، وتقديم البشرى به إلى العراق . فقلت « هذا فتح
كريم ، ومنح من الله عظيم ، وملك عقيم ، وسمو وسيم . فلا يجب أن يكون
مبشر دار الخلافة ، بما أنزله الله لنا من الرحمة والرفقة ؛ إلا من هو عندنا
أجل وأجلى ، وأعلم وأعلى ، وأجمع لفنون الفضائل ، وأعرف بأداء
الرسائل . فلا توجه بهذه الكرامة إلا الكريم الوجيه ، ولا تنبه لهذه المقامة
إلا القويم النبيه . ولا ترفع العظيم إلا بالعظيم الرفيع ، فان الشريف يتضع
شرفه بمقارنة الوضع » . فقال « هذه نصرة مبتكرة بكرت ، وموهبة
ميسرة بلدت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا ، ونؤخر للاجلال كما
ذكرت سفيرا » .

وكان فى الخلعة شاب بغدادى من الأجناد ، قد هاجر للاسترفاد .
وتوجه بعد وصوله ، ونبه بعد خموله . فسأل فى البشارة إلى بغداد . وزعم
أنه يداوم إليها الاغذاذ . وشفع له جماعة من الأكابر ، حتى خص بأشرف
البشائر . فقلت « هذا لا يحصل له وقع ، ولا يصل إليه نفع . والواجب أن
يسير فى هذا الخطير خطير ، وفى هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول
من يندب للتفهيم والتفخيم ، ويرتب فى الأمر العظيم للتعظيم » .

(١) أوقد نار الفتنة .

(٢) عشت : عشت الحية فلانا عشتة والمقصود أنه أصابه بشرها وما نتج عنها من أذى .

ثم سار المندوب ، وشغلت عن ارسال سواد الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس أرسل بشارته نجاب ، ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندى فلم تجلب به على كثرة الجلالة من امدى المدي . وحقروه وما وقروه . فانه كان عندهم بعين فظروه بتلك العين ، وجبوه بما يليق به من الرقة والعين . ونظم على السلطان ارسال مثله ، وأنه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة بأهله . وتسمع المندوب بكلام أخذ عليه ، وبلدت منه أحاديث نسبت إليه . وقال في سكره وحالة نكره ، ما يعرض عن ذكره . فخيّل وموه ، وتنكر وتكره . وظن أن لكلامه أصلا ولقطعه منّا وصلا . وأنهيت إلى العرض الأشرف مقالاته ، وعلمت جهالاته .

وتجسّى على السلطان بارساله ، وطرق إلى هداه ما أنكره من مقال المذكور وضلّاه . ووجد الأعداء حينئذ إلى السعاية طريقا ، وطلبوا لشمل استسعاده بالخلمة تقريبا . واختلقوا أضاليل ، ولفقوا أباطيل . وقالوا : هذا يزعم أنه يقرب الدولة ، ويغلب الصولة . وأنه ينعت بالملك الناصر ، نعت الإمام الناصر ، ويدل بما له من القوة والعساكر .

فأشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه ، وبرز الأمر المطاع بارسال أخى وانفاذه ، وقالوا : هذا تاج الدين أخو العماد ، يكفل لنا في كشف سر الأمر بالمراد . فان أخاه هناك مطلع على الأسرار ، وهو منتظم في سلك الأولياء الأبرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة ، ورد معه جواب البشارة . وكتب له تذكرة بموجبات مقاصد العتب ، ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنة ، والمعاتبه مع شدتها للعواطف الأمامية ليّنة . ونشر الاعتاب في طي العتاب ، وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد المهوبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ إلى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الأخ ، فصار وهو يبلخ . وقد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام ذبلا ، ولحف من نور الأهبة العباسية نهارا وليلا . فوصل السير بالسررى ، وقطع الوهاد والذرا . وجاء إلى دمشق بشاره راتقة ، وبشارة راتعة ، وإشارة رادعة . وشعار مهيب ، وشرع مصيب . وهيبة

روعة امامية ، وهينة عصمة عظامية . وفرند نبوى لاينبو ، وزند وري لاينكيو . ولسان فى الصرامة جرى ، وجنان بالشهامة حرى . وبلاغة بايلاغ مائيس بلاغ . وفئة وافية ، وصيغة بصياغة كل غريبة قول ورغية طول كافلة كافية . وسنى نور وقار يستعير منه سنير (١) ، وثبات خلق يتخاق به ثبير (٢) .

وكان قد عاد المنسوب ناديا عاديا ، جاحدا للنعمة شاكيا . ذاكرا أنه عدم الحفاظ ، ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حرّك شتام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض ، وخطب مقد وغضب ممض . ولفظ فظ ، وحض على غير حظ . ومعه الملامات المولّات ، والظلمات المظلمات فقلت له « اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولا تتخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا بعشك فاجرح » .

وقلت للسطان « سمعا وطاعة لأمر الديوان ، فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان » . فقال « نعم ما قلت ، وقد طلّمتُ بارسال أخيك وطلّمتُ ، وما أسعدنى إذا شرفت بالعتاب ، واسعفت بالخطاب ، والمملوك يتفعه التأديب ، ويزعه التهذيب . على أننا لم نأت إلا بكل ما قوى الهدى وأضعف العدا ، وكف الكفر وأذن الدين ، وما زانا فى طاعة أمير المؤمنين مجدين .

أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعى وفرخت ، أما استأنفنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت . أما استخلصتُ اليمن وللدعى بها داع ، وللهدى فيها ناع ، وللضلال منها راع . أما أرحتُ من رق الشرك الساحل ، أما أزحتُ عن حق الملك الباطل . أما فتحنتُ البيت المقدس وألحقته بالبيت الحرام ، وألحقته رداء الاكرام ، وأعدت إلى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعيتُ الغرب بغرب (٣) عزمى ، ووزعت الشرق بشرع حكمتى . وما تعبدتُ إلا بالعبودية للدار العزيزة ، وهذه القطورة

(١) سنير : شرس الخلق .

(٢) من فى خلقه سوء وشر .

(٣) غرب : حدة ونشاط .

متمكنة منى فى الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول وبالسلول ، وحبًا ومرحبًا بالاقبال واثقبول . وما أن إلا بالحب والحبور ، وإلمرار الأمور ، ولاظهار سر السرور . والبارق يشام إذا رعد ، والصادق يرام إذا وعد . وما أسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة . وأبرنا بالجد وأجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ما هدى سمعى ، وأبدى لمعى ، وجمع شملى وشمل بالعز جمعى .

ولما قرب أحنى ، أصبحت لتدومه أنتخى . فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم لجلالة قلوبه باجلاله . ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبه بأسه . ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ، ومصارع الكفار . ومواطن أقدام ذوى الإقدام ، ومواطن بسالة أهل الاسلام . ثم نزل وأنزله بالقرب ، وعقد له بالحباء حبًا الحب . وسفر وجهه لوجاهة السفير ، وأحل محل التوقير والتوفير . وتباج له صبح اتبجيل ، وتأمل منه نيج التأميل . ثم حضر عنده ، وقد أخلى مجلسه لى وله وحده . فأدى الأمانة فى مشافهته ، ووجه مقاصده فى مواجهته .

وأحضر التذكرة ، وقد جمعت المعرفة والنكرة . فقرأها عليه بفصولها وفصولها ، وأزمته حكيمى عمومها وخصوصها ، ووقفته على ظواهرها ونصوصها . وكانت فى الكتب غلظة عدت من الكاتب غلظة ، وخيلت سقطه ، وجلبت سخطه . وقال « ان الامام أجل أن يأمر بهذه الألفاظ القفاظ ، والأسجاع التلاظ . فقد أمكن ابداع هذه المعانى فى أرق منها لفظا وأرقق ، وأوفى منها فضلا وأوفق . ومعاذ الله أن يحبط عملى ، ويهبط أملى » .

وامتعض وارتمض (١) ، ثم أعرض عما عرض . ورجع إلى الاستعفاف وانتجع بارق الاستسعاف . وقال « أما ما تمحله الأعداء وعدا به المتمحلون (٢) ، وتنفق به المتقولون ؛ وتسوق المنطلون ؛ فمأعرف منى إلا الاعتراف بالعارفة ، وما هزرت (٣) منذ اعترزت اعطاف العز إلا لما يعزنى من العاطفة . وإن

(١) ارتعض من الحزن . : احترق .

(٢) أصحاب الكيد والتديبة .

(٣) أى لم أكن غير جاد .

شرفي بالنعمة السالفة ؛ يوجب أنني من هذه الآتفة . وأما النعمة الذي أنكر ،
 ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر ، فهذا من عهد الإمام المستضيء رضوان
 الله عليه - وجرى لتحقيقه مني على الألسنة ، ومتى عدّ سيئة ما عد من
 الحسنة . والآن كل ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فانه اسمي الذي
 هو أسمى وأشرف ، وأطراً وأطرف ، وأرفع وأعرف .

وما زاده ذلك العتب الاخلاص ولاء ، وخصوص اعتزاز واعتزاه (١) ثم
 قال « كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر أعداء أمير المؤمنين فلنما طلبت به
 وجه الله ورضاه ، ما تعبدت به سواه . فاني أقرض الطاعة الامامية
 للدين لا للدنيا ، وما أنتوى فيها إلا بالتقوى . وما في عزمي إلا استكمال
 الفتوح لأمير المؤمنين ، وقطع دابر المنافقين والمشركين . وإذا عادت عواطفه
 عطفت على في الحسن العوائد ، وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت
 المقاصد ، وبعد الأبعاد ، وبعد الحاسد الحاشد . وهجر هجر الساعي
 وأجرى أجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر ذعر الخاشي ، وجرب
 غش الغاشي ، وخرب عش العاشي . وذوت هموم ذوى المهمم ، وأوليت
 كرامة أولى الكرم » .

وما زال السلطان مدة مقام أخى عنده ، يورى في اعظامه زنده
 ويأمر باكرامه جنده . فكنت أشفق من تكدر ذات الين بعد
 الأنس والوصلة إلى الوحشة والين . وأن جماعة من الأكابر اجتمعوا
 بالسلطان ، وقالوا له « قد نسب حقلك إلى البطلان ، ورميت بالبهتان ،
 ولمحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت وما عفت ، وأفتت وما أنفت ،
 ورغت وما غرت ، وصبرت وما سبرت ، وأغضبت لما أغضبت ، وأعتبت
 لما عوتبت ، وراقبت وما روقبت » .

فقال « تल्ली للديوان العزيز تعزز به أدين ، وتوسلى إلى مرضاته
 توصل بالله فيه أستعين . فتواضعي ترفع ، وتحشعي تورع . وحبل حبي متين ،
 ومكان قربي مكين » . وما قلت له وأوضححت له سبله « إنا كنا بطاعة أمير

(١) اعتزاه : فله اعتزى : انتسب صدقاً أو كذباً . إلى فلان .

المؤمنين نطول ونصول ، ونزاول بها الملوك وعنها لانزول . وهذه فضيلتنا التي رجحت ، ووسيلتنا التي نجحت . وكنا بها مسعودين ، وعليها محسودين . وقد شملت بها بركاتنا ، وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وصفت مدارع حسنها . فلا تلتفت إلى من يلفتك ، ولا تثبت لمن لا يثبتك . وأعرض عن تعرض للذهب الخلاف ، وانهض لمن ينهضك للاتلاف . « فقال هذا ديني ودينتي ، وبه أعني وأعتني ، ولنوره ولنوره أجتلي وأجتني » .

ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وأمر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما في النفس . وبالغ في إبداء التصرع والتدرع ، واظهار التخشى والتخضع .

وأنشأت عنه إلى الديوان كتباً معه وبعده ، ضمنتها كل ما حلا وجلا جدةً وجودةً . وكل ما يبطل سوق المتنفقين ، ويعطل نفاق المتسوقين ، ويهجن خلق المختلفين ، ويزيل تلفيق الساعين ، ويزيح سعاية الملققين . ويتعرف إلى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعدر . ويجهد في استمراغ المجهود للاستغفار . وينفض عن وجه البشر ما عليه من لغبار . وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ، ومضى ما مضى . وقضى القدر من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير (شمس الدين بن المقدم^(١)) بالموقف في عرفه ، لابداعه رسماً ما عرفه . فلذهب غلطا ، وعطب فرطاً . وذلك

(١) شمس الدين بن المقدم : هو محمد بن عبد الملك بن المقدم ، من أكابر أمراء السلطانين نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي ، كانت له مواقف مشهودة . حضر جميع الفتوحات السلطان صلاح الدين ، استأذن في الحج فأذن له صلاح الدين على كره منه ، وفي عرفات حدث خلاف بينه وبين طاشتكين ملوك الخليفة على رفع العلم ، فرماه ملوك طاشتكين فمات يوم النحر سنة ٥٨٣ هـ (النجوم الزاهرة : ج ٦ : ١٠٥ ط . دار الكتب .) .

أن أمير الحاج (طاشتكين (١)) أنكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب إليه من به وبأصحابه أوقع . فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت فترة . ولما نعى الخبر إلى السلطان ؛ لم يبد منه سوى الازعان . وقال « لاشك أن طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايجاش » . وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

(١) طاشتكين : هو الأمير مجير الدين ، طاشتكين بن عبد الله المقنوي أمير الحاج ، حج بالناس ٢٦ حجة ، وكان يسير في طريق الحج مثل الملوك ، كان شجاعا جوادا سمحا ، قليل الكلام ، يمضى عليه الأسبوع ولا يتكلم ، استغاث إليه رجل يوما فلم يكلمه فقال الرجل : الله كلم موسى ؟ فقال : وأنت موسى ؟ فرد الرجل : وأنت الله ؟ ففرض حاجته . ومن حله ، أن رجلا استغاث إليه من أحد نوابه فلم يجبه . فقال الرجل : أنت حمار فقال طاشتكين : لا . كانت « الحلة » أقطاعه ، وكان الخليفة قد ولاه « خوزستان » وكان يتشيع ، توفي سنة ٦٠٢ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٩٠ ط . دار الكتب) و (أبو الفداء ج ٣ : ١٠٧ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

نسخة كتاب جامع للفتح القلبي الأيمن

أنشأها الى سيف الاسلام (١)

أجى السلطان باليمن

صدرت هذه المكتابة إلى المجلس السامي ضاعف الله علاه ، وظاهر آلاه ، وضافر نعماه وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده وأعز أوليائه ، وأذل أعدائه . ولا زالت أيامه بالأيمان مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مشرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ومعاهد معاديه بقهر النعم مقفرة . دالة على البشرية بالفتح الأكبر ، والنجح الأزهر ، والنصر الأشهر ، والعصر الأبر ، والفضل الأكثر ، والافضال الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر الأسفر ، والفخر الأظهر ، والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الأبلج الأبلخ (٢) . والعز الأسقم (٣) الأسمى ، والنور الأنم الأنمي . والنظر الأجل الأجل ، والوטר الأجل الأجلي . والشرف الأسم الأسمي ، والعزم الأغم الأغني ، والسعد الأجد الأجدى ، والصيت الأبدى الأبدى .

وهو الفتح الذى تفوح بمحابه مهاب الفتوح ، وتبوح بسرّ روحه وملكه سراير الملائكة والروح ، وتروح وتغلو غواذى النعم وروائحها الى روض الهدى المروح ، وتلوح تباشير بشره فى لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح ، وتروح ناعية الكفر فى كل ناحية ولكل نادبة للأسى على قتيلاها وأسيرها ندوب فى القلب المقروح .
وهو فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه ،

(١) هو سيف الاسلام ، ظهر الدين ، طفتكين بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، كان والى اليمن ، وقد ملكها من زبيد إلى حضرموت ، وكان مقداما شجاعا شهيا ، توفى بزبيد ٥٩٤ هـ وخلفه ابنه شمس الملوك اسماعيل (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٢) .

(٢) الأبلخ : العظيم المتكبر . والمقصود أنه عبد عظيم يدعو إلى الكبرياء .

(٣) الأسقم : الساق ، وهو الخالص البحت .

وطال في أسره سجنه ، واستحكم وهنه . وقوى نكره ، وضعف ركنه . وزاد حزنه ، وزال حسنه ، وأجلبت من الهدى أرضه ، وأخلف وزنه ، وواصله خوفه ، وفارقه أمنه ، واشتغل خاطر الاسلام بسببه (١) ، وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد ، الذي تعالى عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يبى مته .

ودرج الملوك الأقدمون على تمنى استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواده ، وكان في الغيب (٢) الالهي أن معاده في الآخرة الى معاده وأن نفاذ ايل الشرك بإسفار صبح أمرنا واشراق مطالع نفاذه . ودخر الله هذه الفضيلة لنا ولهذا العصر ، وأنزل على نصلنا نص النصر ، وأطاع ليل عزمنا فجر الفخر ، ووقفنا لوصل أسباب الاسلام وقطع دابر الكفر .

وذلك أنا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع أهل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث . وخرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم ، والرعب المجهز الى الكفر والبأس المقدم . وكنا أشفقنا على طريق الحج من قصد القرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم ، وتصدينا بلجهادهم بردهم عن المراد وصددهم . وأقمنا بظاهر بصري مخيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمتنا سلك امدادهم في ذلك المسلك حتى وصل الحاج سالما ، وذل الكفر عن قصده راغما .

ولما فرغ القلب من شغله ؛ وفاز كل يجمع شمله بأهله ؛ سرنا الى الكرك في الأمراء والمفردين الخواص ، وشفعنا للجهاد في سبيل الله الفاتحة بالاخلاص . وقد كنا استدعينا العساكر والجموع لنجهاد من جميع الجهات ، وترقنا توافيهم بالمقات . وأمرنا ولدنا الملك الأفضل أن يقيم برأس الماء (٣) . ويكون في خدمته جميع الأمراء . وسرنا الى الكرك والشوبك فأخربنا عماراتها ، وأحرقنا غلاتها ، وقطعنا ثمراتها . وأزعجنا ساكنيها ،

(١) في ب لسببه والتصحيح من ل .

(٢) في ب يغيب والتصحيح من ل .

(٣) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب في حوران ، على بعد نحو عشرين ميلا شمال درما

(The Damascus Chronicle P. 306)

وأخفنا آمنيتها ، وأجينا عنها فلاحها ، وأقمنا التوائح عليها في نواحيها .

ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ،
فقويت به قلوب الأمة المحمدية . واجتمع بالمخيم الأفضلى ، برأس الماء
من وصل من العساكر الشامية والقراتية ، والجزرية والموصلية والديار
بكرية . فانتهز ولدنا هناك فرصة الامكان ، وأنهض الى الكفر سرية (١)
سرية (٢) من أهل الايمان . فساروا سارين (٣) ، وأغاروا غارين (٤)
وأخلوا ونهبوا ، وسبوا وسلبوا . فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد
سدت عليهم الطريق ، وأخذت دون خروجهم الى السعة المضيق ،
فثبتوا ثبوت الجبال بالرياح العواصف ، وشرعوا الى عرازين الكفر أسنة
الرماح القواصف .

وكان مقدم عسكرنا (مظفر الدين بن زين الدين) (٥) ومعه مملوكنا
(تايماز النجمى صارم الدين) . فلقيا بصلريهما صدور العوامل ، وحملا
في عسكرنا على الفارمن والراجل . وحصل الفرنج منهم في دائرة الردى ،
وخذل الضلال ونصر الهدى . وكثر من الفرنج القتل والأسرى ، وعاد
المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد
الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الأخرى .

ولما قضينا الوطر (٦) من تلك البلاد ، ووفينا باحراق أقوات أهل
النار بالنار حق الجهاد ، اجتمعنا باصحابنا القادمين من مصر ، وتناصرت
الدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر ، وعدنا (٧) إلى الشام ؛
وقد تكاملت به جموع الاسلام ؛ وزخر بحر الفضاء بأمواج الأعلام ؛

(١) سرية : القسم من الجيش .

(٢) سرية : السرى . هو صاحب السخاء والمروءة في شرف .

(٣) أى ساروا في سرية . وتماز القوم : تتاجوا وأطلع بعضهم بعضا على سر ما .

(٤) أى على غرة .

(٥) المقصود بمظفر الدين كوكبورى ؛ بن زين الدين صاحب أربيل وقد سبقت ترجمته .

(٦) الحاجة والبيعة .

(٧) زيادة الوار اقتضاها السياق .

وظفا على أنباج (١) بلحة حجاب الخيام ؛ وقد قضى القضاء ختام القتام :
وسلق بالقلق من ذلك الفيلق غرام الرغام (٢) . فخمينا بمتشرا شهرا ؛
وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا ؛ وخطبنا من الله الكريم فتح
يكر جعلنا بذلك المهج لها مهرا .

وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا ؛ ونادوا في بلادهم فأسمعوا .
واجتمعوا على صفورية من صفر ، وحشروا في تلك الأشهر من جمعهم
في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلوت ، وقائد أهل الجيروت .
فتهاقت الى شعلة ناره فراشهم ، وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم (٣) . وقاموا
وقيامة رعبهم قائمة ، وسوايح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلاتهم
سارية وسرايهم طالعة ، ومقدمات رعبهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم
مقضة خالعة .

فلما تكامل منا الجمع ؛ وأخذ بعجاجة وعجيجه على الآفاق البصر
والسمع ؛ عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض ، ويتلو مشاهد
لنزل اللاتكة (والله جنود السماوات والأرض (٤)) ، في رايات خافقة
كتلوب الأعداء ، عالية كهمم الأولياء ، وسرنا في جموع ضاق
بها واسع القضاء ، وسار في كتابها نازل القضاء ، وسحب ذيل الأرض
بُحثار نفعها على السماء . وقطعتنا الأردن وتأييد الله موصل ، وقلده باقدارنا
على الأعداء كافل . فما ألمنا بطبزية حتى فتحناها بالسيف ، ودخلناها دخول
المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا المدينة ، ونازلنا قلعها البكر الحصينة .
وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر ، والخميس (٥) يوم
الخميس . وأسد الوغى قد اتخذت من وشيجها العريس .

(١) في ب اتباع والتصحيح من ل ، والانباج جمع نبيج وهو أهل الشيء أو معظمه أو
وسطه .

(٢) التراب ، الرمل المختلطة بالتراب .

(٣) الخشاش ، حشرات الأرض والمصافير ونحوها والمقصود الضعفاء والردى منهم .

(٤) الآية ٧ سورة الفتح .

(٥) الخميس : الجيش وقد ذكر أبو البقاء في كلياته أنه من ٤٠٠ إلى ١٢٠٠٠ جندي .

كما جاء في لسان العرب أنه الجيش الجرار .

هذا والملك العادل عنا غائب ، ومعه أيضا بمصر كتاب ، وتوفيق الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية ، أن نلأق الفرنج على صفورية . في مركزهم ومجمعهم ، ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانة ؛ وتمسكنا من الله بالاستجد والاستعانة ، ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج في مجمعهم ، وأشرفنا عليهم في موضعهم . فما برحوا من مكانهم ، ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم .

وارتدنا في صحراء لوية موضعا للمصاف واسعا ، وفضاء لازق الجمعين جامعا . وبتنا هناك بأطلاب الأبطال ميمنة وميسرة ، ووجدنا بتأييد الله أسباب الظهور ميسرة . وجئنا في خواصنا والجنادرية ، ونزلنا في العدة المجردة على طبرية . وأخذ الثقابون ساعة النزول في النقب ، فصرع قائم سورها للجنب ، ودخل الناس اليها ليلا للنهب . وكانت ليلة مدلحة معتمة ، وأرجاء المدينة مظلمة ، فأشعلوا وأوقدوا(1) ، ودخلوا الدور وتفقدوا ما لم يفقدوا .

وكانت بها حواصل من زفت وكان علقنت بها النار ، فاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصن أهلها بقلعتها ، وتمنعوا بمنعتها . فأصبحتنا على حصرها ، وسلبكتنا جلد الجلد في أمرها .

فجاءت رسل الأمراء أن الفرنج قد تحركت ، وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملككت ، وأدركهم الندم كيف تركت وما أدركت : وأنها قد عبت جنودها ، وشبت وقودها ، وأبت نداء جموعها ، وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران سوابغها السابرية ، وفاضت ببحار سوابجها الأعوجية .

وأن جمرهم قد استعر ، وأن بجرهم قد زخر ، وأنهم قد أتوا في عددهم وعديدهم ، وحدهم وحديدتهم ، وخيلهم ورجلهم ، وظلمهم وويلهم ، وفارسهم ورجالهم ، وأحزاب ضلالهم وأبطال باطلهم . وأنهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية ؛ وسبقنا بفضيلة فتحها البرية ،

(1) في ب أوقدا والتصحيح من ل .

غاروا على العقيلة السبية؛ وأشعلت نحرهم نار الحمية ، وساقوا (أنفسهم) إلى معرك الردى وملتي المنية .

ولما عرفنا قريهم ؛ فصلدنا حربهم . وزحفنا إليهم ، وأشرفنا عليهم .
واللجب السارى كالجلبل الراسى ، وقد أفاض الحديد من قلبه على الحجر القاسى . ولعت بوارق يبارقه ، وراعت طوارق طوارقه . وبرقت قوائس (١) قوامصه (٢) ، وارتعدت فرائص فرائصه : وأمكنت فرائص فوارسه ، وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلامته ، واشتعلت نيران قواضيه . وشدت الأجادل (٣) دون صوار (٤) صوارمه (٥) وسدت بعرض أفواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الألفات بلاماته ، وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنمنا الفرصة فى اللقاء ، وهجنا الى المهيجاء . وأسرعت الأعمنة ، وأشرفت الأسته . ونقع النقع أوام الجوى، وأجاب الصلدى حوى الدو . وجال الجاليش ، وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوايق ، واستعبرت عيون البوارق . ولقيناهم فى عرمم عارم ، ومحجر جار وعوامل جوازم ، وصواهل صلادم . وضراغم ضوار ، وجوارح جوار . وأسود قد اعتملت أسود ، وجياد قد حملت أجاود . وسوايح قد آلت بجورا ، وصقور قد ركبت صقورا .

وأوقتناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك ، وبازلهم (٦) لا يرك . وصفهم لا ينفص ، وجدارهم لا ينفص . وبنياهم مرصوص ،

(١) قوائس : واحدها قنس وهو أعلى الرأس .

(٢) للقوامص : واحدها قمص وهى الفرس .

(٣) الأجادل : اللدوع المحكمة .

(٤) صوار يقال . صرت الفصن لأجنى الثمر أى أمله .

(٥) صوارمه : الصارم هو الشجاع أو الأسد أو السيف القاطع .

(٦) بازلهم : بزل العير ، انشق نابه ، أو بزل ناب البير ، طلع فهو أرمى بازل :

العير أو الناقة .

وظائرهم عن الطيران محصوص (١) . حتى دخل الليل ، وقر في الوادي ذلك السيل . وبات القريقان على تعبيتهما ، واجابة داعي الموت بتليتهما .
وأصبحنا يوم السبت وأهل الأحد على حالهم ، لم يربوا موضع قتالهم . وما زالت الحملات تتناوب ، والأسلات (٢) تتواوب وتتناوب (٣) .
والسواعد بقرع الظبا سواع ، والرواعف في زرع الظل رواع . والمنايا تن ، والحنايا تمن . والبيض تصافح البيض صفاحها ، والذكور لتتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والنوابل في أشاجع الشجعان ذواب ، والصورام بجوامح النيران شواب . وضمانر الغمود قد باحت بأسرارها ، ونواظر الجفون قد تحلت عن غرارها (٤) .

ولما أحسوا بأسنا ، وامرار أمراسنا ؛ والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره ، والأوام يتوقد ولا يتوتى احراقهم بأواره ، مالوا الى طلب الماء ، وأخذوا طريق البحيرة للارتواء . فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم . وحلأناهم عن الورد ، وألجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل حطين (٥) وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضي القواضب ، ونشبت من النشاب بهم نيوب النوايب . وكان جمعهم جمرا وقد وقد ، فصب عليهم السيف نهرا فحمد . وفضوا بالنضاء ، وفرشوا بالنعراء ، وعب دأماء الدماء ، وغصت الفجاج بالقتلى والأسراء .

وأسر الملك وأخوه ، والأبرنس الكركي وموازروه ، ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية وأعوانه ، وصاحب جليل وأعيانه . وهنفرى

(١) محصوص : طائر أحص الجناح أى قليل ريش الجناح والمبارة هنا كناية عن الضعف وعدم القدرة .

(٢) الاسلات : واحدها أسلة وهى الرماح .

(٣) تتناوب : تصاد .

(٤) غرارها : الفرار هنا بمعنى القليل من النوم .

(٥) حطين : هى قرية بين طبرية وعكة ، بينها وبين طبرية فرسخان ، وبالقرب منها قرية يقال لها جبارة يقال أن بها قبر شبيب عليه السلام (ياقوت ج ٧ : ٢٧٣-٢٦٤ ط . ب) .

ابن هنرى واين صاحب اسكندرونه وصاحب مرقية . (١) .

ولم يقلت الا ابن بارزان والقومص ، وتم لها من الورطة المخلص .
وكان كلاهما ملهما عند اللقاء بالقتال ، وعند الفرار بالاحتيال . فأما
القومص فانه لما مر بطرابلس أدركه الموت في برج المشيد ، ونقله القدر
المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت ، وحيز صليب
الصليوت ، وبار وياد أولياء الطاغوت ، وهلك عبدة الناسوت واللاهوت ،
وملك عليهم القدر كتاب الأجل الموقوت .

وقدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر ، وعجلنا به الى النار
مأوى أهل الغدر . وألحقنا به الداوية والاسبتارية ، وأدرنا عليهم صبرا
كوؤوس المنية . وروينا ظماء الظبي من نجيعهم وقرينا سيد القلام من صريعهم .
وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعها ، وحلانا عقدها ، وفرعنا ذروتها ، واقترعنا
عثرتها .

ثم سرنا الى عكاء ففتحناها بالأمان ، وأعلنا بها شعار الايمان . واستقرينا
بعدها البلاد الساحلية من جليل وحد طرابلس الى الداروم غير صور
فانها امتنعت بسورها ، ولم يبق في كأس انكفر غير سورها ، وانها وجدت
فسحة في أيام اشتغالنا بفتح أخواتها ، وكثفت من عدد المحاصرة آلتها .
وكننا لما فتحنا عسقلان بلدنا بالزول على القدس ، وذلك يوم الجمعة
ثالث عشر رجب ، فرجف بها قلب الكفر ووجب . وظن أهلها أنهم
يعتصمون ، وأنهم من بأسنا يسلمون .

فنصبتا عليهم منجنقات هدت أحجار السور بسورة أحجارها ،
وآذن ركوعها بسجود الأبراج في إجبارها . ووفت الصخور باصراخ
الصخرة ، وعثرت تلك القلل باقالة ما دام بها من العثرة . وكشف
التقب ونقب الأسوار ، ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار ، وعلم
الكفار لمن عقبى الدار ، وأيقنوا بالقتل والاسار .

فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان ، مبتلهين في طلب الأمان . فأبيناه

(١) مرقية : قلمة يساحل الشام قرب حمص (ياقوت ج ١٧ : ١٠٩ ط . ب)

كل الالباء ، الاسفك الدماء من الرجال وسبي الذراري والنساء . فخوروا
بقتل الأسراء ، وخراب العمران وهدم البناء . فأمناهم على قطيعة موازية
لأثمانهم لو أسروا أو سبوا . فأمنوا من أن يسلبوا وهم على الحقيقة قد
سلبوا . ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق ، ومن عجز عن أدائه
دخل تحت الرق .

وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ، ورجع بنيانه من
التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه . وبطل بنص النصر قياس
قسيسه . وفتح باب الرحمة لأهلها ، ودخلت قبة الصخرة لفضلها .
وباشرت الجباه بها مواضع سجودها ، وصافت أيدى الأولياء آثار القدم
النبوية لتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج وموطئ براقه ، ورث
نور الاسراء ومطلع اشراقه .

ودنا المسجد الأقصى للراكم والساجد ، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء
الأمجاد . وطلت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ،
وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر
رمضان مضيئا لما نهار صومها بالتسيح ، وليل فطرها بأتراويح ، وشق
الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لأجلها من تبار التباريح .

فالييت الحرام مساو للبيت المقدس ، مفدى منا كلاهما من المهج
والانفوس بالأنفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال الرجال ،
ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجال . وهو للحرمين ثالث
ولا تثليث في حرم توحيده ، فتجلدت جند الاسلام بتجديده .

ولما فرغ البال من تدبيره ؛ وقضينا حتى تقديسه وتطهيره ؛ صرنا
الى صور ، ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي صور سور الكفر وبقيته ،
وقد تحصن بسورها ومنعته شذمته . وهى مدينة حصينة ، متوسطة في
البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا عليها المنجنقات فتكأت فيها ، ورمت
من أعاليها، وهدمت من مبانيها . ولم يبق في جعبة الكفر سوى نشابها ،
وان جمحت علينا فنصرة الله وعوائله تأييده لنا تؤذن بإصحابها ، واذا
تسلمناها تسلمنا - باذن الله - كل بلد للفرنج باق ، وما لهم من عذاب
الله الواقع بهم واق .

ثم رأينا أن حصار صور يطول ، وأن مسألة بيكار (١) العسكر فيها تعول . وأن فتحها لا يفوت ، وله وقته الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل ، وأعبا وكل . وقد دخل الشتاء وبرد الهواء . وجادت السماء ، وتواترت الأنواء ، وتواصلت الأنداء . ولا بد من استئناف جمع العساكر في أيام الربيع ، واستمداد النعر الذى يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع .

ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها ، في الثغور المجاورة لها ، من يديم شن الغارات عليها ، ويواظب على النهوض إليها . وفسحنا لاجنادنا في الاستراحة مدة شهرين الى النيروز (٢) . فان في تلك الأيام تتوقر الزائم على المبارزة والبروز . وقد جرت المواعدة على المعاودة ، والمعاودة للمعاودة والمعاودة للمساعدة . فليس في الفرنج من يقاتل الآن على الخليل ، والنهار عليهم في اظلام الليل ، والعز متقلص الظل عنهم والذل ضافى الليل . وقد حزب حزبهم من حربنا مثير للحرب وانويل .

وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة ، والمعاقل المينة ، وهى : طبرية ، عكاء ، الزيب ، معليا ، اسكلدرونة ، تبين ، هونين ، الناصرة ، الطور صفورية ، القولة ، جينين ، زرعين ، دبويه ، عفر بلا ، بيسان ، مسسطية نابلس ، اللجون ، ريحا (٢) ، سنجيل (٤) ، البيرة (٥) ، يافا ، أرسوف ،

(١) بيكار : كلمة فارسية معناها الحرب (Dozy, Supp. Dict. Arabe)

و(الروضتين لابي شامه ج ٢ : ٦٤٨ تحقيق د . محمد حلمى أحمد) .

(٢) النيروز : أو النوروز رأس السنة الشمسية عند الفرس ، وكلمة نوروز معناها يوم

جديد (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب ١٩٠٨ م) .

(٣) ريحا : مدينة قرب بيت القدس من أعمال الأردن بينها وبين القدس خمسة فراسخ

(يقال لها أريحا أيضا) (ياقوت ج ٩ : ١١٢ ط . ب) .

(٤) سنجيل : ذكرت في ياقوت بنون ياه ، بليدة من نواحي فلسطين (يقال أن بها جب

يوسف عليه السلام) ياقوت (ج ١١ : ٢٦٤) .

(٥) البيرة : قلعة قرب سميساط بين حلب والثغور الواقعة على حدود الروم (آسيا الصغرى)

لها رستاق ، والمقصود هنا بلدة بين القدس ونابلس بهذا الاسم (ياقوت ١٢ ط . الخانجى) .

قيسارية ، حيفا ، صرند ، صيداء ، قلعة أبي الحسن (١) ، جبل جليل ،
 يزوت ، جبيل ، مجدل يابا ، مجدل حباب ، الداوم ، غزة ، عسقلان ،
 تل الصافية (٢) ، التل الاحمر (٣) ، الأطرون (٤) ، بيت جبريل ،
 جبل الخليل ، بيت لحم ، لد (٥) ، الرملة ، قرتية (٦) ، القدس ، صوبا (٧)
 هُرمس (٨) ، السلع (٩) ، عفرا (١٠) ، الشقيف ، ولم نذكر ماتخلها
 من القرى والضياح ، والأبراج الحصينة البحرية مجرى الحصون والقلاع .

ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع ،
 وأماكن ومواضع . قد جاس المسلمون خلالها ، واسترعوا ثمارها وغلالها .
 وقد كنا عند قصدنا البلاد ؛ وعرضنا للجهاد الأجناد ؛ كاتبنا أخانا الملك
 العادل سيف الدين أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب ، وينتظر
 كتابنا بنصر هذه الكتاب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا ،

(١) قلعة أبي الحسن : قلعة ساحلية قرب صيداء (ياقوت ١٦ : ٣٨٩ ط . ب)

(٢) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة (ياقوت
 ج ٥ : ٤٢ ط . ب) .

(٣) التل الأحمر : قرية في سورية (قضاء طرابلس) على يسار الفرات ذكرت باسم
 تل برسب في الألف الثالثة ق . م . كانت تصعد إليها السفن من وادي الفرات لتشمن خشب جبل
 طوروس .

(٤) الأطرون : بلد من نواحي فلسطين ثم من نواحي الرملة (ياقوت ج ٢ : ٢١٨ ط . ب)

(٥) لد : قرية من نواحي فلسطين قرب القدس (ياقوت ج ١٧ : ١٥ ط . ب)

(٦) قرتيا : بلد قرب بيت جبرين من نواحي فلسطين من أعمال بيت المقدس (ياقوت
 ج ١٥ : ٣٢ ط . ب) .

(٧) صوبا : من قرى بيت المقدس (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٢ ط . ب)

(٨) هُرمس . : ذكرها ياقوت هرمز : وهي قلعة بوادي موسى عليه السلام بين القدس
 والكرك (ياقوت ج ٢٠ : ٤٠٢ ط . ب) .

(٩) السلع : حصن بوادي موسى عليه السلام بقرب البيت المقدس (ياقوت ج ١٠ :
 ٢٣٦ ط . ب) .

(١٠) عفرا : أو عفربلا وهي بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (معجم البلدان ج ١٤ :
 ١٣٦ ط . ب) .

والظفر الذى أضحك الأولياء وأزعج الاعداء وأبكى ؛ وتلى عليه (قد أفلق المؤمنون (١) و (قد أفلق من تركي (٢)) ؛ كان وصل الى السوادة فى سواده وبياضه ، وبجار جيشه وبراضه (٣) وورد من مورد النصر إلى حياضه . فجاش ببيوشه ، وجاز العريش بعريشه ، وزار دار الداروم بدهورها ، وأجفلت قدامه البلاد فى كل من اعتمد عليه بأمورها .

ووصل الى يافا ففتحها عنوة ، ونال العسكر منها بالنهب والسبأ حظوة . ثم حضر مجدل يابا وحصرها ، وطلبت منه الأمان فأنظرها . وكينا اليه بالاقامة فى ذلك الجانب ، ماضى العزائم قاضى القواضب . وأن يستفتح من البلاد ما يتعجل فتحه ، ويقدم من الرجاء ما يتيسر نجحه ، إلى أن ففتح ماني جانبنا من البلاد وتسلمه ، ومنتزه فرصة الامكان فيما نحن بصددده ونغتمه .

وقد كنا أنهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية ؛ وحيفا وقيسارية ؛ من يتولى افتتاحه ، ويستقبل من مهب النصر أرواحه . فنصرهم الله على للناصره وقيسارية قسرا ، وتسلمت البواقي سلما ، ورأى من كان فيها سلامته غتما ، ورضى بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبين ويروت بالأمان ، بعد أن قاتلنا أهلها قتالا شديدا ألجأهم الى الاذعان . فأما صيداء فان صاحبها أذعن الى التسليم ، بعد أن بات منا بلبه السليم . وأما جيبيل فقد سالمها صاحبها وخلص من الأمر ، ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر .

وحيتئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان ، وهان لنا كل ما استصعب منها ودان ، وظهر لنا منها وجه الفتح وبان ، وأمكن كل ما تعذر واشتد ولان . وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب ، وأصينا فوائدها لما رميناها بمصائب . وأصمينا مقاتل الأسوار بسهام

(١) الآية ١ سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٤ سورة الأعلى .

(٣) يراضه : البراض جمع البرض وهو القليل والمضى أنه وصل فى كثير جيشه وقليله .

قسيمها ، وعاقبناها بجبالها وعصبتها ، واقتدنا بجزائم الكره أنف الطاعة من
عصبتها ، وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضى من أييها . وباشرت سهام
المجانيق بسواكها ثانيا الشرافات فهتمتها ، ونهضت أحجار الرماة إلى
أحجار البناء فهدها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب ، فرقصت
للاضطراب لا للإطراب . وعادت الحجارة إلى أصلها من التراب .

ولما أيقن أهلها بالعطب ، لاذوا بالضرعة والطلب . وخرجوا
مسلمين مستسلمين ، وانقادوا مستكينين مذعنين . وأسلم البلد وأسلم ،
وجدع أنف الكفر وأرغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه ، وقر منه
الاسلام القريب فى مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزاة ، وأعدنا اليها العزة .
وأتينا على الرملة ولد والنظرون ، وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل وجميع
تلك المعازل والحصون .

ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الأرض المقدسة ، والحمد لله على
نعمه المفرجة للكروب والطافه المنقسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية
بماهنا الله من الموهبة السنية ، وسناه من المنحة المنيية ؛ لمملوكنا حسام الدين
ستقر الخلاطى (١) ، وأمرناه أن يسير فيها من أصحابه من يقوم فيها بحق منابه .
والمجلس السامى يشيع ميامنها ببلاد اليمن ، ويجلو عروسها البكر فى
حسنتها الخالى وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التى خصصنا بها وعمت الأمة
ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمة ، لازال المجلس مشكور الشئمة ،
على الهمة ، منصور العزم إن شاء الله .

(١) ستقر الخلاطى : هو حسام الدين ، أحد مماليك صلاح الدين المملوكين توفى فى رجب

ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان صلاح الدين (١) مقيم بعكا (٢) ورييب الربيع رضيع ،
ووشى الروض وشيع ، وصنيع القدر نصيح ، وشمل الظفر جميع ، وفضاء
الفضائل وسيع ، وممراد المراد مربع ، ونسيم الأسحار لاسرار الأزهار
مذيع ، وأريج الجن العليل فى شفاء غليل الجوى شفيح . والدهر قد ثمل
وأفاق ، والزهر قد شمل الآفاق . وللمحاب مهاب ، وفى الشعاب
أعشاب . وخلود الشقائق (٣) محمرة ، وثغور الأقاليم (٤) مفترية ،
وعيون النرجس مصفرة ، وشفاء المنابع مخضرة . وأحداق الحدائق الناضرة
ناظرة ، ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت متموجة ،
وحافات المناهل متديجة . وجباه الغدران متغنضة ، وجفون النوار متوسنة ،
والأفنان مورقة والورق (٥) متفتنة . وخذ الخيرى (٦) مورد ، وخذ
المرار (٧) مجرد . وعرف البهار قد تأرج ، ووجه الجنار قد تضرج .
وعنار البنفسج قد بقل ، وعنار الزمان قد قبل . وشارب النبت قد طر (٨)
وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى وسر ، وطبى الطيب قد
حفل ودر .

وتقاضى السلطان غريم عزمه بدين الدين ، وآن أن يصحر ليث بأسه
الحادر من العرين . فأبرز مضاربه ، وجهز كتابه . وضرب سراقه ،

(١) زيادة من أ (١٠١) ساقطة فى ب و ل .

(٢) الشقائق : جمع شقيقة النسان ، وهو نبات أحمر الزهر مبقع ينقط سوداء .

(٣) الأقاليم : جمع أمحوانه ، وهو نبات أوراق زهره مقلجة صغيرة يشبهون بها

الاستان .

(٤) الورق : جمع أوردق وورقاء ، وهو كل مالونه لون الرماد ، والورقاء ، تطلق على

الحمامة كما تطلق على شجرة لها ورق ناعم مدور واسع غيراه الساق .

(٥) الخيرى : هو المنشور الأسفر (نوع من الزهور) .

(٦) المرار : هو النرجس البرى ، بهار ناعم طيب الرائحة .

(٧) طلع وظهر .

وعرض فيالقه ، ونشر بيارقه ، وحشر رواعده وبوارقه. وأنفق خزائنه ،
وأنفد دفاثته . وبذل في صون الدين ديناره ، وأشعل في حفظ ماء الهدى
وعلى العدا ناره .

وسار على سمت حصن كوكب ، وعن قصده ما تنكب . ونزلنا
عليه في العشر الأوسط من المحرم ، ومامنا الا من له بقتال العدوفيه لهج
المحب المغرم ، ولعزمه وهج اللهب المضم .

فوجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب ، وظن الفرنج أنها
لاتنكأ ولا تنكب ، وهي من المصاعيب التي لاتبرك ولا تركب . فأحطنا
بالحصن وخيمنا حوله ، واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليها الرجال ،
وتناوب عليه القتال .

وركب اليه السلطان ورازه (١) ، واستصعب احتيازه . ورأى أن
مقاتلته تطول ، وأن مسألته تعول . وأن محاولته في مطاولته ، ومصابه في
مصابرته ، واضاقته في مضابقتها . وأن مافي هذه الحال اقتضى تعلق
اقتضاض عنترته ، ولا مطمع الآن في فرع ذروته ، ولا قرع مروته .

وكان في خواصه وأهل استخلاصه ، لم تتجمع عساكره ، ولم تتموج
زواجره . فأقام هناك بالثديز مشتغلا والاشغال مدبرا ، وبلاستظهار
متأيدا وبتأييد الله مستظها ، حتى رتب على قلعة صمد خمسمائة فارس ،
من كل محرب للحرب ممارس . وسلمهم الى (طغرل الجاندار) ،
لمرابطتها بالليل والنهار . ووكل بكوكب (قايمز النحى) في خمسمائة
مقاتل ، من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان (سعد الدين كُمشببِه
الأسدى) بقلعة الكرك موكلا ، وبمخفظها مكفلا .

(١) أى خيره .

ذكر حال الكرك من أول الفتح

وقد (١) مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك في الشرك ، بمعسكر (٢) يومه في المعرك . وافتتاح الفتح بفتح ، وبسط كف الانتقام عليه يقبضه وكفه . وأنه أخذ رأسه ، وقطعت أنفاسه ، وقلعت أساسه . وكانت زوجته ابنة فليب صاحبة الكرك بالقدس مقيمة ، ولحفظ معاقبتها مستديمة . وحصل ولدها (هنفري بن هنفري) في قبض (٣) الأسيار ، وقيد الحسار ، وغمة الانكساف والانكسار .

فلما يسر الله فتح البيت المقدس ، وأصبح الإسلام على اليد والكفر غارم العطس ؛ خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع ، متضرعة بالخشوع ، وبرزت مسكينة مستكينة ، مستعطفة (٤) مراحم السلطان مسكينة . زافعة عقيرتها بالابتهال ، شافعة في فك ولدها من الاحتفال . مخفزة لخدا من شأنه الضغرة ، مسفرة عن وجه من عادته الضخرة . حاسرة خسرى ؛ باسرة لخزنها بأسرى . والدة تشد ولدها ، والمه دخل الرعب تخلها . مطلقه ميسورها ، مستطلقه مأسورها . ثانية عطف العطف لوأحدها ، رائية بعين القتل في خلاص ساعدها .

سائلة في قلدة كيدها ، جائلة بجلوة كدها ، باسطة يدها لقبض يدها . نائرة بخزرات دموعها ، عائرة بخزرات ولوعها . خاقصة جفاح استغظاقها ، ناهضة في تجاح استغظاقها . راجزة بنوحها ، عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك ، كأنها من بنات الملك ، باديا صبح وجهها اليقنى (٥) في ايل شعرها الحلك . مشرقة من أوجها ، مشفقة

(١) الروا سابقة في (١٠٢ ش) .

(٢) في (١٠٢ ش) ومعسكر .

(٣) في (١٠٣ ص) قنص .

(٤) في مستطرفة والتصحيح من ل ومن (١٠٣ ص) .

(٥) اليقنى ؛ القطن ، جبار النخل ، الشمم الأبيض والمقشود يباغن وجهها المنطه .

على زوجها . محترقة على فداء الحليل ، مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد
أصفرت من مطالعها وأصحرت ، خادرة عبدة في مدامعها طحرت (١) .
ناهلة متهددة ، واجدة متوجدة . معترزة متذلة ، مهترزة متململة . باكية
متلهفة ، شاكية متأسفة . مستعدية مستعدية ، عاطية مستعطية . ساكية
عبراتها ، راكية عبراتها . خامشة وجناتها ، خادشة بشراتها .

وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ، ولقرمها (٢) الندب نادبة .
قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها ، وظلبت بطلها الذي هو عامر دار عزها
وبانيها . فاكرم السلطان وقادتهن ، ووفر افادتهن ، وقرب ارادتهن ، وقرر
زيادتهن . ووهب لمن ولأتباعهن وأشباعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال
القطيعة ، ووصلهن بصلاته الرفيعة . وخصهن بما لاق بكرمه من حسن
الصنيعة ، ووثقهن بنجح التريفة .

وأما الملكة فانه مكن محلها ، وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة
الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعي الشوبك والكرك ، ودخولهما في معاقلنا
وخروج أصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هتفري من دمشق
إليها ، وأقر برويته عينها . وسار معهم من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم
تلك المعائل ، ويمحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل . فمضت إليها مع
ولدها ، حسنة الظن بأهل بلدها .

فلما وصلت قاطعوها ، ودافعوها عن حصونها ومانعوها . وأخلفوا
ظنها وخالفوها ، حيث ما ألفوها كما (٣) ألفوها . وجنحوا وجمحوا ،
واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها ، وعددوا عليها الذنوب
وأحصوها . وأفحشوا لها في خطأ الخطاب ، وأوحشوها بالتنحي عن صوب
الصواب . وسبوها (٤) وسبوها ، وإلى موافقة الاسلام نسبوها .

(١) طحرت العين قلداها : رمت به .

(٢) السيد العظيم .

(٣) في ب (كا) والتصحيح من ل .

(٤) أى شتموها واعتابرها .

وكلما لا ينتههم خاشنوها ، وكلما قاربهم باينوها . فوجدت نبوة
توابها ، وعدهت إصحاب أصحابها ، وذكرتهم بحقوقها ، وحذرهم من
عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا ، واسترضتهم فأحفظوا ، واسترعتهم العهد
فما حفظوا ، ونهيتهم لأمرها فما استيقظوا .

وانفصلت عنهم خائبة مخففة ، هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها إلى
السجن ، وعودها من الأصحار إلى الدجن (١) . ومضت إلى الحصن الآخر .
فحصلت منه على صفقة الخاسر . فانها لما ألت بالشوك ألت من شوب
كلرها ، وأملت نفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نواب ،
وفى موارد المراد منها أقداء وشوائب ، فأبت بالأمل الخائب والعمل العائب ،
والخوف الصادق والرجاء الكاذب .

فلما رجعت قبل السلطان عندها ، وأزال ذعرها . وأعلمها بأن ولدها
محفوظ ، وبالرعاية ملحوظ ، وبالعناية به محظوظ ، وهو في حصن السلامة
إلى أن تتسلم الحصون ، وإذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت
إلى الوعد ، وسكنت بعكاء في ظل الرفه والرفد . ثم انتقلت قبل خروجنا
من عكاء إلى صور ، واستودعت السلطان ابنها المأسور .

وأمد السلطان (سعد الدين كشيبة) في حصار الكرك والشوبك ، بأمراء
يساعدونه في الحفظ والبزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لحاصرتها ، وبنى
بمصايرتها ، ويلبث في مقابلتها ، ولا يبعث . بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها
حالم تَقْمُو من قوتها ، وتلوم على طغيانها ما لم يذل عز طاغوتها . فلما رتب
السلطان هذه المراتب ، ورب هذه المآرب ، أقام حتى وثق باستمرارها
وتحقق حق استقرارها .

(١) الدجن : المطر الكثير النسيم الملبق المظلم والمقصود هنا أنها اختتمت وحزنت حزنا

شديدا بعد أملها وفرحها بخلص ابنها من الأسر .

ذكر ما دبره في عمارة عكا

اختلفت الآراء في أمر عكا فإنها كانت مدينة متخزقة، وبيوتها متفرقة .
وسورها غير معمور ، ومعظمها بلا سور . ورأوا أن في ابقائها خطراً ،
وأن تقي لخلاتها ضرراً . فمن أصحابنا من أشار بخربها وحفظ الحصون ،
وبناء قلعة القيسون ، ومنهم من قال : إذا صيبت عكا ، ملك البحر ، وهلك
الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قلاعاً ، وكانت بها بلاد الكفر اقلاماً .
فمن قائل بالبقاء بزعج الداوية لحفظ مدينتها ، ومن قائل بتحصنها من أدناها ،
ومن قائل بجدد سورها ، وتحكم أمورها ، وتيقنها بحالها ، ونعمرها بكاملها .
بلى أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتح مقاتلها ، وأجواز
الفكر فيمن يحل غوائلها ، ويحل عواطلها . ويتوجد بتدبيرها ، ويتفرد
بتعميرها ، ويجهد في تسويرها .

ذكر وصول بناء الدين قراقوش (١) لتولى عمارة عكا.

فقال السلطان وما أرى لكفاية الأمر المهم ، وكف الخطب الملم ،
غير الشهم الماضي السهم ، والمضى التهم ، الميام المحرب ، القاب
المحرب ، المهذب الأودعي (٢) ، المرجب (٣) الألعى ، الراجح الرأى ،
الناحح السعى ، الكافى الكافل بتدليل الحوامح ، وتعديل الخوانج ، وهو
الثبت الذى لا يزل ، واللطود الذى لا يتحلل ، (بناء الدين قراقوش)
الذى يكفل جاشه بمالا تكفل به الجوش .

وهو الذى أدار السور على مصر والقاهرة ، وفات وفاق الفحول
بأثار مساعيه الظاهرة ، فنأمره أن يستتب هناك من يستكفيه لتعام تلك
العمارة ، ونومره لهذا الأمر فهو جدير بالأمر والامارة ، وكوتب بالجنور ،
لتولى الأمور ، وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل ، متحملا للثقل .
منشرح الصدر بالعمل ، منسحق السر والأمل . منتهجا بالأمر ، ملتجئا
بالشكر .

وقد استصحب معه كل ما يفقر إليه من أسباب العمارة والآلات ،
وأدوتها وأدواتها ، وأتقارها وأبقارها ، ورجالها وعمالها وعمارها ،
ومهندسيها وموسسيها ، وحجارها ومعماريها . والأسارى والصناع ،
والنجات والقطاع . والمال الكثير للنفقة ، والذهب الأبريز والرقعة .

(١) بناء الدين قراقوش : هو قراقوش بن عبد الملك الأسدى ، الخادم الصلاحى
وقراقوش لفظ فارسي معناه القاب ويطلق على الإنسان الشجاع ، اتصل بخدمة صلاح الدين
بعد حبه أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين يثق به ويحدث عليه في مهماته ، وهو الذى بنى
قلعة الجبل والسور على مصر والقاهرة والقتطرة التى عند الأهرام ، وقد سلم إليه صلاح الدين
عكا بعد فتحها ثم أسره الفرنج بعد استردادها فانتداه صلاح الدين ، توفي سنة ٥٩٧ هـ (النجوم
الزاهرة ج ٦ : ١٧٧ - ١٧٨ ط دار الكتب) .

(٢) الأودعي : الأكرم العنق ، الحفيد القواد ، النصح البيان .
(٣) المرجب : المهيب المظم .

ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب ، وحضر الموكب . وشرف بأسمى الخلع وأعطى اللبس والمركب . وفوض إليه وقلده ، وأسعفه من عنده وأسعده . وقوى جانبه ، وأعدب مشاريه ، وأوضح مذاهبه ، وأنجح مآزيره . وأيد يده ، وأجد جده ، وكثر مدده ، ووفر عدده وعدده . وخصه بعطاياه ، واستخلصه لوصاياه .

فتوجه إلى عكاء وشغله متوجه ، وعزمه متنبه ، وسره مترفه ، وفكره في رياض الهدى منزه . وأمره ماض ، وحكمه قاض ، والله عنه راض . وقام بما أقيم له ، ونهض بالعبء وحمله ، ومشى بكفايته عمله . وشرع في التعمير والتسوير ، وتسوية الأمور بحسن التدبير .

وسأني شرح ماجرى بعد ذلك في مكانه . وما ظهر من حسن إيالاته واحسانه .

ذكر وصول سلطان الروم قليج أرسلان (١) وغيره من الرسل

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد ؛ واستعلائه في الجهاد ؛ وتأرجت الأرجاء بعرف عرفه ، وأرخت السير بمحاسن وصفه ؛ عنت الأمصار لمصره ، وأذنت الأملاك للملكه ، واتقادت الأمراء القادة بأمره : وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح ، وشروح إيراده وإصداره تحمل في صدر الزمان المشروح . فتهيبه بالضراعة كل عظيم ، وتأهب له بالطاعة كل إقليم .

ورهبه ملوك الأطراف ، وتعلق باستزادة الشرف منه أمل الأشراف ؛ فكاتبوه مستعطفين ، وخطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا ، وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء (٢) خلف الامتراج ، والانشاح والالتحاف بخلف الانشاح . وخطبوا الوصلة ، وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه أمناً ، وليده وقدمه من تمكينه وتأيينه إمكاناً ومكاناً . ويتوصل ويتوسل ، ويتلطف ويتطفل ، ويرسل ويسترسل . ويرجى مواهبه ، ويتخشى عواقبه . ويدم التردد للتودد ، والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله إلا بسوله ، ولا يقبل عليه منه إلا بقبوله .

ومن جملة الملوك المقربين بالوداد ؛ المسيبين إلى حصول الاتحاد ؛ سلطان الروم (قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان) . فإنه بذل الإذعان وسأل الإحسان . وأدى في المودة الأمانة ، وأبدى للرجبة الاستكانة .

(١) قليج أرسلان : هو السلطان ، عز الدين ، قليج أرسلان بن مسعود بن سليمان قتلش بن اسرائيل بن سلجوق صاحب بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، طالت أيامه واتسعت مملكته ، ثم أصابه الفالج ، وتنافس أولاده ، وقد حكم عليه ابنه قطب الدين ملكشاه بعد أن كسر جنوده ونقله إلى قيسارية ، وعهد عند موته لابنه غياث الدين ولم يمهده لقطب الدين الملاكور ، توفي سنة ٥٨٨ هـ - (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٨ ط . دار الكتب) .

(٢) امتراء خلف : امترى واستمرى ، استخراج الابن واستدره . والخلف ، حلقة فصرح الناقة والمقصود أنهم رغبوا في التقرب واسترار خير صلاح الدين .

واستهض في سفارته السفير الألب ، وندب الندب . وأقصد أكبر أمراءه ، وأعظم سفرائه ، وهو (اختيار الدين حسن بن غفران) . وكان في دولته مقدماً ، وفي مملكته محكماً ، وعند أهل ولايته معظماً . وقد استعلى عليه واستولى ، واستجد بالتدبير عليه كأنه بملكه أولى . ولا تصرف له في ملك ولا مال إلا بتصريفه ، ولا تعرف له عن حادث وحال إلا بتعريفه .

فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد ، وتشديد المقاصد . ومجديد العهود ، وتأكيدهم التهود . وقدم نكرماً وأكرم قادماً ، وخدم حاضراً وحضر خادماً . وقبل البساط ووسط وجه القبول ، وتمثل له الشرف فتشرف بالثول . وخيا نحية الممالك للملوك ، وحفظ الأدب ولم يتكبر فيه عن النهج المشلوك .

فتلقاه السلطان بالبشر والرحيب ، والبر والتقريب . وأعزه بزوله في ذراه ، وأوعز بزله وقراه . ووسع عليه من الإنعام بما ضاق عنه أملة ، وواصله من أحميل بما رافت تفاصيله وجمله ، وشفع رسالته بالإصغاء ، ورجع مقاله عن الإنهاء . وسمع ما جاء به وأجابه ، وأبعد بأدناء مآزبه ما رابه . وشافه بشفائه ، وأرواه بزوائه ، وأولاه لولائه ، وعرفه بالتعرف إلى آلائه .

ونصبت له خيمة مسردة ، وشهادات الإقبال الناصري لها مصدقة ، ووجه الكرامات بها محذقة ، وسحب المبرات لها مقدقة . فأقام أياماً بأيام من مقيمة ، ومحاسن من أحسان الشيم السلطانية مشيمة . فلما استقام أمره استقل ، واستندر له بارق البر من سماء السماح واستهل . ومارام حتى نال مارام ، ووثق لإحكام المواثيق الأحكام .

ووصل في تلك المدة أيضاً (الصلاح فتتبع أنه) وهو أتاك قطب الدين سكرمان بن محمد بن قرا أرسلان (١) ، وأقيا موافياً بإحسان الخطبة وخطبة

(١) قطب الدين سكرمان : أو سكرمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرقق صاحب آمد وحصن كيفا ، خلف أباه على آمد وغيرها سنة ٥٨١ هـ ، مات سنة ٥٩٧ هـ بسبب سقوطه من سطح جوست له بمضن كيفا (أبو الفدا ج ٣ : ٦٩٠ و ٦٩١ هـ . المغتبة الحسنية ١٢٢٥ هـ) .

الإحسان . رغباً في تميم الوصلة ، وتميم الصلة : أخذاً لصاحبه . ملك ديار بكر عهداً محكمًا ، وعقدًا من الميثاق مزمياً . وقد أحضر قضاة بلاده شهوداً ، واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهداً .

وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل ، وميت بكثرة الشوائع والوسائل . وكان خائفاً على أهد فلها من خروج السلطان ، ووهبها لأبيه (نور الدين بن قرا أرسلان (1)) . فاشتق من أمير جاعها بالحق بعد وفاة والده ، ورأى الأمن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده . ورغب في المصالحة للمظاهره وأن يفتح بها باب الزاوية للموارد .

قاراه الملك العادل إلى نزل منه المرادجة ، وثبت العهد الزاوية حكيم المازجة . فم أمته ، وعم بمنته ، وزاد قرنه ، وزال رغبه .

وجلس السلطان ، وحضر عنده الأمائل والأعيان . ووكائ وككان وكيل أخيه الغائب ، في إنشاء القلمع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد بأركانته ؛ اعتصد ملك ديار بكر مكانه . وسار صاحبه بالسار مصحوباً وعاد ذيله بالبخار مسحوباً ، وقال له : قد وجدت الحزن فلا تحزن ، واشتد ركنك فإلى سواه لا تركز . وما من كبير أو أمير إلا وقد وصل منه أكبر أمراته ، ليستظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

(1) نور الدين ابن قرا أرسلان : هو محمد بن قرا أرسلان صاحب جيون كيان . وكان قد تسلم آمد قبل ذلك من صلاح الدين الأيوبي . توفي سنة ٥٩٨ هـ (الجمهورية الزاوية ج (١) ط . دار الكتب) .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

وأقمنا على كوكب إلى آخر صفر ، ننتظر منها بمن كسر الظفر. ثم رأينا أنه يطول حصرها ، ولا يفوت أمرها . وأن الفتح يبطئ . وإن كان السهم لا يخطئ : فأمر الأمراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون ؛ بلقمام عليها وابتغال سرها المصون .

ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة، ظاهر الغزيمة . سامى اللواء ، هامى الأتواء ، نامى الأتوار فى مطالع المضاء . ودخل إليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول؛ بالصدر الأرحب والباع الأطول . وتلقاه أهل البلد بوجوه لإقباله متهلة ، وألسنة بالدعاء له مبتهلة ، وعيون لأنواره مجتلية ، وقلوب بولائه ممتلية ، وأسماع لأمره مستمعة ، وأيد إلى الله فى نصره مرتفعة ، وصدور بأيامه منشرحة ، وآمال فى انعامه منفسحة ، ونفوس على طاعة الله فى طاعته مجبولة ، وأعمال فى رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة ، وأدخل إليها السكنينة . فوجدت الروح بسطانها ، وعادت للروح إلى جثمانها وقرت به عيون أعيانها ، وأقرت له بجسنها واحسانها .

وابتدأ بالجلوس فى دار العدل ، وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين ، واستمع (إلى) غصص المتألمين . وكشف الظلامات المظلمة ، وفصل الحكومات (١) المستحكمة . وقرأ كل قصة ، وقرأها بكل حصة (٢) . وحقق الحقوق ، ورتق الفتوق ، وأقام للشرع السوق ، وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحل بانصافه كل مشكلة ، وطب باسعافه كل معضلة . وأصحت سماء السماح ، وأصحب جماع النجاح . وأعدى المستعدى ، وأروى الصدى ، وحيا الحى وأردى الردى ، ومجد المجدى ، ومهد الحق حتى قيل هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم ؛ وانقض أولئك القوم ؛ إلا عن مظلوم أجزى بالحق ، ومعلوم أجرى من الرزق .

(١) الحكومات : لى الأفضية والأحكام .

(٢) حصة : نصيب والمقصود بكل نصيب من الدقة والاهتمام .

وعلم أعين ، وظلم أهين . وهاد زين ، وعاد شين ، ومختل سدد ،
ومنحل عقد . ومعتل شني ، ومعتر كني . وما حل جيد ، وآمل زيد ، وركن
حق شد وشيد ، وخذن باطل أير وأييد . وراج أدني فوزه ، ولاج
أسني عزه .

وجلس يوماً آخر للأكابر والأمائل ، والأكارم والأفاضل . فأضاء
النادي ، وفاضت الأيادي . وغدق الندى ، وصدق الهدى . وكر الكرم ،
وفر العدم . وحفل الدر ، ودرّ الحفل ، وشمل النظام وانتظم الشمل ، وصان
العلماء بالبدل ، وأعان بافضاله أعيان أهل الفضل . وفاز بالحمد وحاز
الثناء . وأجاز الشعراء ، وأكرم الكرماء ، وروج الرجاء ، وأولى النعماء ،
ونعم الأولياء . وتقاضاه عزمه بالحركة ؛ لاستفاضة البركة ، واستضافة المملكة
إلى المملكة فلم تستقر به دار ، ولم يلبث به قرار ، ولم يثبت في جفنيه
غَرار . ولم يبت إلا وبين جنبيه لحب لقاء العدا أهل النار نار .

وكان (الصني بن القبايض) (١) قد استجد للسلطان على بعض أبراج
القلعة داراً ؛ وأذهب في نضارتها ذهباً ونضارا (٢) . وهي متطاولة بين
البروج ، مطلة على المروج . مشرفة على موازة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن
الغوطتين . صحيحة البناء ، فسيحة القناء . بية البهوشمية الزهو ، مجددة لأهل
الجد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد ، وفرشها بالورد . ويسط بسطها وعلق
ستورها ، وأعلى نورها ، وحيز حبورها . وسررورها . وسنى أنواع نمازقها
وأسمى أنواع مشارقها . وتوصل إلى حضور السلطان بها وجلوسه ، وذهبت
تباشير بشره بخطوب الزمان وعبوسه . وأحضره كل مقرظ بقريض
وكل موئل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد ، وكل قاصد
جلالة أرجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب ، وكل مطر مطرب .

وظن أن السلطان تروقه تلك الحلية والحالة ، وتلك الجلوة والجلالة .
وتلك البقعة المؤسسة ، وتلك الرقعة المقدسة . وذلك المشرف العالی ، وذلك

(١) هو صنّ الدين بن القبايض ، مات في دمشق سنة ٥٨٧ هـ .

(٢) يقصد بالنضار : الأثل وهو شجر خشبة صلب جيد ، تصنع منه الجفان والتصامع

أيضاً بلودته .

المشرف الحالى . وانتظر نظر استحسانه لإحصائه ، وتوقع تمكنه لموقع مكانه . فما أعاره خطأ ، ولا أزاره خطأ . ولأمنه بطرف استطراف ، ولأمنه حرف استطاف . بل أعرض بنظره عن تلك النظارة ، وأغضى عن تلك النظارة (١) . وغض عن تلك الغضاضة ، واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة .

فالعقل من لا يتخذ في دار الدوائر معقلا ، ولا يجد في منازل التوازل منزلا . ولا يركن إلى فناء الفناء ليب ، ولا يسكن في غار العزوز أريب . وكيف يبى العمران والعمرى المدم ، والغم في الدنيا الدنية عين الغرم . وقال « السعيد من يبى دار الآخرة ، وينجو من أمواج الدنيا الزاخرة » . ثم صرف في تلك الأيام (الصبي) عن ذبوانه ، وأبقاه في شغل الخزانة على مكانه . وسمعه يقول في بعض محافله ، وقد أجرى له حديث من يفرح بمنزله « كان من فلوب الصبي عندي أنه يبى لي تلك البنية » ، فدل على أنه لم يوافق منه الأمتية . وقال « ما يعمل بالدار من يتوقع المنية وما خلقنا إلا للعبادة ، والسعي للسعادة . وما يحظرنا في هذه الدار خلود بالخلد ، ومآلنا وللمقام في البلاء والبلد . وما جئنا لتقيم ، وما نروم إلا أن لا نريم ، وما تحركنا إلا للسكون ، وما أسهلنا إلا للعود إلى الخزون . فما يبى عمر الراحة إلا من مقرس التعب ، وما يبى نصيب المغم إلا من مقرم التفتت . فأين الأين ، الذي تقر به العين ، وما يحصل السكون في المسكن ولا يكمل الوظر في الوطن . لاسيما والدين يطالبنا بدينه ، والكفر يستغزب منا حين حينه . والبلاد منافية ، والبلاد هانية . فلا تفوح الفتوح إلا جهونا ، ولا ينزل النصر إلا بركوبنا » ، وغدا للحزم متحما ، والغرم مصمما .

وواصل الخبير بوضول عسكر الشرق بالغرب الماصي ، والحد القاصي . والجمع الواقف الواقف ، والبحر اللامع اللامع . وأن (عماد الدين زكي ابن

(١) النفة وطيب العيش والسمة والمصب .

مودود بن زنكى (١)؛ قدامين قبيله ، ووضىل برعيله . وقدم بحده ، وأقدم بحده . وأنه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا ، وجاء معه الجيش للنجدة والنجلة . جامعا . فاهتف العزم السلطان حين وصوله ، وجعل بالمشة للرحيل عقد جلولة . وكان القاضي الأجل القاضي ذو الجلالة والفضل ، والنباهة والنبل ، متأخرا في بيته بدمشق لشكاة أقام في غيرها ، واستقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال أثرها . والسلطان بنجح سعيه متبرك ، وبصحة رأيه متمسك ، وبطولة عالم ، وبقولة عامل ، وبعبارة قائل ، وبإشارته قائل :
 فأزاد السلطان أن يقدم لبقائه الاجتماع ، ويرأيه الاجتماع . ويستنير بنوره ، ويستشيره في أموره . ويقاوضه في تفويضاته ، ويقبله في تقليداته ، ويتبرك بيمانه ويتمن ببركاته . فإنه طالما اجتلى سبي السعادة من مطالعة ، وانجنى جني الإرادة من صنائه . وافتتح الأقاليم بمفتح أقالمه ، واحكم المملكة بشيوت أحكامه . ووفاه بأمداد السؤدد الوافي سواد منداده ، وجاءه بالوجهة في دينه وديناه لإسعافه وأسعاده .

وكان قد خرج إلى جوسق (٢) بالشرف الغربي الأعلى ، ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الأول على الرحيل ، وقصده لإبرام ما وجدته في مملكته من الأمر السجيل (٣) . وأقام عنده في الجوسق إلى الظهر ، مستظهاً به على الدهر حتى كشف مهماته ، ورشف شفاه مشافهاته . والتجى معه في الآراء والآراب . وانتجع لريه من رأيه صوب الصواب ، وارتجع وديعة سر الغيب ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه ، ودعاه إلى الأجل القاضي وشيعه .

(١) عماد الدين زنكى : هو زنكى بن مودود بن زنكى بن آقستقر ، ابن أخي نورالدين محمود ، صاحب سنجار ، كان عقلا جوادا ، وكان صلاح الدين يحبه ويعترمه مثل احترامه لنور الدين ويقدم له الأموال والمدايا ، ولم يزل مع صلاح الدين حتى وفاته ، توفي سنجار سنة ٥٩٤ هـ ، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده قطب الدين محمد الذي لقبه بالملك المنصور (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٤ ط . دار الكتب) .

(٢) قصر

(٣) أي الضعيف ، أو المذبول ، أو المغيب أو المتأخر ..

وبات تلك الثيلة مخيماً بالعرادة (١) . محتماً بالسعادة ، راجح السيادة ، ناجح الإرادة . ثم سلك في جبل يَبُوس (٢) إلى عين الجر (٣) إلى النلمية على البقاع . وهو مطيع أمر الخالق ومتبعه والخلق تابع أمره المطاع . وأتى بعلبك المحروسة ، وخيم بمرج عدوسة . وأقام حتى أمر أمرها ، وأدر درها وقسم لها من عدله ، وعدل بها من قسمه ، وحكم فيها بفضلها ، وأفضل عليها بحكمه . وكشف الظلم والمظالم ، وصرف المكاره وصرف المكارم ، ورفع من المعالي المعالم ، وأجرى رسوم الأجر والمراسم .

وأمر الرعاة برعاية أمر الرعية ، وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة ، معصوم النوبة من النوبة . مصون الكتبية من الكبة والكبوة . ثم أوجه إلى الزراعة وزرع الظفر قد توجه ، وشرع النصر الصافي الشرعة من الكلر قد تنزه ، وقد كحل عثيز العسكر طرف الجوا الأمره . وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة أن تعاود الهبة وتتنبه ، وزرع بالزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الحظ وقتاد الخرط ، وضاق ذلك القضاء الواسع بخط رحال الرهط .

(١) العرادة : قرية قرب نصيبين (القاموس المحيط) .

(٢) جبل يَبُوس : بالشام بوادي التيم من دمشق (ياقوت ج ٨ ط . ب) .

(٣) عين الجر : موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق (ياقوت ج ١٤ : ٩٧٧

ط . ب) .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار (١) والاجتماع به

ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامعاً من الأداني والأقاصي ، ونزل طائماً على العاصي (٢) . وخيم على قدمس (٣) ، وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدمه تعكس . وأنه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه على قهر الشرك ونصر الإيمان . فركبنا وابن ذكاء (٤) في إسفاره ، والصبح قد زحف على الليل يرأيات أنواره والقجر قد فجر أنهار نهاره . وسرنا بصدق النزاع وقصد الاجتماع : فلقيناه قد ركب مستقبلاً ، وقرب مقبلاً .

ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة وأكرم لقاءه . ونزلاً فتعاقفا ، ثم ركبا وتواقفا وتساوقا . وخيمنا بقرب خيمه ، وخيمنا عند مجئنا ، وحططنا هناك رحالنا ، وخططنا برجاله رجالنا . وتساعد الجندان ، وسعد الجندان ، وجد السعدان . وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمان . واتحدت الكلم ، واتأدت المهم .

وسأل السلطان أن يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره جواره ، فساق معه إلى مضر به (٥) . وضافه في موكبه . وانقلب إلى قربه ، وتقرب إلى قلبه (٦) وارفع في صدره ، ورفع من قدره . وصار العسكران مختلطين ، وجلسا

(١) سنجار : بلدة في لطف جبل عال من أعمال الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام (ياقوت ج ١١ : ٢٦٢ - ٢٦٣ ط . ب) .

(٢) العاصي : نهر يخرج من بحيرة قدس ويصب في (البحر الأبيض المتوسط) قرب أنطاكية ويسمى عندها الأردن ويذكر ياقوت أن تسميته بالعاصي ترجع إلى أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب بينما يتجه هو نحو الشمال (ياقوت ج ٦ : ٩٦ ط . ب) .

(٣) قدس : قرية قرب حصص (القاموس المحيط) .

(٤) أي الصبح .

(٥) ساقطة في ب ، مثبتة في ل وفي أ (١١٣ ش) .

(٦) ما بين القوسين ساقطة في ب مثبتة في ل وفي أ (١١٣ ش) .

«بسطين : ووقف الأمراء والعظماء سماطين (١) كالسماطين (٢) . وقرأ القراء ، وأورد الشعراء ، وتجادب بينهم أطراف الطرف والآداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عناد الدين شاعره (السنجاري ابن الهائم) (٣) ، ومن عاداته ليراد المدائح في مثل تلك المواسم : فأنشد مدحاً ، ونشد متحماً ، ثم بسط السماط وسط (٤) البساط . ومدت الموائد ، وصادت العوائد . ونضد الخوان وكونت الألوان ، ولونت الأكوان ، وصفت الخفان . وأحضر الظهارة من كل حاجة وباجة (٥) ، وخروف وخبزجة . وخطو حامت (٦) وسامز (٧) وخامنص ، وتنه وقابض . ومطبوخ ومشوى ، ومضروع ومقلن — ما طابن مذاق متذقة وحضنه (٨) ، وظالت الأيدي في بسطه وقبضه .

فلما رفع من نادية القرى ، وفرغ بأياديه الذرا (٩) ، قدم ما أعله للهدايا ، والتحف السنبا من الجياد المقربة ، والثياب المدهبة ، والعدد المعجبة ، والأسلحة اللذرية (١٠) . وكل ما يروق ويروج ، ويضى ويضوع . ثم انفض النادى عن ندى منفض ، وسدى لبكر الشكر مقتض .

(١) الساط : ما يبسط ليوضع عليه الطعام

(٢) السط : هو الخيط مادام الخرز أو الوول متصلاً فيه .

(٣) ابن الهائم السنجاري : هو أسد بن يحيى بن موسى ، السنجاري ، جاه الدين ، فقيه غلب عليه الشعر ، من أهل سنجار ، ولد بها سنة ٥٣٣ هـ كما مات فيها سنة ٦٢٢ هـ ، له ديوان شعر في مجلد كبير ، وفي شعره رقة (معجم الأدباء ج ١٠ تحقيق د . غريد رفاي) .

(٤) علق .

(٥) الباجة : النوع أو الشكل .

(٦) أهر شفيد : الجلافة .

(٧) السامز : من الشرايب أو الطعام هو ما كان فيه الذرع ووجدت أي جموضة .

(٨) الخامنص التبر مخلوط .

(٩) الذرا : جمع ذرورة وهو الطور ، المكان المرتفع ، أهل كل شيء بالمقصود كل شيء

سام .

(١٠) المادة القائمة .

وعين السلطان يوماً لحضور عماد الدين عتيد ، وأنه يستضيف فيه
 خواصه وأمرائه وجنده . فويجع مرافقه ، وورشع (١) غارقه (٢) ، وضرب
 بيت الخشب له لحسب بيته ، وأسمايت (الجبني) بحسن سمته وسمته ،
 واحتفل بحفله ، وأجل لأجله . وأرجت بأرجاء النادي بالند (٣) ، أوراق
 مله التواظير النواضر في ذلك الرواق الممتد ، وبسط على البسط ماحضر من
 الياصمين والورد ، وفاق النشر ، ولاح البشر ، وفرش الرى ، وشرف الترى .
 ورفع الحجاب ، وأشهرعت القباب ، وتوجهت الأسباب ، وتزهت
 الأطلب . وتضويعت نوافح النواضح ، ووضعت المياحج المياحج
 ووضعت المطارح والمسائد ، والأسرة والمسائد .

وجاء عماد الدين في خواصه وأمرائه وصحبه ، فشقاه السلطان برحبه ،
 وقرب له السرير وسر بقره ، وأجلسه إلى جنبه ، وجياه بحبه ، وأقبل عليه
 بوجهه وقلبه ، وجلس من جرى بالجلوس رسمه ، وسما في الرموس اسمه .
 ووقف الأمراء والحجاب ، والعظماء والأصحاب ، على مراتبهم في مواقعهم
 ودب للاعزاز الاهتزاز في معاطفهم .

وكان النادي مهيباً ، والندى مجيباً ، والذرا (٤) رحيباً ، والتهرى
 قريباً . والظل ممدوداً والفضل موروداً . والحفل حافلاً ، والشمل شاملاً ،
 والبساط مقبلاً ، والنشاط مقبلاً . والمرئي حالياً ، والمروى عالياً . والمسومع
 مطرباً ، والمجموع مغرباً . والمنظر والمخير جليلاً جميلاً ، والمطلع والمطلب
 منيراً منيلاً . والمكان علياً ، والزمان جليلاً . والربيع في انتهائه ، والصنيع
 في اشتهاه ، والمصيف في ابتدائه ، والمصيف في انتهائه . والشمع في نضوته
 والكرم في نصرته . والأريب في أربه ، والطروب في طربه ، والضرب
 من الخلق الحسن في ضربه .

(١) فرق وزين ونظم .

(٢) التناوق : وأصلها فرق ، وهي الوسادة الصغيرة للاتكاء عليها .

(٣) الند : جود يبيخر به .

(٤) الذرا : فناء النار ونواحيها والمقصود فناء النادي .

وكانت أيام الشمس وقد وصلت من دمشق أحمالها، وحلت في تلك الحالة حالها ، وأقدم الجندل قدموها ، وطلعت في أبراج الأبطاق نجومها . كأنها كرات من التبر مصبوغة ، أو بالورس (١) مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلا فوقاً ، وأحل شوقاً ، ولو نظم جوهره لكان طوقاً . وهو أحلى من السكر ، وأعيق من العبير (٢) ، وأحسن هيئة من النارنج الأحمر ، والليمون المركب الملور ، وقد زفت عروسه في الثوب المعصفر ، والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل ، وخلط بالمندل . وجمد من الثلج والعسل ، فهو الذي يضرب بصره مثل الثعلب ، ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر ، وما حظر ما حصر . ورتى هناك لقطوفه قطاف ، ولطوافيره (٣) طواف . ولعقوده مصارف ، ولنقوده صيارف . فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفراراً ، أو جمرات تشتعل ناراً وتبدي شراراً ، وقد أعاد بلينها صواغ القدرة الإلهية نضاراً . بل هي أحداق الحدائق ، وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق ، وصبغها من خوفه الرعد ، ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت من مهابة الجنات الجنة (٤) ، وانتظمت من جواهر الحيا للحياة ، واضطربت لهاها شوقاً إلى فتح اللهاة .

ثم صرفت الأبطاق ، ونظفت الآفاق . وبسط المكان ، وسقط الخوان . ونهت أجنان الجفان للقدور الرقود ، وشبهت المراحل لتغليتها بصلور خوى الحقود . وتزيد مقال المقالى النشاشة ، وتزينت مقار المقارى بالباشاشة . ومادت أعطاف الموائد بالألطف ، وتهدت أكتاف السرادق بموشى الأنواف (٥) . وهناك السموط والسلوخ ، والمخطوب المطبوخ . والمقلو المقلوب ، والمحبو المحبوب . والأغذية واللحمان ، والأشوية والحملان ،

(١) الورس : نبات كالسمسم يصنع به .

(٢) العبير : المرجس أو الياسين .

(٣) الطوافير : الخيل الوثابة .

(٤) الجنة : ما يجئ من الأشجار . أجنة الأرض ، كثر جناتها وخيرها .

(٥) الأنواف : جمع نواف ومن الثوب الرقيق ، أو الثوب فيه خطوط يبيض على الطول .

والألبان والألوان . والجوابى والروابي ، والصواني والأواني . وقد صفت
 اليوارد ، وصفت الموارد . وتنوقت (١) الطهارة ، وتنوقت المشتهاه . وحلت
 الأظمة ، وعلت الأسنمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط ، وعاش
 إخوان الخوانسلار (٢) الغابط . وتداولوا وتناولوا التوالات (٣) ،
 والحولات (٤) ، والحلاوات والحالات . وكان يوماً مشهوداً ، وحوضاً
 موروداً ، وروضاً معهوداً ، ورواقاً ممدوداً ، ورواماً مودوداً ، وجمعا
 مسعوداً ، وصنعاً محموداً .

ولما فرغت الموائد ، وبلغت المقاصد أحضر السلطان لعماد الدين هداياه
 وحياه بأحسن من تحاياها ، من نخيل صفون ، وحصن كحصون . وعراب
 جباد من طوائف الطريفيات (٥) ، وسوابق سوابح من العتاق الأعوجيات
 والمذاكي المنسوبات . من كل مطهم مطهر الخيم (٦) وكريم من نسل
 الكريم ، وصافق صافق الأديم . ومعرب مقرب ، ومجنب مُكرب (٧) ،
 وسكب (٨) مثلب ، وفيض سلهب ، ويجر جموم (٩) وطرف لمُوم (١٠)

(١) تنوقت : أجادت في مطعها ، أو تجودت .

(٢) الخوانسلار : كلمة فارسية الأصل ، مركبة من كلمتين : خوان بمعنى مائدة وسلار
 بمعنى رئيس أو أمير أوقالد (الألفاظ الفارسية العربية لامي شير ط . ب ١٩٠٨ م) .
 وجاء في معجم الألفاظ الفارسية للدكتور محمد موسى هنتاوي : ١٢٩ أن خانسلار هي
 بمعنى رئيس الطهارة في القصر الملكي ، أو رئيس الديوان .

(٣) التوالات : واحداً نوله يسكون الواو وفتح اللون وهي مايتناه الإنسان .

(٤) الحولات : نوع من الضرائب المؤقتة كانت تفرضه الحكومة في مناسبات مختلفة
 ومن أمثلها حوالة الأسواق وحوالة الأجناد (الروافضيين لأبي شامه ج ١ تحقيق د . محمد حلي

أحمد و) (Dozy. Supp. Dict. Arabe)

(٥) الطريفيات : الكرم النسب من الخيل .

(٦) الخيم : الطيبة والسجية .

(٧) مكرب : الصلب ، المتله عصباً .

(٨) سكب : شديد الجري .

(٩) جموم : تجميع مائه بكثرة .

(١٠) اللوموم : الجواد من الخيل ، أو الناس .

ومر حوب (١) شيطم (٢) . ويعتوب (٣) ؛ ضلم . وأجرد قوود . وضامز
 قينود (٤) . وأقب (٥) تهد ، وجواد ورد . وبسح رفل (٦) طمر (٧) . وأشق (٨)
 أمق (٩) غمز (١٠) . وبفرغ . طموح . وعميق غير جموح . وهيكل عال
 وعتوج (١١) ذبال . فاختر منها كل طرف . قد حظ من قدره إذا قوم
 بألف . من كل أشهب قرطاسي ، وأشعل سوحى ، وأغر صناني . وأدهم
 غيبي . وأحم أخوى . وأشقر ندمي . وأبرش مدلر ، وكيت مضمر .
 وأخضر وأديس (١٢) ، وسمند أغيس (١٣) .

ثم أحضر له ما يناسبها من التحف اللاتمة ، والطرف الرائقة ، والعدد
 الزائفة ، والأسلحة المائعة . والسابريات السابغات ، والدروع الزرديات ،
 والرووس والزانات . والخوض والرائك ، والبواتر البواتك . والدلاض
 الموضونة ، والتصال المتسونة .

(١) - شرح حوب : طويل متلصّب الأعضاء .

(٢) - الشيطم : الطويل الجسم القوي من الإبل والحيل .

(٣) - يموب : السريع الطويل من الحيل .

(٤) - ضامز قينود : الضامر ، ما قل لحمه . والقينود ، من الدواب ، ما يمشي أمامها
 أحد خلف يقامعه .

(٥) - أقب تهد : الأقب من الحيل ، الضامر البطن النقي . والتهد : الذي يبرز ويمرغ
 إلى قتال العدو .

(٦) - الرزفل : ذي الذنب الطويل من الحيل .

(٧) - أي الفرس الجواد الطويل القوام .

(٨) - الأشق من الحيل هو الذي يشق في عنقه ، ميتاً وشمالاً .

(٩) - الأمق : البعيد الأطراف .

(١٠) - القمر : من الحيل الجواد .

(١١) - عتوج : أي الجهد من الحيل والإبل ، والذبال : البطول من الذيل .

(١٢) - أديس : يقال أديست الأرض أي باظهرت الثبات وذلك عندما يرى أول سواد
 فيها والمقصود ما كان لونه كلون سواد الأرض أول ثبتهما .

(١٣) - السمند : هو طائر يكثر وجوده في الهند . والأغيس ما كان لونه لون الرماد
 والمقصود كل ما لونه لون طائر السمند .

ومن المستعمالات المضرية الذهبية والحزيرية، والمُطعم والديق (١) والمُصنم والمُعرب والعراقى . ومن نسج تونه وتينيس (٢) ، كل ثمين ونقيس . وما شاكله من أنواع الطيب ، على النمط والترتيب . ثم انصرف وعترف خلفه بمشروع ، وعزف جده متنوع ، وشكوا شكره ، وعطف فخره مترم . مترنج ، وأمره متعجب مترجع ، ووده مترج مترجع . ودعاؤه صالح ، وشاؤه صادق . ولسانه داع ، وجنانه داع ، وعهده راع ، وشمعه ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس ، والتأجج بما في الثورس والتدبير فيما يقدم ويؤخر ، ويقرب ويقرد ، ويورد ويضطر . وتكررت المشاورة في الموضع الذى ينتأ بقصده ، ويؤى العزم فيها الجهاد حق جهده . وافقوا على عرقا (٣) وعزفها وعقرها . والنزول بعقرها . ونأها إذا ملكت ملكت طرابلس . وأسفر عن صبح فتحها الفلن ، وأقام العسكر أياما على (قدس) ، ويقيس النصر قد تأسن ، ولستاء الظفر قد توجس . وأتى العرب ، وواتى الأرب . وأجمعت الجيوش وجاشت الجموع ، وأن الليل العزم الملتج من صبح النجع الطلوع ، ونبتت الفيوض من النعم وفاض السبوع ، وأنبعت غمان الميار وطابت الينوع . ثم رخلنا أول شهر ربيع الآخر إلى البقعة تحت حصن الأكراد (٤) ، وخيمنا على الزبا والزهادة ، وصوبنا إلى الجهاد هواضى الجياد ، وأدنيا قطاف أطفاف الله لاجتناء الأجناد . وكانت الأعشاب بالشعاب واصية ، والشواذب من المشارب قاصية ، والتغضب للقرى في طاعة الله عاصية . وطان الرعية ، وتار العجم والعرب ، وخاف الكفر ، وطاف الذعر ، وقال نفر الشرك نقر ولا نستقر . وشهروا ، وشاؤروا ، وطاروا وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم أموات ،

(١) الديق : اثواب تنسب إلى مدينة ديق التي كانت بمصر .

(٢) تونه : جزيرة قرب تيس ودياط يضرب المثل بحسن سمول ثيابها وطرزها . (ياقوت ج ٥ : ٤١٤ ط ١١٦) .

(٣) عرقا : أومرة ، بلدة شرقى طرابلس ، بينهما أربعة فراسخ وهي بأحر . على دمشق . (ياقوت ج ١٣ : ١٠٩ ط ١٦) .

(٤) حصن الأكراد : حصن جيع على جبل الحليل المصل بجبل لبنان ، ويقال هذا الجبل حصن من جهة الغرب . (ياقوت ج ٧ : ٢٩٤ ط ١٦) .

لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات . وأجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب ، وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الأتقال ، وتجراً على أخذ أهبة القتال .

وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكى وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر بيكى . (ومظفر الدين كوكبورى) وهو الذى حين يوارى صارمه المشهور فى نبيع العدا لزند الظفر يورى . وصحبه من فرسان العرب كل فارس معرب ، ومن شجعان الأكراد كل فاتك محرب . ومن فتاك الأتراك كل قسور قاسر ، ومن صيد الصناديد كل كسروى كاسر . وكل كمي كميث (١) ، واكديش على اكديش (٢) . وقارح على قارح ، وخضم على سابح ، وجرى جار جارح . وبيمة (٣) وبطل ، وجبل على جبل ، وفحل على فحل ، وذمر نكل (٤) . وورد على ورد ، ومرد على جرد . وحلس (٥) وحلبس (٦) ، وباشر بالموت معيس . وأهيس (٧) أليس ، وأحمى أحمس . وغشمشم (٨) همام ، وأيهم (٩) مقدم . وباسل ذى باس ، وعاسل عاس . ورببال على رثبال (١٠) ، ومشتمل على شمال . وبجر على بجر ، وصقر على صقر .

وركبوا سلاهبهم (١١) ، وجنبوا جنايبهم . وجروا على الساحل سيولا ،

(١) الكى : الشجاع أولابس السلاح - والكيش : التسريع العزوم .

(٢) الأكديش : الحصان الخليلط أوغير الأصيل أو الصغير غير الجيد ، وأحياناً

يطلق اللفظ على الخيل الصنيرة الجيدة

(٣) أى الشجاع الذى يستهم مأتاه على أقرانه .

(٤) اللمر : الشجاع . النكل : القرى الذى يغلب قرمه .

(٥) الحلس : الشجاع الحريص .

(٦) الحلبس : الشجاع .

(٧) الأهيس : الشجاع . والأليس : هو الشجاع الذى لا يبالي هولاً ولا يردعه شيء .

(٨) ششمشم : من يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء .

(٩) الأيهم : الرجل الجريء الذى لا يستطاع دفعه .

(١٠) الأسد .

(١١) السلاهب : بجمع سلهب وهو الطويل من الخيل .

وجروا بالنوابل ذيوالا . وطارابليس طرابلس بخوافي الخوف ، ودام الجوى
 في رعب أهلها بدم الجوف . وماسار إلا من خف في نهضته ، ونهض بخفته .
 وأحسن حصن الأكراد بالأكدار ، وصفت على صافيتا (١) بوارق البوار .
 وقطع عرق (عرقاً) وعمرت ، وتعمرت (العريضة) (٢) وتعرفت ، ومزعت
 تلك الأعمال ومزقت ، وأرهمت وأزهقت . ونفرت أنفارها ، ويقرت
 أبقارها ، وملأت بالدرائر ديارها . وسيفت مواشيتها ، وحشيت بالثيران
 أوساطها وحواشيها .

ونزل السلطان على حصن يحمور (٣) فما قدروا يحمونه ، وابتذل
 مصونه ، واستخرج مكنونه . وفتحه وفتحته (٤) ، وساه بالدمار وصبغه .
 وأقام في تلك الديار عشرة أيام ييوسها وبلوسها ، وقد حيزت له نفائسها
 ونفوسها . ثم رحل بمنمه ، وقفل إلى نعيمه ، وعاد العسكر مسروراً منصوراً
 محبوراً موفوراً ، قد اطلع من تلك البلاد على العورات ، واضطلع بالفتائم
 من تلك الغارات ، ونكأمنها في الأعمار والعمارات .

وانقضى شهر ربيع الآخر ، وذلك المرح يموج بالساكر موج البحر
 الزاخر . وقد وصل قاضي جبله (٥) يحث على قصدها ، ويخص على إنجاز
 وعددها ، ويحرض على إعذاب ورددها ، ويحقق أن الظفر في هذه السنة يبتدى
 من عندها ٤

ويقول وان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها ؛ وكثرة ناسها ؛
 وتدرعها بلباس باسها ؛ واستعدادها للحصار ، وتجنّبها عن الإصحار ؛
 يذهب الزمان ، ويفوت الإمكان . وهذه جيلة وماوراءها من المعامل ،

(١) صافيتا : قلعة تقع إلى الشمال من عرقة ، من أعمال حلب قرب اللاذقية .

The Crusaders in the east p. 192

(٢) الرمية : بلد تتاخم الدنهاء وكان حصناً قوياً من الحصون التي دخلت في نطاق نفوذ
 إمارة طرابلس اللاتينية (ياقوت ج ١٣ : ١١٥ ط . ب) .

(٣) حصن يحمور : ارجع إلى خريطة القسم الشمال من الشام . وهو حصن في يحمور
 بلد شمال الرمية .

(٤) متحه : أي انتزعه .

(٥) جيلة : قلعة بساحل الشام قرب اللاذقية ، كانت أيام ياقوت من أعمال حلب (ياقوت

ج ٥ : ١٠٥ ط . ب) .

قبيصة المحابل (١) ، وفرصة للمتول ، وطفنة (٢) للاسكل ، وتغبية (٣) للناهل
 وأمنية للعائل . فما دونها مانع ، ولا عنها مدافع . وهى على غربتها وغرورها
 وغفلتها وقورها ؛ لم يفرح عنده أمنها ذعر ، ولم يفتأ سورة تقعها ضر ،
 ولم يفرح باب يسرها عسر . فإن ميلكتنا سيابها ، ملكنا ساسيلها . وإن جزنا
 صاحتها ، جزنا راحتها . وإن استقدنا ملكها ملكنا قيادها ، وإن اعتدنا حوامها
 حوتنا عتادها . وإن افتحننا بها فتحناها . والمسلمون بمجيلة مجبولون على التسليم
 مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منكم بالنعم ؛ فعرفناه بصحة نصحه ، ورفعناه
 بمجبة نجه .

وأصغى السلطان إلى قوله ، وأصغى له ورد قوله ؛ وأقبل عليه وقبلة ،
 وأجزل له العطاء وأكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بيرا (٤) ،
 فوفر لهم زواتهم وأجرى . وخلع عليهم وشرفهم ، وأسعدهم بالمواب
 وأسعفهم . فندبوا إلى أتباعهم ، وكتبوا إلى أشياعهم . وأجمع السلطان على
 دخول الساحل بترك الساسكر والجحافل .

ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، حافل الجحفل سامى القسطل .
 ماضى البصل (٥) . فبيرنا فى أجام مؤتشة (٦) ، وآكام معشبة . وحزون (٧)
 وسهول ، وشعاب وتول . ومعالم ومجاهل ، ورواب وهواجل (٨) . ومغايض
 وغياض ، وإرتفاع وانخفاض . حتى خرجنا إلى ساحة الساحل ، ونزلنا بها
 ومبارك مبارنا مواجى رسوم تلك التواجى المواجهل (٩) . ومعنا أجمال وأوساق

(١) الجابل : البئلة؛ لصنيه الجبالة .

(٢) طفنة : ما يتطل به قبل القضاء .

(٣) تغبية : بئر .

(٤) جبل بيرا : أودية بجران ، ودينة بجران ، والبحرة أقصى ماء يلي قرقرى لبى عيسى
 بن زيد بناء باليمامة (ياقوت ج ٤ : ١٥٥ ط ب) .

(٥) البصل : أى السيف .

(٦) مؤتشة : أى غططة .

(٧) حزون : جمع حزن يسكون الزاى وهو ماغلظ من الأرض ، وقل ما يكون إلا مرتعفا .

(٨) هواجل : جمع هواجل وهى المقارنة البعيدة التى ليست بها علامات .

(٩) المواجهل : جمع مواجل هو موضع الوصل .

وأثقال وأسواق . وأزواد وأعداد، وعدد وأعداد. والخيل عرمرم، والسيل عرم .
والمجر لجب ، والغيل أشب (١)، والأسند في عريس من الأمل العراض ،
والقوارس الصلاد في غدران من السوابع الدلائض ، وقد نشأ العجاج
كمعجاج النشاص (٢).

فانخلت بجلولنا معاهد المعائل ، واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل .
وحلت لخطبة سيوفنا كرام الخوالي (٣) والعواطل (٤) . ونحن في استباحة واستباه
واصطلام واصطلاء ، وارتياذ وارتباه ، وقتك بأعداء ، وسفك لذماء .
وبتك لرقاب ذوى الفجوز ، وهتك لحجاب ذوات الخيلوز .
نبال من العدو كل نيل ، وندير عليه في داره دائرة كل ويل . فما تقطع
الأوديا بغيظ الكفار ، ولا تخضر إلا ناديا نزيدهم به الدمار .

وسرنا الساحل الساحل، في ثلاث مراحل . حتى وصلنا إلى أنطرطون (٥)
يوم الأحد سادس الشهر . فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، ووجهت إليها النابضين ،
وحفز عليها الياس ، وخاب رجاء رجالها وخب بخونها الياسين . وقاتلناها
ساعة ، فلم يجد أهلها للدفاع استطاعة . ودخلت من جوانبها ،
وتخللت من مباهبها ، وأصابها نوائبها ، ونابها مصائبها ، وفل غربها
وجب غاربها . وقتل من لحق من رجالها ، ونهب ما وجد من أموالها ، ويقطع
ما صودف من غلالها ، وسى من أخذ من نساءها وأطفالها .

واعترض من ثجا بيرجين اختصمنا بالامتناع ، وهما هناك من أحككم
القتلاع . وفي أحدهما الداوية جمرزة الكفر ، وهما هم مقدمهم الذي أطاق
من الأسر .

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتصق : أشب : نام مرتفع .

(٢) عجاج : صوت . النشاص : السحاب المتراكم ينفض فوق بعض .

(٣) الخوالي : ذوى الجيلة ، شذير الأجيال ، البطراء بصحيل الأمور .

(٤) العواطل : جمع عطل وعاطل وعاطلة : وهي المرأة لم يكن عليها حلل .

(٥) أنطرطون : بلد من سواحل الشام وهي آجر أهال دنشق من البلاد الساجلية لأول

أهال بخص ، كانت حصنة عند تصعيدة بن الصائغ كما ، ثم بنى منارة المدينة، وحسنها بإقوت

ج ٣ : ٢٧٠ ط . ب .

وفى البرج الآخر المنهزمون التاجون ، والفارون إليه اللاجون . فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم إلى الخروج بالتسكين . ووثقوا بأمانه وأمنوا بميثاقه ، ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه .

فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهدمه ، وحل من إحكامه ما الكفر شده . وركب الثقب على ركنه العالى ، ونكبه فى ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب اليبالى . وخرب إلى أساسه سوره ، ورمى إلى البحر صخوره . وامتنع برج الداوية بدائها اللوى ، واتبع مردهم فى التمرد هوى طاغوتهم الهوى . وأقام العسكر حتى تقضى أسوار أنطرطوس وقوضها ، وربضنا بها إلى أن عفيتنا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وما كانت فيه فرصة لو أدركناه . وكيف كنا نشغل بفتح برج عن فتح البلاد ، وللفرص أوقات هى لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب (١) لا يعرج على بنيات الطرق ، ولا يستغنى مدلج الليل بالدرارى عن القلق .

ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر . ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت ، وتشعثت عمارتها واختلت . وكان جوازنا إلى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب (٢) ، وهو معقل للاستبارية على المنكب ، سامى المرقى والمرقب ، ضيق المذهب ، عسر المطلب . فلم يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطريق .

وقد صفت الفرنج فى البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الرجال والراكب . وفوقوا الجرخ للجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح والطرح . فعدت العبور ، وكثر العثور . وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوذ الظهور وظهر الاعواز .

وذلك أن صاحب صقلية ؛ رام أن يكشف عن الفرنج البلية . فجهز

(١) اللاحب : الطريق الواضح .

(٢) حصن المرقب : قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض .

المتوسط) وعلى مدينة بانياس وهو على ساحل جبلة (ياقوت ج ١٦ : ١٠٨ ط.ب) .

أسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبثا
 ثقيلًا ، واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها
 قلعة أو قلعة . من كل شئ من شأنه شن الغارة ، ومن عاداته العادية تشييت
 العمارة . مع طاغية يقال له المرغيط ، قد عرف منه التوريط ، من أرجس
 الطواغيت ، وأنجس الغفاريت . فوصل إلى طرابلس بطوله وأسطوله
 وصوله وصوله . فما أحلى ولا أمر ، ولا تقع ولاضر ، ولا استقل ولا استقر ،
 ولا تنقض ولا أمر . بل صار على الفرنج وبالا ، وأحدث لهم بما يسومهم من
 مؤنثه إعمالا(١) ، وما تخفف عنهم بل زادهم على الثقل أثقالا ، ووجد الكفر
 في أوان توانيهِ ، فلم يتنفع ولم يرتفع شأن شوانيه . وصار إلى صور ثم رجع
 إلى طرابلس ، وتردد في البحر وتلدد وأبلس . وتفترقت جماعته ، وتجنبت
 شجاعته . واضطرب في البحر أشهراً ، لا يظهر له رأى ولا يرى له مظهرآ .
 فتقطعت أقطاعه ، وتتابعت في الفرار أتباعه . حتى عاد في عدة يسيرة ،
 وشدة عسيرة .

وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة
 في البحر من جوانبه . قد ضيق الطريق ، ولم يطرُق المضيق ، فأمر السلطان
 بجمل الجفاني إلى هناك وتصنيفها ، والستائر وتأليفها ، والتراس وترصيفها ،
 وأقعد من ورأها على مقابلة سفن القوم وازأها ؛ الكماة النخية ، والرماة
 الجرخية . حتى تباعدت تلك السفن ، ودب إليها الوهن ، وتمت عليها
 المحن ، وأنحت الإحن (٢) . ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابراً ، وسار
 ظاهراً وظهر سائراً . وجزنا على مدينة يقال لها بُلُنْيَاس (٣) ، وقد
 أُجفل عنها الناس . ونزلنا في أرضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ،
 وأنسنا بنهرها وزهرها في الأرواء والرواء ، وحبستنا على تواضر رياضها

(١) الجلب .

(٢) الإحن : جمع احته وهو الحقد .

(٣) بلنياس : كورة ومدينة صغيرة وحسن بسواحل حمص على البحر ولها سيه .

باسم الحكيم بلنياس صاحب اللطبات (باترت ج ٤ : ٤٨٩ ط . ب) .

بواظر الإرضاء . وبتنا وتفوحات البادي مريضة . وجنيات الوادي مريضة .
والنسيم العليل لليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو جميل ، ولقدح
الفوز من تأييد الله لنا جميل . وأصبحنا على الرحيل ميكرين ، فساء صباح
المتنرين .

وسرنا وسرنا في سرور ، وسفرنا في سفور . وجمعنا في اجتماع ،
وجعلنا في إرتفاع ، ونهجتنا في اتساع ، وركبتنا في إمتناع . وعارضنا بحر عريض
عميق ، ما فيه طريق . وهو مطرد من الجبل إلى البحر ، فازدهم العمكر
عند ذلك النهر ، وتواقعت الأجمال والأقال عند العبر ، وليس عليه
للاقطرة واحدة فصا دموا على ذلك الجهر .

وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، وامتبع من عمكره
بعد الزمر الزمر . ونزل عشية الخميس على بلدة (١) . وعانت الأقال
في تخلصها من الشدة الشدة . وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل
إلى القرار السيل .

وهذه بلدة كاسيها بلدة على شاطئ هذا النهر ، وساحل البحر . حصنة
البناء مضمونة البناء . قد حصنها الاستطار ، وحسبها الاستظهار . وقطعوا
عنها ملبوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخرق . وألفنا بلدة أيضاً خاوية
على العروش ، جاورته العروش . خالية من الأبنس والإنيس ، (كان لم
أبنس بالأبس) (٢) ، ولقد انزعج أهلها ، وتشتت شملها . وتخوف أمنوها ،
وعدم الشكون ما كنوها .

(١) بلدة من مدن بلاد الشام قريبة من حلب (بالتقريب) ٢٦٨ طينها ١٩٢٧م

(٢) آبق ٢٤ صوبر قريش

ذ. بكر، فتح بخييل.

وأشرفنا على جيلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وقد اشتهر يومه النصر، واشتد على الكفر وهق القهر. وكان قاضي جيلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة.

فلما بصر مسلمو البلد، بما وضع في الحد من الحد، وسنح من الظفر المتضافر المدد، خرجوا مستسلمين مسلمين، مستسلمين بعر الإسلام معصمين. وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة، والتهدت بحمد الله الألسن الشاكرة واتهدجت القلوب المحبورة.

وتحصن الكفرة من الجبلين، ويطأوا في التحيز إلى الحصنين، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا، قال إنه بحصاته ومنعته ينجينا. وعاد يعظمهم الأكر، بحصن البلد وهو المقل الأكبر، وتوسط لهم قاضي جيلة في أخذ الأمان بعد قبض الرهائن. على أن يعيدوا من أسرهنوه في أنطاكية من أهله ويجمعوا شملهم بشمله. ويسلوا إلينا كل ما لهم من سلاح وعدة، ونخيل وخنزيرة وغلة.

وتسلمنا الحصنين يوم الخميس، وعادا مأهولين من الإسلام بالأنيس، وكرمت بالكرام جيلة جيلة، ونفت عنها بالفئة المقبلة الفئة الشقية المختلة. وسعد أهلها بعد الشقاء، وتوضوا من الشدة بالزخاء، وأفضى اليأس بهم إلى الرجاء، وفاعوا إلى الوفاء. وانتقل أهل الجبل إلى جيلة طائعين بعد العصيان، مصافحين بالمصافاة بالأيمان أيمان أهل الإيمان.

وكان حصن بكر إسرائيل (١) قد تسلّم من قبل واتصل بفتحه الجبل، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله، وكانوا قاضي جيلة مدعين، بإيمانه مؤمنين، ولدعائه مليون، وأبقائه محيين. ونجوا من العار والتبار،

(١) حصن بكر إسرائيل - حصن من سوابل حصن مقابل جبل في الجبل (بالتورج) :

وضم الكفار ، وتاجوا بالاستبصار والاستنصار ، والاستغفار والاستغفار ،
وأضت (١) تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على سكانها حانية ، وتلك
المدينة لأهل الدين دائنة دائنة ، وتلك الجنة العذبة الجنة لورد دم الجنة
من شوك القنجانية . وتلك البنية لعالم المعالي في هدم أساس الاساءة بانية ،
وتلك الهضبة راسية ، والتربة كاسية ، والرربة سامية ، والرربة رابية ، والنروة
عالية ، والحالة حالية .

وأقام السلطان بها أياما حتى أزال شعثها ، وأزاح (٢) خبثها ، ورأب
صدعها ، ورب (٣) ربعها ، وشاد ركنها ، وشد حصنها ، وجب كفرها ،
وجبر كسرهما ، وجد بها جذبها ، ونخص بها خصبها . وبالعدل عمرها ،
وبالفضل غمرها . وبالرعاية ملاءها ، وللرعية كلاًها . وبجمل قاضي جبلة
وشرفه ، وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفه ، وصرّفه في أملاك آبائه ، وحكمه
في ولاية حكمه وقضائه .

(١) أي طلبت وأريدت .

(٢) في ب أزاغ والصحيح من ل .

(٣) أي أصلح .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشرى الشهر يوم الأربعاء ، منشور اللواء ، منصور الأولياء ، مشكور المضاء ، على القدر قادر العلاء . ناجح الآراب راجح الآراء . وسار برعب إلى العدو يقدمه ، وعزم على الغزو يصممه ، وأمر بامرار الأحكام يحكمه . وجد على تدبير الدين يقفه ، وحد في تدمير الماردين يرهفه . وسعادة تويده ، وتأيد من الله يسعده . وسطوة على الكفار يرسلها ، وجنوة في أهل النار يشعلها . وجيش للوثبات ينشطه ، وجأش للثبات يربطه . وهيبة تروع الخواطر ، وهيبة تروق التواظر .

وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين . قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم ، وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم . والخوف عليهم مستول ، والذعر فيهم مستعل . والأفئدة منهم خاققة ، والأندية بهم متضايقة ، والمهج في سوق الردى نافقة . ونحن طول الليل من السوايق في جر الذيل ، ومن السوابق في اجراء الخيل . ومن نشاط العزم في اهتراز ، ومن احتياط الحزم في احتراز . ومن انتخاب الأجواد والجياد في انتقاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالمواضب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالمواضب في اقتضاء ، والمقشربات تسرج والسرينجيات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب . والصورم تنتضى (١) ، والصرائم (٢) تقتضى . والقوارح (٣) تضمر ، والقرائح تخمر . والضوامر تجرى ، والبواتر تعرى . والصلاد تلجم ، والدلاص تستلأم . والحنايا توتر ، والمنايا تؤثر . والجاليشية تعبي ، والجاوشية (٤) تلي .

(١) تنتضى : تستل من أغمادها .

(٢) الصرائم : الزائم .

(٣) القوارح : جمع قارح وهو الأسد .

(٤) الجاوشية : يفهم من السياق أنهم كانوا جنوداً عليهم التناء لاستنفار الناس أو

الجنه للجهاد أو القتال (السلوك المقريزي ج ١ : ٨٧ تحقيق د. زيادة) و

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح ، والمتجر مريح ، والمقعر متوضح ، وللباش فرح ، وللجيش مرح وقرح ، والعلو مقترح ، وزند الفتح مقتدح ، وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتوح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الأحداق ، وخططنا بابر السهام من موقها الآماق ، وأخبرناهم بالارهاق الأرماق ، وأنهضنا إليها الحجار والنقاب والزراق . وأطرونا الشباب إلى أوكار المقل ، وأزرناهم زسل النضال بكتاب الأجل ، وسمننا من ضوضائهم زجل الوجيل ، ورأيناهم تغلي صدورهم بنار الحقود من اجل الغل ، وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقين مابين تلك القل . وجدوا في القتال ، وشدوا على الرئجال ، ومدوا ظلال الضلال ، واحتدوا بالنضال في النضال ، وردوا النبأ بالنبال ، وسدوا ملهبا الأهواء بالأهوال .

وهناك في الزنبورك بورك ، فانه بالخرج دورك ، وقلنا للكفر اخرج لندخل إلى دورك ، وأى دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك ، وطالما سكنت دارنا فآخرج ، ودرجت إليها فآدرج .

ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار ، ونغطي سنى يومنا بليل الغبار ، ونرفع من السور حجابة بالحجار ، حتى فرنا بتمكن النقاب والحجار ، وأخذت عليهم القوب ، ووقدت منهم القلوب . وبلغ النقب من الشمال في الطول ستين ذراعا ، وأربع أذرع في العرض اتساعا . وهى ثلاث قلاع متلاصقات ، على طول التل متناصقات . كأنهن على رأس رأس رأسخ ، وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها (١) ، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها . وناوينا عليه القتال ، وجاوبنا بالنضال ، وأوضعت بنات الكنائن بظمائن الضمائن ، وأثارت من مكان الأحقاد كوامن الدفائن .

ودام الزماء ، ومريت (٢) الدماء . وانتجع النجيع ، ووقع ذلك الرفيع ، فاستبطنى السريع ، ونحطى الصريع . وأبضروا مالا عهد لهم بمثله ، وعابنوا ما عانوه من غريم الموت المطل في مظهره . وفتح الحيف بابيه ، وحفز

(١) أى نزولها .

(٢) غزيت : جرى الدم . أرسله .

الزحف أصحابه ، وكشر الشرك نابه ، وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه . ونفر الناس لإيهم ، واستطالوا عليهم . وطمعوا فيهم ، والأجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم ، يواء (١) في يوارهم . ووبل النبل هام ، وأهل الجهد في ضراب وضرام ، وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزرع (٢) ، ومنأ فيهم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبار ، واستشعروا منا وزال منا الاستشعار .

وكان لى مملوك صغير قد زحف ، وأرهب وأرهق ، فقبل خذه سهم ، فرجع وإذا وجهه طلق لا جهم ، وهو بقرحه فرح ، وللفرح بالشهادة مقترح ، وقد عدله الجرح ، وحسنه القبح .

فلما عرفوا أنهم مدركون ؛ وأنهم يؤخذون ولا يتركون ؛ صاحوا الأمان ؛ واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية ، وكان فتح ذلك المعقل من الله مشية . فانه موضع ما فيه سطع ، ولم يكن للكفر غيره مفرع . وصعد إليهم قاضى جبلة يوم السبت غدوة ، وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوة . وطلع السنجق (٣) المنصور ، وانجلت الظلمة وتجلى النور ، وأشرق الفلق وزهق الليجور ، وبدأ الفجر وباد الفجور ، وسرت القلوب وأقبل السرور .

وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيرة ، وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وانصرفوا بنسأهم ورجالهم ، وذريتهم وأطفالهم ، وخفوا من أفعالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة ، وتمسكوا بمجبل العصمة . وانتقل الباقون إلى أنطاكية ، وأيقنوا أنهم وجدوا يجد رسوم السلامة العافية العافية .

ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه ، وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشرار وتشريكه ، ثم ولى بها سنقر

(١) يواء : مساولة .

(٢) الزرع : القلق ، أوردعة تترى الإنسان إذا دام بالأمر .

(٣) السنجق : اللواء .

الخللاطى - مملوكه ، وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه . فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية ، وانتهى إلى الغاية فى نهي أولى الغواية ، وأقام جاليا للغاية ، على الرأى والراية .

وركب السلطان إلى البلد وطافه ، وهز إلى إحسانه أعطافه ، وأدنى إلى عدله قطافه ، ووفر أطفافه ، وأصنى نطافه ، وأمنه بعد ما أخافه .

ورأيتها بلدة واسعة الأفنية ، جامعة الأبنية . متناسبة المعانى ، متناسقة المغانى ، قريبة المجانى ، رحبية الموانى . فى كل دارستان ، وفى كل قطر بيان ، وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكتها محرمة ، وأروقتها مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ، ودعاتها منظمة ، ومسكنها مهندسة مهنمة ، وأماكنها ممكنة ، ومحاسنها مينة ، ومراتبها معينة . وسقفها عالية ، وقطوفها دائية . وأسواقها فضية ، وآفاقها مضية ، ومطالعها مشرقة ، ومرابها موفقة (١) . وأرجاؤها فسيحة ، وأهواؤها صحيحة .

لكن العسكر شعث عمارتها ، وأذهب نضارتها ، وأزعج ساكنيها ، وأخرج قاطنيها . وملك دور المشركين للموحدين ، وطهرها من رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام ، ونقلوا منه أحمالا إلى منازلهم بالشام . فشوها وجوه الأماكن ، ومحواسنى المحاسن .

وبظاها اللاذقية كنيسة عظيمة ، نفيسة قديمة ، بأجزاء الأجزاء مرصعة ، وبألوان الرخام مجزعة (٢) ، وأجناس تصاورها متنوعة ، وأصول تماثلها متفرعة . وهى متوازية الزوايا ، متوازنة البناء . قد تحيرت بها أشباح الأشياء ، وصورت فيها أمواج الأمواه ، وزينت لآخوان الشيطان ، وعينت لعبدة الصليبان .

(١) موفقة : حسنة تمجيب الرأى .

(٢) مجزعة : جزعت بالرخام ، جعل فيها قطع منه .

ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوهوا أعلامها ، وحسروا
لثامها ، وكسروا أجرامها ، وأهدوا الأسي لهد أساسها ، وأفاضوا عليها
لباس إبلاسا ، وحكموا بعد الغنى بافلاسا . وافترقت وأقترت ، وخربت
وتربت .

ثم لما طابت النفوس ؛ وتجلى عن البلد بفتح البوس ؛ عاد إلى هذه
الكنيسة بالأمان القسوس ؛ وهي متشوهة متشعثة ، مستسكة بأركانها
وقواعدها متشينة . ولقد كثر أسنى على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى
تلك الحالات الخاليات كيف حالت ، ولكننا زاد سرورى بأنها عادت
للإسلام مراع ، ولسروحه مراتع ، ولجموعه مجامع ، ولشموسه مطالع .
قلوبيت بجليتها وحالتها بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها ، لشاقت
ورافت ، وكما أفاقت فاقت . وشأت (١) البلاد إذا شاعت ، لكنها
ساعت لما أساعت . ثم أعادها الإسلام إلى أحسن حالة ، وجلا لها في السناء
أسنى جلالة .

ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن ، حبا
للوطن وسكونا إلى السكن . فأض مأمول الجنى مأهول الجنب ، وعاد بتجار
البحار مملوء الرحاب . وتبدل بالأبدال الأختيار ، والأرباب الأبرار ، من
بعد الكفار الفجار ، والأشرار أهل النار .

وكانت شوانى صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية طعما في امتناعها ،
وطلبا لذيادها عنها ودفاعها . فلما خابت خبت نارها ، وباخ (٢) أوارها ،
وقصدت لجلهها أخذ مركب من يخرج من أهلها ، لكونهم شغلوا عن
صوتها يبنلها . فامتنعوا عن الانتقال ، وأمنوا بعقد النمة على النفس والمال .

وكان السلطان بوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند مينائها ، وقد حصّل
من ترتيب العمارة مناهها . فطلب مقدم تلك الشوانى أمانه ، ليصعد ويشاهد
سلطانه ، فأمنته حتى صعد ، ولو أسلم ذلك الشقى أقلت سعد . ولما حضر

(١) شأت : تسابقت ، تفرقت .

(٢) باخ : خد وتر .

الكافر عفر وكفر ، وتروى ساعة وتتمكر . وأحضرنا الترجمان ، وأدى عنه البيان وقال « أنت سلطان عظيم ، وملك كريم ، وملك رحيم . وقد شاع عدلك ، وذاع فضلك ، وقهر سلطانك ، وظهرا حسانتك . فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت ؛ وأفضلت عليها وأحسنت ؛ لملكنا قيادها إذا أعدت بلادها . وساروا لك عبيدا ، وأطاعوك قريبا وبعيدا . وان أبيت غير الغيرة والاباء ، ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء ؛ جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباقي ، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم أروم النار ، وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوى الأقاليم ، من سائر الممالك والأقاليم . وأتى الأتى ، ولا يقاوم القدر الماتى . وهؤلاء أهون منهم ، فاتركهم واصفح عنهم » .

فقال السلطان « قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون فى طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد فى الجهاد ، وامتنال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ، ولا تكترث الآساد بكثرة النقاد (١) ، ولو اجتمع أهل الأرض ، ذات الطول والمرض ، لتوكلنا على الله فى اللقاء ، ولم نبال بأعداد الأعداء » . فلما سمع ما فهمه من نجهه ، ذهب بعد أن صلبه على وجهه ، وركب بكريه ، وكر بركبه ، ولم يغن خطابه عن خطبه .

(١) النقاد : جمع نقد أو نقدة ، جنس من الفم صغير الأرجل ، سفلة الناس والمقصود عدم الاكتراث بالكثرة .

ذكر فتح حصن صهيون (١)

ورحلنا ظهر يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى ، والهلى فى نصره بين أنصاره يتهادى ، وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى ، وأن العزم عن الفداء بالمهج فى سبيل الله لا يتفادى . وأخذنا على سمت صهيون ، وهو حصن يفوق الحصون . ويفوق العيون ، وطلبناه كما يطلب الدائن المديون ، ونحن للكفر مميون ، وللإسلام محيون .

وكان الطريق إليه فى أودية وشعاب ، ومنافذ صعب ، ومضايق غير رحاب . وأوعاث (٢) وأوعار ، وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطرق فى يومين ، ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين ، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين ، ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهى قلعة على ذروة جبل فى مجتمع وادين ، بها محيطين من جانبيين . والجانب الجبلى قد قطع بمنندق عميق ، وسور وثيق . والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ، ممتئة بذئاب سغاب ، وأسد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع ، وهى ممتعة علينا بالركن الأيمن ، والسمو الأيمن .

ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل بكرة اليوم ، وشرع فى محاصرة القوم ، وقامت أسواق الأقواس للمنون فى مغالاة السوم . وتوفرت سهام السهام من المقل ، وتبدت بنات الكنائس من الدم القانى حمر الحلل . وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور ، وكشفت صدور الكنائيات أكنة الصدور ، وظهر سر السراء ، وكثر مرآء الرماء . وزخر دأماء الدماء . وطارت الحجارات وحجرت الطيارات . ودارت حمياً الحمام على أولئك ، واستنجدت ملوكنا الملائك ، وأدامت إليهم المجانيق والجروح والقسى الرمى المتدارك .

(١) حصن صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام (البحر الأبيض) من أعمال

حصن ليس بمشرف على البحر (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٦ ط ب)

(٢) أوعاث جمع وعث أو أوعث ، وهو الطريق الغليظ العسر السلوك .

وأقام الملك الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ، ونهج بهما من جانب الوادى إلى ردى الأعادى طريقين . وكان له فى فتح هذه القلعة الجدى العالى ، والجدد الوالى . والعزم الماضى ، والحزم القاضى . والسعى الناجح ، والرأى الراجح . والبأس البالغ ، والسطو الدامغ . فانه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماه ، وقد استصحب الكماة الحماة . ومعه الرجال الحلبية ، والمنجنيقية والجرخية ، والجاندارية والحراسانية . فأظهر على صهيون اليد البيضاء ، وكسب الذكر والثناء ، وأثار فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتال على المكان من جانبه ومن جانب السلطان . والملك الظاهر فى تظاهر ملكه . وتضافر سلكه ، وريعان اقباله ، وعتفوان جلايه ، وشباب رهان مجاراته ، وشبا برهان مباراته ، وإبراق عوده ، وإشراق سعوده ، وغرة عزته ، وميعة (١) منعته ، وصلبر تصلده ، وشرخ (٢) تأمره وتشمره . وقد وصل فى أول نشاطه ، ونشوء اغتباطه ، وقتاء (٣) فتوته ، وروءا رويته . وارتقاء ارتفاعه ، وإيقاع يفاعه . وترعرع سنه ، وترعرع (٤) ركنه ، وتسامى سيادته ، وتراقى سعادته . وأجد لعز العزم الجدد ، وأعد لرى الرأى العد . واستلذ فى سبيل الله نصبه ، ورفع المنجنيق ونصبه ، وجعل لرجاله نوبا ، ولأحواله رتبا ، وألتم أفواه كفتاته (٥) حجرا ، وأجرى فى الحثق من الحجارات الجاريات من منابعه نهرا ، ورجم الحصن الزانى رجم المحصن ، وأحسن إلى الإسلام وأساء إلى الكفر فله در المسيء المحسن . وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى ؛ والحنايا بسهام المنايا تصمى ؛ حتى قتلت مقاتلة الحصن ، وهان بما دب فيه من الوهن .

وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة ، وطما بحر العسكر

(١) ميعة : الشيء ، أوله وأصله .

(٢) أى أوله وريعانه .

(٣) فتاء : جمع فتى ، هو الشاب من كل شيء .

(٤) تمرعه : علو ركنه ، والمقصود كناية عن السمو والرفعة .

(٥) كفتاته : أى سابقيه .

بأمواله الزاخرة ، وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهرة .
 وهاج الشباب ، وماج العباب . وتسابق ذوو الجرأة والقوة ، وتلاحق ذوو
 الحمية والنخوة . وكان في قرنة (١) الخندق عند خرقه إلى الوادي موضع
 لم يكمل تعميقه ، ولم يتم توثيقه . فتطرقوا من تلك القرنة إلى القنة (٢) .
 وتسوروا السور وتسلقوا ، وتقلعوا إلى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذرورة
 وأمسكوا العروة . واستولى على أهلها الرعب ، واستشرى بهم الكرب ،
 فتعادوا إلى القلعة (٣) ، وتقادوا من الخوف لا من القلعة . وملكت عليهم
 ثلاثة أسوار ، بما فيها من متاع وشُوار(٤) ، ونعم وأبقار ، وصاحوا :
 الأمان ! وبدلوا الإذعان . ونادوا ، مكنونا من السلامة ، وتسلموا المكان ! .
 فما آمنوا على المال والنفس ، حتى قررنا عليهم مثل قطعة القدس .
 وأغلقت دونهم الأبواب . وسيز إليهم النواب . وما استقر خروجهم حتى
 استخرج منهم القرار . وجبي الدرهم والدينار ، وعم الكبار والصغار
 الصغار . وتولى ذلك (شجاع الدين طُغرل الجاندار) . ثم سلم حصن
 صهيون بجميع أعماله ، وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله ؛ إلى الأمير
 (ناصر الدين منكورس بن خُمارُتْكِين (٥)) ، أسد العرين وأمير
 المجاهدين . المقدم الممام ، والمطعمان المطعام . فألقى الثغر سداه بسبباده ،
 وأمرع به مراد مراده .

(١) قرنة الخندق : أي الطرف الشاخص منه ، زاويته .

(٢) القنة : قنة كل شيء أعلاه ، أو الجبل الصغير .

(٣) القلعة : رأس الجبل .

(٤) أي من لباس ومتاع مستحسن .

(٥) ناصر الدين منكورس بن خمار تكين : كان صاحب قلعة أبي قبيس ، وكان أسد

أصحاب صلاح الدين ، سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤ هـ وكذلك حصن برزيه

(تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ٧٤ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العينو (١) . ويوم الأحد قلعة الجماهيرين .
ويوم الاثنين حصن بلاطنس . وندب إلى كل حصن من تسلمه ، وسلكه في
سلك الفتوح ونظمه .

(١) قلعة الميذو أو الميذو أوعينون ، بنواحي حلب (ياقوت ج ١٤ : ١٧٦ ط.ب) .

ذكر فتح حصنى بكاس والشغفر (١)

وسار السلطان ثانياً يوم فتح صهيون على سمت القرشية (٢) ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على (العاصي) في طاعة الله والنصر قد نزل ، والكفر قد انحذل ؛ يوم الثلاثاء سادس الشهر ، وبحور السوابج في غلران السوابج مائجة على ذلك النهر ، وحكم السلطان في القهر ماض باذن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور .

وحول خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغفر ، وهي قلة شامخة من أعلى القلل على هضبة منقطعة ، عالية مرتفعة . ومن نواحيها واد ، خاف من العمق غير باد ، في أعماق ووهاد . وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها ، وأخذ من العوادي موثتها . فما إليها طريق ولا عليها طروق ، ولا فيها للطمع علوق (٣) ، ولا للسهم إليها مروق . ولا للزحف فيها مطمع ، ولا للذرع نحوها مطمع . ولا للطير في مراحها وكر ، ولا للمكر في افتتاحها مكر . ولا للوهم في توقتها (٤) مجال ، ولا للفهم من تصورها منال ، ولا لها بمن يحتمل بها احتفال ، وما عليها للنازلين عليها قتال ولا نزال ، ولا يتغير لها مع تغير الأحوال حال . وصعب شغل الشغفر (٥) واشتغل فكر الكفر .

ولم ير السلطان طريقاً غير الرمي من المنجنيق ، لعله ينال جمعها بالتفريق .

(١) حصنا بكاس والشغفر : قلعان متقابلتان على نهر العاصي من نواحي حلب بينهما واد ضيق (ياقوت ج ٤ : ٣٧٤ ط.ب) .

(٢) القرشية : قرية بسواحل حمص وهي آخر أعمالها ، مما يلي حلب وأنطاكية (ياقوت ج ١٥ : ٣٢٣ ط.ب) .

(٣) أي النفيس من كل شيء .

(٤) أي الصعود إليها .

(٥) الشغفر : ناحية كل شيء ، والشغفر من الوادي أعلاه .

وداومها بالحجارات أياما ، ولكم سدد بها مرمى ومراما : ولم تعبأ بأعبائها ،
فأنها ترامت عن رمائها . وأبت إلا نباتها ، وثبتت على إنباتها ، وأعياء أعضال
دائها ، واستفحال بلائها ، وخام الرجاء بالإرجاء عن أرجائها . ولولم يضرجر
حاميتها لضجر راميتها ، وسُم سائمها لتساميها . لكنه وهى جلده ،
وهوى خلدته ، وخار قلبه ، وحار لبه . وخاف من الإقامة ، وخاب من
السلامة . وارتاح إلى الراحة ، وسما إلى السراحة . وعاج إلى الانزعاج ،
وعاد لداء خوفه في الاستئمان يطلب العلاج . ودعا إلى الدعة ، والخروج
من الضيق إلى السعة .

فبينما نحن في تروّ وتفكر ؛ وتخير للرأى وتدبر ؛ ونقول : « هذا حصر
يشدد وأمر يمتد ؛ وعمل يصعب ؛ وأمل يتعب ؛ ومعقل لا يجتدل ، ومعقد
لا يجتدل ؛ ومقصد لا يدرك ؛ ومورد لا يملك ؛ ومكان لا إمكان لفتحته ؛
ورجاء يطول الزمان في تطلب نجحه » ؛ إذ خرج من الحصن ؛ من يضرع
في الأمان ويمتري ضرع الأمن . فشكرنا الله على تسهيل المتوعر ، وتيسير
المتعسر ، وتحصيل المتعذر ، وتلقيح الرجاء من اليأس ، وتنقيح مناط حكم
الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم
الثلاثاء ، وسألوا في مهلة ثلاثة أيام والأرجاء ، ليخبروا صاحب انطاكية .
ويستأذنوه ، ويبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن ويسلموه .

فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر ، وجناب الشرك مقفر .
والشجر شاغر ، والكفر صاغر ، وفم القهر منا لهم فاغر ، والاسلام قد نلم
نفر من هو له مئاغر (١) . والحصن البكر مفترع ، والدين المتأصل بشعب
النصر متضرع . وطلع العلم إلى ذلك العلم الطالع ، وانتمم الهدى الضليع من
الضلال الطالع (٢) . وكأئنا عذبات تلك الراية مقال الداعين ، وكأئنا
أبراج تلك القلعة مسامع الراعين . وعاد الحصن (٣) أهلا بأهل الاحصان ،

(١) مئاغر : جمع مئثر وهو الموضع المتناخم للعدو .

(٢) الطالع : المائل . المهتم .

(٣) في ب أهل وهو خطأ لغوي والتصحيح من ل .

وصافح بأيدي الأيدى أيّمان ذوى الإيمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر ، وفرغ القلب من شغل الشغل . وسلم هو وحصن بكاس ، إلى (غرس الدين قليج الساقى) - عدوة الموت - بكاس الباس .

وانتقل السلطان يوم السبت إلى مخيمه ، والاقبال جاثم في مخيمه . وسرى والده الملك الظاهر إلى قلعة سُرْمَانِيَه (١) ، وأرهب فيها الفجرة الجانية ، واستطلق منها البررة العانية ، وقطف مجانيها الدانية؛ وأخطى مغانيها الغانية . وما قطع قرارها حتى قرر عليها قطيعة ، وكلفها ما كانت له من المال مستطبعة ، ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعة . ثم خربها حتى خرب بها عاليها ، وعطل حاليتها ، وانجلى ثاويها ، وانتأى جاليها . وبقيت دُمْنَةُ دائرة ، ودُمْنِيَة عائرة . ورسما عافيا ، ورقما خافيا ، وربعا باليا ، وصقعا خاليا . وعادت دارا دارسة ، مستوحشة بعد أن كانت آنسة ، وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين ، فأخطى الله من السباع الضواري ذلك العرين .

ومن نواذر ألطاف الله تيسيز هذه الفتوحات الخمسة المتتالية ، في أيام الجمع الخمس المتوالية . باء فيها لنصر أهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد (٢) . وأصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيدى ، ظاهر اليد .

(١) سمرانية : أوسرمنية ، بليدة مشهورة من أعمال حلب أهلها اسماعيلية (ياقوت

ج ١٠ : ٢١٥ ط.ب) .

(٢) يقصد بأهل الجمعة ، المسلمين . وبأهل السبت ، اليهود . وبأهل الأحد ، الصليبيين .

ذكر فتح حصن برزويه (١)

وسرنا إلى قلعة برزويه وسرنا سار ، ودر الظفر لنا دار . وهي أحصن القلاع وأرفعها ، وأحسن التلاع وأرفعها ، وأسمق الرواسي وأسامها ، وأسم الرواسخ وأسناها . وكان السلطان سبق إليها وأشرف عليها . ثم استدعى الثقل واستحضر ، وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشرى الشهر يوم السبت ، وقد تهيأت في العدو أسباب الكبوة والكبت .

ثم تجرد يوم الأحد في العدد والعُدُد . ورقى إلى الجبل ، مع أبطاله النبيل . فرأيناها قلعة شماء في الذرا ، لا تكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال مترامية في السماء ارتفاعا ، وقيل قدر علو ثلثه فكان خمسمائة ونيفاً ومبعين ذراعا . فأحدقنا بها وبالجبل ، وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح ، فلم تصافحها صفائحها وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها ، وحارت الأوام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها . وتجاوزت عنها الحجارة فلها من اجازتها بها الاجارة . فما بلغت إلى القلعة ثلاثها (٢) ، ولا طلعت إلى التلعة ثلاثها ، هذا والنجم يلامع بلامها ، وتقارن طولاه طولها . فكان الصخور سلم نحورها ، فإن سورتها تنكسر دون الوصول إلى سورها .

ولما رأى السلطان أنه لا وصول إلى نيقها (٣) بالمنجنق ؛ وان الاشتغال به يطيل زمان التعويق ؛ مال إلى الزحف ، ولاحف جموعه في ذلك اللحف . وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء ، فقسم الناس

(١) قلعة برزويه . حصن بالسواحل الشامية ، والعامة تقول برزويه - على سن جبل شامق ، وعلو قلعها ٥٧٠ ذراعا كانت بيد الافرنج حتى فتحها صلاح الدين ٥٨٤ هـ (ياقوت ج ٣ : ٣٨٣ ط . ب) .

(٢) تلاحق : الحجر والمدريقتلغ من الأرض فيرى به .

(٣) أى أعلى مواضع فيها .

ثلاثة أقسام على السواء ، : وجعل النوبة الأولى لعماد الدين صاحب سنجار-
 الليث المصنار (١) ، والغيث المدرار ، والبحر الزنخار . والسيد الحلالحل (٢) ،
 والمملك العادل . في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح ، وعفاة الصفاح . ونفاة
 الهام ، بنبات الأقدام في الإقدام ، وشفاة الأوام بعلة الانتقام من الأوام ،
 وأساءة ذوى الاساعة باحسان الحسام ، وكساء عرى العراء أردية القتام ؛
 ورقاة أرقام (٣) اللهازم ، وسقاة حوائم (٤) الصوارم . والمزّاق في
 حومة الردى رداء المآزق ، والسباق في حلبة الهدى يهودى السوابق . من
 كل شارب ماء الوريد يشفاه الشفار ، وضارب هام المرید يبتار التبار ،
 ولاسع بجمحة الحمام فى الأسئل العاسل عاسل ، ولايس لباس اليباس كالأسد
 اليباس (٥) باسل . ومعتقد للدين بالردينى معتقل . ومعتد على العلو بعدائى
 معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ، ومجتب لحب
 المنون لرهون نفائس النفوس مجتاز .

فانقضوا على الهضيب (٦) ، وعضوا على العضب (٧) . ودام الصفا
 يدهده (٨) ، والصدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر ، والحافظ
 يخفى ويظهر . والرجال تتعالى ، والحجار تتوالى . والمصاعد ترقى ، والمصاعب
 تلتى . والمضايق تولج ، والبوائق تخرج . والآكام تفرع ، والرجام تفرع .
 وللصخور ترديد ، والجلاميد (٩) تميد .

وما زالت هذه النوبة تنازل وتقاتل ، وتناضل وتطاول ، وترمى وتُرمى ،

(١) المصار : الكثير المصر لأنه يحصر فريسته أى - يكسرها كسرا .

(٢) أى السيد فى عشيرته .

(٣) أرقام : جمع أرقم ، وهى الحية المنيطة ، ماكان منها فيه سواد ويبيض .

(٤) حوائم : جمع حائم وهو العطشان .

(٥) أى المقطب وجهه .

(٦) سبق التصريف بها .

(٧) أى السيف القاطع .

(٨) يدهده : يتلحرج .

(٩) الجلاميد : جمع جلود : وهو الصخر .

وتُدْمى وتُدْمى ، وتُصمى (١) وتُصمى . وترد وترد ، وتصد وتصد ، وتصدم وتصدم ، وتقدم وتحمج ، وتصدع وتصدع ، وتحمل وترجع ، وتذكو وتنطفي ، وتبدو وتختفي ، حتى كلت وملت ، وانحلت وتخلت ، وكانت غلبت لولا أنها لغبت ، وسمت لولا أنها سمنت . وألقيت هذه النوبة خاصة ، لأهل الحصن خاصة (٢) . فانهم تولوا بأجمعهم القتال ولم يقصدوا للتناوب الاستبدال .

ولما ظهرت في النوبة النوبة ؛ وكاد جوادها تناله الكبوة ؛ تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية ، والسطوة الدانية ، والعزمة الناوية غير الوانية . وخف في القتال من الرجال ، وزحف إلى الجبل بالجبال ، وتضافروا فطافروا في الأوعار كالأوعال . وجروا كالسيول في تلك المسائل ، وجروا ذيول السوابغ على تلك الهواجل (٣) . وترقوا في ذراها ، وقرروا على قراها (٤) . وتلبسوا بيجانبيها ، وتوجسوا من متاعبها (٥) ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها ودخلوا في مخارجها . وصارت الجروح تيموزهم ، والجروح لا تموزهم . والسهام تعبرهم ، والآكام تسترهم . والنخوة تحميمهم ، والحمية تنخيمهم .

وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم ، والتحذير من توريطهم وتفریطهم . فمن انقبض بسطه ، ومن أعرض ضبطه ، ومن أقبّل أربطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظه ، ومن تقاعس أحفظه ، ومن تناعس أيقظه . وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا ، وكلما اختبئوا بما فرعوه من تلك القوارع ارتبطوا .

فمنهم من تمكن من الطلوع ، ومنهم من تمكن للولوع . وتقلبوا في تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا أهل الحصن العناء والعياء ،

(١) أصمى : وثب وأسرع .

(٢) حاصه : أى داه أو مرض .

(٣) الهواجل : المفازات البعيدة التي ليس بها علامات .

(٤) أى ظهرها .

(٥) المتاعب : جمع مشعب وهو مسيل الحوض أو السطح .

وعمهم البلاء وأدركهم الشقاء . فأنهم ما زالوا يقاتلون يومهم من غير مناوية جميعا ، فمنهم من صد صديعا ، ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور ، وبدا منهم القصور .

وجاءت النوبة الثالثة تالية ، وأقدمت أمداها متوالية متعالية . وعادت النوبة الأولى لنشاطها ، وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا ، ولتهموا والنهبوا . وتعلقوا بالسور ، وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة ، وقلعت الطلعة . وانفضت العنزة (١) ، واقتضيت النصر . وأعان القدر فقدر الأعوان ، وتنجت بالفتح البكر الحرب العوان (٢) . وإن أهل القلعة لما أيقنوا أنهم ملكوا ، طلبوا الأمان حتى لا يهلكوا .

فلما سمع أصحابنا بالأمان صياحهم ، وعرفوا للضراعة التياحهم (٣) والتياحهم (٤) ، كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان ، وإشفاقا من سبي من يشمله الأمان . وكان جماعة من دهاة الخواص عارفين بطرق الاقتناص ، فأظهروا أن السلطان آمن أهل القلعة ، وأنه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنايس ، وأحرزوا النفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم ، على ظن أن السلطان آمنهم وحظرهم . وبقي أولئك الأفراد بهم متفردين ، ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسبيا ، وما رأوا لحق من شاركهم في السعي رعيًا . وحرموا ما ارتفقوا به وحرموا الرفقاء ؛ وحازوا دون الغانمين النهب والسبأ . وملك واحد مائة ، وحاز الرى وحلأ عنه رفقة ظمته .

ولما تسنى ذلك الفتح وتها ؛ وتسهل ذلك الصعب وتها ؛ عاد السلطان إلى خيامه ، وعادت الأيامن بأيامه . وكانت صاحبة حصن برزيه - أخت زوجة الأبرنس صاحبة انطاكية - وقد سبيت وخبئت . فما زال يطلبها

(١) أي البكارة .

(٢) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد أخرى أو أشد الحروب .

(٣) أي احتراق قلوبهم من المم .

(٤) أي تمطشهم إلى الشيء .

حتى أظهرها وأحضرها ، وكان بعد هنك سترها سترها . فن عليها بالاعتاق من الإرقاق ، وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق ، وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات ، ووصل جلمهم بعد البتات (١) . وشعبهم وقد تصدعوا ، وأشبعهم وقد تجوعوا ، وحظرهم وقد استحلوا ، وكأبرهم وقد استقلوا ، وحرهم وقد استبيحوا ، ومنعهم وقد استمبحوا . واحياهم بعد ما هلكوا ، وعصمهم بعد ما هتكوا . وحواهم وأغانهم وقد أفرقوا وافتقروا ، وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا .

وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على سنها ، فسرت بأختها ، وأعلنت بمقتها من سر مقتها ، وأذاعت من مضمير بغضها بمظهر حبها ، وجاءها الفرح في غمها والفرح في كربها ، وتشكت لأخذ بلدها ، وتشكرت لترك أختها ووالدها .

وأنعم السلطان بهذا الحصن على (عز الدين بن المقدم (٢)) - الكرم المكرم ، والمقدم المقدم ، والعظيم المعظم ، والماجد المجد - (ابراهيم ابن محمد) . فان هذه القلعة لثغر أرامية (٣) الحاربية في اقطاعه متاخمة ، وهي لها في السلم مقاسمة ، وفي الحرب مزاحمة . وسرت هذه البشرية وسارت ، ودرت هذه النعمى ودارت ، وطارت كتب البشائر : وسرحت على جناح الطائر .

وفيما كتبت « ان هذه البشرية بما أجده الله من الفتح العزيز ؛ والنصر الوجيز ؛ بفتح حصن برزبه الذى برزت له الأرض في قشب أثوابها ، وتفتحت له السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ، بل سفرت به عرائس

(١) البتات : القطع .

(٢) عز الدين بن المقدم : هو ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، صاحب منبج وقلعة نجم وأفاميه وكفر طاب ، توفى سنة ٥٩٧ هـ ، وخلفه أخوه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم (تاريخ أبو الفدا ج ٣ : ٩٩ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٣) ثغر أرامية : مدينة حصينة من نواحي الشام وكورة من كور حص (ياقوت ج ٢ :

٢٢٢ ط . ب) .

الأيام في حلى إيامنها ، وأشرق من أقمار الليالي في أنوار محاسنها ، وهذا الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة ، وكان حجره في حجر حصن للحضانة . وقد عرف مافتحناه من البلاد والحصون ، وسلبنا أهل الكفرها من السلامة والسكون . وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجى ، ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجا . حتى أتت إيامنا : ودانى فيه مرامنا ، فجاءه عصرنا ، وفجأه أمرنا ، ووصل إلينا ما هو في الأزل ذخرا ، وكل بهذه الانتوحات فخرنا .

وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية ، وسقينا بماء الحديد الجارى في أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكية ، وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه الحصون التي فتحناها ، والمعقل التي استبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا في فتح أحدها لتعذر ولو أنجهدت عساكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر ، وفتح ونصر ، وأنزل الظفر . وان حصن برزبه لم يكن عليه قتال ، ولا للوهم فيه مجال . ولا منصب عليه لمنجنيق ، ولا مسلك اليه لسالك طريق .

وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في أمره ، غير طامعين في فتحه ، ولا راجين لنجحه . فانقاد جماحه ، وانخفض جناحه ، وساء صباحه ، وكل سلاحه . وتوقل (١) الرجال في ذروته توقل النجوم في الأفلاك ، ونصر الله أهل التوحيد على أهل الاشرار . وفتحناه بالسيف عنوة ، ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوة ، فانا لما توكلنا على الله في منازلته ، واستعنا به في مقاتلته ؛ نظر الله الى النيات ، وأعان ذوى العزائم والثبات . فتعلقوا في الجبل ، وتسلقوا الى القلل ، وسعوا الى الأجل ، في طلب تسنى الأمل . فكان كما قال الله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (٢) حتى من الله بالظفر ، وأصبنى الورد والصدور من الكدر .

وقد بقيت انطاكية وما لها بقاء ، ولا لها في الاعتصام رجاء . وقد نقصنا أطرافها ، واستبحنا أكنافها ، وشفهنا نطافها ، وعضدنا من رعوس

(١) توقل : صمد .

(٢) آية ٥٠ سورة القمر .

أهلها بحدود الصوارم قطاها . ولم يبق من معاقليها إلا القُصير (١) ،
ودربسك (٢) ، وبغراس (٣) ، وقد تقدم إليها الفانخان ، الرعب والباس .

(١) القُصير : ضيعة وهي أول منزل لمن يريد حصص من دمشق (ياقوت ج ١٥ : ٣٦٧ ط . ب) .

(٢) دربسك : قلعة مرتفعة مُحصنة لما أعين وبساتين ولها من شرقها مروج كثيرة المشب وهو في شمال بغراس بجيلة إلى الشرق وبينهما عشرة أميال (الفهرس الجغرافي لتواد السلطانية ط . ليدن رقم D) .

(٣) بغراس : مدينة في لطف جبل الكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية في حلب في المنطقة المطللة على نواحي طرسوس (ياقوت ج ٤ : ٤٦٧ ط . ب) .

ذكر فتح حصن دريساك

ورحل السلطان وقد نجحت آماله ، ورجحت أعماله ، وجل اقباله ، وأقبل جلاله ، وعبر عند (شقيف دركوش (١)) الى شرقى العاصى . وقد دانت ودنت له المقاصد العواصى القواصى . وأقام أياما على جسر الحديد (٢) حديد الجسارة ، شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الريح وللمشركين من الخسارة .

ثم قصدنا دريساك وجددنا بتأييد الله فى حصره الاستمساك ، ووجدناه حصنا مرتفع الذرا ممتع الدرأ (٣) ، قد جاوز الجوزاء ، وناجت أرضه السماء . وكان عش الداوية بل عرينهم ، وطالما أطال فى التعلدى أيديهم وعرائينهم (٤) ، وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون ، وركنوا بسكنى هذا المعقل إلى السكون ، فلما أشرفنا عليهم أشرفوا على المتون .

ونزلنا عليه يوم الجمعة آمن رجب ، وقلب الكفر قد وجب . ووفرت المتجنقات سهامهم من سهامها ، وصويت اليهم مسددات مراميها ومرامها ، وراميناهم بها ايلانهارا ، وأرسلنا اليهم أمثال قلوبهم ووجوههم أحجارا . وكلدنا لا نذرى أرضها التى هى فى السماء من الكافرين ديارا (٥) . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى ، وأسمنا من نحورهم ووجوههم يبض النصال فى حمى المرعى .

(١) شقيف دركوش : قلعة من نواحي حلب قبل حارم (ياقوت ج ١٢ : ٣٥٦ ط . ب)
(٢) جسر الحديد : على نهر العاصى بالقرب من أنطاكية (أبو الفداء ج ٣ : ٧٥ ط .
المطبعة الحسينية) .

(٣) الدرأ : النواحي .

(٤) العرائين : جمع عرين وهو الأنف كله أو ما صلب منه وهذا كناية عن أهم يتقون بموته .

(٥) ديارا : أى صاحب دار أوساكن .

وأصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب ، وقد شارف الفرنج الشجا والشجب ، ووجه نجاتهم قد احتجب ، وقد وقع بالنقب برج من السور إلى الخارج ، وظهر فيه عروج للدارج ، ودروج للعارج . فطابوا على «راجعة أنطاكية الأمان ، وأن ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان . فأجيبوا إلى ذلك على قطيعة ، وردوا ماكان للإسلام معهم من وديعة . وتسلم الحصن بما فيه ثانی عشری الشهر يوم الجمعة ، واصحب بهذا الفتح جماع الحصون المنتعة .

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس ، وقد ضايقنا الأعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس . وهى قلعة من أنطاكية قريبة ، وانها فى الشدائد لدعائها مجيبة . ورأيناها راسخة على رأس راس ، شائخة على عاص عاس . أرضها فى السماء ، وجوازها على الجوزاء . متوغلة فى الشعاب : متوقلة على الهضاب . منسحجة فى السحاب ، مضيبة بالضباب . مرية على الرباب(١) . متعلقة بالنيرين(٢) ، متسلقة الى الفرقدين(٣) ، محلقة الى النسرين . ولا مطمع نحوها لطالع ، ولا مطمع فيها لطامع . ولا مطمع للامح ، ولا ملمح لطامح .

وهى للداوية وجار(٤) ضباعها ، وغاب سباعها . ودار دوائرها ، وغار مغاورها . وغيل غوائلها ، ومنزل نوازها . وجبة نبالها ، وهضبة رثالها(٥) ، ومنذب ذئابها ، ومدب ذبايها ، وكوارة(٦) زنايرها ، ومغارة خنازيرها ، ومرقب صقورها ، ومرقد نسورها ، ومكنس وحوشها ، ومهرس جيوشها .

فخيمنا بقرها فى المريج ، وقد أنارت من مشرعات أستنا فى ظلماء تقع خيلنا مشعلات السرج . وتقدم من العسكر جمع كثير ، وجم غفير . وخيم بين انطاكية وبينها ، ووكل بها ناظر يقظته وأرقد عينها . فأقام على سبيل اليزك ، ودخل فى حفظ جانبها فى الدرك . وصار يركب

(١) مرية على الرباب: هنا بمعنى أنها مقامة على علو شاطئ فوق الرباب = هنا بمعنى السحاب الأبيض والسحاب بطبيعته عال جداً فى الفضاء .

(٢) النيرين : هنا بمعنى جازى الطريق .

(٣) الفرقدان : نجمان أحدهما قريب من القطب الشمالى يسمى به والآخر أخشى منه .

(٤) وجار : حجر .

(٥) رثال : جمع رأل وهو ولد النعام .

(٦) كوارة : شيء يتخذ للتحل فى التضيقان أو الطين تأوى إليه أروى صلها فى الشمع .

كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا ، ويسومها من الغارات عسفا . وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه الطهر .

وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل ، ووقف بإزاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته ، وصوب لقم الحجر الى طاته ، ووافق أمره بالاذعان على خلاف نهاته ، وقلنا للمقيم به خذ الأمان وهاته .

وما زالت الحجارات تناويه ؛ وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه ؛ والصخور فيه تتواقع ؛ والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه ، وألحأ جماع أصحابنا عليه جماعه الى أصحابه . وخرج مقدم الداوية يستأذن في الحضور ، ويسأل الأمان من المحنور ، والحل من المحنور . ويقول « انما قَتِينَا بغراس بغراس القنا ، وبتينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعقل لا يحميها الا محتفلوها ، والبلاد لا يحفظها إلا أهلوها . وما في هذا الحصن الا مقدمان ، وما لنا بمقاومتكم يدان » .

وعاد إلى أصحابه من السلطان بالأمان . وتسلمت القلعة كما تسلمت اختها دربساك بالأمس ، وسلمها الداوية طاعين فعجبنا من انقياد أولئك الشمس (١) ، وأباحوها لنا وكانوا بغارون عليها من طلوع الشمس . وأثار في مطلعها سنى السنجق المنصور ، وأذن المتناول فيها من تطاولنا بالتصور . وذلك في ثاني شعبان ، وسر النصر فيه شاع وبان .

وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى (علم الدين سليمان (٢)) - وكان صاحب حصن عزاز (٣) وقد حاز الغنى به وفاز ، وما كان في

(١) الشمس : جمع الشمس وهو العسر في عداوته شديد الخلاف على من عاداه .

(٢) علم الدين سليمان : هو ابن جنتر ، كان من أكابر أمراء حلب ومن مشايخ الدولتين النورية والصلاحية شهد مع صلاح الدين حروبه كلها ، وهو الذي أشار بخراب عسقلان مسلحة للمسلمين ، توفي سنة ٥٨٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٣ ط . دار الكتب) .

(٣) عزاز : أو عزاز ، بليدة فيها قلعة ، سماك حلب وقريباً منها (باتقوت ج ١٣ :

١١٨ ط.ب) .

الأمراء الأكابر من لا يدعى سواه الاعواز . فألزمه بهما ليعتنى بحفظهما ،
وحضه من عصمتهما على حفظهما . فتسلمهما بلخاثرهما ، واطلع من
الفنائس على مستودعات ضماثرهما .

وكانت حينئذ أنطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغلة . وقل ساكنوها
لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تساوى اثني عشر ديناراً ، والقوم قد
شارفوا فيها تبارا وبوارا . وحزنا ما فى بغراس خاصة من الغلة ؛ سوى
ما فيها من تفصيل الأقوات والجملة ، فكان تقدير اثني عشر ألف غرارة ،
فحصل سليمان من متبع هذا الملك على غرارة عن غرارة .

فقلت : « كأتى به وقد نقل هذه الغلة الى أنطاكية وباعها ، وأعرض
عن متاعب الآخرة وحوى من الدنيا متاعها ، وأذهب الغلة بذهب يغله .
ويستحلى مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستغنى من حفظ الثغر ويشير
بتخريبه ، ووقع لى فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع أنطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون ؛ وظفر من فتوحها بالسرم
المصون ؛ عول على قصد أنطاكية فإنها كانت مريضة على شفا ، ورسم
قوتها قد عفا ، وخلق ثيابها قد انتفى ، والدهر قد انتقم منها واشتفى ،
ووجه الفلاح عن أهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدتها ، لحص دعائمها
وحصدتها .

وكان الابرنس صاحبها قد عجل، بإرسال أخى زوجته ، يسأل
في سلم يعود ببقاء بهجته ، وسلامة مهجته . وعقد الهدنة على بلده ؛ وأمن
على ما في يده ؛ وذلك لثمانية أشهر من تشرين(١) الى آخر أيار(٢) ،
ووافق من السلطان الاختيار . لكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان
حصادها ، فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها . ولم يكن له
رغبة في تمام هذا الصلح ، لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح .
لكن العسكر الغريب مل الإقامة ، وأبدى السامة ، وأراد السام والسلامة
وقيل بهذه المدة من الهدنة لا تزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جدة ولا ترجو
لها عدة منجدة ، ونحن نضرب للعود إليها مع انقضاء عدتها عدة .

وأما حصونها فقد حصلنا على عسلها ، وقتلنا نخلها ، وأما هي فنعمل
فيها بقول الله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها(٣)) . وشرط على صاحب
أنطاكية اطلاق من في الأسر من المسلمين ، واستوفى رسولها على عقد

(١) تشرين : أى شهر أكتوبر .

(٢) أيار أى شهر مايو .

(٣) الآية ٦١ سورة الأنفال .

الهدنة اليمين . وسار رسولنا مع (شمس الدولة بن مُتقَد) (١) للأسارى
منقلدا ، وللأوامر منقلدا ، وعلى المقاصد مستحوذا . وسار السلطان ثالث
شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ،
واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلق .

(١) شمس الدولة بن متقَد : هو الأمير أسامه بن مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن
أبوالخارث ، الكِنَافِي ، مؤيد الدولة ، مجد الدين . ولد بشيزر سنة ٤٨٨ هـ ، كان فارساً شجاعاً ،
عاقلاً مدبراً ، وكانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر ، طاف البلاد ثم استوطن حماة
وكان صلاح الدين مقرماً بشعره ، توفي سنة ٥٨٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٠٧ ط. دار الكتب).

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي
وعساكر البلاد وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعة بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ما سير له من الخليل والخير بجمع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفاائه وحسن اصطناعه ، ولم يفصل منهم الا من وصل بصلته ، وخلعة بمجملة ، وحرمة مكملة . ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جزيل منسكب الجود . وذلك سوى ماغندوه من كسب وكسبه من غنم ، واستطلقوه من رسم ، واستجزلوه من قسم . وملكوه من رقي سبي ، وأدركوه من حق سعي . وأجلوه من غرض ، وأدوه من مقرض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة الكفر . واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجاح .

وسار السلطان في عسكره حامدا لله في مورده ومصدره . وارتاح الى العبور على أرتاح^(١) ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح . ووصل الى (حلب) وحلب احتفالها بوصوله حافل . والمملك بها للاهتزاز بقدمه في ملابس البهاء رافل . ودخلناها وقد خرج كل من بها للتلقئ ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقى . وشاهدنا من النظارة عيوننا لملحاسن ناظرة ، ووجرها ناضرة ، وقلوبا حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا في بسطها الى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة .

واقترضت حركتنا الى الشهباء^(٢) ، لساكنيتها سكون الدهماء . وأقام بقلعتها أياما يسيرة ، وألنى ولده الملك الظاهر أسرا إحسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت الأمور بأوامره على النظام ، ولم يرحل الا وقد خصص عوامنا وخواصنا بالانعام الخالص العام . وأبان عن

(١) ارتاح : اسم حصن متبج كان من العواصم من أعمال حلب ، ومدينة (باتوت ج ٢ : ١٤٠ ط . ب) .

(٢) الشهباء : هي حلب وتقول أن هذا الاسم أطلق عليها لبياض مياستها .

كل منقبة ، وأعان بكل موهبة : فما رآه والده مذحل بنجاب الا في أجمال
حلية وأكمل حالة ، وأجلى بهجة وأبهى جلالة . وقد أجد لعينه ولنفسه قررة
وقرارا ، وأعد لعزمه ولخزمه استنصارا واستبصارا .

ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا
المتصلة بدليلي الشكر والثناء . وتنكبنا طريق المعرة ، بساوك طريق المعرة (١)
وأوفيناها (٢) بالمبرة الموقية المبرة . وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه
الزاهد التي (أبى زكريا المغربي (٣)) - وهو مقيم في مسجده ، عند قبر
عمر بن عبد العزيز . (٤) ومشهده . وقصده السلطان على فراسخ ، ولقي
منه في الحلم والوقار الطود الراسخ . واهتدى بسجايها ، واقتدى بوصاياها .

ووصلنا الى حماه وبتنا بها ليلة واحدة ، ولم نر رعيتهما لما شملها من
الرعاية جاحدة . فان (الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب)
قد كشف عنها ببايائه الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب .
وأعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبته ظلا
مديدا . وكانت قلعة حماه لاتعد في القلاع المملوذة المحمية ، ولا تذكر
مع المعقل المرعية المرضية . وهي ذات تل متبطح ، غير مرتفع ولا متسجح .
فلما تولاهما تقي الدين قطع من التل ما كان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيذا

(١) المعرة : اسم لموضعين بالشام أحدهما معرة مصرين وهي بلدة وكورة بنواحي
حلب ، والثانية معرة النعمان ، وتنسب إلى النعمان بن بشير الصحابي وهي مدينة كبيرة بين حلب
وحماه (وهي المقصودة هنا) (مرصد الاطلاع : تحقيق علي البجاوي) .

(٢) أوفيناها : هنا بمعنى أمددناها وأعطيناها ميرة تامة .

(٣) أبو زكريا المغربي : هو الفقيه الصالح ، كان مقيما عند قبر الخليفة عمر بن عبدالعزيز
وقد زاره السلطان سنة ٥٨٤ هـ بعد مفارقاته لحلب ، وله كرامات ظاهرة ، وكان مع صلاح الدين
في الزيارة الأمير أبو فليتة قاسم بن المهنا الحسيني أمير المدينة المنورة (أبو الفداء ج ٣ : ٧٥ .
المطبعة الحسينية) .

(٤) عمر بن عبد العزيز : هو الخليفة الأموي ابن مروان بن أبي العاص بن عبد شمس .
خلف سليمان بن عبد الملك في الخلافة سنة ٩٦ هـ ، كان متحريرا سيرة الخلفاء الراشدين ، قيل إن
مولده كان بمصر سنة ٦١ هـ وتوفى سنة ١٠١ هـ بقرية دير سمعان من عمل معرة النعمان (أبو الفداء .
ج ١ : ٢٠١ المطبعة الحسينية ١٣٢٥ م) .

عاطيا . وعمق خندقها في الصخر ، وحصنها على الدهر . وبني فيها الدور
المرخمة ، والأروقة المهندسة المهتمة : وحصنها وأعلامها ، وحسنها
وحلاها . وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة
في الشام كل مدينة .

فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وصر بما رأى لها من الحصانة
والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على رسمه .
وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفعنا ،
والنادى قد جمعنا ، والشادى قد أسمعننا . والأغاريد تطرب ، والأناشيد
تعرب . فما انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وعرف (١) أنشر .
وفضل سنى ، وعدل أحيى ، ورسم نائل للسماح أجرى ، وزند سائل بالنجاح
أورى ، وسنى جد أعلى ، وجنى جود أحلى .

وقرأ لنوى الحاجات القصص ، وأزال من الظلمات الغصص ،
وأناك لنوى الخصاصات الحصص . وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا
العتق (٢) بالذميل (٣) . وعبرنا مغدين على حمص ، وزدنا في الوصول
الى دمشق على طريق بعلبك الحرص . وجئناها قبل شهر رمضان بأيام ،
وركنا الى ما أنسنا به من مقام . وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلانا
أهلها . وقتلنا نصوم مع القوم ، وقيم مدة الصوم . فما لبث السلطان
ولامكث ، ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث . وقال « لا نبطل
الغزوة ، ولا نعطل هذه الشتوة . وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها ،
ويطول مضايقتها فليت أفواتها وقواتها ، فنتهز فرصة فتحها التي لا يؤمن فواتها » .

(١) في ب شرف والتصحيح من ل .

(٢) العتق : السير السريع .

(٣) الذميل : السير اللين .

وخرج من دمشق في أوائل شهر رمضان وحده عزمه رميض (١) ،
ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ووجوه الأيام بأباده البيض
بيض ، ولسان الدهر في ذكر سيزه وتسير ذكره مفيض ، وجناح الكفر
بنجاح (٢) رجائه ورواج مناجحه مهيض ، وحديث اقدمه التقديم والحديث
طويل عريض .

(١) رميض : حاد .

(٢) في ب جناح والتصحيح من ل .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك . وذلك أن مدة غيبتنا في بلاد أنطاكية ، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية . وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبينين في العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر . مقويا للامراء المرتين على الحصون ، حافظا على الدهماء بمركنه في الأمور عادة السكون . وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدى بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي داؤه معضلا ؛ وأمره مشكلا ؛ حتى فئيت أزوادهم ، ونفدت موادهم . وبثسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحت (١) عليهم مصافهم ومشاطيهم . فتوسلوا بالملك العادل ، وأبدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل . فما زالت الرسائل تتردد ؛ والاقتراحات تتجدد ؛ والقوم يلينون والعادل يتشدد ؛ حتى دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم . وسلموا الحصن ، وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة .

وكتبت عن السلطان في بعض البشائر ، ما ألهى بجلاوته عن أرى الشائر (٢) . وهو أننا لما عدنا الى دمشق رأينا أن لا نستريح ، ولانثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح . فقلنا نعتم هذه الشتوة ونستكمل الخطوة ، ونواصل بالغزوة الغزوة . ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب قلبا وعساكر . وأبقت لأهل البلاد في طريقها ندوبا ومعائر . وييمن صدق هذه العزيمة ؛ والاستمرار في الجهاد على الشيمة ؛ وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد اليه بعد الجماع الإصحاب ، وخرج منه الفرنج ودخله الأصحاب . وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب أشراك لإشراكه منه على طرق الاجتياز .

(١) أمحت : أجدبت .

(٢) أرى الشائر : العسل الذي يجنى .

فأذقناه عام أول كاس الحمام ، وملكنا حصنه الذي، كان يعتمص به في هذا العام ، واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتم بجل هذا البيت أمن البيت الحرام .

وقد كان هذا الحصن ذنب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج . وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا . فالحمد لله على ما قدر من الحسنى ، وبسر من النعمى . حمدا يكون لما قدر لزاء ، ولما يسر جزاء . والحمد لله انذى أنجز صادق عداته (١) ، في كاذب عداته (٢) .

(١) عداته : جمع عدة بكسر العين وهى الوعد .

(٢) العداة : جمع العادى وهو العدو ، المحتنى ، المعادى ، المتجاوز الطور .

ذكر محاصرة صفد وفتحه وإدراك السعي فيه ونجحه

وقطعنا غناضة الأحران خاضعين في بحار المسرات المتواصلة ، راكضين إلى مضممار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت راياته مفتوحة أبوابها ، والنصرة فوق ألويته ممدودة أسبابها . في أطلاب أبطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها إلى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه . ونزلنا على صفد ، والصبر قد نفذ ، والنصر قد وفد ، والقدر قد رقد ، والغزم قد وفد .

وجاء الملك العادل وظاهر أخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشد بالرأى والحزم ما الزمان أرخاه ، وبعث كل ذى عزيمة على التصميم ونخاه . وشرعنا في مراومة (١) القلعة ، ومساومة السلعة . وجثت المجانيق لاجتئأها ، وحدثتها بالسنة أحدثأها . ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وسمت إلى هضاب تلك الأبراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجارة ، ولم نعطها من العذاب الواقع بها إجارة . فما رفع بها الحصن الراسى رأسا ولا الحجارة مست منه ركنا ولا الثقوب باشرت أساسا . ودامت المجانيق منصوبة قد قام دَسَّت (٢) شطرنجها (٣) والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها .

ودمنا عليها إلى ثامن شوال ، ونوعنا في افتتاحها الاحتيال . حتى أذن الله في الفتح فسهل ما تصعب ، وحضر ما تغيب ، وظهر ما تحجب . وتيسر ما تعسر ، وأمكن ما تَعَلَّر . وتأنى ما تأنى ، وأجاب نداء الاسلام ولجى . وعلموا أن صفد إن لم تخرج من أيديهم دخلت أرجلهم في الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالآساد . ونزلوا من سماء العز إلى ارض

(١) مراومة : طلب .

(٢) دست شطرنجها : اللست في لعب الشطرنج : يقال ه اللست لى أو على . وغلبت
وهنا كناية عن أن الحرب قامت من أجل فتحها فلما أن تسفر عن الانتصار أو الهزيمة .

المهوان ، فأذعنوا للضراعة وتضرعوا بالأذعان ، وأخرجوا أسارى المسلمين
أيشفعوا لهم في طلب الامان .

وصارت صفة للمسلمين (١) صدفا ، وكانت للمشركين هدفا .
وعادت للإسلام سدا ، بعد أن كانت للكفر ردها ومردا . وطالما مكث فيها
المشركون (وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولدا ، لقد جئتم شيئاَ إدا ، تكادُ السماواتُ
يَتَفَطَّرْنَ منه وتَنشقُ الأرضُ وتخرَّ الجبالُ هدا (٢)) . ولقد كانت مارنا (٣)
للكفر جددع ، ومرفقا للشر قطع . وناظرا للعدو غض وقد شخص ،
وجارحا له هيض وقد قنص . ويذا للباطل شلت وقد امتدت ، وعقدة
للضلالة حلت وقد اشتدت . وتخلصت الداوية بأدواتها ، وتخلصت بأسواتها .
وصاروا في صور ، وأبدلوا بعد استطالتهم القصور .

(١) في ب المسلمين والتصحيح من ل .

(٢) الآية ٨٨ سورة مريم .

(٣) المارن . طرف الأنف او مالان من طرفاه والمعنى هنا كناية عن الذلة بعد العز والأنتفة

ذكر مادبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج أن صمد لنا صفت ؛ وأنها على الفتح
الذى يشئ أشفت ؛ قالوا « لم يبق لنا الا كوكب ، وان صلاح الدين
عن قصدها لايتنكب . وقد أقوت من القوة ، وهى تهى ان لم نعالجها
ونعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها ، وقل
ظهورها لظهور إقلاها ، وهذا أوان انجائها وانجادهها ، وهى مشرفة على
العدم فدبروا في ايجادها . فاذا قويتها وحمينها بقيت عدة في العواتب ،
وعصمة من الثواب » فقال مقدم الاستار « هى كوكبنا اللذالى
ومنكبنا العالى . ومعقلنا المحكم ، ومعقلنا المبرم . وحصنتنا الحصين ،
ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المربع ، والمنبع المنبع ، والمحل المحلى ،
والمعلم الملقى . وهى قتل من البلاء على البلاد ، وموئل من الخطوب
الشداد . ولعلها تثبت الى أن توافينا من البحر ملوكنا ، وتعود إلى عادة
الانظام سلوكنا ، فما تبطن جلداتنا ، وما تخطى نجداتنا .

وأجمعوا على تسيير مائتى رجل من النخب ، المعدين اذفاع النوب .
من كل جرخى نحى (١) ، وكى أ كى ، وجهم (٢) جهنمى . وسقرى .
سقرى ، ووعل جبلى ، وبطل باطل . وكلب كلب ، وذنب سغب .
وعاسل معاسر ، وباسل باسر . ومغوار مغو ، ومتلوم متلو ، وذو (٣)
متنمر ، ونمر متنمر . وسبع ضار ، وشواظ من نار . وجمر من الجحيم ،
وحام من الحميم . من شياطين يحنون الجنون ، ويمونون (٤) المنون ،
ويشيون الشئون ، ويهدون الهدون (٥) ، ويحزون الحزون ، ويفوتون
الفنون ، ويطنون بالله الظنون .

(١) نحى الرجل : اقتصر وتظم .

(٢) جهم : عاب الوجه .

(٣) ذمر : شجاع .

(٤) فى ب يمون والتصحیح من ل ، ويمونون : أى يحمّلون مشونتهم ويقومون بكفائتهم

(٥) الهدون : هنا بمعنى كل أحمق جاف ثقيل فى الحرب .

وقالوا لهم « كيف تمضون وطريق السلامة نحيف ، وطارق الاسلام مطيف ، والشجا منيف ، والشجب مضيّف » فقالوا « نحن نسير ونصير في ضمائر الكهوف أسراراً ، وعلى أجياد الأطواد أزراراً ، وفي أوكار المغارات أطيّاراً ، وفي أعماق السيول أكداراً ، وعلى ظهور الريدود (١) أوزاراً ، نسرى ليلاً ونحنتى نهاراً . والليل للعاشقين ستر ، ولكم أدلج من له وتر ، والنهيج وان بعد فهو في قرب عزمنا نقر . ومن رام النفيس الخطير رمى نفسه في الخطر ، وطار الى الوطر ، وغرب (٢) الى النحر .

ثم عزموا على ما زعموا ، وعملوا بما عنه عدوا . وخطروا الى الخطر ، وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوغلوا في الأكم ، وتوغلوا في الأجم . وتبطنوا في الأودية ، وتكمنوا في الأفنية . واحترسوا بالكمون (٣) ، واحترزوا من العيون ، وتحركوا على السكون . وكادوا يصابون الى الموضع ويحاصون على المطمع . ويدركون الطلاب ، ويهتكون الحجاب ، ويعيدون الى الحصن روحه ، ويأسون بعد اليأس جروحه . فعثر — بواحد عثر منهم — بعض المتصيدين فتصيده ، وقاده وقيده . وأتى به الى صاحبه صارم الدين قايمز ، واستغرب من الافرنجي هناك الجواز . فأخبره بالحال ، وأن بالوادي مكنم الرجال . فركب اليهم في أصحابه ، والتقطهم من سرر الوادي وشعابه ، وركب الشجاع (مسعود) في طلب أولئك الأشقياء ، وانتشر الناس في تلك الأكناف والأرجاء . فما نجا منهم ناج ، ولا نجح راج . ولا عاش عاش ، ولا حصل عاثر بانتعاش .

فما شعرنا ونحن على صفد للحصار ، والساطان معطل من بيت الخشب على من حوله من الأتصار ، حتى وصل صاحب قايمز بالأسارى ، مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الأقياد . وكان فيهم مقلمان من الاستبار ،

(١) الريدود : جمع ريد وهو الحرف الثاني من الجبل .

(٢) غرب إلى النحر : تنزب عن وطنه وبعد مرضاً نفسه للهلاك .

(٣) الكون : الاختفاء والتوارى .

وقد أشفقنا على التبار : فان السلطان ما كان يبقى على أحد من الاستبارية
والداوية ، فأحضروا عند السلطان للمنية . فأنطقهما الله بما به حياتهما ،
وناجيا بما فيه نجاتهما . وقالوا عند دخولهما ، وأمام مشولهما ؛ « ما تظن أننا
بعد ما شاهدناك يلحقنا سوء » ، فعرفت أن بقاعهما مرجو . وانتظرت أمر
السلطان فيهما وأيقنت أنه يقيهما . فمال الى مقالهما ، وأمر باعتقالهما .
فان تلك الكلمة حركت منه الكرم ، وحضنت منهما الدم .

واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفر من التديير ، واتعاس من جردوه
بالتدمير . وفتح الله علينا صدف ثامن شوال ، فشكرناه على أن مدد النصح
متوال ، وسلمت القلعة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجئنا إلى كوكب ، ووجدناها في مناط الكوكب . كأنها وكر العنقاء ، ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية ، ونزعت بها ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية ، وحمتها بحميتها وأبت النزول على أمئتنا ولو ينزل منيتها .

واختارت العطب على العطاء ، وامرت خيائف الخائف والشقاق للشقاء ، وأبت غير الإباء . وبصرت بالأمر قصبرت على الضر ، وأصرت على تحمل الإصر . وترامت على التعامى بالمصائب ، وتعامت عن المرامى الصواب .

وقالوا « لويى منا واحد لحفظ بيت الاستار ، وخلصه الى الأبد من العار ، ولا بد من عود الفرنج إلى هذه الديار ، فتجلد للاصطبار ، وتشدد للانتظار » فقاتلوا أشد قتال ، ونازلوا أحد نزال . وفوقوا الجروح المصمية ، وصوبوا الصخور المردية ، ورفعوا المنجنيقات الموجية . وتواترت زيارات الزيارات الموترة ، وتناوبت نواب الزبوركات المطيرة .

واجترأوا على الاجتراح ، وجرى سيل الجراح ودمنا في الدم ، وردالوجود الى العدم . ونجرتة الرجال ، والتجريد للقتال ، وابتار الحنايا ، وابتار المنايا . والرعى في المنجنيق ، والجمع والتفريق ، والرقع والتخريق ، والنقب والتعليق ، والحفر والتعميق ، والحصر والتضييق . والمهد والمهدم ، والرد والردم ، والصد والصدم .

وكان الوقت صعبا ، والغيث سكباً ، وتكاثرت السيول ، وتكاثفت الوحول ، ودامت الدميم لدموعها مريقة ، وبقيت الخيم في الطين غريقة . فللمركب مبرك ولا مريط ، ولالسالك مسلك ولا مسقط . وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الأقدام ، ووهى الأطناب ووقوع الخيام . وكان الخيم مناخل الأنداء ، وعلمت الأنوار لوجود الأنواء ،

وفقد ماء الشرب مع سيل الماء : والروايا مانهضت ، ولا لزعت ولا غمضت . والرواحل في الطين باركة ، وللحياة فاركة ، وللعلف تاركة . والمطية مطينة ، وسبل السيل مستيئة . وقد كشر البرد بالبزد ، عن أسنان عضاضة بالرد (١) . والطرق زلقة لزقة ، وهي مع سعتها ضيقة . وللتق (٢) ثقل ، وللعقل عقل .

وما ثم الامانيط بالطين . وصعب علينا بصعوبة هذا الأم أمر أولئك الشياطين ، فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان ، لتقريب وجوه الامكان . وبنى له من الحجارة ، ماصار له كالستارة . فحضرت بين يديه والسهم تعبزنا ولا تدعونا ، والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا . والنقاب قد قلع وعلق ، والجرحى قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند ، وأجد الجد . ونزلت الأتقال والحيم الى أسفل التل ، فخف (٣) الثقل بنقل الثقل (٤) ، وطاب المقام بالغور وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين ، وتحملت الى الطيب عقد الطين .

وما زال السلطان ملازما للحصن ؛ وهناك ظاهرة له منه أسباب الوهن ؛ حتى علق بعض جنرانه وطرق الهدم الى بنيانه ، فتسلمه بامانة ، وأذهب سكون سكانه . فأخرجهم راغمين ، وأخرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما فيه ، وأصبحوا بعد مقاتلته للفقو والمعافة محتفية . وذلك في منتصف ذى القعدة ، وانتصفت الأيام جل تلك العقدة ، ورجعت الليالي بالسكون الى طيب الرقدة .

وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها ، وخلوها وأبوا أن يلوها ، وتخلوا عنها بهمم واهية ، فوليها قايماز النجمي على كراهية ، بعزيمة عن مهامها لاهية .

وانتقل السلطان الى المخيم بالفضاء ، وحمد الله على قضاء التوفيق

(١) الردد : ذهاب الأسنان .

(٢) التق : الترج من الطين .

(٣) في ب ثخفت وهو تحريف والتصحيح من ل .

(٤) الثقل : يفتح الثاء وسكون القاف : الأثمة .

وموافقة القضاء . وودعه (الأجل الفاضل) على عزم مصر ، بعد ما استكمل لنا مدة مقامه بصدق اهتمامه وجد اعتزامه الفتح والنصر . ثم تحول السلطان إلى أرض بيسان ، وأزال البؤس وزاد الاحسان .

وأقام بقية الشهر ، في تمهيد مجد يقيم باقي الدهر . واطهر من الفضل مالم يكن مستورا ، وأعطى الأمراء والأجناد في انفصاهم دستورا (١) . وسار ومعه أخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة ، واضح المحجة ، لائح البهجة . وأوجها إلى القدس في طريق الغور ، وزاراه للبركة وتبركا بالزور ، ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر . وصل في قبة الصخرة ، وخص ذوى الخصاصة بعميم المبرة . وعيد بها يوم الأحد الأضحى ، وأضحى بعد ماضى ، وقد أصحب مراده وأضحى .

وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر في مهامها ، ونظم أسباب أحكامها ، وتديز أحوالها ، وترتيب رجالها . وأقام أياما يوضح الجلد ، ويصلح ما فسد ، وينشد من النفع ما فقد ، ويحمد من الشرم ما وقد . فاذا وجد شعنا له ، وان ألقي نشرأ ضمه ، وان صادف فتقا رتقه ، وان لقي حقا حقيقه ، وإن عثر على باطل عنى أثره ، وإن بصر بأمل خصه بعرفه وآثره ، ثم ودعه أخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره .

ورحل السلطان على صوب عكاه موقفا في مورده ومصلره ، فما عبر ببلد لإاقوى عدده ، وكثر عدده ، وواحل بالرجال ملده . وكنت انفصلت عن خلتمته الى دمشق عند رحيله من بيسان ، لعارض مرض سلبنى الامكان . والحمد لله الذى وفر حصبة الصحة ، وحول المحنة الى المنحة . وكل الشفاء بعد الإشفاء (٢) ، وأهدى عند اليأس أرج الرجاء .

(١) الدستور : في الأصل اللقتر الذى تكتب فيه أسماه الجند أو الذى تجمع فيه قوانين الملك ، ويطلق أيضاً على الوزير الذى يرجع في أحوال الناس إلى ماتركه ، وصاحب القوة ، ومنه استهلل الدولة في كتابها إلى وزاراتها بقولها «دستور مكرم» وهو مركب من دست بمعنى قاعدة ومن «وره» أى صاحب . ومن السياق يفهم أنه بمعنى أمر سلطان (الالفاظ الفارسية المصرية لادى شيرط . ب ١٩٠٨) .

(٢) الإشفاء : الأشراف على الموت .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكاء مقيم ، والأمر مستقيم ، والنهج قويم . وهو يبوب أسباب حفظها ، ويسبب أبواب حفظها . ويهدب مراتب مصالحتها ، ويرتب مناهب مناجحتها . ويعدل جوانح أمورها ، ويذلل جوامح جمهورها : ويتوى ما وهى ، ويسوى ما هوى . ويحلى من الشان ماعطل ، ويعلى من المكان ما سفل . ويعيد نظم ما انتكث ولم ماتشعث ، ويحيد كل ما دعا الى بعث ما مات منه وبعث . ومكث بها لا يريم القصر ، الى أن وصل جماعة من مصر . فأمرهم فيها بالاقامة ، محافظة على الحماية المستدامة . فأمر (بهاء الدين قراقوش) باتعام بناء السور ، وإحكام أحكام الأمور . وولى الأميز (حسام الدين بشارة) بعكاء واليا ، ولم يزل لآثار الدولة في زيثار العدل تاليا .

ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهمل صفر ، وقد استكمل الظفر ، ووجه الدين به قد سفر ، وعز من آمن وذلل من كفر . وحزب الهدى قد أفس ، ونقر الضلال قد نفر . وجلس على سرير السرور ، وليس حيز (١) الحبور . وبدأ بحضور دار العدل فنزّ عدله للبادى والحاضر ، وأقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل ، وسما المحل (٢) . وأعلى أعلام العلماء ، وأحلى أحلام الحلماء ، وأمضى أحكام الحكماء ، وقضى بإكرام الكرماء . وأسدى المعروف ، وأعدى الملهوف . وأنكر المناهى ونهى عن المنكر ، وطهر حكمم الشريعة وحكم بالشرع المطهر . وأقام مدة الشهر ، وأولياؤه جناة النصر ، وأعداؤه عناة القهر . وأيامه مسفرة ، ولياليه مقمرة ، ومغارس أياديه بثمار المحامد مثمرة ، ومجالس أعاديه في ديار الشدائد مقفرة .

والملك يزوهه زاه زاهر ، والدين يبهائه مياه باهر . والآفاق منيرة

(١) الخير من الثياب : التام الجديد ، البرد الموثى .

(٢) الحل : الخليفة والكيد .

والأنوار مفيدة ، وللنولة (١) حتى مدال (٢) وحقيقة . وللجد وافي (٣)
 جلده ، وللجود وفي عهده (٤) . وللسماح سماء تهمع (٥) ، وللمراد
 مراد يمرع . وللوجوه بالبشر بهجة ، وللأسنة في ديمة (٦) الشكر لهجة ؛
 وللهم علو ، وللشم سمو ، وللكرم نمو . وللفضل قيمة ، وللإفضال
 ديمة . وللشريعة شرعة واضحة ، وللحق سنة لسر الباطل فاضحة ، والصنائع
 راجحة ، والمزائع ناجحة .

(١) في ب ول وللنولة وفي أ (١٥٤ ش) والنولة .

(٢) مدال : متداول .

(٣) وافي : كامل غير منقوص وهي في أ (١٥٤ ش) أوفي .

(٤) في أ (١٥٤ ش) وللجود أوفر عنة ، والمذكور هنا في ب ول .

(٥) المذكور في ب ول وأما في أ (١٥٤ ش) والسياسات تهمع .

(٦) ميثبة في أ (١٥٤ ش) ساقطة في ب ول .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولى العهد

— عدة الدين أبى نصر محمد (١) بن — الامام الناصر لدين الله —

أبى العباس أحمد أمير المؤمنين

بتاريخ أوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر الجلانة .
ومربع الامامة ، وموضع الكرامة : ومطلع الهدى ، ومنبع الندى . ومشرق
نور الايمان ، ومشروع فيض الاحسان . ومرجع المرجين ، ومفزع
المتجنين ، ومتحى الناجين ، ومنجى المناجين . ومهبط الوحي ، ومصعد
الأمر والنهى ، ومقصد نجاح السعى . ومخفض جناح الرحمة ، ومقطف
جنى النعمة . ومجر ذبول المناقب ، ومجرى سيول المواهب . ومزار أملاك
السماء ، ومدار أفلاك العلاء . ومحج ملوك الأرض ، ومحجة سلوك الفرض .
وموطن التنزيل ، وموطئ جبريل : ومقام الخلافة ، ومرام الرأفة .
ومحمل الأمانة ، ومحل الديانة : ومطاف الطائفين ، ومطار العاكفين ،
ومعرف الواقفين ، وموقف العارفين ، وقبة المقبلين ، وموئل المؤمنين ،
وكعبة اتقاصدين ، ومثابة الواقدين . ومعفر وجوه العظماء ، ومكفر
ذنوب الكرماء .

ومعصب السيادة القرشية ، ومنصب الوراثة النبوية ، والسدة الشريفة
الناصرية . ودار السلام ، وقبة الاسلام .

فابتهج السلطان بوصول الرسول ، وأيقن بوصول السؤل . وسرّ سرّه
وأبرّ برّه ، وصلر بنشر الانشراح صدره ، وقدر على الاتسام بالتمام
قلره . واحتفل بأسباب التلى ، والتحف بأثواب الترقى . وسأل عن الرسول

(١) محمد بن الإمام الناصر لدين الله . هو الخليفة الظاهر بأمر الله ، أبو نصر محمد ابن
الناصر لدين الله تمال أبى العباس أحمد ، الملقبى العباسى البغدادى ، كان مولده سنة ٥٧٠ ،
وأمه أم ولده ، ول الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٢ هـ ووقعت له شهادته إلى أن مات سنة ٦٢٢ هـ
كان فقيهاً عادلاً ، قطع الظلمات والمكوس (النجوم الزمرة ٦ : ٢٦٥ . دار الكتب) .

المندوب ؛ للسؤال المخطوب . فقيل هو (ضياء الدين عبد الوهاب ابن
سكينة (١)) ، وصل بالضياء والسكينة ، والأحوال الحالية المزينة .

وكان وزير الخلافة يومئذ (معز الدين بن حديدة (٢)) فعين لئله الرسالة
(ابن سكينة) حين عرف آراءه السديدة . فنلقاه - يوم دخواه إلى دمشق -
السلطان وأولاده ، وكان يوماً مشهوداً حضره أعيان البلد وأماثل العسكر
وأشهاده . وأنزله في دار الكرامة ، ورتب له وظائف الإقامة . ثم جلس له
في يوم سعدصباحه ، وبدت في جبهة الدهر اليهيم غرره وأوضاحه ، وملاّت ظرفي
الزمان والمكان أفراحه ، وجاء على وفق الآمال اقتراحه ، وسخّم باليمن
والإقبال رواجه . وورد بكل ما أبهج الأولياء ، وأزعج الأعداء . وسخاطب
السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه ، وثنى عطف تباهيه وهزه . ورسا له
طوداً بالوقار في إيراد الرسالة ، وجلا له في مهب المهابة أنوار الجلالة .
وتلفظ له بالتنضّل ، وتطوق منه بالتطول . وبشر بأن أمير المؤمنين فوض
ولاية عهده ؛ إلى ولده - عدة الدين - أبي نصر محمد من بعده ، وأخذ
بذلك العهد على من حضره من أعيان الأمة ، وحفظ عليهم بتوليته ما أولاهم
الله به من النعمة .

وأمر بأن يخطب له بمصر والشام وجميع بلاد الإسلام . فاستبشر بهذه
الموهبة ، واستظهر بما خص به من هذه المرتبة . وأمر بذكر اسمه ونقشه
في الخطبة وعلى السكة ، وعاد الإسلام به ظاهر الشوكة والشكة (٣) .

(١) ضياء الدين ابن سكينة ؛ هو ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، الشيخ أبو محمد
الصوفي ، المعروف بابن سكينة ، سبط شيخ الشيوخ اسماعيل بن أحمد النيسابوري ، كان فاضلاً
عديداً ، عابداً زاهداً ، توفي سنة ٦٠٧ هـ - (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠١ ط . دار الكتب) .
(٢) معز الدين ابن حديدة ، هو الوزير ، الرئيس ، سعد بن علي بن أحمد ، أبو للمعالي ،
ابن حديدة ، من ولد قطيبة بن عامر بن حديدة الأنصاري الصحابي ، كان مولده بكرخ سامرا
(بالعراق) سنة ٥٣٦ هـ ، وكان له مال كثير ، استوزره الخليفة الناصر لدين الله ، وقم له بعد
ذلك سخن - فهرب واختفى إلى أن توفي سنة ٦١٠ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠٩ ط . دار
الكتب) .

(٣) الشكة : السلاح .

وخطبنا لولى العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر ، ولم يبق من الأمراء
والأمائل والأفاضل الا من حضر ، وأحضر معه الدنانير ونثر . وتولى ذلك
الملك الأفضل فأظهر أبهة ملكه وبهاء فضله ، وحصل الإسلام من رى رأيه
على نهاله وعله (١) .

ونذب للرسالة إلى الديوان العزيز (ضياء الدين الشهر زورى ، القسم (٢)
ابن يحيى) لينشره ما كاد يعفون من سنن الموافاة ويحيا . وسيرت معه أفدايا ،
والتحف والطرف السنايا . وأسارى الفرنج الفوارس ، وعددها الكوامل
الفنائس . وتاج ملكهم السليب والصليب والملبوس والطيب .

وأضفيت على رسول الإمام ملابس الإكرام ، وقفل ناجح المرام .
واصطحب الضياعان لإضاءة مطالع الإيمان ، بسفارة سافرة عن سنى الإحسان ،
وبشارة شائرة جتى النحل من نحل الجنان . واهتزت الأعطاف ، واعتزت
الأطراف . وابتسمت ثغور الثغور لسدادها ، وانتظمت أمور الجمهور لسدادها .
وسرت القلوب وسريت الكروب . وخزى الحاسد الحاشد ، وقوى الساعد
المساعد . وواصل فى طريقه الاغذاذ ، حتى وصل إلى بغداد . فتلقى الرسول
بالسول ، وقوبل بالقبول . وخرج إليه الموكب الشريف ، وأضيف له
إلى تالد جده القديم جده الحديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج
على هيئة يوم قراعها ، راكبة حصنها فى طوارقها وبيارقها وأدراعها ،
وقد نكست بنودها وأنعست أنوفها . وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها ،
ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها . ثم عطف به إلى دار الكرامة فترلما :

وألى الوزير ابن حديدة قد عزل ، وأقام فى بيته واعتزل . وتصدر فى
الدست للنيابة ، وسماع الخطاب والإجابة ، من له المجد الأثير ، الصدر
الكبير ، مؤيد الدين صاحب ديوان الإنشاء ، وقد خصص بتولى الحل والعقد
والأخذ والإعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها ، وأولى صوبها ووالى صوابها .
وسياتى فى موضعه ذكر ما انتهت إليه الحال ، وجرى به القال . وكيف
شغلت انعواق وعاقب الأشغال :

(١) عله : الل ، هو الشرب المتتابع .

(٢) فى النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٨٤ (القاسم) .

فصل مما كتبه في المعنى عن السلطان إلى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قلعه من امثال المائل ، وأداه من فرض الإِعظام والإجلال . وقام به من الأمر الذي قام به أمر الدين والدنيا ، وبأمر إليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في ازكاء مغارسها السقيا . وحل حبا (١) الحب لما حل من حباؤها ، وعقد خنصر النصر اجزائه على ما اعتقده من ولائها ، وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من اسعادهها ، واستجد عهد الجند المورق الموثق بما جاد ثراه من ثرات (٢) عهادها ، ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين . وأبرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقضين الناقضين . ووفق لما وافق المراضى الشريفة فجاز بما حاز من شرف الرضى ، واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق إلى ماسبق به جواد صدقه في جواد قصده ، وافتتح فريضة طاعته في حلالة عبوديته بتلاوة فاتحة حمده ، وانتهى إلى نهاية النهى ، وأطاع ما أطاق فيما أمر الله به ونهى . وما وضع الكتاب من يده حتى رفع بالدعاء يده ، وسأل الله لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين وافد النصر ومدده . وأن يعضده بولده ولـي . عهدته المطاع بأمر الله عدة الدنيا والدين ، ويقربه عيون المسلمين . فقدم فاضت البركات ، وأضت الحسنات ، وأضاعت الكرامات ، وراضت جماع الأماني المبررات المبررات ، وهاضت جناح الكفر التنتكات المرديات . وعمت الميامن ، وتمت المحاسن وتسمت وتسمت النعم الظواهر والبواطن ، وضمت بسكون الدهماء أهلها المعاهد والمواطن . وصدحت المنابر ، وصدقت المفخر ، وصدعت الأوامر ، وصدقت الفواقر (٣) وصدمت قلوب أهل النفاق من بواعث الرعب البواعث البوادر . ونقشت صفحات الدرهم

(١) الحبا : هنا بمعنى الخبايا .

(٢) ثرات : هنا بمعنى عزيز وكثير وواسع .

(٣) صدق الفواقر : صدقت ، مالت وانحرفت . والفواقر جمع فاقرة وهي الدعاية

الشديدة فكأها تكسر فقر الظهر .

والدينار ، ونعشت عثرات الأختيار الأحرار ، وفرشت مفوفات الأنواء
والأنوار . وعرشت أسرة المبار والمسار ، ورفعت رغبات الأبرار ، وسمعت
دعوات الأسحار .

ونزل النصر ، وفضل العصر ، ووجب الشكر ، وشجب الكفر ،
ورحب الصدر ، وأصبح الدهر . وسحت سماء السماح ، وصح إرواء الأرواح ،
وتضوع نشر الانشراح ، وتوضح صباح الصلاح ، وطال جناح النجاح
وطاب جنى الأفراح .

وعظم القدر ، ونظم الأمر ، وحسن الذكر ، وأمن الذعر . واهتزت
أعطاف الإسلام ، واعتزت أطراف الشام ، وتباجت أيامن الأيام ،
وتروجت أمانئ الأنام . وأرجت أرجاء الرجال . وثبتت باسناء الإسناد
رواية أملى رى الآمال . وقرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع ،
وأقرت الألسن والتهجت بالحمد الجامع ، وقرت الأنفس وانتهجت
بوسعها سنن العز الواسع ، ونابت هذه الموارد العذبة المشارب ، انصافية
المشارع ، فى تقع الأوام وتقع الأنام مناب المنابع . وأخت السير وسيرت
التواريخ ، وحلقت ملطقات البشائر ليوجب تفخيمها وتفخيمها التضمين (١) .

وأشرق المغرب من بشر البشرى ، وأنارت مصر من حسن هذه الحسنى
وبسنت بسمة الشرف منابر الأفاصى والأدانى موافقة لمنبر المسجد الأتقى .
وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب ،
وقاحت فى مهاب المحاب تفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب . وعاد الزمان إلى
اعتداله وعاد العدل بزمانه ، وتاب الدهر من عدوانه ، وآب إلى إحسانه ،
ورجع الدين إلى سناء سلطانه ، وفعج الكفر بعيدة صلبانه ، وبطش الإيمان
بأيمانه ، واستخلص من الشرك بلدانه بلدانه .

وتقاضى الربيع بقروضه ، وضافت ضيوف فيوضه ، وعتب العزم

(١) التضمين بالطيب . التلطن به .

(٢) لدانه : ليه ورقته وساحته . وتطلق اللدان على السلاح أيضا .

على ربوضه ، وحض الحظ على نهوضه. وحث الحب على إقامة سنن الجهاد وفروضه . فقد درت أفاويق الآفاق. وذرت أشعة الإشراق، وافترت نضرة الخلدائق لمنظرة الأحداق ، وراقت أوراق الألوية كالتواء الأوراق ، وأزهرت البيض والسمر كأزهار الرياض ، وأنفت غرار الجفون في الأغمام من الاغماض .

وتيقظت الأقدار. للإقدار على ايقاظ عيون البيض لإجراء دم الشرك المطلول ، وتنزل البركات في انتجاع المراق من نجيع المارقين لإنزال نص النصر على النصل المسلول ، وقد أن أن ترعى الحشاشات منهم على رعى الحشيش ، ويطير إلى أوكار المقل طير السهم المريش ، وترتع ثعالب العوامل في عشب الكلى ، ويطن ذياب المناصل في لوح الطلى ، وترن رفاق المرهقات في الرقاب زنين الخطب على الأعواد ، وتنوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد ، وتحمل أشجار القنا بثمر الهام (١) ، ويميش الفضاء المعشب بزهر الجيش الهام ، ويقطف ورد الموت الأحمر من ورق الحديد الأخضر ، ويوقف حد الهندى الأبيض على قصر بني الأصفر . ويجرى في ورد الوريد جداول البواتر ، وترمى من الحصن (٢) العاديات إلى حصون العدا جنادل الحوافر ، وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر ، والظهور المضافر ، ضوامن الضوامر ، وتتل عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان الجو بالفتح (٣) الكواسر ، ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك الماذى (٤) وتعلق في ملتقى التقي أفئاف السمهرى (٥)، بلامات السابرى .

ويظهر الحق بخذلان الباطل ، ويحل بأيدى الأيد ما بقى مع الفرنج من معاقل المعائل ، ويعرق بحر المجر الجرار ما تخلف من ساحات الساحل . فلم يبق به من المدن المنبئة لإلا صور وطرابلس ، ومعالم الكفر بهما في هذه السنة المحسنة بعون الله تدرس . وأما أنطاكية فإنها بالعراء منبوذة ، وعند

(١) في ب الهام والتصحيح من ل .

(٢) في ب الحصون والتصحيح من ل .

(٣) الفتح : نخالب الأسد .

(٤) سهك الماذى : أى السحق الذى يحدته كل سلاح من حديد .

(٥) السمهرى : الرمح الصلب .

الانجاء إليها مأخوذة ، على أنها يوقم قومها عام أول موقوذة ، وحدود
العزائم إليها عند انقضاء هديتها مشحوذة . فلإنها قد نقصت من أطرافها ،
ودخل عليها من أكتافها ، وجلدعت بفتح حصونها عرائنها (١) . وضيق
على أسدها وسيدانها (٢) المحصورة المشورة فيها عرينها ، فهي تهزة لمقرص ،
وطعمة لمقتنص ، وسلعة لمسترخص ، وبلغة لمستفحص .

وقد خرج الخادم ليدخل البلاد ، ويستأنف بجهده الجهاد ، ويستقبل
الربيع بريع الإقبال ، ويستزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات
الزوال ، وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله أن ينجد جند أرضه
يخند سمائه ، ويوفق الخادم لتصديق أملة في تطهير الأرض من أنجاس أجناس
المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فالجحافل حافاة ، وأسراب الكفر بين
يديها جافلة ، ومعاطف الإسلام في لباس الباس رافلة ، ونصرة الله بانجاز
عداته في قمع عداته كافلة .

والحمد لله الذي وفق عبد مولانا أمير المؤمنين في طاعته لنصر أمره ،
ولإخلاص الولاء له في سره وجهره ، واقتناء كل منقبة حقق بها فضل عصره ،
وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره . فما يفتح مرتجبا (٣) إلا بتقليدها ،
ولا يستنجح مرتجى إلا بتأييدها .

(١) المرانين : جمع عرئين وهو هنا بمعنى الأنف كله أو ما صلب منه وهذه كناية عن أن
كل ركن قوى فيها قد سقط وذلت بالنصر عليها .

(٢) سيدانها : ذئابها .

(٣) المرتج : الطريق الضيقة .

ذكر خروج السلطان من دمشق لأجل شقيف أرنون

وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر في دمشق وقد أطاب المناشق الآمال من نشره
النشق، ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الأول يوم الجمعة بالمحبة المجتمعة،
والمهابة المنتعة، متوجهاً إلى شقيف أرنون ليقر بفتحها العيون، ويصدق
في استخلاصه الظنون.

وأنى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادى عشر الشهر ينتظر
من عساكره البعوث، ثم رحل على سمت بانياس وقد أوقع رعبه بين أهل
الكفر الياس، وأنى مرج عيون (١) وخيم منه بقرب الشقيف، وجمع على
من به من آلات الحصار أسباب التخويف. وذلك يوم الجمعة سابع عشر
ربيع الأول في أواسط فصل الربيع.

وأقام في ذلك المرج الوضيع، والررض الوضيع، وأسما الخليل في أعشاب
واصية، ورتعنا في ألطاف من الله دانية غير قاصية. وكان الشقيف في
يد صاحب صيداء - أرناط، وقد آكل في حفظه الاحتياط. فنزل إلى خدمة
السلطان لحكمه طامعاً، ولأمره سامعاً، وارضاه تابعا، وفي موضعه شافعاً،
وعلى حصنه خاشعاً، ولأجله خاشعاً.

وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله،
وأظهر أنه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله، وحينئذ يسلم
الموضع بما فيه، ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخضعه على إقطاع يقنيه،
وعن حب أهل دينه يسليه. فأكرمه وقربه، وقضى إربه، وأجابه إلى
ماسأله، وقبل منه عزيزاً ما بذلته بذلته، وأمهى غرب غربه وأمهاه، وأخذله
وما خذله، وخلع عليه وشرفه ورفعته في ناديه بنداؤه وعرفه، واقتنع بقوله
ولم يأخذ رهينة، ووجد إليه سكونا وعنده سكينه.

(١) مرج عيون : مرج واسع بين نهر اليرموك وشقيف أرنون (النوادر السلطانية

ط. ليدن رقم M).

فشرح ارناط في إذالة (١) حصنه ، وإزالة وهنه ، وترميم مستهلمه ،
وتتميم مستحكمه ، وتوفيز غلاله ، وتوفية رجاله ، وتدبير أحواله ، وتكثير
أمواله ، ونحن في غرة من تحفظه ، وفي سنة من تيقظه ، وفي غفلة من حزمه ،
وفي غفوة من عزمه .

وكان يتناع من سوق عسكرنا الميرة ، ويكثر فيه الذخيرة . وقد صدقنا
كذبه ، وحققنا اربه . وأسى إلى السلطان ماهو مشغل به من عمارة
يجهدها ، وذخيرة يعدها ، وثلمة يسدها ، وقوة يشدها ، وميرة يستعملها .
وكان بالمذكور شديد الظن . شديد الضن (٢) . لا يقبل ما فيه يقال ، ولا يظن
به عثوراً يقال .

فلما كثر فيه القول ، وتمكن من مسألته العول (٣) لم يرد أن يبدي له
ما قيل ، ولم يصدق بالتغيز عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج
إلى سطح الجبل ، وتحويل الخيم إليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر
جمادى الآخرة . وأظهر أن المرج وخيم ، والمقيم به سقيم ، وأم الدهر فيه
بالصحة عقيم .

وكان المقصود أن الشقيف من عيانه يقرب ، وأنخاره عنه لاتعزب .
فلما علم صاحب الشقيف بقربه ، شرع في إزالة ما في قلبه . وجاء إلى الخدمة
واستمسك بالعصمة . وذكر أنه متعزز بذل الطاعة ؛ وبذل الاستطاعة .
وتضرع خاضعاً ، وتعرض خاشعاً . وذكر أنه تخلف له أهل بصور ، وأنه
كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وأنه يترقب وصولهم ، ويأمل
عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا الحديث ، وتمهيد غلره فيما يتوهم
من عهده التكبر النكيث . وأقام يوماً وعاد إلى حصنه ، وقد وجد من
السلطان دلائل أمنه .

وكانت المدة قد دنا انتهائها ، وقرب انقضاؤها . فلأنها إلى آخر هذا الشهر ،
ولم يجد بداً من التسليم أو الغدر (٤) . فعاد بعد أيام ؛ باكثاب واغتمام .

(١) في ب إزالة والتصحيح من ل ومعنى كلمة أذال هنا كناية عن التقوية والتوسيع . أذال
التوب : جعل له ذيباً .

(٢) الضن : ما يرضن به من الشيء والمعنى هنا كناية عن عدم التسليم بما يقال فيه .

(٣) الصياح .

(٤) في ب الغدر والتصحيح من ل .

وحضر عند السلطان فقال ما أظهر به الابتهاال ، واستزاد الإمهال . وذكر أنه رقيق الامتتان ، وعتيق الإحسان . وأنه العبد القن (١) ، وقد دخل عليه الوهن ، وغلقت به الرهن ، وأنه يبقى أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن أنشأ غرساً سقاه فأبقاه ، وأشكاه فأزكاه ، وأسماه فأتماه . وقد اصتنعتي ورفعتني فلا تضيع الرفيع ، ولا تضيع الصنيع . وسأل أن تكون المدة سنة ، وأن يتبع الحسنة في حقّه حسنه . وأن يرخصي بطوله طوله وأن يشقني بشقاء ألمه أمله .

فراقه قوله ، فرق له طوله ، ثم أفكر في أمره ، واستمر في فكره ، فغادره على عزيمة غدره ، وجاهره بسر شره . بعد أن ماظله وطاوله ، وزاوله على ما حاوله . وأقام أياما يردده ويخصه من الكرامة بما يجده .

ثم كشف له الغطاء ، بعد أن أجزل له العطاء . وقال له . « قد قيل عنك مالا نظنه فيك ولا نعلمه منك » . فجحد ماعنه رقى ، وأنه كيف يلقي بالكفران ما من الإنعام لتي ، وأنه إن لم يسعد بلمهاله في الشقيف شقى .

ثم سأل في نذب من يوثق بأمانته ، ويؤمن إلى وثاقته . ليدخل الموضوع ويلمحه ، ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه . فرجع المنلوبون بنحبر ما أبصروه ، وذكر أن الحصن قد غيروه . وأنه قد استجد في سوره باب ، واستمدت له من أحكام إحكامه أسباب ، فاستحكم به الارتباب ، وعرف أن السرح قد حوته الذئاب .

فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم ، وقيل لعله يحسن فلا يجوز إلى مقابخته ويسلم . ثم قيل له « قد بقى يومان من المدة المضروبة ، والمهلة الموهوبة ، فتقيم عندنا حتى تنتهى المدة وتنقضى ، وتسلم الحصن وتسلم وتمضى . فأبدى ضرورة وضراعة ، وقال : سمعاً وطاعة . وكان له ما بقى وملق ، وفي لسانه ذلق ، وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال « أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم » . وهو قد تقدم إليهم بالوصية والتعليم . فآظهوروا عصيانه ، وقابوا ببقى مكانه . فقال قد بقى من المهلة يومان فماذا العجلة التي يفوت بها الغرض ، ويطول منها المرض ؟ فبصير عليه إلى يوم الأحد ثامن

(١) عبد تن : ملوك هو وأبواه .

عشرى جمادى الآخرة وهو آخر مدته ، وأول شدته ، وأوان انقضاء
عدة عدته .

وقد رُتب على الشقيف يزكا بمنح الخروج والدخول ، والصعود
والنزول ، وبضائق غريمه المطول ، قبل أن يمتد حصاره ويطول .

وحمله جماعة من الأمراء ووقفوا به إزاء حصته ، فناداهم في دراك
أمره ، وفكأك رهنه . فخرج إليه قس قاس ، بأسرعن باس ، فحادثه
في حادثه بلغته ، وناقضه (١) في كارثه (٢) بغلته ، وتجاوزا في السر ،
وتشاورا في الشر . وكأنا أمره بالتجلد ، وصبره على التشدد .

وعاد القس الشقي إلى الشقيف ، وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف ،
فقيّد وحمل إلى قلعة بانياس ، وبطل الرجاء فيه وبان اليأس .

ثم استحضره (٣) في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويله ،
على أن يبلغ المراد في شقيفه . فلما لم يفد خطابه ، ولم يجد عذابه ، سيره إلى
دمشق وسجنه ، وأزمره شجاه وشجنه .

وتحول السلطان من تخيمه إلى أعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب
لمحاصرة الحصن ، ورتب لها (٤) عدة من الأمراء ، وأمرهم بملازمة (٥)
في الصيف والشتاء ، إلى أن تسلمه بعد ستة بحكم السلم ، وأطلق صاحبه ،
وأجرى عليه حكم الحلم .

(١) خاطبه .

(٢) كارثه : الكارث هو الأمر اللو. يسبب اللم الشديد .

(٣) يقصد السلطان .

(٤) أى البلد .

(٥) يقصد الحصن .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الأحوال

وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر ، وقالوا : نحن في جمع جم خارج عن الحصر ، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر ، فربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار .

وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور ، وفارقوا بالاستطالة القصور . وجرت بين المرقيس المقيم بها وبين الملك مراسلات ، وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمكنه من دخول البلد ، ولج معه في اللدد (١) . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر ، وأنه منتظر لما يرمونه من الأمر ، ويصله من الأمر . ثم اتفقوا على أن يقيم بصور المرقيس ، ويلوم منه لملكهم التأسيس ، وملكهم التأسيس . وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم ، ويتساعدون على رم ما تشعث من أحوالهم ، ويتعاقدون (٢) على حل إشكالهم ، ويتعاضدون في تسديد اختلالهم . ويقصدون بلداً إسلامياً من الساحل ، ويقيمون عليه بالنوازل إقامة المنازل . والمرقيس بمدهم من صور بالمدد بعد المدد ، وبجميع ما يحتاجون إليه من الميرة والأسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي ، وبلغوا في الغي إلى هذه الغاي . وشرعوا فيما شرعوه ، وفرعوا ذروة الأصل الذي فرعوه .

ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من اليزك ، أن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر (٣) إلى المعترك ، وأنهم على قصد صيداء للحصر ، وقد جسروا على عبور البحر . فركب السلطان في الحال فيمن خف من ثقال الرجال ، وأقتال (٤) القتال ، وأطلاب الأبطال .

(١) اللدد . شدة الحصومة .

(٢) فوب يتعاقدن والتصحيح من ل ومن أ . (١٦٤ هـ)

(٣) الشديد السواد .

(٤) قتال : جمع قتل بكسر القاف وهو الترن أو الصديق .

وأنجاد الأجناد ، وأجلاد الجلاذ ، والباذلين المهج للجهد فى الجهاد .
 ووصل إلى الملتقى والشغل قد فرغ ، والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت
 والوقعة قد صدمت ، والثورة قد أثرت ، والسورة قد أسأرت (١) . فإن
 البيزكية لما شاهدت جاهدت ، وتعاقدت على لقائهم وتعاضدت . وخالطتهم
 وباسطتهم ، وواقحتهم وواقعتهم ، وجالدهم وجاولتهم ، وحاردهم (٢)
 وحاولتهم . وردتهم مفلولين مخلولين ، وصدتهم مهزومين مثلومين .
 وقسرتهم وكسرتهم . وأسرت سراهم ، وبزت بزاتهم ، وقصت عقباهم ،
 وقصمت شجعاتهم . وصادت صيدهم ، وفرست فرسانهم . ووقع فى الأمر
 من سباعهم سبعة ، وغودرت للنسور من أشلاء المارقين بالمأزق شبعة .

واستشهد من المماليك الخواص (أيك الأخرش) - وقد كان شهماً
 بالوقائع يتحرش ، وثبتا بالروائع لايتشوش ، وأنيساً بالحوادث لايتوحش ،
 وكياً كيشاً بالكوارث لايتكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان
 وكانت الدائرة على أهل الشرك والظنيان .

وعاد السلطان إلى خيم ضربت له بقرب اليزك ، وقال لعلمهم يعودون
 إلى ذلك المعترك ، فستلرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم ، وقد ندم
 الفرنج على ما نذر من اجترأهم وانبعأهم . وأقام إلى يوم الأربعاء تاربع عشر
 الشهر ، والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوى الظهْر ، وركب فى ذلك
 اليوم ، ليطلع من الجبل على القم . ولم يكن له نية القتال ، فلم يسبحب
 معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير
 علمه ، وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال وعلى عزمه : وكان الفرنج قد
 بصروا بالراجل فطمعوا فيه ، ثم ظنوا أن وراعه عسكرياً فى الكمين يحويه .
 وأنفذ السلطان بعض الأمراء إلى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قباوا ، وحدل
 عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وختمت بشهادة أولئك السعداء تارك العشية ،

(١) أسأرت : بقيت .

(٢) حاردهم : أى كانت تعطى ثم تمسك . وحاولتهم : أى أرادت وطلبت الشيء بحيلة .

ونفذت من الله في استشهداهم المشية . وحمل الحاضرون من الأمراء والعسكرية على الفرنج حملة أردتهم وردتهم : وصدفتهم عن الجراءة وصلتهم . وتراحموا على الجسر ففرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا ولنا ، جنى ألبنا وأجنى أملنا . وللحرب رجال والحرب سجال . ولم يكن لأولئك الغرابة بقتال الفرنج درية ، وإقدامهم على العدو لله قربة . فحاضوا من الدم في اللجج ، واعتاضوا الجنة من المهج .

ومن لقي الله بالشهادة ؛ وختم له بالسعادة ؛ (الأمير غازى بن سعد الدولة مسعود بن البصارو) - وكان شابا لنار الحرب شابا ، ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تمّ من الغزاة ؛ انقض في أصحابه على الفرنج انقضاض البزاة . فدعته جنته ، إلى طعنة لبثها لبته . فاحتسبه عند الله والده ، وكدّرت عليه موارد . وأوجد جمعنا الأسمى على فقد ذلك الواحد ، وساء علم الساعد ، وبتنا نشكر مساعى ذلك المساعد . وضائق القلوب ، وقاضت الكروب . وألمّ البوس ، وألمت النفوس .

وهذه وقعة ندرت ، وواقعة بندرت ، ونذير حدث وحادثة أنذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة ، وأذاقونا بعد أن حلا لنا جنى الفتوحات مرارة هذه المرة ، فأيقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس حذرهم ونذروا وعقلوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا إلى الله وقالوا : « بهذا وعد الله حيث قال (فيقتلون ويقتلون (١)) ، وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمثلون » .

ثم قويت عزيمة السلطان على قصدهم في منحيمهم ، وكسبهم في مجثمهم . وعبور الجسر إليهم ، والاحلاق بهم من حواليتهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته ، وأسرع الناس إلى موسمهم وخشيت فوئتهم . وتسامع أهل البلاد ؛ بتصميم عزيمة الجهاد . فنباشروا وتبادروا ، وتسابقوا وتسارعوا . وأتوا من كل فج ، وجاعوا من كل نهج . وسالوا في كل واد ، وجالوا في

(١) الآية ١١١ سورة التوبة .

كل يفاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق وحوّران (١) ، يجرّون إلى مر الموت ويجرّون المرّان (٢) . وتوافد من بالبرج والقوطة ، على الحالة المغبّوة ، وقالوا : « هذا أوان احضار الضوامر المربّوة » .

واجتمعت (بمرج عيون) ، جموع مرجت العيون . فخافت الفرنج من هذا الجمع ، وأنافت (٣) على القمع . وتعكّست إلى سور صور ، وعابن أولئك البور الثبور . وتحزّروا وتحرسوا ، وتوجلّوا وتوجسّوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم ، ليتمكن على غرّتهم حشدنا من حصدهم .

وعاد العسكر إلى المخيم وسار السلطان إلى (تبّنين) ، صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . - لتتقدّ أحوالها ، وتؤمّل أعمالها ، وعرض رجالها . ثم صار منها إلى عكاء جريدة ، ورتب في عمارتها وولايتها أحوالا سديدة . ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ ، والاستظهار والتيقّظ . وأسرع عودته إلى المعسكر ، عظيم الفخر ، كريم المعشر ، موفق المورد والمصدر ، مقرر المنظر والمخبر . وأقام إلى يوم السبت سادس جمادى الآخرة ، وبجرّ نعيمه بموج بأمواج العساكر الزاخرة .

(١) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق تتبعها قرى كثيرة ومزارع سكنها كثير من العرب (ياقوت ج ٧ : ٣١٧ - ٣١٨ ط . ب) .
(٢) المران : الرماح اللدنة في صلاحية .
(٣) أنافت : أشرفت ، وطالت وارتفعت .

ذكر ما تم من استشهاده عدة من أمراء العرب

وانتهى إلينا أن الفرنج يتشرون في الأرض ، وينسبون في موضع القبض ، ولا يحفظون في الرفع والخفض ، ويخطبون ولا يخطبون . ويحتشون ولا يخطشون . ويحنون ثمار الجبل ، ويحنون على من يصادفونه بأنواع الغيل . وهم في غرة من غارة ، وفي جسارة تعود عليهم بخسارة . وفي غفلة تجرعقة (١) ، وفي ضلّة ترفع عليهم من العذاب ظلمة . وأنهم إذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب ، وانتشروا لضم الأعشاب من الشعاب ؛ خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد ، وتحفظهم من متعد .

ونفذ السلطان إلى خيل تبين ، وأمرهم بأن يصبحوا أولئك الملاحين . فإذا خرجت الخيل إليهم تطاردوا قدامها ووصت بها الكمين . وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور ، وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ إلى عسكر عكاء ليكن (٢) في موضع عينه ، ولا يظهر مكمنه . حتى يكون من وراء القوم ، مستعدا لما ينالهم من الوقم .

وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد ، مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبين قد أغارت وأثارت ، وأبرت وأبارت . فعبّر تبين وكن بين صور وبينها ، وعين البزكية وأوقد عينها . ورتب ثمانية أطلاب من الأبطال ، وكن بتلك الأرجاء كماء الرجال . وانتخب من كل طلب عشرين فارسا ، أجوادا على الجياد ، وأجلادا في الجلد على الجلاد . فأمرهم بأن يترأوا للفرنج حتى تصل إليهم ، وتحمل عليهم . وهم يفرون قدامها ، ولا يقرون أمامها . ويجذبونها إلى قرب الكمين ويوقعونها عليه ، ويواقعونها إذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به أمروا ، ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا ، وأنفوا من أن يقال عنهم فروا بل جالوا فيهم وكروا .

(١) ما يربط به كالتيد .

(٢) في ب ليسكن والتصحيح من ل ومن أ (١٦٦ ص) .

واتصل القتال واشتد ، واحتدم المصال(١) واحتد ، وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات الصفاح ، وفارت غمرات الكفاح . وئارت غبرات البرى(٢) ، ودارت عثرات الثرى . وانحلت عرى اللمم(٣) ، وانحطت نزا التمم . وعدم كل قرن قراره ، وكل جفن غراره ، ودام نهارنا يُجرى بأنهار الدم أنهاره .

وعرف من بالكمين أن الحرب قد اشتبكت ، وأن الأسد قد اعتركت ، وأن البزل(٤) قد ارتبكت وابتكت : فتواصل انجادا للانجاد ، وتراسل أمدادا بعد الأمداد .

فلما رأى العدو أن المدد يكثر والعدد يكتف ؛ وأن عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف ؛ صمم العزيمة على الهزيمة ، وعلم أن النجاة عين الغنيمة . فبنى أعطافه ، وضم أطرافه ، ورد أحلافه . وجرت بين الفريقين مقتلة ، عادت أرض المعركة بها وهى مشقلة . وكان قد حمل العرب على وعد العود إلى الكمين ، والرجوع إلى أسد ذلك العرين ؛ ولم يكن لهم بالطريق خبرة ، ولا عبرت من الطوارق بهم عبرة : فتطاردوا بين يدي الفرنج فى واد ماله نفاذ ، ولا لسانكه إلى منهج ملاذ :

ورآهم العدو فعدا وراهم ، وسار يجمعه ازاءهم : فلما انتهوا إلى الجبل ادركوا ، ولم يقدروا أن يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا ، وأقبلوا على الله فقبلوا . وهم : الأمير زامل بن تبال بن مرّ بن ربيعة أمير النقرة ، وسرى الأسرة . والأمير حجبى بن منصور بن غدقل بن ربيعة ، والأمير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرّ بن ربيعة ، وآخر معهم . فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم فى جنة الخلد ربوع ، وقلد لهم فى رياض التميم ربوع . وفازوا بالتميم ونعموا بالفوز، وانتقلوا من العز الفانى إلى الباقي من العز

(١) المصال : مكان الصول والقهر .

(٢) التراب .

(٣) اللمم : الشدائد .

(٤) البزل : جمع يازل وهو الرجل الخير .

وكان معهم من المماليك الخواص ؛ من ذوى الجند والاخلاص ؛
تركى عربى النخوة ، غضنفرى السطاوة . فلما حصل فى المصيق ؛ وأيسر
من الطريق ؛ نزل عن فرسه على صخرة بنجوة ، وتل بين يديه كنانته
فارعا للروة ، وقد أوتر قوسه وسدد إليهم سهمه ، وقبل تضاء الله وحكمه .
وحن إلى منيته من حنيته ، وأصاب منيته من إصماء العدو فى المصاب
بأمنيته .

فوقفوا عنه بعيدا حتى خافوا قربه ، ومازالوا يطحنونه ويرهونه حتى
ظنوا أنه قضى نجه ، فأصبح وقد نرف دمه ، فترجع على وجوده علمه .
ولما قيل أنه استشهد ؛ وطلب ليلحد ؛ رمق وبه رمق ، وهو فى دمه
غرق . فحمل على أنه من الأموات ، ولم يرج له فوات الوفاة . فأحياه الله
بعد أن أماته ، وجمع أعضائه عليه وقد شارف منها شتاته . وأنشأه خائفاً
جديداً ، وأوجده فى أجله مزيدا ، وهو (أيبك الساقى) ، زاده
ما جرى اجترأ على الإقدام ، وإجترأ إلى مضمار الحمام . فما سمع
بعد ذلك هيمة لإطار إليها ، ولا أبصر للكفر ضيعة إلا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج إلى عكاه والزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم إليها
وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب ؛ أن العدو قد ركب . وأجلب
بجيلة ورجله ، وطار بجراد جرده . ودبّ دباه في رجله . وسرحت ذئابه ،
ونبحت كلابه . وجاش عرام جيشه العرمم ، وطاش إلى أهل الجلنة بأهل
جهنم . ونوى القرب من النواقر (١) ، وأضرم بنار السعير مساعى المساعير
وهو على قصد عكاه يجرى إلى المدى برأى جمعه المدامير (٢) . وأن نفرا منهم
نفر ، وسبق إلى النواقر وعبر . ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها
المصونة . وهناك من المؤمنين رجال يحمون طرف الثغر ، ويضمون نشر
الأمر . ويضمون نحر الكفر ، ويحبون غارب الشر ، ويحبون جانب
البحر . ويطوفون للحراسة ، ويطولون بالحماسة .

فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها ، وعاقروها وقارعوها .
وأهلكوا عدة ، وملكوا عدة . ولما تكاثرت أعداد الأعداء ؛ استظهروا
بالانكفاء عن الأكفاء . وتدافعوا بعد ما دافعوا ، وتراجعوا بعد ما راجعوا .
واطلع السلطان على خبرهم ، وعرف نفور نفورهم . فكتب إلى العساكر الدانية
بالدنو ، للعدو على العدو . فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوافوا
للجهاد ، وتوافقوا في ادناء المراد بإبعاد المراد .

ورحل الفرنج ثانی عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد وافرة العدد .
ونزلت على عين بصة (٣) ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك
الرحاب المغتصة . ووصل أوائلهم إلى الزيب ، وأجابوا داعية الصليب .

(١) النواقر : جمع القنبرة ، وأصله نواقر ، وهى فرجة فى جبل بين عكاه وصورعلى
ساحل (البحر الأبيض المتوسط) (ياقوت ج ١٩ : ٣٠٦ ط.ب.) .
(٢) برأى جمه المدامير : أى أجمعوا على رأى كان فيه دمارهم . أو هو من دمر دموراً :
إذا دخل بنير إذن وهجم هجوم الشر .
(٣) عين بصة : موضع بين الطور والزيب (التواد السلطانية ط . ليدن ، الفهرس
الجغرافى رقم A) .

فأصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ، ووصل العتق بالدميل ، وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة (١) في الأودية جري السيل . وسرنا على جبّ يوسف (٢) إلى المنية ، آخذين بالخزم تاركين للوثية . وجئنا بمصريوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا (٣) ؛ وبتنا بها تلك الليلة وسكنا . ثم أصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبة (٤) ، واطلع منها على الأسرار المحجوبة . وأشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل .

وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، للفرنج مقابلين مقاتلين . فوصلوا في هذا اليوم ، وقد نالوا في طريقهم من القوم . ونزلنا في أرض صفورية بالانتقال ، وتجرد الرجال منها إلى المخيم السلطاني للقتال . وكان من رأى السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ؛ ولم يزل رأيه بنور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكى ؛ أن يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق . ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن الزول . فأنهم إذا نزلوا صعب نزلهم ، وأتعب قتالهم . وإذا نبتوا تعذر حصدهم ، وإذا ثبتوا تعسر قصدهم . وإذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، وإذا حلقوا في جوالدو (٥) طاروا كالجراد . فعند الانتشار يمكن التقاطهم ، وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له : « بل نستقيم على السنن القويم : ونطالبهم طلب الغريم . وما أهون قطعهم إذا وصلنا ، وأعجل ادبارهم إذا أقبلنا . والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التطاول فيه عذر . فنمضى على أسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالتميتق » .

(١) الملاحة : بقعة قريبة جدا من الركن الشمال الغربي لبحيرة الحولة

(The Damascus Chronicle P. 330)

(٢) جب يوسف : على بعد اثني عشر ميلا من طبرية ، بين سنجل ونابلس (ياقوت

ج ٥ : ١٠٠ و ١٠١ ط. ب.) .

(٣) كفر كنا : بلد بفلسطين بها قبر يونس عليه السلام وقبر أبيه (ياقوت ج ٧ : ٢٦٦ ط

الخامس ١٣٢٤ هـ) .

(٤) الخروبة : أو الخرنوبية ، تل وجبل كذلك ، وحصن مشرف على صكا بسواحل

(البحر الأبيض المتوسط) (ياقوت ج ٧ : ٣٦٢ ط. ب.) .

(٥) اللو : البرية .

وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب ، فإن نزلهم عند نزولهم صار أصعب . ونزل الفرنج على عكاه من البحر إلى البحر ، محتاطين بالانحصار محيطين بها للحصر . وضرب الملك العتيق (كى) خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالأجام الموثبة .

وبعث السلطان ليلة وصوله إلى مدينة عكاه بعثا دخلها على غرة من العلو ، وتواصلت البعوث إليها التي هي على التزايد والنمو . حتى استظهرت بقوتها ، وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر واتصلت الأوائل بالأواخر ، عي جيشه طلباً طلباً ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا : وصار بهيته وهيبته ، وأنزل العسكر على تعيينه . ونزل بمرج عكاه على تل كيسان^(١) في ذوى اختصاصه ، وقد نصب من خيامه عليه أشراك أفاضه . وامتدت الميمنة إلى تل العياضية والميسرة إلى نهر الماء العذب .

فدارت رحى الحرب ، ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووفى للانجاد عسكر الشرق ماضى الغرب . وصرنا محاصرين للمحاصرين ، مكابرين للمكابرين . قد أحطنا بالعلو وهو بالبلد محيط ، واستشطننا منه وهو مستشيط : وأحذقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها . ورتبنا بالزيب والنواقر رجالا يصلونهم عن سهلها . ودمنا نصابهم بالقتال ونماسيهم ، ونراوحهم ونغاديبهم ، ونعاودهم ونباديبهم وتقلم ، بعوادينا على عواديبهم ، ونصدهم ونصلدهم ، ويوجدهم البحر ونعددهم .

وما زالت مراكبهم تتواصل ، ومناكبهم تتناول . وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافلون ، مزادفون مزادفون . قد لفقوا وجه البحر ينقصب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثبجه عران الرعن^(٢) . وألقوا على

(١) تل كيسان : موضع في مرج عكاه من سواحل الشام (ياقوت ج ٥ : ٤٣ ط. ب).

(٢) القلوس : حبل السفينة الضخم . ثبجه : معظمه ووسطه . العران : المسار الذى

يضم بين السنان والقتاة ، القرن بكسر التاء . الرعن : الجبل الطويل . والمبارة كناية عن أنهم كانوا يجذبون بالحبال الضخمة على سطح البحر سفنا ضخمة كأنها الجبال .

تياره بسط البطس ، وحملوا على البحر أوزار النجس ، وتبأ لهم وتعسا .
فأنهم زادوا على رجسهم رجسا .

وبقى القتال بينهم وبين اليزكية ؛ كل بكرة إلى العشية ؛ إلى أن وصل
الملك المظفر تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبوري - الأسد الغضنفر .
فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم ، ووصل مقدمو الرجال في الجمع
الجلم . واستدارت الفرنج بعكاء كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في
التحرس والتحرز . ومنعوا من الدخول والخروج ؛ ولج أولئك العلوج في
ضبط طريق الولوج . وذلك في يوم الاربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ،
والاسلام ينادينا باستصراخه .

وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهات راياته ،
واستقلت آياته . وعز عزمه وعلا حكمه . وما منا إلا من أسرج الجرد وجرّد
السريجات ، وعاج بالأعوجيات ، وأشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال
الرديشنيات ، ورديان العقليات ، وأذكى المذاكي وقرب المقربات . وقد
سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه . وساف سيفه رده الدم ، وضاف جوده
مضيف العلم .

وأقبلنا والنصر مقبل ، والظفر مهتلل . والميمنة والميسرة باليمن واليسر
ممتدنان ، والقلب له من التأيد والتحكين جناحان . واتفقت الآراء ؛ وأجمع
الأمرء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة .
ومتاب منابر الاسلام عن أهله في جميع بلاده ، واجماع الألسنة والقلوب
في الضراعة إلى الله في نصرة المجاهدين من عباده . وأحاط العسكر الاسلامي
بجوانبيهم . وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفلّل مضاء مضاربهم . وهم في
مواضعهم واقفون ، وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون .
وعلى مواطنهم ثابتون كالبتيان المرصوص ما فيه خلل ، وكالحلقة المفرخة
ما إليها مدخل . وكالسور المحيط ما عليه متساق ، وكالجبل الأشم ما فيه
متعلق .

فرحنا لآلهم فلم ييزحوا ، وقرينا منهم فلم ييزحوا . وحملنا عليهم

فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها .
ودامت الحرب قائمة ، وديمة الدم دائمة . وكلما قتل واحد وقف آخر
مقامه ، وخلف نظامه . حتى دخل الليل وحجز ، ووعد النصر ما أنجز ،
وحزب الحق ما عجز .

فأصبحوا يوم السبت على الحرب كماأمسوا ، وزادوا على ماجرى أمس
وأفروا عنه وأنسوا . فما طلعت شمس الظهرية حتى طلعت شمس الظهر ،
وأصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض النور .

وحمل الناس من جانب البحر شمالى عكاء حملة شديدة ، كانت لمن
قدامهم من الفرنج مييدة . وفرشوهم على تلك التلول ، وردوا مضاربيهم
من فلهم بها بادية القلول . وانهمز الفرنج إلى تل المصلبة نحو القبة وثبتوا
عند الوتية . وأخلوا ذلك الجانب ، وخلوا تلك المذاهب . وقلعت خيامهم
منها ، وقطعت أطماعهم عنها . وافتح لنا طريق عكاء ودخلها الرجال ،
وحملت إليها الغلال ، ونقلت إليها الأحمال . ودخل العسكر إليها وخرج ،
وانكشفت ضيق حصرها وانفرج . وذلك من باب القلعة الوسطى إلى باب
تراقوش ، واستطرت إليها العساكر والجيوش .

واطلع السلطان على الفرنج من سورها ، وشرع في تدبير أمورها .
وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادى ، وترك الموادة
في قصر القصر والموادى^(١) . والفرنج قد رهبوا ، ولو قلدروا هربوا
ولكن أصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة ، وأنهم أى وقت أرادوا
كانت منهم عزيمة ، ومن العدو هزيمة . وتوقفوا عن الاتمام ، وتقدموا
عن مقام الاقدام . ولو أنهم استمروا في الحرب على هيبتهم وهيبتهم ؛ لباء
الأعداء لنجحنا بجيبتهم . فان الصدمة الأولى أخافت وحافت ، وناقت بقاء
التقوم وعلى هلكها أنافت . لكننا تركناهم حتى عادت إليهم الأرماق ، وعاد
فرقهم الإفراق^(٢) . وأبصروا ما بين أيديهم وما خلفهم وأزالوا فيما بينهم

(١) الموادى : من الليل أرائله ، ومن الإبل أول رحيل يطلع منها .

(٢) أى أن جمعهم التأم يمد التفرق وفتشت والفرج .

بالموافقة خلفهم . وأثبتوا في مستنقع الموت أرجلهم ، ورأوا أن الوقت قد أمهلهم :

وقال أمراؤنا : « هؤلاء قد سهل أمرهم ، وخمد جمرهم . وقد حصص (١) رياشهم حصصهم . وهم في قبضتنا أى وقت أردنا ، ولقصدهم تجردنا » . وقالوا : « نصبر إلى الظهر ونغضى ونسقى الخيل ونعود ، وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود » . فانصرفوا على وعد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق اللود .

ويلع العدو ريقه ، ووجد إلى الجلد طريقه ، وجمع بعد التفرق فريقه . وضم عن الانتشار راجله ، وزم راحه ونابله . ووقفوا كالسور من وراء الجنويات ، والتراس والتقنطاريات . وقد صوبوا الجروح وفوقوها ، وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها . كأنهم في الدروع أرقام ، وفي المجان علاجهم (٢) ، وفي النهوض قشاعم ، وفي الضراوة ضراغم .

واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم ، وتسترهم بتراسهم . فمننا من يقول : « نصبحهم بالزحف ، ونزورهم بالتحفت . ويرجل الأمراء فيتبعهم الأصحاب ، وتنشب من آسادنا في تلك الخنازير من الشباب الأظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب . فنسقمهم ولو أنهم جبال ، ونطقء نيرانهم فلا يقدهم من بعدها ذبال » .

ومنا من يقول : « يدخل راجلنا إلى البلد ، مستعدا بالأهب متأهبا بالعدد . فاذا زحفنا إليهم وأوجفنا عليهم ، خرج من في البلد من العسكرية والرجال ، وناولتناهم من أمامهم ومن ورأهم بالتوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين ، ولا يبق للدين بعد درك الثار منهم دين » .

ومنا من يقول : « لا بل نفرج عنهم ، ونبعد منهم . فما دنا على هذه المضايقة والمصابرة ؛ والمحاققة والمحاصرة ؛ والمكابدة والمكابرة ؛ فانهم

(١) انقص .

(٢) المجان : جمع عين وجمعة ، وهو الترس أوكل ما وقى من السلاح . علاجهم : جمع

طبع وهو التويل من الإبل والحمر .

يتيمظون ويتبهون ، ويتحفظون ولا يتهون ، ويتحرزون ويتحربون ، ويتوجلون ويتوجمون . فاذا أُرخيْنَا طولهم (١) ؛ وأوسعنا أملهم ؛ استرسلوا بعد ما استسلوا ، واستقبلوا الدعة بعد ما استقبلوا . واطمأنوا فطمعوا ، وإذا أبطأنا تسرعوا . واغترروا بأننا على غرة فأغاروا ، وظهرت لهم آثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا ، فحيثئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . وإذا ظهروا ظهرنا عليهم ، ومتى أصحروا أصحرننا إليهم . وإن بارزوا بارزناهم ، وأنجزنا عدة أمانينا فيهم وناجزناهم » .

ومنا من يقول : « هولاء في عدد النمل ، وكثرة الرمل ، وظلام الليل ، وعرام السيل : فما يقمهم إلا العدد الكثير ، ولا يقمعهم إلا الجمع الجم الغفير . والمصلحة أن تستقر العساكر ، ونستحضر لآبادتهم البادية والحاضر . ونستجيش الجحافل ، ونستشير الفارس والراجل . ونلقاهم بأمنهم ، ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم » .

ومنا من يقول : « هولاء عالم لا يحصى ، قد حضروا من الأذنى والأقصى . وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وأمادهم في الصبر تبلغ . وأمادهم تنقطع ، وأنجادهم تمتنع . وموادهم تقل ، وجوادهم تفضل . ولمراكبهم في الشتاء شتات ، ولجباثلهم وجابلهم انبثات (٢) . فلما أن يضطروا إلى الانفصال ؛ وإما أن يؤذَن فناء أرزاقهم بحلول الآجال ، ويهون علينا حربهم في تلك الحال (وكفى الله المؤمنين القتال) (٣) فهذا عسكر الاسلام ، وجند مصر والشام . ففي الاقدام بهخطر ، وفي المباشرة بحربه غرر . والمصاحبة العامة تلحظ ، ورأس المال يحفظ »

ومنا من يقول : « نستلحى من مصر الاساطيل ، ونستدفع بحقها الأباطيل . ونستكثر من مراكبها ، ونستعدى على هذه الأفاعى بمقاربيها ، ونستطيل على الشناة (٤) المستطيلة بشوانيتها ، ونعدو على عوادي الأعادي

(١) الطول : جبل يشد به قائمة الدابة ، أو تشد به وتمسك طرفه وترسلها ترمى .

(٢) انبثات : انبت بتشديد التاء أى انقطع .

(٣) الآية ٢٥ سورة الأحزاب .

(٤) الشناة : هم البحارة الذين يقودون الشواني وهي المراكب الكبيرة المدة للجهاد .

بعواديهما . وإذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر ؛ وصلت لنا أسباب النصر . وحيثئذ تقاتلهم برا وبحرا ، ونوسعهم بمضايقتهم فيهما قتلا وأسرا . وما زالت هذه الآراء بيننا متداولة (١) ؛ وخواطرننا في تديرها متجاوله والحرب بيننا وبين الفرنج جارية ، وزناد الهيجاء لاشعال نارها وارية . وفي كل يوم نتصافح بالصفاح ، وتكافأ في الكفاح . وننطق فيهم بكلام الكلوم ، ونلحق منهم الموجود بالمعلوم ، وللطلاع وقائع ، وللوقائع طلائع . وللسهام أفواق فائقة ، وللحمام أسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسرى وتأسر ، وتبرى وتأبر (٢) . وتكبس وتكسب ، وتسبي وتسلب . والسلطان يياشر ذلك كله بنفسه ، وهو يدأب في يومه لغده مجتهدا في الزيادة على أمسه . ناثبا عن أعوان المسلمين وأنصارهم ، ساهرا لهم في ليلهم قائما بأمرهم في نهارهم . والعين الساهرة في سبيل الله قريرة ، وتعب يوم واحد لله في اليوم الآخر ذخيرة .

(١) في ب متدارن له والتصحيح من ل .

(٢) تأبر : أى تهلك أو تلدغ بابرتها .

ذكر وقعة تمت يوم الأربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج آخر يوم الأربعاء سادس شعبان بأجمعهم ، وتقدموا من مواضعهم ، واشتاقوا إلى مصرعهم ، وفارقوا الحزم في تسرعهم . وخرجوا عن رجالتهم ، وتجردوا بخيالتهم . وحملوا على الواقفين من أصحابنا حملة الرجل الواحد ، فتحرك الصف الثابت الساكن أمامهم كالبنين إذا تحلحل من القواعد . وتراجع عنهم المسلمون استدراجا ، وملأت الأرض السماء عججا وعجاجا ، وزخر بحر الحرب على أمواج أمواج .

فما قربوا من خيام اليزك ؛ إلا وقد اعتكر جو المعترك . وعساكرنا قد أوجفت (١) عليهم ، وزحفت إليهم ، وأردتهم بعقابهم ، وردتهم على أعقابهم . ووصلت إلى رؤسائهم فقطعت رؤوسا ، وألحف بأسها ذلك الجمع بوسا ، وثنت وجه الكفر عبوسا . وولوا مدبرين ، وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر عائر ، والذمر الباسل باسم بالموت باشر .

فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل . وبات كل حزب على حرب ، واعداد عدد طمن وضرب . وبات الناس من الجانين على غاية من التيقظ ، وهمة متنبهة للحفاظ . وحراسة وحماية ، وسياسة ورعاية .

فلما أصبحوا عادوا إلى عادتهم في اللقاء ، وهاجوا بعاديتهم إلى الهياج . هذا وأبواب البلد مفتوحة ، والصدور بطروق الظاهر إليها مشروحة . والفرنج قد ندموا على ما قدموا . وندموا بصيرتهم بما صدموا . وعادوا لا يفرطون ولا يتورطون ، ويتقبضون ولا ينبسطون .

(١) أوجفت عليهم : حركتهم وصيرتهم مضطربين ، أو جعلتهم يمدون عدوا سرعاً ..

ذكر وفاة حسام الدين طُمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادى عشر الشهر إلى تل العياضية ، ليكون منه في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل المصلبة منزلة العدو ، وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام الميمنة ممتدة إلى البحر ، وخيام الميسرة إلى النهر ، واتسع مجالنا وضائق الدائرة على الكفر . وكان الأمير طمان - صاحب الرقة - مريضاً ، ولم تزل وجوه الأيام الغبر في سبيل الله باحمرار ييضه ييضاً . وهو الحسام القاضل ، والهامام الباسل ، والقرم البازل (١) ، والتذب الحلالح . والمحترق لحمية الدين ، والمقترح لحماية المسلمين .

ولما وافت وفاته ؛ وفاته رجاءه ولم يُرج فواته ؛ أسف على عمره ، وأسى على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيداً ، ولم يستشهد في الجهاد سعيداً . وقال : « قدموا حصاني حتى أشهد الحرب وأستشهد ، وأجاهد إلى أن أقتل وأجهد . فاني أرى موتى على الفراش غبنا ، وقد عرفتم منى شجاعة لاجبنا » . وتوفى عصر الأربعاء ثالث عشر شعبان ؛ وبوأه الله الجنان ، وبشر به رضوان .

وكان قد توفى بالقرب الأمير التذب ؛ فارس الحرب ؛ ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب ؛ (حسام الدين سقر الخلاطى) النجيب المنتخب . فنبت مضارب الدين باغمام الحسامين ، وجاءت الهوم لأجل أجل الهمامين . فوجمت النفوس ، وألت القلوب ، وفاضت لغروب فيضهما الغروب .

(١) البازل : الحبير .

ذكر واقعة للعرب أربت لنا بالأرب

انتهى إلينا ان الفرنج يتطرقون وينظفون، ويأمنون ولا يتخوفون.. ويخرجون للاحتشاش ، ويتشرون لضم الأعشاب من الأعشاش . ويصلون إلى طرفي النهر وهم لمن يخلق عليهم من فوقهم تحت القهر . فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فارسه من الفرسان . فأغاروا وهم غارون(١) ، وساروا إلى جمعهم وهم بتجمعهم سارون . وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم إلى حمى حمامهم . وحملوا إليهم حين حملوا عليهم بؤسا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رعوسا . وأحضرها عند السلطان فاجتأبوا بها خلع الأجتباء ، وبعثهم على الحمية والاياء . وذلك يوم السبت ثالث عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين أصحابنا في عكاء متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم متق وفيهم منتقل . وفي كل يوم تقوم الحرب على ساق ، والأرواح في مساق ، والمصاع على اتساق . وكم قتل من حزب العدو وأسر ، وكم حمل ليكسر فكسّر . وربما هل الحزبان ، وكل الغربان ، فتوافقا على الأمان ، وتوافقا يتكلمان . وربما أفلموا ثم نكصوا ، وغنوا ورقصوا . وإذا لغبوا لعبوا واستراحوا إلى الوقوف إذا تعبوا .

ومن نوادر ما جرى وغرائبه ؛ وملح ما تم وعجائبه ؛ أن الطائفتين في بعض الأيام ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام . فقال واحد من الفرنج : « إلى متى هذا القتال ، وقد فنى الرجال . فأخرجوا صبيانكم إلى صبياننا ، ليكونوا في أمانكم وأماننا » . فبرز منهم صبيان ومن البلد آخران . فقاتلوا مليا ، وألفوا نار الحرب صليا . ثم وثب أحد الصبيين المسلمين ، على أحد الصبيين الكافرين . وضرب به الأرض ، وقفز عليه وانقض . وقبضه كسيرا ، وجذبه أسيرا . فافتداه بعضهم بدينارين ، وعاد المسلم من ظهوره وسروره إلى جتتين ، والعلو من كفره وفكره إلى نارين .

(١) لى على غرة .

ومن الانتقادات النادرة ؛ وأمارات السعادة الظاهرة ؛ أنه أفلت من بعض
مراكب الفرنج حصان ؛ له عندهم صيت وشان . فلم يقدرُوا على ضبطه ،
كما عجزوا عن ربطه . وما زال يعوم في البحر وهم حواليه ، حتى دخل مينا
البلد وتسارع أصحابنا إليه . وأهدوه إلى السلطان ، وعده العدو من أمارات
الخذلان ، ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الوقعة الكبرى

وأصبح الفرنج يوم الأربعاء العشرين من شعبان ؛ وقد رفعوا الصليبان ، وزحفت أسودهم في غاب المران ، وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح ، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح . وخرجوا على التعبية ، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية ، وشعفوا (١) بالتبرية للبرية . وتقدموا معزّمين ، وعزموا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان ، وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الرجل أمام القرسان . وزحفوا أطلابا ، وحفروا طلابا . ودبوا ديب الليل إلى النهار، وهبوا هبوب الخيل إلى المضمار، وأجروا سيول السوابق إلى القرار ، وجروا ذيول السوابغ إلى الغوار . وتحركوا وهم هضاب ، وتدنكوا وهم غضاب ، وما زالت ميسرتهم تكثر وتكثف ؛ وتعطوا (٢) وتعطف ؛ وتفور وتثور ؛ وتزود وتلور ؛ وتهم وتهمهم ؛ وتعلم وتلوم .

وقد عي السلطان ميمته وميسرته ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثابت ، ومحزبه في صف الحرب ثابت ، ورعيه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف ، وبأمر بالوقوف به ويحض على حظ الأبد ، ويحث على الجلال والجلد . ويثوب للوثوب ، ويندب إلى الندوب .

ولما شاهد شروق بروقهم ؛ وخرق مروقهم ؛ وكثافة ميسرتهم ؛ وحشو حشود كرتهم ؛ أنهض رجال القلب لتقوية ميمته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح . وكلما تقدموا تأخر يستجرتهم ، ويحذر مكرهم ومكرهم ففرقوا أنهم لا قبل لهم لمقابلاته ، وأن هذا ليس ميمات مقاتلته . فتركوه واستقبلوا القلب ، وزخر بجرهم وعب . وحملوا حملة دوى منها الدوى ، واسود منها جوى (٣) الجوى .

(١) شحف : شفف به .

(٢) تطلوا : عطا الشيء وآليه : تناوله . عطا إليه يده لورأسه ، رفعها .

(٣) في أ (١٧٨ ش) واسود منها الجوى .

ووصلوا إلى جموع ديار بكر (١) والجزيرة (٢) ، وغاصوا في بلحتها
بغدران السوايح والسوايح الغربية . وكانت من القلب على الجناح للطيران ،
وجالها على الرياح للجريان . فعرفوها بالغرّة ، واستضعفوها لدى الكرة .
وألوا بها فما ألت ، وهموا بها فما همت ، واندفعت وما دفعت ، وتراجعت
وما رجعت ، وتمكست وما عكست ، وأدبرت وما تدبرت . ولكونها غير
عارفة بقتال الفرنج هابت وما هبت ، ولا بت وما لبّت ، ورابت وما ربّت .
وجاءوا إلى القلب وقلوبه ، وحاربوه وحربوه . وخرّبوا حزيه ،
وخرقوا حجه . وهناك استشهد كرام باعوا أنفسهم بالحنة ، وأسأوا نحوهم
نحو الأسته . منهم : (الأمير مجلّي بن مروان) - وكان مجليا في المروة ،
و (الظهير أخو الفقيه عيسى) - وكان ظاهر الفتوة . وآخرون اعترفوا
بذنوبهم ، فرحسوا (٢) بماء الشهادة دون حوبهم (٤) . وصعدوا إلى مخيم
السلطان ، طامعين في استطانة حزب الصليبان .

وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبتنا في ذلك اليوم ، ووقفنا على
التل نشاهد الوقعة ونتظر ما يكون من القوم . وما ظننا أن القوة تهي ، وأن
الواقعة الينا تنتهي . فلما خالطونا في المخيم ، وباسطونا في المجمع ، وكنا على
بغال ، بغير أهبة قتال ، استلركنا أمرنا ، وأخذنا منهم حذرنا . ورأينا
العسكر موايا ، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا في
الاندفاع ، وألقينا الاستضرار في المال عين الانتفاع .

فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل ، ووجدنا ساكنها قد أوجل . فسقنا إلى
جسر الصنبره (٥) ونزلنا على شرقيه ، وكل منا ذاهل عن شبعه وريّه ،
مفكر فيما يكون من أمره ، منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره .

-
- (١) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة حدها ماغرب من دجلة إلى الجبل المطل على نصيبين
إلى دجلة ومنه إلى حصن كيفا وأمد وميافارقين (ياقوت ج ٨ : ٤٩٤ ط . ب) .
(٢) الجزيرة : هو الجزء الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) .
(٣) رحسوا : غسلوا .
(٤) إثمهم .
(٥) الصنبرة : موضع بالأردن مقابل لعقبة فيق (ياقوت ج ١٢ : ٤٢٥ ط .) .

لا يألف مييتا ، ولا يألئ بيتا . ممسك بلجام فرسه ، قد آذن ضيق نفسه بضيق نفسه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق^(١) ، وهو غير مفيق ، ومنهم من وصل إلى دمشق غير معرج على طريق .

وأقمنا بموضعنا على الجوى ، والخيل واقفة باجمها والطوى . والغصن غير طارق ، والفرق غير مفارق ، والقلوب مرتاعة مرتابة ، والأدعية إلى الله مرفوعة مستجابة . وتحدث الناس فيما بينهم بأن الاسلام عاد جده ، وعدنا جنده ، وأن الكفر حاد فله وفل حده . وأن الميسرة ثبتت فتاب اليسر ، والأسدية انتصروا فأسيد النصر .

وكان هذا الصدى يقوى ، والصدأ يروى ، والبشرى تسرى ، والبرد بها تجرى ، والناس بين مصدق ومكذب ، وذاهب في مذهب من الظن مذهب مهذب ، حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه (صافي) ، وقد ورد مورد الظفر الصافي . فنأدى : أين العماد ! فقد جاءه من النصر المراد .

فأسرعنا إليه ، واجتمعنا عليه . فقلنا : « ما الخبر ، وكيف ضفا الظفر ، وصفا الكثر . وقدر السلطان وتسلط القدر ، وإلى أين أنت سار بالنبأ السار ، وفي أية دار تنزل بمنزل النصر الدار » فقال : « أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم ، والخبر الكريم . فقلنا « أهلا ببشائر البشائر وطائر الأوطار ، والسائر بالمسار ، والأخ البار بالأخبار . والصدى الصادق ، والموفق الموافق . ومرحبا بالخصى الخاص لما مرّ حبا ، فحل بالخير التحل فحلا ، وكم أمّ للنجح أملا وجلا وجلا » .

فأبنا مجبورين مجبورين ، وثبنا مئابين مأجورين . وندمنا على ماندّمنا في الهزيمة ، وعز علينا ترك الأخذ بالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل ، وجد وجدل ، وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل . وقد شل الجموع وجمع الأشلاء ، وأدام الإجراء حتى أجرى الدماء .

(١) فيق : أو أفيق ، قرية من حوران في طريق النور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق ، والعامّة تقول فيق ، تنزل في هذه العقبة إلى النور وهو الأردن ، وهي عقبة طويلة نهم ميلين (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٦٨ ط . دار الكتب) .

ذكر حصّة النصر بعد صحّة الكسرة

وكيف أдал (١) الله الاسلام وأذال (٢) الكفر بتلك الكرة

ولما تمت الكسرة ؛ وعمت الفترة ؛ وكرت الكرة ؛ وأمرت تلك
للمرة ؛ وصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان ، وشيم من عارض
اعتراضهم شوّم شيمة الشيطان . وجالوا جولة ، وخالوا دولة ، وصالوا
صولة . ثم رأوا عنهم انقطاع أشياعهم ، وعلّموا اتباع أتباعهم ، فشرعوا
في اندفاعهم ، وهابوا الوقوف على اجتماعهم . فالتحدروا عن التل ، وقد
جاءوا بقوة العز فأبوا بضعف الذل . واستقلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم ،
وحكموا في رقابهم أسياقهم . وردوهم وأردوهم ، وعدوا على شركائهم
في الشرك فأعدوهم :

وكان في ميرتنا عسكر سنجانر والأسدية . فما زالوا وما زلّوا ،
بل وصلوا وصالوا وصلّوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت
بالجبال الرياح ، وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد من كان من
الميمنة الاسلامية بالبعد ، حادّ المضاء ماضى الحدّ . مثل : تقي الدين ،
وقايماز النجمي ، والحسام بن لاجين ، ومن ثبت من أبطال المجاهدين .
فحكروا على ميسرة الفرنج فشلّوها ، وأهلوها من دماها وأعلّوها ،
ولفّوها وقلّوها ، ولقوها وأقلّوها . ووضعوا فيها السيوف ، وأوضعوا
اليها الختوف . وأوسعوها قتلا ذريعا ، وما أبطأ الوقت حتى صار مقدمها
صريعا سريعا :

فلم يقلت من الأعداء الأعداد ، ولم ينج من آلائها الا آحاد . وأمست
لنار الحرب فراشا ، ولأرض المعركة فراشا :

وتبعها أصحابنا حتى كلت سيوفهم وكلوا ، وملت لتوتهم وليوتهم
وملوا . وفرس زهاء خمسة آلاف فارس ، من كل ممار ممارس ، ومستوحش

(١) أي جعل الكرة للإسلام على أمثاله .

(٢) أمان .

بالموت آتس . ومن أودى في الإقدام مقدم الداوية ، ولم تحمه من الحمام
ناره الحامية لنار الحمية .

وحكى عنه أنه قال : عرضنا في مائة ألف وعشرة آلاف ، أحلاف
إلخاف وألأف أنلاف بلا تلاف . فلما عجزوا ؛ وبالحنندق احتجزوا ؛
وقف عنهم أجنادنا ، وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا . ومن العجب
أن الذين ثبتوا منا لم يبلغوا ألفا فردوا مائة ألف . ، وآنا هم الله قوة بعد ضعف .
وكان الواحد منا يقول « قتلت من المثلثين (١) ثلاثين وأربعين ، وتركتهم
بالعراء عراة مصرعين » ، ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسومين : وكل
يتحدث بعد ذلك مما شهده ، ويعهد الينا بما عهد .

وحكى بعضهم قال : « كنت على فرس قطوف (٢) ، ماله منة
سير ولا وقوف . وأنا منهزم من فارس ملجج ، في بحر الحرب ملجج .
وهو على جبل يجرى به جرى الريح ، وينادي بشعار المسيح ، وقد لزم (٣)
بقرى حصانه ، وهز لصلبي سنانه . فما شككت أنه يشكني بلهيمه ، ويفكني
بمخلمه . وأيست من البقاء ، وأنست للشهادة واللقاء . واستعدت بالله
واستعنت ، وتشاهدت مما شاهدت . ثم أبطأت على صدمته ، وأخطأتني
حلمته (٤) ، فالتفت فاذا هو وحصانه ملقى كلاهما ، وما وجدت بالمقرب
أحدا أقول انه أرداهما (٥) . فعرفت أنه نصر الهى ، وصنع ربانى ، في
مذاق الإيمان شهى ، وفي آفاق الإحسان بهى . فأيقنت أن النصره ماملكت
الاملائكة نصرت ، وأن الظهور ما سر إلا لأسرار الله ظهرت . »

(١) المثلثين : يقصد الصليبيين لأنهم يقولون بالوهية الأب والابن وروح القدس
(تعالق من ذلك علوا كبيرا) .

(٢) فرس قطوف : شقيق المشى بطيء .

(٣) لزم : شد وألصق به .

(٤) الخفة : صوت التهاب النار .

(٥) في ب رادعا والتصحيح من ل ومن أ (١٨١ش) .

ذكر مكانة أنشأتها الى بعض الأطراف

بشرح مايسره الله في هذه الوقمة من الألفاظ

قد سبقت المكاتبه بشرح الأحوال وذكرها ، وشكر أطفاف الله الخفية
وابداء سرها ، ونشر مطاوى النعم باذاعة طيها واشاعة نشرها ، وذكر
فيها ما الفرنج عليه من اجتماع راجلها وفارسها ، والاحتفاء بمخادقها
ومتارسها ، وان لنا كل يوم فيهم نكاية بالغة ، وسطورة دامغة ، وثعالب
عوامل في دماهم والغة ، ومضارب مناصل (١) لرعوسهم فادغة ، ونيوب
عوامل لمضغهم ماضغة ، وذبول تقم عليهم في تقليص ظلال ضلالهم
سابقة ، وأيدى أيدى لصفحات البيض بنجيمهم القاني صابغة ، وضماثر
وضواير عن كل شغل سوى شغل الجهاد فارغة ، وهيمسا وعزائم لا ترى
عن وقم التوم أهل الزبغ زائغة ه

وما برح الفرنج في برح شديد ، وأمر غير سديد ، وظل للذل منديد ،
وضيق حصر في كل يوم جديد جديد ، حتى ضاقت أنفسهم وأنفاسهم ،
وأخنت رجاؤهم وظهر بأسهم ، ووقع بينهم بطول المقام بأسهم . فأجمعوا
أمرهم على أنهم يملكون في اللقاء ، ويهيجون الى الهيجاء . ويلقون الألوفا
بالألوفا ، ويصدمون الصنوف بالصنوف ، ويعرضون نحورهم ووجوههم
على الأسنه والسيوف ، ويجمعون في كلام الكلوم من الصواهل والصوارم
بين الأصوات والحروف . ويكسفون بشبه التثليث أدلة التوحيد ،
ويكشون الضر عنهم بالحد الجديد ، والحد الجديد .

وبرز ذلك الخميس يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان ، ورفعوا
الصليان وأشروعوا الخرصان (٢) ، وتبعوا (٣) الشيطان ، ورتبوا الرجال
وطلبوا الفرسان . وحملت لهم أطلاب تضم أبطالا ، وتضمن بياطلها

(١) في ب مناصل والتصحيح من ل ومن أ (١٨٢ هـ) ومناصل جمع منصل وهو السيف .

(٢) الخرصان : جمع خرص بكسر الخاء وسكون الراء ، وهو الرمح القصير السنان .

(٣) في ب اتبعوا والتصحيح من ل ومن أ (١٨٢ هـ) .

للحق إبطلا . وتأمل لشلها المتفرق اجتماعا ، وترجو للصليب السليب
 ارتجاعا . وعصفت رياحها الموج وأقبلت بحار سوابجها وسوابغها توج .
 وكاد أن يثبت للشيطان قدم ، ويراق للإيمان دم . فأنها خرقت حجاب
 الصف ، وفرقت شمل الجمع الملتف . وراع جنان الجبان وهمه وهمه ،
 وأدبر موليا وعزّمه زعمه . فظن من لايقين له أن الاسلام قد أسام ،
 وأن نصر الله الموجود قد عدم ، وأن الكفر المتأخر قد تقدم ، وأن الصبح
 المتبلج قد أظلم .

وهناك عرف أهل الثبات وثبت أهل العرفان ، ورقصت المران على
 أشاجع الشجعان ، والتفت العنان بالعنان ، والتقى السنان بالسنان . وخطبت
 الصوارم على منابر الطلى (١) . ورتعت اللهازم في كلاً الكئلى (٢) . وفتحت
 اليغالي مغالتي الختف ، وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف . وعظمت
 العساكر المنصورة طلابا لتلك الأطلاب ، ووصلت ضرب الأعناق بقطع
 الرقاب :

وما زالت تشل الفرنج وتفلمهم ؛ وتحل بعقدهم الوهن وتحلمهم ؛ وتروى
 ظمأ الظبا من ورد وريدهم ؛ وتخصب شيب البيض بدم طريدهم ؛ حتى
 فرشت بعد أن سلبت أشلاؤهم بالعراء عريا ، وجرحت خيولهم وخيالتهم (٣)
 فلم تستطع اجراء ولم تطق جريا . حتى تثلمت وتثلمت بنجيعهم صفحات
 الصفاح ، ووقفت أشباحهم وقفة الوداع لفراق الأرواح ، وأعرب حديث
 حادّهم عن جمجمة الجماجم الفصاح .

وقتل من مقدّميههم ومقدّميههم زهاء خمسة آلاف زهى الاسلام بما اتسع
 من عطن عطيم ، وحسن منقلبه بسوء منقلبهم . وعاش بما شاع من قتلهم ،
 واشتغل العسكر المنصور بشغلهم .

وطاب القلب المهموم بما تم من ماتم الكفبر وعرس الدين ، وقصم

(١) الطل : جمع طلية وطلاة وهى المتق أو أسله .

(٢) جمع كلية (معرفة) .

(٣) في ب خيالهم والتصحيح من ل ومن أ (١٨٣ ى .)

لهدى من الضلال المتين ، وهمت الرواجف الفوارح : يحمل هامات
الحاملين . وأنجلى الغبار عن كل قتيل ما لعائره من مقييل ، ولا لقاتله من
مقييل . وعادت أعلام الاسلام ظاهرة ، وأيمان الإيمان باطشة قاهرة :
وهدى الهدى على النصر مزفوفة ، وعيون العدا عن النظر بالعمى مكفوفة .
ولم ينج من حمل من حمل راسه ، ولم يقدم من أولئك الرجال الا من فقد
رجاءه ووجد ياسه .

وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الألوف ، وأصيبوا بمن
صنما في تلك الصفوف ، وترأت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الختوف .
ودخل الليل عليهم ، ووقفت العساكر حوالهم . وهم وان وهنوا لما
أصابهم من الكسرة ؛ وأخطأهم من النصرة ؛ وحل فيهم من الرزء ؛
وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء ؛ وفجع كلهم (١) بالجزء ؛ وتقص
منهم العدد الكثير ؛ وركد من ربحهم ذلك العاصف المبيز ؛ فأنهم في حشد
كالدبي (٢) ، وجمع أغص الوهاد والربا ، وقد أطلنوا الى الأرض
وشدوا على حب الموت الحبا ، وودوا لو وجدوا مهريا ، وتفرقوا أيدي
سبا . وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا ، ونحيزوا المقام على الحين حين تميروا .
وأوسعوا الخنادق وعمقوها ، وأحكموا المتارس ووثقوها . وندموا
على الحركة ، فانها أفضت بهم الى الهلكة . وأنهم ما داموا رابضين ؛
وعلى يد البصير قابضين ؛ يتعلم الوصول اليهم ، والدخول عليهم ، وتطول
أيام الاحاطة بهم من حوالهم ؛

وفي تلك الحركة التي حلا بها للشجعان طعم الطعن ؛ وغلب فيها
للجبناء وهم الوهن ؛ وتجنأ عن الثبات من محي الدنيا جنب الجبن ؛
ارتاع عسكر الشبرق من ذلك الغرب ، واختار المتسللون المتفللون منهم
البعد على القرب . وما ثبت الا عسكر سنجار ، فكله محرب محرب

(١) في ب أكلهم والصحيح من ل .

(٢) الدبي : أصفر الجراد أو النمل .

للامور ، سديد ساد للثغور . ومجاهد الدين يَرْنُقُشْ (١) - قد صدق نعته بالمجاهدة للدين ، وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين . وقرت عين (طُمان) بالجنحة باقداً الولد ، وماذا يقال في شبل ذلك الأسد . وانما الغرباء هابوا ، وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا . والفرنج الآن في ذل وخسر ، وفي عسر بغير يسر ، وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه - أن يقدر على قطع دابرهم ، واهلاك بائريهم عن آخرهم ، وتحريك همم المؤمنين في تسكين سائرهم ، وتحريب عمرهم وعامرهم ، وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم .

وما دام البحر يمدهم والبر لا يصددهم ؛ فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بأدوائهم وأسوائهم ملازم . وتديرونا الآن في التدمير على هذه الجموع ، وسوفهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع . فأين حماية المسلمين ، ونحوه أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين ؟ .. وما ينقضى عجبتنا من تضايف المشرك على شركه ، وتظاهرة في اتساع مسلكه واتساق ساكه . وتعود المسلمين عن المسلمين وتعاوذهم وتعاضلهم في تعاوضهم ، وانحلال عقود تعاقدهم . فلاملجى فيهم لمناد ، ولا مثقف لمناد (٢) ، ولا مورى منهم في اجابة داع لزناد .

فانظروا الى الفرنج أى مورد وردوا ، وأى حشد حشدوا ، وأية ضالة نشلوا ، وأية نجدة أنجلوا ، وأية أموال غرموها وأنفقوها ، وجيدات (٣) جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم ؛ ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم ؛ الا جارى جاره في مضمار الانجاد ، وبارى نظيره في الجلد والاجتهاد . واستقلوا في صون ملتهم

(١) مجاهد الدين يرنقش : هو ابن طهان بن غازى ، كان مملوكاً لعماد الدين زنكى ابن مودود بن زنكى صاحب سنجار والخابور والرقه ، توفى سنة ٥٩٤ هـ ، وقد أصبح أتاكبا مديراً لدولة ابن عماد الدين - قطب الدين محمد بن زنكى (أبو الفداء ج ٣ : ٩٣ ط. المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) ثقفه : أدركه . المناد : من دعت داهية والمقصود أنه لا مدرك لمن دعت داهية .

(٣) جدات : جمع جدة وهى الرزق .

بذل المهج والأرواح ، وأملوا أجناسهم الأنياس بأنواع السلاح مع أكثفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا ؛ ولا بدلوا ما بدلوا ؛ إلا مجرد الحمية لمعتبدهم والنخوة لمعتقدهم .

وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا ملك ؛ ورفع فيهم حجاب عزهم وهتك ؛ يخرج بلد من يده ، أو تمتد يد إلى بلده .

والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا ، وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة ، وعلموا الغيرة . ولو انثنى — والعياذ بالله — للإسلام عنان ، أو خبا سنى ونبا سنان ؛ لما وجد في شرق البلاد وغربها ، وبعد الآفاق وقربها ، من لدين الله يغار ، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار .

وهذا أوان رفض التواني ، واستدناء أولى الحمية من الأفاصي والأداني . على انا بحمد الله لنصره راجون ، وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناخون ، والمشركون باذن الله هالكون ، والمؤمنون آمنون ناجون .

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر

فصد عن قصد المباكرة لمناجزة أهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء ، وزادت مشاربه من مادة الصفاء ، وأمر بمواراة الشهداء ، ومن جملتهم : الفقيه (أبو علي بن رواحه) (١) - وكان غزير الفضل قد أكل الرجاجة والسجاجة . وهو شاعر مفلت ، وفقه محقق ، من ولد (عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري) - في الشهادة والشعر معرق ، فطرفه الأعلى يوم مؤتة (٢) مع (جعفر الطيار (٣)) ، وطرفه الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار .

ومنهم : (اسماعيل الصوفي الأرموي المكبسي) - وكان سديدا عفيفا ، عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم : شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلالم في الخزانة أمين على البيت : وآخرون صودفوا عند التل . فجاءتهم السعادة ، وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة ، وذهب قبل الرجعة :

(١) الفقيه أبو علي بن رواحه : هو الحسين بن عبد الله بن رواحة بن إبراهيم بن عبد الله بن رواحه ، أبو علي الأنصاري ، الحموي الأديب ، الشاعر ، ولد بحماه ونشأ بها ، ورحل الى دمشق فأقام بها مدة ، واشتغل بالفقه وسع الحديث من ابن عساكر وغيره ، ثم رحل الى مصر ، ثم عاد الى دمشق ، وقتل شهيداً في واقعة مرج عكا سنة ٥٨٥ هـ (معجم الأديباء ج ١٠ تحقيق د. فريد رفاعي) .

(٢) يوم مؤتة : مؤتة ، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، وقد حدثت عندها موقعة بين جيش الرسول صلى الله عليه وسلم وبين جيوش هرقل امبراطور الروم سنة ٨ هـ ، استشهد فيها زيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، وجعفر ابن أبي طالب (الطيار) فقاد المسلمين خالد بن الوليد وأمكته الانسحاب (تاريخ الإسلام السياسي ج ١ : ١٤٤ للدكتور حسن إبراهيم)

(٣) جعفر الطيار : هو جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - هاجر الى الحبشة في الهجرة الأولى ثم عاد منها ، قتل في موقعة مؤتة سنة ٨ هـ = ٦٢٨ م .

وأجمع السلطان وذوو الآراء أنه يصبح القوم ، ويباكر في طلب أرواحهم السوم . وقال : « هؤلاء قد أضعفنا قوتهم ، وأعجزنا قدرتهم ، وقتلنا سؤرتهم ، وأخذنا فورتهم ، وقتلنا مقاتلتهم ، وأدويتنا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق ، وبلغوا في الاحتراز والاحتراس الطريق . فتحزن نوافيهم غدا ، ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع ، ونذرهم بياع السباع ، ونقيسهم بذراع اليراع ونوسعهم قيرى القيراع . وتذيقهم حرّ الحرب ، ونسيفهم (١) في طعم الطعن ضرب الضرب . ونعيّن من عيونهم للسهام سهاما ، وننخذ لأرواح النصال من أجسامهم أجساما . ونفرقهم بماء فرند الهندُ وانيات ، ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من علمهم النصر ، ونطيب من نتهم النثر . ونقطع دابرهم ، ونأحق بأولهم آخرهم » .

فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم ؛ واجراء هذا الحكم ، تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب ، لما ناب من الأمر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها ؛ وأوباش الجمع وأوشابها ؛ ظنوا تلك القورة هزيمة ، فنهبوا الأثقال والأحمال وعلوها غنيمة . وأنهم من انهزم من الجند ، وثبت من ثبت من أهل الجند . فمن عاد إلى رحله وجده منهوبا مسلوبا ، وكان ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فآقى خطوبا . فمضوا وراء الغلمان ، ويكّلوا بسوء دين السودان . وأصبحنا واذا العسكر غائب ، والعازم عازب (٢) . والقاصم قاص ، والطائع عاص . والجمع منفرق ، والثابت قلق ، والآمن فرق . والغنى معدم ، والجريء متندم . فهنا خلف ما ذهب من ماله ذاهب ، وهذا لمن طلب الطريق بأقاله طالب . ففتنر ذلك العزم ، وتأخر ذلك الحكم .

وانتشى الفرنج في تلك المدة ، وانتشوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار ، وفرغوا لشغل الحصار : وجاءتهم في البحر مراكب

(١) في ب نسيهم والتصحيح من ل ومن أ (١٨٦) .

(٢) عازب : بعيد ، غائب ، غنى .

أخلفت من عدم ، وبت ما هدم : فكمل بالمدد ما نقص من العدد . ولولا أن الله تعالى قدر بقاءهم ، لَكُنَّا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة ما أمكنت ، والحصة تعينت . والجو خال ، والضوء عال ، والحال جميلة والجمال حال . ففضى الله بما قضى ، وعرانا المضمض بما مضى .

وبقيت هناك تلك الجيف مستنة منبثة مبيثة (١) ، وتلك الجثث مجينة (٢) مخبئة مجبئة . تُعرِّفنا أن نشورها من حواصل النسور ، وأن قبورها بطون الضبايع والنمور . فشكونا نين رائحتها ، وشكرنا بمن جانتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر ، ليشرب من صديدها أهل الكفر . فحمل الى الماء أكثر من خمسة آلاف جثة ، بعثت الى النار قبل يوم البعثة . فما عبر بها الامن اعتر ، واستشفى من أقبل بمن أدبر . وسلم الله من أسلم ، وكف وردّ بالردى من كفر .

(١) مبلدة .

(٢) هالكة .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل

واستلراك ما حذب من الخلل

تقدم الأمر الى المقدمين والامراء ، بعد النداء واعلام الجهلاء .
باحصاء كل ما نهب ، واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما أخذه أخذ
بالردى ، واعتدى عليه بمثل ما اعتدى ، فأحضر كل ماعنده ، وبذل
في الكشف جهده ، وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان ،
وضاقت عن كثرتة سعة ذلك المكان .

وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان ، فكل من عرف
من ماله شيئا أخذه بعد إحلافه (١) ، وحلا في مذاق الشكر قطاف أطافه .
وسعى في معاناة ذوى الأخلاق الصعبة على سهولة أخلاقه ، وشقى العلل
والغلل بالنهل والعلل (٢) من اشفاقه . وقمش ذلك القماش ، وحصل
من ذلك الويل الرشاش ، وصبح بعد العرى والعتار الارتياش والانتعاش .
وكتب الى الولاة بالأمصار والنواحي ، والأقطار والضواحي ؛
ببحث البحث وجد الكشف ، واستخلاص كل ما يوجد ويؤخذ بالرفق
والعنف . وتراجع الناس ، وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم
الى مضامها ، وقضاة القواضب الى اقتضاها واقتضاها . وغار الآنف وأنف
الغيران ، وتسلط العزم وعزم السلطان . وثار الحق وحق الثائر ، وطار
العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل (٣) الذكور ، واشرب
للشرب نبات الأسل الى ماء النحر . وحمى ذوو الحمية للتقاضى ، وقالوا
حتى متى التراضى بالتقاضى .

(١) أى تحليفه بالقسم .

(٢) أى الشرب الثاني أو المتتابع .

(٣) الخلل : جمع غلة وهو جفن السيف المفضى بالأدم أو بطانة يفضى بها جفن السيف

ذكر مجلس عقد ورأى عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد

وحضر أكابر الأمراء عند السلطان يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان . فقال : « اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بجنبه ورجله ، وأناخ بكلكل ككته (١) ، وقد برز بالكفر كله إلى الإسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه ، واستنفذ وسعه . وان لم نعالج الآن فريقه ، والبحر قد منع طريقه ، أعضل داؤه ، وتعد غداً لقاءه ، فإنه إذا سكن البحر ، واستسهل ركوبه السفر ، تضاعفت أعداد الأعداء ، فظهر الأعداء من الإعداء ، وخرج الداء عن قبول الدواء .

ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها ، ولا قوة نستحضرها . وما بلى بهذا العشر إلا معشرنا ، وما يزاء عسكر الكفر إلا عسكرنا ، وما في المسلمين من ينجدنا ، وما في بلاد الإسلام من يسعدنا . وعساكرنا حاضرة ، وعزائمنا للتواني حاضرة ، وعيون أستتنا إلى الفتك بالعدا ناظرة ، وما يعوزنا إلا حضور أختينا الملك العادل سيف الدين . ولا بقاء للنقاد إذا أصحر منه ليث العرين . فالرأى كل الرأى في المناجزة ، قبل وقوفهم على محاج المحاجزة . »

ثم قال : « ليشركل منكم برأيه ، ولا يقدم على قول ورأيه من ورائه » فتجادبوا حبل الاضطراب ، واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب : وركب كل منهم هواه ، وأعلن بما نواه . ومنهم من قال : « هذا ثالث عشر تشرين الثاني لا الأول ، وقد دفعنا إلى الخطب الأعضل ، والتعب الأطول ، والتائب الأعصى والتائب الأعضل (٢) ، وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً ، وما طعمنا في هذه الليالي يوماً ، ولا سمنا لطارق طيف غمضاً ، ولا شمنا إلا لبارق سيف ومضاً ، ولكم قلدفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها (٣) »

(١) الكل : الثقل .

(٢) الأعضل : الأعوج في صلابه .

(٣) الهوات : جمع الهاة ، وهي الحمة المشرقة على الخلق في أقصى سفن القم .

وكان أبا الطيب (١) عنانا بقواه ؛ (وكأنما خلقوا على صهواتها) . وقد
كلت الضوامر ، وفلت البواتر ، وملت العساكر . وهذا الشتاء قد أقبل ،
والعدو قد استقتل ، والشر قد استفحل . وما يتأتى قلعه إلا لمن يتأنى ،
وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم بالمصابرة مصابون ، ونحن على
المثابرة مثابون . وهؤلاء لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم ، والسيل لا يغلبه
غير الخضم . والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة ، ونستجد لنا ونخلينا
القوة . وتأخر عن هذه المنزلة ، لتحصيل هذه المصلحة المؤلمة ، ونوكل بهم
مناوية من يمنهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء
العلوج . ونعيد السريجات إلى سلها والسلاهب إلى السروج . والصواب
الأخذ بالاحتياط وتديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط . ومكاتبه
دار السلام ، واعلام الإمام — عليه أفضل السلام — بما دفع إليه الإسلام
بالشام . فإن المسلمين لاشك ينجدون ، ويقومون بالنصرة ولا يقعون .
ولا يترك استفغار التركمان ، وترغيبهم بالبر والإحسان . واستدعائهم
بالعطايا ، والتشريفات السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية
في تحريك المهمل والعزائم الوانية . إلى أن تمتلئ بالجموع ساح الساحل ، وتغلى
بنار الحميات بها مراحل الراجل .

فحينئذ ينتهى أمد المصابرة ، ونصمم على المكابرة مع المكابرة .
ونباديهم ونفتاحهم قبل انفتاح البحر ، ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح
القهر . ونسفهم ولو أنهم جبال ، ونزفهم ولو أنهم بحار ، ونعلمهم حتى
لا يطرق جفن بلد منهم خيال . ولا يلم يجفن طارق لهم غرار .

ومازلنا في مشاورة ومحاوره ؛ ومجادبة ومجاوبة ؛ ومناظرة ومساورة (٢) ؛
حتى تنخل الرأى وتمخص ، وخالوا أنه تبين الصواب وتمخص . ومالوا
إلى الدعة ؛ والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب إلى المنزل
الرحب . ومن المعتك المتكرك إلى المبرك المتكرك .

فلم تعجبنى هذه الحالة ، ولم توافقنى هذه المقالة . وقلت : « لعمري

(١) يقصد أبا الطيب المتنبي الشاعر المعروف .

(٢) مساورة : مؤاتية .

أُتِيمَ بمصلحة ، ولكنها غير مترجحة . فإن الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار ، ولم يمدقوا يجمع الأسوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخيننا خناقهم ، وأطلنا إلى مرادهم أعناقهم . وباب عكاء من جانب البحر مفتوح ، والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق (١) مصبوح . والطريق إليها سابلة ، والذخائر إليها في كل يوم داخلة . والفرنج عن قطع الطريق عاجزة ، وعزائنا على مصابحتنا ومماساتها لها دون قصدنا محاجزة . وان تأخرنا تقدموا ، وان هونا أحكموا ، وان نقضنا أبرموا . وان قعدنا قاموا ، وان بعدنا حاموا . ومتى رمتهم محفظوا ، ومتى نمتنا عنهم تيقظوا . وما دمتنا نشغلهم فإنهم لحصر البلد لا يتفرغون ، وإلى أمد الأمل لا يبلغون » .

فقالوا : « هذا أمر هين ، وما ذكرناه صواب متعين ، ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا إلا أن يتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا بالرجاء ، لم يأسوا من الارجاء . وأرخينا لهم جبل الإنظار ، حتى استمروا على الانتشار . وحيثئذ نصبهم على غرة ، ونعاجلهم كرة بعد كرة . ونقض عليهم انقضاض البزاة على البُعَاث ، ونصدهم بالباعث الباعث (٢) لهم عن الابعاث » . وكان السلطان متكرها لما أبلوه من الرأي الملتاث (٣) ، لولما عرض لمزاجه من الالتياث .

(١) المغبوق : مشروب بالمشى .

(٢) الباعث : المفاجيء .

(٣) الملتاث : التاث عليه الأمر أى اخطط والتبس .

ذكر الرحيل إلى الحروب عند خيم الأتقال المضروبة

كان السلطان مع ما ألم به من الألم ، غير مبد وجه الملل والسأم . وهو في كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف ، ويقف مستطيلاً على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر ، وعليه أثر الضر من الصبر . فليم على فعله ، وخصه الطبيب بعذله . فانتقل إلى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان ، وخطى المنزل الأول وأخطى العسكر ذلك المكان . وتقدم إلى من بعكاه باغلاق الباب ، وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب . وجرى الأمر على ما كنت قلته ، وتحقق من اختلال ما خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خالياً ، ورخص عنده ما كان من سوم خوفه غالباً .

وشرع الفرنج في حفر خندق على معسكرهم حوالى عكاء من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا البيزية بخبرهم ، وبما ظهر من أثرهم ، والجد في تعميق الخندق وتنعيم محترهم . والعسكر هاجم ، كأنه واجم ، والظن فيه راجم ، وشر الكفر ناجم ، وما فينا لعود الأمر عاجم .

وقلت يوماً للسلطان « يركب العسكر إليهم ، ويركض عليهم : فلعله ينال ظفراً ، ويقضى من كسر العدو وطراً » . فقال « ما يعمل العسكر شيئاً إلا إذا كنت معه ركباً ، ولعمله مشاهداً مراقباً » . ولقد صدق في مقاله ، فإنه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا يبذلون معه المهج ، ويجوضون من بحر الحرب اللجج ، ويوسعون لزم العدو المأزق اللجج . وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم ، وأهملناهم بل أهملناهم . حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور . وملاؤوه بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر . وبنوه وأسسوه ، وستروه . وترسوه ورتبوا عليه رجالا ، ولم يتركوا إليه (١) لواغل (٢) مجالاً . وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ، ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً .

(١) زيادة من ل وفى أ (١٩١ هـ) عليه .

(٢) واغل : أى متوغل ، داخل ميد فيه .

ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقول : « لا مبالاة
بهم ولا اكتراث ، وما أسهل إذا عزمنا عليهم لاصولهم الاجتثاث ، وبسبول
سوفنا نغسل تلك الأخبث . وأى وقت قصدناهم وجثناهم وجأناهم ،
ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما فوارسهم لنا الافرائس ، وما خنادقهم لهم
الارموس دوارس . وما حضروا الا قيوهم ، وما دبوا الا ثبورهم .
ومنى قصدناهم كذبت ظنونهم ، وصدقتهم منونهم . وامتألت بأشلائهم
خنادقهم ، وأظلمت عليهم بغيرنا مشارقهم ، وبيتهم بوائقهم وتبت علائقهم »

ذكر رأى رائب ، عن النظر في الغاي غائب ، أسفر عن داء دائب
وأبان عن غرارة بغرائب

وقع لبعض الأكابر فثني عليه خنصره ، ووكل باتلمه سمعه وبصره .
لما تمت على الفرنج تلك المقتلة ، وعمت فيهم الهلكة ، وضمت أشلاءهم
المعركة ، وشوهدت على الرئي حجب نحوهم المهتكة . وخملوا وخملوا ،
وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الأكابر أنه لم يبق للقوم انتعاش من تلك
المعائر . وأنهم قد عدموا القرار ، وعزموا القرار . ولو قدروا على النجاة
تخلصوا ، ولو فتحنا طريقهم ماتصبروا ولا تربصوا .

وقال للسلطان : « ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم . فإنهم يرهبون
ويهربون ، ويعدون إلى صور ومن بعدها ومن عكاء لا يقربون » . فمال
قوم إلى مقاله ، وتخيّلوا مثل خياله . وأشار بقطع طريق البلد ، والصدر عن
ورد الرصد ، والجد في تعمية الجلد . وأن يفتح لهم ماسد من الطريق ،
ولا يعوقهم فإنهم كلاب تعوى من التعويق .

ولما بلونا رأيه ، وتلونا آبه ، أخلف ظنه ، وبدا وهنه . وما زاد الفرنج
الاثباتا ، ولم نعرف لشملمهم على ما توهمه شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأى
القاتل ، ونقول ما أعجب قبولنا قول هذا القاتل .

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث ، وتجدد للعزائم من البواعث

أقام السلطان بالمخيم لإصلاح مزاجه ، وایضاح منهاجه . ومداراة ألمه ، ومداداة سقمه ، فوهب الله له العافية ، وكلل له عصمته الكافية ، ومتمته الشافية ، ونعمته الوافية ، وأبدى له أطفاه الخافية . وقوى قلبه على المقام بنية الانتقام . وصرف الأجناد الغرباء لیرجعوا فی الربیع ، ويستريحوا فی مراتبهم لوقت الرجوع . وأقام فی ممالیکه وخواصه ، ورجال حلقتة المنصورة من ذوی استخلاصه . ورتب بالنوبة علی الفرنج یزکا ضمته درکا ، وأدار بهلاك القوم منه فلکاً .

وكان فی ممالیکه کل مقدم مقدم ، وكل همام همام . وكل لیث ذی لوثة وكل حدث محسن له مُحسنٌ أحدوثة ، وكل ضیغم ضاغم ، وكل أسد عرین لیس لإعرنین قرنه براغم . وكل ریبال ذی بال ، وكل بطل من ولاية الهیجاء غیر بطال . وكل مغیر للنصر مریغ (١) ، وكل مسیء إلى العدو لكأس الحمام مسیغ . وكل تركی الرماء غیر تارك ، وللاصماء غیر فارک (٢) قوسه فی ظفر الهدی موتر علی الوتر ، وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوکر ، وسیفه فی رداء الردی حال بدم الکفر . وكل (حمیدی) فی الروح حمید ؛ وبالحرث عمید . وكل (هکاری) علی القرن عکار (٣) ، وفی الوغی کرار ، وللقنا جرار . وكل (زرزاری) بالأسد زار ، وللبسالة کاس ومن العار عار ، وكل (مهرانی) فی القتال ماهر ، وللرجال قاهر ، وعلی الأبطال ظاهر . وكل کمی کمیش ، واکدیش علی اکدیش .

فما خلا یوم من وقعة ، وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه ، وما عاد من نجا من زنایر سهامهم إلا بلسعة ، وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من

(١) مریغ : فله واغ ، ذهب ههنا وههنا ، وراغ الرجل عن الطریق . حاد صه وذهب هكذا وهكذا مکراً وخدیفة .

(٢) فارک : تارك .

(٣) عکار : کثیر الكر .

طاولهم إلا على لطفة . وما تبقى على لتوتهم ليت ، ولصوتهم في النزال
كل صباح ومساء صيت . وبلى الفرنج منهم بالمير المييد ، واعتناق بهم
مراد العدو المرید .

وما زال هذا دأبهم في الركوب ، ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف
الكروب . فكلم أقرؤا منا أعينا بأيديهم ، وثبتوا عدل النصر بتعديهم ،
وصلوا شر الشرك بتصديهم ، وحرکوا ماسكن وهذا من عزائم الهداة
بتهديمهم .

وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكاء مركباً للفرنج
إلى صور مقلماً ، واجتلينا به من سنى النصر مطلقاً . وكان المركب محتوياً
على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمة (١) من الحرير . وجاءت حظوة
حلوة ، وغنيمة صفوة ، ونشوة أعقبت صحوة ، وصيحة (٢) استصحبت
ضحوة . وقوة من وهن العدو ، ومجبة فككت رهن السلو . فقد كان انكسر
نشاطهم ، وانقبض انبساطهم ، وانخفض اغتباطهم . وفترت عزمتهم ،
وقصرت هممتهم ، وخمدت فورتهم ، وركدت ثورتهم .

فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتقشوا (٣) ، وتنغموا وتنغشوا .
ودب الروح ، وشب المروح . وتحرك الساكن ، وتترك الضامن . وصارو
يخرجون ويخرجون ، ويقتلون ويخرجون ، ويمسون على القتال ويصبحون
ويكافحون ويدافعون ، ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هاجم ،
وجم جمعه واجم . واليزكية زكية ، والعيون ذكية . والنوب راتبة ، والعدة
المعيّنة المعينة في كل يوم راکبة .

(١) الرزمة : من الثياب وغيرها ما جمع وشد معا .

(٢) في ب صحيفة والتصحيح من ل .

(٣) انتقشوا : يفيد السياق معنى الفرح والانبساط .

ذكر وصول ملك الألمان (١)

ونما الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في عدد دهم دثر (٢) ، ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور إلى بلاد الإسلام ، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وأنه في ثلاثمائة ألف مقاتل ، من كل سالب باسل ، وطالب باطل . وجهم جهنمي ، وأشقرى سقرى ، وأنمش أفعوانى ، وصل صليبي صلاتي (٣) . وأرقش حنشي ، ومستعر سعيرى . ومحرب لظوى ، ومغوار نارى . وضار بالقرن ضارّ ، وجار للدرع جارّ . وكل ذئب عاسل ، ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل ، وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمي جاحم ، وجمرى فاحم . وحرني بحرى ، وبار برى . وقاطع في طريق الوصول ، وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال ، وصال بنار الصيال (٤) . ومشمع على الموت متمرن ، ومتحين إلى المنون متحنن .

وفيهم ستون ألف فارس ملدع مقنع ، ماله سوى السوء من مقنع .
وأنته مع الألمانى ملوك وكنود ، وكل شيطان لربه كنود (٥) . وكتب صاحب

(١) ملك الألمان : هو فردريك بربروس (ذو الحية الحمراء) وهو أول من تحرك للحرب بعد هزيمة حطين ، وقاد الألمان بعد تجمعهم في راتزبون Ratisbon سنة ١١٨٩ م فتقدموا إلى آسيا الصغرى بعد اختراقهم بلاد المجر والبلقان ثم جبال طوروس وكمليكيّا ١١٩٠م وهناك رأى الامبراطور نفسه في نهر سالف ليستحم ففرق ، تقول بعض المراجع الممتدة كسيرة صلاح الدين لابن شداد وغيرها أنه لم يفرق بل تحرك عليه مرض شديد فهلك به . وخلفه ابنه دوق بساراييا على قيادة الألمان حتى عكا حيث مات بها سنة ٥٨٦ هـ (ارجع إلى سيرة صلاح الدين لابن شداد . تحقيق محمد محمود صبح ط . الدار القومية ١٩٦٢) . وإلى (مذكرات تاريخ العصور الوسطى في أوروبا والشرق لمحمد رفعت) .

(٢) دثر : كثير .

(٣) صل صلاتي : الصل هي الحية الخبيثة جداً والصلاتي النارى .

(٤) الصيال : السطر والقهر .

(٥) كنود : كافر بالنعمة عاص .

قلعة الروم (١) مقدم الأرمن - وهو في قلعته على الفرات ؛ ومن أهل
الذمة في المأمن . يبدى تنصيحاً واشفاقاً ، وتخوفاً على البلاد واحترافاً .
ويقطع بأن الواصلين في كثرة ، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة .
وأبرق في كتابه وأرعد ، وأبدع بخطابه وأبعد . ولاشك أنه إلى جنسه النجس
مائل ، وبملاءة أهل ملته قائل .

ولما وصل هذا النبأ وقيل إنه عظيم ؛ وورد هذا الخبر وخيل أنه أليم ؛
كاد الناس يضطربون ، على أنهم يصدقون ويكذبون ، ومن طرف كل جبل
من الرأى يجذبون . وقلنا : ان وضع هذا الخطر ؛ وضع هذا الخبر ؛
فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون ، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لا يعضدون .
على أن الله ناصرنا ومؤازرنا ومظاهرنا .

وحققنا بإظهار القوة لمن استوحش التأنيس ، وبتثنا بالإرسال إلى
بلاد الروم عيوناً وجواسيس . وندبنا رسل الاستنصار ، وبعثنا كتب
الاستنصار إلى جميع الأمصار والأقطار . وقلنا : ماهذه المرة إلا مرة ،
ولا يسيغها إلا كل مرئى أبى ، وماهذه الكرة مثل كل كرة ، ولا يخرها
إلا كل كميح كمي .

(١) قلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط (داقوت

ج ١٦ : ٣٩٠ - ٣٩١ ط . ب .) .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على (القاضي بهاء الدين بن شداد ، يوسف بن رافع ابن تميم) (١) ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له : « ما أحتاج أوصى ، وأنت تستوفى القول وتستقصى » . وجعل له إلى كل ذى طرف في طريقه رسالة ، وأودعه إليه مقالة .

فسار من عندنا في شهر رمضان مغذاً ، يذخيل العزم بذأ ، ويمجد (٢) جبل السير جذأ . ووصل إلى حلب والقاضي ضياء الدين القسّم بن يحيى ابن عبد الله الشهرزورى - رسول السلطان بيغداد قد عاد ، وذكر أنه قد بلغ المراد ، وأنه استجدى واستجاد ، واستفاد واستزاد ، وأنه استكمل للعدة الاستنجاز ، ولعدة الاستنجاز .

فما هذا الرسول الراحل . وربما تعرضت لتلك الجوائح الجوائح (٣) . وإذا اختلف الحديث حدث الاختلاف ومنى ألقى (٤) غير ما ألقى ألقى الائتلاف . فما هذا العجل ، ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، عن كل ما أبان عنه وأعرض .

وكتب إلى والده ، بذكر مقاصده ، وقال : « أنا لا أقدر على صد من

(١) القاضي بهاء الدين بن شداد : هو أبو الحسن ، يوسف بن رافع بن تميم بن عتب ابن محمد بن عتاب الأسمى ، الفقيه ، الشافعي قاضي حلب ، ولد بالموصل ٥٣٩ هـ ، واتصل بخدمة صلاح الدين ٥٨٤ هـ فولاه قضاء العسكر والحكم ببيت المقدس ، كان من خلاء صلاح الدين ومستشاريه ، كان عالماً ديناً حسن السيرة ، أصبح قاضي حلب في عهد الملك الظاهر بن صلاح الدين عمر مدرسة له بحلب والحق بها داراً للحديث النبوي ومقبرة له ، توفي بحلب ٦٣٢ هـ (ارجع إلى سيرة صلاح الدين لابن شداد تحقيق محمد محمود صبح - المقدمة ط . الدار القومية) (وإلى النجوم الزاهرة ج ٦ ط . دار الكتب) .

(٢) يمجد : يقطع .

(٣) الجوائح : جمع جائحه وهي البلية والهلكة والداية العظيمة .

(٤) في ألف والتصحيح من ل ومن أ (١٩٥ هـ) .

للخدمة تصدى ، ولارد من بثوب الرسالة تردى ، وأنت تمضى إلى السلطان ،
بما أوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم ، ويعقد ويرم . ويقول
فتسمع ، ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعاً ، وتجدر شمل ما ألفته جميعاً » .

فوصل ضياء الدين الشهرزورى وهو معتاز ، وسجاياه السجاح
غلاظ . وتغير على ، ونسب انفاذ القاضى بهاء الدين إلى ، فإنه كان مخالئ
ومخالئى وبجالسى ومباسطى . فأزلت عنه كل ظن ، واعتذرت إليه بكل فن ؛ فما
بسط عنر ؛ ولا قبض ذعر . فإني على أسبابى ببغداد خائف ، ودون رضى
كل سائر إليها واقف . واسترضيته فما رضى ، ومضيت إليه مراراً قبل
أن يمضى .

ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ما قدمه ، وأعلمه بما علمه . وقال له :
« الشغل قد فرغ ، والمقصود قد بلغ ، والسؤال قد أجيب ، والسؤال قد
أصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم (١) ، وكل ملك سواك لأجلك
من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للإمام يكن لك ، واقبل أمره ليقبلك » .

واجتمع بالسلطان دونى ، واتفق بجماعة شاركوه وأفردوني . وقرروا
معه سرا أمراً ، وحذروه أن يصير جهراً . ولو كنت معهم لعرفتهم أن الأمر
الذى أبرموه غير مبرم ، وأن الرأى الذى أحكموه غير محكم . وما زلت
أؤكد الأمر حتى يؤمن انتقاضه ، وأعرض دون الرأى حتى لا يمكن
اعتراضه . وأتيقن أن الأمر ما فيه خلاف ، وأن الوعد ماله اختلاف . فما
فعل الرسول تلبث ، ولا أمهل بتمكث ، بل جعل على المجاز لا الحقيقة
مجازه ، وزعم فيما دبره نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب ،
وأسرع العودة على النجب .

فلما انفصل عن السلطان ، بما وصله من الإحسان ، جمع السلطان
الأمراء على المشورة ، ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم : « قد وعدت

(١) أى وضع الخطام فى أنفه ، والخطام هو كل ما وضع فى أنف البعير ليقاد به .

الخليفة على لسان الشهرزوري بشهرزور (١) ، واستدعيت عسكره المنصور ، ورما قدم إلينا الحضور ، فيكمل لنا النصر والخبور . فقالوا : « هذا رأى رائب ، وشأو شائب (٢) ، وأمر عنه الصواب ناء ، وكيف تعد الإمام بما لا يقرب بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد وينجح هذا القصد ! ودونه إجحاش من هو في طاعتك ! فكنت تبذل ما يدخل في استطاعتك . أما صاحب الموصل طلبها فمنع ، وصاحب اربل (٣) عنها دفع ، ومملوكك بها لمن يجاوره خائف ، وكل ابوائى لحدتها وحقها حائف (٤) . وما من هؤلاء إلا من بذل عنها أموالا وأحوالا ، والتزم من الجنود والنقود أنجاداً خفافا وحمولا ثقالا . فإذا عرف أنك أخرجتها لمن له الأمر ؛ دخل عليهم الضر . وملك مالك الأمر أمرهم ، وأبدوا في انقطاعهم عنك عندهم . وانقطع الواصل ، وارتفع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد ، ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد . فأما هذا بكتمر في خلاط (٥) قد جمع الأخلاط ؛ وجهه بالعداوة ؛ وأقام على الغيابة والغباوة . »

فقال السلطان : « الخليفة ملك الخليفة ، وهو مالك الحق والحقيقة . فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد ، فكيف شهرزور ! وسيحدث الله بعد الأمور الأمور . »

ولما وصل ضياء الدين الشهرزوري إلى بغداد ؛ وصادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد . فلم يسفر أمر سفارته عن سداد . وقيل له : « جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، وننديه فيما نتخيره . » وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين وزيد . وذكر ماجرى فتم الاعتداد ، وتم الإحماد . وسأتي ذكر ما آلت إليه نوبته ، حين كانت أوبته .

(١) شهرزور : مدينة بين الموصل وهندان وأهلها كلهم أكراد (ياقوت ج ١٢ : ٣٧٥ - ٣٧٦ ط . ب) .

(٢) الرأى الرائب هو الذى فيه شبهة وكدر . والشأو الشائب : هو الغاية الغير سديدة .

(٣) أربل : مدينة بين الزابين (كانت في زمن ياقوت من أعمال الموصل) وهى قلعة

حصينة ومدينة كبيرة (ياقوت ج ٢ : ١٣٧ - ١٤٠ ط . ب) .

(٤) مقصود .

(٥) خلاط : أو اخلاط ، بلدة عامرة مشهورة كثيرة الخيرات والمياه ، وهى خاصية

أرمينيا الوسطى (ياقوت ج ٧ : ٢٨٠ - ٢٨١ ط . ب) .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخى السلطان

والاستظهار بجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الإيمان

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال ، فى جيش وآل ،
وجمع حال . وشوكة (١) رائعة وشكة رادعة ، وشارة سارة ، وديمة
من البأس دارة . وعدة منتخبة منتخبة ، وعدة منتقاة مهذبة . من كل أجدل
على مرقب ، وأجود على جواد مقرب . وصاف عتيق على صافن عتيق ،
وطود على طود ونيق على نيق ، وصقر على سوذنيق (٢) . وبجر على
سايح ، وجذع على قارح (٣) . ومن كل رثبال على تنقل ، وأغر محجب
على اغر محجل . ومن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب ، وكل أسمر باسل
بالسمر سلاب ، وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعقل شجاعاً . وكل
أحمى أحمس ، وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر ، وقصور قاسر .
رضيغهم ضاغم ، ومقام واقم . وليث به لوثة ، وحدث له فى الشهامة
أحدوثة .

وأحضر معه من سودان مصر كل ذمر كأنه العيسى عابس ، وكل
مغامر للموت مغامس . وكل غريب حلوكوك (٤) ، وكل سرحان صعلوك .
وكل ضرغام غرينى (٥) ، ومقدام رينى . وكل خارج لثار ، وكل مارج
من نار . وكل أسود سالخ ، وكل رأس فى الشر راسخ .

وجاعوا بالغبسة (٦) القبطية ، والترسة (٧) اللمطية ، والصلال القفطية .

(١) شكة : سلاح .

(٢) سوذنيق : صقر .

(٣) الجذع : الشاب الحدث . والقارح : الأمد .

(٤) الغريب : الأسود الحالك . والحلوكوك : الشديد السواد

(٥) سريع .

(٦) الغبسة : يفهم من السياق أنها آلة تنسب إلى قبيل مصر .

(٧) الترس : جمع ترس وهو صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف .

والإلال (١) النوية ، والحراب الحربية ، والصعاد الصعيدية . والصوارم
المدروبة ، والصراثم المشبوبة . والأسنة المسنونة ، والصوانغ الموضونة .
والسراحين السارحة ، والتعاين الجارحة . والتماسيح المزدردة ، والشياطين
المتوقفة . والزانات والزنيات ، والهنديات واليمانيات .

وكان يوم وصول العادل مشهوداً ، لم يترك في كل ما يراد من القوة
مجهوداً . وأقبل في روع ظاهر وضوع باهر . وبشر ذائع ، ونشر ضائع .
وجبور تام ، وسرور عام . وهزة وطرب ، وعزة وأرب . وقلنا :
سيف الدين المنتضى ، وناصر الإسلام المرتضى ، وغيث الأنام المرتجي ،
وسلطان جيوش المسلمين المجتبي . لقد نص النصر ، وكف الكفر . وسلم
الإسلام ، ونام الأنام . وأمن الإيمان ، وتسلط السلطان . وحليت الأحوال
وفرغ البال ، وبلغت الآمال ، ونيل رجاء الرجال ، وأزيل إبطاء الأبطال .
وورت زناد الأجناد ، ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم إلا بعد القوم .
وإدراك ما استقام من النهج ، وهلاك من أقام من الفرنج .

ونزل الملك العادل في محيمه ، وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى
راجل دمشق والبلاد فحضر ، وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل العدو في
كل حين من حين ، وفي كل وقت من مقت ؛ وفي كل شأن من شين . وفي
كل بقعة من وقعة ، وفي كل صقع من صقعة . وفي كل ليلة من بلية ، وفي كل
سحرة من كبسة بالنكاية فيهم ملية . والملك العادل يركب في كل يوم ويبل
ومن جهده في القتال لا ينجلى . والفرنج على البلاء صابرون ، وللعناء والعناد
مكابرون لا يبرزون ولا يبارزون ، ولا يجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون .

(١) الإلال : جمع آلة وهي الحربة الرقيقة النصل .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجارى الأحوار

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل ، ومجاولة أهل الغواية
بالغوائل ، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى
الساحل . وقد نزلوا على عكاء المحروسة ، برأياتهم المنكوسة ، وآرائهم
المعكوسة . وحشودهم المجموعة ، وجموعهم المحشودة ، وظلال الضلال
الممدودة ، وإقدام الأقدام المصلودة المسدودة .

وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التلثيت على التوحيد سلاحه ، وبسط
الكفر جناحه ، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج
وعدم في الوقعات التي روعت ؛ والروعات التي وقعت ؛ أكثر من عشرين ألف
مقاتل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم ،
ولا أرث (١) إلا نارحرصهم . وما قلل حدّ حديتهم الحادث ، ولا قلل
عدد كثيرهم الكارث (٢) . ولا غصوا عيون أطماعهم ، ولا قضوا ختم
اجتماعهم . ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ، ولا قطعوا أملهم عن
الوصول إلى المدى ، ولو قطعوا بالمدى ، وهم لمواضعهم ملازمون ، وفي
مصارعهم جاثون ، وعلى الموت صابرون ، وإلى الحمام صائرون .
وبالخانداق من البوائق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتمنون .
وعندهم أنهم للبلد محاصرون ، وهم على الحقيقة وإن كانوا لكثرتهم غير
محصورين محصون ، وإن جندنا لهم المنصورون .

وللعساكر الإسلامية فيهم كل يوم نكاية شديدة ، وفتكة مييدة . ووقعة
ناكية ، وجمرة ذاكية ، وصدمة صادعة ، وخدمة رادعة .

ولما امتنع الدخول عليهم ؛ وتعبّر الوصول إليهم ؛ جمع راجل
البلاد ؛ وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل ،
والفارس بالفارس ؛ وتفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل

(١) أرث : أرقد .

(٢) الكارث : المسبب للفم الشديد .

الأخ العادل وفقه الله للمراضى الشريفة ، بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حثف هؤلاء الفرنج فتحاً لأبواب الفتح ، ويعجل لليالى آمال المسلمين بطلوع صبح النجج . وليس هذا العدو يواحد فينتج فيه التدبير ، ويأتى عليه التلميز . وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من فى ديار الكفر . فإنه لم يبق لهم مدينة ؛ ولا بلدة ولاجزيرة ؛ ولاخطة صغيرة ولا كبيرة ؛ إلاجهزت مراكبها ، وأنهضت كتائبها . وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، ونفضت خزائنها ، وانفضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخايرها . وثار ناثرها ، وسار سائرها ، وطار طائرها . ونثلت كنائس كنائسها ، واستخرجت دفائن نفاسها .

وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكتها . وتصلبت للصليب السليب ، وتغضبت للمصاب المصيب . ونادوا فى نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم ، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجراً ؛ ويحرب الإسلام مجاهراً ؛ ولتعبدته مسترداً ؛ ولجده فى النخوة لدينه مستجداً ، فقد وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه .

ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدر . فجاءوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد ؛ وتواصلت منهم الأمداد بالإمداد ، وتوالت أنجاد الإنجاد . وهم على النقص يزيدون ، وعلى الأبد يبسلون ، وبالمهج يهودون ، وعن اللجاج فى خوض اللجج لايعودون . وهؤلاء هم الواصلون فى البحر القاطعون أثباجه ، المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون فى البر فقد تواترت أخبارهم ؛ بأن خلت منهم ديارهم ؛ ورمتهم إلى أغراضهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر ، ويعضل الأمر . ويصول الكفر ويجول ؛ ويتناول الشرك ولكنه لايطول . فإن لدين الله من خليفته ناصرأ لايسلمه ، ورازقاً لايجرمه . وما تمسك بجبل طاعته لإامن فاز قدحه (١) وحاز السناء قدحه ، وأسفر صبحه ، ووفر نججه . وبدا علوه ، وباد عدوه .

(١) القح بكر القاف : هو السهم قبل أن ينصل ويراش والمعنى هنا كناية عن السمو.

والخادم بقوة رجائه في العوارف الامامية ؛ والعواطف النبوية ؛ وشدة
استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية ، أن أن يفرق الجمعين ويجمع للفريقين
القمعيين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدى البر والبحر ، ويقطع دابرهم
دابر الكفر .

ذكر وصول الأسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر
ذى القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالبأس

والشدة وكانت عدته خمسين شينياً

كان السلطان منذ وصل الفرنج إلى عكاء قد كتب إلى مصر بتجهيز
الأسطول ؛ وتجزية جباله ، وترجية أمور رجاله . وتكثير عدده ، وتوفير
عُدده . وإصلاح شئون شوانيه . واسناء رواسى سواريه . فتولى (حسام الدين
لؤلؤ (١) الشيخ) أمره ، وشرح لإيراده وإصداره صدره . وأنفق من ماله
ما جمع به شمل رجاله .

وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته ، وشكرت في العدو نكاياته .
وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد ، ولم يكن فيها على الإسلام لغيره
يد . وماسلك نهجاً الاملك ، ولاطلب غاية إلا أدرك . وهو ميمون النقية ،
مشكور الضريبة . وهو الذى رد الفرنج عن بحر الحجاز ، ووقف لهم على
طرق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف ؛ ولم يبق لهم دليلاً يعرف .
وغزواته مشهورة ، وفتكاته مذكورة . وأمواله مبنولة ، وأكياسه لعقد
الإتفاق في سبيل الله محلولة .

فتولى الأسطول ، وجمع به الطول والطول . ووصل به . وللفرنج
من شوانيه على وجه البحر عقارب تدب ، ولواسب (٢) سوالب ما تغيب
وما تغب . وسفن حمالة ومقاتلة ، وبطس (٣) للأزواد والمير ناقلة .

فصلمتها مراكبنا بمنكايها ، وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال
الأسطول المنصور على أساطيلها ، وجاء حقه بازهاق أباطيلها . وطلعت في
سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما ، وقذفت لشياطين الكفر رجوما .
وأقبلت سواريه بالرواسى ، مبرمة الأمراس محكمة المراسى . وقطعت

(١) هو الحاجب لؤلؤ وقد سبقت ترجمته .

(٢) لادفات : ضاربات .

(٣) بطس : جمع بطه ، وهى المركب الكبيرة - (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣٦٩) .

اللجة بأشباه أمواجها ، وسدت فجاجها بأفواجها ، ونكست أعلام الأعلام
عن أثباجها . ووافت أسودها السود بالأسود ، وسدت عقباتها الآفاق
بأجنحة الرايات والبنود . وطارت بقوادم المجاذيف وخوافيها ، وزارت
بجوارح المقاذيف وعوافيها .

فجاءت فجاعة وسفن العدو كالجبال تمرُّ مر السحاب ، وتطوى اللجة
كطى السجل للكتاب . فصلدتها وصدعتها ، وردتها وردعتها . فكأنما نعبت
غربانها بين أحبة الكفر أعادتها ، وأناخت ظمائن الضغائن على شواني
شوانيتها ، وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواربها .

فأول ما ظهر الأسطول المنصور بشيبي للفرنج عظيم الشان ، عاد طاغ
بأهل الطغيان والعدوان . فقتل مقاتليه ، وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى
بيطسة كبيرة ، تشتمل على ميرة لهم وذخيرة وأمتعة كثيرة .

وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبا ، وأصلد زندهم وكبا . وعادوا
محصورين محصورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم ، وأيقنوا
أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار ،
وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول أنشأتها فيها

منها فصل

ولما رأينا أمدادهم في البحر متضاعفة ، وجموعهم متكاثفة ، استدعينا الأسطول المصرى المنصور فجاءها فجاءة ، وامتد أسطراً على طرس البحر أعيت متأملها قراءة ، وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص ، وصدمت شوانيه شوانى الشناة فعادت مراكبهم وهى نواكص . وطارت غربانا يبين أحبة الكفر أعداء الإسلام ناعبة(١) ، واطردت على طرائد(٢) الفرنج فطردها غالبية لا لاغية .

وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة ، وأهبت في الماء على أهل التاركل نار للنكال مسعرة . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت ، وعملت ماشاءت ، وتبعهم مراراً ، وبالغنائم فاءت ، وأعشت أعين الرائين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعاً ، ولم تجد من بعدها مطعماً ولا مرعى .

(١) ناعبة : مصوته منذرة بالبين .

(٢) طرائد : جمع طريدة أو طراد وهى سفينة لحمل الخيل وفرسانها وتحمل نحو أربعين فارساً بأفراسهم . (Dozy. Supp. Dict.Arabe) (والسلوك ج ١ : ٥٦ تحقيق د. زيادة) و(الروضتين ج ٢ : ٥٩٨ تحقيق د. محمد حلى أحمد) .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الأسطول المصرى ، بالسطو الشديد والبأس القوى .
فارتاع الكفر من وصوله وصوره الرائع ، وذل جمع الكفر لعزه الجامع ؛
وجاء بكل شئى شانىء . لثائن الدين واجىءء ، مفاجع للعدو بالهلاك مفاجىءء .
مفرق لمراكب الشرك المجتمعة ؛ مضيق لمناهج مضارها المتسعة .
قطحن مناكب مراكبها ، ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة
وروده على عدة للملاقة مستعدة ، ولامداد اعانتها ممن وراءها مستعدة .
وقتل من فيها من الرجال ؛ وغنم ماوجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى

وصل الأسطول المنصور في كل شينى شانيء للشرك شائن ، زائد
لبهجة الإسلام زائن . زائر بكل أسد زائر ، سائر بكل مقدم إلى مقام
الإقدام سائر .

وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها ، وأرهفت غروبها وسنمت
غواربها . وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قواضب ، وأرجلها على
الثبات في رواي متون سفنها رواضب . وهم على انتظار الأسطول .
ليطاولوه ؛ ويلقوه وبالمدافعة يجاولوه .

فلما وصل وصال ؛ وراع أمره وهال ؛ وجلا عليهم الأوجال
والآجال ؛ بتوا المراسي والحيال ، وأنهموا بسفنههم ، وأذنت قوتهم بوهنهم .
واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والأحمال مملوءة ، وسلبهم
كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها ،
وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد

ونقل الرجال والذخائر والعدد

ولما اشتد البرد وتوالت الفيوث ؛ وتبحرت السهول والوعوث ؛ وحالت الأحوال ؛ ولاحت على خلاف المراد الأحوال ؛ وتعذر الخروج إلى تلك المروج ؛ وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج ؛ وزال حكم النزال ؛ واستقال من استقل بالقتال ؛ شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى ، وأنجع وأنجى ، وأرجح بالاحتياط والحزم وأرجى ؛ وهو تقوية عكاء بالميرة والذخيرة ، والأسلحة الكثيرة . والرجال الحماة ، والأبطال الكماه .

فتقل إليها في المراكب جماعة من الأمراء الأملاء^(١) بأجنادهم ، فدخلوا إليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضاً برجال الأسطول ورؤسائه وقواده ، فما دخل أحد فيه إلا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحرى حرنى ، على الجرى إلى الموت جرى . فامتلاً البلد بكل منتخب منتخ ، ومرخص مهجته الغالية للإسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات ، والرعى في العرادات^(٢) ؛ والحذف بالقاطات ، والإحراق بالزرافات ؛ والزرق بالمحرقات . وإلقاء القوارير ، واذكاء المساعير . وتطريح النار ؛ وتطويح الأحجار ؛ ومواصلة القطاعات ، والزياره بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات ، وتطيير الناوكات النواكى من مقاتل العدو إلى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقد ؛ والجدد في الجدد والجدد^(٣) . وطروقهم ليلاً على سبيل التلصص ، وسوقهم من سوقهم على وجه التصيد والتقنص .

وكبسوا ليلة سوق الخمارات والعواهر ، وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر . واستنصروا بذلك واستبشروا ؛ واجترأوا منه على ما أجروا .

(١) الأملاء : الأغنياء المتساوون أو الحسنو القضاء منهم .

(٢) العرادات : وأحدها عرادة وهى آلة حرية لرمى الحجارة .

(٣) القنص .

وكذلك من عندنا يدخل إليهم الرجال متسوقين ، ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه ، ومن تعلق عليه إخراج عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمدُّ مِدْيَتِهِ . ويسلبه سكونه بسكينه ، ويجعله إن لم ينجذب معه من حيثه على يقينه . فيقوده بخظام القهر ، ويجذبه بخدام الأسر .

ووقع القوم من هذا في بلاء مُبْلٍ ، وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر إليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز ، وشق عليهم الاحتراس والاحتراز . ونحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق ، وازداد فرقتهم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار ، والمكايبة والجهار ، حتى كان رجالنا يَخْتَفُونَ بالحشيش في أجراف الأنهار ، فإذا صادفوا فارساً ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة افرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنها مزينة . قد اجتمعن من الجزائر ، واندن للجزائر . واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء ، وترافدن على الإفراق والارفاد ، وتلهين على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية ، زاهية هازية ، عاطية متعاطية ، حاظية خاطية ، متغنية متغنجة ، مبرزة متبرجة ، نارية ملتبهة ، متنقشة متخضية ، نائقة شائقة ، فائقة رائقة ، رائقة فائقة ، راقعة خارقة ، مارقة رامقة ، قاسرة سارقة ، فارجة فاجرة ، فائنة فاترة ، مشتهاة متشهية ، ملهاة متلهية ، متفنتة متفتية ، ناشية متنشية ، متشوقة متسوقة ، مقترحة محترقة ، متحبية متعشقة . حمراء مرعاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء ، غناء لفاء ، زرقاء ورقاء ، متخرقة خرقاء .

تسحب غفارتها ، وتسحر بنضارتها نظارتها . وتثنى كأنها غصن ، وتتجلى كأنها حصن . وتميس كأنها قضيب ، وتزيف وعلى لبتها صليب . وهي بائعة شكركها بشكرها ، باغية كسرهما في سكرها .

فوصلن وقد سبلن أنفسهن ، وقدمن للتبذل أصومن وأنفسهن : وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسيل فروجهن . وأنهن لا يمتنعن من العزبان ، ورأين أنهن لا يتقرين بأفضل من هذا القربان ، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقياب ، وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ ، وسبلن ما بين الأفتاخذ . ويحن بالإباحة ، ورحن إلى الاحة ، وأزحن علة السماحة ، ونفقن سوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور ، وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور ، وعرضن الإمتاع بالمتاع ، ودعون الوقاح إلى الوقاع :

وركبن الصلور على الأعجاز ، وسمحن بالسلعة لذوى الإعواز ، ودمن على تقرب خلاخلهن من الأقراط ، ورمن فرشهن على بساط النشاط . وتهدفن للسهام ، وتحللن للحرام . وتعرضن للطعان ، وتضرعن للأخذان :

ومددن الرواق ، وحلن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للأوتاد واستدعين التصول منهن إلى الأعماد . وسوين أراضيهن للغراس ، واستنهضن الحراب إلى التراس . واستفرن المحارث إلى الحرث ، ومكن المناقير من البحث . وأذن للرعوس في دخول الدهاليز ، وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقرين الأشطان(١) من الركايا ، وفوقن النبال في أعجاس(٢) الحنايا ، وقطنن التلك ، وطبعن السكك .

وضمنن الأطيار في أوكار الأوراك ، وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك . ورفعن الحجر عن المصون ، وترفعن عن ستر المكنون . ولفظن الساق بالساق ؛ وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب(٣) في الوجار(٤) ، وأظعن الأشرار على الأسرار . وطرقتن الأقلام إلى الأدوية ، والسيول إلى الأدوية . وبلداول إلى الغدران ، والمناصل إلى الأجفان . والسبائك إلى البواتق ، والزنانير إلى المناطق والأحطاب إلى التنانير ، وذوى الأجرام إلى المطامير(٥) والصيارف إلى الدنانير . والأعناق إلى البطون ، والأقذاء إلى العيون .

وتشاجرن على الأشجار ، وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قرية ما فوقها قرية ، لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة . وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تعبلوا بترك النخوة والحمية .

وأبق من الممالك الأغبياء ؛ والمدابير(٦) الجهلاء ؛ جماعة جد بهم الهوى ، واتبعوا من غوى . فمنهم من رضى للذة بالذلة ، ومنهم من ندم على الذلة فتحيل في الثقلة . فإن يد من لا يرتد لامتد ، وأمر الحارب إليهم

(١) جمع شطن وهي الجبل الطويل .

(٢) أعجاس : جمع عجب بضم الجيم وهو العجز .

(٣) الضباب : جمع صب وهو حيوان من الزواحف ذنبه كثير العقدة .

(٤) الوجار : الحرف حفرة السيل من الوادئ وجمر الصب .

(٥) المطامير : وهي الحفائر تحت الأرض تحنياً فيها الحبوب ونحوها .

(٦) المدابير يقال « هولا يعرف قبيلة من دبيره «أى» لا يعرف ماقدامه ولا ماخلفه »

يكنون يملك عن فرط جهله .

لاتهامه يشتد ؛ وباب الهوى عليه يستد . وماعند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج ، وما أزاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر ، وهى فى بلدها مالكة الأمر . وفى جملةا خمسة فارس بخيولهم وأتباعهم ، وغلماهم وأشياهم . وهى كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة . وهم يركبون بركياتها ، ويمحلمون بحملاتها ، ويثبون لوثباتها ، وتثبت ثباتها (1) لثباتها .

وفى الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس . وكن فى زى الرجال ، ويبرزن فى حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويحلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذى أضلهن ، وعن نهج النهى أزلهن .

وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوة ، لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن مع لينهن قسوة ، وليست لهن سوى السوايف كسوة . فما عرفن حتى سلبن وعرين ، ومنهن عدة استتين واشترين . وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز ؛ وهن يشددن تارة ويرخين ، ويحرضن وينخين . وقلن ان الصليب لا يرضى إلا بالإباء ، وأنه لا بقاء له إلا بالفناء ؛ وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء . فانظر إلى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن للغيرة على الملة ملئن الغيرة ، وللتجاة من الحيرة ناحين الحيرة . ولعدم الجلد عن طلب الثأر تجلدن ، ولما ضامهن من الأمر تبلهن وتبلدن .

(1) أى شجاعها وصادق حملتها .

ذكر ما أهداه عز الدين مسعود
ابن مودود بن زنكى بن آقستقر صاحب الموصل
من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة ؛
وتقوية النجدة ؛ لكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة ؛ سير من أحمال
النفط الأبيض مع عزة وجوده — ما وجدته . ومن التراس والرماح — من
كل جنس — أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد ، وذاع الإجماع ؛
ودل ذلك على اتساج الوداد ؛ والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح ، وتم للإسلام من قروح الكفر الاقتراح ، واستجيدت
التراس والرماح ، وفارقت للقائها أجسام الأعداء الأرواح . واتصل بالنفط
الواصل إلى أهل النار الاحتراق ، وطعنت وضربت منهم النحور والأعناق .
وقد هدأ بما أهداه النصر إلى الهدى ، والردي إلى العدا . وأجود الأكارم وأكرم
الأجاود من جاد بما أجلى وأهدى ما هدى ، وعاد من المكرمة بما بدا .

لا أدخل الله المجلس من يد يتخذها ، وأباد يسيرها وينفذها ، ومحمدة
يستخلصها لنفسه ويستنقذها ، وحمية للدين يقيم بها حماة الشرك ويقذها ،
ونخوة للإسلام تُسهي حلود الهمم النابية وتشحذها .

وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة ، والضرورة الشاقة .
فإن الحروب المتطاولة المدد ، أنت على جميع العدد . فالسمر متحطمة ، والبيض
مثلمة ، ووجوه الصفاح بلثام النجيج مثلثة . وعيون النصال عن حواجب
القسى إلى مقل الأقران راقمة مارقة ، وحمام الحمام في مريشات السهام
بكتب الكبث من حنايا المنايا الساقطة سابقة .

وقد أفنى المصال النصال ، والنضال النبال . والرماء الأفواق ، واللقاء

العناق . والمصاع المناصل ، والقراع النوايل ، والصيال الصواهل ، وعمل
الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر إلا وهو وان كان غالباً لاغب ، ولا صارم
إلا وهو في دم العدو الفائض ناضب . ولا جارح إلا وهو مجروح ، ولا قارح
إلا وهو مقروح . ولا جامع إلا وهو مصعب ، ولا باشر إلا وهو مقطب .

فبأية عدة من هذه العدد أنجد ، غار الحمد وأنجد ، وتأسس الشكر
لانتعاه وتمهد . ومن العجب أن العدة تفتى ولا تفتى العدة ، وتنمو على
الحصاد وكأنها النبات ، ويتسارع إلى أمدادها الموت والهلاك ويخلفها في
إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم ، والكفر إلى الردى يردهم ، وكلما
أخلفتهم الأيام فان الليالي تجدهم . وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم ، وما حمل
أهل النار في الماء إلا ليغرقهم في دماهم وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بأن عماد الدين قد جهز عسكره ، و قدّم عليه قطب الدين (١) ولده وسيره . فقال السلطان « هذه أيام الشتاء ، ولا يتصف فيها من الأعداء . ونحن محتاجون إلى العسكر في الربيع ، واستنهاض الجموع إلى شمل النصر الجميع » فكتب بتأخيره ، والتهمل في تسييره . فتأثر قلب عماد الدين برد ولده ، ورجوعه بعد المسير من بلده .

فكتب إليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى إليه صدق اهتمام المجلس بأمره ؛ والتقدم بتجهيز العسكر إلى نجدته بكل ما يعود بسرور سره ؛ وانشراح صدره ؛ وعرف مسير قطب الدين أدام الله له مضاعفة العلاء ؛ وأقر بأنواره عيون الأولياء ؛ وظن أنه لم يقدم حركته المقرونة بالחסنات ؛ ولم يقرب من عبر القرات ؛ أشفق عليه من الشعب ، ليكون عسكره مستريحاً عند الطلب . فان الحاجة إليه في الربيع ادعى ، ومصالحة الاسلام في ذلك الأوان أولى أن ترعى .

ولو عرف أن الركاب القطبي قد دنا ؛ لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالنفوس والأرواح ؛ وتلقته القلوب بالقبول العبق بنشر الانشراح . وان اشتغل القلب بما فاتته من حظ الاستعداد بوفوده ؛ فقد بشر أمله بنضارة عود نجهه عند عودته ونجازه وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الأقطار والأمصار ؛

(١) هو لطلب الدين محمد بن عباد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن أقتقر ، خلف أباه على سنجار أثر وفاته سنة ٥٩٤ هـ فلقب بالملك المنصور ، كان حسن السيرة في رعيته ، وقد تملك سنجار مدة ، ثم حاصره الملك العادل الأيوبي أياماً ثم رحل عنها بأمر الخليفة بينفاد ، توفي سنة ٦١٦ هـ ، وخلفه ابنه عماد الدين شاهنشاه (أبو الفداء ج ٣ : ١٢٢ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبحر ، وحث الرسل وراسل^(١) بالحث ، وبعث المرعفين لاستبطاء البعث . وأنهض بالتبليغ كل بليغ ، وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ . وشرح (عدنان) النجائب إلى سيف الاسلام^(٢) باليمن : وشرح في الكتاب إليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جليلة الحال . وما نحن عليه من دوام القتال ، وطلبت منه الإعانة بالمال . واستعين واستجد . واستأين واسترقد . وحض على حفظه من إنجاد الاسلام ، وأن يكشف بسنى طلوعه ماغشيه من الاظلام . وأرشد إلى نهج السماح ، وتسيير كل ما يقلر عليه من العدد والسلاح . وتجريد الجرد العناق ، وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد الاتفاق . وكوتب (قزل أرسلان) بهمدان ، بما دنا منه عزمه ودان ، وحكم على كل ملك بحجة الإيمان ، وهدى إلى محجة الاحسان .

(١) في ب أرسل والتصحيح من ل .

(٢) يقصد سيف الإسلام طنتكين أخى السلطان صلاح الدين وقد سبقت ترجمته .

ذكر وصول رسول سلطان العجم

ركن الدنيا والدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه (١)
بالالتجاء إلى ظل السلطان . وارجاء ماله من فضل الاحسان

ورد من عند طغرل سلطان العجم أمير من خواصه - هو (أبلدُ كز) أمير العلم . فضرب له من الخيم الخاصة سرادق ، ووفرت في الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته : أنه خاتمه من أمراته ومماليكه العامة والخاصة ، وخصته في سفراته ونسكياته الخصاصه . وأن عمه - أخا أبيه من أمه - قد استولي على مماليكه ، وضيق عليه سعة مسالكة . وألجأه إلى هذا الالتجاء ، وهو بقوته من هذا الجانب قوى الرجاء . وقد وصل إلى حد مملكك بقرب اربل ، وأراد الوصول إلى الموصل . لكنه نزل في بيوت (عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق) . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم دولتكم ، والمستسكين بعصمتكم ، والمستوثقين بدمتكم . وأنا عنده مقيم ، وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني إليك قدمت ، وإن أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت . وأنا الآن هزيل عامك ، ونزبل انعامك ووصل معه كتاب بخطه ، قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكائة ، واستدعى الاعانة ، وأردف رسولا برسول ، وكرر سوألا فيما التمسه من سول .

فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل ، وأنه لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين الدين يوسف (٢) .

(١) طغرل بن أرسلان : هو طغرل بك شاه السلجوق ، قتله في المصاف علاه الدين خوارزمشاه تكش بالرئ سنة ٥٩٠ هـ ، وبقتله انقضت الدولة السلجوقية (أبو الفداء ج ٣ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) و (النجوم الزاهرة ج ٦ . ١٣٦ ط . دار الكتب) .
(٢) زين الدين يوسف : هو ابن علي بن بككين ، كان أميراً كبيراً ، شجاعاً مقداماً مدبراً ، قدم نجدة إلى صلاح الدين فمرض ومات سنة ٥٨٦ هـ ، خلفه أخوه مظفر الدين علي اربل من قبل صلاح الدين (النجوم الزاهرة ج ٦ . ١١١ - ١١٢ ط . دار الكتب) .

صاحب اربل وإلى (حسن بن قفجاق) وإلى نائبه بشهر زور بالتوفر على خدمته ، والارتياح لمصلحته ، وإشاعة معونته .

ثم نذب كبيراً للسفارة بينهم وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو (جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد كُويه نسبي) ، ليكون التقيام بهذا الأمر من نصيبه . وسعى في المصلحة والمصالحة ، والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة ، وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه . وسيأتي ذكر ما آل إليه الأمر في موضعه .

وتوفى الفقيه (ضياء الدين عيسى الهكاري) بمنزل الحروبه سُحُرة يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسائة . ولقد كان من الأعيان ، ومن مقربى السلطان ، ومن أهل الجدل في نصره الإيمان ، فنقله الله إلى الجنان . وحمل من يومه إلى القدس فدفن به .

وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير (شرف الدين أبي سعد عبد الله ابن محمد بن أبي عصرون (١) بدمشق ، يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله ، ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

وكانت وفاة الأمير (عز الدين مُوسك بن جكو) (٢) بكرة يوم

(١) الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون : هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر ابن علي بن أبي السري بن أبي عصرون ، أبو علي ، التميمي ، الموصل ، ولي قضاء سنجار ونصيبين وحران ، جاء إلى حلب سنة ٥٤٥ هـ ودخل دمشق مع نور الدين عند فتحها سنة ٥٤٩ هـ ، تولى مناصب عدة في دمشق وخارجها وكان قاضي قضاء دمشق سنة ٥٧٣ هـ ، كف بصره قبل موته بمئتين (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٠ ط . دار الكتب) و(الروضتين لأبي شامة ج ٢ : ٥٧٣ تحقيق د . محمد حلمي) .

(٢) عز الدين موسك بن جكو : هو ابن خال السلطان صلاح الدين الأيوبي كان حافظاً للقرآن ، سامعاً للحديث ، محسناً إلى الناس ملازماً للسلطان في غزواته ، ديناً صالحاً جواداً ، مرض بمرج عكا فأمره السلطان أن يتوجه إلى دمشق ليطلب بها ، مات بها سنة ٥٨٥ هـ (وهو الذي باسمه يسمى حي الموسكى الآن بالقاهرة نسبة إلى القنطرة التي كانت على الخليج باسمه في هذا الموضع . المحقق) (ارجع إلى النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٠ ط . دار الكتب) .

الجمعة النصف من شعبان منها ، وكان من الأبرار الأخيار ، والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكاه محصورة ، وجموع الفرنج إلى حصارها محشورة ، وعلى تعذرها عليهم محسورة .

وخرجت هذه السنة والحصر مستمر ، والسلطان في ملازمة القتال مستمر ، وحيا النصر في الأحيان مستلر . وقد تستل للإسلام مباحج ، ووضعت للسعادة مناهج ، وبانت للقتال مداخل وخراج ، وانقطعت بين الوشيح وأرحام الأرواح وشائج ، واشتدت لتباريح الأشواق إلى لقاء الأعداء لواعج ، وتألفت في الاقدام مقدمات ونتائج ، ولما نجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج ، ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات ؛ وللعزمات أزمات ، وانفقت حسنات ، وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات .

ووقعت عجائب ، وأعجبت وقائع ، وأبدعت غرائب ، وأغربت بدائع . واجتمعت كئائب ، ونابت نوائب ، وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الأقدار ، وتباعدت الأكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لا يقع عليه الحصر ، ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر .

وسيرد حديث كل حادث بمفرده ، ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب أحيانا للصيد ، بعد أن يجلد على ما يظهر للعلو من الكيد . وهو لا يبعد من الخيم ، ولا يقرب من مسائل الديم .

وركب يوما في صفر على عادته فتصيد ، وطاب له قرب القنص فأبعد . والبيزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة ، على الحالة المحاطة المستظهرة . فتخرج الفرنج وقت العصر ، في عدد لا يدخل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا إليهم ، وحملوا عليهم ، وطردهم إلى خيامهم ، وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . وما زالت بينهم حملة وحملة ، وشلة وشلة ، وسلة وسلة ، وركضة وركضة ، ونفضة ونفضة ، ومشقة ومشقة ، ورشقة ورشقة ، وجذبة وجذبة ، وضربة وضربة ، وشدة وشدة ، وردة وردة ، وضمة وضمة ، ولة ولة .

وأصحابنا ظاهرون ، وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العلو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع . حتى فنى الشباب وبقي الانتشاب ، وشاع نداء الأصحاب باستدعاء الشباب . والفرنج لا يعجزهم إلا الرماة ، ولا يبتكهم إلا الاصماء . ولا ينفهم إلا رة الأوتار ، ولا ينلرهم إلا أنة القسي بالدمار والبوار .

فاما أنسوا بخلو الجعاب ، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر ، وكادت تعبت بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان ، وأشرعوا إلى نحو تلك الذئاب تعالب الحرصان .

واستشهد جماعة من الشجعان ، استحلوا طعام الطعان ، وشاقهم جنى الجنان . وذلك أنهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا ، وصرعوا أقرانا . فنزلوا بعد فرسهم ، لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة في الأوبة ، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان ، واجتمع في

مراكزها الفريقان . وكثر التأسف على من فقد ، وكان الحاجب (أي يد غُمش
المجدي) ممن استشهد . وزاد التلهف على قوات القرصة ، وكيف أغفل
ذلك القنص عن تلك القنصة ، فان العدو صار عرضة للصرعة في تلك العرصة .
ومن نوادر هذه الواقعة ؛ وطرائف هذه الدفعة ؛ أن مملوكا للسلطان يقال
له (سر استقر) ؛ وهو يتطاول في كل معترك ولا يقصر ؛ عمره به جواده ،
وثبت على الجراءة فؤاده ، ورجله عثاره ، وأسلمه أنصاره . فقبض من
أسره شعره ليجذ به ، وسلّ آخر سيفه ليضربه ، فضرب يد قابض شعره
فسيبه . واشتد سراستقر يعدوناجيا ، وللخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه
ليمسكوه ويهلكوه ، وفاتهم يعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المنون من
لماتها بعد ازدراده ، وانتضاه (١) الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

(١) انتضاه الحمام : أبله الموت ،

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلم بالأمان شقيف أرنون ، واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيُون . وصاحبه أرناط – صاحب صيداء – في دمشق لأجله معتقل ، وباب خلاصه دون فتح (شقيفه) مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فتي زاده ، وعز اجتهاده ، ومرد عليه في الحفظ مراده ، وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياده ، ونخب من الرعب فواده ، وأصلد باليأس زناده (١) ، وامتنع عليه اصداره وابداده . فسلمه على أن يسلم صاحبه ، وتخلص في النجاة مذاهبه ، وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه ، وتركه للاسلام بما يحويه ، وأفرج عن صاحب صيداء وصار إلى صور ، ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور .

(١) أصلد : صوت ولم يور ، والزناد : جمع زئد وهو المود الأعلى الذي يقتتح به أُناده

ذكر حال عكاء ودخول العوامين إليها ووصول الكتب

على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتم هيجان البحر ، وحضور مراكب الأسطول من مصر . فما زال يقوى عكاء بتسيير الغلات والأقوات والقوات إليها في المراكب ، وقد ملأها بالذخائر والأسلحة والكمأة المساعير والحماة المحارب . فلما سكن البحر ، وأمن غائلته الكفر ، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها ، ودبت عقاربها وأفاعيها ، وشدت مراكبنا في موانئها . وانقطع عنا خبر البلد ، وامتنع عليه دخول المدد والعدد . فانتدب العوام للسياحة ، وحملتهم السباحة لهم بالرغائب على وضع المهج في ميزان السباحة .

وعلموا أنهم إذا سبحوا ربجوا ، وإذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم ، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتباً وطيورا ويعودون بكتب وطيور ، ونكتب إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور ، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور .

وكان في العسكر من اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجاً من خشب ، وهرادى (١) من قصب . ويدرجها على الطيران من البعد ، ويوردها لشبعها وزيتها أحب الحب وأغذب الورد . وكنا نقول : ما هذا الولع بما لا ينفع ، والوله بما لا ينجع . حتى جاءت نوبة عكاء فنقت ، وشفقت الغلل ونقت . وأتت بالكتب شارحة سارحة ، ووفت بمفاتح الغيب بالبشرى بمفاتحه .

فصرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ، ونخصه بالمدح والثناء . ونأمره بالاستكثار ، ونطلبها منه مع الليل والنهار . حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال ، وكنا نعرف بها جليلة الأحوال . ونعلم أن الله علمه ذلك البر ،

(١) هرادى : هرد الشى : منزه وقلمه .

وألمه ذلك السر . فانه اطلع على ما يدفع إليه أهل الاسلام ، فحمى حمى
هداهم بهداية الحمام . فلإنها أمينة على الأسرار ، ضمنية بالأخبار ، ضمنية
بالأسفار . قمينية بكرامة الأحرار ، مصونة من بين الأطيوار ، جريئة على
الأخطار ، بريئة من الأعذار ، معدودة من الأذخار، مودودة مع الأخيار .
وحمام البلد إلينا مع العوام محمولة ، وعقود الأكياس عليهم محلولة .
فلا ينكر على المحتاج ان عام بالانعام . ومعوله التحرز من الضلال ، والتحنى
بستر الظلام . والضرورة تحمل على تحمل الضرر ، والغرارة تبعث على
الانبعاث إلى الغرر ، والفقر يدعو إلى ركوب الخطر . وفيهم من سلم مرارا
من القوم ، فاجترأت نفسه وأنس بالعموم . ولقد عطب عوامون ، بالأمانة
قوامون ، فما ارتدع الباقون ، وما قالوا إنهم لما لقي رفقائهم لاقون .

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء

وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر ، وانتشى الربيع وانتشر ، أمر السلطان
عساكره بالعود ، فتوافت أمداد أجوادهم توافي أمداد الجود .

فكان أول من وصل الملك المجاهد (أسد الدين شيركوه بن محمد
ابن شيركوه (١)) - صاحب حمص (٢) والرحبة (٣) وهو بأكل العدة ،
وأحسن الأهبة . وسابق الدين عثمان (٤) (صاحب شيزر (٥)) وهو الذي
بيسالته يقسر الليث القصور ، و (عز الدين ابراهيم بن المقدم) المقدم ،
والهمام ابن الحمام ، والكريم ابن الكرام ، والأسد الضرغام ، والسيد القمقام (٦)
وفد معهم جموع من الأجناد والأعيان ، وحشود من العرب والتركمان .

ففاض بهم الفضاء ، واكتسى برياشهم العراء . وكثرت الجنود ، وانتشرت
البنود . وحلقت عقبان الألوية ، وتلاحقت ذؤبان الأودية . ولمعت بوارق
البيارق ، وارتفعت عوائق البوائق . وحملت بواسق السوابق ، وثبتت

(١) أسد الدين شيركوه بن محمد : أعطاه صلاح الدين حمص بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه
سنة ٥٨١ هـ فأقام بها وحفظ المسلمين من الفرنج وخونة العرب ، ومات بها سنة ٦٣٧ هـ (النجوم
الزاهرة ج ٦ : ٣١٦ ط. دار الكتب) .

(٢) حمص : مدينة كبيرة بين دمشق وحلب (ياقوت : ج ٧ : ٣٠٢ - ٣٠٣ ط.ب .)
(٣) الرحبة : كانت إحدى قرى دمشق ، وكانت تبعد عنها بمقدار ميل وقد خربت
وتسمى رحبة دمشق . وهناك رحبة أخرى وهي ناحية بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى
(ياقوت ج ٤) .

(٤) سابق الدين عثمان : هو الأمير عثمان بن الداية ، صاحب شيزر وقلعة جعير وتل باشر
(النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٤ ط. دار الكتب) .

(٥) شيزر : كورة وقلعة قرب المعرة ، يمتدحها نهر الأردن (ياقوت ج ٥ : ٣٢٤
ط.ب .) .

(٦) القمقام : الكثير العطاء

وثائق العلائق ، ونبئت شقائق العقائق ، ونظرت أحداق الحدائق ، وتيسرت
طرائق الطوارق .

وأعجبت أزهار الرايات ، وانتهت غايات الغيايات (١) ، ونزلت
بحسن الصنيع نصوص النصول ، ودارت بيد الربيع فصوص الفصول . وعلت
الأعلام . وحلت الأحلام . وومضت المواضي ومضت ، واقتضت القواضب
القواضي وقضت .

وعريت البيض من الحلى ، وغريت السمر بالكلى ، واشتاقت لدات (٢)
اللدان إلى العناق ، وتاقت شفاه الشفار إلى ثم الأعناق ، وتحدث الأحداث
في المجارة باجراء العناق . وطالت رقاب الرقاق إلى غلاظ الرقاب ، وأعجم
عن جمجمة الجماجم اعراب العراب . وحسى عزم البطل ، وحى رسم
الملل . وعاد الجلد إلى جدته ، والجد إلى حدته ، وخرج البرد من عدته ،
وفاز النصر بعدته ، وجليت بنت الغمد في زى الهند ورى الفردن ، وقطف
ورد الورْد للشد إلى الورْد .

وقال الناس : « لإلام ننتظر ، وعلام نصبر ، ولم لا نشغل ، وكيف
لا نشغل ، وحتام القعود ، وممّ الركود ؟ ولماذا الرقود ، وقد نظرت
السعود ، ونضر العود ، وصدقت من أصحابنا الوعود ؟ » .

فرحل السلطان وتقدم ، وعزم على طلب العدو وصمم ، ونزل على
نل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول ، في الفصل الأعدل ، والفصل
الأكمل . وتدانى العسكران ، وتعالى العشيران ، وتقارب القرنان ، وتحارب
الحزبان .

وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا ، وفي ركوبه
على ترتيب منازلهم طُنبا طلبا . فكان الملك المظفر تقى الدين في آخر الميمنة
الميمونة ، والملك العادل في آخر الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الأفضل

(١) في ب الغايات والتصحيح من ل .

(٢) لدات : جمع لدة ، وهو التراب الذى ولد مملك أوترجى مملك .

في أول ميمنة القلب ، وأخوه الملك الظافر (١) في أول ميسرته على الجنب .
والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ،
والأرض بوقع الحافر منقبة . والعساكر مترادفة مترافدة ، متوافرة متوافدة ،
متتابعة متواردة . متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة ، متوالية متوافية ،
متجارية متبارية . منقضة كالبزاة ، منفضة إلى العداة . داعية إلى الانتصار ،
عادية على الكفار .

(١) الملك الظافر : هو خضربن صلاح الدين الأيوبي ، لقب بمظفر الدين ، وكنى
بأبي الدوام ، وأبي العباس . قيل له «المشمر» وهو لقب غلب عليه منذ أن قسم والده البلاد بين
أولاده الكبار فقال «وأنا مشمر» . وهو شقيق الملك الأفضل ، ولد بالقاهرة ٥٦٨ هـ توفي بمران
سنة ٦٢٧ هـ عند ابن عمه الملك الأشرف موسى ، ولم يكن وتذاك ملكها إنما كان مجتازاً لها
عند دخوله بلاد الروم (وفيات الأعيان ج ٦ : ٢٠٤ - ٢٠٦) و(مفرج الكروب ج ٢ .
تحقيق د . الشيال)

ذكر وصول رسول دار الخلافة

مع ضياء الدين الشهرزوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الأول رسول دار الخلافة ،
بالنجدة والعارقة والرحمة والرأفة ؛ - وهو (الشريف فخرالدين) نقيب
مشهد باب التين بمدينة السلام (١) ، فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام .
واحتفل لوصوله ، واستقبله لقبوله . وتلقاه الأمراء على الترتيب ، فمنهم
من تقدم نحوه إلى البعيد ؛ ومنهم من وقف له بالقرب . ثم اخوة السلطان
وأولاده واحدا بعد واحد ، وماجدا بعد ماجد ، وبادئا بعد عائد .

ثم ركب السلطان إليه عند القرب من سراقه ، وأدناه إليه بتعاقبه .
ثم سار معه قليلا ، وأصحابه من خواصه وأمرائه قليلا . حتى نزلوا به في
باركاه (٢) له مضروب ، وخصه بصنوف من الألفاظ وضروب . ووصل
معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخيطي الخطار ، وتوقيع
بعشرين ألف دينار تقترض على الديوان العزيز من التجار ، وخمسة من
الزرايين النفاطين المتقين صناعة الاحراق بالنار .

فاعتد السلطان بكل ما أحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره ،
غير أنه أبدى رد التوقيع مع ود الصنيع ، وقال : « كل ما معي من نعمة
أمير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شملني من عاطفته . ولعل الله يوفقي
للقيام بالفرض ، ويغنيني عن الالتزام بالفرض » .

وأركب الرسول مرارا معه وأراه مبارك النزال ، ومعارك القتال ،
ومصارع الرجال ، ومجامع الأبطال، ومطالع اللقاء . ومواضع الهيجاء .
ومصالت الإقدام ، ومنابت الأقدام . ومواقف الصفوف ، ومصاف

(١) أي بغداد .

(٢) باركاه : مأخوذة من اللفظة الفارسية (بارجاه) ويقصد بها بلاط الملك ، والمضرب
السلطاني ومحلة الرجال (المرعب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم للجوالين : ٧٥ ط .
دار الكتب) .

الوقوف . وأماكن البعوث ، ومكانن اللبوث . وتل الفضول ، وبقية
التلول . حتى يشهد بما يشاهد ، ويبين له المجتهد والمجاهد ، وأراه
مالم يره ليأثر أثره ، ويختر بجملته ويحمل خبره .

وأقام الرسول طويلا ، وأقام له السلطان من طوله دليلا ، ووفرله
عطاءً جزيلا ، وعرفا جميلا . حتى استأذن في العود فعاد ، واستصحب
الشكر والإحماد .

ذكر مقاتلة الفرنج عكاه بالأبراج والاعجاز بها والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار ؛ شرعوا في عمل الأبراج الكبار .
وركبوها من الأخشاب الطوال ، والعمد الثقال . وبنوها وقدموها ،
ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طباقا ، وسمروها بالحديد وجعلوا لها منه
أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا . ولبسوها بالسليخ ، وملأوها بالجزوخ .
وزحفوا بها إلى السور ، وكشفوا بالرمل منها بعض سقوف الدور . وتساءلوا
على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق .

ووصل من المدينة عوام ، يخبر بأن التلف بها حوام . وأن البلد قد
أشرف ، والخطر قد أسرف ، والأبراج علت ، والأسوار خلت ، والبلاء
قد عم ، والخندق قد طم . وأنتم إن تم هذا عراكم العار ، وأظلم على
الدنيا والدين بليله النهار .

فاتحى السلطان واحتد ، وشد واشتد . وكرّب وركب ، وكان يحسب
هذا فجاء كما حسب . وزحف إلى الفرنج ليشغلهم عن الزحف ، ويصرفهم
عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين من ربيع الأول يوم الجمعة ، بالبحافل
المجتعة ، والغماغم المرتفعة ، والصوارم الملتمة ، والصلادم الممتعة ،
والأسنة المشرعة ، والأعنة المسرعة . والحوائم المنتجة من النجيع ، والبيارق
المختفة كأزهار الربيع .

واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين — صاحب دارا (١) محمود
ابن بهرام الأرتقي ، بالجمع الوافر الوفي ، والعسكر النخي النقي . وسار
إلى القتال على حاله ، بنحله ورجاله . وضايقهم السلطان مضايقة عظيمة ،
ولم تزل جادة الجدى في مقاومتهم مستقيمة ، حتى دخل الليل ، ولغبت الخيل .
فقوى تلك الليلة اليك ، وألزمهم في الحفظ والدرك . ورجع إلى مخيمه
ساعدا ساهرا ، مجاهدا بالبيكور نحوهم مجاهرا .

(١) دارا ؛ بلد في لوف جبل بين ماردن ونصيبين (ياقوت ج ٨ : ٤١٨ ط.ب) .

فلما أصبح يوم السبت صبحهم بالحرب ، وصبهم على بحر الكر والكر . ورجل الرجال إليهم ، وأنزل النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد النقع ، واتسع خرق الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم وقد انقرض القوم . وتفرق الجمعان وقت العشاء ، عن قتيل غريق في الدماء ، أو جريح على بقية الذماء . وبات الناس في السلاح (١) شاكين ، وبنار المذاكي ذاكين ، ولما تم منهم وعليهم حاكين .

ورجع السلطان إلى خيمة ضربت له على تل العياضية ، وقد ألزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع في رياض الأخلاق الرياضية . وأصبح يوم الأحد راجعا إلى قتال أهل الأحد ، واستن من الجدد على أنهج الجدد ، وأمر بانتقال السوق إلى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الأظهر والظهور الأنصر . وأقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل، ويعدو ويقاتل .

ثم نقل يوم الأربعاء الخامس والعشرين الأثقال إلى المخيم لثلاث يغيب حاضر، ولا يصاب عن الورد صادر. وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين ، ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهم معاشرين . فانتدب منهم إلى الحرب كل مجتريء للوقائع مجتري ، وكل محترق على نار الهيجاء للهياج مقترح . وكل وقاح (٢) بالحراب وقاع ، وكل ضرار بارداء الكفرة نفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لغام (٣) ، وكل أسد غدا إلى الشد له في حومة المأزق زئير وبُغام (٤) . وكل مُتلاف للغيرة متلاف ، وكل جاف عن سوى سوء متجاف . وأخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس ، وطلبوا بقصد العدو والاقتناص والاقتراس . وأبلوا بلاء حسنا ، وأوضحوا بالنكاية في العدو سنا .

ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين ؛ عوام من البلد

(١) في ب الصلاح والتصحيح من ل .

(٢) وقاح : صبور على الركوب .

(٣) لغام : زبد .

(٤) بغام : صوت الظبية .

يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وأن البلد قد ضويق ، وأن العدو المخنول يحيق به كيده إن حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله ، ويكفه بنزاله عن نزاله . وجدد الكتب إلى الأصرار ، بالاستنفار والاستنصار . فأول من وصل ؛ ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وانفرد بوصوله ، وحظي من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين . ثم عاد إلى معسكره ، وجاء يوم السبت في حسن منظره ، وإحسان أثره . في منظر فاضر ، ورونق حاضر ، وجمع كثيف ، وحشد لقيف . وبهجة رائعة ، وروعة مبهجة وهيئة معجزة ، وهيئة للعدو مزعجة . وصوله دائلة (١) ، ودولة صائلة ، وميامن رائقة ، ومحاسن شائقة . وبحرمن الحديد مائج ، وبحرمن الحديد هائج . ورقاق وذوابل ، وعتاف وصواهل ، وعوايس وعواسل ، وشعوب وقبائل . وقدم في هذا اليوم (مظفر الدين بن علي كوجك) - وهو صاحب حران (٢) جريدة . وقد استأنف للجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد إلى عسكره ليقدم به ، ويحضر بحنده وتر كمانه وعربه .

(١) دائلة : ظاهرة عليهم .

(٢) حران : مدينة قديمة كانت من أعمال حلب ، وهي على طريق الموصل والشام وآسيا الصغرى (ياقوت ج ٦ : ٢٣٥ - ٢٣٦ ط.ب) .

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان ومن كان في طباقها

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم ؛ وهو السبت الثامن والعشرون ،
تتابعت بظهور دلائل النصر ؛ وتناصر أسباب الظهور المبشرون . فنظرنا
والنار من أحد الأبراج في السماء بشعلها متسامية ، وفي الجوبشراها مترامية -
وما يدرى ما سبب هذا الحريق ، وكيف تيسر هذا التوفيق .

وأحدثت النار بالبرج فإذا هو كشجرة من نار ، ، وقلوب المشركين
لاستعارها في استعمار ، ووجوه المؤمنين لأنوارها في استبشار . ثم رأينا
البرج الثاني وهو يحترق ، والنار في أثنائه تحترق . ثم نظرنا إلى البرج الثالث
فإذا هو يشتعل ، وبألسنة النيران يبتهل . فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها .
وبلغت إلينا من صدماتها وحلماتها استغاثتها .

وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار، ونسير بطاقتها على
أجنحة الأطيوار . والعجب أن الأبراج كانت متباعدة غيز متدانية ، وقد
أبعدها الفرنج لمسافات متناهية . فكل واحد منها على جانب من البلد قد
كشفه ، وخسف أسواره وكسفه . فاحترقت على تباينها في وقت واحد وقدر
من الله وارد . فلم يكن ذلك إلا سراً إلهيا ، ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة ،
وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقدة .

وكان سبب حريقها أن رجلا يعرف بعلى^(١) - ابن عريف^(١) النحاسين
بدمشق - كان استأذن السلطان في دخول عكاء للجهاد ، وأقام فيها باذلا
للاجتهاد . وغرى بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره ، وتعيين كل نوع
وتعير مقاديره ، وتقدير معايره . والناس يضحكون منه ، ويغضون عنه .
ويقولون : « هذا يضيع ماله فيما لا يعنيه ، وما هذا الهوس الذي وقع
فيه » . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويمجد في تلك الأدوات ، ويكثر
القدور ، ويرتب الأمور .

(١) عريف : هو التقيب وهو دون الرئيس .

فلما قدمت إلى البلد تلك الأبراج ؛ وحصل من الامتراج الامتراج (١) ؛
 قوتلت بكل فن ، وأدنى إليها من النفض كل قلدودن . ورميت بكل قارورة
 محرقة ، وكل نفاطة مرهقة . وبالغ في صنعه الزراق ، فلم يم في شيء منها
 احتراق . ووقع الياس ، واستسلم الناس . فمضى ابن العريف ، بل ابن
 العريف ، إلى بهاء الدين قراقوش - الأمير . وقال : « قد رأينا ما اعترض
 من التدبير ، وما عرض من التقدير . فأفسح لي في رمي هذه القدور ؛ فلعل
 الله يأتي منها بشفاء الصلور » . فأذن له على كره . وقال : « ما أرى لاحراق
 هذه البروج على يده من وجه ، فان الصناع قد أبلسوا (٢) ، والزرايين
 العارفين بالصناعة يشوا » .

فلما وجد الاذن ، وزن القدور وغيرها ، ورمى بواحدة منها إلى
 أحد الأبراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها . ثم لما استوت رمايته ، وصحت
 في الاصابة درايته . رمى بقدر نفض لا نار فيها ، وهو يصبها على أعلى
 البرج ويسقيها . والفرنج يعجبون من البلل ، ولا يدرون بما وراءه من الشعل .
 ثم قذف بقدر نارية ، متشعبة بكل بلية ، فوقعت في الطبقة الوسطى ، ورمى
 أخرى فوقت في السفلى ، فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والأعلى .
 وتعلر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين ، فاحترقوا أجمعين .
 ودخل إليه أيضاً جماعة لاستنفاذ ما فيه فاحترقوا بلدوعهم وسيوفهم ،
 وتقلبت الجحيم عليهم غيظاً لاستبطاء حتوفهم .

وتحول ابن العريف إلى مقابلة البرج الثاني ، ولم يلحقه في إحراقه
 التواني . وانتقل إلى الثالث فأحرقه ، وما كان ذلك بصنعة منه بل لأن الله وقفه ،
 وما زالت تحترق الثلاثة وتنقد انقادا ، حتى عاد جمرها رمادا ، وبياض
 نارها واحمرارها في السماء على الأرض سوادا . واحترقت المجانيق والستائر
 التي كانت بقربها .

(فبُهِتَ الذي كفر (٣)) وأسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفار

(١) الاضطراب والقلق .

(٢) في ب أبلسوا والتصحيح من ل وأما في أ (٢٢١ ص) أبلنوا .

(٣) وبهت خطأ وتصحيح الآية (بهِتَ الذي كفر) وهي الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

بذلك الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام العُرام . وحبطت أعمالهم ،
ونخبت آمالهم . وركدوا بعد جريهم ، وركنوا إلى خزيهم . وضلوا في
سعيهم ، وتورطوا في بغيهم ، وسقط في أيديهم بسقوط أيديهم ، وحيق
مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم .

وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر ، وأظهروا بظهور
القدر القدر . وجاءوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها ، واستخرجوا الحديد
من مكانها . ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت ، وكشفوا عن
الستائر التي تهتكت .

فأخذوا ما وجدوا ، وحصلوا على ما نشدوا . وأترب من ترب من
تراث ذلك التراب ، وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب . وبردت من
حرتلك النار ، وشفي أوامها بذلك الأوار .

والحمد لله الذي جعل تلك النار لأولياته بالبرد والسلام ابراهيمية ،
وعلى أعدائه بالحرّ والضرام جحيمية .

ذكر فصول أنشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجدد ، وأنجزه من الوعد ، وأجزله من الرفد ، وأعذبه حال الظمأ البرح من الورد . وذلك ما ظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول من الاتفاق الحسن ، والنصر اللذي يقصر عن وصفه ذوو اللسن .

وهو أن أصحابنا بعكاء رموا بقدر النفط عدد العدو المدحور ، وأحرقوا جميع ما لهم من المدخور . واحترقت ثلاثة أبراج كانوا قدموها ، ودبابات قربوها ، ومنجنقات نصبوها . ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الآلات ، ويستسهلون عليها الغرامات . حتى أقاموا أبراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها ، وقربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها ، وأطالوا على مناكب البلد أعناقها . فأشفق الاسلام من نكاياتها ، وأظلمت الآفاق من غياياتها .

وكشفت من البلد جانبها ، وجبت من سورة غاربا (٩) . فأقدر الله على إحراق ما عمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وأمسى العدو بقلوب وأفئدة مرتابة مرتاعة . وما أفصح ألسن النيران على تلك الأعواد خاطبة ، وما أبسط أيديها على من كان فيها من الرجال للارواح ناهية سابعة .

(١) غاربه : أعلاه .

فصل

هذه المكاتبه مبشرة بالظفر الذى ورت زناده ، والنصر الذى قرب
مبعاده . وذلك ان أصحابنا بنجر عكاء استظهروا وظهروا ، وصبروا
فانتصروا . ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدر النقط ،
وأنزلوها من سماء الرفعة إلى أرض الحط . وأطالوا بها ألسن النار المضرمة ،
ودبت من الأبراج المقربة إلى الدبابات المقدمة . وعلم العدو أن كرتة خاسرة ،
وأن يدم عن نيل المني قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني ، والنجح (١) السني . والنور اللامع من النار ، والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور أصحابنا بعكاء يوم السبت ثامن عشرى ربيع الأول ، وقد خصهم الله بالنجح الأفضل الأكمل . وقد كان العدو قدم أبراجه ، وسلك في المضايقة منهاجه ، ولزم في الزحف الدائم بلجاجة . فاستظهر الأصحاب عليهم وقت الظهر ، ورموهم بقنود النفط المحرقة من الثغر . فطالت ألسنة النيران تدعو على أهلها بالبور ، وتبدي في تضرعها تضرعها إلينا للاعتذار . وشاهد أهل النار ما أعد لهم في سقر ، وتلونا قول الله سبحانه فيهم (كذلك نجزي من كفر (٢)) .

(١) في ب النجح والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٣) .

(٢) هذه ليست بآية قرآنية ويبدو أن المؤلف رحمه الله قد اختلط عليه الأمر إذ أن هناك

آية في سورة القمر وهي قوله تعالى (كذلك نجزي من شكر) .

فصل إلى الديوان العزيز

ولما كان يوم السبت ظهر أهل الجمعة على أهل الأحد، ورمى الأصحاب (١) المحصورون - المنصورون عدد العدو وأبراجه بقدر النفط من البلد ، فخطبت ألسنة النيران على تلك الأعواد ، بل على تلك الأطواد ، وألحقتها رداء الردى وألحقتها بالوهاد ، وفرشت رمادها لما تم أولئك المراد .

فكانت تلك النار على الكفر ضراما ، وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحترقت الأبراج الثلاثة على معتدى التثليث ، ودبت النار إلى الدبابات بصدمة التأثير وحدمة التأريث . وما أطول ألسن النار وأفصحها بالدعاء على أهلها بالتبار ، وقد أبدت إلى الاسلام بتضرعها وتضرعها وجه الاستبشار . وما أحسنها وهي (ترمى بشرر كالقصر (٢)) . ويكسو سنى لهبها وجوه المؤمنين يمشر النصر .

وما أقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الآلات عن البلد أجنحة الحصر، ويسم بعد عبوس اليوس باسم الله نغرا النغ . وقد بغت هذه الفجيعة فجأة من حوته تلك البروج ، ودخل إلى طبقاتها فوم لاطفاء النار فتعد عليهم الخروج . وهلك فيها أكثر من ثلاثمائة دارع ، وخرج من أهل البلد لما حنق الفرج كل مسابق إلى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف ، كل ما وجدوه خلل رماد تلك الختوف .

وكان القوم قد اعتصموا بالأبراج وثوقاً بوثاقها ، واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها ، ووصلوا بها أجنحتهم ، وذخروا فيها أسلحتهم . فأخفقت ظنونهم ، وسخت عيونهم (وخسر هنالك المبتلون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) (٣) .

(١) في ب أصحاب والتصحيح من أ (٢٢٣) .

(٢) قال الله تعالى في الآية ٣٢ من سورة المرسلات « أنها ترمي بشرر كالقصر » .

(٣) الآية ٧٨ سورة غافر .

فصل من كتاب إلى اليمن في وصف الأبراج

وإحراقها

استنفد الفرنج أموالهم في عدد أعدوها ، وآلات أجدوها . وأحكموا أبراجاً شامخات ، ومجانيق شادخات ، وزاد غرامهم بالگرامات ، واستقلوا على عمل الأبراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على بلجهم ، يطرُقون بين يدي أبراجهم ، ويمهدون الأرض لتسوية منهاجهم .

فلما قدموها بعد لأى ؛ وأحكموا باحكامها كل تدبير ورأى ؛ وأشرفوا منها على سور البلد بأسوار ذات أسواء ؛ وجاعوا بالآلات عِلَّات وإداوات أدواء (١) وأشفى البلد من بلائها وأشفق ؛ ووجل كل قلب وفرق ، واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل ، ومداواة الأمر العليل إلى أن نشغلهم بمحصرنا إياهم عن التفرغ للحصر ؛ وتضرعنا إلى الله في إنزال ملائكة النصر ؛ فكان من لطف الله ما لم يكن في الحساب ، وأتى الله المجرمين بالعذاب . وألم أصحابنا ما داووا به المرض ، وأدركوا به الغرض . وأظهرهم (٢) ظهر يوم السبت الذى خصهم فيه بالظهور ، وأقدرهم على رمى تلك الأبراج بالنفط فى القُدور وظهر من سر صنع الله ما كان فى المقلور .

فتسلعت النار على عمل أهل النار ، وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس . الشرار . ولع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يُرسل عليكم شواظ من نارٍ ونحاسٍ فلا تَنصرون) (٣) .

وعادت تلك الأكم وهادا ، وذلك الجمر رماداً . وتحلحلت تلك الجبال . وتحال تركيبها ، ولصق بالتراب ترتيبها ، وتنكس منها صليبيها . وكانت ثلاثة أبراج شاهقة ، فلعبت فى ملاعبها النيران فإذا هى زاهقة ، وتنقلت .

(١) أى تسبب فى المرض .

(٢) فى ب أظهرهم والتصحيح من ل من أ (٢٢٤ش) .

(٣) الآية ٣٥ سورة الرجن !

نجوم الشعل فى تلك البروج ، وعجز شياطينها برجمات جمرات
شهبها عن الخروج . وتسלט الحضيض على يقاعها ، وباد الدارعون فيها
بأدراعها . وأضحك الله ثغر الثغر بما أطابه من أرج الفرج ، وأحمد باشتعال
ذلك الوهج ما أكرب قلوب المؤمنين من الوهج ، وصان مهج أهل التوحيد
بما أرداه لأهل التلث من المهج .

فصل

تقدم المشركون بالأبراج إلى البلد فقبروا الأسوار من أسواره :
وألصقوا منها جدراناً بجماداره ، وأشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره .
فأظهر الله ما كان خفياً من سر أقداره ، وأحرق عمل أهل النار بناره .

وكان أصحابنا لما عاينوا مادهمهم وهمهم ، وخصهم من الخطب
وعمهم ، نصبوا مجانيق بازاء الأبراج ، وصدعوها بها صدع الزجاج .
ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رعوسها وشابت وشبّت ، ومشت النار
في أطرافها وأعطافها ودبت ، وأرسل الله في تلك الساعة بعذابها ريحاً بها
هبت ، فأمست أجنحتها قد حُصت ، وأسئمتها قد جُبت ، وسقط في
أيديها ووجبت جنوبها(١) ؛ وكبت على وجوهها في النار ومُكبت ، فما
أفصح ألسنة النيران وقد نادت بنصرنا ولبت ، وألقت منها قلوبنا بما ألقت
من نفع غليلها وأحبت ، والحمد لله على أطفاه التي ما غابت ولا أغبت .
وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الأحوال التي جرت بحقيقتها وحقيقتها ،
وحليتها وجليتها . فإنه يشتمل كل فصل على تمام ما أغفل في غيره ، ومقصودنا
استيعاب كل حادث بذكره .

(١) وجبت جنوبها : أى صارت كالإبل إذا سقطت على الأرض بعد نحره (غريب
القرآن لابن الخطيب ط. المطبعة المصرية) .

ذكر تاريخ وصول الأكابر في هذه السنة

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الآخر ، قدم (عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي) بمن استنهضه من العساكر . وكان أول من استقبله حين ظهرت راياته من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه (الملك المظفر تقي الدين) بتل كيسان ؛ ولقيه بعده (الملك الظافر خضر) و (المعز إسحاق) (١) ولدا السلطان . فزلا لهما ونزلا له ، وتعمدا إعظامه وإجلاله . ثم تلقاه الملك الأفضل أدنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما ، إعفاء له من النزول ، وتلاقيا بالإقبال والقبول .

ثم وصل إليه السلطان بالوجه الضاحك ، والالطف المتدارك . واعتنقا على ظهر ، واتفقا على بشر ونشر . وكان (الملك العادل) تأخر فلحق وأظهر من أرج سجاياه ما ينشره عقب ، وبجبه علق ، وسارمع السلطان بأطلابه وأبطاله ؛ وحماته ورجاله ؛ حتى وقف قبالة العدو بصفوفه ، ووقف عليهم طول الرعب بطول وقوفه .

ثم رده السلطان إلى خيمته على رسم الضيافة ، وترفرت أطفاه عليه بالإطافة . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس ، وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا أظلس . وأكرمه السلطان بإجلاسه إلى جنبه على الطراحة (٢) . وآنسه ببشر السماحة والسجاجة . ووقف الأمراء والخواص والأولياء صفيين . وأنشد الشعراء من المدح والنسيب (٣) صفيين .

ثم أحضرت المائدة فماد نحوها الحضور ، وعقد الحبا لهم الحبور .

(١) المعز إسحاق : هو فتح الدين ، إسحاق بن صلاح الدين الأيوبي ، ولد سنة ٥٧٠هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٢ ط . دار الكتب) .

(٢) الطراحة : مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس (الروضتين ج ٢ : ٥٣٩ تحقيق د . محمد حلمي أحمد و)

(٣) النسيب : رقيق الشعر في النساء .

ثم رفع الخوان وارتفع الإخوان ، وحسن الخير والعيان ، وخلا المكان وحلا الإمكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب ؛ وخمسة عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بمعبء الشك ناهض ، ولوجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلةية ، وملاً تلك المروج بعساكره المليية .

ثم وصل من بعده ابن أخيه (معز الدين سنجر شاه بن غازي بن مودود^(٢)) صاحب الجزيرة ؛ بعساكره الكثيفة الكثيرة ؛ وذلك يوم الأربعاء سابع جمادى الأولى ، بالأيد الأطول واليد الطولى . فالتقاها السلطان وأخوه وأولاده على قاعدة عمه ، وأجراه في الضيافة والكرامة والزلول بالخيمة السلطانية على حكمه ، لكنه يقصر في القاعدة عن رسمه . ونزل بخيمته في فناء السرادق العمادى ، وقد استكثر من العسكر الجهادى . فكان ذلك المرج بجر أمواجه الخيم والمضارب ، أوسماء كواكبها ما أشرعت من صعباها الكتاب . أوغيل أساده في آجام القنا الفوارس ، أوغدير من السوابغ حبابه التراثك والقوانس . أوسحاب بروقه الصوارم الرقاق ، أووهاد اكامها الصواهل العتاق .

ثم وصل (الملك السعيد علاء الدين خرم شاه^(٢)) ابن صاحب الموصل (عز الدين مسعود بن مودود^(٣)) وهو كوالده مسعود مودود ، وفي شهامته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الأولى يوم الجمعة ؛ بالمحاسن المتنوعة ، والمفاخر الأصلية المتفرعة ، والصنائع المبدعة ، والبدائع المصنعة

(١) معز الدين سنجر شاه : هو ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقستقر ، صاحب جزيرة ابن عمر ، تولى الملك سنة ٥٧٦ هـ ، كان ظالماً قبيح السيرة ، لا يمتنع عن قبيح يفعله ، من قتل وقطع للألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى ، وتمدى ظلمه إلى أولاده وسرمه ، قتل ابنه غازي سنة ٦٠٥ هـ إلا أن غازي قتل وخلفه أخوه معز الدين محمود (أبو الفداء ج ٣ : ١١١ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) علاء الدين خرم شاه : حبيسه أخوه أرسلان شاه المتوفى ٦٠٧ هـ ، حتى مات في حبه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠٠ ط . دار الكتب) .

(٣) عز الدين مسعود : هو السلطان مسعود بن مودود بن زنكي بن آقستقر بن أخي تور الدين محمود ، توفى سنة ٥٨٩ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٣ دار الكتب) .

وجيشه للقوة ضابط ، وجأشه على الحمية رابط ، وبأسه ليد الأيد باسط ،
وجنانه على الكفر ساخط .

وهو شاب أول ما بقل خطه ، وابتهج بكماله رهطه . وكان أبوه قد
عزم على الوصول بنفسه ، واذهاب وحشة الخطب الملم بأنسه . ثم رأى المصلحة
في الإقامة وتقديم ولده المشكور المشهور الشهامة ، فأنهض العسكر المجر معه ،
ثم أتبعه بمن حشده وجمعه . فورد ورود السحاب الكنهور^(١) ، ونور
المطالع بسنى السنور^(٢) ، وأطلع بطلوعه على معنى البأس المصور .

واحتفل السلطان بقدمه احتفاله بقدم عمه ، وحافظ من الكرامة على
توفير سهمه . وأنزله في سرادقه وأضافه . وأهدى له خيله وأطافه . وأمر
بإنزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الأفضل والظاهر ، وضاق ذلك البر
الواسع ببحر العساكر .

ولم يبق في أهل السلطان إلا من اقتدى به في الاحتفال بقدم هؤلاء ،
واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة في الولاء . والمسارعة إلى الضيافة
والإهداء ، والإعادة إلى المكارمة بعد الإبداء .

(١) الكنهور : من السحاب ، قطع كالخيال .

(٢) السنور : جملة السلاح ، لبوس من قد كالدرع ، كل سلاح من حديد .

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل في شكره على

تسيير ولده

الحمد لله الذى نصر الدين بأهله ، وعجل بانصاره جمع شمله ،
ووفق أسد عرين الملك أن يحمي حوزة الإسلام بشبهه . وللمجلس
في طوله اليد الطولى ، والمئة الثانية التى أربت على الأولى . حيث حث همته
العلية ، وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية ، وشرف بولده علاء الدين من
تقلد بوروده أوفى مئة ، وتعجل من وفوده أقوى مئة (١) وأوقى جنة . فلقد
ورد إلى الساحل بجزراً ، وطلع في ليل القساطل بدمراً ، وأسفر لمرتقى صباح
النصر فجرأ ، وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشراً ، وملاً صدر الإسلام أمناً
وقلب الكفر ذعراً .

ثم وصل (زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك) صاحب
اريل ، يوم الأربعاء في العشر الآخر من جمادى الأول ، ذو السماح المؤمل
والمجد المؤئل ، بجيش كالسحاب المسبل . فدرت أخلاف (٢) النصر بحقول
ذلك الحقل (٣) . وورد بكل ورد هني ، وجد سنى . وقدم بكل مقدم ،
وزأرخيس (٤) الجيش بكل ضرغام ، وزأر بكل همام بالنون همام .
ووصل بكل واصل لسبب النصر ، قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد
باليمن الوافى ، والتنجح الكافى ، والعز الصافى ، والعزم الشافى . وطلع
بكل طالع بالسنى ، جامع للمنى ، فارغ بالغنى ، فارك للخنى ، سافك دم
الشرك بالظبا والقنا . وكان هذا أول يوم لقائه للسلطان ، وأحسن إليه
بالإكرام وزاد في الإحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة ، والبشاشة

(١) قوة .

(٢) أخلاف : جمع خلف ، وهو حلة ضرع الناقة والمقصود ، نتائج الخير التى أتاحتها

النصر .

(٣) في ب الحقل والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٨ ى) .

(٤) خيس : غابة الأسد .

والرجاحة (١) . والتودد إلى الناس ، والتشدد بالباس . والتواضع مع الكرم ،
ودنو الود مع علو المم . ماله مبدول ، ونوائه مأمول ، وسيفه على الكفر مسلول
وأمره بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول . وهو مرجو نخشى ، وكريم
مغشى . ومهيب مرجو ، ومحسن بسنى الحمد مجلو . وكان معه خلق كثير ،
في سلك الاتساق ومسلك الانساع نظيم نثير . وأنزل بقرب أخيه مظفر الدين
في الميسرة ، وتمكن الرعب بما تم من الجمع في قلوب الكفرة .

(١) في ب الرجاحة والتصحيح من ل .

ذكر وصول الأسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير أسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميرة ، والعدد الكبيرة . فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ؛ ظهر الأسطول ، وتم بظهوره النصر المأمول . فركب السلطان في جحافلته ، وسدد سهام الردى إلى العدو ومقاتله . وأحرق به حول خنادقه ، ليوسع عليه الهلاك في مضايقه . وليشغل الفرنج عن قتال الأسطول ، ويسهل عليه بتشاكلهم طريق الوصول . فعمر الفرنج أسطولا ، وصف شوانيه على البحر عرضاً وطولا . وقدر أنه يلاقى الأسطول المنصور ، ويحظر (١) بسد الطرق عليه وصددها العبور . فجاءت مراكبنا ونطحت مراكبهم وطحتنا ، وأوهت منها (٢) وأوهتها . وأخذنا لهم مركباً ، وأخذوا لنا مركباً ، وكان تقصير الرؤساء في حفظه لأخذه سبياً . واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمس ، وعاد المسلمون ببحور القلب وسرور النفس . وقتل من الفرنج عدة وافية ، وكلاءة الله لنا ولأصحابنا واقية .

(١) في ب يخطر والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٩ى) .

(٢) في ب وأ (٢٢٩ى) والذي يتفق مع السياق والمعنى التصحيح المذكور من ل .

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها الصورة
وتكشف القضية المستورة وهي

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني ، وهناه من النجح
السني ، وأجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني .

وذلك بوصول الأسطول الثاني المصري المنصور ؛ ظهر يوم الخميس
متظاهراً بإمداد الظهور ، متوافراً بوفود الوفور ، ودخوله سالماً غانماً إلى
ثغر عكاء المحروس المعمور ، فأثرى (١) البلد بعد إنفاضه ، واجتمع إليه مدد
القوة بعد انفاضه . واستجد جلة وافية ، وعصمة واقية ، وذخيرة كافية .

وكان الفرنج عند وصول أسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها ، وأبرزت
مناكبها ، وحثت بالرجال والعدد جوانبها ، وسمنت غواربها ، ورفعت
هضابها وهواضبها ، وسحبت على ثبج البحر سحائبها ، وأدبت إلى عقبان
أساطيلنا المحلقة بعقابها ثعابينها وعقاربها ، وظنت أنها تستطيل على رواسي
أساطيلنا بسواربها ، وأنها تواجه عرائسها المجلوة بيجور جواربها . فلما جاء
الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل
تركيب تلك المراكب ، وحطت تلك المناكب بما أحاط بها من النواكب .

وخرج الأسطول الأول من الثغر مستبشراً بدخول الثاني ، واجتمع شمل
الشواني بالشواني . وتفرقت سفن العدو شذر منذر ، وعذر حين ذعر فحذر .
وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها ، ووجدت فيها عدة من الرجال
المقدمين والنساء فأسرتها ، وكانت الفرنج حملت فيها تجائر وذخائر تطاب
ربحها فحسرتها .

(١) في ب فائر والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٩ ى).

فصل آخر

وصل الأسطول ظهر يوم الخميس ظاهراً خميسه ، نائراً بالأسد عريسه .
في شوان للعدو شوائن ، وشلنديات (١) لشله وقله ضومان . وحراريق
لأهل النار بناها محرقة ، وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين
محلقة . وسواري هواضب كرواسي هضاب ، وسحاب بواتق كبورق
سحاب .

من كل مركب للنصر مركب ، ومفرد من الشدة والبأس مركب .
وقطعة لنياط قلب العدو قاطعه ، وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة
في ذروة العزة تليعة ، وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة . وجاءت في البحر
أمواجاً في الأمواج ، ودخلت إلى الثغر أفواجا بعد الأفواج .

وكان العدو قد أبرز أباطيله ، وجهاز أساطيله . وشب عواديته ودواعيه ،
وأدب عقاربه وأفاعيه . وأسمى مناكب مراكبه ، وجد في إمهاء غروبه
وتسليم غواريه .

ولما وصل الأسطول طال وصال ، ولاح للعدو صده بحيلة من حال
فحال ، وامتنع مراده واستحال . وأخذ الأسطول من مراكبه الكبار ست قطع
قطعت أسبابها ، وقصمت من عبدة الصليب أصلا بها ، وخيبت حسابها .

(١) شلنديات : يفهم من السياق أنها نوع من السفن الكبيرة .

فصل

وصل الأسطول إلى البلد، مستطيلاً بالجلاد والجلد . وأثرى به الثغر بعد الانقراض ، واجتمع به شمل الرجاء بعد الانقراض . ودخل إليه ما خرج عن حد الحصر، من ذخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق رياضاً، والمراكب الإسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضاً . ووافت ووفت فاعادت جواهرها مراكب العدو أعراساً .

وجاءت سواريتها كالرواسي ، وجواريتها محكمة المراسي . ومن شأن شوانيتها شن الغارات على الشناة ، ومن عادة شلندياتها شل أندية العداة . ومن شيمة حراريقها (١) شيم بوارق البوائق لإحراق أهل البئر في الماء ، ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء الإرداء . من كل جبل يمر مطار السحاب ، وضامر يشد شد العراب ، وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب ، وغراب ناعب في أعداء الله يبين الاحباب ، وهضبة موفية على الهضاب ، وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب .

وما أحسنها وقد زفت عرائس ، وجلت أوانس ، وطلعت بأهل الإيمان بواشر ، وعلى أهل الكفر عوايس ، وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا وجه البحر من سفن الضلال ، وتخلص مالها من الضلال . ولما شوهد الأسطول ساطياً ؛ وجيد النصر منه عاطياً ؛ وأخذ البحر من الأعداء بحقه ؛ وأشرق سنى التنجيج في أفقه ؛ ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال ، وزحف الرجال إلى الرجال ، والتقى الأبطال بالأبطال ، وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال . واحمرت البيض الظامثات ورويت من نجيع الزرق ، وبشرت جياح العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح ، وفكهم القتل والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات ، وبطل بطلهم بما أئخنته من الجراحات ، وبات المسلمون واقفين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات ، وأدرك المشركين ما فاتهم من الآفات .

(١) حراريق : السفن الكبيرة فيها مرابي نيران لرمى العدو .

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج. وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج (١) وأنه وصل يجمعه إلى مضائق صعب عليه منها العبور ، وعمهم في نهضاتهم العثور . فقيل لهم أقاموا في قفار ومواضع شهراً ، عدموا فيها الطعام ولم يجلدوا بها إلا ضراً . وكان التركمان الأوجية (٢) على طريقهم يمتعون بغريهم من تشريقهم . فاضطروا إلى المقام بغير زاد ، وهم في جهد وضرواجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها ، ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها .

فترجلت منهم ألوف ، ورغمت أنوف . وكان ذلك في البرد الشديد ، وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا ، وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواباً لحمل الأثقال ، وقتل عدد الرجال . فدفنوا وأحرقوا منها ، وتركوها وسلوا عنها ، وكان ذلك من الله لطفاً ، وأمست قوتهم ضعفاً .

وكانوا في خلق لا يعد ، وجمع لا يحد . فما أثر فيهم ذلك النصب ، ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازوا يسرون والأوجية تبدى إليهم اللوبال في أوجها أوجها ، والافرنجية لا تنتهي حتى تبلغ إلى مالها من منتهى . حتى بلغوا إلى بلاد (قليج أرسلان بن مسعود) ومسلكتها دونهم غير مصلود ولا مسلود . وقليج أرسلان محكوم عليه من ولده (قطب الدين ملكشاه) (٣)

(١) الملتبس : المختبط .

(٢) تركان الأوجية : أو الأوج : صنف من الأتراك الخزلية فيما وراء سيحون ، يسكنون قرية صغيرة (ياقوت ج ٣ : ٧٦ ط . ب) .

(٣) قطب الدين ملكشاه ؛ هو ابن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلش السلجوقي ، كان مقوماً بيسواس ، وحينما أصيب أبوه بالفالج تقدم إلى قونية ، وأخرج له أبوه عسكره فكسره ويدد شملهم ثم نقل أباه مكرهاً إلى قيسارية ، ووقع له معه أمور أخرى ، وقد عهد أبوه إلى أخيه غياث الدين بالملك دونه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٨ ط . دار الكتب) .

وهو يدبر أمره ويتولاه ، ويسومه الإكراه . فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم ، وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجازهم . ثم اندفع من بين أيديهم . وتعدى عن جانب تعدبهم .

ودخلوا قونية (١) دار ملك السعودية . واعتصم قليج أرسلان بقلعتها المحمية ، وتراسل هو وملك الألمان واتفقا في الباطن على ما كان بينهما من المواثيق والأيمان . وحمل ملك الألمان له وفرأ وافرأ ، وأشبهه المسلم بالكف عن الكافر كافرأ .

وواقفه على العبور إلى الأقاليم الشامية ، والبلاد الإسلامية . وعلى أنه يسير في بلده إلى بلد ابن لاون (٢) ، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمراءه ليكونوا معه حتى يصل إلى المأمن رهائن . وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه ، وأن يعاوضوهم من الخيل والعدة بما يرومونه . وأقام لهم الأسواق ، وعرض عليهم الأمتعة والأعلاق . فساروا في رفه ورفق ، وتقربلاتوق .

فلما وصل الملعون إلى بلاد الأرمن غدر بالرهائن ، وساقهم محمولين مع الطعائن . وتناول عليهم بأن التركان سرقوا منهم في طريقه ، ونكث جميع موثيقة . ووصل (ليفون بن اسطفانة بن لاون) مقدم الأرمن إلى خدمته ، ودخل في طاعته ، وكان بمفرده خالياً من عسكره بمجردة . وذلك في طرسوس (٣) فتمكثوا بها ليربجوا بها النفوس .

وقيل عن كلب الألمان أن يسبح في النهر ، ويميط عنه ما عراه من الوضر والضر . وكان شيخاً مسناً قد عاد لكبر سنه شناً (٤) . وحسب أنه إذا

(١) قونية : مدينة كانت من أعظم مدن الإسلام (بآسيا الصغرى) (ياقوت ج ١٦ : ٤١٥ ط . ب.) .

(٢) ابن لاون : هو ليون الثالث صاحب أرميلية (مفرج الكروب ج ٢ : ١٠٠ تحقيق د . الشيال) .

(٣) طرسوس : إحدى مدن آسيا الصغرى وكانت ثغراً على ساحل البحر الأبيض المتوسط (ياقوت ج ١٣ : ٢٨ - ٢٩ ط . ب.) .

(٤) شناً ؛ قديماً . يقال شنت القرية أى خلقت وييست .

سبح سحب ذليل الاستراحة ، فكان موته في تلك الراحة وهلكه في تلك السباحة . فإنه عام في الماء البارد ، وتورط منه في أصعب الموارد (١) . وخرج وبقي مريضاً إلى أن خرج من ثوب البقاء ، وتمحول إلى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية ، وحملوه إلى نار الله الحامية . وسمعت نصرانياً يقول في معناه : « كنت معه لما سلك فهلك ، وأعجله مالك النار عما ملك . وذلك أن النهر ما كان فيه إلا عبر واحد ، والعسكر فيه مزاحم متوارد . فقال ملك الألمان : هل تعرفون موضعاً يمكن فيه العبور ، ويؤمن فيه العبور . فقال له واحد : ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ، ولا يعبر فيها إلا واحد بعد واحد إذا تثبت واستظهر » . فبدر إلى تلك المخاضة ، ذات البحرية الفياضة . ودخل الماء فطغى على ذلك النارى الطاغى ، وأعجل ذلك الباغي عن المباغى . ورماه في جريانه إلى شجرة شجت جبينه وجنت جاشه ، وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه . فتبعوا في إخراجة ، وأيسوا من علاجه . ومات عدو الله شر ميتة ، وبلى شمله بتشتيته ، وحبله بتبتيته .

وخلفه ولده على خلف من أصحابه وأجناده (٢) ، لمكان الولد الذى خلفه في بلاده . وقيل لإنهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه ، وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه ، وراموا بذلك إكرامه وإعظامه . ليحملوه إلى كنيستهم بالقدس قمامة ، ويدفونه على ما كان أوصى به ورامه . ولما عرف ابن لاون بهلاكه ، وسكون حراكه ؛ وما جرى من الإختلال والاختلاف بموته ؛ وأنه لانتلافى لما فرط من تلفه وفوته ؛ فارقهم إلى بعض قلاعه ، واتصل الضر بهم لانقطاعه .

ووصل كتاب من الكاياغيكوس صاحب قلعة الروم يرغب ويرهب ويرق ويرعد ، ويقول ويعدد ، ويدهده ويهدد . ويرى أنه ناصح ، وللقصة شارح ، وأن الأمر واضح ، وأن الخطب فظيع فاضح . وأن هذا

(١) في ب الموارخ والتصحيح من ل ومن ا (٢٢٢) ي .

(٢) في ب أحاده والتصحيح من ل .

الملعون أول ما خرج من بلده ؛ أوصى فيه إلى ولده . ثم جاء إلى بلد المنكر (١) فدخله غضباً ، وأوسعها نهياً . حتى أذعن له وانقاد ، وباغ بطاعته المراد وأنه أخذ من ماله ورجاله ما اختار ، وتزود من عنده وامتار .

ثم وطىء أرض ملك الروم وداسها ، وتوسط ديارها وجاسها ، وفتح بلادها ، وملك قيادها . وأحوج ملك الروم إلى طاعته ، وأرمله بما دخل في استطاعته .^٢ وأخذ منه من الذهب خمسين قنطاراً ومن الفضة خمسين ، ومن الثياب الطلس المعدنية ما باع الألوف وتجاوز عن المثين . وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خالصاته ، ومعروف كبرائه . وأخذ كل سفينة غضباً ، وسحب على ذلك البحر في التعدي من مراكبه سحياً . وأنه لما عبر وفرغ من الخروج ، تلقاه بالخييل والدواب والأبقار والأغنام (تركان الأوج) . ثم وقع بين التركان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوماً يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون ، وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من (قونية) فاعترضه قطب الدين ولد قليج أرسلان ، والتي الأقران بالأقران ، وهزمه ملك الألمان .

ولما أشرف على قونية خرج إليه جموعها ، وطلت إليه بالحرب بوعها (٢) ، ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها ، وأنه هجم على قونية عنوة ، ونال منها حظوة . وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج أرسلان قاعدة أكيدة ، وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة . وأخذ منه رهائن عشرين ، من أكابر دولته المميزين .

وقدم كتابه إلى ابن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقيه بما أعده لإرفاده . ونزل حين وصوله إلى طرسوس على بعض الأنهار . ونام ساعة بعد تناول الطعام ، ثم انتبه وتشوق إلى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضاً ، وتشكى أياماً قلائل مضضاً ، ثم قضى وانقرض أربه وانقضى . وخلفه ولده بعده واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصداً للقاء أبيه ،

(١) بلد المنكر : يقصد بلاد هنغاريا أو المجر الحالية (مفرج الكروب ج ٢ : ٣٢٠ تحقيق

. الشيال) .

(٢) البوع : الباع والمقصود بأنه طالت إليه بالحرب أيادها .

قلما عرف موته وجلوس ولده ، اضرب عن تلقية . وعرض عسكريه في
اثين وأربعين ألف مجحف (١) ، من كل سرخان أهرت (٢) وذنب
أغضف (٣) . وأما الرجاله فلكثرهم تعذر العرض ، وغص بهم طول
الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت لبئدس ، وهجر وا
الثياب ، ولزموا المصاب ، وداوموا الأكتئاب . وهم صهارون على الشقاء
والتعب ، لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار ، اضطربت الديار ، وارتاعت الأنجاد
والأغوار . وقالوا : وهذا جانب لا يطاق ، وأى جانب قصده عنه لا يعاق .
ولاشك أنه يتوسط بلاد الشام ، ويثلث ثغور الإسلام ، ويشغلنا عما نحن
فيه من هذا الاهتمام .

وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد ، وصدهم عن القصد .
ثم ثبت على رأى الثبات ، وتنتظر الأوقات بما يتجدد من الحادثات .
وتقلقت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم ، وأنه يعود كل منهم إلى
مكانه أخذاً بحكم الحازم .

فأول من سار (ناصر الدين محمد) (٤) - ولد الملك المظفر صاحب

(١) مجحف: أى لابس التجفاف وهو آلة حريرية يتقى بها كالدروع ، وتستعمل للإنسان
والحيوان .

(٢) السرخان : الأسد . أهرت : واسع الشقين .

(٣) أغضف : مسترخى الأذن .

(٤) ناصر الدين محمد : هو الملك المنصور ، ابن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه
ابن أيوب ، كان شجاعاً عالماً يحب العلماء ، وكان في خدمته منهم قرابة ٢٠٠ عالم ، وله مصنفات
مثل : المضارفي التاريخ ، وحلقات الشعراء ، وكان معنياً بممارسة بلده والنظر في مصالحه ، وكان له
من البلاد حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم كما فتح بارزين ، توفي بقلعة حماة سنة ٦١٧ هـ -
وخلفه ابنه الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان ، (جاء في النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٥٠ ، أن
وفاته كانت سنة ٦١٨ هـ) . (أبو الفداء ج ٣ : ١٢٦ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

منيج (١) ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج (٢). ثم (عز الدين بن المقدم) الباسل المعلم . ثم (مجد الدين بهرامشاه) (٣) صاحب بعلبك ، ليجمع ويأخذ على العدو المسلك . ثم (سابق الدين عثمان) - صاحب شيزر ، الليث المهام القصور . ثم (الياروقية) أسد الهياج ، ونجوم ليل العجاج . ثم رحل (الملك الأفضل) وقد عرض له ألم ، ثم (بدر الدين) والى دمشق وقد ألم به سقم ، ثم سار (الملك الظاهر صاحب حلب) - لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر ، ونحوف الناس فيه أنهم على الخطر . حتى غلت الأسعار واستعرت الغلة ، وختلت الأماكن وتمكنت الخلة .

ثم رحل (الملك المظفر تقي الدين) لحفظ ثغر اللاذقية وجبله ، ويشت بقدمه عليها الرعية الخائفة المجفلة ، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة .

ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما ، ولحفظ الثوب في اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل إليها ، وجاء إلى منزلة الملك المظفر ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام ، واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم ، وألم بالعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافية ، مستعقبا لألطف الله الواقعة الوافية . ووقع المرض في الفرنج وكان المييد (٤) المير ، والمدني لأصحاب السعير . السعير . وعم فيهم الموت والوبا ، وكثر عن نبواتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية وهدم پافا وأرسوف وقيسارية وهدم سور صيداء وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت .

(١) منيج : بلد قديم بين القرات وحلب كان حاضرة المواسم أيام الرشيد (ياقوت ج ٨ : ١٦٩ - ١٧١ ط.ب.) .

(٢) يرهج : يهيج بعضهم على بعض .

(٣) مجد الدين بهرامشاه : هو ابن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، كان صلاح الدين أعطاه بعلبك عند وفاة أبيه سنة ٥٧٨ هـ فأقام فيها ٥٠ سنة حتى حصره الملك الأشرف موسى بن العادل . أبي بكر بن أيوب وأخرجه منها ، وساعده عليه ابن عمه أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، فانتقل الى الشام وسكنها حتى قتله بعض مماليكه غيلة ، كان فاضلا شاعرا فصيحاً كاتباً ، واه ديوان شمر كبير (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٧٦ ط . دار الكتب) .

(٤) في ب المييد والتصحيح من ل ومن أ (٢٣٥ ي) .

عاد حديث ملك الألمان

وأما ولد ملك الألمان فانتحس ، ومرض أيا ما في بلد الأرمن واحتبس .
وهلك أصحابه جوعاً ، ومنهم من عزم رجوعاً . ووقع الموت في خيلهم ،
فأذن لهم بقلوص ذيلهم . وقدم الملك لمرضه ؛ والتياث جوهره بعرضه ؛
جموعه قدامه ، وساروا أمامه . وخرجوا لكثرتهم في ثلاث نوب ، في
بيض وُسمر ويئض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير ،
غير عارفين بطريق ولا متحفظين في مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم ،
ويتألفون عن مسالكهم ويتلفونهم .

ووصلوا إلى أنطاكية ووصل إليها الملك ، بعد أن ضاق به ويجمعه إليها
المسلك . وضاق به الابرنس صاحب أنطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده
مطعماً ولا مرعى . وطلب منه القلعة فأخلاها له ونقل إليها ماله وأتقاله .
وسأله أن يجعل طيقه على حلب فخاف ، وأبدى له الخلاف . وقبل وصوله
إلى أنطاكية فلت جموعه وجنوده ، وبلت بجشد الركبان حشوده .

واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس ، فلقبت البوس والباس .
وخرج رجالها عليهم (١) على قلتها ، وصدتهم ببسالتها . وأسرت منهم
زائداً على مائتين ، وطمعت فيما وراءهم من الفئتين . وقيل : إنهم حسبوا
أن بغراس باقية بحالها مع الداوية ، فجاءوا إليها سحراً بأحماهم وأمواهم
السنية . (فلم يشعروا إلا بالبغال على الباب واقفة) (٢) ، والجنى دان
يرقب أن يكون له أيد قاطفة . فخرج إليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ،
وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال . ولم يرجوا على حرب . فاستغنى
الوالي من ذلك اليوم ، من مال القوم . ثم أنكر حتى لا يطالب بشيء منه ،
وغفلت الأيام عنه .

(١) في أ (٢٣٦ ش) الهم والمذكور في ب ول .

(٢) في أ (٢٣٦ ش) فلم يشعروا إلا بالبغال عليها واقفة . وما ذكر في ب ول .

وذكر (الأمير علم الدين سليمان بن جندر) في كتابه ؛ أنه أنهض جماعة من أصحاب أمراء حلب وأصحابه ؛ ليقتفوا آثارهم ، ويكشفوا أخبارهم . فوقعوا على خلق عظيم منهم ، فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضا (١) البزاة على الحجل (٢) ، وزأروا فيهم زئير الأسد في النقاد (٣) وزاروهم بالأجل . وأسر كل واحد من أصحابنا ثلاثة وأربعة ، وتركوهم متمزقة متمزعة . وعادوا بالأسارى إلى حلب وباعوهم في الأسواق ، وامتلاّت بالأسلاب منهم والأعلاق . قطابت قلوب الرعايا ، وأنتست من الله بما ظهر من أظافه الخفايا . وطمع فيهم أهل القرى ، والتقطوهم من الوهاد والذرا . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس إلى أنطاكية ، وأراح من آلامها الألمانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوباً ، وصب عليهم العذاب صباً إذا أخذوا صوباً . وهلك بأنطاكية الكند الكبير مقدم العسكر ، وتبعه إلى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس بتلك الأموال المجتمعة ؛ واللخائر المودعة ؛ حتى قيل إنه إنما غرب في الوصول إلى بلده ؛ ليحصل على سبده (٤) ولبده . فأخلى له قلعته ، لينقل إليها خزائنه . ففعل وما رجع إليها ، واحتوت يد الابرنس عليها .

ثم ساروا على طريق الساحل ، بالفارس والراجل . وخرجت عليهم خيل جبلة واللادقية ، وسقتهم كثوس المنية ، وألقتهم على البوس والبلية . فأغذوا في السير حتى وصلوا إلى طرابلس وقد نقص نصفهم ، وتمبعوا صف البلاء نصفهم ، وبلغ أمدهم وانتهى مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق ، لما لقيت جموعه في طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على ألف ، برعب قلب وقصور يد ورغم أنف . واختلط مع الفرنج على عكاء فسقط اسمه ، وسخط حكمه . وهلك بعد قليل ، ولم يحظ بتقاع غليل .

وسألم بذكر حالاته في مواضعها ، وذكر مصارف جماعته ومصارعها .

(١) في ب الانقضا والتصحيح من ل ومن أ (٢٣٦ ش) .

(٢) الحجل : طائر في حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين وهو يعيش في الصرود العالية ويستطاب لحمه .

(٣) النقاد : جمع نقده ، وهو جنس من النعم صغير الأرجل .

(٤) السب والبد : الشعر والصوف والمباراة كناية عن الحصول على كل شيء فيه .

وكتبت إلى الديوان العزيز فصلا
بخبر ملك الألمان عند ارعاب الارجاجف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء ، والغمة الغماء ، والنكبة النكباء ،
والشدة الدهماء ، واليلة الليلاء . وهي أن ملك الألمان ومعه ملوك الافرنجية
وحشودها ، وقوامصها وكنودها ، وأحزاب الشياطين وجنودها ، وألوية
اللأواء وبنودها . وصل جاراً على السماء ذيول قتامة ، مجرباً في الأرض
سيول لمامه . نائراً بأطلابه لطلاب ثاره ، سائراً بخيله ورجله كالسيل إلى
قراره .

وأنه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلبة ، وأتباع شياطين لإرضائها
متغضبة(١) ، وأسراب سراحين على سرح الإسلام متوثبة . وأنه في مئين
من الآلاف الألاف تلمنون ، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائرسوها رحي
الحرب الزيون (٢) . وقد أوقلوا للشر شرارا ، وأضرموا للشرك الداعي
إلى النار نارا . فان حسرتهم على (قُمامتهم) دائمة ، وقيامتهم قائمة .
والموت يدعوهم إلى المقبرة التي يدعونها . والآجال تليهم لمناياهم التي
يدعونها .

وكان خبر وصوله متداولاً على السنة الأراجيف ، وتشيعه أعداء الله
من قبل للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الإسلامية للتوجه إلى
بلاد الروم في الربيع ، ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع
باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبر صحيح، ويقين نبأ بأمر صريح . حتى
إذا صح الخبر ؛ سار العسكر . ثم انقطعت الأخبار ، وتمادى الانتظار ،
ومضت شهور الربيع آذار (٣) . ونيسان(٤) وأيار (٥) .

-
- (١) في ب متغضبه وفي أ (٢٣٨ ب) متعصبة ، والمذكور وهو أنسب للسياق من ل .
(٢) الزيون : الشديدة التي يدفع بعضها بعضاً من الكثرة .
(٣) يقابل شهر مارس .
(٤) يقابل شهر أبريل .
(٥) يقابل شهر مايو .

وكانت كتب سلطان الروم قليج أرسلان وأولاده - ورسلمهم متواصلة بما ينبغي عن التعاضد ، وبينى أمر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد . وهم بإنهاء ما يصح عندهم واعدون ، ويزعمون أنهم في رد الواردين ولردائهم مساعدون . فأخلف ذلك الوعد ، وضع ذلك العهد . ووصلت كتبهم بغتة في هذا الأوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان .

وقالوا : انهم قد توسطوا بلاد الإسلام ، ولأنهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بأنهم صالحوهم وصانعوهم ، وأخلوا لهم الطريق ووادعوهم . ووسعوا لهم في المضائق ، وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباعث فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاضم ضرره ؛ وتفاقم خطره ناكث .

وقد تعين الجهاد على كل مسلم ، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهّم القروض ، والخادم منفرد في حمل عبء هذا القادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه ، وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتسقى ويتسع به سلكه ومسلكه - إن شاء الله .

فصل فيه في جواب أمير

عرفنا خبر العدو المشنوم ، الواصل من جانب الروم . وهذه هدية
أهداها الله إلينا، وفضيلة خصنا الله بها . حيث أقامنا في مقابلة أعدى أعدائه ،
وأقلدنا على مقاتلة من نازعه في كبريائه . وقد ساقهم الموت إلى المقبرة التي
يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولا يدعونها . ومعاقبنا بحمد الله
قوية ، وصوارمنا من دماء أعداء الله روية . فيجب أن يكون في جميع
أموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من أسلابهم وأشلأهم اغتباطا .

فصل من كتاب الاستنصار

قد عرف أن العدو الألماني المخنول قد وصل فما لعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصره الإسلام من ثمر السعادة مجنى . وهذا وقت نهوضه يجمع أهل بلاده ، وأوان بذل وسعه وجدته واجتهاده . فإنه محض لا يغيب عنه إلا من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يقى بعهد الله فيه من سبق له معه في السعادة ميثاق . وإنها لغنيمة أوفدها الله علينا، وهدية أهداها الله إيانا ، وفضيلة خصمتنا الله بها، وأسعدنا بسببها . بل هي بلية جلا وجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله فى النجاح بموعد توافيها . بل ملمة اختارنا الله لدفعها ، وطاغية استدعى أوليائه لقمعها ، ونائرة كلفنا الله بإطفاء جمرها واردة جمعها .

فلينهض نهوض الكريم إلى مساعدة الكرام ، وليخطب اهتمام العظيم بمسألة الخلوب العظام ، وليثب وثوب الأسد على الفريسة ، وليتخ للإسلام انتحاء ذوى الأنفس الأبية والمهم العلية النفيسة .

وليكن أول سابق فى مضمار الجدد ، وأسعد طالع فى أفق الجدد . فإن الإسلام فى انتظاره ، والمطالع مستشرقة إلى إشراق أنواره . لا زالت الأقدار جارية فى إسعاد الدين والدولة بإقذاره .

فصل من كتاب

قد أحاط العلم بما عرا من الملم ، وعرض من الخطب المنظم . ووصل من العدو الثائر (١) ، ونزل من النازلة التي هي أمّ التوازل ، والدائرة التي هي أمّ الدوائر . وقد آن للإسلام أن يُسلم ، وللإيمان أن يُعتم ، وللتلثيث أن يُعلن ، وللتوحيد أن يُكتم ، وللكفر أن يقدم ، وللهدى أن يحجم .

فقد قذف البحر من الفرنج بزبدته ، والبرد أتى أتيته من كل بلد للكفر يسبده ولبده ، ووصل الألماني - المختول - يعدده وعدده . وهذا خطب قد دهم ، وعلو قد هجم ، وشر قد نجم . وجمر داهية قد قد ، وجمع طاغية قد وفد . في جيوش جائشة ، وجموع طائشة . وجنود محشورة ، وبنود منشورة ، وخيول مُجفجة ، وسيول مُجحفة .

وهذا أوان تحرك ذوى الحمية ، ونهوض أهل المهمة الأبية العلية . فإن القوم في كربة ، ولا يقاثلون إلا بالكثرة . وهم مغترون بعلوهم ، معززون بعنومهم . مستنون في طريق العثرة . والسيل إذا وصل إلى الجبل الراسي وقف ، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر لمنكشف : والمجلس أولى من تولى تفريغ هذه الغمة ، وكشف هذه الملمة . حتى تُخلف أمانى الألماني ، وتُبطش أيمان الأيماني ، وتُخذل أنصار النصراني ، وتُجنى وتبز رؤوس الجنوى (٢) والبيزاني (٣) .

فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين ؛ وأين المهتلون في نهج الرشاد المتبين ؛ وأين المسلمون ؟ - وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين ! وأين المقدمون في الدين ؟ - ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين ! ولولا التقيد بهذا العدو الرابض ؛ لأطلقت أعتة النهضة إلى العدو الناهض . ولا يد من لقاته قبل تلتقى الجحيمين ، وإراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

(١) في ب السائر والتصحيح من ل .

(٢) الجنوى : أى من أهل جنوا بإيطاليا .

(٣) البيزاني : أى من أهل ييزا بإيطاليا .

فصل فيه

قد سد طريق القلق فيلقه الطارق ، وزحف إلى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب(١) ، وثار لثار الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه ، ورتق فتق الصبح رقع تقعه . وما فض القضاء ختام قتامة ، حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه ، والرجاء محقق أن الأملاني محقق يلائمه ، والإسلام مشفق من إسلامه ، والدين موفق بنصرة إمامه ، وعصمة الله الراقية الوافية من ورائه وأملمه ، والله الكافل بإعلاء أعلامه ، وإحكام أحكامه .

(١) الوجيب : الذي ينفق القلب ويحمله يشطرب .

ذكر الواقعة العادلة

كان الفرنج لما صحّ عندهم وصول ملك الألمان إلى البلاد ، وأنه ملاءُ أحشاء الربا والوهاد بالأحشاد ، قالوا إنه إذا جاء لا يبيق لنا حكما ، والصواب أن نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما ، لا سيما وقد خفت عساكر الإسلام ، وقفل أكثرها إلى الشام . فنحن ننتهز الفرصة ، ونحرز الحصّة ، ونهتبل الغرة ، ونهجم عليهم هذه الكرة ، ونذيقهم المرة المرّة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم ، ونمت بجز العزائم ، ونقل حدودهم بجلود الصوارم .

فخرجوا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة ، في حشر يذكر بمحشر الساهرة (١) ، واسود بياض النهار من سوادهم ، وتراءت الآجام لنا متوافية بأسادهم . وامتدوا إلى الخيم العادلة ، واشتدوا بما استصحبوه من البلية . في كل ذئب أمعط (٢) ، وسيد قد تورط . وسرحان سرح ، وافصوان كلج . وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي أقدم وما أحجم . وسعيري نارى استعار حذمة (٣) النار . وسقري قسورى عاد بعادة الاقتسار (٤) ، وبارونى طالب للبوارج ، واسبتارى راغب فى التبار (٥) . وداوى معضل الداء ، وتركبولى غيرتارك للبلاء . وسرجندى (٦) كرار ، وفريرى غير فرار ، وفارس يفرس الرجال ، وراجل يرجل (٧) الفرسان الأبطال . وأزرق

(١) الساهرة : يعنى الأرض التى يبداها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .

(٢) سقط شعره .

(٣) شدة اتقادها .

(٤) القهر

(٥) التبار : الاملاك .

(٦) سرجندى : يفهم من السياق أن المؤلف استعمل الكلمة الفرنسية *sergent*

لدلالة حل معنى جاويش ويقابلها فى اللغة الإنجليزية *sergeant*

(٧) فى ب وواجرجز ، وماذكر من ل ومن أ (٢٤١ ش) .

زرقة الموت الأحمر ، وأنمشى (١) يمشى واليوم أغبر . وأشقر وهو أشقى ، وأبقع إذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى .

ودخلوا الحيم العادلة وتجاوزوها ، وقد كانت أخليت قبل أن يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه ، وعن يمينه ويساره أمراء الميمنة الذين بقربه ؛ مثل : صارم الدين قايمز النجمي وعز الدين جرديك النوري وجماعة من المعروفين بالشهامة ، الموصوفين بالصرامة .

ولبت الملك العادل لبث المخادع المخاتل ، حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الأطماع إلى الانتشار ، وأفضى بهم الاعتزاز إلى الاغترار . فحيتئذ بدأ بالحملة ولده الأكبر — شمس الدين مودود ، وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجلود ، فعضده والده ، وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر ، قبل أن يتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشتهم على الأرض ، وذكّرت الواقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض .

وكانوا قد بدعوا أكثر من فرسخ ، وأجفلوا ولم يلتفت أخ إلى أخ . وركبت العادلة أكتافهم ، وقلّوا فيهم أسيافهم . وعقروهم وعرقوهم (٢) ، وبجّوهم (٣) وبمعجوهم . وحكموا في الرقاب الغلاظ منهم الرقاق ، وضربوا بمن أعنقوا إليهم الأعناق . وأشبعوا اللثوث من لحوم اللبوث ، وبثوا بعوث المنية في تلك البعوث ، حتى رتعت في كلاً الكلى صوار الصوارم ، وأرعد وأبرق بصواعق بواتقهم غمام الغماغم . وتعلقت بنواتبهم ذوائب الذوابل ، ووصلت بهم إلى النجاح منى المناصل .

فلم تترك اللهاذم لما ذمّاء ، وغادرها شأها بالعراء أشلاء . ورأيناها كأنها أعجاز نخل خاوية ، وما أحسن أجسام أهل الهاوية وهي هاوية . فكم جثة بلا راس ، وبنية بلا أساس . ونحّر قد نحّر ، ودم قد أنهر . ويد قد

(١) أنمشى : ذو النش وهو نقط يبيض وسود أوبقع في الجلد تخالف لونه .

(٢) عرقوم : أي أزالوا لحومهم عن عظامهم والمعنى آت من عرق العظم : أكل مالمه

من لحم ، أخذه كله .

(٣) بجّوم : طنوم وشقوم .

بقتت ، وكبدت قد فتت . وعتق قد قطع ، وأنف قد جلع . وودج (١) وجد
مفرياً ، وظهر قد ظهر مبرياً . وحلقوم قد حلق ، وغُلصوم (٢) قد فرق .
وداوى قد دوى ، وبالدلم روى . وصليبي كسر صلبه وقُليب على صدره
قلبه ، وحرى أتاه الحرب ، وغرب في نبع عينه التبغ والغرب .

وكان السلطان قد ركب ، وخشى أن جانب الميمنة نكب ، وسير جماعة
من كماء الممالك والأمراء على مقدمته ، وانتظر المسيرة لتنهض في خدمته .
فوصل إلى الوقعة سنقر الحلبي في العصابة العزيزية ، وفاز من الغزوة بالحظوة
السنية . وجاء علاء الدين ابن صاحب الموصل في أثناء المعركة فعرف بركة
سرعة تلك الحركة ، لأنه أخذ حظاً وافراً ، ولقي من النصرة وجهاً سافراً .
وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال المسيرة أحد ، ولم تمتد منها إلى
إلى قتال الكفرة يد .

ووصل السلطان وشاهد من مساة الفرنج ماسره ، وعرف لطف الله وبره
ونصره . وعابن هنالك مصارع الأعداء ، ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين
في مدى فرسخ على الأرض ، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى
البحر بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل ، وشاع القتل من الفرنج
في كل قبيل .

ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين وأمراء المسيرة قد
عزموا على الدخول إليهم والمجوم عليهم . فلإنهم ندموا على ترك الإسراع ،
فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب القتلك بهم والايقاع . فصددهم السلطان
وردهم ، وشكر عزمهم وقصددهم . وأشفق من مضرة تشوب ، ومعرفة
تنوب . فإن الدائرة كانت على العدو ، وقد فاز بالنصر الحلو والصفو
المرجو .

وكانت النوية بلا نائية ، والغزوة بلا شائبة . وقتل منهم زهاء عشرة
آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة ، فاغتنمها تجارة رابحة

(١) ودج : عرق الأذع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى منه حياة .

(٢) الغلصوم : هو الدم بين الرأس والعتق .

وغنيمة ميسرة . ولما عرفت بالواقعة ؛ والنصرة الجامعة ، صدرت ثلاثين أربعين كتابا بالبشارات ، بأبلغ المعاني وأبرع العبارات . وقلت « إذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة ، ولأرى البشائر شائرة » .

وركبت أنا والقاضي بهاء الدين بن شداد ، لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى واجساد . فما أعجل ما سلبوا وعروا ، وفرّوا وفرّوا . وقد بقرت بطونهم ، وفتت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة ، وسمعتها وهي خامدة بالعبرة قاتلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ؛ ونفكر فيهم ونعتبر ؛ حتى ارتدى العشاء بالظلام ، فعدنا إلى الخيام . وأخذت الكتب التي تمقتها ، بالبشائر التي حققتها . وجئت وإذا السلطان قد استبطاني ، وعدم إجابتي لما دعاني . فما صبر ولا انتظر ، ولا تقيى أن أحضر . ولا أمهل أن أعطي البشارة حقها ، وأجلو بأنوار المعاني أقمها ، وأبلغ بالبلغة مداها ، وأسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها . وأصف بحدود الأفلام ما صنعته حدود السيوف ، واروج تقودي عند السلطان واغنيه عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والأبيات ، ومدوني الجرائد بالإثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقع خفيفة ، بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحساء من حليتها ، وعروها من بزتها ، وشوهوا جمالها ، وأحالوا حالها .

فذهب بها المبشرون ، وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع ، ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها تقع . وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسوها ، ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان إلى وقال : « اكتب بهذه البشارة إلى بغداد ، وعجل بها الانفاذ » . فقلت على سبيل العتب : « أنتم ما تريدون ما أكتبه ، ولا ترغبون فيما أرتبه وأهذه » . فقال : « كأنك كتبت البشائر فهاها ، حتى تهدي إلى طرقاتها » . فقلت : « ما فات فات ، وهيئات هيئات » وأخرجت له ما بقى من بشارات البلاد التي أنشأتها ، بالألفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها .

فسارت فسرت البعيد والقريب ، وخصت من جدها بالخشب الحديد .
وصلحت بأسجاعها المتأبر وصحت سماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها
العبر ، وبهرت بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المغاني ، وعمت مباهجها
مناهج الأفاصي والأداني .

فما أصحها كسرة ، وما أسحها نصره ، وما أيئها شجة ، وما أثبتها
حجة ، وما أفرجها مسرة ، وما أسرها فرجة ، وما أيرجها بالكفر صرعة ،
وما أوضحها للإسلام شرعة .

فصل في ذكر حاتم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الأكابر ؛ ومقارفة عدة كثيرة من
العساكر ؛ خرجوا متجاسرين وامتدوا متقاطرين ، وانتشروا متجاوزين ،
وأغاروا للواء اللأواء ناشرين . ووصلوا في المينة إلى الخيم العادية فأخليت
حتى دخلوها ، وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوا . فركبنا إليهم ، وحملنا
عليهم . وتركتناهم صرعى بالعراء ، فوضى بالفضاء ، فما بكت عليهم
الأرض ولا السماء .

ورويت السيوف من دماهم ، قبل أن تشبع الوحوش من أشلائهم ،
وظهرت لنا نعمة الله في بلائهم ، وجي الإسلام بهلاكهم ، وضمتهم أشراك
الردى يرداء لإشراكهم .

وانجبت المعركة عن أكثر من عشرة آلاف قتيل كافر ، وثبت حكم
إدالة الإسلام وظهوره بأوضح دليل ظاهر . ولوافق خروجهم من مراكزهم
بأسرهم ، لكننا فرغنا من شغلهم وأخطينا بالنابأ بيد الله من أمرهم . والآن
قمع انطفاء جمرتهم ؛ وصحة أمزجة العزائم بكسرتهم ؛ وتطرق القلة إلى
كثرتهم ؛ نرجو من الله أن يسهل أمرهم العسير ، ويهون خطبهم الخطير .
وأن ظهورنا عليهم قطع ظهورهم ، وعثور هذه الواقعة بهم حقق عثورهم ،
والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم .

فصل فيه

وصلوا إلى الخيم العادلة في الميمنة الميمونة ، واشتغلوا باستباحة أحوالها المصونة . فأطلقنا عليهم الأعنة ، وشرعنا إلى نحرهم الأسنة . وبعنا النفوس لتتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على الأرض ، وأدينا بإردائهم بعض القرض . وانجلى المعركة عن عشرة آلاف قتيل مشرك ، وشملتهم المنون فكأنهم جاءوا على موعد مهلك . وأروينا من دماهم ظمأ السيوف ، وجعلنا أشلاءهم قرى الوحوش لا الضيوف . وأمن الإسلام بحمد الله من المخوف . وأدرك الله بأخذ أرواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريجهم ، وخمود مصاييحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم ، وأحاطت بهم من حوالهم . ورضتهم
بالدبابيس والتوت (١) ، وتركتهم صرعى بتلك المروت (٢) . وساحت بتلك
الساحة دأماء اللماء ، واكتسى عى العراء بتلك الأشلاء ، وأفضى بذلك
الفضاء جمرهم إلى الانطفاء ، وأمرهم إلى الانقضاء . ورتعت ثعالب الرماح
من كلاً كلاًهم في المرعى .

وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف (فترى القوم فيها صرعى (٣)) .
وطابت من نئن جيفهم (٤) ريح النصر ، وحسنت (٥) من سماجة مرآهم
وجوه الدهر . والآن ألان الله شدة شككتهم ، وقطأ شوك شوكتهم ، وهبت
نكباء نكبتهم .

ونرجو أن يسهل من أمرهم ما تصعب ، ويؤلف بصدعهم من
الإسلام ما تشعب .

(١) التوت : جمع لت ، وهي كلمة فارسية الأصل ، وهي القوم أو الفأس الكبيرة
(القاموس المحيط) .

(٢) المروت : أراض لانيات فيها .

(٣) الآية ٧ سورة الحاقة .

(٤) في ب جيونهم والتصحيح من ل ومن أ (٢٤٥ ش) .

(٥) في ب حنت والتصحيح من ل .

فصل

وصلوا إلى الخيم العادلية فدخلوها ، وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوا . وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر ، وتموج بحارها الزواجر . فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الأمراء والمماليك ؛ كولدنا الحسام ابن لاجين وصارم الدين قايماز النجى وبشارة وجرديك . وعطفوا عليهم عطفة صديهم عن الانعطاف ، وصرقتهم عن الانصراف . وثار آثامهم بواتر البواتر ، واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الأسرار بالخوافر الحوافر . وفقتهم بالقضاء ، وعزتهم من كسوة الحياة بالعراء . وتمت نعمة الاسلام يلائهم ، وشنى الدين بدائمهم ، وكان بقاؤه في فناءهم ، ولو لحقت الميسرة لتكامل قطع دابرهم ، وأنى القتل على أولهم وآخرهم .

ونجحت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل ، ملأت كل واد وسدت كل سبيل . وقد ذلت عزتهم ، وضعفت قوتهم ، وعجزت قدرتهم ولما انقضت هذه الواقعة ؛ وتمّ لناهضين إلينا الرجعة ؛ رأيت أحد مماليكى ونصنئه قد خضب ، وعزمه قد رضى بعد ما غضب . فسألته كم قتل ؛ ولما أين وصل ؛ فقال : « أما أنا فما أبقيت ، وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامى قتل تسعة ، وشام من عارض نجيعهم نجعة » . وكان الذين حملوا ، وهزموا وقتلوا أقل من ألف . فقتلوا أضعافا مضاعفة ، وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعدة .

وحكى من نوادر هذه الواقعة أن فرنجيا عقر فرجثا للصرعة ، فعثر به راكب برذون^(١) بغير رفيق ولا عون . فعرقب الفرنجى فسه بسيف فى يده ، فنزل يجده مستنا فى جلده . وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه الهندى ، وحل من وسطه ثمانين ديناراً . فانقلب ربحاً ماعده خساراً . وامتلأت الأيدى بالأسلاب والأكساب ، وحصل من العدد ما لم يكن فى الحساب . ويبتع الزرديات - ذوات الأثمان - بالرخص ، وزادت أرباح أهل السوق بذلك النقص .

(١) برذون : التركى من الخيل ، أودابة الحمل الثقيلة .

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ؛ ورد فى عصره نجات من حاب بعد خمسة أيام ، بكتاب يتضمن نبح كل مرام . ويجبر بأن عسكرا مجرا من الكفار ؛ خرج للغارة على الأطراف والأقطار فخرج إليه العسكر وأخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع فى الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد فى منهاج ، ولم ينبج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان ، وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسرّ الخواص والعوام وخص وعمّ السرور ، وأنارت المطالع وطلع النور .

وشرع الفرنج فى الخداع ؛ والمراسلة فى أمر للسجانيين (١) عام الانتفاع . وسألوا فى الصلح ، والخروج من ليل الحرب فى السلم إلى الصبح . وأذن لهم السلطان فى الخروج ، للنظر إلى أولئك الصرعى بتلك المروج . وهى قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت للشمس على جيفها وحافت ، وضافتها القشاعم والخواص (٢) وعليها أطافت . فساءهم ما سرنا ، ونقرهم ما أقرنا .

(١) فى ب السجانيين والتصحيح من ل .

(٢) الصباع .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهرى (١)

بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط

اشفاقا من التفريط والإفراط

وما زال الله نج في وهن وضعف ؛ وتوزع بينهم وخلف ، حتى وصل في البحر كند يقال له هرى ؛ وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم ، وأحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وأفاض عليهم الأموال ، وحلّى منهم بعد عطلها الأحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع ، وقرع السن ندامة على من قلع وقُرع ، وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم أن نبادرهم على ضعفهم ، قبل أن يمدهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه ، والتواني فيما تعين تميمه .

ولما وصل هذا الكند وتمكن ، وقوى أهل الكفر بكل ما أمكن ، أظهر أنه يكبس عسكرنا ليلا على غرة ، وبدت منه أمارات كل شره وبشرة . وشاع هذا الخبر على ألسنة الجواسيس والمستأمنين ، فأحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقدمه من الصواب ، ويفتحة في المصالح الراجحة من الأبواب . فأشاروا بإسراع الحلقة ، وإدارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه ، حتى يأنس (٢) إلى الخروج لحربه ، فوافقهم السلطان على هذا الرأي وحسن في قلبه ، فرحل يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة إلى منزله الأول بالخروبة ، واشتغل بالتدبير في الفوز بالنصرة المطلوبة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالي سفوحها . واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتب اليزك في المنزلة الأولى كل ألف فارس بالنوبة في يومين ، وضويق بأهل الصدق منهم أهل المين (٣) .

(١) هو الكند هرى Hinricus .

(٢) في ب يؤنس والتصحيح من ل .

(٣) المين : الكذب .

وتدبر الترتيب وترتب التدبير ، وعرف في اليك أوقات نوبته وأوبته الصغير والكبير . وأما عكاء فالكتب مترددة إليها ومنها مع السبّاح ، والحمام إليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح . والمراكب تدخل إليها وتخرج ، وإليها وعنها تعوج وتعرج . وأخبار ملك الألمان متواصلة ؛ بأن أنصاره له خاذلة ؛ وأنه ضعف ووهى ، وأنه إلى أنطاكية انتهى . وأنه تعوق هناك ، وتوقع من مرامه الإدراك . وتوقف عن المسير ، واعتاض التعسير من التبسير . ووقع الفناء في جمعه ، وتعجل قمعه قبل أن يصل إلى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالإتفاق في رجال الاستجداد والاستجداء ، والاحتشاء والاحتشاد . وأن أصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ، ويتلفونهم من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستمعافا ، ويجمع قطافا ونطافا وألطافا . ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة ، وأنه مستمر على المودة راغب في المحبة . ويعتذر عن عبور الأمانى ، وأنه قد فجع في طريقه بالأمانى . وأنه لاقى من الشدة ؛ ونقص العدة ؛ ووصل المشقة ؛ وقطع الشقة ؛ ما أضعفه وأوهاه ، وألهبه وألماه . وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويمت بما به كاده ، وأنه بلغ في أذاه اجتهاده . ويطلب رسولا ، يدرك به من السلطان سولا . فأجيب في ذلك إلى مراده ، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده .

ذکر حریق المنجنیقات

وفي رجب من السنة أنفق الكندهرى بعد وصوله ؛ ما وصل معه من المال في الرجال ، فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكاء أشد مضايقة ، وأخذ القومص والكنود بذلك موافقة . ونصب عليها كل منجنیق ، من الرمی غیر مفيق . رجومه للشهب بالشياطين ، ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر إلى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين ، وميادين ثعابين ، ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها ، واحتد على صُقعهم صقعها . وقالوا : « كيف نجد من مناصبها المناص ، وهل نلتى من شوم خصائلها الخلاص ؟ » .

فأجمعوا على الإقدام وأقدموا على الاجتماع ، وأخذوا بالارتياح في ترك الارتياح . وخرجوا بالفارس والراجل ، وأموا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة إلى خيامهم ، وخلقوها من رؤسهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنیقات ممن يحميها ، خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها ، فاحترق جميعها ، وغرق في بحر النار صريعها .

وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء ، وقطع الواصلون إليهم عليهم طريق البقاء . وأسر منهم خلق كثير ، من جملتهم أربعة من المعروفين ، فبهم فارس كبير . فما أهلهو حين أخذوه ، حتى قتلوه ونبلوه . فطلبه منهم الفرنج بالأموال ، ولم يعرفوا بالحال . فاخرجوه إليهم فتिला ، فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبون نوحا ، ويذيعون سر تقدمه فيهم بوحا . فحملوا بعد ذلك الضرام ، ركلوا بعد هبوب ربيع المرام .

وضربت عليهم الدلة ، وشجنتهم عقودهم المنحلة ، وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس ، وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم ؛ والستائر

تهتك وتضرم ؛ والحدود بالمصال تثلم ؛ والحدود بالنصال تلم ؛ إلى ليلة شعبان من السنة ، فأبّت بالحالة الحسنة . فإن أصحابنا خرجوا على غرة ، ومضوا إلى القوم بإنكاء مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبوا بعد كل استظهار ، وانفق على أحدهما كندهرى ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الأولى من شعبان مباركة ، ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركه .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الأخير من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فנית ، وأن الأفكار باستداعها عنيت ، وأن الأجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة من مصر بالغللات ، فرأى أن ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا ، ويجعل له أجلا موقوتا .

فكتب إلى والى بيروت - عز الدين أسامة - أن يهجر في كل ما به عز الدين السامة . ويعطى ويتزكى ، ويحتال في إنقاذ ميرة إلى عكا . فعمر بطسه كبيرة وأعدّها ، وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح ، وملاها بأربعمائة غرارة قمح . ونقل إليها أنواع الطعام ، وأصناف الإدام ، وقطيعا من الأغنام .

وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة ، وهى بساحل بيروت منبوذة . فأمر السلطان بترميمها وتتميمها ، وإخفاء البغية منها وتكتمها . وأزيحت منها العلة ، ونقلت إليها الغلة . وملئت بالشحوم واللحوم ، وبكل ما تدعو إليه الحاجة من المشروب والمطعم . وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت ، وربت فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت .

وأرادوا أن تشبهه ببطس العدو في البحر ، وألا ينكشف للفرنج ما لها من السر ، فتصوروا رهبانا ، وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ، ومسحوا حلاهم . وتملطوا (١) وتكوفوا (٢) ، وتشبهوا بهم في كل بزة لثلا يتخوفوا . وشدوا زنانير (٣) ، واستصحبوا خنازير . وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلفين ، وإلى محادثتهم ومجادبتهم منبسطين . والقوم لجهلهم ، لا يشكون أنهم من أهلهم : ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث ، وتصور الطيب بصورة الخبيث .

(١) تملطوا : تملسوا أى أزالوا ما فهم من شر ذقن .

(٢) تكوفوا : أى تجمسوا واستداروا .

(٣) زنانير : جمع زنار وهو ما يشد على الوسط .

فلما حاذوا بها عكاء صوبوها نحوها ، والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم
من مراكبها وتقول ماهذه طريقها ، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها ، وقد
عقت رقتها ؛ وهي تكاد تعوقها . فدخلت الثغر ، وأدخلت إليه كل خير ،
وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة في سير . واجتزأ البلد بها شهرا ،
ووجد منها لكل كسر جبرا . فيألها من لطيفة قضينا منها الأرب ، ولم نقض
منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر إلى عكاء

ظهر يوم الإثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب إلى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار ، بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملاؤها بالغلات وأصناف الأقوات ، ويعمّروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها عند موافقة الريح إلى الثغر ، فإن خلصت إليه ولو واحدة منها أغتته بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر ، واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب ، والرجاء يضطرب .

ووردت كتب أصحابنا بعكاء أنه لا يبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت ، ولا شك أن كتاب أجلنا إلى هذا الأمد . وقوت . فأشفقت النفوس ، واستشعر البوس . وألت القلوب ، وألمت الكروب . ولجأنا إلى الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يجيب من رجاه ، ولا يضيع من أسرعه .

فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، ظهرت من أقصى اللجة ثلاث بطس كأنهن الأعلام ، واستبشر بظهورها الإسلام ، وقد زفت عرائس جواربها الحسان ، وخفت رواسي سواربها الثقال ، وذكرت بقوله تعالى (وهي تجرى بهم في موج كالجال (١) . والريح تطردها طرد النعام ، والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم أضل من الأنعام .

فما تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانبها ، وأحاطت بها قائلتها من أقاصيها وأدانيها . وهي تشقّ عليها وتشقّها ، وتعوقها عنها وتعقّها ، حتى برت منها لبرّ الإيمان الأيمان . وهزأت بتلك الأكمات

(١) الآية ٤٢ سورة هود .

المطيفة بها جبالها الرعان . (١) . وعبرت والكفر خزيان ينظر ، ونهضت
بالعز والعدو في ذيل الذل يعز .

ووصلت الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة ، والموحدة غائمة . وقد
فرج الله بها غمة الثغر ، ودفع ما ألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة
التي أدركت الأرماق ، وأدرت الأرزاق . وتلافت الأرواح من التلف ،
وحملت على النفوس المشفية مشاق الكلف .

(١) الرعان : جمع وعن وهو أنف الجبل أو الجبل الطويل .

فصل من كتاب إلى سيف الإسلام في هذا المعنى

كان كتب إلينا أصحابنا بمكاء أننا حسبنا ؛ وإلى ليلة نصف شعبان لا يبقى لنا شيء نقتاته ؛ وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته . فبينما نحن في هذا المهم مفكرون ؛ ومن هذا المهم (١) متنكرون ، إذ ظهرت للعيون بالقرّة ، وللقلوب بالقرار والمسرة ، ثلاث بطس على ثيج البحر مستقرة . يعنها لطف الله بعنا ، وتمخها الريح القوية حثا . كأنها جبال بإقبالها تروع ، وتسور أجنتها القلوع .

وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهيبها ، وبرزت مراكبها ، ودبت عقاربها . وقربت من البطس شوانبها ، وقويت في البطش أمانبها . وحسى ما فيها من فيها من الرجال ، (وهى تجرى بهم في موج كالجبال) . وكأن جواربها عرائس يفتن بما لمن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك الأعلام . المنشئات معلّم الطراز ، بل كأنها تجار (٢) تحمل الصدقات إلى ذوى الإعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة ، وأزى الآتى بها مواققة موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شبنى شانىء ، وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالىء .

وجازت والكفر خزبان ينظر ، وفازت بالعز والعدو بذيل الذل يعثر . وكان وصولها أوان انقضاض الأزواد وانقادها ، فملأت المدينة بغلاتها وأزوادها ، وعصمت أرقامها ، ودسمت (٣) أرقامها ، وقسمت أرقامها ، وأشبعت جوعها ، وشعبت صلوعها ، وأنالت آرابها ، وأزالت إجدابها ، وخصتها بخصبها ، وصحت لها بسحبها .

(١) في ب لم والتصحيح من ل ومن أ (٢٥٨ هـ) .

(٢) تجار : جمع تاجر .

(٣) في ب ديمت والتصحيح من ل ومن أ (٢٥٢ هـ) .

فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق (١) ، وسكنت بعد القلق ، وعاد
إليها بعد الغسق إسفار القلق .
والحمد لله المعنى بعد الإعدام ، المدنى السنى بعد الإطلام ، المبنى
بأوليائه أعداء السلام .

ذكر عيسى العوام

وما تم عليه في العشر الآخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام ؛ قد تردد بالكتب والتفقات ؛ إلى عكاه ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا أمينا ، بحفظ الأسرار ضمينا ، يسيح ليلا في البحر ، ويعبر على مراكب أهل الكفر ، ويصل بما معه إلى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم ، واعتورته أسباب المتالف والآلام فما ألم . واتفق أنه عام ذات ليلة غير مكرث بما في طريقه من أخطار ، وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألفا دينار . ومعه من نفقات الأجناد ودائع ، ومحقرات بضائع . فعدم ولم يتسمع له خبر ، ولم يظهر له أثر . فظنت به الظنون ، وما تيقنت المنون .

وكانت له ولا شك عند الله منزلة ، فلم يرد أن تبقى حاله وهي جملة ختملة . فوجد في مينا عكاه مينا قد رماه البحر إلى ساحلها ، وأذهب حق اليقين من الظنون بباطلها . وبرأه الله مما قالوا ، وأحال الذي عليه أحالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الأكياس ، وتعجب من حاله الناس . فلم يذهب بذهابه الذهب الذي صحبه ، وطهره الله من الرجس وعنه أذهب .

ذكر وصول ولد ملك الألمان الذى قام مقام أبيه إلى الفرنج بعكاء

ذكرنا حديث الألمانى وملم حادثه ، وما أداه إليه من دواعى كفه
وبواعثه ، وكان مسيره من انطاكية يوم الأربعاء خامس عشرى رجب ،
ولتى فى طريقه على اللاذقية الشجى (١) والشجن (٢) والشجب (٣). وأذن
ضعف خيلهم ، بضعف ويلهم . ووجدت لهم ما بين اللاذقية وجبله ستون
سبعون فرسا قد عطيت ، وعلى أعواد عظامها سود الغرايب خطبت .

وقد استقبله المركيس ، وقصده التأنيس . وأن يهديه بضلاله إلى الطريق
التي توّمن طوارقها ، ويتسع عليه فيها مجال الأمن وإن سلكت مضايقتها .
فوصل به إلى طرابلس فى العشر الأول من شعبان ، ووصل خبر وصولهم فى
سادسه إلى السلطان . وحزّهم من شاهدتهم فى الطريق بخمسة عشر ألفاً ،
وسمعنا فى حزّهم بالقليل والكثير خلطاً .

ثم انتقل فى البحر ، إلى عكاء فى موضع الحصر . ووصل آخر النهار
سادس شهر رمضان ، بعد أن عاين فى البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم
يبق له وقع ، ولم يحصل لخرق القوم به رقع . وأقام بين جنودهم ، كأحد
كنودهم . وقال الفرنج : « ليته لم يصل إلينا ، ولم يقدم علينا . فإنه لو أقام
فى موضعه ، وأمدنا بفيضه من منبهه ، لهبت عظمته ، وعظمت هيئته . وأرعب
روعه ، وراع رعبه ، ورجى منا وخشى من المسلمين قربه . وقد قطع
بنا منذ وصل ، وحصّ لنا جناح نحاح حصل » .

ووصل فى البحر وحده ، ولم يستصحب جنده . ثم وصل إليه الأصحاب ،
(وتقطعت بهم الأسباب (٤)) . ثم رام أن يظهر لمجيئه وقعا ، ويبدى له
نقعا ، ويشير لنقع غلة ناره نقعا . فقال : « لإلام القعود عن القوم ، وما بقى

(١) الشجى : المم والحزن .

(٢) الشجن : المم والحزن .

(٣) الشجب : العنت يصيب الإنسان من مرض أو قتال .

(٤) الآية ١٦٦ سورة البقرة .

إلا النهوض إليهم من اليوم ، ولابد من ضرب المصاف معهم ، وإني على الخروج إليهم لأدفعهم . فقالوا له : « أنت ما أرثت و هيج قتالهم ، ولا أثرت نهج نصالهم ، ولا حربت بحربهم ، ولا كربت بكرهم ، ولو حزبت بحزبهم ، لأصحب جماحك لجماح صحبهم » . فأبى ونبا ، وشب الشبا .

فلما عرفوا جهله ، وأن صعب الأمر عنده ساوى سهله ، قالوا له : « نبتدىء بالخروج إلى اليزك ، فلعلنا نوقعهم عند الإحاطة بهم في الشرك » . فذبوا في راجل كرجل الدين (١) ، ونخيل أغصت الوهاد والبا . ومرجوا في المرج ، وطووا تلك المدارج طى الدرج ، وأشعلوا الخرصان في ليل النقع عوض السرج . وقرىوا من تل العياضية ، وعليه خيم اليزكية ، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية ، والعصبة الموصلية . فلما بصرت بهم ثارت إليهم ، ودارت عليهم . وأنهضت بنات الحنايا من خلدودهم إلى الخلدور ، وأوردت ظماء الظبي منهم ماء التامور (٢) .

وأنبعت بالتبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من أعناقهم الديون . وطيرت بإطارة السهام إلى الإحداق بهم الأحداق ، وخطاط الآماق وما أخطأت الأرقام . وصار كل سهم سهم شهم ، وخطر في محل خاطر أسرع من وهم .

وركب السلطان من خيمته وتقدم إلى تل كيسان ، ووقف ينهض بعده الفرسان الفرسان ، فلم تزل وجوه البيض تحمر ، وثنايا السمر تفتت ، وذبول النقع تنجر ، وصفحات الجو تغبر ، وأرجاء رجاء النصر تخضر ، إلى أن جن الظلام ، وكف الكفر وسلم الإسلام .

وكانت الدائرة على الكفرة ، فأعرضت بالوجوه المتكفرة ، وأبنا بالأنوار المسفرة . ومرّ الألمان متألماً ، ومن ظلمة حاله متظلماً ، وبكولم قلبه متقلبا

(١) الدين : أسير الجراد أو النمل .

(٢) التامور : النفس وحياتها .

منكلما . وقد عاين ما عاناه من العناء ، وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء ،
وبلى مما بلى به من البلاء . وعلم ما جهله ، واستصعب ما استسهله^(١) وذاق
ما ضاق به زرعه ، وكاد يتم في القتل رصعه لو تم صرعه ، لكنه تجرع من
الغصص ما سهل عليه الموت جرعه . وتاب وما تاب ، وأبى الرجوع إلى
اللقاء لما آب . وحيثئذ جدوا في قتال البلد وحصاره ، واتباع ليل الجد فيه
بنهاره .

(١) في ب استله والتصحيح من ل ومن أ (٢٥٥) .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكاء في البحر برج يعرف ببرج الذَّبَّان ، وهو في حراسة المينا عظيم الشأن . وهو منفرد عن البلد ، محمي بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان ، في الثاني والعشرين من شعبان . يبطن كبار جهزوها ، ومراكب عظام وآلات أبرزوها . ومكر مكروه ، ودبر دبروه . وبغى غى بلغوا غاياته ، وربى رأى رفعوا راياته . وشرك ألهبوا شراره ، وأيد كيد أرهفوا غراره . وعنان عناد أطلقوه ، ولسان ضرام أذلقوه . ويد بطش بسطوها ، وعقلة معالقة أنشطوها .

وأحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس صاريه ، لا يطاوله طود ولا يباريه . وقد حشى حشاه بالنفط والحطب ، وضيق عطنه لسعة العطب . حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته ، أعدى إليه بأفاته . ورميت فيه النار فاحترق ، واحترق من السائر والأخشاب ما به التصق . واستولت^(١) النار على مواقف المقاتلة فتباعدها عنها ، ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق ، ولم يصعب به التعلق .

وملأوا بطسة أخرى بأحطاب ، يسرى فيها النفط ويسرع بالتهاب . حتى يوقدوها ، وعلى السفن التي لنا بالمينا يوردوها . فيعدى علوانها ، وتسير وتسدى فيها نيرانها . وهم في مراكب من ورأها للحرب مستعدون ، وللشر مستملون . حتى إذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم ، نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غنائم .

فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور ، وصار الصاري ملاصق السور ، جاء الأمر بعكس ما قلدروه ، وأخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فإن الهواء كان شرقيا ، فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج

(١) في ب تستولى وهذا تحريف لا يتفق والسياق .

الصارى وتراجعت ناره إلى أهلها ، وعاملت ذوى الجهل بجهلها ، وأوقدت
بطسة الخطب من ورائها ، وتطابرت إليها شعل إذكائها . وعادت على الفرنج
فالتهبوا ، وحمى عليهم الحديد فأضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة
فاحترقوا وغرقوا ، والتاجون منهم فارقوا وفرقوا (١) ولم يفرقوا .

واحتمى برج الذبان قلم يطر من بعدها عليه ذباب ، ولم يفتح للعدو
فى الكيد له باب .

(١) فرقوا : قزعوا .

فصل مشيع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى
من كتاب إلى سيف الإسلام باليمن

وأفكر الافرنج في أمرهم ، وأجالوا قذاح الرأى في مكر مكرهم ،
« هذا البرج المعروف ببرج الذبان ، منفرد عن البلد بوسط البحر منقطع المكان ،
فإذا أخذناه تسلطنا على مراكزهم التي في المينا ، وإذا لم نؤثر بمجيتنا تأثيرا
فلائى سبب جينا » ومن حديث هذا البرج أنه يحيط بالبحر من جوانبه ،
وهو قفل مينا الثغر على مراكزه . وقد رفعناه وأعليناه ، وبالعدد والرجال
قويناه . وبالخرجية والرماة والزرايين والمنجنيقية ملأناه ، وبكلاءة الله
وعصمته إياه عصمناه وكلائاه . وقد حاموا حوله حولا ، فلم يجدوا على
نبيل غرض منه قدرة ولا حولا .

فعملوا إلى أكبر بطسة وانخلوا فيها مصقلا - كأنه سلم ، وهو في
مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها بحيث إذا قربت إلى البرج ركب رأس
السلم على شراريفه ، فصعد الرجال إليه في تجاويفه : وتبعوا في ذلك أياما ،
وأشبعوه توثيقاً وإحكاما . وهو بمرأى من الأصحاب ينظرونه
وينتظرونه ويصرونه ، ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه . والقوم
قد أصبحوا بتلك البطسة زاحفين ، وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى
إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط ، وتوالت أمطار البلايا من
الجروخ والحجارات والمنجنيقات على أولئك الرهط .

ووجدت النار: بسطة في البطسة ولم يسلم السلم ، وناب القوم من فجيعتهم
يها المصاب الذي ألم بهم وآلم . وقتل منهم من باشر القتال ، ونزل العذاب
يمن حاول النزال . والحمد لله الذي آيات ظهور دينه متناصرة ، ودلائل
نصر أوليائه متظاهرة .

ثم عمل الفرنج برجا عاليا في أكبر مركب ، وحشوه بالحطب .
وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق ، ويتأق له فيه الاحراق .

وقدموه إلى برج الذبان ، وسلطوا على جوانبه جوانى النيران . وقصدهم بذلك
إحراق ستائر البرج المنصور ، ورأوا أن فى ذلك هدم بنيانه المعمور . وحسبو
أن الستائر إذا وقعت فيها النار ، تفلر على رجاله القرار ، وتعجل منهم
للحذار الفرار .

وكادت الستائر تشتعل ، والنواطر تشتغل . والحال تضطرب ، والبال
يلتهب . والقلوب تضطرم والكروب تحتم . فأهب الله من مهب لطفه
نكباء نكبت النار عن البرج المحروس ، وأكبت الفرنج على الوجوه
والرموس . وتمس جدهم وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التى لهم
عليهم ، وصوبت مرامى العذاب إليهم .

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم ، قالوا لاطاقة لنا اليوم . وعادوا وقد غرموا ورغموا ، وأخلف ما عزموا وزعموا . واشتغلوا بجلء بطس لهم شحوما وأخطابا ، وأدهانا وأخشابا . وأشعلوا فيها النار وألمبوها ، وأرسلوها إلى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها ، وأذنوها منها وقربوها . وكادت سفننا تحترق ، ومراكبنا تفرق .

فأنزل الله الفرج وقت الشدة ، وآمن من المخافة المحتمة المحتدة . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد أن كانت موافقة ، وحالة تلك الحالة للعادة بخارقة . فاحترقوا بناهم ، وشرقوا (١) بعارهم . وجذبت بطس أولئك الكلاب بالكلاب ، وتوالت أطفاف الله في تلك النوب المتناسقة مطردة الأنابيب ، مستهلة الشآبيب .

(١) شرقوا : شرق الموضع بأمله ، امتلا فضاك والمقصود أنهم ضاقوا نفساً بعارهم .

ذكر الكبش وحرقه

بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابه هائلة ، وآلة للغوائل غائلة . في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان في طول رحين كالعمودين الغليظين ؛ أقفال الأسوار المعلقة بها تفش . فكم سور إذا نطحته طحنته ، وكم معقل حصنه الدهر حصته وصحته .

وهذه الدبابة في هيئة الحربشت الكبير . وقد سقوها مع كبشها بأعمدة الحديد ، وكمولوا لها أسباب الاحكام الشديد . ولبسوا رأسى الكبش بعد الحديد بالنحاس ، وكسوها حنرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم يبق للنار إليها سبيل ، ولا للعطب عليها دليل .

وشحنوها بكماة المصاع (١) ، وحماة القراع . ورماة الخلق ، وكساء الخلق . وغفاة الختف ، وجفافة الزحف ومجتابى الزغف (٢) ، ومُجْتَبِيَّ العسف . من كل سرحان لا ينظر إلا من جلد أرقم ، وكل شيطان لا يقتحم من الحرب إلا جهنم . وكل شجاع لا يعتقل إلا شجاعا ، ولا يرى لغير النجيع القانى اقتناء ولا انتجاعا .

فلما استندفت (٣) لهم هذه الدبابة ، وماجت بالحديد بلحتها العبابة ، وأطافت بذلك الكبش تلك الثيوس النباة (٤) وأمنوا عليها الحريق ، وأموا بها الطريق ، سووا بين يديها الأرض ، ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها ، وقروا بها أعينا بل أنفسا وقربوها . فجاءت

(١) كاة المصاع : الشجمان للمقاتلون الضاريون بالسيوف .

(٢) الزغف : الدروع الواسمة الطويلة .

(٣) استندف : الطائر قرب من الأرض . الأمر : استقام . تبيا وأمكن وهذا هو المعنى

المقصود هنا .

(٤) النباة : التي تصيح عند هياجها .

صورة يزجج مرآها ، وروضة يعجز مرعاها ، وآلة تروق هيبتها ، وعدة تروع هيبتها . وبلى البلد من دنوها بالبلاء الداني ، وتغاشت وتعاشت دونها نفس الرامي وعين الراني .

وقال أصحابنا : و هذه ما في دفع خطرها حيلة ، ولا لبارق الظفر بها نخيلة . فكيف العمل ، وفيم الأمل ؟ ومن للكيش العظيم وقطع رأسه ؟ ومن لبناء الحديد ونقض أساسه ؟ فإن كانت هذه الدبابة دابة الأرض فما هذا أوانها ، وما حان زمانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام برهانها . ونصبوا على صوبها مجانيق ، ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فأبعدت رجالها من حوالها ، وطردت المطرقين بين يديها . ثم رموها للحزم مجزوم الحطب حتى طموا ما بين القرنين بجزره (١) ، وقذفوها بالنار فترنم في أثنائها عجاج الذهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نار ضلوعها وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها .

وجاء القرنج تلك الليلة فباتوا بالبتيات (٢) ، يطفئون بالخل والحمر تلك الشعل المستويات . فأطفأوا نار الظاهر ولم يعلموا بر الباطن ، ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أحملدوا الجمر ، أحملدوا الأمر . ورجعوا ولم يزل الذهب يأكل سقوفها ، حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحيث خسفها المنجنيق ، فأنهد ذلك النيق ، وصوح (٣) ذلك الروض الأنيق ، ووهن ذلك التركيب الوثيق . ونفقت تلك الدبابة واحترقت تلك الدبابة ، وخرج من بالثغر المحروس ، باشرى الوجه طيبى النفوس . وقطعوا رأس الكيش ، واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنيش . وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله ، واستطاب لثلج صدره وبرد يقينه حره واستخف ثقله .

وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار ، قفل في آلة لبست بهذا المقدار

(١) خرمه .

(٢) البتيات : جمع بتيه وهي البرميل الصغير .

(٣) صوح : جفف أيس .

وهو أعظم مقدار . وعاد أصحابنا على عدوهم ظاهرين ، ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم ينشد وهو ينشئ وينشد جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط ، وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين جبطت أعمالهم ؛ وهبطت آمالهم ؛ أن الشقاء أدركهم ؛ والشقاء أهلكتهم . وأن مدبرهم مدبر ، وأن ترتيبهم مدمر . وأن آلائهم غير نافعة ، وأن نهلاتهم غير نافعة .

والحمد لله ذى الطول العميم ، والفضل الجسيم . الذى نعى عثار الثغر بعد أن تل للجبين قتلونا(١) قوله تعالى : (وفديناه بذبح عظيم(٢)) . وكان ذلك فى يوم الاثنين الثالث عشر رمضان واحترقت البطسة يوم الأربعاء خامس عشر .

وفى هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عساكر الشمال ، يقلمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب ، وقد استصحب معه الأجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بقاء والده عهده ، ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وقد استكثر معه واستظهر ، وعز الدين بن المقدم ذو القدر الأفخم ، والنجر(٣) الأكرم . وحسام الدين حسين باريك ، وجماعة من الأمراء من ذوى المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرا مشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب بعلبك ، وقد استصحب غلمانة الأكاديش ومماليكه الترك .

وكان لذلك اليوم رونق ، وصفاء لم يشبه رونق(٤) . واتفق فى يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد ، فى الخلق العظيم ، جيحيمين

(١) فى ب فطينا وهذا خطأ لنرى إذ أن الفعل تلا يتلو .

(٢) الآية ١٠٧ سورة الصافات .

(٣) النجر : هنا بمعنى القصد .

(٤) الرنق : الكدر .

يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور ، وأقدم
العدو لإقدام المشهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا ؛ واضطرموا واستعروا ؛
غنت لهم الأوتار برنين القسي فطاشت لها السهام ، ودعت إليهم الأقدار
بجنين الحنايا قلباها في لبآتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروح ،
وأخذت فيرانهم تبوخ (١) . ورضتهم المجانيق بالأحجار ، وأذنت عيون
نجيمهم بالانفجار . وخرج أصحابنا عليهم فشلوهم إلى الخيام ، وفلوهم
بحد الإقدام . وأفضى الخرق بالعدو إلى الخرق ، وأخلقت بجدة جدنا جدة
أولئك الخلق .

(١) تبوخ : تسكن وتفتر وتحمد .

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشره وبشره ، ووصل الجاسوس بخبره ، وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب أصحابنا له كميناً ، ثم خرجوا عليه شمالاً ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله ، وأفلت وباله في وباله . وانتهاض من تلك النهضة ، وضعف من تلك العضة . وفي هذا التاريخ ألفت الريح إلى ساحل الزيب بطستين خرجتا من عكاء بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب . وفيها امرأة محتشمة ، غنية محترمة . فأخذتا وأخذوا وأخذت ، وجد الفرنج في استنقاذها فما استقدت . وسرنا ما ساء العدو ، وآتانا الله من إحسانه المرجو .

وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا إلى منزل يعرف بشفرعم ، وخص بهذا الرحيل النفع وعم . وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج ، وأخبروا أنهم في عزم الخروج إلى الم ج . هائجين للثار ثائرين إلى الهيجاء ، مانحين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضح الحق وتحقق . فأحضر السلطان الأمراء الأكارم ؛ ورجال الحقائق الضراغم ؛ الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه ، وذخائر نصر عند اعتزامه . فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم ، واستنبط دفائن ضمائرهم . واستكشف منهم الصواب ، وتعرف من جانبهم الجواب .

فقالوا « الصواب أن يفسح لهم عن هذه المروج ، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج . فنصبحهم في اليوم الآخر ، ولا يتعلمر بهم إحداق العساكر . وإنما لا يقدر على القصد دفعة واحدة ؛ إلا إذا كانت أيديهم متساعدة ، وآراؤهم متعاقدة . فإن انفردوا عن الراجل وساقوا ؛ كسرناهم وأسرناهم . وإن توقفوا للراجل ، قصلناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم »

وأجمعنا على أن نرحل إلى شفرعم ونحيم على هضابه ، ونبطل على العدو ما كان من البيات في حسابه . فخيمننا هناك على أحسن تعبئة ، وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنية . ورحبت المنازل ، وعذبت المناهل ، وعادت

معالم تلك المجهل . وحللتنا التلاع والآكام ، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام .
 ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين ، ولأسباب التوقى من الأمطار مستجلدين .
 وأضحيتنا على تلك الأطواد موطين ، وعند تلك الأوتاد موتدين .
 وتسمت تلك الفروع وفرعت تلك الأسنمة ، وتمكنت تلك البنى وبنتت
 تلك الأمكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها ، وأحبت الرجال التوطن بها
 وسلت عن أوطانها . ودارت الأسواق ، ودرت الأرزاق ، وأنارت الآفاق .
 وصهلت الصلادم على معالفها ، وصقلت اللهازم لمراعفها . ونوب اليك
 بحالها تلور وترود ، وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود . والحرب تتناوب ،
 والزحف يتعاقب . والأقران تتواقع والوقائع تتقارن ، والأعوان تتعاضد
 والأعضاء تتعاون . والعناق بصهيلها لحب الطراد تمحجم ، والرفاق
 بصليلها لشوق الجماجم تجمجم .

والمقربات للإجراء صوافن ، والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل
 صلة القطع ، ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع . والتوحيد
 للتليث منازل ، والايمان للكفر مقاتل . ولا كلام إلا للكلام ، ولا سلام
 إلا بالسلام . فلا يسمع إلا : « أسرج وأجلم ، وتقدم وأقدم ، وأضم
 وصمم ، وأضر وأضرم . ولاتله حتى تلهب ، ولا تلعج حتى تعجب .
 واقطع وصل ، واكل بصاع المصاع وكل ، ولا تعلق والى وقلقل » .
 ولكل داع إجابة ، ولكل ساع إصابة . ولكل سهم فى المرمى فوق ، ولكل
 سهم فى المرام سوق . ولكل صعدة فى الطعان صعدة ، ولكل قعدة للرماة
 قعدة (١) .

ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة فى الحرب فل . ولكل غضب (٢)
 غض ، ولكل ذى حظ حض . ومن له نصيب فى الشجاعة نصب فى
 التشجيع ، ومن له جرأة الهيجاء هاج إلى الصريخ بلجسد السريع . والايام
 منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد بامواه الوريد ممترجة ، والفرج
 منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح فى دياجير القتام متبلجة .
 والله نعمة فى كل بلية ، وسر فى كل قضية .

(١) قده : اتماه ، قده الأمر أمشاء .

(٢) سيف قاطع .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشرى شهر رمضان وما جرى بعده من الحال

قد جرى ذكر هذا الأمير ، وما يتحلى به من الكرم والخير . وهو (يوسف نياكتين بن علي كوجك) . ومن سعادة جده ما طلب غاية في الكرم لإادرك . وما كان أسره يوم الحضور ، وأحضره يوم وفاته بالسور . فلقد كان جاراً للكتائب ، باراً بالأبعاد والأقارب . ساراً بإسداء المواهب ، داراً بأخلاف الرغائب ، ماراً في سبل المناقب ، قاراً على قلق النوايب .

وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع . وشبابه الطرى طرير الشبا ، وجهه لعقد السؤدد معقود الحيا . فمرضت الأيام بمرضه أياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عايه وقد أمست امراضاً (١) ضراما . وعُدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن إلى طبه . لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه يتعش بمصرعه . فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه . وهو جاهل بمزاجه ، ذاهل عن علاجه . فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأدوى غصنه غداة قلنا ما أزهى أزهاره ، وما أنضر نضاره !

ونقله الله من جناب الحياة إلى حياة الجنان ، وعجل به ليحازيه لإحسانه بالإحسان . وحوله من بين الأتراب إلى التراب ، ومن دار الاغترار والاعتراب إلى موطن الثواء (٢) بالثواب ، وآذن الزمان بعد الإجداء بالإجداب . ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الغم حتى قيل إنه سره موته وواقفه .

وقصدناه معزين على ظن أنه جلس للعزاء ، فإذا هو في مثل يوم المناء . وهو في خيمة ضربها في نجيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه . ووكل بالأمرأ أصحاب القلاع ليسلموها ، وخشى أن يعصوا فيها إذا رجعوا إليها

(١) المراض : مكان سلب في أسفل الوادى ، يسك الماء .

(٢) الثواء : الإقامة .

ويحموها . وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ لإربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه وأعادها . وزاده السلطان شهرزور وأحكم بمسيره الأسباب والأمر . فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بمجده وصحبه الميامين . فوصل يوم الأحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الأحوال .

وكان قد انفصل صاحب الجزيرة - معز الدين سنجر شاه - وذهب مغاضباً وكان السلطان له في الانفصال عاتباً . فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له ما استحسنته في ترك الموافقة من عدم التوفيق . وكان هذا سنجر شاه يدخل يوم العيد بكرة للهناء ، فاستأذنه في الإنكفاء . فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه ، ولج جماعه وتعذر لإصحابه . فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانة منزلته عند السلطان جهده . وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجر المقيم . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعترام . وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله . فكتب إليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولاغادى .

وغلث الأسعار عند القرنج واستعرت الغلث ، وأعلمهم ما عراهم وعترهم العلل . وباعوا بالبواء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتصوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء . وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة . وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم ، وقصرت عن القرار بوعهم ، وأعلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم . وبعثهم الرهب على الهرب ، والتحط على الشحط (١) . لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا إلى القوت . وبلوا بأمور صعبة ، وهرب إلينا منهم عصابة بعد عصابة . وقد بادوا من الضعف البادى ، وأعداهم الضر العادى . فمن سألتاه عن مقتضى قراره ؛ ومقتضى قراره ، يخبر أنه طواه الطوى ، فنوى النوى حين التوى ،

(١) الاضطراب ، وشحط المكان : بعد .

من حنر التوى (١) . وقد أنساه المحل الذحل (٢) ، وأبغض إليه حب
السلامة الولد والأهل .

وكانت الفرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار ، والسعر
من الزيادة لديهم في استعار . فما جاء لإاكل ضعيف لا يقوى على النزاع
والنزال ، ولامسكة لاعتلاق رمة من الاعتلال . فقبلناهم وأنفقنا فيهم ،
وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم . فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد
ما أفقوا . فمنهم من أسلم وخدم ، ومنهم من ند وتندم . ومنهم من غدا
ببحريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستاد .

(١) التوى : الضياع والملاك .

(٢) المحل : الجرح الشديد والجذب . والنسل : الثأر والمداوة والحقد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ؛ وأشرقهم جرعهم (١) ؛ وعرقهم قرعهم ؛ وأخلفهم خلف عيشهم ، وضرهم ضرعهم ؛ وعيل صبرهم ؛ وعال ضرهم قالوا : « نخرج ونبلى ، ونصل ونصلى . ونقصد ونصلق ؛ ونلقى ونلق ؛ ونفل ونفلق . ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم . ونجری ونجتری ، ونبری ونبتری ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز . ونجهد ونجهل ، ونحى ونحمل ، ونقطع ونوصل . ونثور ونثير ، وندور وندير . وننتصف وننصف ، ونعفر ونعرف (٢) . ونقرح ونحرق ، ونعقر ونعرق . ونخرج ونحرج ، ونلج ونلجج . ونضرى ونضرب ، ونغلى ونغلب . ونجن ونجنى ، وننيف ونفى . ونرد ونردى ، ونجد ونجدى . ونقد ونقدم ، ونعلو ونعلم . ونصد ونصدع ، ونقد ونقدع (٣) ، ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ونسل ونسلب ، وذوع ونرعب . ونبلو ونبيد . ونصدى ونصيد . ونظفر ونظفر ، ونرهنق ونقهر ، ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر .

فخرجوا في عدد خارج عن العد ؛ واستقاموا مع الاعوجاج على جلد البلد ؛ وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال ، بعد أن رتبوا على البلد من لازم القتال . وأخلوا معهم عقيق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجباب الكريهة وأنجادها . وكان الزك على تل العياضة فركبوا ، وأشعلوا القوم بينان النصال وألبوا . فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبثة على تلك البعوث ما تركت الأتراك . فباتوا حول القوم يرمون ويلمون ، ويشوون ويصمون .

(١) جرة : شربة ، والمقصود ما جرعه من نكال وشدائد حرب .

(٢) أرفع : أعجل ، والرعب سرعة الطمن والمقصود أنهم يجعلون ويمرعون في الطمن

وإسالة السماء .

(٣) قذع : قذع الفحل ، أى ضرب أنفه بالرمح والمقصود أننا نشق بسيفنا ونظن

يرماحتنا .

ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل إلى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الأمن والسكون . وبقى الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد . وركب العدو يوم الثلاثاء سائراً ، وقد عب عبابه زاخراً ، وهب غابه زائراً . وطما بجره مأثماً ، وسما جمره مارجا .

وعساكرنا في أحسن تعبئة ، ولدعاء القراع في أوحى تلبية . وقد امتزجت زجرات الجاوش ! بنعرات الجيوش . والميمنة إلى الجبل ممتدة ، والميسرة إلى النهر بقرب البحر وصفوفها مشتدة مستدة . والسلطان في القلب كالقمر في الهالة ، عليه لإكليل من أنوار الجلالة .

فسارحتي وقف على تل عند الخروبة ، على المهابة الحالية والحالة المحبوبة . ومقدمو ميمنة عظماء دولته ، صاحب دمشق ولده الميجل الملك الأفضل وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها . يلي حسام الدين بن لاجين ، قايمز النجمي صارم الدين ، والامير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لايرجو منازلته إلا من فيه بان الياس . ثم بدر الدين دلدرم الياروق صاحب تل باشر ؛ وقد طالما بشر الإسلام بما باشر . وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرها .

وعظماء الميسرة ومقدموها ، وأمراؤها ومقدموها ، والملك عماد الدين صاحب سنجار — وهو العادل للإسلام وعلى الكفر جار . وابن أخيه معز الدين سنجرشاه صاحب الجزيرة ، والملك المظفرتقي الدين ذو السطوة المبيدة الميرة . وسيف الدين على المشطوب — الذي تشب بناره الحروب ، وتصب على العدا منه الكروب . والمهكارية ، والمهرانية ، والحميدية ، والزرزارية . وأمراء القبائل من الأكراد ؛ أقتال (١) القتال وأجادل (٢) الجلالاد .

(١) أقتال : جمع قتل بكسر القاف ، شجاع مقاتل ، قرن ، نظر .

(٢) أجادل : جمع أجدل وهو الصقر .

ورجال الحلقة المنصورة (١) واقفون في القلب لابسى الخلق السرد(٢) خائضى بحر الحرب . من كل فارس فراس ، وهرماس رماس(٣) . وضیغم ضاغم ، وضرغام غارم . وليث قضفاض(٤) ، ملوث بفضفاض(٥) وقسور قاسر ، وهزبرزابر (٦) زائر. وأسد فى غاب الأسل ، وقارع فى القراع باب الأجل . وقارثعالب الحرصان ، وذباب الظبا من دم الأقران ، وقارعلى الثبات على قلق ثبات الشجعان . وقارى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) (٧) ثقة بوعده القرآن ، وقارن حج النجج بعمرة عمره وبذله فى الجهاد ؛ للتمتع بعمر الجنان . وسابق إلى حلبة الشهادة ، وسامق على ذروة السعادة . وملابس للروع مباسل ، وعاسل كالذئب إلى ذب العدا عن الهدى بعاسل .

وسار الفرنج شرقى النهر لنا مواجهين ، وللكريهة غير كارهين . حتى وصلوا إلى رأس النهر ، وأشفقوا من باس القهر ، فانقلبوا إلى غريبه ونزلوا على التل بينه وبين البحر . والخاليشية الرماة منا حولهم جائلة ، وعيون أعيانهم على نصالنا سائلة . وجرح فى ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التلث ، وما بنا عن كثير منهم ناب النائب الكريث . والسلطان فى خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، والله منه الجاهد المجاهد .

وأصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين . ووقفوا على صهوات الخليل إلى ضحوة النهار ، والراجل مطيف محقق بهم كالأسوار . وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يتخالطونهم ، وأرادوا

(١) أمراء الحلقة المنصورة : لى أمراء السلطان وخواصه .

(٢) السرد : نسيج الدرع ، الدرع والخلق . ويقال نجوم سرد أى متتابعة بانتظام .

(٣) هرماس : هرمس وجهه : عبس . رماس : الرمس : القبر . دفن ، ورمسه بالحجر : رماه به .

(٤) القفضفاض : الأسود وقض الوتد : قلعه .

(٥) فضفاض : واسع .

(٦) المزبر : الأسد . زابر : رام بالحجارة .

(٧) الآية ١١١ سورة التوبة .

يبسطونهم . والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة . وهم ثابتون ثابتون ، ساكنون ساكنون . ونحن نقول « لعلهم يحملون ، ويفضبون فيجهلون ، فتمكن من تفصيل جملتهم يحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وتفريق الغمة بنزع جمتهم (١) » .

وأحسن العدو بالضعف ، وأنه متورط في الختف . فسار مولياً ، ولعذره لذعره مبلياً . ومضى على مضض ، ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره ، وقد أيقن إن صح منه الثبات بانكساره . وعسكرنا يضافحهم بالصفاح ، ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام ، ويلهبهم بجلدات الضرام . ويحرقهم ويشويهم ، ويصمهم ويشويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب ، ويخيف في دأماء الدماء منهم سوابغ السلاهب . ويفيض في ماء الوريد منهم ماء القرنند ، ويفيض بنى الكفر في الجمع بين الأختين عليهم ابنتى الغملوا الزند .

وأدبروا مولين ، وأرخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم ، ويلق بهم ويقلهم . وهم يجتمعون في مسيرهم ، محتمون في تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون في سكون ، ويتظاهرون في كمون ، ويتطلعون في غروب (٢) ويتفللون بغروب (٣) . ويتلويون في جمود ، ويتلهبون في خمود . وكلما صرع منهم قتيل حملوه وسرروه ، وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم ، ولا يصح لدينا كسرهم .

ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا إليهم ويعوق . وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسناً . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعاً ممكناً . وقام (إياز الطويل) في ذلك اليوم مقاماً أقعد فيه من الكفرة كل قائم ، وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداماً هماماً ، وأسدأً ضرغاماً . يطيز وحده إلى الروح إذا أبدى له ناجديه ، ويحيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه إليه . وهو في كل يوم يصبح في

(١) الجملة : معظم الشيء والكثير منه ، مجتمع شعر الرأس .

(٢ و ٣) الأول بمعنى أنزل واختفاء والثانية بمعنى ابتعاد .

سلاحه شاكياً ، وبنار عزمه ذاكياً ، ويقف بين الصفيين ، ويدعو إلى المبارزة
والحين . فما يريز إليه لإلّا من يصرع ، ولا يصل إليه إلا من يقطع .
فعرفه الفرنج وتحاموه ، فما راموه بعد ذلك ولا راموه . وبذل هذا
اليوم جهده ، وقل في قل حدهم حله . وأصابته جراحات ، وأصابتهم
اجترحات .

وكذلك سيف الدين يازكوج (١) أبلى في الجهاد ذلك اليوم ، ووقم
بنصاله ونضاله القوم . وخرج وبه جرح ، وفي قلب العدو وعينه من مهابة
انتقامه وإصابة سهامه قح . وأصبحوا بكرة الخميس ، وقد بكر الخميس ،
وحمى الوطيس ، وسار في أسده اله يس . فأشرفنا عليهم وإذاهم داخلون
إلى تخيمهم ، سائرون إلى مجثمهم . فعاد السلطان إلى سرادقه ، حامداً
خلائق خلائقه ، مسفراً في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الأتقال إلى
معسكره ، واستزاد من الله له الإقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده
عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرّد بمفخرة . وكان مع الفرنج
الخارجين المركيس والكندهرى ، وأقام ملك الألمان على عكاء يبرى ويفرى .

(١) سيف الدين يازكوج : أو يازكج الأسدي ، أحد أمراء السلطان صلاح الدين ،
ولاه أمر قلعة حلب سنة ٥٧٩ هـ وتديبر أمر ولده الظاهر بها (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣) .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر ؛ واثقين من ملوكهم
الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفى مرج عكاء ؛ عين غزيرة الماء .
يجرى منها نهر كبير إلى البحر ، فخرجوا إلى شرق النهر . وباتوا بالقرب
من مخيمهم على البلد ، وقد تحلف لحفظ حصره ألوف من أهل الجلد .

ثم أصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم ، والأسد سائرة بالأسل فى
عرينهم ، والحمية مشتعلة فى عيونهم وعرائينهم . ونزلوا رأس العين (١) ،
وتطرق بها إليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين . ولما أصبحوا وجدوها
بهم محدة ، وبيران النصال والمناصل لهم محرقة . وكنا نقول إنهم يتحركون
للمصاف والأمر بالخلاف ، وإنهم لسهام المنون من الأهداف ، وما دبرت
بهم إلا الجالشية تجول وتصول ، وتصيب وتصوب ، وتطيل وتطول :
وكانت الأطلاب واقفة تنتظر حملاتها ، وتستعد لوثباتها وثباتها .
فلما أبصر الفرنج ما حل بهم من العذاب ؛ عدوا الغنمية فى الإياب ،
وشروا فى طريق الذهاب . فعادوا من غربى النهر راجعين ، وساروا صوب
خيامهم مسارعين . وأصحابنا وراءهم يرمونهم ، ويشوونهم ويصمونهم .
وقتل منهم خلق ، وسرى فى حجب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على
الجسر وقطعوه ، وباتوا خائفين هائين ، ورحلوا سحراً خاسئين خائين .
وخيولهم الناجية مجرحة ، وقلوبهم الراجفة مقرحة ، وأشلاؤهم من كسوة
الحياة عارية وبالعراء مطرحة . وعرفوا أن حركتهم للهلكة ، وان هلكتهم
فى الحركة . وأقاموا على الضر والزاد معلوم ، والبلاء لكل منهم منفرد
وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم إلا من لحوم الخيل ، وهم يدعون بالثيور

(١) رأس العين : مدينة كبيرة مشهودة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين وديس
تبعد عن نصيبين ١٥ فرسخاً وعن حران نحو ذلك وعن ديسر عشرة فراسخ (ياقوت ج ٩ : ١٤٠
ط . ب) .

والويل . ومع كثرتهم قلوا عناءا ، وضلوا رجاء ، وذلوا بلاء ، واعتلوا
جدباً وغلاما .

ولما عاد الفرنج إلى خيامهم ؛ أخافقين من مرامهم ؛ مخفقين من مرامهم ،
وأبصر المقيمون بها أصحابنا وراءهم ؛ يطلبون إرداءهم ؛ متعطشين إلى
دمائهم ، يرومون إرواءهم ؛ وثبوا على جيادهم ، وثاروا لمراد مرادهم ،
ولاقوا أجمعنا بأجمعهم ، وفاضوا لفيضنا من منبعمهم .

فلندفع الأصحاب حتى تبرزوا ، ثم ردّوا عليهم الكرة فأثخنوا
وأجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير ، وشيطان لنار شره من سعيره
مستعير . وطلبوا بعد انفصال الحرب جيشه فأعطوها ، والتمسوا هامته فلم
يجدوها . وكان رجلا يعد برجال ، وسلبه قوم بأموال . ولولا ما اتفق من
التياح مزاج للسلطان ، ما سلم من سلم حزب الشيطان . والله في كل قضية سر ،
وفي كل بلية بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقاً في آرائه ، مشرقاً بالألاء آلائه ، ومن آرائه الراجحة ؛ ومسامحه الناجحة ؛ ومتاجره الراجحة ؛ أنه رأى أن يرتب على العدو كميناً ، وعلم أن الله يكون ينجحه ضمينا . فجمع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال منتخبي رجاله ، ومنتجبي أبطاله ، وخواص أتراكه ، وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته ، وسبقت معرفته ، وأحمدت في الجلال جلالته ، وفي لقاء العدا عادته ، وعلمت في الفتك جهالته .

وأمرهم بأن يكمنوا على ساحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة ، فمضوا وكنوا ليلة السبت منتبهي الهمة متيقظي العزيمة . وخرجت منهم عدة سيرة بعد الصباح ، منادية بجي على الفلاح .

ودنوا من خلق القوم ، ونادوا لاقعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما ، وأسعروهم (١) ضراما . فطمع الفرنج فيهم ، وظنت أنها تلاقهم . وخالتهم صيدا قد سنح (٢) ، وسرباً قد سرح . فقطعت خنادقها ، وبتت علاقتها ، وحثت سوابقها . وأخاضت بحر الحرب سوابجها ، وقد أفاضت سوابقها ، وشامت (٣) صفائحها . وتجردت عن رجالتها ، وتفردت بضلالتها ، وحملت بجهاالتها ، وأقبلت يادلالها لا بدلالتها .

وتطارد أصحابنا أمامها ، وانهزموا قدامها . حتى وقفوها على الكمين ، وأوقعوها في الملك المين . فخرج الكمين عليها ، وتباذر إليها . فلم يستطع فارس منها فراراً ، ولم يطق من غرته أن يمضى غراراً . وكانت في مائتي قنطاري ، من كل مقدم باروني وبطل داوي واسبتاري . فقتل معظمهم ،

(١) في ب أسعروهم ، والتصحيح من ل .

(٢) في ب سح والتصحيح من ل ومن أ (٢٧٠) .

(٣) شامت صفائحها : أي استلت سيوفها .

ووقع في الأسر خازن الملك ، وعدة من الإفرنسيية ومقدمهم . وملكوها
وسلبوا وملك سلبهم ، وتقطع بهم سبيهم ، وما وصلهم أربهم .

وجاء الخبر إلينا ، فركب السلطان وركبنا . وسار ووقف على تل
كيسان ، فشاهد من الله هنالك الإحسان . وجاءه مما ليكه يقودون أولئك
الأعزة بنزائم الذل ، ويمجدون بما استخلصوه من ذلك القل . ويقدمون المقدمين
من سراة الأسارى ، وتلونا لما شاهدناهم ، (وترى الناس سكارى وما هم
بسكارى) (١) فقد رضتهم اللثوث ، وقضقتهم الليوث ، وبعثتهم إلى
مصارعهم الظاهرة من مكان الآجال البعوث .

وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخنيها . وكانت بأموال عظيمة ،
فما أعارها نظرة ولا تردد أمره فيها . وفيها حصن كأنها حصون ، وزرد
موضوع (٢) ، وخوذ منها مذهب ومدهون ، وسيوف ذكور تتولد منها
المتون . وملابس راتقات تحار فيها العيون .

وأبنا بالملوك مصفدينا ، وحمدنا الله الذى يرشاده هدينا . وجلس
السلطان في خيمته على دست ملكه ، وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن
كان عنده أسيراً أحضره ، فأنعم عليه وشكره .

وكنت عند السلطان جالساً ؛ ولخير الحبور لابساً ؛ وقد جمع عنده (٣)
أولئك الأسراء ، وما أسعد الله إلا في تلك الساعة أولئك الأشقياء . (ودامت
محاورته (٤) لهم مشافهة) (٥) ، وأطعمهم بعد ما آنسهم (٦) فأكهة .
ثم بسطهم ببسط الخوان وأشبعهم وأرواهم ، ثم أحضر لهم كسوة وكساهم .

(١) الآية ٢ سورة الحج .

(٢) موضوعون : متقارب النسيج ، منسوج بجمهر .

(٣) ساقطة في ب مثبتة في ل وفي أ (٢٧١ى) .

(٤) ساقطة في أ (٢٧١ى) .

(٥) العبارة في أ (٢٧١ى) دانت لهم مشافهة .

(٦) في ب آنسوا والتصحيح من ل ومن أ (٢٧١ى) .

وألبس المقدم (١) الكبير فروته الخاصة ؛ فقد كان الزمان قد برد ، وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره وإعلام من يوثرون (٢) أن تعرف معارفه أخباره . ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال ، وحفظهم بالقيود الثقال .

(١) المذكور في ب ول . وفي أ (٢٧١ ح) مقدمهم .

(٢) في أ (٢٧١ ح) يوثرو .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشرى شوال ؛ كانت نوبة اليزك لأخيئنا الملك العادل ؛ فأشار بانفاذ عدة إليه تكون فى الكمين ، وتقم فى الكمن إقامة خادرات الأسود فى العرين . فأفئذنا إليه من ممالئكنا سرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت ، وقرت فى مكمنها إلى أن طابت الأنفس بصنعها وقرت .

ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين ، وللمنايا إلى نادبهم منادين . فاستطرد من حضر من العرب والبزكية قدامهم ، وأظهروا أنهم قد ظهروا عليهم وهربوا ورهبوا إقدامهم .

وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم ، يقوون فىهم رجاءهم ، حتى أبعدوهم عن المأمن، وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم ، وفتح عليهم أبواب حتفهم ، وأروهم وجوه المنايا فى مرايا غر الجياد ، ونزعا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد . فلقوا البيض بالبيض ، وقلحوا (١) الحديد بالحديد ، وأشعلوا نار الظبا فى ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء ، وعروهم بالعراء ، ولتوهم باللوت ، وبتوا أعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينبج منهم ناج ، ولم يبق منهم للبقاء راج .

وأسرت عدة من مقدميهم ، ومعروفهم ومحتشميهم . وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نوبة ، وكرة بغير كبة ، وغزوة آذنت بأوفر حظوة ، ووقعة آذنت بل أجت كل نصرة نصرة عذبة حلوة . والحمد لله الذى تزكو أنعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لشاكرها جدد الجدد .

ولولا مرضنا فى النوبة الأولى التى خرجوا فيها بأجمعهم ؛ لما نجوا بمشاشاتهم بل تعجل مصيرهم إلى مصرعهم . لكننا ما قدرنا فى ذلك اليوم على الركوب ، وجلسنا على تلعة قرية من المعركة ننتظر ما يكون من العسكر

(١) قلحوا : شقوا .

المنلوب . والآن بحمد الله قد توفرت حصة الصحة ، ولزمت مئة المنحة .
وكذلك مرضنا عام أول شهرين ، والحمد لله على المهلة في الستين . فأقمنا
مع السقام ، وسقمنا في المقام . وصبرنا وصابرننا ، وجاهدنا وجاهرنا .
ومقامنا في هذه المدة المدينة في بلد النور (١) ، والوخم فيه يقضى على
ماء الصحة بالنور . وما منا إلا من التاث ، فأعانه الله بغيث فضله المدينة
ديمته الإلثا (٢) ، والحمد لله الذي أعان وأغاث .

(١) النور : هو غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق (ياقوت ج ١٤ :
٢١٦ - ٢١٨ ط.ب) .

(٢) الالثا : النوم ، لث المطر ، دام أياما .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد

وعود من سار من العساكر إلى البلاد

على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق ؛ بشمول الشتاء العنيف ؛ وانحرف
حريف الحريف ؛ كانحراف مضيع المصيف ؛ واشتعلت رؤوس الجبال
شيباً للثلج ؛ وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج ، والتحت كل هضبة
يبرد البرد ؛ واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد ؛ وليست سود
الذرا بيض الفرا ؛ وجر السيل الذليل وجرى ؛ وطمر المطر هوادي الوهاد ؛
وقبض أنامل الأنام عن البسط للجهاد ، وجمد الحمر ؛ وخمد البحر ؛
وارتعدت الفرائص ، وارتدعت الأخماص ، وقرست الأيدي ، وأمسى
الجو بالجوى المسيء يعدو ويعدى ؛ وحل الهواء بالوهاد عقود
القوى ؛ وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا ؛ واشتغل الملوك
بملازمة المشاتي ؛ ومنادمة الموائى ، ومناقلة المناقل ، ومعاقة (١) العقائل
ومعاقرة العقار (٢) ؛ ومسامرة السمار ؛ ومداناة الدنان ؛ واجتناء الجنان ؛
ومناغة الغواني ؛ ومناجاة المثلث والمثاني ؛ وملابسة السوالف (٣) والسلاف
وملامسة اللطائف واللطاف : قلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاني ؛
ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى إلى المشاتي . وماصده البرد عن
مقصده ، ولارده عن مورده . ولم يحتفل باحتفاله ، ولم يبال ببلاله . ولم
يكترث بكارثه ، ولم يحدث أمراً لحادثه . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب
عن الاصطلاء بناره ، وجرى على عادته في مصابرة الأعداء والجرى لها في

(١) المعاقة : الاتصال بهم .

(٢) المقار : الحمر .

(٣) السوالف : جمع سالف وهي صفحة المتبق عند مقدم القرب ، وسالفه القرب .

ما تقدم من عنقه .

مضماره . وما لها عن الله ولا رفض فرضه ، وسما إلى سماء الآلاء وأرضاه
لما طهر بدم أنجاس أعدائه أرضه .

واستمر على بذل جهده في الجهاد ، ووفى بعهده ولم يشته جفاء العهاد .
وقال : « إنما أربأ بهذا الأرب ، وأرى راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني
في ثلج صدرى بلطف الله عنف الثلج ، وما يزيد قلبي مع تقلب الحر
والبرد إلا برد النصر والفلج . لكنه رأى أن مقام العساكر يجمعها وصرفها
عن العود إلى البلاد ومنعها ، يوذن بملامها ، واختلال أمورها وانحلالها .
والفرنج قد أمنت غائلتها ، وتكنى في مداومة قتالها في نوبها مقاتلتها .

فأذن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في الربيع ،
والرجوع إلى مراد الروع المريع . وليأخذوا أسباب الاستعداد لأوقات
الاستدعاء ، وليستكثروا من الرجال المحققين في نصرة الحق للرجاء ، من
أهل الغنى والغناء ، والمضارب والمضاء .

فسار صاحب سنجار - عماد الدين زنكي - خامس عشرى شوال
يوم الاثنين ، وتلاه صاحب الجزيرة - ابن أخيه سنجر شاه - ليكونا
مصطحبين . وسار بعدهما - ابن صاحب الموصل - علاء الدين غرة
ذى القعدة وما انصرفوا إلا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل
مكرمة شائقة شائعة ، وخلعة رائقة رائعة . ومستعملات مصر ، ومصوغات
تبر . وخيل عتاق ، وخير وإطلاق .

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل عند عود ولده إليه

وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ما كان أسعدنا بقرب الملك السعيد ؛ وما أجد جدنا بإنارة نوره ، وأوفر
حبورنا بمحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده ! وما أبهج
الإسلام بنصرة ناصره ؛ ونجدة وليّه وودوده ! ولقد تمت بأيامن أيامه
وبركات مقامه في العدو نكايات ، وظهرت لأولياء الله من أطفاف كفاياته
آيات ، ووقعت بالمشركين روعات ، وراعت وقعات .

وقد أردنا أن نستظهر بمرافقته ، ونبني الأمور على موافقته . فما أيمن
سعدته ، وما أسعد يمنه ! وما أوفر وزنه ، وأغزر مزنه ! لكننا عرفنا شوق
المجلس إلى اجتلاء سناه ، بمقتضى آدابه التي استكمل بها أدوات الارتقاء
في مطالع علاء . فقد فاق بسداد رأيه الكهول ، وما أزرى القروع الطيبة
إذا أشبهت الأصول . وما أسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ، أدام الله
علاءه ، وسر بفضائله أوليائه .

وقد توجه والقلوب معه متوجهة ، والنفوس لغيته متكرهة ، والعيون
لترقب ورود البشائر عنه متنبهة ، والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالي متشبهة ،
والموارد إلى أن يمن الله بعود الأنس بعودته متسنة ، والألسن بذكر أخلاقه
الطاهرة والإفاضة في شكر محاسنه الزاهرة متفوهة . والحواطر فيما تمثلته
أيام الاستعداد به من مبهجات آلائه متزهة .

ولاشك أنه يصف بلهجته الفصيحة ، ما اقتناه من المتاجر الربيحة ،
وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجه في الغزاة من مغازيه الصحيحة ، وأبداه
في البأس من بسالته الشيحة . وأطلعته في ليل العجاج من صبيحة (١) بهجته
الصبيحة . وله في كل نصره وهبها الله للإسلام أوفى نصيب ، فقد أصمى
مقتل الكفر بكل سهم مصيب ، وهو لمستصرخ الهدى أسبق ملب وأسرع
مجيئ ، وأن الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح إرادته أفضل مثيب .

(١) في ب صبيحة وفي أ (٢٧٤ هـ) صبحه .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج ؛ وأظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج سفنهم خوفاً عليها إلى صور فريطوها بها، وأخلوا ساحل عكا من إرعاها واراهاها . وخرنا لنا وجه البحر ، وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البديل إلى البلد ، من الثابتين في الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه إلى جانب الرمل ، ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل ، لتسهيل طريق من سيره إلى البلد من البدي . فإن المقيمين في عكا شكوا أمراضاً معترضة ، وأعراضاً ممرضة . وكثرة السواد ، مع قلة النفقة والزاد .

وكان في البلد زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي ، وأسطول وبجري . ومتميش وتاجر وبطل ، وغلمان ونواب وعمال . وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا ، وإذا عاينوا خوفاً على الموضع موهناً عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان أن يفسح لهم في الخروج رفقاً بهم ورأفة . وما أفكر أن في ذلك مخافة وآفة .

فقد كان فيه أمراء أمروا الأمر ، وألفوا الصبر ، ومانعوا الحصر ، واجترأوا وتجاسروا ، وصبروا وصابروا ، وحاربوا وحربوا ، وجاروا وجربوا ، وزاولوا وأزالوا ، وحاولوا وأحالوا ، وعرفوا مكامن المكاييد ، وكشفوا كوامن المقاصد . وأخذ كل موضعه في الحرص على الحراسة ، وشاعوا بالسماحة والحماسة .

وكان فيهم من يطعم ويتفق ، ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق ، مثل حسام الدين أبي الهيجاء السمين (١) ، فإنه أنفق ما ادخره من الألوفا

(١) حسام الدين أبو الهيجاء السمين : كان مقدم الأكراد الأسدية ، شجاعاً مقداماً ، عارفاً متجعلاً ، سيوساً ، ولي نيابة القدس فترة ثم عزله العزيز عثمان بن صلاح الدين ، سار إلى بغداد وأصبح من جملة أمراء الخليفة فسيره إلى همدان فلم يتم له أمر واختطف أصحابه عليه فاستحيا أن يعود إلى بغداد فسار إلى الشام ومرض بها ومات سنة ٥٩٤ هـ (التجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٥ ط. دار الكتب) .

والثمين . مستمراً على إنفاق ، لا تعثر به فيه خشية إملاق . وهناك ستون أميراً ومقدماتاً ، وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنماً . وكانوا ينتقصون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق ، والإعانة على ما يتفق في الحصر من التضييق .

فلما خرج الخواص خرج معهم العوام ، وتبدد بتبدد نظمهم النظام . وأُزِمَ السلطان جماعة من الأمراء بالدخول ، فخدموا على أن يعفيهم بالبدول . فلم يقبل منهم بذلك ، وأُزِمَ بنقل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا إلا بعد لاي ، وقد بلغوا في غي الرأي إلى أقصى غاي . وأكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين ، واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخين . وأذهبوا الأيام بالمدافعة ، وأبطأوا عن فرض المسارعة .

والملك العادل هناك يحثهم ويحضمهم ويحرضهم ، ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل عشرين أميراً مقدمهم الأحمـد— سيف الدين المشطوب على بن أحمد . وأمر السلطان بالمانادة في الأبطال الباطلين^(١)، ليحضروا لقبض النفقات؛ وكان يحضر الجاوش في كل يوم مئين ، ويصبح نواب الديوان في أمرهم مرتين . لحرصهم على توفير الدرهم ، ويخلصهم بالتفقه ويعدونها من المغرم . ومعظمهم من نصارى مصر ، ومن هو مصر في نصرته النصارى ، وفي تعسير ما يجب تسهيله ؛ وتعقيد ما يجب تحليله ؛ لا ينجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم للقيط قطب ، وفي الخبط خطب . وللشر شرك ، وفي الحس حسك^(٢) . وللمشرك مشارك ، وللدين تارك فارك .

ولهم أخلاق وأخلاق ، وطباع بالطبع أغلاق . تأوى للبخل والتبخيل إلى التأويل ، وتقلى لتكثير السوء في الخير سوى التقليل ، وهم جالبون للغي ، طالبون

(١) البطالون من الأجناد والأمراء . هم العاطلون من اقتطاعات الدولة ووظائفها لكبر السن أو لنضب السلطان أولئذ ذلك (السلوك ج ١ : ٧٣ تحقيق د . زيادة) و(الروستين ج ٢ : ٥٣٢ تحقيق د . محمد حلمي أحمد) .

(٢) غضب .

للبغى ، كاسبون للذم ، مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولى الخزانة ، يرى الشح بما يجود به السلطان من الأمانة . وأصنعهم في الكفاية عندهم أمتهم للإطلاق ، وأعدقهم (١) بالخلق أقدعهم ، وأعدقهم للحق أقدعهم (٢) . وأجودهم أرداهم ، وأضلهم أهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على الحياة ، مختلفون في الظاهر لإبداء الصيانة .

وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم ، ويوحشونهم بخطابهم ويفرونهم بكلامهم . ويقابلونهم بالجنة ، ويعاملونهم بالنجدة (٣) . ويواجهونهم بالسوء ويسوعونهم في الوجه . ويشتطون في طلب الضمان ، ويشترطون ما ليس في الإمكان ويطردونهم بقبيح الزجرة ، ويكسرونهم في صحيح الأجرة .

والسلطان يجود جود السحاب ، ويأمر بالعطاء الحساب . ويجد حث الثواب ، ويجد في بعث الأصحاب ، ويقول: «أنفقوا ولا تخشوا اقلاقاً، وأنهبوا الرجال خفافاً وثقالاً ، ولا تؤخروا شغل اليوم إلى غد إمهالاً أو إهمالاً . ولا تقدموا على هذا القرض فرضاً ولا نفلاً ، ولا تعتقدوا أن لنا أهم من هذا الشغل شغلاً » . ونواب الديوان على عادة جهالتهم ، وعادية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير ، وما دخل الثغر إلا قليل من كثير . وما صح من البذل إلا بعرضه ، وما قضى حق الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقوى أسباب الضعف ، وأوفق دلائل الخلف .

وسياتى ذكر ذلك في موضعه في سنة سبع ، فإنه عاد كل ما دبر بضرر على الثغر لا ينفع .

وأقام الملك العادل على البحر لازاحة علل الداخلين ، وإراحة قلوب الواصلين . حتى عاد الفرنج بمراكبهم ، وانقطع بوصولهم الطريق من جانبيهم . واقتنع البلد بمن إليه تحول ، وعلى حفظه من الله بعصمته عول . وبتاريخ يوم الاثنين ثانی ذی الحجة ٤ وصلت من مصر بالغلة بطس

(١) أعلقهم : من اختص منهم .

(٢) أقدعهم : أذلهم وأضعفهم .

(٣) النجدة : الرد يأتيح الرد والاستقبال بما يكره .

سبع . وكان لها للحاجة إليها وقع ، وقيل قد تم بها للجائعين سبع . وانقلب أهل البلد إلى البحر لمشاهدتها ، ومعونة جماعتها ومساعدتها . ونقل ما فيها من بضائع وحوائج ، وسلع روائج . ومأكول ومطعموم ، ومشروب ومشوم . فقد طال بذلك كله عهدهم ، وانتهى إلى الغاية جهدهم .

فلما تسامعوا بالبطس ؛ تسارعوا إلى الملتمس . فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر إلى جانب البحر فزحفوا زحفاً شديداً ، وحملوا جندياً وحديداً . وأتوا بسلام لينصبوها على الأسوار ، وصارت عكاء وهم حولها كالمصم في السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين ، وللضيق متصادمين . فانذق بهم السلم المنصب ، وسطاً بعصابتهم المصوب بها النصب سوط العذاب المصوب .

وتدارك الناس ، وتلافوا وتلاقوا ، وتعاطوا كوؤوس المنايا وتساقوا . ورأوا غمرات الموت فزاروها ، وداروا حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه ، وألقوا الأجل كامناً فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواب السباع على الضبياع ، ورفعوا لقرئ العواسل الجلياع نار القراع ، وأطالوا بشبا العوالى للعوائى باع الإشياع . وأنبعوا عيون النجيع من عيون الجميع على جداول البيض ، وأفاضوا فيوض الدم القاني بالصارم المفيض . وقتلوا وسفكوا ، وفتكوا وهتكوا . وردوهم على أعقابهم ناكصين ؛ ومن حسابه ناقصين . ولاشتغال الناس بكشف ما عرا من الغمة ؛ وأظل من الظلمة ؛ والتهاثم بثقل الغلّة ، عن نقل الغلّة ؛ وتركوا البطس يحالها ، مملوءة بغلالها ، حتى هاج البحر فضرب بها الحشف ، وأذهب بكسرها كل ما فيها وأتلف . وغرق من كان فيها ، وأتى الغرق على الأمتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفساً ، عدموا ولم نجد لهم حساً . ناموا والقرر متبّه ، وذهلوا وحكم القضاء إليهم متوجه .

وفي ليلة السبت سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكاء على فصليها فهدمته ؛ وثررت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة ، فتبادروا إليها طمعاً في هجم الثلمة . فجاء أهل البله وسلوها بصدورهم ،

وصلوا عنها بنحورهم . وبنوها بأبدانهم إلى أن بنوا ذلك البدن ، وعمروا ما خرب وقووا ما وهن . وقتلوا وجرحوا من العدو خلقاً ، وأوسعوا بالمضايقة في كل ذى خرق خرقاً، فانجلى الحرب عن طريق صريح ، وجريح إلى الهزيمة سريع ، وطلح للعقير قريع .

وعاد النغر أقوى مما كان وأحكم ، وكل ذلك يجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدم المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الأمراء وضجوا ؛ وطلبوا الخروج ولجوا ؛ أقام ولم يرم ، ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم .

وفي ثاني عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف ، ولعله من عرض الخوف ، وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار ، وأبصر في جهنم مصاير أمثاله من الكفار . وزاد بهلاكه ألم الألمانية ، وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر إلى سقر ؛ كند كبير يقال له - كند تيباط ، دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير ، واشتغلت بهم الحجيم واشتعلت عليهم السعير .

وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذى الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان في براكيس (١) ، ليغزوا في البحر ويكونوا أيضاً لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا ، وكسروا وكسبوا ، وسروا وأسروا ، وقسروا فظفروا . وذكروا أنهم وقعوا بحرقاة كبيرة ومعها براكيس ، وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . وأسر التجار وأخذ المال وحيزت تلك المراكب وجذبت إلى الساحل ، فإذا هي مشحونة بالكراثم الجلائل . من كل آنية مطبوخة ذهبية ، وحلية مصوغة فضارية ، وآلة فضية ، وأباريق وأكواب وأقداح ، وأطباق وموائد وسبائك وصفاح ، وكاسات وطاسات، ومرافع وشربات . فوفر السلطان

(١) البراكيس : جمع بركوس ، ذكر الدكتور الشيال في مفرج الكروب ج ٢ : ٢٣٨ - بتحقيقه عن محيط المحيط أن البركوس أو الباركوس ضرب من السفن بين البريق ، والفرقاطة وعن kindermann op. cet. p.5 أنها مأخوذة من الكلمة الإيطالية Barcoso ويقابلها بالفرنسية Barque وبالإنجليزية Bark .

عليهم هذه الأكساب ، ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب وأظهروا لهذه النهضة أنهم مناصحون ، وليمين الإيمان مصافحون .

فلما أكرموا بتلك المكرمة ؛ أثنوا على اليد المنعمة . وأسلم منهم شطريهم ، وحسن بيننا ذكرهم . وبيركات الكرم السلطاني كرموا ، وأنسوا وأسلموا . وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عالية ، ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن ، ويتعذر وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطاراً ، فما أعارها السلطان طرفه احتقاراً . وقال لهم : « خذوها فأنتم بها أولى » . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى .

وكنت عنده جالساً ، وبلطفه مستأنساً ، فقلت له : « ما أظن في الوجود ملكاً يسمح بمثل هذا المال ، خصوصاً وقد أغنمه الله من الحلال » . فتبسم لقولي غيظ معجب به ، وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه .

وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذت من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفراً ، فجلنا لنا نصراً ، وعلا نجاحاً وحلا ظفراً .

وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضاً بركوس ، فيه من الفرنج مقدمون ورعوس . وهم نيف وعشرون ؛ منهم أربعة خيالة ، ضمتهم من الأسر حباله (١) . ومعهم ملوطة (٢) ؛ مكلفة بالؤلؤ منوطة ، وبأزرار الجواهر مربوطة . قيل إنها كانت من ثياب ملك الألمان ؛ وأسر فيه رجل كبير قيل إنه ابن أخته ؛ وهو كبير الشأن .

وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل (٣) ، رب الفضائل والقواضل من مصر ؛ فأشرقت المطالع ، وأشرقت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه ، ، وغزرت المواهب بسماحه . وغابت بحضور

(١) حباله : مصيدة .

(٢) ملوطة : جبة من الحرير

(٣) القاضي الفاضل : يقصد القاضي عبد الرحيم اليماني الكاتب المعروف وثقة صلاح الدين

ووزيره الأول وقد سبق التعريف به .

مكارمه المكاره ، ونزع بلبسة أفضاله لباس الخمول ذوى الفضل النابه ،
وأعاد روح السلطان بإعادة الروح إلى سلطانه ، وسر بمكانه ، واقترن
إحسانه بإحسانه . وظهرت في وجهه به الطلاقة ، وفي قلبه العلاقة ، وروى
رأيه يرى رايه ، وتلقن آيات النصر من نص آيه .

وانتعش عثارى بمقدمه ، وانتقش خط فخارى بكرمه . وحلى عطلى ،
وحيا أملى ، وقوى عملى . ووضح منهاج مناهى ، وصح مزاج غناى .
ونبه قدرى ، ونوه بذكرى . وسعى في رفع رتبى وزيادة راتبى ، وسن
غربى (١) ؛ وأسنى غاربى (٢) . وأقرنى وقربنى ، واستكتب الخطوط
بالحظوظ كما كان استكتبى . فعشت ونعشت ، وفرشت بساط الغنى فرشت .
ولولا أنى قويت به لأقويت ؛ ولولا أنه أولانى عارفته لما عرفت ولاتوليت ،
فأنا شاكر نعمه عمرى ، وعامر كرمه بشكرى .

(١) سن غربى : ملح وأطرى نشاطى .

(٢) أسنى غاربى : أهل قبرى .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكاء سبعة من الأمراء كل منهم سبع ، ما في لقائه للقرن طمع . ومن جملتهم (سوار) من الممالك الخواص ، ومن ذوى الاستخلاص وكان هذا (سوار) في كل حرب مساورا . ولكل هول مباشرة ، وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر ، فإذا هو إلى الجنة سائر . وكذلك عدة من أمراء الأكراد ، كانوا من الآساد ، فجازوا بحظ الاستهاد .

وخرج أسطولنا في هذه السنة ، بشوانيه المعجبة المحسنة . ليكبس شوانى الفرنج في مواضع الربط ، وإحراقها بقوارير النفط . فخرجوا إلى شوانينا بشوانيتهم ، ولقوا عواديا بعواديتهم . وظفرت أساطيلنا وطالت ، ووصلت إليها وصالت ، ونالت من الظفر ما نالت . وأحرقت للكفر شوانى برجالها ، وغرقتها بأبطالها .

وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه أمير مبارز ، كالأسد الحادر (١) . لا يصحر إلا للفريسة ولا يبرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن أرككز . فشين الشينى وشانه ، وما أعانته أعوانه ، وامتألت بالأعطاب أعطانه ، واضطربت للانكار أركانه ، واضطربت بأهل النار نيرانه . فتواقع من فيه إلى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء .

ووقف الأمير على قدم جلده يجالد ، ويجد ويجاهد ، وقد أثقله بليس البسالة الحديد ، وخف به العزم الشديد السيد ، وقد دعاه إلى أمنية المنية الذكر الحميد ، والأجر العتيد . فما ارتاع للروع ولا استطاع الانقياد بالطوع . ولامكن العدو من مكانه ، وأخذ مع الشانء بشانءه .

ولولا أن ملاحيه جينوا وفروا ، ومناصحيه خذلوا وما قروا ، لجنى بسيفه ثمر النجاة ، لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة ، فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع ، وسلدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا : « خذ

(١) الحادر : القاتر الكسلان ، أو الذى لزم خدوه وعريته .

منا الأمان واستأسر ، وهون الأمر عليك ولا تعسر ويسر . فالعاقل يختار
البقاء على الفناء والوجود على العدم ، وأنت في عين الهلاك إن لم تعظنا اليد
وثبت على هذه القدم . فقال : « ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم
الكبير ، ولا يخاطر الخطير إلا مع الخطير » . فسما له كندا أرضاه ، وأراد
أن يشركه فيما الله قضاه .

فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه ، وقوى عليه وما فارقه . ووقع إلى
البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام واتفقا ، وعلى طريق الجنة والنار افترقا .
فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم ، وصلى الكند الكنود بنار الجحيم .

واستشهد أيضاً في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدى ، جرح فمضى
حميدا ، وشهد مقامه في الجنة شهيدا ، وسعى دهره حتى قضى سعيدا .
ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر ، وسعداء
المعشر ، وكرماء المحشر ، وندماء الكوثر ، وحلفاء المقخر .

واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى (القاضى المرتضى ابن قریش
الكاتب) . وكان صدرا تتجمل به المراتب . وجرياً جارى القلم ، بليغا
بالغ الحكم . مهيبا يخشى ، مرهوبا لا يفتشى . وهو في أهبة من المهابة ،
وكتيبة من الكتابة . صوبه في الصواب منتجع (١) ، وخطابه في الخطب
مستمع . ولرأيه رى وريا ، وتدييره للأمر بتنفيذ الأوامر السلطانية دينا
ودنيا . ولم يكن له في الكفاية كفاء ، ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه وفاء .

وكان رجل دمشق بنابلس له ميلك بدمشق قد تركه ، ورغب في
ايتياعه (القاضى المرتضى) ليملكه ، فتماضى قاضى نابلس مرارا بإحضاره ،
فلما حضر رغبه في البيع على إيثاره ، بأضعاف الثمن ونقد ديناره . فانفصلا
على التراضى ، ونجح سعى القاضى للقاضى . وبكر البائع إلى سلام المشتري ،
ووثب ووثب المجترى . وطعنه بمديته ، وهو آمن في خيمته . وفتك به

(١) المنتجع : الموضع يقصده الناس طلبا للكلأ .

فتك اللعين — أبى لؤلؤة (١) بالفاروق (٢)، وخرج من الخيمة كالسهم في المروق . فلقى قاضى نابلس ققتله ، ومضى يسلك سبله . فأدركه الناس وقتلوه ، وكاد يفلت لو لم يعاجلوه ، ففجع المنصب بمصابه ، وناب عنه أخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين ، والشتاء لم يشمل شتات شمله ، وعقد البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ، ولزور الربيع ريث (٣) . وللسحب سح ، وللضح (٥) شح . ولعين الشمس غض ، ولوجه النجم ومض ، ولأيدي العارض بسط وقبض ، ولنواظر البرق تنبه وغمض ، ولنواجز البرد كشر وعض ، ولقص الفصل ختم وقض . وكل صباد في بحر كانون (٥) كنون ، وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأحوال أحوال ، وللأهواء أهوال . وللشمام شمول ، وما للقبول قبول . وللجنوب ذنوب ، وللدبور (٦) في إديارها وإقبالها هبوب . وللصبا صبايات وصبايات ، وللندى الندى جنبايات وسرايات ، وللجو الجوى آيات ونكايات . وللعمائم غماغم ؛ ولهام الربا من هامى الرباب (٧) عمائم . وللكياء نكيات ، ولشبا شباط (٨) شبآت . والرواعد رواعف ، والهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو ، وحركة وهلو . ومحبة وسلو ، ونزول وعلو ، ونصفه وعتو ؛ ولراعايا الرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا ، وخبايا المرونج النابتة في زوايا التاوئج النازلة

(١) أبو لؤلؤة : هو فيروز عبد المقيرة بن سورة ، طمن عمر رضى الله عنه بنجر في خلاصته في ذى الحجة سنة ٢٣ هـ (أبو الفدا ج ٣ : ١٦٤ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .
(٢) الفاروق : هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد أطلق عليه هذا القمب لأنه استطاع أن يفرق بين الأمور .

(٣) الريث : مقدار المهلة من الزمن .

(٤) الضح : الشمس ، أو ضوءها أو ما أصابته الشمس .

(٥) هو مقابل شهر ديسمبر وأما ما يقابل يناير فهو كانون ثانى .

(٦) الدبور : الريح الغربية .

(٧) الرباب : السحاب الأبيض وواحدته ربابه .

(٨) شباط : ما يقابل شهر فبراير .

خفايا . والعواصف القواصف عواص غير قواص ، والعارض عارض للحب
في العراض عراض (١) ، والقوارس قوارص ، والحوالس (٢) نحوالص . والبحر
في هيجانه ، والغيم في هطلانه .

والسلطان مقيم بمخيمه على شقْرم ، ولطف الله به قد خص وعم .
والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا ، لتجهيز البديل
في المراكب إلى عكا . والسفن تدخل إليها بالأزواد ، وتعود وترجع إليها
بالأجناد . ويحرص ويحرص ، ويرسل إلى السلطان ويستنهض ، والسلطان
يفاوض التواب في ذلك وإليهم يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال ،
ويتفق فيهم الأموال .

والأمر مستمر ، والقرار مستقر . واليزكية زكية ، وستهم في المناوبة
سنية ، ولوافح عزماتهم ذاكية ؛ ونوافح مكرماتهم ذكية . والممالك الحواص ،
ومن خصمهم وعمهم الاستخلاص ؛ يفادون القتال ويراحونه ، ويكافئون
العلو ويكافونه ، ويمارونه ويمارونه ، ويرحون به ولا يبارحونه .

والعدو على عكاء حاشد ، ولضالة ضلاله ناشد . يحمون ويحمون ،
ويرامون ويرمون ، ويلذبون ويشبون ، ويحبون إلى الكفرة بسوط العذاب
ويصبون . وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء ، واستقبلوا
النعمة في البلاء ، والسعادة في المشقة التي تعدها الأشقياء من الشقاء ، إن وجدوا
غرة اهتبلوها ، أو استوعروا كرة استسهلوها ، أو صادفوا مائة صدفوها ،
أو لقوا غمة كشفوها ، أو صرفوا أوجههم إلى نائبة صرفوها .

(١) عراض : جمع عرصه وهي كل بقعة واسعة بين النور ليس فيها بناء - والعراض
يتشديد الراء هو السحاب ذو الرعد والبرق .

(٢) الحوالس : الخلس هو الكلال اليابس ثبت في أصله الرطب فاغتلط .

ذكر ما تجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواحيث

في يوم الأربعاء تاسع المحرم ؛ سار الملك الظاهر لتقصد بلد صافيتا ؛
بالعزم المصمم ، والرأى المحكم . وفي ثالث صفر ؛ عزم من بى من أصحاب
الأطراف السفر . فإن السلطان رخص لهم في ذلك ، فانتهجوا في عودهم
إلى بلادهم المسالك .

وأقام السلطان في أصحابه ، وخواصه وملازمى بابه ، وملازمى جنابه ،
ورجال رجائه ، وخلص أوليائه ، ومقرئى أمرائه . وفي هذا اليوم رحل الملك
المظفر تقي الدين ليتسلم ما في شرقى القرات من البلاد التى كانت مع مظفر
الدين ، مضافة إلى ميا فارقين . فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرة (١)
وحماة (٢) وسلمية (٣) والرها (٤) وحرآن وسميساط (٥) والموزر (٦)

(١) المعرة : اسم لموضعين بالشام أحدهما معرة مصرين وهى بليدة وكورة بنواحي
حلب . ومعرة النعمان ، وتنسب إلى النعمان بن بشير الصحابي وهى مدينة كبيرة بين حلب وحماه
(مراسد الاطلاع تحقيق عل البجارى) .

(٢) حماة : إحدى المدن الكبرى بسوريا على نهر العاصى وتشتهر بنواعيرها (ياقوت
ج ٧ : ٣٠٠ ط.ب) .

(٣) سلمية : من أعمال حمص تارة ، وتارة من أعمال حماة سماها أهل الشام سلمية (بكر
الميم وتشديد الياء) وهى مقربنى العباس قبيل يده دعوتهم السرية وفى أثنائها (ياقوت ج ١٠ و ١١ :
٢٤١ - ٢٤٢ ط.ب) .

(٤) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ (ياقوت ج ٩ :
١٠٦ ط.ب)

(٥) سميساط : غربي ، نهر القرات على شاطئه من طرف بلاد الروم (آسيا الصغرى)
ولها قلعة في شرق منها يسكنها الأرمن (ياقوت ج ١١ : ٢٥٨ ط.ب) .

(٦) الموزر : كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم (ياقوت ج ١٨ : ٢٢١) .

وميآفارقين (١) . وشرط معه أن يحافظ على عهد صاحبي* آمد (٢) وماردين (٣) .

والبلاد المظفرية كانت قد بقيت إلى هذه الغاية ، مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضموننا بها على الخطاب ، غير مسموح بشيء منها للطلاب . فإنه ما رامها من الملوك ، أخى السلطان وأولاده ؛ إلا من يشرط الفسحة له في استضافة ديار بكر إلى بلاده . ويقال له : « لا سبيل إلى قصد أحد ، ولا انزعاج بلد ، ولا إزالة يد . فإن أرباب البلاد أكثرهم لنا معاهد ، وعلى ودنا معاهد ، وفي شغلنا مساعد . فأما من هو عنا متقاعد ؛ ومنا متقاعد ؛ فما هذا أوان مكافأته ، ولا زمان كف آفأته ، وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق ، وعزمتنا في قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح ؛ والحاسد الحاشد ؛ من يشغلنا عن هذا المهم المفروض ، والرأى الراشد » .

فقال تقي الدين : « أنا لى في ذلك الجانب ميآفارقين ، فإذا أخذت حرآن ومسياط والرها ؛ أدركت من تكتيز العساكر وتقويتها المشتهى ، وبلغت المتهى . وأنا أدخل على الشرط وعنه لا أخرج ، وأجمع العساكر وإلى نصركم أعرج . وآتيكم بعد أشهر بأوفى عسكر ، وأكرم معشر ، من لابسى سنور (٤) ، وملابسى مورد في الروع ومصلى » .

وما زال يستسعف السلطان عمه ؛ ويستهدف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ؛ ويسأل ويتوسل ؛ ويرسل ويتوصل ؛ حتى أخذ دستوره ، واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع إيايه ، ويحكم في العود أسبابه . وإنما يلبث

(١) ميآفارقين : مدينة بديار بكر قرب آمد وهي أقوى تحصيناتها (ياقوت ١٨ ٢٣٥) .

(٢) آمد : أعظم مدن ديار بكر وهو بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود (ياقوت

ج ١ : ٥٦) .

(٣) ماردين : قلعة على قمة جبل الجزيرة ، تطل على دارا أودنيسر ونصيبين (ياقوت

ج ١٧ : ٣٩) .

(٤) سنور : لبوس من قده كالدرع .

ريشما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم ترتيب نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب ، ويأتى بالآتي العباب ، ويعرض عساكر لا تدخل في الحساب . وسارع إلى الرحيل وسار ، بعدما استشار ، ولله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر ؛ وصل كتاب الملك المجاهد : الجواد الماجد ؛ أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ؛ وهو الجرى الذي إذا جرى أضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ، ولم يشركوه .

ومضمون الكتاب : أنه خرج في آخر محرم ، على جيش (١) العدو بطرابلس واستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصه منه أربعمائة رأس ، تلف منها في الطريق أربعون ، غير ما كان أصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم أيضاً أبقارا وآب قاراً ، وسار بالغنيمة سارا . وأهدى لى من ذلك بقلعة سرجية ، عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله : « لما أبصرها واستحسنها ، قال : تصلح للعمامد . فإنه إذا ركبها زينها » .

وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت ، كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت ، وكان فيها من الفرنج خلق ، فغرق في بحر الأسر ؛ من لم يسر إليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا ، وما هديتا بل أهديتا . وشاهدت الأسارى قدّام السلطان وقد أحضروا ، فردهم على الذين أسروا .

وفي أول ليلة من شهر ربيع الأول ، خرج أصحابنا من البلد على العدو بالثائب الأعصل (٢) ، والثائب الأعصل . (٣) وكبسوه في مخيمه ، وخيموا عليه في مخيمه . فما انتبهوا لهم حتى أسروا من الفرنج وقتلوا جمعا ، وأوسعهم إلى أن ضويقوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين ، كاسرين كاسيين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة في السبي ، وعرف الله لهم حق ذلك السعي .

(١) الجيشير : جاء في القاموس المحيط أنه الجواثق الكبير أو الوفضة وهو وعاء كالجبة من الجلد أسفلها مستو أو الخريطة يحمل فيها الراعى زاده وأداته ، غير أنه يفهم من السياق أن المؤلف قصد البشار وهي المشاية ترعى في مكانها ولا ترجع إلى أصحابها عند المساء .

(٢) الأعصل : الشديد ، المعصل .

(٣) الأعصل : المعوج في صلابه .

وفي الأحد ثالث هذا الشهر ، شهر سلاح الحرب أهل الكفر . وخرجوا على اليزك ، وكانت النوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعة ، وفخمت الروعة ، وصدمت الصدعة ، واحتدمت على الفرنج بناها السرعة . وهلك منهم عالم كثير ، وقتل منهم مقدم معروف كبير ، ولم يفقد منا إلا خادم رومي صغير . عثر به في الحملة فرسه فلم يتعش ، واستشهد ليعيش في الآخرة مع من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعيش . وهذا الخصى كان فحلا من الفحول ، ناهضا على الكفر للإسلام بحمل الذحول (١) .

وانتهى إلينا أن الفرنج على عزم الخروج ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . . فلا مرعى لنوابهم ولا علف ، وإن لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف . فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن يذهب ويقصد الساحل . ويكمن بعسكره وراء التل الذي كانت فيه قديما منزله ، وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته .

ومضى السلطان بنفسه في خواصه وأجناده ، وأقاربه وأولاده ، فكمن وراء تل العياضية ، في العصبة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الأول ، مستظها بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه أيضاً أولاده الصغار ؛ ليستأنسوا بالحرب ، ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر ، فما أقدم على الخروج ولا جسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء ، قبات فيها وحوله الملوك والأمراء .

ووصل إليه من بيروت خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج : أخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم (٢) هرم ، عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن ، ووهن كالشن (٣) . وانحى كالحنية ، وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام ، وعامت في بحر لياليه وأيامه الأعوام . وهو ممسوخ الحلية ، ممسوخ اللحية . قد بلى مما بلى ، وقلى من طول ما لى . وسم

(١) ذحول : نبع ذحل : النار ، العداوة ، الحقد .

(٢) المم : لقتان ، الرقيق التحيف .

(٣) الشن : القرية الحلقة الصغيرة .

حياته وسُمِّ ، وعدم لداته (١) ولذآته وما عدم . وكم جاوز قرنا وعبزه
إلى قرن ، وبارز قرنا وتازله بعد قرن . حتى لم يبق منه إلا إهابه ، ولم يرقب
منه إلا ذهابه .

فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعة ، واختياره الضيق على
الأرجاء الواسعة . فسأله كم بينه وبين وطنه ، ولأى سبب حركته من سكنه !
فقال : « أما بلدى فعلى مسافة شهور ، وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة
لأظفر بالحج المبرور » . فرق له ومنّ عليه بالاطلاق ، وأخرجه من ذل
الرق إلى عز العتاق . وردّه إلى الفرنج راكبا على فرس ، ولم يرقته ولا أسره ،
حيث رأى نفسا مرتنه بنفس . وسأله خدام أولاده الصغار ؛ أن يأذن لهم
فى تجريب سيوفهم بجرح الأسارى الكفار . فلم يأذن لهم فى ذلك وأباه ؛
فأرضى كل منهم — بامثال الأمر — أباه . فقيل له : « لأى سبب منعهم
من ثواب الجهاد المغنم ؟ » فقال : « لئلا يجترثوا من الصغر على سفك الدم » .
فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

(١) لداته : جمع لدة وهو التراب الذى نشأ وترى ملك .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

أول من قدم من العسكر الإسلامية علم الدين سليمان بن جندر ، وكان يجلب المقدم المؤمر ، وهو شيخ له رأى وتجربة ، ومنزلة كبيرة ومرتبة ، ومعه حصنا عزّاز وبغراس (١) . وللسلطان بقره ومجاورته الاستثناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره ، وأبيضه وأسمره ، ويبيضه ومغفرة ، وجنى جنده وسنى سنوره . وجلبه ولجبه ، وزمره وعصبه ، ويبارقه ويليه ، ويوارقه وسجبه .

وقدم في ذلك التاريخ بقدمه الملك الأجد مجد الدين بهرام شاه — صاحب بعلبك ، وقد استصحب معه مماليكه الترك ، وقد نوى بالمشركين الفتك ، ولسترهم الفتك ، وللمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواضيه ، وصوافته وسلاحيه ، وطلائعه ومقانيه ، وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من أسنة العوامل بكواكبه ، وأظلاماً جواده ليرد به دماء أهل الكفر ، فإنه يعدها من مشاربه ، فعن ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين (٢) بذلك القضاء ، جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء ، وجرى ذلك الوادى من (٣) الأجناد والأمراء بسيل خيل ترد دأماء الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حاقاته الخرق ، ومن عاداته بعداته الخرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق ، ومن علاقته عند الظماء أن لا يرويه إلا العلق ، ومن صبايته بالسيز إلى عناق الأعداء بسواعد سيوفه الخبيب (٤) والعنق (٥) . ومن شيمته عوض التغلف

(١) بغراس : مدينة في لطف جبل الكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب في المنطقة المطلّة على نواحي طرسوس (ياقوت ج ٤ : ٤٦٧ ط.ب) .

(٢) في أ (٢٨٧ ش) المستقبلين .

(٣) في ب مع والتصحيح من ل ومن أ (٢٨٧ ش) .

(٤) الخبيب : ضرب من الجرى .

(٥) العنق : السير السريع .

بالعبير التضمخ (١) بالنجيج ، ومن ديمته وبل التبل من الأحداق والنواظر
في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته لإسماء حنين الحنية بسهمه ، وإسماع
أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لا عرائس ، وقوانس
لا عوانس .

وقدم بدر الدين مودود والى دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع
الآخر ، وبشر بورود العساكر ، ووصول الجمع الوافر .

(١) للتضمخ : تفسخ بالطيب ؛ تلتفح به .

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكاه واسمه فليب(١)

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك افرنسيس إلى القوم وصان جبلهم
وشملهم من البت(٢) والشت(٣) ، وكان وصوله في بطس ست ، حملت
من الفرنج كل ذى شوْم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله
ويقولون لنا من تهديده ووعيده مايجرى على قوله . وأنه إذا جاء ؛ حكم وأحكم ،
وتقض وأبرم ، وقدم ما قدّم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة ،
فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة ، وجدة عن الفقر مباحدة . فقلنا لهم : « ربّ
صلف تحت راعدة ، وما هذه الأراجيف منكم بواحدة » . فلما وصل
في العدد القليل ، والنظر الكليل ، أعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته
وذلته . وقلنا : « ما يكاد تصل صولته ، أو تلوم دولته » .

(١) هو فيليب أغسطس ملك فرنسا وأحد الزعماء الذين ساروا بعد هزيمة حطين سنة ١١٨٩م
في الحرب الصليبية الثالثة (مذكرات تاريخ المصور الوسطى في أوروبا والشرق لمحمد رفعت) .

(٢) البت : القطع .

(٣) الشت : التفرق .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب . فقارقه يوم وصوله ، بحيث عجز عن حصوله . وأقلت من يده وطار ، وحشا حشاه الباز الذى نار النار . ووقع على سور عكا ، وحزن الملك يوم سروره بفراقه وأبكى . واستجابه فما استجاب ، وأبى وما أب ، وثبت وما ثاب . فبصر به أصحابنا فأخنوه ، وإلى السلطان أنقلوه ؛ فأبدى للسرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز ، وأظهر به احتفالا ، وعده للظفر والمنحة فالأ . وبذل فيه الملك ألف دينار فما أجيب ، ولأؤهب له ولا هيب ، وما بيع ولا عيب ٥

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج إلينا ، تسلموا براكيس يغزون فيها ويمجرون بجواربها ، وينهضون بسواربها ورواسبها ، وينهشون بعقاربها وأفاعيها . ووصلوا إلى ناحية من جزيرة قبرص يوم عيدهم ، وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريتهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم ، ثم أغلقوا أبواب الكنيسة عليهم ليأمنوا إفلاتهم . وأسروهم بأسرهم وسبوهم ، وبتوهم من البلاء بما أتوهم به ويلوهم . وكنسوا كل ما كان في الكنيسة ، من الأعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم إلى براكيسهم .

ولاذوا باللادقية وباعوا بها كل ما أخذوه من البيعة . ومن الحملة سبع وعشرون نسوة سبايا ، وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا ، واقتسموها رخصا (١) ، وزادوا بما نالوه حرصا . واستغنوا بما استغنموه . وأثروا بما أثاروه وأثروه . وفرحوا بما راحوا به من مغنم ، وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمئة درهم .

وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية فاقطعوا قطيعا من غنم الفرنج غنيمة ، وخالطوهم في خيامهم وأمطروهم من وبل النيل ديمة . وركبوا بأسرهم ، بنخلهم ورجلهم في إثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

(١) حرصا : كذبا .

خير وصول ملك الانكثير (١) واسمه ليجرت (٢)

إلى قبرس (٣) واستيلائه عليها

وصل الخبير أن ملك الانكثير وصل إلى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر في الجمع الوافر ، حاملاً جموعاً كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته إلى الجزيرة ، مراكب وشوانى على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس إليها ، واستولى عليها ، وغنم أموالها ، وصدم رجالها . فلما وصل أرهف حد عزمه ، وأقصى فيض غيظه إلى غيض حلمه ، وهو مغضب غير مغض ، مريض من ألم الحقد ماله سوى التشقى شاف مرض : فلبث مفكراً ، ومكث متحيراً ، وتروى متخيراً فرأى أن قبرس في يده ، فاستن من جده في جده . وناشب القتال ، وواظب الزوال ، وقارع بالنصال النصال . وحلت المناياحها لاحتاء البيض بالاعتاق ، واعتناق الغلاظ مع الرقاق .

ونفذ يطلب من الفرنج على عكاء نجدة ، ليجد بشدة ويوجد شدة . فنفلوا له جفري أخوا الملك العتيق (٤) ، في جموع مترافقة الرقيق . وامتدت الحروب ، واشتدت الكروب . ورأى أن فريضته تعول ، وأن حالته تحول ، وأن شغله يطول . واتفق أيضاً أنه كان رام الروم من الفرنج الفرج ، وخطب كل واحد من ضيق الخطب المخرج المخرج . فتراسلوا في الصلح ، وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم إلى أسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكثير ، وإثما بما تم من التقرب

(٢٠١) ملك الانكثير ليجرت : هو Richard قلب الإسد ملك انكلترا ابن هنرى

الثامن وقد تم الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة ١١٨٩ م بعد مراسلات عدة .

(٣) قبرس : هي جزيرة قبرص الموجودة في شرق البحر الأبيض المتوسط وقد

حصلت على استقلالها منذ قليل .

(٤) الملك العتيق : هو «كي» كما جاء في كتب المؤرخين العرب وهو Guy of Lusignan

king of Jerusalem وقد أسره صلاح الدين يوم حطين وفك أسره بعد أن أقسم أن لا يماربه .

والتقرير . وحمل له هدايا ، وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد ، وبذل له الأمداد . فأخله في أمته ، وأبرز له مكره من مكمنه ، وغثه ثم غلته وشده وما حله ، وجازاه لما أعزه بأن أذله ، وغادره بغدره في القدر والقيّد ، وما بطشت يد عادمة إلاّ يد كيد الكيد .

واستولى بالاستيلاء عليه . على تلك الجزيرة ، وغرق في جمات أمواله الغزيرة . وسبأى ذكر وروده وما تم به لأحزاب الشيطان وجنوده .

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الأحد ، وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة بالنجح المتجدد ، وهو أن أصحابنا أخلوا عند الثغر بمراكبهم للغازية في البحر من مراكب الانكيز خمسة وطراة ، ولم تكن لولا إباء رجالها للضم معتادة ، وبخزام القهر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال ، وذخائر أخاير من عدة ومال ، وأثقال وأثقال ، وأخشاب وآلات وأحمال وأحوال . وفي الطراة أربعون رأسا من الخيل الجياد ، قد جلبوا البلاد يجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا وأجيزت إلى بيروت وأجيزوا ، فأما السبايا فقد أخرجن على البيع بالثمود والنساي (١) ، وأما الأسراء فقد عمدنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف العدو إلى البلد ، بالجلد والجلد ، والعدد والعدد ، والمدى والمدد ، والجمع المحتشد ، والجمر المتقد . والبيض واليب ، والبيض والقبض ، والسمر السلب ، واللعب والخلب . والصباخ والضجيج ، والعجاج والعجيج ، والشيوخ بالشيوخ ، والأمر المريج . والقصد بالقصد (٢) ، والزغف والزرد . والحديد والعديد ، والقريب والبعيد ، والاتباع والعييد . والأوباش والأوشاب ، والكلاب والذئاب ، والسباع والضباع ، والضواري الجياع . والأسود والأسود ، والزرق والحمر والسود . ودبوا وذبوا ، وشبوا وسبوا ، وصابوا وصبوا ، ونابوا ونبوا ، وعبروا وعبروا ، وجابرو وجبوا ، وزحموا ورجموا ، وأقدموا وتقدموا .

(١) النساي : البيع بالأجل وأنسأ في البيع ، باعه وآخر له دفع الثمن .

(٢) القصد : جمع قصده وهي القطة ما يكسر .

وقدموا سبعة مجانيق وقربوها ، ونصبوا فيها ونصبوها : فعلت كأنها قلاع ، وارتفعت على التلاع كأنها تلاع . وهي في الجو مترامية ، وبالجو رامية ، وفي السماء سامية ، ولأهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها ، مقتلعة بمقالعها . منقضة أحجارها لانقضاض الجدار ، منقضة أسوأؤها لانقضاض الأسوار . حاصرة حاصبة « عاملة ناصبة . قائمة قاعدة ، بارقة راعدة . صادمة صادعة ، صارمة صارعة . حبالى من الجبال أجتتها ، وحنايا للحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الأحجار ، ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق ، صواطل بالفلق على الخلق . مطايا للمنايا ، روابا لحباياها البلايا .

في كفاتها آفاتها . وفي حركاتها إدراكاتها ، وللتعذيب عذباتها ، وللترهيب جذباتها ، وما أعظم جنابات جنادها ، وأظلم غوايات غوائلها . وهي الروائم الروامى ، والحوائم الحوامى . والهوامم بالهوادى ، والصوامم بالصوادى ، ودواعى العوادى ، ونواعى النوادى . والنواعب بالنوى ، والجواوب بالجوی . والصواوب بالمصائب ، والنواوب بالشواوب . إذا جذبت جذت ، وإذا قذفت أذقت ، وإذا طوحت طرحت ، وإذا حلقت حلقت . وإذا أطارت أبارت ، وإذا ألقمت ألقمت .

فشق على أصحابنا بالبلد شقاقها ، وكادت تفتح إليه الطرق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا واستنهضوا ، وحضوا على حظنا وحظهم وحرصوا ، واستنفروا واستنصروا . واستعدوا واستدعوا . فأصبح السلطان راكبا في العساكر ، طالبا شغل العدو الكافر ، الحاضر الحاصر . وسير من كشف هل للعدو كمين ، أو كيد دفين . ثم وقفت للعساكر عنه ومر إلى تل الفضول بالقرب ، وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب ، ونكايتها في الضرب والضرب . وعرف أماكن القتال ، ومكان الرجال ، وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد أطل وأظلم ، ذل جمعهم وكل ، وترك الزحف وانقل . وإذا عاد عادوا وعدوا ، وأناروا في الحرب وأسودوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه ، وطموه رضيعا له ثلاثة أشهر في غير أوان فطمه ، واستحلوا بحكم الجهاد في جنح الظلام جناح ظلمه . وفتحوها بواحدنا وساعدها ، وكلروا صفو مواردنا . وقطعوا عنها فلذة كبدها ، وأسعروا عليها جنوة كمدتها ، وحرموه درّ لبنها فدرّ دمعا . وأبعده عن مناغاتها ومناجاتها ، فوقر عن كل حديث سمعها .

فخرجت والهة ، وللحياة كارهة ، وللخد خادشة ، وللوجه خامشة . معولة مولولة ، مذهلة مشتعلة : قد شدّته (١) ودهشت ، وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها ، مذ سلب طفليها . وغاب ذهنها ، مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والأين ترجيعها ، وتردد للقلوب مما فجأها ، وفجعها من الكروب تفجعها . وهي نائحة في كل ناحية ، نادبة في كل ناد ، نادبة لكل فؤاد ، عادية في كل واد .

فلم يشعر السلطان إلا بامرأة بالباب واقفة ، وبالنحيب هاتفة . وللموع حادرة بتصاعد أنفاسها ، ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صلرها بتقطيعها ، ضارعة لفقد رضيعها ، معولة على الطفل معولة على اللطف ، متكررة من النكر متعرفة إلى العرف .

فأحضرها السلطان وهي باكية ، ونارا كتبها ذاكية . تنحدر عبراتها ، وتتصعد زفراتها ، وتلهب حسراتها . تبيكي بيكائها ، وتشتكي من دأها ، وتشد ضالتها ، وتطلب مهجتها ، وتسال عن حشاشتها ، وتشتعل نار قلبها على فراشتها .

فلما شاهدها السلطان حريية حزينة ، مسكينة مستكينة ، متجننة متحننة مولعة مولهة ، موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها ، ورثى لبلواها ورحمها

(١) شدت : دهشت .

ورق بلطفه للطفل الرقيق ، وسلك بفضله طريق التوفيق . وطلب الرضيع ،
فقبل له إنه يبيع وأصعب . فإن آخذه باعوه بثمان نحس ، ولم يعرضوه في سوق
بزّ ، ولا سوق نحس . فما زال يبعث ويبحث عنه ؛ ويلوم باذله كيف لم
يصنه ؛ حتى جىء به في قماطه ، وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه .

فلما أبصرت واحدا ؛ ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت ،
وشدّت يدها به وشدت . فأعادها وبنواله أفادها ، وبردّ حرّها بردّ روحها ،
(وأسا ما أساء (١) الأسي (٢)) من جروحها وقروحها ، وروحها بروحها ، وفرّع
حوحها ، وأغناها بغناها ، للشكر عن نوحها . وظهر سر سرورها عليها
يروحها ، وشيع معها من أوصلها إلى موضعها ، وقد اجتمع شمل المرصعة
يمرضعها . وما رد الطفل إلا بعد ما اشتراه من مشتره بثمان يرضيه ، (وهذه
خادرة (٣) من جملة أياديه .

(١) في أ (٢٩٣ ش) أساته .

(٢) في أ (٢٩٣ ش) « وأسى ما أساته الأسي » أما في ب ول « وأسا ما أساء الأسي » .

(٣) ما بين المقوسين ساقط في أ (٢٩٣ ش) .

ذكر انتقال السلطان إلى تل العياضية

لما أصهر الفرنج على مضايقة عكاء في كل يوم ؛ وخطبوا متاع متاعهم في ابتياعها بكل سوّم ؛ وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض ووعوم ؛ وداروا حول حمى دارها بكل حوم ، ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعاكر إليهم في كل بكرة وعشى ؛ ولراغب القوم بكل حد مرهوب وجد مخشى ؛ وكانت المسافة نائية ؛ والآفة دانية ؛ انتقل السلطان إلى تل العياضية ، بعساكره وأتقاله بالكلية ، بالعزائم والصرائم الماضية المضية ، الراضية المرضية .

ولم يكن انتقاله دفعة واحدة ، بل مهد له قاعدة . فإن يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغه أن القوم قد عاودوا العوادي ، ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضابقوا البلد أشد مضايقة ، وعالقوه أجد معالقة . فأمر الجاوش حتى نادى ، وباكر العدو بالعاكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل إلى الخروبة وقوى اليزك ، وألزم المقدمين والأمراء بحفظ نوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو إذا عاين قتلها خرج بالكثرة ، وتورط في العثرة . فلم يشغل بها بالا ، ولم يلفت إليها جنانا ، بل تصرف على عناده ، ولم يصرف نحوها عنانا .

واشدد على البلد زحفه ، وامتد عسفه . فساق السلطان بالعاكر وهجم ، فترك (١) العدو الحصار وأحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو إلى مجيئهم ، والسلطان على قصد العود (٢) إلى خيئهم . ولما وصل إلى تل الخروبة ؛ ونزل في خيمة لطيفة لأجله (٣) مضروبة ، وصل من اليزك من أخبره أن العدو لما علم أنه قد انصرف ، عاد إلى أشد ما كان فيه وزحف ، وأنه قد أربع

(١) في ب ول (وترك) والمذكور من أ (٢٩٤ى) .

(٢) في ب ول العدو والتصحيح المذكور من أ (٢٩٤ى) .

(٣) في أ (٢٩٤ى) له .

وأرغف ، وأرهنق وأرهف ، وألمى وألب (١) وأهف . وأرهب وأرهبج ،
وأعجز وأزعج . وثار وأثار ، وألحم الملحمة بناره وأثار .

فبعث السلطان هذا الخبر على أن بعث إلى العساكر بالمخيم فأعادها ،
واستهض إلى الفريسة آسادها ، وأجرى في حلبة الحمية جياها . ودعاها
إلى طعن يبرح بالنوابل ، وضرب يرنح أعطاف المناصل ، وأمرها من
الحرب بأمرها ، وأدارها من مرى أخلاف الدم بأدرها .

ثم سار آخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى إلى تل العياضية قبالة
العلو ، وضرب خيمته بأعلاه ظاهر العلو . والعلو بالحضر والزحف مصر
مضر ، وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان في كل يوم يصايح القوم بالقتال
ويماسيهم ، ويرواحهم ويغادهم ، ويفاتحهم ويأديهم . بضرب كما اشترطته
حدود الظبا ، وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وقتك كما تمتته المنية ، ورمى
كما حنت إليه الحنية . هنا ومجانيق الكفر على الفى مقيمة ، وللرمى مديمة .
وبالأحجار متقاطرة ، وعلى الأقطار حاجرة . وللجلايد بالجلايد قارعة ،
وللصخور بالصخور قالعة .

وتمكن الفرنج بها من الخندق ، فدنوا منه دنواً المحقق . وشرعوا في
هجمه ، وأسرعوا إلى طمّه . وداموا يرمون فيه جثث الأموات ، وجيف
الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون
إليه موتاهم . وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا فريقين ، واقتروا
قسمين . فريق يلقى من الخندق ما ألقى فيه ، وفريق يقارع العلو ويلاقيه .

(١) ساقطة في ب شعبة في كل من ل و(أ) (٢٩٤ ش) .

ذكر وصول ملك الانكثير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور ، أشاع أشياع الكفر سر السرور ، وعقلوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكثير ، وأظهروا أنه في الجمع الكثير ، والجم الغفير . وكانت معه من الشواني خمس وعشرون قطعة ، كل واحدة منها تضاهى ثلعة ، وتوازي قلعة ، وحدث في القلوب روعة ، وأرث في النفوس لوعة .

ولمت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائدة ، وأنفاس للشرار متصاعدة : وألسنة للشعل نضناضة (١) ، وأشعة على الجحور مفاضة . فكأنما أوردت الجحيم لقدم وارد نارها نارها ، وأوصلت لوصول أولئك الشرار شرارها ، وأورث (٢) لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدياجير (٣) الأضواء ، وهتكت عنها هتك ستر الظلام ضلالهم الظلماء .

فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم ، ولما كانوا من أهل النار (قامت النار (٤)) بيرهانهم ، وأنتهم باتيانهم ، وضافتهم في مكانهم ، وملك الملك بأمره أمرهم ، وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملاً عين الملاعين ، وأطال لظلاولهم أشطان (٥) الشياطين . وحفر للمكايد آبارا ، وأثر في المكر آثارا ، وأرث للشر نارا ، وأثار لنصرة النصرانية ثارا .

وتحدثت الناس بحادثه وحديثه ، وبما تآثرت القلوب به من تأثيره وتأثيره ، وارتابوا وارتاعوا ، والتاحوا (٦) والتاعوا . وغدت الألسنة ترجف

(١) نضناضة : النضناضة من الحيات التي أخرجت لسانها تحركه ، والتي لا تستقر في مكان أو التي نهشت فقتلت من ساعتها ، والمقصود متحركة قاتلة .

(٢) في أ (٢٩٥ ش) ورد .

(٣) في أ (٢٩٥ ش) الدياجر .

(٤) ساقطة في ب مثبتة في ل وأ (٢٩٥ ش) .

(٥) أشطان : جمع شطن وهو الجبل .

(٦) التاحوا : علسوا . التاعوا : احتلقت قلوبهم من ألم ، وكانت بها لوعة .

والقلوب تجف . وكاد الباسل يجين ، والباطل يخشن : والحق يلين ، والدين يلين .

والسلطان قوى الجنان ، روى الإيمان . صاف يقينه ، واف دينه . شاف نصحه ، كاف نجحه ، مسفر لعين الاسلام صبحه ، مسرف في قلب الكفر جرحه . ماض عزمه ، قاض حكمه ، مثبت جيشه بثبات جاشه ، عامل لمعاده ، ونصر الحق في معاشه . متأن في تفكره ، متأت في تدبره متوكل على ربه في نصرة دينه ، متوسل إليه في تأييده وتمكينه . لا تروعه المخافات ، ولا تخيفه الرائعات . ولا تززع الخطوب طود وقاره ، ولا تنفض النوائب نخم ذماره . ولا يلين للشدائد ، ولا يستكين للروائع الرواعد . وكم سكن الإسلام بحركاته ، وأخصبت الأيام بركاته ، ونام الأنام ليقظاته ، وأمنت مصر والشام بنهضاته .

فما راعه ما عرا ، وما درأ عزمه لما درى . ولارد وجهه عما قصد ، ولا صدف رأيه عما عليه اعتمد ، بل ازداد قوة بصيرة ، وازدان بسيرة لكشف أسرار الغيب مستتيرة ، وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل (١) ودلف في الأرض فوهب ثوبها للقسط . وأعالم ملك الانكبير أن جمع كفه للتبشير ، وأن نشاط سره للتفتير ، وأن أسنة أهل التوحيد مولة من نجوم أهل الاشراك بهتك الستير .

وركب في مراكب حلت المنايا الحبا في كتابها ، لتحتي أعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها ، بجيل تأبي الضيم مثل إيناته ، وفخر منار التقع ينوب عن لوائه ، ووجه كالمع البرق في ضباته ، وقاب كصدر العضب في مضائه .

وأقام السلطان على هذه الحالة ، ساميا في مطالع الجلالة ، لم ينقض سلاحه ، ولم يخفض جناحه ، ولم يركز رماحه ، ولم يردع الروح مراحه .

(١) اللبل : جمع ذابل : الطويل ويقال نى لاصق بالليط ذابل أى رسح دقيق .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسة ، وزادها من العدد والآلات يسطة . وأودعها من كل نوع ميرة ، وملاًها غلة وذخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا ، من كل من طهر وتزكى ، وشكره الإسلام إذ الكفر منه تشكى . فلما توسطت ثبج اللجة ؛ وتورطت على نهج المحجة ؛ صادفها ملك الانكثير بحكم قضاء الله والتقدير . وأخذت بها شوانيه ، وعدتها عواده . وقاتلتها نصف نهار ، وهى لاتدعن لاقتسار . فأكبت من العدو مراكب ، وجبت لها غوارب . وأخرقت وأغرقت ، وهتكت وخرقت ، وفرقت وما فرقت . وقتل من الفرنج خلق عليها ، وما امتدت يد عدوانهم إليها .

فلما يست من سلامتها ، وزلت عن استقامتها؛ وانحلت عرا وثاقها ؛ وانحطت ذرا اعتلائها واعتلاقها ؛ ومالت إلى الاستسلام ، وجالت على الاصطلام ، قال مقدمها : « علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل ، والشح بالدين أحب إلينا من البذل » ، فنزل إلى البطسة فخرقتها ، ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها ، وافترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها .

ووصل إلينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الأولى فقلنا :
« الدهر يومان نعمى وبؤسى ، وما يزالان على ذلك حتى يزولا » وكانت هذه
الوقعة أولى حادثة للوهن محدثة ، وللهم مورثة ، ولنار الأسى مورثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة ، قد أظهرت لها في الشر غائلة . ولها أربع طباق ، شدها على الارتباط باق . ولها من الإحكام باس ولباس ، وهي خشب ورمصاص وحديد ونحاس . وة بوها إلى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس ، وفي طباقها سياع ضوار وذئاب طلّس (١) . وبلى البلد منها بكل بلية ، ورزى بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل ، ليقرّبوا بتقريبها أسباب الأجل ، فباتت القلوب منها على الوجمل .

وكاد أصحابنا يطلبون الأمان ، وخضع كل أبى واستكان ، فقارعوا عندها أشد قراع « وماصعوا (٢) أجد مصاع .. وتوالت عليها من مساعير الرهط ؛ قوارير النفط . وهي تضرب في حديد بارد ، وتضرب عن كل شيطان مارد . وتنبو عن الإحراق ، وتُنسب عن الإخفاق . حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب ، فأخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسمهم في الالتهاب . ففوذناها بسورة (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى (٣)) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب ، ومن حرّ أنفاسها برد النفوس ، وكشف شعاعها ظلم الكروب ، ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبؤس البؤس . وأنارت نارها لنا بكل نور ، ولهم بيوار قوم يور .

ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها ، فأحرقها الله لإحراق أهلها بذنوبها ، وكما أضاعت الآفاق بنيرانها ، أظلمت بلدانها . فجاءت لنا بياض النصر في السواد ، فكأنه سواد الناظر أو سويداء القواد ، بل سواد المداد يأتي من أتواره بالإمداد . فجلا حريق هذه الدبابة صبدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة ، وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فإتما أحترقت الدبابة يوم وصول خير غرق البطسة ، فكان تشميتاً لتلك العطسة .

(١) طلّس: لونها أغبر إلى سواد.

(٢) ماصعوا: قاتلوا وجالدوا.

(٣) الآيتان ٢٠١ و٢٠٢ سورة النجم .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكاء عند زحف العدو دق الكوس حتى إذا سمعناه جدنا في الزحف إلى العدو بالنفائس والنفوس . ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته ، ونظرنا من جانب العدو مثارغيراته . فعلمنا بزحفه ، وعملنا في حثفه ، وضرب الكوس السلطاني لإصراناً لصراخ ذلك الكوس ، فتمايلت أعطاف ذوى الحمية من حيا العزائم لامن حيا الكووس .

وركب السلطان في كل مشمر للبرد (١) مضمهر للجرد ، قفضاف السرد (٢) ، قفضاف كالأسد الورد ، مشتاق إلى الطرد ، ملتاح من ماء الورد إلى الورد ، من الترك والأكاديش والعرب والكردي . يهوى إلى الأقران هوى المصلتات إلى الرقاب ، ويظماً إلى ارواء الأسل الظماء فيطيل صدى الخيل العرب . وكل ثمل كأنه نزيف الحميا ، يعيد السماء من الأرض بركضه شاحبة الحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره ، وكل طلاع مع النوب لاينام ثاره ، ولايثبت في الجفن بغراره . وكل منصلت (٣) ينير في ظلام العجاج بنجوم الأسنه ، وكل مطرد يعيم السوابح السوابق في بحور الأعنة ، وكل رام فروج المأزق حتى تفرى بأيدى المذاكى ، وكل شاك في السلاح مشكور في إشكاء الحق الشاكي . وكل مصمم مصم درعه غير محقبة (٤) ، وسهامه غير مجعبة . وسيوفه غير مقروبة ،

(١) مشمر للبرد ، المشمر : الماضي في الأمور المحرب ، المجد أو الرفع لثوبه . والبرد : ثوب مخطط ، كساء من الصوف الأسود يلتحف به ، والعبارة كناية عن المشمر عن ساعد الجند في الحرب .

(٢) السرد : اسم لكل درع وحلق .

(٣) المنصلت : من الرجال : الشجاع الماضي في الحوائج . ومن السيوف ، الصقيل الماضي

(٤) محقبة : حقب المطرا حجبس ، استحقب الشيء : ادخره . الحقب : الحزام الذى

يلحقه البعير ، والمقصود أن درعه غير محبوسة بل عاملة مستخدمة .

وقبابة لمداومة اجراء قبه (١) غير مضروبة .

وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنايك جوانب جحفله ، وايضت بلمع الترائك مذاهب قسطله ، واشتبهت في النقع ألوان خيله ، وامتدت إلى قرار اللقاء أعناق سيله . فكأنما غارت الشمس من شمس شمسه ، فتوارت بالحجاب ، وعد النقع في وبل التبل من حساب السحاب .

وولجت العساكر عليهم في خيامهم ، وحملت ليالي القتام إلى أيامهم ؛ وغلّت الصدور بما فيها ، حتى وصلوا إلى القدور على أثافيها (٢) . وهتكوا وفتكوا ، وأدركوا وسفكوا . فراجع الفرنج ، واصطفوا على خنادقهم ، ووقفوا بقتضارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يمتعون ويمحاون ويعلون من دماهم وينهلون . ودخل الظهر ، وحى الحر ، فافترق الفريقان ، وتراجع إلى خيامهم الجمعان .

(١) القب : يقصد بها هنا جمع أطرافه من قب الشيء : جمع أطرافه ، أو قب القوم : رفعوا أصواتهم في الخصومة .

(٢) جمع أثفية وهي الحجر يوضع عليها القدر .

وقعة أخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر ، ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة ، وكانت من أشدها وأجدها كريمة . غير أنه في هذه النوبة عاضت نوبة ، وكادت تم كبوة : فإن الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجلدوا فئة من عساكرنا (١) داخل مخناذقهم ، فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبي سوابقهم . فانتشبت الحرب ، واشتجر الطعن والضرب . وكثرت الجراحات ، وكثرت الاجترحات . واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان ، تسلمهما رضوان (٢) إلى الجنان ، وقتل من المشركين جماعة أسرع بهم مالك (٣) إلى النيران .
ومن عجائب هذه الوقعة ، أن رجلا من مازندران (٤) من أهل الرفعة ؛ وصل في تلك الساعة وافدا ، واستأذن وقت السلام على السلطان أن يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد ، فلقى الله بعهدته كما عهد .

(١) في ب عسकरنا والتصحيح المذكور من ل ومن أ (٢٩٥ ش) .

(٢) رضوان : أي خازن الجنة .

(٣) أي خازن النار .

(٤) مازندران : اسم آخبر لبلستان (ياقوت ج ١٧ : ٤١ ط . ب) .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارساً وراجلاً ، وراعماً ونابلاً . وامتدوا من جانب البحر أطالبا ، وتمزبوا في ذلك الفضاء أحراباً . وركب السلطان من مجالس عادته ، إلى مجال سعادته ، مؤقتاً أن أداء عبادته ، في إبرة العدو وإيادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت ، وجحمت (١) نار إقدامها وما أحجمت . وما زالت نجوم النصول تنفض ، وختوم النحور تنفض ، وعيون العيون ترفض ، وديون النحول وحقوق الحقود تقتضى ، وأبكار اللروح بجلود الذكور تفتض .

في شعواء حضرها التباب (٢) الغائب ، ونكباء لما من الذوابل ذوابل . ويحمر تسبح فيه السوابح ، وشرب بكاس المنية منها المهيج غوابق (٣) صوابح . وغيراء أسود نابها توابث عن عقارب القسي ، وئعالب لهاذم صعادها تتلاعب في أرقام السمهرى . وذباب ظباها تظن في مسامع الذئاب ، وعقبان راياتها تملق إلى مطالع السحاب . وغدران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب ، وغران (٤) سوابغها تفيض في غطامط الغياهب . وأرواح أغمادها البارية عن الأجسام برية ، وقلوب آسأداها الضارية على الردى جرية .

حتى دخل على ليل النقع الليل ، وجرى من ديمة الدم السيل ، والتفت لما التفت بالليل الخليل ، وأفرج المأزق عن قتلى جر (٦) عليها من السوافي الذليل . واستشهد من المسلمين بدوى وكردى ، (واكم وقع من المشركين

(١) جحمت : اضطرت .

(٢) التباب : النقص والحسارة والملاك .

(٣) الغوابق : جمع غبوق وهو ما يشرب في العشى بخلاف الصبوح .

(٤) غران : جمع الأغرة ؛ من الخليل ما كان له غرة .

(٥) غطامط : عظيم الموج . والسوابق ؛ الخليل التي تكون في المقدمة .

(٦) في ب جرى والتصحيح من ل .

رد ردى (١) ، له في الماوية هوى ، وعليه (٢) من زفير جهنم دوى .
وأسر من العدو فارس بفرسه ، ولأتمته وقونسه (٣) . وتفرق الفريقان عن
المعترك عند معتكر الدجى ، وقد عم من الشجب ماشجا .

(١) ف أ (٣٠٠ ش) ولكم من المشركين ردى .

(٢) ف ب عليها والتصحيح من ل ومن أ (٣٠٠ ش) .

(٣) قونسه : القونس أو القنس يسكون النون : أهل الرأس ، والقونس والقونوس

- يسكون الواو - أهل بيضة الحديد ، وعظم ناقة بين أذنى القرس .

وقعة أخرى

وأصبح العلو يوم الأحد التاسع والعشرين ، وقد أخرج من جانب
النهر راجلاً في عدد رمل يبرين (١) بقواطع يبرين . وقواضب يفرين ،
وطوالع غروب في الطلى يفرين ؛ وبالردي يفرين ، وانتشروا ممتدين وامتدوا
متشزين . فلقبهم اليزك بكل من يزيه عند شهوده مضاء كالقضاء ، ويوافقه
القضاء في المضاء . وكل معتقل للرديني أخف إلى الوغى من سنانه ، وكل مشتمل
للمشرفي خضيب الغرا ريانه ، وكل ملتئم بعثير حصانه ، معتق لعطف مرآنه .
وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة ، وكل قارح على
قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة .

وامتد راجلنا أمامهم ، وأثبتوا قدامهم أقدامهم . وطلال القتال ، وطار
النبال . وحاضت الذكور ، وفاض التامور . وأعمى العثير وعم العثور ،
وأسروا منا واحداً فأحرقوه فصحب ثوره بين يديه إلى دار القرار ، وأسرونا
منهم واحداً فأحرقناه فشبث به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة
واحدة تشتعلان ، والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرنا أنهما لأخت ملك الانكبير
وأنهما كانا يكتمان لإمانهما في سر الضمير . وأخبرا أنها زوجة صاحب صقلية
فلما هلك صادقت في الاجتياز بها أنها هذا الملك . فألزمها بأن تتبعه
واستصحبها معه . وقدرا ما النجاة من تلك الفاجرة لنجاة الآخرة . فأكرم
السلطان وفادتهما ، وأجزل بالإحسان إفادتهما .

(١) يبرين : قرية قرب حلب (التاموس المحيط باب الراد فصل الياه) .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ، ذكر عن المركيس (١) أنه هرب إلى صور ، وأنه كشف للجماعة المستور . ونقلوا وراءه قسوساً ، وألقوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروساً . فبنا قبوله ، وانقطع وصوله .

وكان سبب نفااره ؛ وموجب استشعاره ؛ أن (هنفري) كانت زوجته ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده ، وعادتهم أنه إذا مات ملك ينتقل ملكه إلى ولده . وسواء في هذا الميراث ، بين الذكور والإناث . فيكون الملك بعد الابن إذا لم يخلف ابناً للكبرى ، فإذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق (كبي) أخذ الملك بسبب زوجته الملكة ، فعزلوه عن الملك لما احتوت عليه يد الهلكة . وبقيت هذه زوجة هنفري ، فأصبح المركيس عليه يجرى ، ويقول : « لست من أهل الملك لتكون الملكة لك زوجة ، ولا بد لي من تقويم هذا الأمر حتى لا أبقى فيه عوجة » . وغصبها منه ، وصرفها عنه . واتخذها له عروساً ، وأحضر لنكاحها قسوساً .

وقيل إنها كانت حبلى ولم تخرج من حباله الحبل ، فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس أن الملك انتقل بها إليه ، وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلما جاء ملك الانكبير تظلم إليه هنفري والملك العتيق ، فانفتح بذلك له إلى مواخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وماقر ، وأخذ معه الملكة وفر .

(١) في ب المركيس . والتصحيح من ل .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الإسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الأولى قدم عسكر سنجان ، وقد سد سواد عديده النهار ، وأفاض بياض حديده الأنوار ، ومقدمه مجاهد الدين يرتقش - الشهم الشديد ، والسهم السديد . والألمى اللوذعى ، والكيمش الكمى ، والتقاب النقى ، والعف التنى . وهو ذو همة في الغزو عالية ، وعزمة بالمضاء المضىء حالية ، وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية ، وسريرة خالصة صافية من الكلر خالية .

وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه ، وإقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره إلى أن وقف تجاه العلو من جانب البحر مما يلي الزيب (١) ، وقد أحسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان مكرماً إلى جنبه ، مقدماً على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم إليه بالنزول في مسرته .

وفي يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة ، وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة ، بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل : علم الدين كرجى - الذى يسرع إلى لقاء أقرانه ولايرجى ، وكسيف الدين ستقرالدوى ، ذى الزند الورى ، والسيف الروى ، وأمثالهما من الممالك الناصرية ، والمساعير الأسدية . أسد العرين ، الشم الحرائين ، الغر الميامين .

وفي عصر هذا اليوم ، وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل إلى أحرورية ونزل بها ، ليصل بكرة إلى المعسكر بالعساكر في أحسن أهبها . فركب السلطان إليه ولقيه وعاد ، وكل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه ، سائراً بأساده في عريسه ، مقبلاً بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب (٢) كأنهم أجادل والجياذ مراقبها ، وخيل

(١) في ب الذيب والتصحيح من ل .

(٢) غلب : اعداد كثيفة ، والأجادل : جمع أجدل وهو الصقر ، أو الدرع المحكمة .

كانها انظمام والترائك كواكبها . ونقع (١) كأنه الأقي (٢) والمقربات (٣) قواربه ، ومجر تصادم مناكب الآكام مناكبه ، وتملاً الوهاد طواله وغواربه . عاريات غروبه ، عاليات غواربه . ثقال مذاكيه بأعباء عواليه ، كأنما نهضت لإذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتابه ، وأعربت عن مناقبه مقابنه .

وتلقاه من أولاد السلطان الملك المعز فتح الدين إسحاق — وهو من جملتهم البحر بل الغيداق (٤). والملك المؤيد نجم الدين مسعود (٥) — وهما كاسمه مسعود مجدود . وتلقاه الأمراء والعظماء ، والخواص والأولياء . وساق على تعبيته ، واجابته دعوة الإسلام وتليته ، إلى جانب البحر ، ليرعب أهل الكفر . وعرض وتعرض ، وعلم العدو بأنه إليه نهض واستنهض . ولما انفصل السلطان أخذه معه إلى خيمته ؛ وأحضر له أسباب تكريمته . وآتسه بانساطه ؛ ونظمه مع أصحابه في سمط سماطه . وأجلسه إلى جنبه ، وعقد له حياجه . وخصه بخلع وثياب ، وحصن عراب ، وما يليق به من كل باب . وانصرف عنه ونزل على ميمته ، نزوله عام أول في منزلته .

وفي يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارقة أعنة خيلها إلى الجهاد ثانية ، ساطية على الكفر ببأسها جانية ، وقد علمت الوقائع أنها ثمراتها اليانعة . من ورق الحديد الأخضر جانية . فما نزلت حتى عرضت على العدو مقابنها ، وأبرزت لعينه قناها وقواضبها . وأرنت برسلى المنية لآليه قسيها ، ثم جاءت وألقت بمضاربيها عصيها . وكانت العساكر تتوارد ، والجموع تتواقد .

(١) النقع : الماء المستنقع ، النار . والمضى الأول أنسب للميق .

(٢) الأقي : الذي أتى من حيث لا يدرك .

(٣) المقربات : من الخليل التي يقرب معلقه ومربطه لكرامته .

(٤) النيداق : الكريم .

(٥) الملك المؤيد نجم الدين مسعود : هو ابن صلاح الدين الأيوبي ولد بدمشق سنة ٥٧٢ هـ .

وتوفى سنة ٦٠٦ هـ (النجوم الزاهرة ٦ : ٢٦٢) و(تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ١١٢) .

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست نمته ، وأسلت القلوب عنه -
والمجانيق قد رمت شرافاته ، وسمت إليها بأفاته ، وأعادت جوانبه
مهلومة ، ونواجزه مهتومة . وانحطت عنه بمقدار قامة ، فلم يتمكن أحد
عليه من إقامة .

وضعف البلد والخلد ، وخللا بالهم عليه الخلد . وقد حفظ القوم من
جانبتنا خنادقهم ، ووكلوا بها فيالقتهم . ونحن لأنألوا في الجهاد جهداً ولاترك
جداً ، ولاينجد من مضايقتهم بكل نوع بدا .

وجاء الخبر أن ملك الانكتير قد أشقى من المرض ؛ وأشرف من
المضض ؛ حتى حلق رأسه حلق لحيته ، واستلقى لانتظار منيته . فتشبث
الله نوح وتثبتوا ، وسكنوا وسكتوا . إلى أن يركب فيركبوا ، ويثب فيثبوا .
وكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق . وانتعاش عثرة ، وانجبار
كسرة ، وانطفاء جمرة ، وانسداد ثغرة .

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل

في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين - دام علاؤه - في مقلبي الجنود الأنجاد ، ووقف
اجتهاده على موقف الجهاد . وما أكرمه قائماً في المقام الكريم ، وعظيماً
خاطباً دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح ، وأنشر الصدور
بما صدر به لهم من نشر الانسراح ، وجاء والكريهة ذاهبة بالأرواح ،
والحرب ساقية طلاء الطلي في صحاف الصفاح ، وقد برزت بنات الأعماد الذكور
على أكف أكفاء الكفاح ، لتكاح الهام بالسفاح . وشارك في الجهاد وشد
الأزر ، وسدد الأمر . وآزر وعضد ، وظاهر وأسعد . ولا خفاء عن العلم
بجال الفرنج في هذه السنة ؛ واجتماع ملوكهم وكنودهم ؛ وتوافد أمداد
حشودهم ، وقد استشرى شرهم ، واستصرى ضرهم ، وأعضل
خطبهم ، واستفحل أمرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات ،
وتركيب آلات ودبابات . وزحفوا إلى بلد عكاه يجمعهم ، ووقدوا بجمهرهم .
وأخلطوا فيه تقويًا ، وحكموا في الأسوار من الأسواء بضرب المجانيق
ضروبًا . والثغر الآن قد أشرف ، والعدو قد أسرف . وكلما زحف إلى
الثغر زحفت العساكر الإسلامية إليه ، وهجمت عليه . والعدو بخندقه
محتجز ، ولفرصة الغفلة عنه متتهز ، ومن جثوم الموت عليه في مجشمه محترز .
ولم يبق إلا أن تتدارك الله الثغر بلطفه ، ويحرره على المعروف من عادة نصره
وعرفه .

والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج ، ووضح لهم في ثبات جناتهم
المنهج . وفي كل يوم يسلمون بأشلاء الهاجمين عليهم التلم ، ويحلون عنهم
بما يشبونه من نيران الظبا الظلم .

والعدو قد لجج ، والحديد من قرع الحديد قد ضجج . والبلد مشفج ،
والبلاء عليه موف . والمأمول من الله أن يأتي من نصره بما ليس في الحساب ،
وأن يعيد ما جمع من أمر الأصحاب إلى الإصحاب ، ويكني هذه النوبة
الصعبة ، فهو كافي التوب الصعاب .

فصل فى وصف عسكـر عماد الدين

وصلت العساكر التى وفت بـعدتها المناجدة ، ووافت بـعدتها المي جده (١) . وأقبلت لإقبال الآساد فى عرين الوشيج ، وماجت موج البحار فى غدير الزغف التسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق ، وألت بالعدا المام العوادى الطوارق .

ولقد جاءت فى وقتها منجدة من جلة . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجدة . واستظهر الإسلام بظهورها ، وسفرت وجوه النصر بسفورها ، فأحجم الكفر بإقدامها ، وانتظمت أحداق المشركين فى عقود سهامها ، وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها ، وفض بالقضاء ختام قتامها . وما أشكر الدين والإسلام لعزائم عماده وغيائه، وأبعث امداد الظفر لاهتراز نصل نصره وانبعائه .

(١) الجلة : السمة .

فصل في الاستفار

قد عرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه ، وغصت مسالكه وطرقه
يطوارق سلوكه . وهو جديد الشوكة ، شديد الشكة . قد لحق في حصر الثغر
ونصب آلاته ، وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب من الضرب ، وأخذ
منه مواضع في الثقب . وقد أشنى على خطر عظيم ، وخطب جسم . وإذا لم
يصل في هذا الوقت فتمى ، ومن أتى في غير الوقت المحتاج إليه فما أتى .
وهذا أوان رفض التواني ، ونهوض المسلمين من الأقاليم والأداني . والوصول
بكل ما يقدر عليه من العسكر ، والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر
والجد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضرورة ، والنهوض بعسكره إلى
قصره عساكرنا المنصورة . فلا ينجح إلى عنز فلأعداء أوقات ، ولا يلتفت
إلى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين إلى سواه التفات . وكيف يتأخر
عن هذا الموقف الكريم وهو كريم ، ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو
عظيم .

ذكر خروج رسل الإفرنج

كان قد خرج مذ أيام رسول ، وسأل أن يكون له إلى السلطان وصول . فاجتمع به الملكان العادل والأفضل ، وقالوا له : « لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عليه يعرض ، ليعلم في الأول هل هو مما يقبل أو عنه يعرض » . فأعلمهما الحال ، وعرفهما ماسبب الإرسال . فأحضره بالنادى السلطاني فمثل بين يديه ، وأوصل تحية ملك الانكثير إليه . وقال : « هو يوثر بك الاجتماع ، ولخطابك الاستماع . فإن أعطيته أمانا خرج إليك ، وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خالين من مقتضيات المرج (١) . وكلاكما عن عسكره منفرد ، ولحدِيثه في الخلوة مورد » فأجابهُ السلطان وقال : « إذا (٢) اجتمعنا فهو لا يفهم بلساني وأنا لا أفهم بلسانه ، ونحيل بالبيان على ترجمنا وترجمانه . فيكون ذلك الترجمان رسولا ، فلعله يرد بسول ويصدر سولا » .

فلما لج في الطلب ؛ وألح في الأرب ؛ استقر أن يكون الحديث مع الملك العادل . وأن تنجح من عنده وسائل الرسائل . ودخل وقد أخذ أمانا ، وانقطع بعد ذلك زمانا . فشاغ عندنا أن ملوكهم منعه ، ومن ركوب الخطر فرعوه . فأنفذ ملك الانكثير رسوله بعد أيام ، ينكر ما شاع من تأمر للفرنج عليه وأحكام . وقال : « الأمور مفوضة إلى » وأنا أحكم ولا يحكم على . وإنما تأخرت بسبب مرض عرض ، فافانتي الغرض » .

ثم قال الرسول : « من عادات الملوك المهادة ، وإن دامت بينهم الحرب والمعاداة . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حملة وقيوله ، وأخذه من يد رسوله ؟ » . فقال الملك العادل : « تقبل الهدية بشرط المجازاة ، واستدامة المكافأة للموازاة » . فقال : « عندنا: بزة وجوارح ، قد لقيتها في سفر البحر جوائح ، وقد ضعفت فهي طلائح رواجح ، وتريد طيرأ

(١) المرج : الاضطراب والالتباس والفساد في الأمر .

(٢) في ب لو والتصحيح من ل .

ودجاجاً تصلح لطعمها ، فإذا استوت حملناها للهدية على رسمها ، قال
العادل : « لاشك أن الملك مريض وقد احتاج إلى دجاج وفراريج ، ونحن
نحمل له منها كل ما إليه احتيج ، فلان يجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة
واسلك غير هذه المحجة محجة » .

وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول : « هل لكم حديث؟ » فقلنا :
« أنتم طلبتمونا لانحن طلبناكم ، وما لنا معكم حديث قديم ولا حديث » .
ثم انقطع حديث الرسالة إلى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة . فخرج
من عند الملك في الرسالة مقدم ، ومعه أسير مغربي مسلم . وأحضره على
سبيل الهدية ، وأوصل إلى السلطان ما حمل من التحية . فشرفه بجماعته ،
واعتدله بهديته .

ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة ، وما كانت رسالتهم
تسفر عن مقصود بل فيها رثانة وغبثانة . وهؤلاء طلبوا للملك فأكده وثاجباً ،
ولم يسلكوا في غير هذه الحاجة نهجاً . فأكرمهم السلطان بما سألوا ، ووفر
لهم منه فحملوا . وسألوا أن يتفرجوا في الأسواق ، ففصح لهم فيه على
الإطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الفرنج من تكرير الرسائل ؛ تفكير الزمات ، وهم مشتغلون بموالاتة الرمي بالمنجنيقات ، وتسوية المنصوبات ، وتبئية الآلات وتعديل المرادات (١) ، وتثقيل الحجارات . حتى تحمل السور وحان انهدامه ، وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت أركانه ، وتضعضت أبدانه . وكاد يهي ليهوى ، ولا يقي ولا يقوى كى يثوى (٢) . وأهل المدينة قد كثر تعبهم ؛ لكثرة النوب ولقلة العدد . والحجر هاتك ، والسهر ناهك ؛ والعمل دائم ، والخلل لازم . والقلوب قلقة ، والظنون مخفقة ؛ والمتاعب شاقة ، والمشاق متعبة ، والأحوال متعبة ، والأحوال مرهبة .

وكانت في البلد منجنيقات تُنصب ، وتفيض بها قوى الرجال وتُنصب . فلما اشتد الزحف ، وزاد الضعف ؛ احتاجوا إلى رجال المنجنيق للمقاتلة ، والتناوب على المنازلة . وهناك ظهر أن العدد لا يقي ولا يقي ، وأن القليل لا يكف ولا يكتفى . وأن خروج من كان في البلد لأجل دخول البلد لم يكن صواباً ، وأن تقصير النواب ابتداء في الإعطاء جلب في الانتهاء إعطاباً .

ولما علم السلطان سابع جمادى الآخرة يوم الثلاثاء ؛ بما عليه البلد من غلبة البلاء ؛ زحف بعسكره ولجّ حتى ولج خنادقهم ، وطرق إليهم بوائقهم . ونهب من خيامهم ما تطرف ، وأسرف في ارهاقهم بما أشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مزاراً ، وأجرى من الدم أنهاراً ، وأراهم بالمتع النهار ليلاً وبالبيض الليل نهاراً . وأمسى السلطان تلك الليلة ساهداً لم يذق طعاماً ولم يستطب مناماً . ثم أمر بندق الكوس سحراً حتى عادت العساكر إلى الزكوب ، والقساوير إلى الوثوب . والقوارس إلى القرس ، والأنداب إلى النوب ، وأعدت إلى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلقى الجيوش على الجيوش ، ويرمى الوحوش على الوحوش . ويرعف الصلور بصلور

(١) المرادات جمع عرادة وهي آلة حربية كانت تستعمل لرمي الحجارة .

(٢) يثوى : يقيم بالمكان .

الرواعف ، ويشير بالأمن عن مواقف المخاوف . وكل من للضرب في جبينه شامة ، وللطنن في جنبيه (١) علامة . على خيل كأمثال القنا تحمل القنا ، وضمير كالحنايا تهوى هوى السهام إلى الوغى .

في غداة صباحها في حداد نسجتها أيدى المطهمة القُبِّ (٢)
وظلام يحلوه يريق اليمانية القطب . فجرى ذلك اليوم من القتال أشد ما كان أمس ، واتصل من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها : « أن العجز بلغ بهم إلى غايته ، وانتهى الضعف بهم إلى نهايته ، ولم يبق إلا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئاً ، ولم تنجحوا في الذب عنه سعياً » فضقتنا بهذا الكتاب ذرعا ، وقلنا : « لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً » والساطان من هذا في أمر عظيم ، وهم مقعد مقيم ! وهو يجتهد في بذل وسعه ، سائل من الله لطف صنعه . معاود إلى الحرب في كل صباح ، طائر إلى اللقاء يجتاح بكل نجاح .

وفي هذا يوم الأربعاء بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا إلى خنادقهم وخالطوهم ، وتقابضوا على بسطة واحدة وباسطوهم . وذكر أنه وقف في ثغرة من تلك الثغرة لإفرنجي ، كأنه جنى مستشيط لاشيطان نجى . وهو يدافع ويمنع ، ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقه . لجسمه صدقاً ، وصار لسهام المنية هدفاً . وهو كأنه نشب فيه من النشاب القنفذ ، وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ .

فلم يزل واقفاً إلى أن أحرقه بقارورة النفط زراق ، فأمدى وهو حراق . ووقفت أيضاً امرأة بقوس من الخشب ترمى ، وتديم اصمعاها وتدمى . فلم تزل تقاتل حتى قتلت ، وإلى سقر انتقلت .

(١) في ب جبينه والتصحيح من ل .

(٢) المطهمة القب : أي الخيل الضامرة البلون الضامرة اللوامر الجميلة .

ذكر خروج سيف الدين على المشطوب إلى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكاه من جانب ؛ وعروه بكل نائب ؛
ومل أصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح ؛ وقلة البلد الذى كان قد أقرح ؛
ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنة (١) ؛ وزادت المخافة فلم يبق
معها أمنة ، خرج المشطوب إلى ملك الإفة نسيس بأمان ، وحضر عنده
بترجمان . وقال له : « قد علمتم ما عاملناكم به عند أخذ بلادكم ، من
النزول عند طلب أهلها الأمان على مرادكم . وأنا كنا نؤمنهم ، ومن السير
إلى مأمئهم نمكهم . ونحن نسلم لإلك البلد على أن تعطينا الأمان ونسلم ،
وإذا فعلت هذا فقد حزت المغم » ، فقال : « إن أولئك الملوك كانوا عبيدى ،
وأنتم اليوم مماليكى وعبيدى ، فأرى فيكم رأى من وعدى ووعيدى » .
فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظة ، وأغظ له فى القول
عملا بقول الله تعالى : (ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) (٢) . وقال : « نحن لانسلم
البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا . ولا يقتل منا واحد
حتى يقتل خمسين ، ومتى عرف أن الأسد يسلم العرين ! » .

(١) بدنه : اصطلاح معارى وهو وما يعبر عنه بكتف البناء .

(٢) الآية ١٢٣ سورة التوبة .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب ؛ ولم يظفر بالفرص المطاوب ؛ قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء : « هذا الاير الكبير ؛ والمستشار والمشير قد اشتغل باله ، فسواه ما باله » . وعمروا بركوساً ورأوا في هربهم رأياً منكوساً ، وربحاً في دار البقاء مبخوساً . وذلك ليلة الخميس التاسع ، وقربوا عليهم الأمر التاسع .

وجاءوا إلى العسكر مخفين ، ومن رفقأهم في نسب الوفاء والوفاق مستفين . فتمى إلى السلطان الخبر بهرب الجماعة ، وأنهم خرجوا لله وله عن الطاعة ، وأنهم جبنوا عن بذل الاستطاعة ، وخفضوا عنهم صيت الشجاعة ، وأبدلوا الإضاءة بالظلمة والحفظ بالإضاعة ، وكان فيهم من الأمراء المعروفين وذوى الشهامة الموصوفين ، عز الدين أرسل ، وهو الذى كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين سمرتاش بن جاوىلى - وهو شاب أول ما توفى والده وجاوىلى . وسنقر الوشاقى من الأسدية الأكبر ، ومقدمى العساكر . وكل منهم محفوظ بالإقطاع الوافر . فقطع السلطان إقطاعهم وأقطعها ، وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها .

واستعاذ (أرسل) بالأسدية ثم بالملك الأفضل ، المفضل المومل . وتوسل ابن جاوىلى بالملك العادل ، وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل . فلم تعد معيشتهم ، ولم تعذب عيشتهم . وعادوا بمقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين ، وبضعف القلب وقوة الخور منحوتين .

وكان من جملة الهاريين عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها ، فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه العودة ويلتزمها . فعاد في ليلته ، وأسقط عنه الملامة بأوبته . ووقع بعد ذلك في الإسار ، واستفكه الساطان بعد ستة بشماتمة دينار .

فصل من كتاب إلى مظفر الدين صاحب إربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا إليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذي هو متعلق الآمال . وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فإن منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب ، وكثرت ثلم السور في مواضع الثقب ، وعظم الخطب ، واشتدت الحرب . وأشقى البلد وأشرف ، واشتفى العدو بما فيه أسرف .

ولما لج العدو في الزحف ، واستسهل في التطرق إلى البلد طريق الخطف ، يكبتنا في عسكرنا إليه ، وهجمنا عليه . لكنه بسوره وخندقه حتم ، وإلى مطمحه البعيد من أمره مرتم . ولما عاين أصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر ، وأتهم قد أشفوا على الفرر ، فر من جماعة الأمراء من قل بالله وتوّه ، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم ، وباعوا يوبال غدريهم ، وما قوى طمع العدو في البلد لإلأهريهم ، وما أربى قلوب الباقين من مقاتلته لإلأرههم . والمقيمون من أصحابنا الكرام ، قد استحلتوا مر الحمام ، وأجمعوا أنهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم . وأتهم يبدلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحذثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من الثقوب ، والله تعالى سهل تفتيس ما هم فيه من الكروب .

ونحن وإن كنا للقوم مضايقين ؛ وبهم محذقين وعلى جموعهم من الجواب متفرقين ، فإنهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون أنهم إن خرجوا إلينا في تبار . والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع . والله قدر لا يرد ، وقضاء لا يصد . وسر لا يشارك في علمه ، وأمر لا يغالب في حكمه . وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل ، وتدقيق الطافه في دفع الخطب الجليل ، وما توفيقنا إلا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل .

ذكر ماجرى من الحال

وفى ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس ، وحى الوطيس ،
وتحرك بالضراغم الخميس . واسود الجو ، وانسد الضوء . وانقضت القضب
انقضاض الشهب ، واشتبهت الدهم والكمث بالشقر والشهب . واختضبت
البيض ، وتأتق من بوارقها الوميض . ورقصت قدود السمير على غناء
الصواهل ، وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل .

فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع . ولغربان
الرياح نعيب ، ولغربان المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب . ولحريق
الظلمة معممة ، ولرحى الحرب الزيون (١) جمعجة .

واللاحقيات (٢) سابقة ولاحقة ، والسريجمات (٣) راعدة وبارقة ،
وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان
الكفر مارقة ، (وأبدي الأسته هاتكة ، لحرز النحور سارقة) (٤) . وثعالب
الأسل في لبم الأسد صابجة ، ونشاوى اللدان من نجيح الأقران غابجة صابجة .
في رايات يماذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان ، وصفاح يصفاحها
شعاع الشمس (٥) فيكسو بلحيتها العقيان (٦) .

وتقدم السلطان إلى الأمراء فترجلوا ، وتازلوا حين نزلوا . وهجموا على
الضراغم في آجامها ، وأحوجوها بجد الإقدام إلى إحجامها . ونصب
صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده ، ووقف عنده

(١) حرب زيون : شديدة يلغ بعضها بعضا من الكثرة .

(٢) اللاحقيات : جيع لحاق وهو غلاف القوس .

(٣) السريجمات : السيوف التي تنسب إلى سريج وهو قين .

(٤) في أ (٣١١ ش) وأبدي الأسته هاتكة وبحور النحور شارقة ، وهذا يخالف لـ

في ب ول .

(٥) في ب الشع والتصحيح من ل ومن أ (٣١٢ ي) .

(٦) العقيان : الذهب الخالص .

بجلاده وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ، ومعه من التورية المماليك . فترجل وقاتل وأبلى ، وأضرم نار الوغى وأصلى ، ومات ك جهده شيئاً ولاخل .

وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظاً لنجاح الأمل البعيد . فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم ينجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سرى السيل . ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز أنوفهم . ولو صح هذا الموعد ، لنجح المقصد . لكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر . وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أربأ . وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاريين ، خرجا إلى الملاعين . وأخبراهم بحيلة الحال ، وعزيمة الرجال .

وأصبح العسكر يوم الجمعة العاشر ، وقد جمع من الخيل والرجل المعاصر ، واقفة على ترتيبه صفوفه ، مرهفة على عدوه أسسته وسيوفه ، ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفه . ولم يتحرك من القوم ساكن ، ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسماً من أقسام الرسائل ، وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيظ ، ولأذى مقامه بمقامه مميظ . وبتنا على تلك الحالة ، وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة .

وأصبحنا يوم السبت وقد ركبت الإفريقية وتدرعت ، ونحزبت وتجمعت . حتى ظننا أنهم على عزم اللقاء ، فهاجت العزائم منا إلى الهيجاء . وخرج من باهم أربعون فارساً ووقفوا واستوقفوا ، واستدعوا ببعض المماليك الناصرية ، فلما عطف إليهم عطفوا إليه ، وأخبروه أن الخارج صاحب صيداء في أصحابه ، وهو يستدعى نجيب الدين أبا محمد العدل (١) لخطابه . وهذا العدل من أمراء السلطان ، وقد أنس الفرنج به لترده في الرسائل

(١) العدل : اصطلاح يلقب به من يتق به القاضي ويطلب إلى شهادته فيعينه في أماله ومنها تسجيل الأحكام (الروضتين لأبي شامه ج ٢ : ٥٨٦ تحقيق د. محمد حلمي أحمد عن صبح الأعشى) .

نحوهم في سالف الأزمان . فلما حضر أرسله إلى السلطان ، ليتحدث في خروج من يعكأ بأنفسهم بحكم الأمان ، وطلبوا في مقابلة ذلك ما لا يدخل تحت الإمكان . وزادوا في الاشتطاط وتناها في الاشتراط . فأنفذ السلطان الملكين العادل والأفضل ، ليفصلا المجمل ، ويجملا إذا حزا المفصل . فتردد العدل مزاراً ، ووجد منهم على الإضرار إصراراً . ولم تتحرر قاعدة ، ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار ، وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

في يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين - صاحب شيزر .
وفي يوم الأربعاء بدر الدين أيوب بن كنان ؛ وقد حشد وحشر . وفي يوم
الخميس أسد الدين شيركوه ؛ وقد أهبج بقدمه العسكر . وفي هذا التاريخ
ضعف البلد وعجز من فيه ، ضعفاً لا يمكن تلافيه . ووقف كرام أصحابنا
وسلوا الثغر بصلورهم ، وباشروا الأسنة للمشرعة إليهم بنحورهم . وشرعوا
في بناء سور يقتطع جانبا ، حتى يتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالباً .

ذكر ما طلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق أسراهم من الأفياد .
فبذل لهم تسليم عكاه بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا ، وبذل لهم في مقابلة
كل شخص أسير فلم يقبلوا ، وسمح لهم برد صليب الصليبيات إليهم
فانفصلوا عن الأمر ولم يفصاوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة ، ماجت الفرنج
بيحور جمعها الزاخرة ، وسالت إلى ثغر البلد سيل الأفي إلى القرار ،
وطلعت في السور المهلوم طلوع الأوعال في فرج الأوعار . وانحدر عليهم
أصحابنا انحدار الصخور المدهده (١) ، وفرسوهم فرس الآساد المحرجة
المكرهة . وردوهم أقبح رد ، وصلوهم أفضح صد . وما زالت الكرات
تتناوب ؛ والحملات تتعاقب ، حتى كلت الرجال ، وفلت النصال . وعرفوا
أن الفرنج يستولون ، وعلى أحد منهم لايقون ولاينلون .

فخرج سيف الدين على بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين
ابن باريك ، وأخلوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على
تسليم البلد ، وماتى ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين
ومائة أسيز من المعروفين ، وصليب الصليوت ، وعشرة آلاف دينار
للمركيس ، وأربعة آلاف دينار لحجابه .

فلم نشعر إلا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزة ، وأعطاف أعلامها .
مهزوزة . وما عندنا علم بما جرت عليه الحال ، وما أحد منا إلا والبال منه
قد عراه الويال . وعم البلاء ، وتم القضاء . وعز الغزاء ، وقنط الرجاء ،
ولوت أعناق المسار الأواء .

ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره إلى تقي الدين وما عن له في
سفره ، فإنه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره . فاشتغل بقصد خلاط
وأثار في ديار بكر الاختطاب ، والاختلال والاختلاط . وتأخرت عساكرها
عن القلوم ، ففتح تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم . وكذلك
لم يكن في البلد عدد نبي بصونه ، وما كان يضبطه السلطان إلى هذه الغاية
لو لم يكن الله في عونته .

(١) دهله الحجر : دحرجه .

ونقل الثقل تلك الليلة إلى منزله الأول بشفرعم ، وأقام بخيمة لطيفة متلهفاً متلهفاً على ماتم ، ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر إلى المخيم ، صابراً على حكم القضاء المبرم ، وحضرنا عنده وهو مقتم ، وبالتدبير للمستقبل مهم . فزيناه وسليناه . وقلنا : « هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعادها عداه » . وقلت له : « إن ذهبت مدينة فما ذهب الدين ، ولا ضعف في نصر الله اليقين . وما وعكت بعكاء القلوب إلا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولوحشتها بعد هذه الحادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وإن تداعت قواعد بقعة من بقاعه بالعز ليفاعه تأسيس » .

وخرج في هذا اليوم (أقوش) - رسولاً نذبه بهاء الدين قراقوش . ينجز ما قروره من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة القطيعة . وقال : « أدركونا بنصف المال ، وجميع الأسارى ، وصليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وإن تأخر شيء من ذلك بقينا تحت الأسر ، ونصف المال يصبرون به إلى شهر آخر » .

فأحضر السلطان الأكبر ، وفاوضهم في ذلك وشاور . فقالوا : « إخواننا المؤمنون ورققاونا المسلمون ، وهل لنا عنر ونحن لهم مسلمون » . فتقبل السلطان بتحصيله ، وتعجيله بحملته وتفصيله .



وأنشأت في استيلاء الفرنج على عكاء هذه الرسالة وسيرت بها كتباً قد عرف أمر عكاء وأن العدو قصدها ورصدها ؛ ونزلها ونازلها ؛ وقليلها وقتلتها . وبرك عليها بكلكله ، وحفل عندها بيجفله . وتواصلت إليها جموعه أفواجا ، وجلب البحر نحوها على أثباجه أمثال أمواجه أمواج . وجاءت رابضة أمامها ، ضارية خيامها ، ملهية بهاغرامها ، ملهية فيها ضرامها . وانتهت المدة إلى عامين (١) ، كل عام تحمل ملود البحر من أمدادها بحاراً ويرد الماء بأهل النار مستصحيين من ماء الحديد الجامد ناراً . وتصل مراكبهم كأنها الأعلام السود والأمواج ناشرة بيض أعلامها ، مالتة جبالها بأكامها ،

(١) في ب علمين والتصحيح من ل ومن أ (٣١٥هـ) .

مازجة لإصباحها بإظلامها . وتتنافس ملوكهم الباغية ، وطواغيتهم الطاغية ، في الورد بنفوسها ونفائسها ، والوصول بما نفقت فيه كنانن كنائسها ، مستخرجة ضمائر خزائنها ، مستفرغة ذخائر مكانتها ، موضعة ظعائن ضفائنها . مستبضعة متاع متاعبها ، مسرعة إلى معائن معاطبها . وترد بقناطير أموالها ، وجماهير رجالها ، ومساعيز مصالها ، ومشاهير أبطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها ، ويحشون بين سحرها ونحرها .

ومازالوا يقاتلون أبراجها بالأبراج ، ويسومون جندبها بالإبهاج ، ويرومون علاج كرامها بمراماة الأعلاج . ويقارعونها ليلا ونهاراً ، ويلقمون (١) أفواه خنادقها أحجاراً ، ويناجونها بألسنة المجانين الطوال ، ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الآجال . ويكافحونها قراعاً ، ويدبون إليها للمضايقة خطا وساعاً . ويناطحونها بالكباش ، ويعاقرونها من حرابتهم وحراهم بكلاب المهراش (٢) ، وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق ، كأنه حامل على الطلق . لاتلد إلا أمات الدواهي ، ولاتلدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهي .

ويقتل الله منهم العدد الدهم (٣) ، والجمع الجهم . ويهلك ألوفا ، حتى يعود نافرهم للمنون ألوفاً . وقد تجاوزت عدة القتلى منهم في هذه المدة ، سوى من هلك بالضائقة والشدة ؛ خمسين ألفاً قولاً لا يتسمح فيه المعبر بالبيان ، يل يتصفحه المحرر بالعيان . إلى هذه السنة والحالة في تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البواعث ، وتحذثوا في الحادث . وثاروا للنار ، وزاروا بالزار .

وانبرى ملكاً إفرنسيس وإنكلتير ، وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاعوا في مراكب بحرية حربية ، وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحر منها السيول ، وجروا من ذوات الشراع عليها الذبول ،

(١) في ب يلقمون والتصحيح من ل .

(٢) المهراش : الخصام والقتال .

(٣) الدهم : الكثير العدد .

وحملوا فيها الحياطة والخيل . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة ، وكل بطسة كأنها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة ، وكل مجرة على سماء البحر بنجوم الرجوم مزينة . فأحدقت بالثغر من البر والبحر ، وأحاطت بمركز الإسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسواء بالأسوار ، والظلماء بالأنوار . ومنعت الداخل والخارج ، وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح . المواجه والمناهج .

وزاحفوه بكل منجنيق كنيق (١) ، وكل برج وثيق ، وكل دبابة كأنها دابة الأرض التي تقوم عندها القيامة ، وكل سلم لا ترجى معه السلامة . وكل آلة آلت أن الفتح منها بالحتف ، وأقسمت أنها تقسم سهام سهامها لنوى الحفر بالزحف . هذا والعلو قد حفر من جانبنا وعمق ، وسور وخذلق . وتلدع بأسواره وخذاقه ، وتستر عن طوارق البلاء بستاثره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه ، ولا يدخل إليه لضيق مسالكه . وهو متحر متحرس ، متستر مترس . عاص على المهجم ، عاس (٢) على العجم . لا يقتحم سده ، ولا يتلم حله .

ولم تزل الحالة تتمادى ، والواقعة وليدها لا ينادى ، والمدى يتناول ، والمدد يتواصل . والقضية ترامي ، والرمية تتقاضى ، ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون ، مكابرون مضابرون (٣) . فمن مستشهد عدله بالجرح ، ومن مستجد عطله القرع ، ومن دام بالجرح رام عنه ، ومن نازع في القوس نازع منه ، ومن متعرض للموت لخوف عار عارض . ومن ناه عن السلم أمر بالحرب ناهض ، ومن ندب فيه نلوب ، ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب ، حتى ضج الحديد من قرع الحديد ، ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد .

هذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص ، وظل المصابرة يقلص . والعدم يتمكن من الوجود ، والقيام للاختان في زى القعود . وكاد البقاء يودع . الباين

(١) النيق : أرفع موضع في الجبل .

(٢) عاس : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة ومنه العسس .

(٣) مضابرون : مجتمعون للفرز .

والمنون تلاقى الملائقين . فلم يشعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تأخر
وتسر ، واستشعر الذعر ؛ فتعذروا وتحذروا . واستبدل الجبن من الشجاعة ، واستملى
العجز من الاستطاعة ، وقدم العصيان على الطاعة . وظن أنه لا نجاح له في
العزيمة ، ولا نجاة له إلا في المفزعة . وجنب أمثاله من الجبناء ، وجمع إلى
أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا ، وذهب على وجهه
معهم مارا . ورهب فهرب ، وحسب فتسحب . فأضعف قلوب البقية
استشعارا ، وأعلمهم عدم قراره قرارا . لكنهم تابوا إلى صبرهم ، وثبتوا
على أمرهم ، ودفعوا مكر العدو بمكرهم .

وما برحوا على مصابرة ومكابرة ، ومقارعة ومعاقرة ، ومكافحة
وملافة ، ومواقعة ومواقحة ، ومطاحنة ومناطحة ، وجلد على الخنادق التي
طمت ، ورمي في خروقتها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى
السور ، وطرق الظلمة إلى النور ، وهجم على السنى بالديبجور . وكشف
نقاب عروس البلد بالنقب ، وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حتى
الثغر وكلم حامييه ، وأشرفت مرامييه . وكثرت ندوب نقوييه ، وكثرت
خطاب خطوييه .

ودخل العدو في الثقب فلم يجد لكونه مجدلا أو مجردا مخرجا ، وتوغل
في الباب فوجد باب الخلاص المرتجي مرتجا . وكل من أصحابنا قد سد الثغرة
بنفسه ، ولقى الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله ، وأثبت في
مستنقع الموت رجله .

ولم يزل الثقايون يوسعون ويمشون ؛ ويعلقون ويمشون ؛ ويمخرون
ويمخرون ؛ ويمجمعون ويفرقون ؛ حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا ،
وتعانقت الأسياف فزادت قلولا (١) . وتكشفت الوجوه لقبيل الطعان ،
وبردت بجمالة أجداد
الشرك أيان أنجاد الإيمان .

وأصحابنا لا يهولهم الهائل ، ولا يميلهم إلى الحذار الجدار المائل ،

(١) القلول : الارتفاع .

ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ، ويتواقعون على الوقائع ، ويردون بغيرهم الطالع ، ويقلدون بمجدهم الدارع . إذا انتظموا مع العدو نثروه ، وإذا نهضوا له أقعدوه وعثروه ، وإذا صعد إليهم حذرّوه ، وإذا بادر إليهم بدرّوه وندرّوه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا ، وكم تركوا على تلك المصارع من جاثمها جثمانا .

وما زالوا يقتلون ويقتلون ، وينهلون من ورد النجيع وينهلون ؛ ويصلون ويقطعون ، ويشعبون (١) ويصدعون ، ويكيلون بصاع المصاع ، ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع ، ويتناجون بألسنة المناصل ، ويتقابلون بوجوه الصواقل ، ويتشاكون بكلام الكلام ، ويتلاقون بسلام السلام ، ويتساقون بصحاف الصفاح ؛ ويتماشون بمراح الرماخ ؛ ويستحلون ضرب الضراب ؛ ويستجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب ؛ إلى أن انتقل القتال من السور إلى اللور ، ومن الستائر إلى الستور ، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح ، ومن المضايق إلى الفساح ، ومن المراقب إلى السفوح .

حتى لم يبق من المهادين إلا سباتك زحوف ، وترائك حتوف . وبقايا طرائح ، ورذايا (٢) طلائح ، ومسوقو جرائح ، ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات ، وخاطتهم الخطيات (٣) . ورشقتهم القسي القاسية ورشفتهم الظبا الظامية . لا ينهض قويمهم من الكلول ، ولا يفرى فريمهم من القلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق ، ورد أولئك الخلائق .

فما شعروا إلا وقد دخلت من أقطارها ، وتوغلت من أسوارها . وازدحم العدو في مشارعها وسبلها ، (ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها (٤)) .

ولما عرف العدو الداخل ، والعداى الواغل ؛ أن القوم مستقتلون ؛

(١) يشعبون ويصدعون : أى يجمعون ويفرقون .

(٢) رذايا : جمع رذيه وهو الهزيل الضعيف . وطلايح : جمع طلح وهو الهزيل التميمي .

(٣) الخطايا جمع خطية .

(٤) الآية ١٥ سورة القصص .

وللموت مستقبلون ؛ وأنه لا طاقة له بمقاومتهم ؛ ولا قوام له بطاقتهم ؛
وأنهم لا يسلمون وهم يسلمون ؛ ولا يقون وهم يقون ؛ أعطاهم أمانا
أخطر من المخافة ، ودخل على الإغارة باسم الضيافة .

وعز أصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا ، وما وهنوا لما أصابهم في
سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولا مرد لما فيه الله من المراد ، ولا مدفع
لحكمه في البلاد والعباد . وإن ذهب مدينة فلم يذهب الدين ، وإن غاض
معين فما غاب المعين ، وإن ارتاب المبتلون فما فارق الحق اليقين . وإن
فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن ادّهم الديبور فلا بد أن يسفر عن الصبح
الذي . ولا يشمت عدو الاسلام (١) بما جرى ، فعند الصباح يحمد القوم
السرى .

(١) سائلة في ب مثبتة و ل .

فصل من كتاب

إلى قطب الدين بن نور الدين بن قرا أرسلان(١)

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه وكثر على نهار الإسلام بإظلام ليل الكفر وحلوكه . فالإسلام ينشد ظهره . وبطلب الدين لكشف غمته من (ابن نوره) نوره .

وهذه عكاء التي كنا عنها ندافع ؛ وعن ثغرها نمانع ؛ ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها ؛ ونرك الرد عنها مكابدة العداة في نحرها ؛ قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام ، واحتاج من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام :

وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مغصوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة . وإذا أفكر من خلتها ؛ وما أخذ لها ؛ وغاب عنها وما حضرها ؛ علم أنها أسيرة لإهماله ، وأخيلة إغفاله . وحاشي أن يكون المجلس بالغبية عنا راضيا ، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضيا .

وما بئى للفرنج مع استيلائها على الموضع ، إلا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف ، وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف ، والله كافل دينه بالنصر ، والمردى بمكره أهل المكر . وما هذا أوان الوتى ، بل هو زمان استنتاج المني . فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر ، وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

(١) قطب الدين ابن نور الدين ابن قرا أرسلان : هو محمود بن محمد بن قرا أرسلان ابن أرتق ، الملك الصالح ، ناصر الدين صاحب آمد ، كان شجاعا عاقلا جوادا ، محبا للعلماء ، وكان الأشرف يحبه وخدمه غير مرة ، توفي سنة ٥٩٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٥٠ ط . دار الكتب) .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من أربيل

تتضمن على حادثة عكاء ووصف الحال الجارية فيها

قد علم ما دهم المسلمون من العدو الكافر ؛ والطاغية الحاشد الحاشر ،
وأنه ورد في البحر بكل من للكفر في البلاد والجزائر ؛ وما قصده إلا بيضة
الإسلام وحوزته ، وأن الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه عزته . ولاشك
أنه عرف ما تم منه على عكاء بعد ذبنا عنها في هاتين السنتين ، والمضايقة
للفرنج ممن يعكاء ومنايين الحصارين . وأنهم كلما دبروا أمراً دمرناه ، وكلما
حققوا كيداً أبطلناه ، وكلما قدموا منتجيقاً أخرناه وعطلناه ، وكلما ركبوا
برجاً أحرقناه ، وكلما كثفوا حجاباً أحرقناه ، و (كلما أوقدوا ناراً للحرب
أطفأها الله (١)) . حتى لم يبق لمكرهم مكر ، ولا لكيدهم مجال ، ولم يتسقى
في هذه المدة لهم حال .

وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل ، من فارس وراجل
ولم نشك في استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى
وحسبنا أنهم باتلون ، فإذا هم زائنون . وظلنا أنهم هالكون ؛ فإذا هم في
نهج القتال سالكون . وهم حطاب نار الحرب ، وطعم الطعن والضرب :
وكم بذلوا أرواحهم على حب (المقبرة) ، وحصلوا تحت العجز لزعمهم
أنهم يأتون بما فوق المقبرة :

ولما دخلت هذه السنة أشفقنا على من في عكاء من الأصحاب والأجناد
وقلنا : « هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ما كان في وسعهم من الاجتهاد :
ورأينا أن نجد للبلد البذل ، وأن نسلذ ونسد بما نستأنه الخلة والحلال . » وكان
فيه أكثر من عشرة آلاف رجل ، من كل قعر مشيخ وكى بطل . فخرج
هؤلاء ولم يدخل إليهم مثل تلك العدة ، ولم يكن أيضاً من دخل بذلك
الجند وبتلك الشدة . فإن البحر قبل استكمالها متع راكمه ، وحمى جاتبه

(١) الآية ٦٤ سورة المائدة .

ووصل العدو وعجل مراكبه . فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية ، واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت ملوك الفرنج بخلاف كل عام ، في جد واعتماد ، وحد واهتمام ، وجمع لمام ، ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام ، وغرام بالواقعة وعرام ، واحتداد للحادثة واحتدام ، وبأس وإقدام ، وناس وأقوام . وحشد ملأت به سفنها ، وأخلت منه مدنها .

ووصل ملكا إفرنسيس وانكثير ، وقد أحكما التدبير ، وأجلبا بجيئلهما ورجلهم ، وأناخا بكلكل كلهما ، وبركا بثقلهما ، وزحفا بجهدهما وجهلهم . ووافوا بكل برج وثيق ، وكل منجنيق كتيق . وكل آلة هائلة ، ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد ، وأهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ؛ والخلدق بالطم ، والسور بالتقب والثلث . وخرج من نقابى البلد من ارتد عن الدين ، وأعان نقابى الملاعين . حتى وقعت أبدان السور وأبراجه . وتبادر إلى الثلث أعلام الكفر وأعلامه (١) .

وأصحابنا مع ذلك ثابتون ، ناكبون كابتون . قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم ، وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبول سهام ، وتلفعوا من وقع ييضها بجمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهجع وسخاءهم . كلما انتظموا مع العدو انثر ، وكلما نهضوا لتلقيه عثر . وكلما طلع إليهم ردوه بنزيرهم ، وكلما اجتمعوا به فرقوه بطعنهم وضربهم . وهم يواقعون ويواقعون ، ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله ، وأثبت في مستنقع الموت رجله ، وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله .

فخانهم بعض الأمراء الجبناء ، وأخذ للحياة بترك الحياء ، وفر من البلاد إلى البلاد ، وحسب النجاة في النجاء . وهرب في بركوس قد أعدده لذلك اليوم ، وآثر على جراح السيف جراح السب واللوم . واستصحب أمثاله

(١) أعلاه : جمع الملح وهو الرجل الضخم القوي من الكفار والسيم .

واستتبع ، وأبعد في فراره وأبدع . وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأطعم أفاعى الكفر في نهش الراقين .

على أن الأصحاب ما آذنوا بالإصحاب ، ولم يقابلوا الضراب بالإضراب ؛ وما زالوا يواصلون بالقواطع ، ولا يرتعون للروائع ، ولا يرمعون مقام المقام ، ويطالبون من الأرواح بالودائع . حتى انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن القوارع إلى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة ، وأمن أخوف وأخطر من كربة ، وقطية فظيمة ، كل مئة لها غير مستطية .

ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة ، لم تكن عكاء بالممكتة للعلو ولا المذعة . وإن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب ، وإن عطبت فالإسلام لم يعطب . وإن ملكت واحتلت فما اختل الملك ، وإن سلكت ووهت فما وهى السلك . وإنما نبه الله بها العزائم الراقدة ، وأجرى مياه المم المراكدة . وبعث الحميات الناعسة ، وحرك التخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره ؛ سيظهر عجزنا بنصرته وظفره .

ونحن إلى الآن كما كنا ؛ محذون بخنادقهم ، آخذون بمخائقهم ، نوسعهم الردى في مضايقتهم ، ونجذبهم في كل يوم إلى مصارعهم ، ونكدر بملق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم . فما خرج منهم من دخل ، وما انقطع إلا من وصل . وما أصحح إلا من نذبه عريسه وعرسه ، وما برز إلا من واره من بطون الخوامع (١) رمسه . فهم مقيمون لا يرمعون تخيمهم ، ولا يرومون أن يهجرُوا مجثمهم . وما أنسوا بمراض المضارب ، إلا لتفرتهم من مضارب القواضب . وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج إلى المصاف ، وآونة بالنهوض إلى بعض الأطراف . وفي كلا التصدين إن شاء الله دمارهم المعجل ، وبوارهم المؤمل . فإننا نعرضهم أين واجهوا . ونواجههم أين اعترضوا ، ونعثرهم أين نهضوا ، ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرثهم عكاء فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا

(١) الخوامع : الضياع .

على نار الحرب وقوع الفراش ، وتعوضوا مصارع أمثالهم والثرى لهم
وثير الفراش .

فإن برز العدو فالمنون له بارزة ، والعزائم له مناجزة ، والعساكر
الإسلامية إليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس أولى من يتخى ويحتسى ،
وإلى هذا المرام من قهر الكفر يرتعى ويتسمى : ويصل يجمعه اللهم الملتهم ،
ويجمره الملتهب المضطرم ، وبمجره المحتدم المحتدم ، وبفيلقه الفائق ترائك
العدا ، السافك السابك في نار الوغى سبائك الطبا . الحاص الحاصد بمحدود
الشفار سنابل الطلى . وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه ، وستدعى
من إذا ناداه أجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقى نضى

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكاه بسنة ؛ قد عمل ترجمة تفرد بها القاضى ابن قرىش لمكاتبته الأصحاب ، ليكتب بها إليهم ويود بها الجواب . فلم يبق المكاتبه إبتداء وجوابا بنضى ، وخرج حكم عكاه في الكتابة عن شرطى . فقلت لأصحابى : « ما صرف الله قلمى عن عكاه إلا وفى علمه أن الكفر إليها يعود ، وأن النحوس تحملها وترجل عنها السعود » .

واستأذنى الله من استعادتها ، وردّها إلى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمى وكلمى ، وعرف شيم غنايل أطفانه من شيمى . وهذا قلم جمعت به أشنات العلوم مدة عمرى ، وما أجراه الله إلا بأجرى . فالحمد لله الذى صانه ، وعظم شأنه ، وما ضيع إحسانه . وهو للفقه والفتيا ، ومصالح الدين فى الدنيا . وما عرف إلا بعرف ، فما صرف إلا عن صرف .

وما سفارته إلا فى نبح ، وما إسفاره إلا عن صبح ، وما تجارته إلا لريح . فهو يمين الدولة وأمينها ، ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد إمدادها ، وبسواده للثغور سدادها . ودواته دواء المضلات ، ويعقده حل المشكلات . ويخطه حط عوادى الخطوب ، ويقطه قط هوادى القطوب . ويبريه برء الأمراض ، ويلبره در الأعراض .

ويلبره انتظام عقود العقول ، ويلدرايه ابتسام الإقبال والقبول . ويجريه جرى الحياض للجهاد ، ويسعيه سعى الأجداد للإنجاد ، ويجرركه سكون الدهماء ، ويبركه ركون الرجاء .

فما كان الله ليضيمه فى صون ما لا يصبونه ، وعون من لا يعينه . فحفت على عكاه من وقوف قلمى عنها ، وكان قد ألمنى الله فإنه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة ، والعارفة الطريفة .

ذ كرمما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكاء من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الآخرة ، خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوفرة . وانتشروا بالمرج (١) إلى الآبار التي كان حفرها العسكر ، ففرب الكوس (٢) السلطاني ، فثار المعشر ، وقام المحشر . وأنهض السلطان إلى اليزك من قواه ، وأتبعه بمدد تلاه . وقد طار غراب الغبار ، وتبرقت بالتراب عراب المضمار ، وشبت الوغى بكل شبوب تمنع سوى فارسها ركابها ، وتغير الشمس من نسج حافرها نقابها . في غلب كالقواضب يروون القواضب ، وطوالع من الغروب يعدن في الغوارب غوارب .

وحمل على أبطال الباطل حماة الحق ، فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق . وانهمز الفرنج فجالت العرب دونهم ، وحالت بينهم وبين أسوارهم ، وأحالت عليهم منونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا ، كروا عليهم بكاسات المتون نهلا وعلا . وردوهم إلى مراكزهم ، ولم بين لقادرهم فضل على عاجزهم .

ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة ، كادت تحدث هزيمة . فوقف أصحابنا وثبتوا ثم وثبوا ، وأسعروا نار الحديد وأهبوا . ونظموهم بالقنا ونثروهم بالظبا ، وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت سيوفهم بالأعتاق والظلى ، وحلت من حياة العدا الحبا . ودخل القوم إلى خنادقهم ووقفوا وراء أسوارهم بإثارة عثيرهم وآثار عثارهم . وانتصف الإسلام من الكفر في ذلك اليوم بعض الانتصاف ، وأخذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقرة ، لخلص الجماعة المستأسرة . وأخبروا أن ملك إفرنسيس صار إلى صور . ورتب الدوك (٣) نائبه وولاه الأور . وأنه قد عزم على العود إلى بلاده

(١) في أ (٣٢٤) في المرج .

(٢) في ب القوس والتصحيح من ل ومن أ (٣٢٤) .

(٣) يقصد الدوق Duke بالإنجليزية . وهو لقب بمعنى الأمير .

بعد ما جرى الأمر بعكاه على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصيبه ،
ورضى بتدييره وترتيبه . فأنهض إليه السلطان وراءه رسولا بتحفة تليق
به ، يستخرج ضمائرته فيما هو من أربه ، ونقل خيمته يوم السبت العاشر
إلى تل يلزاة شفرعم وراء التل الذي كان عليه نازلا ، وحلى الموضوع الذي
حلّه وخطى الذى أخلاه عاطلا .

وما زالت الرسل تتردد ، والرسالات تتجدد ، والآراء والآراب تجتمع
وتتبدد ، حتى أحضر مائة ألف دينار والأسارى المظلومين وصليب الصليبوت ،
ليوصل ذلك كله إلى الفرنج فى الأجل المضروب والوقت الموقوت .

ووقع الخلف فى كيفية التسليم والتسلم ، وكيف يحصل الوثوق بالكفار
مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان : « أسلمه إليكم على أن تطلقوا
أصحابنا أجمعين ، وتأخذوا بباقي المال على سبيل الرهن قوما معينين » ،
فأبوا إلا أخذ الجميع ، فى الزمان السريع . والوثوق بأمانهم وأمانتهم ، والتفويض
فى أصحابنا إلى خيرتهم . فقلنا لهم : « بضمنكم الداوية » . فما دخلوا
فى الضمان ، وساء فيهم ظن السلطان . وقال : « إذا سلم إليهم من غير
شرط الاحتياط عليهم ؛ كان فيه على الإسلام عين عظيم ، وعار إلى الأبد
مقيم . فلو أبقنا خلاص أصحابنا ؛ وعرفنا بنجاتهم انتظام أسبابنا ؛ سمحنا
لهم فى الحال ، بصليب الصليبوت والأسارى والمال » .

وبقى الأمر واقفا إلى أن انقضى الأجل ، وانتهى الترم (١) الأول .
وجاء الرسل وأبصروا الأسارى حضورا ، والمال موزونا موفورا . وظنوا
أن صليب الصليبوت قد أرسل إلى دار الخلافة فليس له وجود ، فسألوا لإحضاره
وهم شهود . فلما أحضر ، خروا له ساجدين ، وأقروا به شاهدين . وعرفوا
أن الشرط بالوفاء مقرون ، وأن الأداء بخلاص أسارانا مرهون . وظهرت
علامات مكرهم ، ولاحت أمارات غدرهم .

وفى يوم الأربعاء العشرين من رجب أخرج الفرنج إلى ظاهر المرج
خياما ضربوها ، وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكثير إلى خيمته ، ومعه
خلق من خياله ورجاله .

(١) الترم : يفهم من السياق أنه المدة ، الأجل . ويبدو أنه كلمة Term الإنجليزية .

ذكر غدر ملك الانكبي و قتل المسلمين المأخوذين بعكاه

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس عشر رجب ركب الفرنجية بأسرها ، وخرجت من مستقرها ، وسارت بجيها ورجلها ، وجعلها وحفلها . وجاءت إلى المرج الذي بين تل العياضية وتل كيسان ، ونفذ اليك وأخير السلطان ، وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة ، وشامت صوارم صادقة ، وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين في الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلواهم بأجمعهم ، وألقوهم على مصرعهم . فحمل عليهم العسكر وهاجمهم ، وضرب بأموجاه أمواجهم . وقتل منهم خلقا ، وأوسع فيهم خرقا . واستشهد منا كردى حميدى وبدوى ، وكلاهما من الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روى .

فلما انصرف العدو إلى خيامه ، وركد الروع بمثار قتامة ، شوهد المستشهدون بالعراء عريا ، وإنما عروا ليكتسوا من حلال الجنان التي أكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس إليهم فعرفوا معارفهم ، ووصفوا في سبيل الله موافقهم . وما أكرمهم رجالا ، وأحسنهم في الشهادة والسعادة حالا .

ولما غدر الفرنج بسفك الدماء ، وهتك ستر الوفاء ، تصرف السلطان في ذلك المال ، وبسط فيه يد النوال . وأعاد أسارى الفرنج إلى دمشق لتعاد إلى أربابها ، وترجع إلى أيدي أصحابها ، فإنهم كانوا جمعوا من أهل البلد للحاجة إليهم ، فلما استغنى عنهم ردوا عليهم . وأعيد صليب الصلبوت إلى الخزانة ، لا للإعزاز ؛ بل للإهانة . فإن غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد ، والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بنولا ، وأنقلوا بعد رسول رسولا ، فما وجلوا قبولا ، ولا صادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر ، وقاربت البحر . وضربت بينهم الخيام ، وأبنت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل للسلطان ما حركة القوم إلا لقصبة عسقلان . فجاشت همومه ، وعب عبايه ، واجتمع بناديه لإجالة قدام

الرأى أصحابه ، وسح سحابه ، وصحح حسابه ، وحكم فأحكم ، ويرى فأبرم .
واستشار وأشار ، واستثار وأثار ، واستورى زناد الآراء ، وامترى مراد الأمرأ .
وقال : « هذا العدو طغى واستكبر ، وأصحى له الأفق وأفاق وأصحر .
وقد تحرك بعد سكونه ، وظهر بعد كموئه ، وغرته عكاه فطمع في عسقلان ،
واسترق جانبنا الحشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة ، وكمويه
راكزة . وعوراته بادية ، وثوراته عادية . ونكراته معروفة ، وغدراته
موصوفة .

وكنا نقول إذا برز نبارزه ، وإذا خرج نناجزه . وإذا فارق مكانه
نتمكن من تفريقه ، وإذا ركب الطريق نركب إلى طريقه . وإذا توجه إلى
موضع أوضعنا إلى مواجهته ، وأغرنا ألسنة الأسنه بمشافتهه وسافهته .
والآن لأن الله لنا الشديد ، وأدنى علينا البعيد ، وأخرج العدو من الضيق
إلى السعة ، وأبرزه من وراء الأسوار والخنادق المحتنعة ، وإن لم نلقه في طريق
مسيره ؛ ونجد في التدبير لتدميرهِ ؛ وصل إلى عسقلان فصار لنا منها شغل
عكاه وأصعب ، وحيثئذ نتعب ، وصدعنا بها لايشعب .

فقالوا : « هو يسير بالبحر محتميا ، وعن النهج متنيا ، ويقصد الساحل
الساحل ، ويقصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطرق إما آجام وغياض
غلقة متأشبة (١) ، وإما رمال وتلال ضيقة متكثبة . وهناك مواضع يمكن
فيها مضايقتة على المضايق ، ومواقعتة بالعوائق . »

فتقدم السلطان إلى علم الدين سليمان بن جندو ، وأمير من أهل الخبرة
آخر بالمسير إلى تلك المناهج ، ومشاهدة ما لها من المخارج والمواج . وكشف
المواضع التي يلي فيها العدو ، ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو .
فسارا ينفضان تلك المسالك ، ويكشفان الأماكن التي تكون معارك ،
وتنخذها لمبار المرام مبارك ، والمدار المراد مدارك .

(١) متأشبة : أشب الشجر ، التف واشتبك والمعنى المقصود هنا أنها متشابكة الأشجار .

وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع: وعيتنا على أماكن ومكامن ، ومواطن
ومواطن . ووقع الإجماع على الإجتماع ، على اللقاء والقراع . في مذاهب
تعينت ، ومسارب تبينت . وسهول عرفت ، ومروت (١) وصفت . وصمم
العزم على أن الفرنج إذا ساروا سرنا على عراضهم ، واستقمنا على جلد
الجلد في اعتراضهم واعتراضهم .

(١) مروت : جمع مروت وهو المفازه لانبات فيها .

ذکر رحیل الفرنج صوب عسقلان ورحیلنا للقاہم

وفی سحرة الأحد غرة شعبان ، أضرَم الفرنج فی منازلهم النیران .
وأصبحوا علی الرحیل والأصوات مختلطة بالصهيل . والأرض مضطربة ،
والسماء محتجة . والقباب تقوض ، والعیاب (١) تنفض . والجعاب تنثل ،
والهضاب تنقل ، والذئاب تعسل . والرغف یفاض ، والختف یخاض .
والخلیل تسرج ، والسيل یمرج . وذوئب النواہل تنشر ، وأنیاب النواہل
تكشر . ولواء اللأواء یعقد ، وضرام الضراء یوقد . والبیارق تخنق ،
والبوراق تأتلق . والدودّ ، والجوجوّ . وللحدید تبوج (٢) ، وللعدید تموج .
وقد ثارت الجواء (٣) ، وفارت الجأواء (٤) ، ودجت الأضواء ، ورجت
للضوءاء . وسال الوادی ، وعدت العوادی ، وسار الأعادی .

وعلم السلطان تدبیرهم ، وعرف مسیرهم ، فرعدت کوساته ،
وغردت بوقاته . وصاحت طبوله ، وساحت سیوله ، وانسجت ذیوله ،
واصطخبت خیوله . وبرقت لوامعه . وأشرفت طوالعه . ومضت عزائمہ ،
ومضت صوارمه . وحلقت العقبان إلى مطار مطارده ، وتألقت الخرصان
فی معاقل معاقده . وسار وأرضه جرد الضوامر ، وسماؤه نسج الخوافر .
فی بحار سواہج یموج علی شکائمها (٥) اللعاب ، وغدران سواہج کالزلال
لمعہ الحباب . ومجر ملتهب الجوانب ، مشتعل القواضب ، وقبّ معقودة
السائب (٦) ، مقودة الجناث ، معصوية الهوادی هادية العصائب . وعرب
ملوية العمائم بالشهب ، ملوثة البرود بالقضب .

(١) العیاب : جمع عیب وهو الزنبیل من أدم ، وما تجمل فیہ الثیاب کالصنوبر .

(٢) تبوج : لمعان وتكشف .

(٣) الجواء : الوادی الواسع ، البطن من الأرض .

(٤) الجأواء : أرض غلیظة فی سواد .

(٥) شکائم : جمع شکيمة وهی من اللجام الحلیدة المعترسة فی فم الفرس .

(٦) السائب : جمع سیب ، وهی من الفرس شعر الذنب . والقب : الفاسر من الخلیل .

وترك كالأقمار في حالات التروك ، وممالك في حالات الملوك . وعتاق الوجوه على الوجهيات العتاق ، قد خلقوا للثبات مع قلق الأخلاق . وأعاجم على العراب ، هضاب على هضاب . وكرد بمحزون الدروع محتمين ، وبقباب اليلب مستعصمين . في مسرودة الحلق ، مسرودة الحدق . تقهقر عنها الهازم ، وتقهقره إذا فلتت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو ولا يصاب ، ويعيب الأقران ولا يعاب .

من كل ناصر للحق ، على ضامر للسبق ، خارق للنقع راقع للخرق ، فاتق للرتق ، راتق للفتق . معتق إلى الضرب ضارب للعتق . وفيلق همه فلق الهام ، وجحفل ملتهم للجحفل اللهام . يحوى كل أغلب عبل (١) الذراع ، وأشم رحب الباع . خواض الكتاب ، فياض القواضب . رواض الرعان ، فضااض السنان ، موار العنان ، فوار الجنان . قائد الحليل ، زائد السيل ، رائد الليل . وهاجت العساكر ، وماجت الزواجر ، فزارت القساوير وأزهرت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد وعذبات الحرير ، واشتبه سهك الماذى (٢) بعبيق العبير .

وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك الأفضل (٣) ، وهو في نخبة الجحفل بدور ليل (٤) التسطل ، وشموس يوم المحفل . فوقف لهم وقفاً أثرهم ، وأهلبهم بنيران النصال وأسعرهم . وقطع طريقهم ، وقصد تفريقهم وسطاً على أوساطهم (نادى بإبراء زناد إيراطهم (٥) . فانقطعت أواخرهم عن أوائلهم ، وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم . وأرهم إليهم الأجل ، وأحرق عليهم العجل ، وطرق نحوهم الوجل ، وانهمز من تقدم ولحق الأول ، وتعمس من تأخر وانخلد وانخل (٦) .

(١) أغلب عبل الذراع : أسد غليظ اللواح .

(٢) الماذى : كل سلاح من حديد .

(٣) في ب الملك الأفضل والتصحيح من ل ومن أ (٣٢٩ ي) .

(٤) سابقة في أ (٣٢٩ ي) .

(٥) في أ (٣٢٩ ي) . نادى بإيراد زناد أنباطهم .

(٦) انخل : مشى في تقاتل .

وأوقد ناراً على أهلها مشعلة ، وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغلة . ونقذ إلى والده يستنجده ، حتى يسرع إليه مدده . ويقول : « إن أممّدتُ بألف ما أبيت من هؤلاء واحداً ، ومتى يتفق مثل هذه القرصة لو أرى لي مساعداً » . وتردّدت إلى السلطان رسل استنجاده واستمداه ، وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدر لمرى در النصر على مراده ، فسار من كان حاضراً من العسكر على عزم إنجاده وإسعاده . ثم قيل للسلطان « ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة ، والنامس قد سبقوا إلى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب أمكن ، والقلب إلى انهزام القرصة أسكن » : وأبطأوا عن الإصرار ، فأذن روع الفرنج بالإفراخ .

وعرف ملك الانكثير بما تم على ساقته ، وأن الذي وراءه في عاقته . فصرف عنانه وصرّف عناده وعاد عادياً بحماته ، فحمى بمدده أممّاده . والملك الأفضل قد بذل وسعه ، وأوضح في الجلد شرعه . وقتل من وصلت إليه يده ، ولقد كان يضعف عدد الأعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهف على ما فاته من القرصة ، وأعوزه من حصّة تلك الحصّة . فقد أنهاض بانهاضه جناح الكفر ، وكاد يفتح لارتجائه رتاج النجاح في النصر .

ومن جملة من كان مع الملك الأفضل من خواص الأمراء والمماليك ؛ سيف الدين يازكوج وعز الدين جورديك . واتفق قولهم على أن العدو كان قد انكسر ، وتبدد نظمه وتبتر . وأنه لو اتصل بهم مدد لم يبق من الأعداء أحد . ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميّمون . وعلى الساقّة المنصورة لحفظ الأتقال لتؤمن على ما تخلف فيها من العدو الغارة ؛ علم الدين سليمان وحسام الدين بشارة .

ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين ، وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الأسود . وأمر السلطان للمشورة بحضور أوليائه وأمرائه الأماجد الأجواد . والفرنج لما وصلوا إلى حيفا وقد وصل إليهم الحيف ، وساق ساقتهم السيف ؛ وخلصوا من نواجد النصال ؛ وأنياب النبال ؛ أقاموا بها حتى ينلعل جريحهم ؛ ويستريح طليحهم ، وتهب بعد الركود ريحهم .

وركب السلطان إلى الملاحة وهي بعد حيفا منزلة القوم ، وكشف ما حولها بالحووم . وعرف هل عليهم منها مدخل ، وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد إلى منزله وأقام بها يوم الثلاثاء وسير الانتقال إلى مجدل يابا ليلة الأربعاء . وأصبح راحلا ، فما حل حباه بأرض إلا أحميا ماحلا . ونزل على النهر الذي يجرى إلى قيسارية ، وعسكره قد طبق تلك البرية . وكان العدو قد تحول إلى الملاحة ، ومكث بها للاستراحة .

وأقام السلطان بتلك الناحية ، يتحول من رابية إلى رابية ، ويرهف للقاء الفرنج يحضه وحته كل عزيمة نائية . وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقعهم ، وقطفوا من مناقبهم ، وطرق الإنكدار إلى ثواقب ثوابتهم . فأمر بإراقة دمهم ، وإطاحة رمهم . وأخبره بعض الأسارى أنهم يوم رحلوا وصلوا إلى حيفا حيارى . وطرح منهم وجرح كثير ، سوى من أخذ فهو الآن أسير . وهلكت بين عكاه وحيفا أربعمئة فرس ، ونجوا منكم بأنفسهم على آخر نفس . ولو أنكم كبستم كبستم ، وأعريتموهم من الحياة لو أنكم بهم التبتتم .

فصل من كتاب إلى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكاء إلى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب أن (كل بيضاء شحمة (١)) ،
وأن (كل سوداء فحمة (٢)) . فرحل على صوب حيفا واقما في حيفه ، باحثا
عن حتفه بظلفه . زاعما أنه على قصد عسقلان - غزله الله وخيبه - في
قصده وزعمه ، وهو حاصل منا على صده ورغمه .

وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكيز قائدهم إلى البوار ، ووافد
أهل النار إلى النار ، ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا في عراضهم
لأعراضهم ، وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من
اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة ، وكل روعة لهم مييدة . فإتهم قطعوا
ساقة العدو عن اللحاق بمقدمته ، وفلوا عن الخدة في الحركة حد عزمته .
وقتلوا خيلا وخيالة ، وفوارس ورجالة . وقدروا وتمكنوا ، وجرحوا
فأثخنوا . ونهبوا وسلبوا وأخذوا رعوسا قطعوها ، ووقدوا نفوسا قلعوها .
وغنموا أقمشة وأسلحة ، وحصوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة .

ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف ، وتحكم في فلهم السيف .
فأقاموا إلى هذه الغاية لمداواة جريحهم ، ومواراة طريحهم ، وإراحة طليحهم
وإثارة ماركد من ريجهم ، وقد رحلنا وسبقناهم إلى طريقهم ، عازمين
على تبديدهم وتفريقهم ، وتشثيتهم أيلدى سبأ وتمزيقهم . فقد تمكنت بتأييد
الله أيلدى الأيد من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع شملنا لتفريق شملهم .

وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة ؛ ولأعدائنا من عبطة ، إلا
ونبادر بشراه إلى المجلس لتقوى في نصرتنا عزيزته ، وتشيم بارق التوفيق
في مواقفنا شيمته ، وتروض مواحل الآمال مع أوان الديمة الربيعية ديمته ،

(١ و٢) ماكل سوداء حمرة أوقعه ، وماكل بيضاء شحمة : مثلان يضربان في موضع التهمة .

ويغلو في سوق رواجه من الدين ماظن أنه رخصت قيمته . وكيف لا يأخذ
ذلك الكريم بنار الإسلام وقد سببت من عكاء كريمته . وإذا تأمل عرف
أن الخطب عظيم ، وما لدفعه إلا العظيم ، والهم مقيم ، وما لرفعه إلا بأسه
المقعد المقيم ، وسيقتضى دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفى غدوة الإثنين تاسع شعبان ، جاء من أنخبز برجيل الفرنج السلطان .
وأهم سائرون نائرون ، وعلى أجنحة الجرد طائرون ، وحول رجالتهم
بجئهم دائرون . وهم فى جمع هام ، وقد انقسموا ثلاثة أقسام . كل قسم
راجله بجئله محفوظ ، وبأعين القسمين الآخرين من خلفه وقدامه ملحوظ .

وكان السلطان تقدم من الليل ، بركوب الخيل . فركب فى كل خواص
للغمرات ؛ فياض بالزمامات ، رواض للجامحات ، نهاض بالجانحات . ملتئم
مع اللثم بالنقع والدجى ، ملتحف لولا الروح - بالحلم والحجا . مقتحم
فى حومة الوغى ، مضطرم بجمرة الظبا . على نزائع (1) ينقلن الردى على
صهواتها ، وصواهل يقذفن الحمام من لواتها ، ويكشف الظلام ببجئاتها ،
ويبارين الصفاح بصفحاتها ، وتعامل الرماح بأعناقها وطلاتها .

وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق إلى المنون على سابق ، وكل
ناطق إلى المازق مازق . وكل طائر فى الغبار على سابح ، وكل غابق بالنجيع
صايح . فى عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطية إلى الرقاب . وسار
العدو وسرنا نبريه ونباريه ، ونجترى عليه ونجاريه . والجاليشية ترمى وتلمى ،
وتصمم وتصمى . وطيور السهام تقصد من الأحداق؛ أوكارها ، والأوتار
تنشد بالإرنان أوتارها . وهم فى لباس حديد سد على السهام المنافذ ،
واشتك الشباب فيهم فأشبهوا قنafd .

وكانت هناك بركة كبيرة ، ومياها غزيرة . وهم على عزم ورودها ،
والإحاطة بحدودها . فحللأنهم عنها ، وأبعدناهم منها . وكان الحزم تركهم
حتى يخرجوا إلى القضاء ، فيدخلوا من تمكنتنا منهم تحت حكم القضاء .
لكنهم ارتابوا وارتاعوا ، وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فاحرقوا إلى

(1) نزائع : جمع نزيمة ، وهى من التجائب : التى تجلب لى غير بلادها ، أو من الأبل
والخيل التى انتزعت من أيدي الترياء .

الساحل ، وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سائرين ، وساروا مجتمعين .
ومازلنا نلزهم (١) ونهزهم ، ونحفزهم ونحزهم ، حتى تمت مرحلتهم ،
وعمت مقتلتهم . وتثلمت الصقاح ، وتحطمت الرماح ، وأجرت الأنهار
الجراح ، وجرى بالأرواح السباح .

وحضر السلطان مع الجاليشية ، ناجح الإرادة نافذة المشية ، ونزلوا على
نهر يقال له : نهر القصب (٢) . وقد انصبوا إلى النصب . وما كانوا
يرجون ، وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم في مسيرهم النوازل نزلوا ،
وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انزلوا .

(١) لز : شد وألصق . والزز هو الطمن وهو المقصود هنا ، وكذلك لز بمعنى الزام الشيء
بالشيء .

(٢) نهر القصب : بين القصير وأرسوف (الفهرس الجغرافي للوادئ السلطانية رقم ٤٠
ط . ليدن)

مقتل إياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم ؛ الحمام المقدام ، الأسد الضرغام ، الطاعن الضارب ، الباسل السالب . الغضنفر الميرماس ، الفارس القراس ، أياز الطويل . وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، وأقدم إقدام الساعى إلى السعادة . وكان إلى الصريخ أسمع متنصت ، ولعطاس النقع أسرع مشمت ، وإلى ضيف الحمام أسبق متلفت ، ولسيف الإقدام أرشق مُصَلِّط . لا يروعه الروح إذا حفزته عزمته ، ولا يهوله الهول إذا همت به همته .

وهو أول من يركب وآخر من ينزل ، ويدبر سواه وهو يقبل ، ويسابق إلى المضار ولا يمهل . وهو أبدأ يدعو إلى المبارزة ، ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصفين على صافئه ؛ ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كئانته ؛ إلى مقاتل المقاتلين طعائن غائنه . فما برز إليه إلا من برزت إليه متونه ، وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف للكفر كفها ، وبكبر للنصر زفها . وأنف للشرك جدعه ، وذى أنف للفتك صرعه . ولبة للغضنفر ضبحت لثعالب رماحه ، وطليئة (١) للمتشم (٢) طنت فيها أذبة صفاحه . وأجفان للأقران نبتت فيها أهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت في حساب حسامه .

فلما جاءه الأجل ما أجل ، ولكن إلى الجنة به عجل . فإن حصانه خانه وما صانه . فعر به في حالة الإقدام ، وجلا قمره في هالة الحمام ، ولم يخف لثقل الحديد للقيام . وطعن وضرب ، وأتاه من الكوثر سلسيله فشرب . ولما أدركه الأصحاب ألفوه وقد فات ، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات .

ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شديدى الشوكة ، حديدى

(١) الطلية : العتق .

(٢) المتشم : غسر الرجل : ركب رأسه في الحق أو الباطن فلا يزال بما صنع ، تنشر

الجيش أو السيل : أتبل .

الشكة . ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب في أوله ، وهو الذى نزل العدو في أسفله . وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة .

ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدوء ، ينتظر ما يكون من خبر العدو . وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، علموا منها منهاج راحاتهم . وكذلك ما ملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في الارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم في ساقه اليرك ، مستيقظاً للحفاظ والدرك . فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، ركبوا بغير علة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين ، وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبّر لاليهم النهر من ورائهم ، واستظهر عليهم في لقائهم . فقتل منهم عدة ، ولقوا منهم شدة وأسر ثلاثة قبل أن ينالوا إغاثة . ثم ركب الفرنج إليه ، وحملوا عليه . وكانت وقعة عظيمة ، جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة .

وأحضر الأسارى عند السلطان ، بجزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالأمس منهم ألف ، وسرى فيهم وهن وضعف . وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم . ورحلنا وقت الظهر ، وعبرنا شعراء أرسوف في الطريق الوعر . ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب (١) .

ومضى السلطان جريداً ، إلى قرب أرسوف ، وأطال هناك الوقوف . حتى رأى أرضاً في طريق العدو تصلح للقائه ، والإحداق به من أمامه وورائه . وأقام يوم الأربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الأول .

(١) دير الراهب : بفلسطين قرب أرسوف (القهرس الجغرافى للتوادر السلطانية رقم : D

ط . ليدن) .

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكثير

كان في اليك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر د
ة اسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجمع به ، وينزل على أربه
ويعرب عن مطلبه . فاجتمعا يوم الخميس على التأسيس . ثم تحدثا في الحوادث
وعوادي الحروب العواث (١) . وأن السلم متعينة ، والسلام فيها متيئة .
والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة (٢) . قال : « وما جئنا إلا لإصراخ
أهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فإن أصلحتهم واصطلحتم استرحنا
واسترحتم » . فقال له الملك العادل : « ما الذي فيه تجاور وله تحاول » . فقال :
« رد البلاء برد البلاد ، وسلوك مسلك الإسعاف والإسعاد » . فقال العادل :
« هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه . ودون حدود البلاد حدود
الحداد ، وخطت القتام وخرط القتاد ، وصرف عنان صرف العناء إلى
المتصرفين بالعناد » .

وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وعلى مرجل غيرته في الكلمات الكلمات
الغليظة . وكان الترجمان بينهما هتفري بن هتفري ، فلما سمع ملك الانكثير
ماراعه ، ما استطاع سماعه . وثار ثورة المحتق المحرق ، وآل اجتماعهما
إلى التفرق .

(١) العواث : جمع عيوث وعايث وهو الكثير الفساد .

(٢) في ب مترجمة والتصحيح من ل .

وقعة أرسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباحي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الإصباح الأصحاب واستحضر من أسد غابه من غاب . وأمر برحيل الأتقال ، وأقام في رعيال الرجال . وركب في عجم أنجاب ، وعرب على عرب ، وكرد على جرد ، وكل سابق وُرد على سابق ودد . على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمُن . بأكباد غلاظ على العدا ، ورفاق حداد على الطلي . ونبال مصممة لبان المصمم ، ورماح لُدن لُدتها ضغم الضيغم المعلوم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرار نصله ونومه .

فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب أرسوف ؛ وقد ضم الرجال والفرسان . وهوسائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك . وحزب الشيطان ، وحرب الإيمان ، وأصحاب الجحيم ، وأقطاب الضلال اليهم . وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب . وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح . وأجناس الكفار ، وأنجاس الداوية وأرجاس الاستبار . وكل غيران غيرٌ وانٍ وأفعاون معتقل أفعاون ، وكل أرقم في جلد أرقم ، وكل أزرق أشقر على أدهم .

فأحدقت به أحلاف عساكرنا إحداق النار بالخلفاء ، ونقلت بنسور ضوامرها الأرض إلى السماء . وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت (١) المهجات . وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العرييات . وألهمت شعل اليمانية ، وألهمت بها مقل القرنجية . وجال عليهم في الجاليش ، الترك على الأكاديش . وأحدقت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت بيضها لمعاققة الأعناق .

ولمغ شرار النصال في دخان العجاج ،^١ وخرقت بنات الحنايا الحرق

(١) أفاظت : أمانت .

حجاب الحجاج ، وأفضى فيض بنايع النبع إلى إعجال الأعلاج ه فإن
الفرنج أغلوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا واحتدوا وامتلوا . وقربت
منهم الأطلاب ، واختلط بهم الأصحاب ، وتعانقت الرقاق والرقاب ،
وأخرج القوم وتقطعت بهم الأسباب . وقربوا من أرسوف وقد لاقوا منا
الختوف والخسوف . وضاق خناقهم ، وحق بهم إرهاقهم . ونشبت
بالخيشية فيهم بالنشاب ، وشبت نيران المرهفة في أولئك الأوشاب .

فاحتلموا في جلودهم الجرح ، ومن أجلادهم الطرح . ووجدوا
الموت الغالى مسترخصاً ، وأيقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصاً . وعرفوا أن البلايا
عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق مالمقوه من النكاية غير
محتلة . فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها
وكادت تحلثها شوارع القنطاريات عن مشارعها . لكنها تحيزت إلى القلب
المنصور ، وفازت من وجوه النصر بالسفور .

واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة الفائرة ، سعداء استقبلوا
بالأسنة الأسته ، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة . فما صرعوا حتى صرعوا ،
ولما أشرعت إليهم الرماح أشرعوا . ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة
أردتهم وردتهم ، وصدفتهم عن الاستئنان في جدد تلك الحملة وصدتهم :
وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس . وفرشت بالعراء لهم أشلاء ،
وأثنجئهم طعانا ورماء . فزلوا في أرسوف وقد كسروا وخسروا ، وقتل
قوم منهم وأسروا .

وفي ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل - سيف الدين ،
وحمل في أصحابه أسد العرين . وسدد إلى نحورهم الشوارع ، وقلع منهم
قلائع . وثبت عسكر الموصل ، وكذلك قايماز النجعى في موضعه الأول .
وكانت العساكر في شعراء أشية(1) ، وشجراء منتشبة .

فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم .

(1) أشية : ملغفة متشابكة .

فعاد وعبر أرسوف ونزل قريبا من الماء . ويات السلطان تلك الليلة على نهر
العوجاء (١) ، وأقام العدو يوم الأحد في موضعه ، منكوبا بتعب تبعه .
ثم رحل يوم الإثنين سائراً إلى يافا ، ليستدرك بها فارطه ويتلافى . ونازلتهم
العساكر بالنوازل إلى أن نزلوا ، وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا .

(١) نهر العوجاء : نهر صغير بفلسطين يصب في (البحر الأبيض المتوسط) بين يافا وأرسوف .

فصل من كتاب السلطان إلى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكاء

ساروا في مواضع ما لليزك عليهم فيها سبيل ، ولا لقداح القراع في مجالها مجيل : وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق . وهم على البحر لا يفارقونه ومن المورد إلى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه . فإن المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهلين ، وإذا لزوا لم يبعدوا بين المنزلتين . وكانت لنا إلى هذه الغاية معهم في كل بقعة وقعة ، وفي كل مرحلة مقتلة ، وفي كل منزلة منزلة . وأوردناهم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسبنا حماهم للحمام في كل سبيل ، وساء صباحهم منا في كل مغدى ومقيل . وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال .

وكلما وجدنا فسحة ضايقتناهم ، وأرهفنا حدود الغزائم والصوارم وأرهقتناهم . وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور ، ودائرة السوء على أهله بناتدور ، وماء أهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور . ولولا أن الله تعالى قد أخذ مواعده في نصر أوليائه ، وقهر أعدائه ، لوقع القرار من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم .

فمنها : يوم رحيلهم عن عكاء أرهقتهم اليزكية الزكية ، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنية . وكان الولد الأفضل يومئذ متولى اليزك ، فتولى إسعار لب المعرك . ووقف لهم في المضيق على الطيق ، وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن أولهم ، وعاق الساقه عن الوصول إلى منزلهم . وبتر وبتك ، وقتك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك .

وعبر الله نبح نهر حيفا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر : ووصل عساكرنا وقد تمنعوا بالنزول ، وتجمعوا في الوعر عن السهول ،

ولم يبق إليهم نهج للوصول . وأقام الفرنج في تلك المنزلة أياما ، وقد نالت معاطسهم إرغاما . حتى استجدوا عدداً ، واستجدوا مدداً ، واستجدوا من وراءهم عدداً . وأحكموا التدبير ، واستأنفوا المسير .

ومنها يوم انفصلهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة ، وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت إليهم رسل المنية . وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولم تزل السهام إلى مقاتلهم مصوبة مسددة ، إلى أن احتسوا بالنزول ، وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول . وقد قتلت من خيلهم عدة ألف راس ، لم يفصل راكبها إلا وهو من ثوب النجيج كاس . ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل . فإذا لزوا بالمنازلة ، ارتزوا (١) إلى المنزلة . ولاذوا وهم أهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال إلى الاحتماء . ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر يعادتهم وعاديتهم (٢) ، شاكين في منعهم ، ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل . العساكر الإسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة إلى اعتراضهم . موقفة في مرامها ، موقفة لسهامها ، محرقة أهل الحجيم بضرامها .

ولما نشب فيهم الشباب وأعجزهم ؛ وأزعجهم وأخرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهبهم ؛ كابروا وصابروا إلى أن وصلوا أسوف ، وقد شارقوا الحسوف ، وقاربوا الخوف . فحملوا بجملتهم حملة واحدة ، وجاءوا كالسحاب بارقة وراعدة .

واندفعت الأطلاب الإسلامية أمامها . ولم تثبت قدامها . حتى أبعدوا بجملتهم في حملتهم ، وتفردوا بجركتهم في معركتهم . وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة أنها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموثلا للمفتزز المتحرز . ووقف الأخ العادل ثابتاً قلبه ، نابئاً طلبه . وكر عليهم في حربه ذوى الحمية ، والأنف والأية ، والمهم العلية ؛ كرة ردتهم وأردتهم ،

(١) ارتزوا : ارتز البخيل عند المسئلة : ثبت ويين . والسهم في الخائط : ثبت .

(٢) في ب عاديتهم والتصحيح من ل .

وصدقتهم عن بلوغ الغاية وصدقتهم . فاستدركت مافرط في النوبة من النوبة
واستمسكت بما استأنفته في العزمة من القوة . وقتلت منهم كندا كبيراً ،
وعداً كثيراً ، وعاد نظم هامهم بالعماء نثيراً . ونزلوا بأرسوف ، راغى
الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم .

وهذا طاغوتهم المالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاحين ،
وإيليس تلك الشياطين – والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه ، قبل
وصول ملوك الإشراف . وتمت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية .
ونفذ أمره على الداوية والاسبتارية . وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه ؛
أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقلمين المحتشمين ، فما قتل حتى
قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا . وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفرع
من ورود مشرعه .

ونزلت العساكر الإسلامية على الماء وهو بعيد من نخيم الكفار ، ونجيت
عليه بحكم الاضطرار . ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ،
وكل منهم استدرك بقصده إياها تلفه وتلافى . فجبال دونهم لقدح منونهم
مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم مجيلا . حتى
باسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها ، وربطهم بالأسود في عرينها
وأسرى الحين إلى سراحينها .

فما وصلوا المدينة إلا وقد تحظفوا من حولها ، واستولى الرعب على
قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ،
وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا .
وعلموا أنهم إن خرجوا أخرجوا ، وإن سلكوا هلكوا ، وزعموا أنهم إذا
صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج إلى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الأتقال كلها به في تلك الرحلة . ورحل ليلا وأصبح على (يُبَيْتِي) ، وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام به تبني . وزرنا يَبَيْتِي قبر أبي هريرة (١) رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتمين به إليه . ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الأمر .

(١) أبو هريرة : هو الصحابي الجليل ، المحدث المعروف وصاحب رسول الله صلى الله

عليه وسلم .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور
بني أمر عسقلان ذوى الآراء . فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخربها
العجز عن حفظها على ما بها . ووافق الجماعة ، وقالوا : « قد ضاقت
عن صونها الاستطاعة . فإن هذه يافا وقد نزلوا بها وسكنوا فيها ، مدينة
بين القدس وعسقلان متوسطة ، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين ، ولا نفي الحال
يحمية البلدين . فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه إلى عشرين ألف مقاتل ،
وإلى الاستكثار لأجل ذخائره من كل حاصل . فانظر إلى أصوب الرأيين
فقدمه ، وأبصر أخطر الداءين فاحسمه ، واعمد إلى أشرف الموضعين
فحصنه وأحكمه ، وتيقن أن عسقلان إذا وصلوا إليها وهى سالمة تسلموها ،
واستظفروا بها وأحكموها . وتقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم
وبغيتهم إلى متهاها » .

واقضت الآراء ، إقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء .
حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم .

ووصل السلطان إلى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس
تاسع عشر شعبان . ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن
وجد كل له متجنباً متجنباً . وقد راعتهم نوبة عكاء وحفظها ثلاث سنين .
وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين . وقال من تعلل واعتذر عن دخولها ،
وحل عقد عزمه عن حلولاها : « تلخلها أنت أو أحد أولادك ؛ فندخلها
اتباعاً لمرادك . » .

فحيث لم يجد بدا من نقض أسوارها ، وغضب أنوارها ، وفض سوارها ،
وتعفية آثارها ، وتطفية نارها . ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ؛ مذ يوم
فتحها واقتنائها ؛ لما تطرق إلى أيدها خلل ، ولا إلى يدها شلل ، ولا إلى حدها
قلل ، ولا إلى ودها ملل .

وقد كنت ركبت إليها وطفقتها ، واستحستها واستلطفتها . ورأيت
سورها قبل فطم سواره ، ونورها قبل ذبول نواره . فما رأيت أحسن منها
ولا أحسن ، ولا أحكم من مكانها ولا أمكن .

وسكانها كانوا في رفاية ، فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا أنفس
الأعلاق بأبخس الأثمان ، وفجعوا بالأوطار والأوطان . وسامت أسواؤها ،
ونأت أنواؤها ، وأناخت لأواؤها ، وبأخت أضواؤها . وسمع غناء
الماعول في مغانيها المعولة ، ورثت دائرة أزلزال في دورها المتزلزلة .
وناحت تلك النواحي ، ومسحتها المساحي . وجرفتھا المجارف ، وأخافتها
المخاوف ، ونكرتها المعارف ، وبهرجتها الصياف ، ونعمتها التواعب ، ونابتها
النوايب ، ونزلتها النوازل ، وغالتهها الغوائل . وسقتها السواقي (١) ،
وعفتها العواقي .

وخلت مدارس آياتها من التلاوة ، وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوة .
وصوحت (٢) بجاني مبانيها، وطوحت معاني مغانيها ، ودجت مجالي معاليها،
وعادت مقاوي مقاربيها . ووقفت على طولها واستوقفت ، وأسيت عليها
وأسفت ، وتلهبت وتلهفت ، وشاهدتها وقد حسرت وخفيت ، وعحي
سنى محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع ، وأهديت لسقياها الدموع .
فلقد أصيب الإسلام بعروسها ، وعبست الوجوه لعبوسها، حين ثار نفع بوسها .

فلما خلعت مساكنها من سكانها ؛ وتخلت بالبيوت رماد نيرانها ، رحل
السلطان يوم الثلاثاء ثاني شهر رمضان ونزل على يبيتي ، بعد أن ترك سور
عسقلان وقد تعذر أن يبني . ونزل يوم الأربعاء ثالث الشهر بالرملة ،
وتفضيل جميله باد على التفصيل والجملة . وأمر بتخريب حصنها وتخريب
(لُدّ) ، وبذلك كل في ذلك الجهد . وركب جريدة إلى البيت المقدس ،
وأناه يوم الخميس، وأعاد إليه رسم التأسيس . وخرج منه يوم الإثنين ثامن

(١) السواقي : هي الرياح التي تسمى التراب وتذره .

(٢) صوحت : شقت .

شهر رمضان بعد الظهر ، وبات في بيت نوبة (١) ، وقد نال بما رتبته من مصالحي القدس المثوية .

وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء ضحوة ، وقد أكل من كل مارامه حظوة . وفي يوم الإثنين ثامن شهر رمضان ، وصل صاحب ملطية (٢) معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ملتجئاً من أخيه وأبيه إلى السلطان . فتلقاه الملك العادل ، وجاعته منه الفواضل . وأقام في الخدمة السلطانية مدة ، واستجد بها جده ، وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة ، وقوى منها بالمصاهرة . فإنه تزوج بابنة العادل ، وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الإثنين خرج ملك الانكثير في خياله متكرراً ، ليكون لحشاشة لهم وخطابة مخفراً . فخرج عليه الكمين ، ونشب به العين . وجرى قتال عظيم ، وكان لأصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يُوخذ ويوقد والطنن في لبتة ينفذ . ففداه فارس من أصحابه بنفسه ، وشغل طاعته بما عليه من حسن لبيه . فاشتغل به وأسره ، وأفلت العين وأخفى أثره . وقتل وأسروا من خياله جماعة ، وانهمزوا من أمر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعة .

وجرت أيضاً يوم الجمعة ثاني عشر الشهر ، حرب بين البيزكية وبين أهل الكفر ، سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف ، بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشرة ، ونزل على تل عال عند النظرون ، وهي قلعة منيعة معجبة للظنون والعيون . فأمر يهداها وهدمها ، وقل غربها وثلمها . وأشاع بها الإقامة ، وأفاض فيها على العسكر الكرم والكرامة . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الأتقال ، وإنفاذ الجمال لنقل الأزواد والغلال .

(١) بيت نوبة : أو نوبا ، بليدة من نواحي فلسطين (ياقوت ج ٤ : ٢٥٣ ط . ب) .

(٢) ملطية : إحدى مدن أرمينية (ياقوت ج ١٨ : ١٩٢) .

فصل من كتاب إلى الديوان العزيز في وصف مطاولة

الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار (١) ، وأنضاه قتال الكفار بالليل والنهار .
لاسيما في هذه السنين الأربع ، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة
الكروب على مصيف ولامربع . ولاشتا ولاصاف ، إلا حيث صف العدو
وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف ، وتعبرت به الختوف ، وتفلت
منه السيوف ، وتحللت به الصفوف ، وتمخضت بأحاده الألوف ، وتمخضت
لجنى بيضه وسمره من ورق الحديد الأخضر القطوف . حتى سُم وممل ،
وضجر وكل ، وكم عقد عزمه وحل ، وأنهل نصله من دم الكفار وعل ،
وأمل النصر فقال عسى ولعل .

وأما خيوله فقد أجهدا الجهاد ، وأنضاهما الطراد ، وفرى جلودها
الجلاد ، وعزت منها لكثرة الجراح الجياد ، وأعادت شهبها كتنا حدود
البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروح للنجروح ؛ وتفريق
السهم منها بين الجسم والروح ، صارت تنفر من رنة الخنية ، وأنة المبرية .
كانّ عندها للأوتار أوتاراً ، ولطائرات النصال في لباتها أوكاراً . أوكأنها
لما رأت أنها تباريها في المطار ؛ وتجاريها في المضمار ؛ ثارت لإدراك النار ،
وهذا سبب ما حدث من النفار ، وما عادت الآن تدخل على راجل الكفار .
وأما العدد فقد فقدت بالكلية وعلمت ، وتكسرت وتحطمت ،
وتقصفت وتقصبت وتقصمت ، وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد
استشهدت .

وأما الشباب فإنه قد فني ، بعد أن أخذ من أخشابه جميع ما وجد واقتنى .
وقد عدمت أشجاره في منابتها ، وأعوزت أخشابه من منابتها . ونقضت
الكنائن ، وأنقضت منه ومن كل ما يُذخر الخزائن . وما تبرح الصناعات في

(١) البيكار : كلمة فارسية معناها الحرب (Dozy. Supp. Dict. Arabe) .

الممالك بمصر والشام ؛ وما يجرى معها من بلاد الإسلام ، يبرون ويريشون ،
ويتصلون ويعملون ، ويكلمون ويحملون .

واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال ، إلى أحمال كثيرة لا يفي
بها الصناع ولا يرفعها العمال . وحسبها أن نصولها أعدمت من حديدتها المعادن ،
وخلت من ذخائرها الأماكن . هذا والخادم قائم بأداء هذا القرض وحده ،
مسترف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . وما استمر على
مساعدته ، وموازرته ومعاقبته ، إلا صاحباً الموصل وسنجاناً ، وكلاهما عن
سنة الإسعاف والإسعاف ما جار . فهو يحضر تارة بنفسه وآونة بولده ،
ويستمر من جد الموازرة على جده ، ويواظب بعده وعنده ، ومدده
في مطاولة مدده .

ذكر ما نجدد للملك الإنكثير من المراسلة والرغبة في المواصله

وصلت رسل ملك الإنكثير إلى العادل بالمصافحه (١) على المصافاة ،
والمواتة في الموافاة ، وموالاته الاستمرار على الموالاته ، والأخذ بالمهاداة ،
والترك للمعاداة . والمظاهرة بالمصاهرة . وترددت الرسل أياما ، وقصدت (٢)
الثاماه ، وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل — بأخت ملك
الانكثير ، وأن يعول عليهما (٣) من الجانيين في التدبير . على أن يحكم
العادل في البلاد ، ويجرى فيها الأمر على السداد . وتكون الامراة في القدس
مقيمة مع زوجها ، وشمسها من قبوله في أوجها . ويرضى العادل مقدمى
القرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولا يمكنهم من الحصون التي
في النرا . ولا يقيم معها في القدس إلا قسيسون وراهبان ، ولهم منا أمان
وإحسان .

واستدعانى العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد ؛ وجماعة من الأمراء
من أهل الرأى والسداد ؛ وهم : علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين
عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة ، وقال لنا : و تمضون
إلى السلطان ، وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه أن يحكمنى في هذه البلاد ،
وأنا أبلد فيها ما في وسع الاجتهاد » .

فلما جئنا إلى السلطان عرف الصواب ، وما أخرج الجواب : وشهدنا
عليه بالرضى ، وحسبنا أنه كمل الغرض وانقضى . وذلك في يوم الاثنين
تاسع عشرى رمضان .

وعاد الرسول إلى ملك الانكثير لفصل أمر الوصلة ، وإراحة الجملة
ولإزاحة العلة : واعتقدنا أن هذا أمر قد تم ، ونشر انضم ، وصلاح عم ،
وصلح أذم ؛ وحكم مضى ، واستحكم به الرضى . وإن الأتئى تميل إلى

(١) قأ (٣٤٤ى) بالصالحة .

(٢) ق ب قصد والتصحيح من ل ومن أ (٣٤٤ى) .

(٣) قأ (٣٤٤ى) عليها .

الذكر ، وتزليل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل ، النزول على الذحل (١) وان الشكر (٢) يجلب الشكر ، ويبدل بالعرف النكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان (٣) القراع ينقض بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الباء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغم . وان هذا الأخ لتلك الأخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو ، وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج تزويج ، وتقويم لما فيه تعويج .

وشاخ الذكر ، وضاع النثر ، وذاع السر . وبلغ الخبر إلى مقدمهم وروعوسهم ، فقصوه على قسوسهم ؛ وعسروا على عروسهم . فجهوها (٤) بالعدل والذع ، (وأنجهوها (٥) بالقدح) (٦) والقدح (٧) . وقالوا لها : « كيف تفجيتنا (٨) بأفجع ملم موئم ، وتسلمين بضعك لبياضة مسلم . فإن تنصر تبصر ، وإن تسرع فما تسمر . وإن أبي أبنائه ، وإن أتى أبنائه ، وإن خالف خالفناه ، وإن حالف حالفناه . وأى وجه ههنا للاتلاف ، ونحن لاختلاف الدين ندين بالخللاف » .

فرهبت بعد ما رغبت ، وبطلت بعد ما طلبت ، وسلت بعد ما سألت ، ونزت بعدما نزلت ، وكرهت وكانت شرهت ، وكانت اكتحلقت فودت أنها مرهت (٩) . فأرسلت إلى الرسول ، وأقبلت عليه بالقبول . ثم تصلبت في القسم وأقسمت بالصليب ، أنها مجيبة إلى التقرير والتقريب . وأنها مسارعة

(١) الذحل : الثأر .

(٢) الشكر : النكاح .

(٣) في أ (٣٤٤ ش) فان أنجهوها .

(٤) جهوها : فاجأوها ، ردوها عن حاجتها .

(٥) أنجهوها : ردوها أقيح رد ، استقبلوها بما تكرهه .

(٦) القدح : الجبن والانكسار . والقدح ؛ : القدر ، الخناه ، الفتحش .

(٧) ما بين القوسين في أ . (٣٤٥ ش) و جهوها بالقدح .

(٨) في ب تفجيتنا والتصحيح من ل ومن أ (٣٤٥ ش) .

(٩) مرهت العين : فسدت و ابيضت برامض أجفاتها .

إلى التمكن ، لكن بشرط الموافقة في الدين . فانف العادل وعدد عن
استئناف الحديث ، وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث .
اعتذر الملك بامتناع أخته ، وأنه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته .
وكان قد استقر مع تمام العهد ؛ وانتظام العقد ؛ مفاداة كل أسير بأسير ،
كبير بكبير ، وصغير بصغير . وبشرأولياء الطاغوت ، بصليب الصلבות .
فبطل التدبير ، وعطل التقدير ، وذلك ثاني يوم العيد .
وفي يوم العيد وهو الثلاثاء ؛ أعد السلطان من الليل خلع الأكابر حتى
سارت إليهم بكرة ، وأحدث بحسن احتيائه لكل عين وقلب قررة ومسرة .
ثم استدعاهم إلى سماطه ، ونشر لهم بساط نشاطه . وجلس الملك معز الدين
قيصر شاه بن قليج أرسلان عن يمينه ، وأعزه بتقريبه وتمكينه . و يليه حسام الدين
خضر - أخو صاحب الموصل ، ولسمو منزلته دنو المنزل . وعلاء الدين -
ابن أتابك الموصل - عن يساره ، وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بإيثاره .
ومجاهد الدين يتر نقش مقدم عسكر سنجار جالس ، والأكابر كلهم هناك
في منزلته منافس . ثم تفرق الناس بأنس جامع ، وعرف شائع ، وعرف
ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو ومواقفته له في كل يوم
تواتر الخبر بأن الفرنج على عزم الخروج ، وأنهم على الاجتماع في
تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال ، وقد أركب العسكر للقتال .
فلما بلغ قبلي كنيسة الرملة ، جميل الحال ، حالى الجملة ؛ خيم وبات ، ونوى
البيات والثبات . وجاء الخبر في غد ؛ بأنه خرج العدو إلى يازور (١) في
أوفرمدد . وتسارع العسكر إليهم ، وتكاثروا عليهم ، وقربوا من خيامهم ،
وأخذوا عليهم من ورائهم وأمامهم . وناشبوهم بالنشاب ، وكاثروهم
بالأوباش والأوشاب .

فركب الفرنج إليهم ركبة ، أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة
واحدة ، وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين أيديهم ، فأدركوا
ضعافاً طمعوا فيهم . وقصد من المسلمين ثلاثة بالشهادة ، وكانت مسعاتهم
إلى السعادة . وكذلك في كل يوم يركب السلطان ما يخلو من وقعة ، ولا بد
للكفار فيها من صرعة .

(١) يازور : أو بازور ، بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام (ياقوت ج ٢٠ :

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الأربعاء سادس عشر شوال أمر السلطان رجال الحلقة المنصورة بأن يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وأمنوا ، وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش ، وباشروا عثار المحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم أعراب على عراب ، بصوارم في أيمنهم كأنها بروق في سحاب . فركبت ليلها من الخيام ، ورجبت في ترحيب صدورها بصلور الحمام ، فاندفعت العرب أمامها ، وحقت انضمامها . وما قدرت على قصد موضع الكمين ، لانسداد الطريق : بالآساد الشم العرائن دون العرين . فمرت العرب في جانب ، والكمين في جانب . والخيل تركض يسالب من سالب ، وناهب من ناهب .

ونجا العرب ، وقاتهم الطلب . وحضروا بأسارى ونهاب ، وأفراس وأسلاب . فأما أصحابنا في الكمين ؛ فلينهم أبصروا الفرنج ناهضين ، وفي المعرك راكضين ، فخرجوا على ظن أنهم على قصدهم ، فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن ودهم . وركضوا إليهم على بعد ، فأتعوا الخيل بما جدوا فيه من إحضار وشد .

ووصلوا إلى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت . فاضطروا إلى القتال وقاتلوا على الاضطرار ، وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار ، وهم : (أبلز المهراني) ، و (جاولي الغيلدي) ، و (صارو) ، وسرّوا في جنات النعيم بما إليه صاروا . وأسر من الفرنج فارسان معروفان ، وأحضرا عند السلطان .

وانفصلت الحرب وقت الظهر ، وعاد حزب الإسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه ، والخيل تقاد إليه ، والأسارى يحضرون بين يديه . وأخوه العادل عنده جالس ، وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكثير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ، ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكثير ثلاث خيام . وأعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكثير وطالت بينهما المحادثة ، ودامت المئانفة (١) والمئانفة (٢) . ثم افترقا عن موافقة أظهرها ، ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادل المعروف بالصنيعة ، ليتفقد الأسارى الذين يباقا ، ويتدارك أمرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس ، وأنه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وأن يكون للسلطان مصالماً ، وله على الطاعة مصافحاً . حتى يقوى يده على ملك الانكثير ، ويتفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكثير بالحال ، فوصل رسوله أيضاً بالإحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيداء إلى المركيس على شرائط قررت ، ونسخ أيمان حررت .

وأما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود ، ولم يجر من تلونه إلا على المعهود . وكلما أبرم عهداً نقضه ونكثه ، وكلما قوم أمراً عكسه وعلته (٣) وكلما قال قولاً رجح عنه ، وكلما استودع سرّاً لم يصنه . وكلما قلنا بئى ؛ خان ، وإذا قلنا أنه يزين ، شان ، وعن كل خزي أبان .

وفي يوم الأحد سابع عشر شوال عاد السلطان إلى المخيم بالنظرون ، وأقام على الثبات والسكون . وفي يوم الخميس مستهل ذى القعدة سار ابن قليج أرسلان صاحب ملطية مودعاً ، وركب السلطان وسار معه مشيعاً . وعقد له على ابنة الملك العادل بصداد مائة ألف دينار ، ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار ، واستبصار واستنصار ، ويسر ويسار .

(١) المئانفة : ثافته ، جالسه أو لزمه حتى يعرف دخيكة .

(٢) المئانفة : نائفه ، خاطبه وساره .

(٣) علكه : خلطه .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذى القعدة وتقدموا إلى الرملة ونزلوا
بها ، وخيموا في أقطارها وسهوها . ولم نشك في أنهم على قصد القدس
بأهل الرجز والرجس .

وأقام السلطان في كل يوم له سرايا ، للكفر منها رزايا . ولنا في كل يوم
وقعة شديدة ، وفتكة بالكفر مييدة . وما يخلو يوم من أسرى تقاد ، وغنائم
تستفاد . ثم توالى الأمطار ، وتوعرت السهول وتوحدت الأوعار . فعزم على
الرحيل ، وأمر بالتحويل .

ذكر الرحيل إلى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين من القعدة

وركب السلطان يوم الجمعة والقيث نزل ، والنصر شامل ، وفضل الله متواصل . ونحن معه سائقون ، ومن بركة الجهاد إلى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسيرني وفي مسألة من الخلاف ياخي ويتناظرني ؛ حتى وصلنا إلى القدس قبل العصر . وقد نشر السلطان لواء النصر . ونزل بيلار الأقسام للجولة لكيسة قلعة ، ونوى بها الإقامة . وشرع في تحصين المدينة ، لتحصيل السكينة . ووصل يوم الجمعة مستهل من الحجية في قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالصخرة .

وفي يوم الأحد ثالث من الحجية ؛ وصل حسام الدين أبو الميلاء من مصر ؛ بسكر مجر . وتبعه بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بزول الفرنج بالطرون ، وأذن ذلك بتزاحم الأفكار ؛ وتراجم الظنون ؛ وتراجل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة ، تم على العدو بها صرعة . فإن السلطان قد تلك الليلة إلى اليك قريب بيت نوية ؛ علة من القرامان محرقة^(١) ليستصحبوا لإحصانهم للجنوية . فوقعوا على سرية للفرنج قسما أصلوها ، وأسروها وقتلواها . ووصلوا بزهاء خمسين أسيرا إلى القدس ، وعاد ذلك ما يرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة ، ونعمى^(٢) كريمة ، وحتى عميمة . وكذلك سابق الدين صاحب شيزر ، ومن معه من العسكر . واقسم يوم العيد قتل من قلمهم ستة وأسر أربعة ، وترك بالمرعة منهم مصرعة . وكسب منهم خيلا ، وكسبهم ويلا .

(١) قب بجرة والصحيح من ل ومن أ (٢٤٨ ش) .

(٢) قب ب لى والصحيح من ل ومن أ (٢٤٨ ش) .

يوم عيد الاضحى بالقلنس

كانت الوقفة بمكة يوم الحجة في هذه السنة ، وتضاعفت للحجيج الحجة على الحجة . غير أن العيد بالقلنس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة الخميس للملال أحد . ونصب السلطان خراج قبة الصخرة المتحركة (1) الخاص ، وصلى الناس في القبة العيد وملاؤا حوالها العرائس. ثم اتصرف السلطان وقد بر عمله ، ودر أهله ، ووفر أجره ، وأسفر فجره .

(1) المتحركة : فقط طريق الأصل ، يطلق على نوع من الخيام تتكون الواحدة منها من قطع من الخشب تتكون على شكل قبة خفيفة يتطلع من اللبد (Dozy-Supp. Dict. Arabe.)

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذى الحجة ؛ أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وكلاهما يجتد في الجهاد ولا يقصر . وأخذوا غنائم وأموالا ، وساقا خيلا وبغالاً ، وكسبا أحمالاً وأثقالاً . وأسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين ، ووقفوا بين يدي السلطان على ركب اللد جائين ؛ وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب ، وكثرت منهم الكسوب ، واستعرت فيهم الحروب ، وزادت الكروب . وضائق عليهم الأرض ، واستولى على عقود عزائمهم التقص . ورأوا أنهم قهروا فقهروا ، وأحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا .

ورحلوا إلى الرملة عائدتين ، وبالسهول من الحزون عائدتين . فإن الثلوج دامت على أولئك العلوج ، وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل في تلك المنازل ، فنفروا راحلين إلى السواحل . وذلك في يوم الخميس الثامن والعشرين من ذى الحجة ؛ فطابت قلوبنا بما وضح في النصر من المحجة ، وثبت للحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه

وتجديد سورہ وإعادة روتقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين ، وعدتهم خمسون رجلا ، إذا اجتمعوا قطعوا جبلا . وقد سيرهم صاحب الموصل إلى القدس ، للعمل في الخندق وتعميق الحفر ، والقطع في الصخر . وقد سفرهم بشفقة ، وجعلهم من الإحسان على ثقة . وأصبحهم بعض حجابہ ، ونداهم بندى سحابہ . وسير مع المثلوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر ، ويتعاهدہم في كل يوم بتفقد ير . فأقاموا نصف سنة ، وأتوا في صنعتهم بكل حسنة .

وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق ، وإنشاء سور وثيق . وأحضر من أسارى الفرنج قريب ألفين ، ورتبهم في العمارتين . وجدد أبراجا حربية من باب العمود إلى باب المحراب ، وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب . وبنها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاعت أرسى وأرسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور ، وإذا تكملت العمارة على ما رتبہ للقدس من المعمور ؛ كان آمنا من قصد العدو المدحور ، وفي عصمة الله من المخوف المحذور .

وقسم بناء السور في مواضعه على أولاده ؛ وأخيه الملك العادل وأمراهه وصار يركب كل يوم ويحضر على بنائه . ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر إلى مواضع البناء ، ويتولى ذلك بنفسه وجماعة خواصه والأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية ، وحواشى العسكر والأتباع والرعية والسوقية . وكنت أركب في غلmani وأتباعي ، وأحفظ قلب السلطان في نقل الحجر وأراعى . فبني في أقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنتين ، وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفى من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وقفة تقي الدين

توفى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب - ابن أخي السلطان ، يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ميلار كرد (١) - من عمل أرمينية ؛ وقد سبق ذكر مسيره إلى بلاد الجزيرة ، لاستملاك الأملاد الكثيرة . واستجداد الأجناد ، والاستجداد بالأجناد ، والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعاً بالجنود للخدمة والجموع الخاشعة ، والجيوش المرادفة للرافقة ، والجنود للتوافرة للرافقة . والقواضب القاصلة (٢) ، والمواضب اللطالة . والمصافحين بالصقاح ، والمخاليث في أعطاف الراح بأطراف الرماح ، والحاملين الجبال على الرياح ، والمتطشئين إلى اتساع التسجج لإرواء الأرواح . ومكث السلطان على انتظاره ، متوجساً لأخباره . مستوحشاً من إبطائه ، متطشئاً إلى أقبائه ، مستظراً لوقاته . فلما أخذ القرنج عكاه نسب ذلك إليه ، واحسب الله عليه .

فلما تقي الدين فاته عن له أن يمضي إلى ميافارقين ؛ واستصحب إليها عسكر ملودين . وقد إلى السويلاء (٣) واتزعمها من أبلدى أصحابها ، واستحوذ على جميع ما بها . وحاصر مدينة حان (٤) فتملكها ، وكانت له مقاصد في ديار بكر فأدركها . واتصل ببلادنا من ولاية ابن قرا أرسلان وأقطعها ، وأرعب القلوب بما ابتأ به واجده وروعها . وتأخذت عنا بسبب ذلك عما ك ديار بكر ، وحصلت منه على عنز وذعر . وراعت

(١) ق ١ (٣٥٠ ش) متركرد .

(٢) القاصلة : القائلة .

(٣) السويلاء : قرية بمجران من نواحي دمشق ، (عاصمة جبل القردوز الآن في سوريا)

(يقتوت ١١ : ٢٨٦) .

(٤) حان : مدينة مروية بديار بكر بما سئل الحفيد (يقتوت ج ٦ : ٢٠٨ ط . ب)

هيه ، وهبت روعه . ودبت إلى الخواطر عتاة أخطاره ، وشيت في القلوب لواقع ناره . ولرجت تلك الأجم من زاره ، ولزورت من مزاره . وبيت تلك البلاد يلاه ، وهابت الأعداء هبة أعداه . وزلت الأقدام لإقلامه ، وانخفضت الأعلام لإعلاء أعلامه .

ونقى علله من جيلجور (١) جيلة الجور ، وأذهب بناهيه إليها فوران الفتنة على القور . ودخل قلب قلب : وحكم في عللها القتب القضب . وقصد عسكره عسكر بكتمر فكمره ، ثم سرح بالإحسان وأطلق من أسره ، فطر بكتمر واشتغل بئر الأنف لله ، واحتقن بأذن الشف (٢) شفه ، واتخذت حيه ، وحميت نخوته ، وغيرته غيرهه ، وعبرته رعيه ، وأودعت للمم هته ، وحركته عزته فاجمعت جماعته وأمتت أمته . وما أربأ له نيج رجائه رجاله ، وما أبلأ له عن إعانه أبلاله . وأجناه ثمر الطاعة أجناده ، وأتجاه بمجد الاستعلاء إجناده . وجر عسكرا مجرا ، وساق إلى الحرب مجرا ، وألوقد ببلبح جمرا ، وجلب أيضا وسرا ، ودهما وشقرا ، وصولم ببرا ، وصولم ضمرا .

وأهض كته وكاته ، وحشد رعيه ورعاه ، وقوى حيه وحماته ، وساكني ولايته وولاه ، ونسوره وبتاه ، وسماه وعتاه ، ومناه ورتاه ، وشباه وغراه . وجاء في سواد أسودته الجور ، واتسد بتلاله الضور ، ونحلى بنجومه ليل اللجاج ، ونحلى بسفوره صبح اللجاج . وأبرق وأرعد ، ونحدر وتصد . وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الأعلام بالأعلام ، وأذكي مناكيه الجياد ، وأجرى ضواهره وهوادها قد ملأت الوهاد ، وأدنى إلى الآساد الآساد . وأغرى بالبلاد الأجلاد .

وجلب الجماح عراه ، وجلب الكفاح رعاه . وأشرع للمراح رماحه ،

(١) جيلجور : اسم لكورة كبيرة صلبة بيضاء يكر من نواحي أريية (سجم البهاتن يقرت ط . الكفحي) و (لنجوم الزاهرة ج ٦ : ١٥٠ ط . طر للكتب) .

(٢) الشف : العرس ، والشف بكثرة التوء ما يطلق في أمثل أو أبل الأفة من حل .

وأطلع في سنى الصباح صفاحه. وماجت غدران دروعه ، وهاجت غران(١)
جموعه . ومالت المران ، وجالت الأقران . وسال المرت (٢) ومرت
السيول ، وتسهلت الوعور وتوعرت السهول . وانفض القضاء ، وانفض
القضاء . واشتكت الأرض من الحوافر الحوافر وقعا ، فأثارت لفرط
تألمها على شرط تظلمها إلى السماء تقعا . وحثت في وجه الفلك ترابا ،
وحثت لأتراب الأتراب طعانا وضربا .

وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر إلى الملك المظفر طول
المسافة . فلما عرف إصحار خادره ؛ وانتشار بوادره ؛ وانتهاض قوادمه ؛
وارتكاض صلامه ؛ وانقضاض شهب قواضيه ، وانفضاض دهم
سلاهبه ؛ اصطف له بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب ، وفض على القضاء
سحاب الصحاب . وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعاهه على
العدا . وركب في كل ضرب يعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل
بطل لمحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الأقران
القرون ، وكل عسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون . وكل شجاع
أشاجعه (٣) وصائل القواطع ، وكل مقدم قوادمه عوائق الوقائع .
وكل طائر بأجنحة السوابق ، زائر بأسلحة البوائق ، مخلق بخوائف الخوائق ،
مطرق لطوارىء الطوارق . وكل ذمر مشيح ، باللمار شحيح ، وكل قاس
قوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف . وكل صاد عزمه صادق ، وكل
رام لحظ سهمه إلى المقاتل رامق .

وأيد رجاء الرجال بأياديه ، وقوى عزائم أولائه لإضعاف أعاديته ،
ورغب بالرغائب وأمل ضيوف الآمال ، بفيوض أمواه المواهب .
ونحى المتخين ، وانتخب المتخين . وأقدم في كل مقدم مقدام ، وضيعم

(١) غران : جمع أغرو وهو الحسن من كل شيء، ومن الخيل ما فيه غره، ومن الناس السيد
الكريم الأفعال .

(٢) المرت : المغازة بلا نبات أو الأرض لا يحق ثراها .

(٣) الأشاجع : الأصابع التي تتصل بهصبه ظاهر الكف .

ضرغام ، وهمام همام . ومعتقل أسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشمحل
أبيض يكشف ظلم (١) الحروب . وكل من يخال الطعن ضرب القداح
والضرب يجد السوام (٢) ، وكل من ينال اعتزاز الجلد يجد الاعتزام .
وكل من يعيد أقاليم البيض شقائق ، ويصل بها إذا فارقت أعقادها
الموافق . وكل من عنانه في يمين الجحاح ، وسنانه مرود عيون الجراح .

وكل من ذبال سمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب . ووجوه
صوارمه تبكي وتضحك ، وعيون لهاذه تفتك وتبتك . ولحاظ سهامه
عن حواجب قسيه ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتلدى .
وكل أشعت الهامة ذى همة ، تشعب صدع كل لمعة . وكل شهيم
شيطمي ، أباء حمى . مجرب محرب ، مقرب على مقرب ، مطهر على مطهر ،
جار بمرجم ، بار بمخزم ، ضار بأرقم . جواد حلیم ، تحمد في الوغى
جهلاته على جواد كريم تدعو إلى الردى سهلاته . وكل مجرم مستلم بغدير ،
وكل من عنده إذا لبس الحديد أنه لا لبس حرير .

فلما بصر عسكر خللاط بعسكره اختلط ، وود لو استترك الغلط .
وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش . وولى هزيم ، ولوى هشيم .
وأغمم العسكر التقوى سلاحه وخيله ، وجر على تراب الذلة ذيله . وظفر
الملك المظفر بالملك ، وأسلم العدا إلى الهلك . وقيد إليه أمراء أسروا ،
وأصحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وأنهض بتشريقاته جناحهم . ثم
حل من صحراء موش ، وساق إلى خللاط الجيوش . ثم بدا له من حصارها
فأقرها بسلب قرارها . وعرج على قلعة شميران (٣) فتشمر لها ، وفتح
مقلها ، وكان مجد الدين بن الموفق — وزير خللاط بها محبوبا ، ومن
حياته يونس . فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه ققصه ، وأنه
لمن أعجب القمص لو شرحت ققصه .

(١) ظلم : الظلم : التلج .

(٢) السوام : أى التى تسم .

(٣) شميران : بلدة بأرمنية وقرية بمر والشاهمان (ناقت ١٢ : ٣٦٥) .

ثم راح إلى ميلاز كرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق . وحشد إليها الأمداد ، وأورى فيها من عزائم الزناد . وجاءته عساكر (أرز الروم) منجدة من جلة ، موجدة لما لها من موجدة . تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق كأنها فى الأهبة والأهبة من ملوك سلجق . ووفد إلى تقي الدين الجنود ، وواقفته السعود ، وخافته فى غاباتها الأسود ، وغربت به العقول وعلقت به العقود ، وتوطدت له البلاد وتوطأت ، وهبت وهيات . واستندته الممالك القاصية، وأطاعته المقاصد العاصية . وتشفت له مسامع الأقطار بأقراط السمع والطاعة ، وعم الإجمال تلك المحال ، ففض بما أفاضه من فاضله جماعة الجماعة . ورجى وخشى ، واعتنى وغشى . وامتلات الطرق بالوفود والجنود ، وتوالت إليه أمداد البأس والجدود .

فينا هو فى غفلة من القدر ؛ وغفوة من الكدر ؛ وغرة من الغير ؛ وقد ألماه حديث الدنيا عن الحادث الدانى ؛ وجنى الحياة عن الموت الجانى ؛ وزيادة الأمل عن زيارة الأجل ؛ ونزل المني عن نوازل المنون ؛ وسكن الأتراب عن التراب المسكون ، ظهر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم . ومرض أياماً ثم قضى ، وانقرض عهده وانقضى .

وكم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، إلى أن خرج من ذلك الإقليم وجاوزه وفاته . وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب أربابها وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالماً ، وجد فى مقام والده بإظهار شعاره قائماً . وجاءت رسله إلى السلطان تسأله ، فى إبقاء بلاد أبيه بيده حتى يبقى مستمرا على جده . وطاب من السلطان ؛ الميثاق له بأغظ الأيمان . فلم يقبل الشرط ؛ واشتط فشط ، وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مامنه فرط ، ونسبوه فى استيحاشه إلى العصيان ، وسعوا له فى أسباب الحرمان . حتى انتخى له الملك العادل فمضى لإحضاره ، وجرى الأمر على لإثاره .

وسياتى ذكر ذلك فى حوادث سنة ثمان .

وتوفى في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين .

ابن أخت السلطان

توفى بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن أخيه وأخته في يوم واحد . وكلاهما له أقوى ساعد ، وأوفى مساعد ، فيالله من حسام أعمد ، وهمام ألد . وركن وهن ، وكنز دفن . وبجز غاض ، ورزء هاض (١) . وصبح كسف ، وبلر خسف . لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل أمه . فإنه كان واحدها وعضدها ومعاضدها . وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق في الكرماء ذكره . وذكر في المكارم سبقه ، وقرظ حذقه . ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته . فإن له مواقف في الجهاد مشكورة ، ومقاطف بلخي النصر مشهورة . فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به إلى العطل . وأوهن عقد شبابه الطرى وحله ، وتلم حد شباه الطير وفله ، وما زال في غزواته مثيرا للترب إلى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه الثرى بحق خلقه معه فاسترهنه ! وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه إلى السماء فاعتقلته ، ووجدته في أوج الفلك في الثيرات فتقلته .

وما كان أذكاه وأزكاه ، وأصحه وأصحاه ، وأبهجه وأبياه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه . ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شقيقا ، ورفيقا رفيقا . فلهفي عليه من شهيم توطن التراب ، وسهم أصيب بعد ما أصاب ، وجواد بلا حساب ، لم يخطر بالبال من رزئه حساب ، (لكل أجل كتاب (٢)) .

وتوفى في هذه السنة علم الدين سليمان بن جنتر ؛ وقد سبق ذكره

(١) هاض : يصيب مرة بعد أخرى .

(٢) الآية : ٣٨ سورة الرعد .

في غزواته ، ومواقفه ومقاماته . وكان في الخدمة مقبياً ، والسلطان إلى الأُنس به مستتباً . فعرض له مرض استأذن لأجله في العود إلى وطنه بجلب ، وسمح له السلطان بجميع ما طلب . وتوجه من القدس سادس عشر ذى الحجة ، واستقام على المحجة . وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قرية غباغب ، وستر التراب منه المناقب . ووصل الخبر بوفاته إلينا يوم الخميس ثامن عشرى الشهر .

وفي هذه السنة فلك بأتابك (١) مظفر الدين قزل أرسلان بن أيلدكز في همدان ؛ ليلة الأحد مستهل شعبان . كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف بيهلوان في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت إرادته ، ورجحت سعادته ، وصلحت عادته . وكان السلطان السلجق طغرل ابن أرسلان (٢) تحت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه . وله اسم السلطنة ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها . فأنف السلطان من كونه تحت حجره ، ويحكم نبيه وأمره ، فإنه لم يكن له صاحب ولا غلام إلا من عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بجله وعقده . فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم إليه من الخيل . ودام غائباً في نواحي دامغان (٣) مدة ، واشتد مصابه وأصاب شدة . فاتصل به عدة من ممالك بهلوان الخواص وسلكوا معه نهج الإخلاص .. وأعادوه إلى سرير ملكه ، وانتسق (٤) أمره في سلكه . وقويت يده ، وتأيدت قوته ، واجتمعت كلمته ، وتكلمت في الأمر والنهي جماعته . ورهبه قزل أرسلان ولازم ذعره ، وأخذ منه حنره .

(١) في أ (٣٥٥ ش) قتل .

(٢) طغرل : هو طغرل بك بن أرسلان شاه بن طغرل شاه بن محمد بن ملكشاه بن الب أرسلان السلجوق ، توفي سنة ٥٩٠ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٥ طهار الكتاب)

(٣) دنغان : بلد كبير بين الري ونيسايور وهو قصبه قومس ، كثيرة الفاكهة (ياقوت ج ٣ ط . الخاني) .

(٤) انتسق : انتظم .

وتنافس الأمراء وممالكك بهلوان الذين تبعوه ، وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض ، وقابلوا كل لإبرام من مكرهم بنقض . وقالوا له : هؤلاء البهلوانية يغتالونك ، وبالسوء ينالونك . فابطش بهم قبل أن يبطشوا وعشرهم قبل أن يتتبعوا ، فسمع مقالهم ، وتبع محالمهم . وقتلهم بمحضرتهم وهم غارون ، وساءهم باغتيالهم وهم بالمغلاة . فيه سارون . فنفر منه كل أنس ، وحفظ نفسه كل منافس ، وزال بشره وبقي بوجه عباس . وفارقه بنو البهلوان بجنائته على ممالك أبيهم ، ولقوه بتأييدهم (١) . وقصده قزل أرسلان فأزعجه ، وأخرجه من دار ملكه وأخرجه . وأجلس سلطانا آخر موضعه ، وكدر (٢) عليه بالشوائب والنوائب مشرعه ، وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه وأطعمه . وأرضاه بالاسم ، وأجراه على الرسم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد : وانظمت بينهما أسباب الاتحاد .

وكان السلطان طغرل إذا خات همدان من قزل أرسلان يعود إليها ، ويستولى عليها . ثم إذا عرف قربه بعد ، وإذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهمة ، ويشدد في النهب لشدة النهم . فقتل فخر الدين (٣) رئيس همدان ، وبث العدوان . وقتل وزيره العزيز ابن رضى الدين المستوفى لأمر توهمه ، ونحاطز لم يكشف مبهمه . فألجأ الزمان إلى الوصول إلى الأمير حسن بن قفجاق ، وشكى إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وآزره وضافره ، وظاهره بعد أن صاهره . وزوج أخته منه ، وحوى جانبه وذبح عنه .

وراسل سلطاننا قزل أرسلان حتى يصلح له ، ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح ، ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا ، وأتهم كل واحد منهما الآخر فتوائبا . وأوقع قزل أرسلان به

(١) في ب بتأهم والتصحيح من ل ومن أ (٣٥٦ى) .

(٢) في أ (٣٥٦ى) فكد .

(٣) هو فخر الدين العلوى وزير طغرل شاه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٥) .

وبالتركان ، وعادت الفتن ملتتهمة النيران . وساق السلطان طغول إلى همدان ، فمضى وراءه قزل أرسلان ، فخرج إليه ثقة بما سبق من الأيمان . فصرف عنانه وقبضه ، وأعرض عنه واعترضه . وحبسه في بعض القلاع وأبعد عينه وأثره عن الأبصار والأسماع .

فاتسقت له المملكة ، واستقر منه السكون والحركة . وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان ؛ قد اضطربت واحتربت ، واقتربت الساعة بها وخربت . وقتل في ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف ، وتوالت بها حتوف وزحوف .

وكانت الشحن(١) من جانب قزل على الشافعية ، وقبوا أيدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية(٢) . فأحوجت الضرورة إلى أن أصحابنا دعوا بشار السلطان ، ووجدوا القوة به أمام قوته والإمكان . فلما اعتقل طغول ، واستمر أمر قزل ؛ مضى إلى أصفهان ؛ فأخذ رؤساء الأصحاب في المحال ، وأجرى عليهم حكم(٣) القتل والاعتقال ثم عاد إلى همدان وقد قوى وروى ، ونال ماهوى ، ونشر من أمره ما كان طوى ، وجلس على سرير الملك وضرب النوب الخمس ، ووجد بعلم من يوحشه الأتس ، ولها ولعب ، وشرب وطرب .

وغفل عن القضاء المشتبه ، ونام عن القدر المتبته ، واغتر بالعيش الرفه ، وحلم عن الخطب السفه . وبات في قصره ، وقد غاب في سكره ، وهو بين خدمه وحشمه ، وعسسه وحرسه ، وعمقائه وأرقائه ، ومستخصيه ومستخلصيه ، فوجد على فاشه وهو قتل ، ولم يدر(٤) كيف قتل ولم يكن

(١) الشحن : جمع شحنة وهي العداوة .

(٢) المدرسة النظامية : ببنداد ، كانت أكاديمية علمية وجامعة إسلامية لدراسات العليا ، أنشأها نظام الملك ، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق المتوفى ٤٨٥ هـ في عهد الخليفة المتقن بأمر الله العباسي .

(٣) ساقطة في ب مثبته في ل .

(٤) في ب لم يذكر والتصحيح من ل ومن أ (٣٥٧ ش) .

عليه سبيل . فنسب قتله إلى الإسماعيلية (١) تارة وإلى الخاتون (٢) الأيتانية أخرى ، والله أعلم بما به حكمه أجرى .

ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه ، وحل العقاب به دون أربابه ، وجلس قتلغ أينانج بن بهلوان موضعه ، وجمع له ملكه ومنعه ، ومضى آخره نصره الدين أبو بكر إلى أذربيجان وأرانية (٣) سائماً إليها واستولى عليها .

وأما السلطان فإنه أيس منه ، وسلا من كان يواليه عنه . فتعصبت له امرأة متولى القلعة ودبرت في خلاصه ، وهونت على زوجها أمر استصعابه واعتياصه ، واستعانت بمن أعانها ، وأعلت بإعلاء شأنه شأنها .

ولما برز دخل مدينة تبريز (٤) وكانما الكبير أخرج الإبريز . ثم جمع ومضى على سمت همدان . فلقى قتلغ أينانج وعسكره بين أوه (٥) وزنجان (٦) فكسره وهزمه ، وقل حله وثلمه . ومضى إلى همدان

(١) الإسماعيلية : أو السبعة ، طائفة من الشيعة ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق سايع الأئمة ، وهي التي اتبعت طريقة الدعوة السياسية الدينية المنظمة تنظيمًا سريعاً بحيث ينتشر الدعوة للعقيدة الباطنية في جميع العالم الإسلامي ، والباطنية تعني أن للقرآن الكريم معنيين معنى ظاهر ومعنى باطن ، وهم يقولون بوجود النفس والعقل الكلين في امامهم المقيم في الهند والملقب بأغاخان (المنجد) و (تاريخ الأمة العربية لكردي علي وآخرين) .

(٢) الخاتون : كلمة فارسية معناها المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرفة فيه ، وقد استعملت الكلمة في اللغة التركية وكذلك الكردية بهذا المعنى (الألفاظ الفارسية المعربة لدى شير ط . ب ١٩٠٨) . وذكر د . محمد موسى هندواي في كتابه معجم الألفاظ الفارسية أنها بمعنى المرأة العظيمة .

(٣) أرانيه : ذكر في حاشية نسخة ل: ٣١٠ أنها اسم لبلد وذكر ياقوت صاحب معجم البلدان أنها أران وقد سبق الصريف بها .

(٤) تبريز : أو توديز وهي أشهر بلدة بأذربيجان ، وتوديز تسمية العامة لها (ياقوت ج ٥ : ١٣ ط . ب) .

(٥) أوه : قرية بين زنجان و همدان (ياقوت ج ٣ : ٢٨٣ ط . ب) .

(٦) زنجان : بلد كبير مشهور من نواحي الخيال بين أذربيجان وهرمين قرية من أهر ويطلق عليها زنكان أيضاً (ياقوت ج ١٠ : ١٥٢ ط . ب) .

وجلس على سرير ملكه وذلك في سنة ثمان . وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله .

وتوفى في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان
صنعي الدين أبو الفتح بن القابض ، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من
رجب . ولقد كان سريا ، وبالجمد حريا ، وفي حلبة المكارم جريا ،
ومن الأمانة في ولايته بريا ، ومن العارعرى ، ولم يزل زند مضائه وريا .
وكان له سياسة ورياسة ، ونفس ونفاسة ، ورأى وفساسة ، وفطنة
وكياسة . ومروءة وفتوة ، وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان
أيام علمه ، وبرز في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها ،
وحكمه في أعمالها . حتى نال المنى ، ووجد الغنى . فقال له : « قد
اكتفيت واستغنيت ، وإن صرفت الآن ما باليت ، فاصرفني عن العمل .
فقد نلت غاية الأمل » ، فعاش غنيا ، ومات جشريا (١) . وورث السلطان
بعض ماله ، وذلك ما فضل عن أفضله ، فإنه فرق على ممالিকে أملاكه
وماله . وأخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران (٢) ،
وكان بارعا ظريفا ، نظيفا عفيفا . وفقه الله في بدايته لهداية الإسلام ،
ونال أسباب الاحترام . وتقدم عند السلطان ، وما شأنه كبير وهو كبير
الشان . وكانت له حراية ودراسة ، وذكاء وفساسة .

ولم يزل متلطفا في طبه ، متعظفا بحبه . متحيبا إلى القلوب ، متقلبا من
قبوله في المحبوب . صبيح البهجة ، فصيح اللهجة ، صحيح الحجة
بوضوح المحجة . ولم يزل له عند السلطان وذوى الجاه جاه ، ولجده
انتباه ، ولدواته بالشفاء شفاء . حتى حان أجله ، وحنان أمه ، وبان عنه
حلي حاله ، وبان عطله .

(١) أى مالك بلشار - وهى الابل تترك ترعى ولا ترجع لاصحابها في المساء .

(٢) الموفق ابن مطران : هو أسعد بن الياس بن جرجس بن مطران الطيب ، كان نصرانيا
فأسلم على يد صلاح الدين ، وكان غزير المروءة ، حسن الأخلاق ، كريم العشرة ، يحب أهل البيت
النبيوى الكريم ، مات سنة ٥٨٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٣ ط . دار الكتب) .

وكانت له عندي يد أذكرها وأشكرها ، وعارفة أعرفها ولا أنكرها .
 وذلك أني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان ،
 وفي صحبته ، متوليا للإنشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا إلى بعلبك انقطعت
 عنه بها لمرض عرض ، وشكا جوهرى العرض . وانتهى إليه بدمشق ما ألم
 بي من الألم ، فتقسم فكره . من خير السقم . وركب ووصل في يومه حتى
 أدركني ، ومرضني وما تركني . وداواني حتى أبلت ، وأزال الله انحراف
 مزاجي بطبته فاعتدلت . وصحني إلى دمشق وسبق إلى أوليائي بالبشرى ،
 وشكرت الله على النعمي . وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي .
 فلما مرض الطيب لم ينجح في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة ؛ توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني
 بمصر (١) وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الإمام الشافعي — رضوان الله
 عليه ، وأحيا شعار التوحيد ، وبنى أمره على التشديد والتسديد ، وحفظ
 شمل الشافعية من التبديد . وكان السلطان مجيبا له إلى كل ما يستدعيه ، ويقضى
 له من الحاجج ما يقتضيه . ووقف على المنزلة التي بناها وقفا ، وأعطاه
 في بنائها ألوفا . فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالإباء .
 ثم شفع الملك العادل في صدر الدين علي بن حمويه (٢) — وهو شيخ
 الشيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ . فكتب بها له ، ورتب بوقفها
 وتدريسها استقلاله ، وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين . ثم صرف بعد السلطان
 عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الأنسة .

(١) نجم الدين الخبوشاني : هو أبو البركات ، محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن الحسن
 ابن عبد الله ، الفقيه ، الشافعي ، قدم إلى الديار المصرية وترهد ، أعطاه صلاح الدين مالا فيني به
 المدرسة التي بجوار الشافعي ، كان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، طائشا متهورا ، وكان
 يصوم ويفطر على خبز الشعير ، ولما مات وجد له ألوف الدنانير (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٥
 ط . دار الكتب) .

(٢) صدر الدين بن حمويه : هو محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه ، شيخ الشيوخ ،
 تولى تدريس مدرسة الشافعي بمصر سنة ٥٨٧ هـ بعد موت نجم الدين الخبوشاني ، مات سنة ٦١٧ هـ
 في عهد الملك الكامل الأيوبي (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٢٢ و ٢٥١) و (أبو الفداء ج ٣ :
 ١٢٧ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

نصل كتب إلى بعض الأكاير فى الدخول إلى القدس

اتفق دخول الشتاء ، وتواتر الأنداء ، وتوافر الأنواء ، وشح الأرض وسح السماء . وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر للوأم المهبجاء ، والمقارعة واللقاء . وكانت مدينة القدس محتاجة إلى توفر المهم على شحنها بالرجال ، والميرة والقوة ، والعدة والذخيرة . ورأيناها من أحسن المدن وأحصنها وأحكمها ، وأوجدنا بها جدتها بعد علمها . وربنا بناء سورها على جوانب أودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح . وهذا أمرٌ لله وفى طاعته ، ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولإعلاء كلمته ، ولحماية أمته . وما لنا فيه إلا السمسرة ، ومارجاؤنا إلا الأجر والمغفرة . ومانصب الأتصيب واحلمن المسلمين المجدين ، والمؤمنين المعدن للدين . فما أسعد من ساعد فيه ، ووفى بإسعاف عافيه .

هذا والكفر قد أناخ بكلكله ، وحفل يحفظه . وبرز إلى الإسلام بكليته ، وعراه بيليته ، وقامت قيامته لقيامته ، وثار لثار قامته . ورمى مهجته على الموت لقبرته ، والبيت المقدس الذى شرفه الله وكرمه وعصمه كما عصم وحرم حرمة - مقام الأنبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين ، وموضع معراج سيد المرسلين ، ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق وصعد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إلى السبع الطباق ، وأهدى الله ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الإشراف إلى الآفاق .

وهؤلاء الملاعين قد أغنوا لقصده ، وأعدوا لورود ورده . وقد فرض فى هذا الأوان رفض التوائى ، واستدعاء ذوى الحمية من الأفاصى والأداني . وإن لم يتساعلوا فى الربيع القابل ؛ على لإنهاض الجحافل ؛ صعب الأمر واشتد ، واحتدم الخطب واحتد .

فصل في شكر صاحب الموصل على إنفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد أصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرب (١) عن فضيلة منجده ويفصح . فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح رجاءه ، الحامون بحفر خندقه (٢) أرجاءه . وما فيهم إلا من أبان عن جلده ، وأبان (٣) بحده ، وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهذه . وهذه لاشك مقدمة لما وراءها من نتائج النجيدات ، وجلوى سابقة للواحق في مناهج الجلدات ، وعارفة معرفة في قمع العداة بإجراء العادات في إنجاز-العداات . وللعلو انتظار لنجيدات بحرية وارتقاب ، ومضات جمر تحت رماد كيله يوشك أن يكون لها التهاب . والهمة السامية لا تفتقر في هذا الباعث إلى باعث ، وعنه عزائم حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية القدس مذ يسر الله فتحه ؛ وحقق للأمل فيه نجاحه ؛ وأطلع لليل النصر صبحه ؛ إلى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضة ، وصعاب أعماله وشعاب أحواله بنمرة آرائه ونصرة آلائه مروضة . وقد استتاب فيه أخاه (الظهير) ظهيرا ، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا ؛ إلى أن استشهد في شعبان سنة خمس وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذى القعدة منها وانتقل إلى عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده .

وكان الأمير سياروخ بالقدس مقيما ، وللنظر في مصالحه مستديما . ويضم من أمره ما يراه منشورا ، وكتبت له في التاريخ المذكور باستقلاله منشورا .

(١) في أ (٣٦٠ ش) يعرب بينما في ب ول يعرف . وما ذكر أنسب للسياق .

(٢) في أ (٣٦٠ ش) خندقه .

(٣) في أ (٣٦٠ ش) ألان ،

« الحمد لله الذى أقصى من المسجد الأقصى من دانه من الكفر ودنسه ،
 ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدى أوليائه الموحدين
 وطرهه وقدمه ، وأنطق محابه ومنبره بتلاوة الذكر المين وأسكت الناوس
 وأخرسه ، نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه ، وفرجه من الشدة
 ونفسه . ونسأله أن يصلى على نبيه محمد المصطفى الذى شرع الدين وشرحه ؛
 ومهد الشرع وأسس ، وبطل الكفر وعطله ؛ وأرغم الشرك وأتعبه ،
 وعلى آله وأصحابه الذين أعلى الله بهم منار الحق وأضفى ملبسه ، وأصفى
 مورده ؛ وأزكى مغرسه . وبعد :

فإننا منذ فتح الله لنا بيته المقدس ، وخفض بإعلاء أعلامنا راية الكفر
 ونكس ؛ وكسا بأيا من أيامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ؛
 وخصنا بفضيلة فتحه ؛ وجعل لنا به الحظ الأجزل ؛ الأفضل الأكرم
 الأنفس ؛ ما نزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير إحسانه
 وحسن آثاره وإيثاره حاليا ، ويرجع بنتلره الشافى وتدييره الكافى ما انخفض
 من منار الهدى عاليا . ولا يزال على بال منا أن نحى به من رسوم الإيمان ،
 ونجدد من معالنه ما ظل بمقام أهل الضلال فيه دارسا باليا .

وقد اخترنا الأمير حسام الدين فألفيناه لأهلية هذه الولاية جامعا ؛
 وإلى مضممار السبق فى هذه المكرمة مسارعا . ووجدناه بأعباء الأمانة ناهضا ،
 ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخصا ماخصا . فاستخرنا الله تعالى وعولنا
 عليه فى ولاية مدينة القدس وأعمالها ، وعلقتنا (1) برأيه الراجح وسعيه
 الناجح مهام أشغالها ، وحكمناه فى تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ،
 وسداد ثغرها ، وسداد أمرها ، ورعاية أمورها ، وعمارة حريمها وسورها .
 وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباغ أماكنها ، وإسكان مواطنها ،
 وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من أدناس أدنى الناس ، وتعميرها بالعبدة والعبدة
 والشدة والقوة والباس .

فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية ، وروية مبصرة وبصيرة روية .

(1) علقتنا : قطعنا . علق به الأمور : اختصه بها .

وليستشعر تقوى الله الى تقوى بها العزام ، وتتوفر منها المحامد وتحمل
المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل ما يحله ويعقده ، ويقدره ويمهده ،
ويصدره ويورده ، والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في دار
الأقساء جوار (قمامة) ، وأظهر بها لتقوية البلد الإقامة . وقد قسم سور
البلد على أولاده ، وأخيه وأجناده . فشرعوا في إنشاء سور جديد ،
محدق به مديد . وكان يركب كل يوم مصحح ، مشمس مضح ، فينقل
الصخر على قربوس (١) سرجه ، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارات
بنهجه ، فلو رأته وهو يحمل حجرا في حجّره ؛ لعرفت أن له قلبا كم
حمل جيلا في فكره . ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها
الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره ، حتى باشر صدور
ممالكها بها الصدور . وما تغلو دار بينيها في اللجنة بنقل حجارتها ، ليكون
ملكا في دارها وقمرا في دارتها .

وكل بناء قلت حجارته ؛ ووقفت عمارته ؛ ركب وبكر إليه ،
وجمع الحجر بنفسه وأجناده عليه . فإذا اكتفى انتقل إلى موضع آخر ونقل
إليه الحجر ، ولقد بنى به في غرفات الجئات الحُجْر ، وأثر رواية سيرته
الحسنة منه الأثر ، وما أعمر لإحسانه وأحسن ما عمه ! وداوم البكور
بالركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزم
الوجوب . ولأن له الصخر لين الحديد لداود ، وجد في فض جدته وأفاض
الجمود .

وكان حجر الخندق صلدا لا يتأني قطعه ، ولا يتهيأ بكل آلة صدعه .
فأخذ من الفولاذ قطاعات وابتدع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ،
وهن الجلد . وتيسر الصعب ، ولأن الصلب . وصرخ الصخر ، لما حاف
الحفر . وضح الحديد لجلد الجمود ، وصفا قلب الصفا لإصاخة الصيخود (٢)

(١) قربوس السرج : حنو السرج .

(٢) الصيخود : الشديد .

واعولت الماعول ، وجدلت الجنادل . وسمعت الصماء صوت السطر ،
وخرج جرح الإساءة إليها عن الأسو . وفلقت الققع وقطعت الفلق ،
واتسع الضيق وتعمق الخندق .

وطاب العمل ، وطال الأمل . وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت
القوة وقوى الركن . فلا ترى إلا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو
وحضرا ينزل . وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف . وحجارة تبنى ، وعمارة
تبنى . وكلّسا يجرق، وأساساً^(١) يوثق . وطاقا يعقد، ورواقا يهدد . وطلاقات
تطلق ، ومرامى تخرق . وستائر تحجر ، وحفائر تقعر . ومصاعد تهندس
وقواعد تؤسس . ومعارج تسفع ، ومخارج تفسح . وموالج تسرب^(٢) ،
ومدارج ترقب^(٣) . حتى أحكم المكان بكل ما فى الإمكان ، واتصلت
الأبراج بالأبدان ، مشيدة الأركان .

والسلطان يشرف فى كل يوم على عمل قوم . فيمدحهم بإحسانهم ،
ويجازيهم بإحسانه ، ويعير جنان المتولى من قوة جنانه . ويدركه بما يستأنفه
من عمله ، ويحلى بالفضل ما يبدو له من عطله . وكان ذلك دأبه مدة إقامته ،
وقد جد غرامه بغرامته . بل يرى أن كل مال ينفقه ذخر باق ، وأنه
إن فاق كريم فيلنفاق ، وما عنده خشية إملاق ، بل يده جارية بإطلاق جوائز
وأرزاق ، وأنه تتجلى له أعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق . وإن وفق
الله واستمر ما دبره فى حفر الخندق وبناء السور ، بقى بيت الله المقدس مع
الاسلام على ممر الدهور . ولا يبقى عليه لمسلم فزع ، ولا فيه لكافر طمع . ولوعاش
(بخت نصر) لعرف عجزه ، وسلب عز الإسلام عزه . ورأى من المعجزات
ما حيره : وقهقر عن البأس الذى إن ثبت له فهره .

فسبحان الذى أقدر السلطان على ما أعجز عنه الملوك ، وهدهاه من الفضل
إلى نهج ضلوا فيه السلوك .

(١) الأس : أصل البناء ، الأساس .

(٢) موالج : جمع موالج وهو المدخل . تسرب : تخفّز أى عمل المدخل بيقته مثلا .

(٣) ترقب : تمل .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان ، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها ، وتشاوروا في إعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين في بعض أعمالها ، مجدين في نقل غلالها . وركب ملك الانكثير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند إيليس . فشاهد دخانا على البعد ، وما عرف ما عنده من العسكر المعد فساق متوجها إلى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة وقد بنتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت . وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الإفطار ، فارغة الأفكار من شغل الكفار .

وكانوا نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو إلا أحد القسمين . فقصدته بحزبه ، واطلق عنانه لحربه . فعرف القسم الآخر هجوم العدو؛ فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا إلى العدو . فدفعوه حتى ركب رفقائهم المقصودين ، واجتمعوا وهم المسعودون . وردوا العدو شوطاً، وصبوا عليه من عذاب القراع سوطاً . ثم تكاثر الفرنج عليهم وتواصلوا وسبقوا إليهم ، فاندفعوا من بين أيديهم ، والفرنج تباريهم . وساقوا أقدامهم ، وقد ثبت حفظها على الإقدام أقدامهم . وما فقد من أصحابنا ممن عرف إلا أربعة ، ونجا الباقون وخواطهم لأجل أولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها .

وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ، ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة والحد في العمارة . ومعه الملوك أولاده والأمراء ، والقضاة والعلماء ، والصوفية والزهاد والأولياء . وخرج كل من بالبلد ، وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه ، واستوى في نهجه . والناس يتقلون معه على خيولهم في قفاهم وذبولهم .

ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربها ولده الملك الظافر بالصحةاء ،

وأحضر فيها السماط لمن يدعوه من الأمراء . فحضر على ذلك السماط، وأحضر
طعام مطابقه وبسطه على ذلك البساط. وكنت قد مضيت فردني ، وبتة يه
أمدني . فلما فرغ وفرغنا ، وبلغ مراده وبلغنا ، صلى هناك الظهر وركب
عائداً إلى داره ، آيباً بإيثاره وحسن آثاره ، فائزاً بسرور أسراره وخير
اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجرد في سرية سرية ، بارية رقاب ذوى الغلول من الغل برية . فأغارت يوم الأربعاء الحادى عشر من المحرم على يبنى ، وفيها الفرنج بنية السكنى . فغنمت اثنى عشر أسيراً ، ونخيلاً ودواب وأثاثاً كثيراً .

وفي يوم الثلاثاء ثانى صفر ، أغارت السرية وفيها جرديك ، وعسكر القدس وجماعة من المماليك ؛ على ظاهر عسقلان ، وأوفدت بتناصرها على الكفر الخلدان . وغنمت ثلاثين أسيراً قيدت في الأغلال ، سوى ما كسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصرى (١)

باتت ليلة الأحد رابع عشر صفر بتل الجزر ، وسرت حتى أصبحت على بينى وكمننت ، وصبرت إلى أن استرسلت الفرنج إلى الطريق وأمنت ، ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت . فكبست وكسبت ، وكسرت وأسرت . وأخذتها بأسرها مع رجالها ، وبغالها وأحمالها وأثقالها .

ثم أغارت على يافا فقتلت وقتكت ، وسفكت دماء وهتكت . وعادت بالغنيمة والسبايا ، واستغنت بنقودها عن النسايا . وعجز جماعة من الأسارى عن المشى فضربت أعناقهم ، وأوجب ذلك للباقيين فى المسير إعتاقهم (٢) وعادت سالمة سالبة ، غائمة غالبة .

(١) فارس الدين ميمون القصرى : أحد الأمراء بدولة الظاهر غازى بن صلاح الدين كما كان أميراً من أمراء العزيز عثمان بن صلاح الدين ، أقطعه العزيز عثمان نابلس بعد مقاتلة الفرنج سنة ٥٩١ هـ ، وينسب أصلاً إلى قصور الخلفاء - الفاطميين ، وهو آخر أمراء صلاح الدين ، توفى بحلب سنة ٦١٠ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٨ و ١٣٧) و (أبو الفداء ج ٣ : ١١٥ ط المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) الإعتاق : العادة ؛ السير السريع .

ذكر خروج سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

قرر علي نفسه قطيعة خمسين ألف دينار فأدى منها ثلاثين ، ه أعطى
رهائن علي عشرين . ووصل إلى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس
مستهل شهر ربيع الآخر ، فقام إليه واعتقه وتلقاه بالوجه الباشر . وأقطعه
نابلس وأعمالها ، وحل بإيالته لها أحوالها . وعاش إلى آخر شوال من هذه
السنة ، وتوفي إلى رحمة الله بأعماله الحسنة . فعين السلطان ثلث نابلس وأعمالها
لمصالح البيت المقدس ، وتشيد ركن سووه المؤسس . وأبقى باقيها على ولده
وتركه في تصرفه ويده .

نكته

لما خرج المشطوب من الأسر ؛ تلقاه ولده روى السرى قوى الأزر .
فوجده على زى أولاد الأتراك مضفور الشعر . فبدا منه الإنكار والإكبار ،
وقال : « ما للأكراد فى شعورهم هذا الشعار » . فقطع ضفيرته ، وقصر
وفرته . فتطير الناس من قطع شعره على أبيه . وقالوا : « هذا دليل مصابه
الذى يأتيه »

هلاك المركيس بصور

أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر فاستوفى رزقه لموافاة أجله ، ووصل إلى الباب قاطع أمله . وقد دعى إلى جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الأسفل من النار في تلهبه ، والسعر في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب أن تكون الهاوية له حاوية ، والحامية عليه حامية ، والزبانية في إيقاع العذاب به لمنزل الرجز بانية . وقد فتحت النار له أبوابها السبعة ، وهى جائرة إلى التهامه وهو ملته بالأكل يستوفى الشبعة .

فأكل وتغدى ، ومادرى أنه يردى . وأكل وشرب ، وشيع وطرب ، وخرج وركب . فوثب عليه رجلان بل ذئبان أميطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكّاه عند تلك الدكاكين . وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج النفس الخسيسة . وقال المركيس وهو مجروح ، وفيه بقية روح : « احمولنى إلى الكنيسة » فحملوه ، وظنوا أنهم حاطوه لما نقلوه . فلما أبصره أحد الجراحين ، وثب إليه للحين . وزاده جرحا على جرح ، وقرحا على قرح .

فأخذ الفرنج الرقيقين ، فألقوهما من الفدائية الإسماعيلية مرتدين . فسألوهما : « من وضعكما على تدبير هذا التدمير ، فقالا : ملك الانكتير وذكر عنهما أنهما تنصرا منذ ستة أشهر ، ودخلا في تهرب وتظهر . ولزما البيع ، والزما الورع . وخدم أحدهما ابن بارزان ، والآخر صاحب صيداء لقربهما من المركيس . واستجكما بملازمتها أسباب التأسيس . ثم علقا بركابه ، وفتكا به . فقتلا شر قتلة ، وجهل عليهما أشد جهلة .

فيا لله من كافرين سفكا دم كافر ، وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا (١) ، وفي جهنم منكبا منكسا ؛ تحكم ملك الانكتير في

(١) مركسا : الركن ، رد الشيء مقلوبا وقلبا أوله على آخره .

صور ، وولاهما الكند هرى وعذق(١) به الأمور . ودخل بالملكة زوجة المريكس في ليلته ، وادعى أنه أحق بزوجه . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها ، وذلك أظع من سفاحها . فقلت لبعض رسلهم : « إلى من ينسب الولد ؟ » فقال : « يكون ولد الملكة » ، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركة .

ولم يعجبنا قتل المريكس في هذه الحالة ، وإن كان من طواغيت الضلالة . لأنه كان عدو ملك الانكثير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير . وهو يرسلنا حتى نساعده عليه ، وتنزع ما أخذه من يديه . وكلما سمع ملك الانكثير أن رسول المريكس عند السلطان ، مال إلى المراسلة بالاستكانة والإذعان . وأعاد الحديث في قرار الصلح ، وطمع في ليل ضلاله بإسفار الصبح . فلما قتل المريكس سكن رُوعه ورُوعه . وذهب ضوره وضوعه (٢) ، وطاب قلبه ، وآب لبه . واستوى أمره ، واستشرى شره .

وكان قد تعصب لمضادة المريكس الملك العتيق ، فأظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس وأعمالها ، وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المريكس عرف أنه قد أخطأ في تقويته ، وختشى أنه لا يسلم من عاديته ، ولا يأمن من غائلته . فلما عدم عدوه ، وجد هلهوه . وآب سكونه ، وثاب جنونه . وغاض غيظه ، وحضه حظه ، وفاض من منبع الشرك فظه .

مع هذا لم يقطع محادثته ، ولم يحدث مقاطعته ، ومرى رسل مراسلته ، ورمى سهم محادثته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل ، وتصديق دعوته ، وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فإنه يبقى (٣) لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامة فإنهم يعتقدونها للمتهم (٤) الدعامة . فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار ، وأبدى لهم الإنكار . وسامهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان ، ويأخذوا على ما يبقى في أيديهم الأمان .

(٢) علق به الأمور : اختص .

(٣) صورة : الصور : الجوح الشديد . الضوع : التلق والفزع .

(٤) في ب و ل يبق وهذا خطأ والتصحيح من أ (٣٦٦ ي) .

(٥) في ب مهمم والتصحيح من ل ومن أ (٣٦٦ ي) .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر ، وكانت منها مضرة كبيرة لمكانت مع الكفر . فلما فتحت حفظت، وتركت وأبقيت ، وبالميرة والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها ، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يصونها .

فلما شرع الفرنج في إعادة عمارة عسقلان ترددوا مراراً إليها ، وداروا حولها وأشرفوا عليها . وأتفق السلطان في جماعة وقواها بها ، وشد بالنجدة قلوب أربابها . ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم ، وسمرهم ويضهم . وفارسهم وراجلهم ، وصارمهم وذابلهم ، وراحمهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها ، ونهوضهم إليها ؛ عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أخذوا فيها نقباً وخرقوه ، وحشوه وأحرقوه . وطلب أهلها الأمان فلم يجدوا ، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجلوا .

ولما عرف الوالى أنهم مأخوذون ، وأنهم موقومون موقودون ؛ عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعرقبها ، وإلى الذخائر فأضرمها وأهلها . وفتحوها بالسيف ، وعرضوا أهلها على الحيف . وأسروا منهم عدة يسيرة ، وكانت هذه النوبة على الإسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم يغربوا فيها، ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء يقال له : الحسى^(١) ، وقد طاش بهم التى والبغى . وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر ، وقد أنسوا بما ظنوه من أسباب الغلبة والقهر .

ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها : مجدل الحجاب ، فخرجت عليهم أسد اليزكيه المكنمة من الغاب . فقاتلتهم قتالا شديداً وتركتهم بجذ الحديد بديداً ، وغادرت جبل قصدهم الحديد جديداً ، وكرت عليهم

(١) الحسى : لا يوجد بمجمع البلدان لياقوت هذا الاسم وأن ما ورد « حسى » بكر الحاء وسكون الميم ، أرض بيادية الشام بينها وبين وادى القرى ليلتان (ياقوت ج ٧ : ٢٥٨ -

وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم ترديداً . وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير . وأتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا مفلولين مثلومين ، مفلولين مهزومين ، مثلولين مهضومين .

ثم رحل الفرنج من الحسي يوم الأحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين ، وبعضهم عاد إلى عسقلان ، وبعضهم جاء إلى بيت جبرين ، فتقدم السلطان إلى العساكر والأمرأ بأن يكونوا لهم مبارين .

وفي يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية (٢) ، بجوعهم الوافرة الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون ، فأرجفت الألسنة بأنهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون . ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة ، واجتلتنا نيرانهم المشبوبة .

وسرت منا إليهم السرايا ، وتوالت عليهم البلايا . وأظهر السلطان مقامه بالقدس ، لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالأنس . وفرق الأبراج والأبدان على الأمرأ والأجناد ، وذوى القوة والاستعداد ، وأمرهم بنقل الأزواد . ثم زال الرعب وطاب القلب . وخرج الناس إلى خيامهم يتخطفونهم ، ويعسفونهم ويتحيفونهم . وجرت وقعة بعد وقعة، وكبسناهم دفعة بعد دفعة . ومن ذلك أن بدرالدين دُلُرم كان في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين فبعث من أصحابه والعسكر إلى طريقهم من يافا من لزم الكمين . فجازت بهم فرسان من الفرنج ، مستقيمون على النهج . فخرجوا عابهم وقتلوا وأسروا وفازوا ونصروا .

وفي يوم السبت نزل الناس إليهم ، وقتلواهم في خيامهم ، وأهبوهم بضرامهم . وركب العدو وساق إلى قلونية وهي ضيعة من القدس على فرسخين ثم عاد بآلئ الشأن بآدى الشين . وعساكرنا قد ركبت أكتافه، وهي تقطع أطرافه، وهز أعطاف البيض لتحز أعطافه . وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في طريق يافا على السابلة العابرة . فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا ، وكسروا وأسروا . .

(١) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة (ياقوت ج ٥ : ٤٢ ط . ب) .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله ، ويدعوه نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله . فضرب العسكر خيامه على بليس (١) مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتبأ لمن تأخر عن السابق للحاق . وانضم إليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار ، وللعديو لقلومهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه الأخبار . فجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ، ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ؛ أن العدو — ملك الانكثير — ركب في سبعمائة فارس وألف تُرْكُوبُولِي ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير نخادع مخاتل . ولا يدري أى جانب قصد ، ولأى نائب رصد . فجرد السلطان أمير (آخر أسلم) ، خوفاً على الواصل ليسلم . وندب معه الطنبة وعدة من العادلةية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق البرية . فعبروا على ماء الحسى ، قبل وصول العدو إليه ، واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه .

وكان مقدم العسكر المصرى فلك الدين — أخو العادل ، ولم يسأل عن المراحل والمنازل . وقصد أقرب الطرق (٢) ، وغفل عما يعرف من الفرق (٣) والفرق (٤) . وترك الأحمال على طرق (٥) أخرى سائرة ، ورأى الأمانة ظاهرة ، وأوجه السلامة سافرة : وجاء ونزل على ماء به ف بانخويلفة (٦) ، والأمانى تغره بالمواعيد المخلفة . ونادى تلك الليلة : « إنا

(١) بليس : مدينة بمديرية الشرقية بمصر ، كانت على طريق الشام (ياقوت ٤ : ٤٦٩

ط . ب .).

(٢) في ب الترك والتصحيح من ل .

(٣) الفرق : جمع فرقة .

(٤) الفرق يفتح الراء والفاء : الفرع .

(٥) في ب ترك وفي ل طرق وفي أ (٣٦٨ ش) طريق .

(٦) الخويلفة : موضع بنواحي فلسطين (ياقوت ج ٨ : ٤٠٨ ط . ب .).

جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل إلى الصباح .
فاغتر الناس بالنداء الصراح . وناموا مسترسلين ، وباتوا متغفلين . فصيحهم
العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة الشاقة ، والخدمة الحاقة . وعاق ابن
ذكاء بإذكاء بنت الداهية العاقبة . فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد إضاءة .
والخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة
الغبوة لم يتعين . وكل غرار في جفنه قار ، وكل قارب بأمنه سار . وكل
جنب على فراش ، وكل عاش له العاس غاش .

فلما بغتوا بهتوا ، وطلبوا أن يفلتوا فما التفتوا . وركب كل منهم على
وجهه ، وربما كرت بكرهه . وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، وأسلم
إخوانه وغلمانه . وانهمزوا نحو الأتقال ، فأوقعوا العدو وهو وراءهم على
الجمال والأحمال . فوقع العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها .
ففرقت في البرية . وعاد معظمها إلى الديار المصرية ، ومنهم من عاج إلى
طريق الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك . فأخذ الكفار جمالا
لا تعد ، وأحمالا لا تحمد . وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة . ونوبة
ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة . ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات (١) لوعة .
فظنت الظنون ، وأرجف المرجفون . وقالوا : « قد حصل للفرنج من الظهر
ما يحلمهم وينهضهم ، ومن المال ما يطرهم ويحرضهم . ومن الآن يقابهم
وبأى عسكر وعدة نقاتلهم ! » .

ووصل الجند مسلوبين ، منكوبين منهوبين . فسلاهم السلطان عن
أموالهم ، بما قوى من آمالهم . وحضهم على الحظ من الأخذ بئأرهم ، والجد
في دمار القوم وبقوارهم . ولهى الملاعين بما ملأ العين من المال ، عن القيل
والقال ، والقتل والقتال : وحلأهم ما حاولوه من الحال . وجرى هذا كله
والملك الأفضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر
متباطئة في الإتيان :

(١) عولة : رفع الصوت بالبكاء والصياح .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع القرات ، ونزل عن جميع ما له من الولايات . وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ملك تلك البلدان، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان . ورحل من القدس في ثالث صفر وقتل أزمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضى قد سفر . وأقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من أبيه ما كمل به الخزانة واستجد . وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار، سوى ما أحسبه يرسم الخلع والتشريفات؛ من مستعملات ثياب ومصوغات نضار. ثم سار في حَجْرُ حَجْرٍ سبل خيله جار ذيل نفعه على الهجرة ، شاغل بالسير والسرى أسرار ذوى الأسرة . بادية على صفحات صفاحه نضرة التصرة . ووصل إلى حلب ، وقد مرى أفويق التوفيق وحلب. واحتفل أخوه الملك الظاهر لقدمه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه . ورحب للترحيب به صدره وجنايه ، وسحب على روضه سحابه ، وأصبح فيض فضله صحابه. ووقف لخدمته مائلا، وهز عطف الابهاج إليه مائلا. وأحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل ما في يده . ولم يبق من الجميل شيئا إلا عمله ، ولانوعا من القضيلة إلا كمله .

وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب . وخلق على خواص أصحابه وعوام أجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بإمداده . وعول أن يسير معه إلى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضلالة التي ينشدها . وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما ألقفه ، ودفع منه إلى ما أرهجه وأرهقه . ووصل رسوله إلى الملك العادل وهو بالقدس لاجئا إلى ظله ، راجيا لفضله . لا ذأ يجنايه ، عائداً ببابه ، مستجيزاً بإرعائه (١) ، مستجيباً لدعائه . مفوضاً ما حل به (٢) إلى أنوار آرائه ، مروضاً ما حل أمره (٣) بأنواء آلائه . فاحتسب له واحتمله ، وقوى على تقويته أمله .

(١) ارعاه : فله أرحى ، والمعنى المقصود هنا مسترحما إياه طالبا رعايته .

(٢) في (٣٦٠ ش) من

(٣) زيادة من ل ومن أ (٣٧٠ ش) ساقطة في ب .

وخطاب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في أمره واستشفعه . وقال :
« أنا أمضى إليه وأستحضره ، وأؤتمنه مما يحلره ، وتبى هذه السنة عليه حران
والرها ، وتشد من رجائه بذلك ماوهى . وتعطيه في السنة الأخرى حماة
والمعرة ، وتكفي المضرة والمعرة » . ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذ
تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها .

واستقر أن ينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصه ، وإذا أخذ تلك
البلاد - فما يحاوره - يجتهد في استخلاصه . فأبدى على الرضى بذلك وجه
كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر (١) فتمنع الملك الظاهر من تسليمها
حتى استظهر من أبيه بأضعافها واستظهر .

وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمادى الأولى ، وكتب
السلطان بعود الملك الأفضل - فجاء هذا راجعاً ، وذهب ذاك مسارعاً -
ووصل إلى حران والرها ، ففاز من تديره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده .
إلى أمد الأمل المنتهى . وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن
تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر إلى دمشق ابن صاحب الموصل علاء الدين -
وصاحب آمد - ابن قرا أرسلان قطب الدين ، وعسكر صاحب سنجان
ومقدمه - مجاهد الدين يرتقش . واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر
بها الإسلام يأنس ، والكفر يستوحش . وأقامت تنظر مسير الملك العادل
لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

(١) قلعة جعبر : على الفرات بين بالس والركة قرب صفين (ياقوت ج ٥ : ١٤١ و ١٤٢)

ذكر رحيل ملك الانكثير صوب عكاه مظهراً أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به في التلكس .
ورأوا أن ثغر بيروت قد يراهم ؛ وعراهم من القوة ما منه عراهم . وأنه
قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ؛ وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه ؛
فقالوا : « أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، وإذا حاصرناه جلبنا السلطان
وعساكره إلى جانبه ، وخلا القدس من جملة كتابه ، وجمرة مضاربه ،
فتباحر إليه من يافا وعسقلان من يجد في تملكه الإمكان » ، فلما عرف السلطان
ما عزموا عليه من القصد ؛ ودبروه من الكيد ؛ أمر الملك الأفضل بمباراة
القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل . وسبقهم إلى مرج
عيون ، حتى إذا يقين من قصدهم المظنون ، سبقت العساكر إلى بيروت
ودخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها . وكتب السلطان إلى العساكر
الواصلة إلى دمشق أن يكونوا مع ولده ، وأن يضموا أمدادهم إلى مدده
ونزل بمرج عيون والفرنج بمكاه بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكثير وسار ؛ وخلي وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من متخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ؛ في حماية البلد ؛ فانتهاز السلطان فرصة الغيبة ؛ وأوفد إلى مساع رجائهم غصبة الخبية . ونهض بعسكره الحاضر ، ولم يتمهل لانتظار العساكر . ووافي يافا ووفاهما بكيل المنجنيق أحجاراً ، وأراق دماء وساق دماراً .

وزحف الناس وحفز الباس . وفرعت (١) المدينة ، ورفعت منها السكنية . وقتل من بها ومسح، وأخذ ما بها وكسح . ووجدت الأحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت، وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت . ونفضت كنان ، ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن . وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل منفعة . وامتألاً البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حمايتها الأمان ليكونوا لها مسلمين ، وكان الناس قد سبقوا إليها ، وقرب أن يستواوا عليها ، وذلك (٢) يوم الجمعة العشرين من رجب ، وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلبوا (٣) الأمان رد الناس وكفوا ، فظن أن الغنيمة تصفو . فإنه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر ، على أن يدخلوا تحت حكم الإيسار ؛ ويسلموا جميع المال والعدة والنخائر . على أن يطلق كل واحد منهم بأسير ، ويفدى صغير بصغير ، وكبير بكبير .

وشرعوا في الخروج آحاداً وعشرات ، وعصباً متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستهلوا إلى الصباح ، وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم ؛ فبذنا لهم ماعينه من الاقتراح ، وما زال يخرج منهم من يستدعى زيادة الثقة ؛ وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة ، حتى وصل ملك الانكثير

(١) فرعت المدينة : نزل بها وتجول فيها .

(٢) فأ (٣٦٢ ى) وكان .

(٣) في ب طلب والتصحيح من ل ومن أ (٢٧٢ ى) .

في البحر ، في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر ، ودخل هو القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعائر الغدر ، فاكتفينا منهم بمن حصل في الأسر . وندمنا كيف خرجت القلعة من الفم ، ولانفع بعد فوات الفرصة للندم

ولو أن السلطان توقف في تأمينهم ، واستمر على توهينهم . لقلعت . أساس تلك القلعة . ونقضت رقة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحاً عظيماً ، وفضلاً من الله عميماً . فقد امتلأت الأيدي بغنائم المدينة ، ووهت أسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية ، وفزنا بالغنائم السنية . وقتل من أقام بالبلد وأسر ، وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من مقدمي القلعة نيف وسبعون ، وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد في الأول رجوعهم عن قصد بيروت ، وخشى على فرصة حفظها أن تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود ، وفزنا بجنى الجهاد بغير بذل المجهود ، وجري الأمر على الوجه المحمود .

ولنما وقع التندم ، كيف لم يقع في أخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الإذعان ، وتعذرت/بعد الإمكان ، وجمحت بعد الإصحاب ، وجنحت بعد الإكتاب (١) . وأفلتت وقد وقعت في الحباله ، واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة ، وآذن نشاطهم بالفترة وما انتعشوا ولا انجبروا من تلك العثرة والكسرة .

وعاد السلطان وخيم على النطرون ، والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء إليه الملك الأفضل ولده ، والملك العادل أخوه ، وأسفرت بالمسار الوجه ، وكان ولده الملك الظاهر أيضاً قد وصل ، وفي هذه الغزاة حضر ويمنها حصل . وكذلك كان قطب الدين سَكْمَان بن محمد بن قرا أرسلان حاضراً ، وأخذ من السعادة حظاً وافراً ، وحصل بيده جرح يش أن يومئى ، وظن تلك النعمة بومئى . ثم اندمل جرحه ، وفازت قداحه وحاز السنئى قدحه .

(١) الاكتاب : فله أكتب : الرجل واليه ومنه له : دنائته .

وأقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ، ولحقت أوائلها الأواخر.
ووصل الملك المنصور — ناصر الدين ابن تقيه (١) في بيضه وسمره ومشرفيه
وسمهرية : هذا والملك العادل متأخر في المخيم . بسبب عارض السقم ،
وملم الألم . ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر في عدد الرمل ، والإسلام
قرير العين من أهله يجمع الشمل ، والقضاء قد امتلاً ، والقضاء قد اجترأ ،
والقدر قد أسعد والسعيد قد قدر ، والنصر قد أبدى الصفو وأذهب الكدر.
وتلك البزية قد حوت البرية ، وجمعت العسكرية ، والكمت الجارية والكمأة
الجرية : والأعراب والعرا ب ، والمحارب والحراب ، والأجاود والخياد ،
والأساود والآساد . والبياض والسواد ، والعدد والأعداد .

(١) يقصد باین تقيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى صلاح الدين الأيوبي .

فصل في وصف الحال من كتاب إلى الديوان العزيز

الخدام حاله على ما أنهاه غير مرة في مرابطة أهل الكفر مستمرة ، وأفاويق النصر على حفرها تارة وبكتها أخرى مستمرة . والحرب سجال ، وللإسلام في مضمار الظفر سجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الإنهاء ، وكلما شارفت القضية الانتهاء، عادت إلى الابتداء . والحادثة متصلة والواقعة مستقبلية ، والنعمة من الله في إجراء أولياته على أجمل عاداته بإنجاز عِداته ، في قمع عِداته مؤتملة .

وما ينقضى يوم إلا عن نصره تتجدد ، ونعمة تتمهد ، وجمع للعدو يتبدد ، وجمر لنكاية فيه يتوقد ، وخذ لل سيف من حده بدم الشرك يتورد .
وقح بكر من الحرب العوان بلفاح البيض الذكور يتولد .

وأخر ماتم في هذه الأيام من مرهجات الكفر ومبهجات الإسلام ، حظوة حلوة ، ونوبة مالها نوبة . وهي أن الفرنج لما أعجزهم قصد البيت المقدس ، ولم يستقم لهم ما سولوه في الأنفس ، عكسوا زعمهم ، ونكسوا عزمهم . وعادوا خائنين ، ونكصوا هائنين . واستأنفوا مكيدة أخرى وشرعوا في شرّ خلفُ الشرك به يمرى . وأجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها - أعداء الله أولياء الطاغوت .

فسارت العساكر الإسلامية على مباراتهم ، لمضايقتهم في مضايق ذُرقاتهم وتجرد الخدام في خواصه ووافى يافا ، موقنا من الله تعالى أن مدد نصره إليه يتوافى . وحمل إليها من معتقلى نبات الأسفل ومشتعلى نبات الخلال الأملد والعرين . فإذا نزل بساحتهم ، فساء صباح المنذرين . فأخذها بالسيف عنوة وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوة ، وآتى القتل والنهب على من وجد فيها من الكفار ، واستخرج ما بها من الأموال والعدد والأذخار . فخلص من المسلمين من كان بها في الإيسار ، وأضحى الفرنج فيها تبارى بالتبار .

وطلب من بالقلعة الأمان على أن يسلموا من القتل ويستسلموا للأسر . ونزل البطرق (١) والقسطلان (٢) والمرشان (٣) وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر . فبيناهم مشغولون بالنزول ، ومنقطعون إلى الوصول ، جاءهم الغوث في البحر ، وظهرت منهم أمانة الغدر . ورجع العدو عن مقصده وردده الله وخذله ، ونصر الإسلام وأخذ له ، وسره بما يسره له وأجذله ، ونال سيف الدمار من سيب دماهم عله ونهله .

وكان المقصود ردهم عن موردهم ، وصلدهم عن مقصدهم . فأرْبَى ما قبضه الله من فتح الهدى وحلف العدا على الأرب . واهتزت أعطاف البيض والسمر المنتشية من كأس نجيعها للطرب . والقوم الآن قد اشتغلوا بمصائبهم ، واجتمعوا لضم ما انتشر من أسبابهم . وراسلوا في الصلح على أن نخلى لهم عسقلان فما أجيوا ، وعلموا بجهلهم أنهم ما أصابوا فيما دبروه لإدبارهم فأصيبوا . والعساكر الإسلامية اليوم عليهم مجتمعة ، ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة ، وقد آن أن تحل معاهد معاقلمهم التي هي ممتعة .

وكل ما يجده الله من علو يظهر ، وعلو يقهر ، ونصر يزهر ، ونصل بالظفر يشهر ؛ فهو ببزكات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الإمامية الناصرية ، وبحمد الله ويمن أيامها وفضل إنعامها دلائل النصر ظاهرة ، وأسباب الظهور متناصرة ، ووجوه الآمال بنشر نجاحها ويسر مافي أقرأحها سافرة .

(١) البطريق : عرب اللفظ الرومي . بمعنى القائد patricius (الألقاب الفارسية المعربة لادى شير ط بيروت ١٩٢٥ م) .

(٢) القسطلان : عرب اللفظ اللاتيني castellanus ومعناه مستحفظ القلعة ويقابله في الفرنسية chatelain (مفرج الكروب ج ٢ : ٧٦ تحقيق د . الشيال) عن (السلوك للمعريزي تحقيق د . زياده ج ١ : ٥٢٤)

(٣) المرشان : يقصد المؤلف كما يفهم من السياق maréchal أى قائد الجيش وهي كلمة فرنسية .

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكثير أن العساكر قد اجتمع ؛ والخرق عليه قد اتسع ؛ وأن القدس قد امتنع ، وأن العذاب به وقع ، خضع وخشع ، وقصر الطمع . علم أنه لا قبل له بمن أقبل ، ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل ، فأظهر أنه إن لم يهادن أقام واستقتل ، وللشر استقبل . وأنه عازم على العودة إلى بلاده ، لأمر مردها يعود إلى مراده . والبحر قد آن أن يمتنع رآكبه ، ويسم بالأمواج غواربه . « فإن هادنتم وطواعتم تبعت هواي ، وإن حاربتم وعصيتم ألقيت ههنا عصاي ، واستقرت نواي . وقد كل القريقان ، ومل الرفيقان . وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان . ولا تغرؤوا بهذه العساكر المجتمعمة من الجهات ، فإن جمعها في الشتاء إلى الشتاء ، ونحن إذا أقمنا على الشقاق والشقاء ؛ رمينا أنفسنا على البلاء . فأجيبوا رغبتى ، وأصيبيو محبتي . وأودعوني العهد ودعوني ، ووادعوني وودعوني » .

فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم في الأمر وأظهرهم على السر . واستطلع ما عندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى الغاي ، وقال لهم : « نحن بحمد الله في قوة ، وفي ترقب نصره مرجوة ، فأنصارنا المهاجرون إلينا ذوو دين وكرم ووهبة . وقد ألفنا الجهاد ، وألفينا به المراد . والفطام عن المألوف صعب ، وماتصدع إلى اليوم بتأييد الله لنا شعب . وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو . ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه النهو . وإذا تركنا هذا العمل فما العمل ؟ وإذا صرفنا عنهم الأمل فقيم الأمل ، وأخشى أن يأتي في حالة بطالي - الأجل ، ومن ألف الحلية كيف يألوه العطل ، رأيت أن أخلف رأي الهدنة ورأيت ، وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي . وما أنا بطالب البطالة ، فأرغب عن استحالة هذه الحالة . وقد رزقت من هذا الشيء فأنا أزمه ، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه » .

فقالوا له : و الأمر على ما تذكره ، والتدبير ما تراه والرأى ما تدبره ، ولا يستمر إلا ما تمره من الأمر ، ولا يستقر إلا ما تقرره ، وإن التوفيق معك في كل ما تعقده وتحمله وتورده وتصلره . غير أنك نظرت في حق نفسك من عادة السعادة ، وإرادة العبادة . واقتناء الفضيلة الزاجحة ، والاعتناء بالوسيلة الناجحة . والأنف من العطلة ، والغزوف للعزلة . وإنك تجد من نفسك القوة والاستمساك ، ويقينك يعرفك بالأمان الإدراك . فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت . والرعايا فإنها تمكست وتعثت . والأجناد فإنها نصبت ووصبت ، والجياد فإنها عطلت وعطبت ، وقد أعوزت العلوفات ، وعزت الأقوات ، وبعدت عنا العنارات ، وغلت الغلات . ولا جلب إلا من الديار المصرية ، مع ركوب الأخطار المهلكة في البرية . وهذا الاجتماع مظنة التفريق ، ولإيدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق . فإن المواد منقطة ، والحواد ممتعة . والمترب قد ترب ، والمعلم قد عطب . والتبن أعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالى السعر .

وهؤلاء الفرنج إذا يشوا من الهدنة ؛ بذلوا وسعهم في استفراغ المكتة واستفاد المنة . وصبروا على المنية في طريق الأمنية ، وأبوا في الإقبال على دينهم قبول الدنية . والصواب أن تقبل من الله الآية التي أنزلها وهي قوله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها (١)) ، وحينئذ تعود إلى البلاد سكانها وعمارها ، وتكثُر في مدة الهدنة غلاتها وأثمارها . وتستجد الأجناد عدتها ، وتستريح زمان السلم ومدتها . فإذا عادت أيام الحرب عدنا ، وقد استظهرنا وزدنا . ووجدنا القوت والعلف ، وعدمتنا المشاق والكلف . ففي أيام السلم نستعد للحرب ، ونستجد أدوات الطعن والضرب ، وليس ذلك تركا للعبادة ، وإنما هو للاستجداء والاستجداد والاستجادة .

على أن الفرنج لا يفون ، وعلى عهدهم لا يقفون . فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا ، وقد شقوا بما لقوا . وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة .

(١) الآية ١ سورة الأنفال .

وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضى ، وأجاب إلى ما اقتضى . وكانت قد بقيت بين العسكريين منزلة واحدة ، والعجاجات (١) على الطلائع متعاقدة . فلو رحنا رحلناهم ، وعلى الملك أخلناهم ، لكن مراد الله غلب ، وأجيب ملك الانكثير من الصالح إلى ما طلب .

فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها ، وعينت مدتها وبينت قضيتها وذلك في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر . وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل أمداهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر ، والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكاء إلى صور ، وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية ، والأعمال الدانية والنائية .

(١) العجاجت : جمع العجاجة ويقصد بها الاغارة ، (لف عجاجته عليهم) أى اغار

فصل من كتاب إلى الديوان العزيز في شرح نوبة يافا .
ثم إفضاء الأمر إلى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بإنهاء حاله ، وما هو لا يزال مستمراً عليه من
جهاد العدو وقتاله . وما كان عليه الكفر من الجمع المنتهم والجمر الملتهب
والحشر والحشد المضطرب المضطرب . وأنهم قد اجتمعوا على قصد ألبيت
المقدس ، وعزموا على بذل المصونين من النفائس والأنفس . وسلكوا
في القصد كل طريق ، وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . ودنوا على ظن
أن جنى الفتح لهم دان ، وأن شبا الحتف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا أن
المرمى بعيد المرام ، وأنهم لا يستطيعون مقاومة عسكر الإسلام . فنكصوا على
أعقابهم ، ونكسوا ما ضربوه من آرائهم وآراءهم . وعلموا عقبي ما جهلوه
وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه . ونكثوا من عقد القصد لما أبرموه ،
وشرعوا في أمر آخر توهموه .

ومضوا واستأنفوا الاستعداد ، واستنهضوا الأمداد . وحصنوا بلادهم
وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة ،
والعدة النافعة ، والشوكة الرادعة ، والشكة القاطعة . واستظهروا فيهما
بكل ما قلدوا عليه من المنعة الحامية ، ورجال الصبر على النار الحامية .
ثم ساروا بمجشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة ، وظلال الضلال
المملودة ، وصالل الصلادم المقودة . مستطرى شآبيب الأنابيب ، مستفري
سراحين السراحيب . وتوجهوا على سمت نجر بيروت بنية الحصر وغفلوا
عما أجزاه الله لأولياته على أعدائه من عوائد النصر

ولما نعى خبرهم ، وطار شررهم ، وخيف ضررهم ، أنهض الخادم
العساكر المنصورة إلى مقابلتهم ، ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في ممالكة
وخواصه ، ورجال الإقدام ذوى استخلاصه ، على مدينة يافا فأخذها
بالسيف عنوة ، وجب بها من سنام الكفر ذروة ، وحل منه بغزوته إليها
عروة ، واستكمل للإسلام بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبي ،

وقاب المشركين بما نبى مجده ومضى حله فيه وما لبأ . وغم من أموالها المسلمون ما خف وثقل ، وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ماخرج عن الحصر ، وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدتر للدختر .

وطلب أهل القلعة الأمان من القتل خاصة دون الأسر ، وشرطوا أنهم لا يمكنون من الدخول إليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم ، وكنودهم ومقدميهم . مثل الطرك الكبير والقسطلان والمرشان ؛ ومن يجرى مجراهم من القرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فلدروا ، وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا . وخيم العلو هناك في جموعه ، وندب إلى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت في البرجحافله حافلة ، وتواردت في الإسراع إلى الصريخ ظليمانا جافلة .

فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق ، وسيزهم إلى دمشق في أقياد الوثائق ، ورجع إلى القوم فهزهم ورددهم إلى عكا ، بعد ما نكى فيهم وأضحك من دماهم البيض وأبكى . وعاد إلى العلو ونزل عليه ، وكدر المورد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الإسلام العساكر . واتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر ، وجالت بأوجالها الضمائر لنا جالت عليهم الضوامر . وعابنوا العذاب الواقع ، وعدموا الدافع ، وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلم ترد بالضرعة ؛ وبذل الطاعة ؛ والنزول عن الاشتطاط ، والدخول تحت الاشتراط ؛ والغبطة بما هزله الإسلام عطف الاغتباط ؛ واحتوى عليه بيد الاحتياط .

وكانوا لا يجابون إلا بالإباء ، ولا تلقى رسلم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها ، وأولياء الطاعة وأباؤها . وأشاروا بعقد الهدنة ، والانتهاز فيها لفرصة المكنة . واستمتت المهادنة على ما أعز للإسلام الأنوف وأذل من الكفر الرقاب ، ورجح وأنجح من أهل الإيمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعازل التي تملكوها ، وبعلاوا

الطرق التي سلكوها ، وسألوا الأمان على الأمان التي استدركوها وما أدركوها ، وسلدوا عسقلان وغزة والداروم ويُسبى ولُدّ وتل الصافية ، وغير ذلك من الأعمال والأماكن الوافرة الوافية .

واقتنعوا بيبافا وعكاه وصور ، واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والتقصير . ورأوا عزمهم في ذلهم ، وصونهم في بلهم ، وسلامتهم في سلمهم ، وغناهم في علمهم ، ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز ، وهابوا بعد الاغترار ، وأقروا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى القرار ، وأمورهم إلى القرار . وخطوا ديارهم وأخطوها ، وما سألوا عن حب الأوطان والأوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين ؛ ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أياول يوم الثلاثاء الحادى والعشرين ، من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها ورحضت (١) بقاء السلم أوضارها (٢) ، وأخذت من أهل النار ثارها ، وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولاشك أنهم يستعدون في هذه المدة ، ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة ، ويستجدون عزمة العودة .

وقد شرع الخادم في تحصين الثغور ، وإمرار الأبور . وإبرام معاهد المعامل ، وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه حتى يبقى على الدرر أمناً من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها ، وحلية نضارتها ، وإجسام العساكر وإراحتها ، ليوم تعبها الذي هو عين راحتها .

ولقد كان الخادم للسلم متكرها ، ولا يرى أن يكون كشيمة ماوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوى الآراء على أن المصلحة في للمصلحة راجحة ، وأن صفقة الكفر فيها خاسرة وصفقة الإسلام راجحة .

وإن في إطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما ، وأمنا تاما ،

(١) رحضت : غسلت .

(٢) أوضارها : جمع وضر : وهو وسخ الدم ، غسالة القصة ونحوها ، وأثر النظام في القصة ، والمقصود هنا كل متخلفات وآثار ضارة .

وتفريقاً لجمع الكفار لشمّل النصر عليهم ضاماً . فهى سلم أنكى من الحرب
فيهم ، وأنها تقصيهم من هذه الديار بل تفيهم ، وإلى متى تجتمع هذه الأعداد
الهائلة لهؤلاء الأعداء ، وتتفق هذه الأمداد المتواصلة من أهل النار في الماء .
وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين ، وما وافى إليهم
مددهم من أوفه سوى مئين . وكل ما كان لهم من أوالهم في بلادهم نقاوه
وأنفقوه ، وأيقنوا أن مرامهم صعب وتمحقوه . فمتى أنفقوا انفضوا ،
وقد آن أن يرفضوا ويرفضوا ، وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع ، ويعزم
ذاهبهم على الرجوع ؛ يكون الإسلام قد استظهر بقوته ، واستكثّر من
نجدته ومن جدته . فرأى موافقة الإجماع : وقبل مناصحة الأشياع .
وتفرق جمع الكفر وبأخ جمره ، وأمن نكره ومكره ، والشرح صلر
الإسلام وتضوع نشره ، وتوضح بسنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان إلى القدس وعادت عادة سعادته ، واشتغل بإتمام السور والحدائق وتكميل عمارته ، وفسح للفرنج كافة في زيارة قمامة . فجاءوا ووجدوا الأمن والسلامة . وزاروا ورازوا ، ولما عجزوا أن يمتازوا سألوا أن يمتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق ، وتوافوا في طريق وراء طريق ، وقالوا : « إنما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح ، وما زلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح . »

وكان ملك الانكثير راسل السلطان وسأل منع الفنج من الزيارة إلا لمن وصل معه كتابه أو رسوله ، ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سوله . فقيل : مقصوده أنهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة ، فييقون على الاستنفار والاستتارة . ومن زار برد قلبه ، وتنفس كربته ، ولم يبق له في مشقة العود أرب ، ولم يتصل له بهذه الديار سبب ، فكان الأمر كما حسب ، فاعتذر إليه في الجواب الذي كتب . وقيل له : « أنت أولى بمنعهم ، وردهم بردعهم . فإنهم يصلون إلينا وافدين ، ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود ، ولا نبلغ من يقصدنا المقصود . »

ومرض ملك الانكثير مرضاً ألهاه عما اشتهاه ، ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منتهاه . وركب البحر وأقلع ، وعجل في مفارقتة وأسرع . وسلم الأمر إلى من يليه ، وهو الكند هرى - ابن اخيه من أمه ، وهو ابن أخت ملك لافرنسيس من أبيه . وتبعه فرنج الجزائر ، ولم يقف الأول منهم على الآخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم ، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأرزاد والنفقات ، والثياب والكسوات . فقيل له : لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرفته بنهجك . حتى لا يظن بك أم أنت منه برىء ، ويعلم أن قصدك في المضي مضىء . والوقت قد ضاق ، ويبلغ الخبر الآفاق . ثم هذه البلاد إذا تركتها على ما بها من الشعث ، لم تبرم مرر (١) حبلها المتكث . وهذه المعازل التي في الثغور ، حفظها من أهم الأمور . ولا يغير بعقد الهدنة ، فإن القوم على ترقب المكتنة . والغدر دأبهم ، وملء البغي لها بهم .

فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من العزم ما عقده ، وأطفأوا من نار جده فيه ما أوقده ، فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته ، وتهذيب عمله ومعاملته .

وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ ، وهو تركي يقتدى به في زهادته وحسن سيرته الشيوخ . وكان فيه دين ولين ، وحبله في الخير متين ٥ ولم يزل مستوفيا لحق الأمانة ، مستغنيا من الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره ، كرما مورده ومصدره .

وفوض السلطان ولاية القدس إلى عز الدين جرديك ، وقال : « تهديك في الأمور يغنيك عن أن تهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتول آخذنا بالخزم في تثبيتك وتأنيك ، وترويك وتأنيك » .

وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ؛ فخرج إليها وتولاها . وأمر بنقل الغلات من البلقاء (٢) لتقوية الفلاحين ،

(١) مرر : طاقات الجبال .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبها عمان ، فيها قرى

كثيرة ومزارع واسعة (ياقوت ج ٤ : ٤٨٩ ط . ب) .

وإعانة المقطعين . وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ،
ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم ، وآذن سؤاله
عنها بإجابة سؤلهم وسؤلهم . فإنه كان وقف دار البطرك — مجاورة قمامة —
لهم رباطا ، وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف ، وحكمهم
في الإنفاق بالمعروف .

وكان قد جعل كنيسة صنلحنًا — عند باب الأسباط — للفقهاء الشافعية
مدرسة ، وردها بنية على التقوى مؤسسة . وزاد في أوقافها ، ووفر مواد
تلادها وطرافها . وأمر بأن تجعل الكنيسة — المجاورة لدار الاستبار بقرب
قمامة بيمارستانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الأمراض
على اختلافها تقضى . ووقف مواضع عليها ، وسير أدوية وعقاقير عزيزة
الوجود إليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضى بهاء الدين
يوسف بن رافع بن تميم (١) . وعول منه على أمين كريم .

(١) يقصد القاضى بهاء الدين بن شداد صاحب كتاب التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال ، وقد دبر الأحوال ، وأقام بعدله الاعتدال ، وأفاض الفضل والإفضال . وجاوز ناحية البيرة^(١) ، وقد جلا جلاله سنى راياته المنيرة . وبات على بركة للدواية ، بالهمة الروية والعزمة القوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة ، وجمع شتات مصالحها المتوزعة . وكثرت الاستغاثات على سيف الدين على المشطوب صاحبها ، وأنه قد طرق الرنق^(٢) إلى مشاربها ، وزاد في رسومها ونوائبها . فأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها ، وأضحك بالعدل والإحسان مباسمها . وأسقط رسومها الجائرة ، وأمات سننها الضائرة ، وأصنى بها شرعة الشريعة ، وأصنى ظلال العاية للرعية في مراعيها المريعة .

ورحلنا بعد الظهر ، وبتنا ليلة الأحد عند عقبة ظهر حمار بموضع معرف بالفرنديسية ، ورتعنا في مروجها الأنيسة . وأصبحنا راحلين ، ونزلنا ضحوة على جنين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الأبد ، فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال .

ورحلنا يوم الاثنين وجتتا ضحوة إلى بيسان ، وأزال حلول السلطان عنها البؤس وأشاع الإحسان . وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية . فأبصر قللها العالية ، وقال : « هذه إذا عمرت دامت في حضانة الحصانة ، وكان جبلها لوثوقه مستودع الأمانة ، والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب » . ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب . ووعد بإحكامها ، وإعلاء أعلامها . ثم ظهر ظهر أوبات على قلعة كوكب ، وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها

(١) البيرة : بلدة بين القدس ونابلس (ياقوت ج ٢ ط . الخانجي) .

(٢) الرنق : هنا بمعنى تراب في الماء من القلى وغيره .

وصوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ، ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء :
وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر ، وتلقيناه بالبشر
والبر . وأقمنا بها يوم الأربعاء لتوافر الأنداء ، وتواتر الأنواء .

ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صغد تحت الجبل ، وصعد
السلطان إليها وأمر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق
جبل عاملة ونزل ضحوة بضعة يقال لها : الجش (١) ، وهي عامرة محتوية
على سكانها كأنها العش . وسرنا منها وخيمنا على مرج تينين ، وبتنا بأحوال
قلعتها معتنين . وأصبح السلطان حوالى حيطانها بأحوالها محيطا ، ممتطيا قرا
قلعتها ولأسباب اختلالها محيطا . ووصى الوالى بعمارها وجعل مصالحها
بكفايته منوطة ؛ وسداها بسداده منوطة .

ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين ، ونزلنا من الجبل ، وبتنا
على عين الذهب ؛ واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الأحد وخيمنا بمرج
عيون ، وجلس السلطان على عادته معنا فى تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت
العيون .

ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى ، وقطعنا فى الطريق
الوعر الوهاد والنرا ، وعبرنا بين عمل صيداء يسرة وعمل وادى التيم (٢)
يمنة على الضياع والقرى . وعرشنا على مرج تليفاثا (٣) مقابل مرج القنعبة ،
ودفعنا إلى سلوك (٤) المسالك الصعبة .

ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تليفاثا فخيمنا على
جسر كامد ، والسلطان مشغول فى طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن
الحسنات باقتناء المحامد . ثم غلونا يوم الأربعاء وخيمنا بناحية قب إلياس ،
وقد أصبحرنا إلى القضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين من الفواضل السلطانية

(١) جش : بلد بين صور وطبرية على سمت البحر (ياقوت ج ٣ : ١٠٧ ط . الخانجي).

(٢) وادى التيم بلبنان ، وهو المنطقة التى ينتهى إليها جبل الشيخ منحدرًا إليها انحدرًا لطيفا.

(٣) المنجد باب الاعلام والبلدان) .

(٤) تليفاثا : من قرى غولمة دمشق (ياقوت ج : ٥ : ٤٢ ط . ب .)

(٤) فى ب تبوك والتصحيح من ل .

في النعماء . ولما جن الليل جمعنا بالحضرة السلطانية الأنوار ، وسرت أسماءنا
منه أسماء رجال الفضل والكرم وستتهم لا الأسمار .
ودخل السلطان يوم الخميس إلى بيروت ، وأنجز بالوصول إليها وعده
الموقوت . ونزلت الأتقال على مرج قلْمِيطِيَّةَ بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام
على الاستراحة والإيداع .

ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول بييمند الابرنس صاحب
أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر أسامة

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين أسامة ، بكل ماتوفرت
به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب ، وظل خصيب ، وسماحة
أريب ، وسجاجة (١) لبيب . وفتحت الأهراء - على غلاء الغلات بالثغر -
ورفع أغلاقها ، وسبّلها وما قيد إطلاقها . وقرى وأضاف ، وأذن القطاف ،
وأصنّى النطاف (٢) وتلطف في الهدايا وأهدى الألفاف . وفرق على الصغير
والكبير التحف ، وأحضر للسلطان ولكل من معه الطرف . وأغنى وأقنى ،
وأعدم في الجود الموجود وأقنى . وأعطى الخيل والماليك والحوارى والملابس ،
وبذل النفائس ، وزف على أكفاه المحامد من ابتكار المناقب العرائس .

وأظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضيق السخاء ، وأهب في
أعصار الإعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء . وأحضر كل ما عنده
مما كسبه في النعمة ، جريا على كرم الشيمة ؛ من الجوخ الإفريقية ، والثياب
البندقية ، والمنابات (٣) الفضية ، والأكواب الجينية . والسروج واللجم ،
والأكسية والخزّم . والمهاميز (٤) والملايط (٥) والغفائر (٦) ، والروض

(١) سجاجة : سجع خلقه ، سهل يقال : في عقله رجاجة وفي خلقه سجاجة .

(٢) في ب العطف والتصحيح من ل ومن أ (٣٨٥ ي) .

(٣) المنابات : جمع هباب وهي وعاء يقدم فيه الشراب

(٤) المهاميز - جمع مهنز أو مهماز ، وهو ما يهنز به . أو هو حديدة في مؤخر خف

الرئيس . Dozy-Supp-Dict-Arabe. p. 765

(٥) الملايط : جمع ملوطة ، وهي الجبة من الحرير (Dozy-Supp-Dict-Arabe.

Vetements p 412

وهناك كلمة مليط إذا قيل سهم مليط أي لا ريش له ، وملايط صيغة منتهى الجموع لكلمة

(٦) الغفائر : جمع غفارة وهي زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس ، يليس تحت

القلنسوة (التجويم الزاهرة ج ٦ : ٢٦٨ ط . دار الكتب عن شرح القاموس) .

والدراهم والدنانير . ففرق من ذلك ما جمعه ، ورفع إلى كل منهم ما أسى
قدره ورفع ، وما انفصل عنه إلا كل مواصل بشكره ، مساجل أمثاله بذكره ،
مضوع كل ناد للكرام بنشره . وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ،
وأعجب وأعجز ما صدق من اهتمامه .

ذكر وصول الإبرنس يميند ودخوله على السلطان

ولما أراد السلطان عن بيروت الانفصال ؛ وذلك في يوم السبت الحادى والعشرين من شوال ؛ قيل له : إن الإبرنس الأنطاكى قد وصل إلى الخدمة ، مستمسكا بجبل العصمة ، داخلا حكم الذمة . فثنى عنانه ونزل ، وأقام وما ارتحل ، وأذن للإبرنس فى الدخول ، وشرقة فى حضرته بالمثل . وقربه وأنسه ، ورفع مجلسه . وأظهر له البشاشة والمشاشة ، وسكن من روع ووعه المشاشة ٥

وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهم تشريفا سريا . وأجزل له ولهم العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمباراة ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله عليه بغير أمان ، فلا جرم تلقاه بكل إحسان ٥ وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافق مراد السلطان أنه بمراة واقفه . وانصرف المذكور مسرورا ، بين أسرته المذكورا ، محبوا بالمنح والمنح محبورا .

ذكر وصول السلطان إلى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع ، وأحضرنا تلك الليلة في نادي فضله للمؤانسة والامتناع . وتجاوزنا أطراف الآراء ، وهزنا منه أعطاف الآلاء . واستدنينا قطاف النعماء . وقد قرب الدخول إلى البلد ، والوصول إلى الأهل والولد . وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ، ويظهر إلى سكنه ومسكنه ارتياحا والتمسكا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين البحر (١) وبتنا على مرج ييوس (٢) ، وقد شرح الله الصدر وأطاب النفوس . ووصل إلينا من أعيان دمشق من سبق للتقى والاستقبال . وأظهروا بقدمونا أسباب الاحتفاء والاحتفال . وجاءتنا فواكه دمشق وأطيابها ، واغتصمت بالرواصلين إلينا مسالكها ومذاهبها . ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجرى المتلقون في التحنى بالتحف على العادة . وأصبحتنا يوم الأربعاء ودخلنا إلى دمشق وقد أخرجت أئمتنا ، وأبرزت نساءها ورجالها . وكان يوم الزيتة ، وخرج كل من بالمدينة . وحشر الناس ضحى ، وأشاعوا استبشارا وفرحا .

وكانت غيبة السلطان عن دمشق أربع سنين في الجهاد طالت ، فاهتزت بقدمه واختالت . وقرت بفضائله الأعين ، وأقرت بفواضله الألسن . وذاعت أسرار السرور ، وراقت حبرات الجبور . وطابت الأنفس ، وغابت الأبؤس . وانجملت المكاره ، وتجلت المكارم ، وافرت المباسم ، وهنيت بموسمه المواسم . وتهوديت التهاني ، وهديت الأمانى ، وغنت المغننى ، ولذت المجانى ، وسفرت المجالى ، وظفرت المعالى . وتحملت الأحوال ، وتملت الآمال . وراج الرجاء ، وأرجت الأرجاء . وفاض الجود ، واستفاضت السعود . وعم العدل ، وتم الفضل . وأشرقت الآفاق ، وأفاق الإشراق . وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .

(١) عين البحر : موضع معروف بالبقاع بين يعلبك ودمشق (ياقوت ج ١٤ : ١٧٧ ط. ب)

(٢) ييوس : اسم جبل بالشام يوادى التيم من دمشق (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٨ ط. ب)

وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وقد جلت أوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها بفوجها . وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها . وفتحت مرتجات أبواب الآلاء لمرتجيبها ، واستجدت عادات إنجاز عدات الجوائز لمستجديها . ويسر اليسار لإسعاف العاني ، ونمت على ألسن الأتام أوصاف الصافي . وجلس السلطان في دار العدل فأعدى المستعدى ، ولبي المستدعى . وأجاب وأجار ، وأنال وأنار . وجاد وأجاد . وبدأ وأعاد .

وفي هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ؛ واجتمع بنا يوم وصلنا إلى طبرية ، ولقي من السلطان الألفاظ الخفية . ووصل معه إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر . وقد صان نفسه ببذل ماله ، وأخرج ثروته ودخل في إقلاله . وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه ، وأبى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه . ورسل المماليك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه . وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع واقتراره ، والتهاب زهر أزهاره ، وانتهاب سرح أسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره ، واثلاق أنواء نواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاق^(١) أوراق أشجاره ، وانفتاح كمامه ، واتساق نظامه . وانتثار منظومه ، وانتظام مثوره ، وانفجار صبح أسفاره . وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف أعشابه ، واستماع حفيف أقصابه ، والتماع بريق سحابه ، واتساع طريق صحابه . وانشفاق شقائقه ، وانعقاق عقائمه . واشتمال شمائله ، واقتبال قبائله . وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صباحه . وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، ولتبسم ثغور أبقوانه ، وتنسم ضمير ضميرانه^(٢) وتصور خلود تفاحه ، وتلدور نهود رمانه . واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلتاره .

(١) الاصطفاق : الاهتزاز بالريح .

(٢) الضميران : ضرب من الريحان .

وتشف أقطار النادى بأقراط قطار الندى ، وتوف (١) حافات
الوادى بالوشى الوشيع من حوك (٢) الرباب (٣) حول الربا . فإذا طاب
النسيم ونسم الطيب ؛ ودعا البلبل ولبيّ العنديل ؛ وتعطر عير الربيع ،
وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ؛ ووافق مراد المرعى من المراد
المريع ؛ وحلا الجنى اللجيني ؛ وحل النضير النضارى ؛ وبقل العذار
البنفسجى ؛ واشتعل الخلد الجلتنارى النارى ؛ ونجم فى الروض النجم
السمائى المائى ؛ وابتسم الثغر الأفايحى ، وتنسم الضوع الصباحى . وتحرك
العرف السحرى الشجرى ، وتأرجح النشر الروضى ؛ وتبلغ البشر الوضى ؛
وانتشى النشأ (٤) الشمالى الشمولى ؛ وانتعشت عاثرات أعشاب الشعاب ؛
وقابلت القبول خطبة الفضل بفصل الخطاب ؛ وصبت الصبا فى محل خطيئة
المحل بصوب الصواب ؛ فحينئذ آل جماح الأصحاب إلى الإصحاب ،
وصرقت أشاجع الشجعان ؛ وأيمان أهل الإيمان ؛ كل موج العنان ؛
رواج السنان . ونزعت الزائع إلى الخلاب ، ورشفت القواطع بشفاة الشفار .
ضرب الضراب . واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع ، وسرت الطلائع
وسر الطلوع . ونهض أهل الخلد وجد النهوض ، وفاضت المنابع ونبت الفيوض
وضرب السرادق السلطانى حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن يشمل
والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمثل . والجد يسمن والمزل يهزل ،
والعزم يولى والونى يعزل . ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ،
ولا يتنفس إلا بمحدث الصاعة من يحدث نفسه بعصيان .

وأقمنأ على هذا العزم إلى آخر السنة ، والأجفان مغضوذة على طيب
السنة . وظلّ البرد الشديد مديد ، والجلد واه والهواء جليده . وحد الشتاء
فى التشتيت حديد ، والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيبا ، والتلوج قد زرت

(١) توف : يقال ثوب مفوف : أى رقيق أو غلط بخلوط يفيض على الطول .

(٢) حوك : نسج .

(٣) الرباب : السحاب الأبيض

(٤) النشأ : نسيم الريح الطيبة .

على أعناق أطواها جيا . والجو في نظم ونثر ، والرّى من الثّرات مُثر :
والهتون ناكب ناكب ، والهُتوف ساكن ساكت . والزن مزين ، والحزن (١)
حزين . وللسماء سماء ، وللنشاط (٢) نشاط . وللسحاب حساب ،
وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب . وللبرد من ثلجه بُرد ، وللمطر في نهجه
طرد . وللغيث حيث ، وللوحل ريث .

وكانون قد أكنّ الربا ، وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة مشبوبة ،
وحود النُكْب مدروبة ، وخلود التُّرب مضرّوبة . والسلطان مشغول
بالصيد والقنص ، متمتّز في العمر للفُرص . مبيّز باليزاة والصقور ، حشاشات
الوحوش والطيور . بكل جار جارح ، وطائر طارح . يلدن أجل الحجل
وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهى الغرام . وكل سهم ينقض انقضاض
السهم ، ويبطّ بطن البط بالخزم .

وأكثر الجلوس بدمشق في دار العدل ، وأغزر لمتتبعيه در الفضل .
وحكم وقضى ، وأسخط بالحق وأرضى ، ووقف وأمضى . وما منع بل
أعطى ، وأصاب وما أخطأ . وجاد وأجاد ، وأبدى وأعاد ، وأوفد وأفاد ،
وأحسن وزاد . وأغنى وأفنى ، وأجلى وأسدى ، وأولى وولى . وأجار
وأجاز ، وحاز وناز . وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .
وتكلموا عنده في المسائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية .
وما كان أحسن إلى الحق لإصغاءه ، وأسرع للباطل لإفائه . ولكل ذى فضل
منه حظ ، ولكل ذى حفظ منه حفظ . ولكل محروم منه رزق ، ولكل
مرزوق إلى حمده سبق . ولكل فهم عنده سوق ، ولكل سهم عنده فوق .
ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدّم من جوده إعتاب ، ولكل
مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من إسعافه جواب :

ولكل مستجد إجداء ، ولكل مستهد إهداء . ولكل سائل نائل ، ولكل
ماحل وابل . ولكل ظام رى ، ولكل حائم ورد هنى . فما أسح مزنه ؛

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض وقلما يكون إلا مرتقما .

(٢) النشاط : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض .

وما أصح وزنه ؛ وما أسمح يده ؛ وما أوضح جده ؛ وما أعلى جده ! .
وما أجد علاه . وما أجدى كفه ؛ وما أكنى جداه . ؛ وما أكثر حياهه ؛
وأغزر حياهه ؛ وأرج رياه ؛ وأبلج بحياهه ! .

وومن توفى في هذه السنة من الملوك ؛ سلطان الروم قليج أرسلان بن مسعود
ابن قليج أرسلان ؛ وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان .

وكان له عشرة من البنين ؛ فولى كلا منهم إقليما ، وقصد به لمتأد
أمر ذلك الجانب تقويما . فقوى كل منهم في ثغره ، واستقل بأمره . ودب
في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه إلى ما في يد صاحبه من
البلاد . وكان أكبر بنيه - قطب الدين ملكشاه ؛ قد استحكمت قواه ؛
واستطال هواه ؛ وهو حيثئذ متولى سيواس (١) ؛ فأطاع في التملك على
أبيه ملكه الوسواس . وسعى إلى أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن
غفراس . وصور له أنه يريد أن يستولى على الملك ، وينفرد بانتهاج المسلك
وانتظام السلك .

وساعده صاحب أرزنكان (٢) وأمن اختيار الدين إلى المذكر واختاره ،
واستأذن السلطان أن يقصد دياره ، ويقم عنده إلى أن يصلح أمره مع أولاده .
ويأذن له في العود إلى بلاده : فاستصحبه صاحب أرزنكان ؛ وأوقع عليه
في الطريق التركان . فقتلوه شر قتلة ، ومثلوا به وبولده أقيح مُثلة .

فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ؛ وأنه عن حسن بن غفراس
سلا ؛ ساق إليه ، وأخنى عليه . ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز
حوزته ، وقوى بعزته ، وعز بقوته . وقال لوالده : « أنا بين يديك ،
أشفق عليك . وأنفذ أوامرك ، وأوفر ما تركك » . وقتل أمراء كانوا لأبيه ،
وألزم خدمته من لا يشتهي . فبقى معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو العطل ؛

(١) سيواس : بلدة كبيرة مشهورة وبها قلعة صغيرة بينها وبين قيسارية ستون ميلا (النجوم
الزاهرة ٦ : ١١٨ ط . دار الكتب) عن تقويم البلدان لابي الفداء اسماعيل .
(٢) ارزنكان : أو ارزنجان ، بلدة كثيرة الخيرات من بلاد أرمينية بين بلاد الروم
وغلاط قريبة من أرزن الروم وأكثر أهلها أرمن (ياقوت ج ٢ : ١٥٠ ط . بيروت) .

واستكتبته أنه ولي عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده . وتصرف في خزائنه وملك أقمرا (١) ، وفرع وقرى ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى .

وقد مضى حديث ملك الألمان ؛ في ذلك الأوان . وكيف وصل وعبر إلى الشام ، وكيف قوى بهم في زمن الإسلام . واستصحب معه والده إلى قيسارية ؛ لقسر أخيه نور الدين سلطان شاه وحصره ، وأظهر أنه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد ووصف ، ووقف وكف .

ورأى قليج أرسلان أن ولده عنه مشغول ؛ وأن عقد حراسته له محلول . فخرج من الصف مفارقاً للولد ، وساق ودخل إلى البلاد . فأضاهه الولد الآخر وأكرمه ، وبره واحترمه . وانفصل ملكشاه إلى قونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بالسلطنة . وبقي قليج أرسلان يتردد في بلاده ، وفي ضيافة أولاده . ينتقل من بلد إلى بلد ، ومن ولد إلى ولد . وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه . حتى حصل عتا ولده غياث الدين كيخسرو (٢) – صاحب برغلُو – فقواه وآزره ، وضافره وظاهره . وجمع وحشد له ، وأخذله وما خذله . وجاء به إلى قونية فدخلها . وحل به عطلها .

وخرج ليأخذ أقمرا فتعذرت ، وتمنعت عليه وتعسرت . واسترغب الأوجية (٣) ، وجمع العسكرية . فمرض فجاء به ، وقد توفي ، إلى قونية في حفة ، ونزل يمشى قدامها ويظهر أنه من المرض الثقيل في حفة . حتى دخل المدينة وقلعتها ، واجتازها واحتاز مملكتها . واستدعى الأعيان فاستحلفهم ، واستمالهم

(١) أقمرا : أوقصرا ، إحدى مدن بلاد الروم (آسيا الصغرى) .

(٢) غياث الدين كيخسرو : ابن عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قتلش بن أرسلان السلجوقي ، قوى أباه على أخيه ملكشاه وحشد له وملك قونية ، ثم سار إلى أقمرا ، وملك بعد موت ملكشاه ، ثم قوى عليه أخوه ركن الدين سليمان حتى مات سنة ٦٠٠ هـ ، وملك بعده ولده قليج ، فسار إليه كيخسرو ودخل قونية سنة ٦٠٠ هـ وظل صاحب الكلمة حتى قتل سنة ٦٠٧ هـ وخلفه ابنه كيكاؤس (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ١١٣ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ .)

(٣) يقصد تركان الأوج وقد سبق التعر يف جم .

وتألفهم . ثم أظهر لهم وفاة أبيه ، وأنه وارث ملكه ومتوليّه ، وقوى على قطب الدين ملكشاه أخيه .

وتوفى في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش . كان من أهل الفضل ، والرياسة والنبيل . وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم . والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام . ويؤمله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود . ولما أخذ شهرزُور سلمها إليه ، وعول فيها عليه . وما برح بها حتى أنعم بها على صاحب إربيل - مظفر الدين ؛ فعاد القاضي شمس الدين . فأرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد أمرهم إلى سداده . فتردد بينهم سنة ، ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل إلى ملطية ، وقد استكمل من عمره لله العطية . وتوفى بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل إلى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة . والسلطان مقم بدمشق في داره ، وبمالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقة صباحها لإسفاره . ورسل الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوجني جنابه . والضيوف في فيوض إنعامه عاثمون ، وبفروض حقوقه قائمون . والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاً كلاءته راعون وادعون . ودار العدل بالفضل دارة ، وأسرار المني بالمناجح سارة .

والسلطان يجلس في كل يوم وليلة لإسداء الجود ، وإبداء السعود . وبث المكارم ، وكشف المظالم ، وتنفيذ المرامم ، وإمضاء العزائم ، وتشديد الدعائم ، وتقرير العظائم . والاهتمام بمصالح الإسلام ، ومناجح الأنام . والاعتماد للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، وينم من الكروب .

ولجاسة العلماء ، ومساجلة الفضلاء ، وموالة الأولياء ، ومصافاة الأصفياء . وإعداء (١) الملهوف ، وإسداء المعروف . ومل ملازمة البلد ،

(١) أعداء : فله أعدى ، وأعدى فلانا على فلان ، نصره وأعانه وقواه والمضى هنا بمعنى

إعانة ونصرة وتقوية الملهوف .

وخرج عن حكم الجلد . وبرز إلى الصيد شرق دمشق بزاد خمسة عشر يوماً ، وأوسع من لم يوافق على الخروج لوما . واستصحب معه أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير (ضمير) إلى الجهة الشرقية . وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص .

ثم عاد يوم الإثنين حادى عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافق ذلك عود الحاج الشامى فخرج للتقى ، وسعاداته فى الترقى ولما لقي الحاج استعبرت عيناه ، كيف فاته من الحج ما تمناه . وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجاورين والفقراء ورواتبها وإداراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج . ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الإسلام ، فتلقاه بالإكرام ، وأنزله فى كتف الاهتمام .

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر في مجلس عاداته ، ومجلى سعادته . ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط . حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحدثه . ثم صلى به وبنا لإمامه ، وحن قيامه . وانفصلنا بإحسانه مغتبطين ، وبامتنانه مرتبطين . وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الإيوان ، نتنظر خروجه لوضع الخوان . فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام . فجاء وتصدر وتربع في دسته ، وجلس بسمته وسمته . وتطيرنا من تلك الحال ، وتقللنا بحمد ذلك القال .

ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ، ومرضه في الزيادة . وتوفى بكرة الأربعاء السابع والعشرين ؛ وتقله الله في دسته العالی إلى أعلى عليين . ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم بغروب شمس فضاء الأفضال . وغاضت الأيادي ، وقاضت الأعداى . وانقطعت الأرزاق ، وادهمت الآفاق . وخاب الراجون ، وغاب اللاجون . وخاف الآمن ، وخاب الآمل ، وقنط السائل ، وشحط النائل . وطردت الضيوف ، ونكر المعروف .

ودفن بالقلعة في داره ، وفجع الزمان بأنواره . وعدمت الأيام صباحها مال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم .

وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى ، ولا أجد قلبى من سقمهم لهمّ وسكره صحّ ولا صحا . وحالت حالى ، وزال إدلالى وزاد بلبالى . وبطل حتى ، واتسع خرقى . وتنازل جاهى ، وتنازق أشباهى ، وأعضلت أدواء اللواهى . وبقيت المعارف متكررة ، والمطالع مكفهره . والعيون شاخصه ، والظلال قالصة ، والأيدى يابسة ، والوجوه عابسة ، وعادت أبكار خواطرى عانسة ، ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسة .

وبقى باب كل مرتجى مرتجيا ، ومنهج كل معروف منهنجا . وظنّ الغنى

عنّي ، وأخلف في ضمنّ الأَخلاف بي ظني . حتى تولى الملك الأفضّل
بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر بعزم تأنيه ، وحزم تأنيه ، وعز تأنيه .
فعرّف افتقاره إلى معرفتي وفقرى ، وإلى عطل الملك ومُحله من غزارة حلب .
درّي ، ونضارة حلّي درّي . فكتبت له ، وحليت من الملك عطله . ووشيت
الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها . وهزّزت البراعة ، وأغزرت
البراعة وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين - رحمه الله - سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة ، وأبى له مآثر أثيرة ، ومحاسن كثيرة ، . ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما ، فإنه كان يلخراجه ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مخرما . وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحالات عن الرصول : فإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص الآح من ذوى الغناء في الجهاد بالآفه . ولا جبهه أحدا بالرد إذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله . فإنه يقول : « ما عندنا شيء الساعة » - ومفهومه : أنه يعطى وإن كان يبطل ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى .

وكان ولى عهده باشام - الملك الأفضل نور الدين على ، وأنه كاسمه سام على ، ونور فضلا كسمته جلى ، وهو الذى حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته . وقام بسنة الغزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء لآلاء ، وإدناء الأواء . وخلع على الأماثل والأمرء ، والأفاضل والعلماء . وكان لباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك . فخابوا رغبوا ، ودهبوا وبنا أبوا .

ذكر من تولى ممالكة بعده من أهله

تولى ولده العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وأبقاها على اعتدالها ، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والبأس ، وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة ، وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد وأجاد ، وأبدى الكرم وأعاد . وبسط وقبض ، وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافترق . ووضع ورفع ، ومنح ومنع ، وأبصر وسمع ، وضرب ونفع ، وقطع وأقطع ، وأصل وفرع . وواعد وأنجز ، وأوعز وبغى من أعوز ، وبرز وأبرز ، وجاهد وجهاز . وعرض الكتاب ، وفرض المواهب .

وأجرى الصدقات ، وتصدق بالخرابيات . وأدرّ وأدار ، وأجاز وأجار . وأغنى وأسعد ، وأدنى وأبعد . وقدم أمر بيت الله المقدس ، واعتمد في اعتماد الأشوس (١) الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية ، لتصرف في وجوه ضرورية . ثم أمده بالحمل ، وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته ، وقوى يده برعايته . ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس ، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل ففصل ووصل ، وأحسن وعدل . وقضى وحكم ، وأمضى وأحكم .

واحضر نواب ديوانه في إيوانه ، واستعرض منهم قوانين سلطانه . واستقرى الضياع والإقطاع ، وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل إقطاع من أقام بالشام ، وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أتى إلا مافي يدي من الضياع ، وصان حقوق من الضياع . وأمر بتخليده ، وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب ، ومحبوب به من الرقد محبوب .

(١) الأشوس : من كان شديد اجريتا في القتال .

ورعى في عهد الوالد ، وأضاف الطارف عندي من العرف إلى التالد .
هذا وأنا غائب ، وبرأى رائب ، ولسواه كاتب ونائب . وما أحوجني في
النوال إلى السؤال ، وأغنانى استرساله في إغنائى عن الارسال . ولم تفتقر
مقاصدى ووسائلى إلى تسيير القصائد والرسائل ، وما أغرب بيدار فواضله
للحلول بدار الأفاضل .

ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة ، فأتى من تجهيز العساكر إلى
البيت المقدس بكل ما في المكتبة . ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم ، وتابعهم
وشايهم . قد خرجوا في أيمنهم حائنين ولعقد أيمنهم ناكبين . فخيم ببركة
الجب (١) ، واستشار أمراءه - أهل الرأى واللب . وجهاز جيشا جانشا ،
وبعثا لعنار الدولة ناعشا ؛ في كل مقدم مقدام ، وهمام همام ، وضيغم
ضرغام ، وقرم قمقام . فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم
وسلمهم ، وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى أن الحمد
أعود ، والعود أحمد .

وسأق ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من شأنه .

(١) بركة الجب : ماء في ديار بى جب ، وهى من قرى حلب (أياقوت ج ٥ : ١٠٠ -

ذكر دمشق وما يجرى معها ومن تولاها

وتولى الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن على - ولد السلطان - دمشق والساحل وما يجرى مع ذلك من البلاد . ونفذت في البلاد أوامره ، ونفذت في الرجال ذخائره . ورتب الأمور أجمل ترتيب ، وهذب الشئون أكمل تهذيب . وجلا السرير السلطاني بنوره ، وأسفر صباح الإقبال بإقبال سفوره . وهدى وهدياً ، وملاً بالبشر المتبلج والنشر المتأرجح الملاً . وهذب وأذهب ، ورغب وأرهب . ورتب وربت ، وأصلى وأصلت . وأثر وأرث ، ولمّ الثعث . وأبهى وأبهج ، وأجد المنهج المشهج ، ورجح ونجح ، ومنّ ومنح . وأرسي وأرسخ ، وبدّ وبذخ . وواعد وأوعد ، وجدد الجدد . وأذاع بحميته سر حمايته وأعاذ ، ووجد الملائد من وجد منه الملائد . وأمرّ وأمرّ ، ونضر ونظر ، وعز وأعز ، وحاز وحز . وساس وراس ، وملك الباس والناس . وأشاع البر وأعاش ، وأشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوى الاختصاص ، واختص أهل الإخلاص ، ونهض واستنهض وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط ، وأحاط علمه وحاط . وحفظ أولى الحفاظ ، ولاحظ العرف وعرف أنه لاحظ لغيره اللاخط . وصنع واصطنع ، وأبدى وأبدع . ومد الظل وأسبغ ، وسوى الفضل وسوخ . وأهمى العوارف ، وأهمى الرواعف . وحقق الحقوق ، ورتق الفتوق . وضم الملك ، ونظم السلك .

وجلس في دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل . وحزم وجزم ، وعزم والتزم . وزاد وزان ، وأغاث وأعان . وأبر أبواب الهوى ، وأمر من أرباب التقوى القوى . وحمى النابه ، ومحا المكاره . وفاض بغرارة العطايا ، واستفاض بطهارة السجايا . وآوى إليه إخوته ، وضم جماعته . وجهز أخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا ، وأصحبه عسكرياً مجراً . وأنهضه لإنجاد عمه الملك العادل ، فأثار في فضاء الفضائل ، وسار بحمضه إلى

المحففل الحافل . فالترزم الشروع ، وهزم الجموع . وقارع القروم ،
وكان المازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر (١) والرحبة وبعليك وما يجرى معها في
المملكة الأفضلية داخلة ، وأمداد طاعات الولاة والأولياء بها متواصلة .
وصاحب حمص والرحبة - الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن
شيركوه ابن ابن عم السلطان ، وهو أثير الشان ، أثيل المكان . فوصل إلى
دمشق مطيعا ، ولسر صدقه ونشر صداقته مديعا مشيعا ، فأحلى له الملك
الأفضل جنى شهيا ، وأحله جنابا وسيعا . وعقد له جبا الحب ، وجباه
بكل ما سفر عن سفور مودة القلب ، ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعليك الملك الأجد مجد الدين بهرامشاه ابن
فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب طائعا ، وللأمر الأفضلي تابعا . فأدناه وأجناه ،
وأحبه وجباه ، وأسناه وأسماه ، وآواه وآساه . فتأكدت بينهم القرابة
المتشعبة ، وتشبكت اللحمة المتسجعة ، وتمهدت الآصرة المترجة ، وفتحت
أبواب الألفة المرتجة . وتوافقوا على التوافق ، وتصادقوا على التصادق .
وتعاضدوا على الأخذ بالتساعد ، وتعاقدوا على ترك التقاعد .

(١) للمناظر : موضع في البرية الشامية قرب عرض وقرب هيت (ياقوت ج ١٨ : ٢٠٣).

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب وأعمالها، وحصونها ومعقلها؛ وكرأثم البلاد وعقائلها؛ الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازي. وهو برجأحته وسماحته للطود والجلود الموازن الموازي. وتلك مملكة أقطارها واسعة، وأنصارها شاسعة. فحواها وحماها، وبماء العدل رواها وقواها، وأعز رجال الرجاء، وهز أعطاف العطاء. ورحب لورآده ورواده رحابه، وسحب بحيا الأعباء سحابه. وأبرت مبراته، وأثرت مأثراته، وسبح وصبح غيئه وغيائه، ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغرائه(١). وزخرت أمواجه، وزهرت بثواقب المناقب أبراجه. وصابت سماء سماحه، وطابت صبا صباحه؛

وعزت بسيرته كتب التواريخ، وعزى قلمه وسيفه إلى عطار د المريخ. وسعدت وفوده، ووفدت سعوده. وأثر من أمره النماذ، وكثر بظله اللبأذ. وأدى الأبرار، وأقصى الأشرار. وخص الأعرزة الخواص بالإعزاز. وأوعز بما يعود به إلى نضارة الغنى العرد الذى ذوى لذوى الإعواز. وتمهد لسلطانه الأساس، واطرد لإحسانه القياس. ووجد من عثر من أيد يده الانتعاش، وعشا إلى جلواه المجئدى وعاش. وفرض القرص، ورفض الرخص. وأدى الفروض، وقضى التروض. واستدنى من المناجح شاحطها(٢)، واستدرك من المصالح فارطها. وملاك خلقه التحمظ، وسلك طرق التيقظ.

وفرق وجمع، وخرق ورقع. وغلب وبلغ، ودمر أهل الكفر والنفاق ودمغ. وشنى واشتنى، وكفى واكتفى، وراع وراق، وفات وفاق. وطلب وأدرك، وأخذ وترك. وفاض بالفضل، وراض بالعدل.

(١) غرائه: جوعه.

(٢) شاحطها: بيدها.

وقدم الخزم ، وصمم الخزم . وأحيا السنن ، وأولى المنن . ولها بالجد عن
اللهو ، وانتهى بالعدو إلى اليأس المر ؛ وبالولى إلى النائل الخلو . وأمر
ونهى ، وأوهن معاقد ذوى المكابذ وأوهى . ووفى للوفى ، وصفا للصقى .
وأقر البيرة وأعمالها ، وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين
داود ، ولم يزل مقبولا أمره غير مردود . ودخل فى أمره صاحب حماه ؛
وأعزه وحماه – وهو ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين . واتسع
الملك ، واتسق السلك . وكاتب الجوانب وراسل ، وفارق من رأى وواصل ،
وطال باعه ، وأطاع أشياعه . وهمت همته بالزيادة ، وسمت لسمت
السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أبى يوسف أخى السلطان
وما جرى له بعد وفاة أخيه

كان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته ، وكان موافقه
ومرافقه فى مقتنصاته . فلما عاد السلطان إلى دمشق ودعه ومضى إلى حصته
بالكرك للاستراحة ، غير مطلع على سر الغيب فى الأفضية المتاحة . فتابه
التائب ، ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب . فلما عرف وصل إلى
دمشق بعد أيام ، ولم يقيم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام ،
ولم يرم ثلاثا ، ولم يرم لبائا . ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة ، حلرا
عليها من أهل الجزيرة .

وكان السلطان جعل له كل ما فى شرقى الفرات من البلاد والولايات .
ومضى كما ومضى بارق ، وتخوف أن يطرق بلده طارق . فلما وصل إلى
الفرات ؛ وجد مما خافه دلائل الفرات . فأقام بقلعة جعبر ، ولم يحشد ولم
يستحضر العسكر ؛ رغبة فى السلم والسلامة ، ومحبة للدعة المستدامة .
وسير إلى الولايات الولاة ، ووصى برعاياه الرعاة .

واستتاب فى ميفارقين وحائى وسميساط وحران والرها ، وشحنها
بالشحن واستقام أمرها . وحسب أن الأعداء إذا سمعوا بسمعه ، جمعوا
لجمعه ، وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت ، وتبين وتثبت . وعلم العدا
أنه فى خيف فخشوا ، وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ما هم فيه فهموا
وما كفوا . وسافوا تراب الطمع وأسقموا ، فجرت حركتهم هلكتهم ،
وأذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذَكَرَ أَهْلَ الشَّمَاتِ وَمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَجَمْعِهِمْ مِنَ الشَّمَاتِ

كان الأمير بكتمر صاحب خلطاء ، قد هجر الاحتياط ، ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين ، وظهر في النوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر ، وحدث أمه بيجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار ، وطير إليهم كتب الاستنفار . وضم إليه من ماردین ماردین . وطار وطاش ، وارتاش وانتاش . وخطط من خلطاء الأوشاب والأوباش .

فبينما هو في أم غرور ؛ وأنم سرور ؛ وأحب جبور ؛ وأشب سفور ؛ وأرقد عين ، وأركد عين ؛ وأغفل قلب ؛ وأذهل لب ؛ وأطول أمل في أقصر أمد ؛ وأكثر مدد في أقل مُدَد ؛ وقد خرج من الحمام ؛ ولم يدرك أنه داخل إلى مغتسل الحمام ، استشهد على أيدي الإسماعيلية . ولعل الله غفرله ونقله بشهادته إلى جنته عليه . وذلك بخلائط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وكان أيامه كانت أحلاما رثيت في السنة .

وأول باديء بالخروج متولى ماردین — فإنه مرد ، وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردین حين كان أهله عليه ماردین . فلما صالحهم استبقاه واستنائه ، وأضافه إلى نائبه بالرها وأعطاه . ثم تحرك عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي — صاحب الموصل ، وخرج في الجحفل الحفيل وأضافه أخوه عماد الدين زنكي بنصيين ، وخرجوا لنداء اللقاء مجييين .

وقدموا الرسل إلى الملك العادل سيف الدين ، وقالوا : « نخرج من بلادنا ، وتدخل في مرادنا » فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم ، ويستصرخهم ويستنصرهم . فأجبلوه بالأمداد ، وأمدوه بالأنجاد . فجأفوه من

كل فنج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان إيجاد حلب أقرب ، ولذّر
الإسعاف أحلب .

ولما عرف الملك الأفضل اغتم واهتم ، وجمع عسكره وضم ، وخص
وعم . وكتب إلى صاحبي حمص وبعبك ، واستدعى عسكرهما الترك .
فسار أخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر ، وروض عسكره بورق الحديد
الأخضر تَصْبِر ، والملك العادل لقدمه منتظر . وأما المواصلة فإنهم ما أسرعوا
بل أبطأوا ، وما أصابوا بل أخطأوا . وسمعوا أن الأمداد العادلية الوافية
متوافية ، وأن فتنه كافة كافية مكافية . فتجنّبوا وتجنّبوا ، وكانوا قد وصلوا
إلى رأس عين فأقاموا وسكنوا .

والملك العادل نجح بظاهر حران في جموعه وجنوده ، وأعلامه وبنوده ،
ومساعديه وسعوده . وعزمه على النقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متم .
وجده غالب ، وحده سالب ، وجده لظباء النصر حالب ، ولطيب الذكر
جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر ، ولحظ الشمس من غبار خيله
الساتر فاتر .

وتقارب العسكران حتى أن الطلائع تتواجه وتتجاهه ، ورجال اليزك
تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ؛ وسر تدره المكتوم ؛
تفليل غروب القوم وتقليلهم ، وحرارتأملهم وخارتأملهم ، وجفل رأهم (1)
ورتع رعيهم . وذلك بما قدره الله من مرض أتابك صاحب الموصل ،
ولم يطق الإقامة بالمنزل . وأشنى على الخطر ، وأشرف صفو حياته على
الكلر . فعاد إلى الموصل في محفة ، ورجا أن يتبدل ما ألم به من ثقل ألم بحقه .

وقهقر عماد الدين راجعا ، ولن وثق به من أشياعه فاجعا . وتضرع
صاحب ماردين وتذرع ، وتشفع بالأمرء والأكابر وخضع . حتى وقع
عنه الرضا ، وصفح له عما مضى . وأجرى على القاعدة السلطانية معه ،

(1) وألم : الرأل ، ولد النعام .

وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وما وسعه . ورأى عماد الدين أن القوم خانوا واستكانوا ، وما رعوا له العهد كما كانوا . فاضطر إلى الانكفاء ، وكف عن اللقاء ، فخلا الجوى ، وجلا الضوى ، وعلا النوى .

وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن أخيه الملك الظافر إلى القرات ، في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج (١) وهى من أعمال عماد الدين ، وأمهه بابن تقي الدين ، وابن المقدم عز الدين — ليث العرين . فزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الأحد تاسعه ، واستولوا على البلد وأماكنه ومواضعه .

ورحل الملك العادل منتصف رجب إلى الرقة وتسلمها في العشرين منه ، وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ما ذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد الخابور (٢) جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء إلى نصيبين ونزل بظاهرها ، وشرع في ضم ذخائرها . فجاءت الرسل العمادية في طلب الصلح ، وأسفر ليل الحرب بسنى السلم عن الصبح . ورحل ونزل (دارا) وكان صاحبه دار مع القوم وما دارى . فبسط عنده ، وقبض ذعره ، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده ؛ إلى نور الدين أرسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح ، وكان له في كل سفرة تجارة وربح .

وكتب إلينا أن أهل خلاط كاتبوه ، وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وأن كل صاحب حصن قد ضبط موضعه ، وانتظر مطلعته . فإنه تولاهم

(١) سروج : بلدة قريبة من حران ، وهى من ديار مصر بشمال الجزيرة (ياقوت ج ١٠ :

٢١٦-٢١٧ ط . ب .) .

(٢) الخابور : ولاية واسعة وبلدان كثيرة ، غلب عليها اسم النهر الذى يجرى بها بين

رأس سين والفرات (ياقوت ج ٧ : ٣٣٤ - ٣٣٥ ط . ب .) .

بعد بكنمر المعروف بالهزار دينارى (١) . فلم يرضوا بإيالاته لخلاط ؛ ولم يروه كفوا لتلك الهدى . ثم أشرف العادل على خلاط ، فوجد أهلها قد كملوا الاحتياط . ورأى أن البرد يشتد ، وأمد الحصر يمتد . فعاد إلى حران والرها ، وأعرض عن مخالطة خلاط ؛ وتأخر إلى الربيع أمرها .

(١) الهزار دينارى : هو بدر الدين آقستقر ، أصله ملوك قد جليه تاجر أرمنى فاشتراه .
« شاهر من سكرمان بن ابراهيم » ملك خلاط وجعله ساقيه . ثم لما جاء سيف الدين بكنمر بن عبد الله-
سلطانا على خلاط أبقاه ، وجعله خشدائه ، وكان بكنمر قد زوجه ابنته فطعم فى الملك .
ووضع على بكنمر من قتله سنة ٥٨٩ هـ ، توفى سنة ٥٩٤ هـ (تأريخ أبو الفداء ج ٣ : ٨٨ و ٩٤ ط-
المطبعة الحسينية ، ١٣٢٢ هـ) .

فصل في المعنى

أنشأته إلى الديوان العزيز في آخر رجب عن الملك الأفضل

لا شك في إحاطة العلم الأشرف بحال الذين حالوا عن الانصاف
بالإنصاف ، ومردوا ومروا أخلاف الخلاف ، وعادوا عن خلق التلاقي
إلى الإنلاف ، وبددوا بالافتظام في سلك الغدر شمل الائلاف . ونكثوا
بعد أيمانهم ، حتى قيل كفروا بعد إيمانهم . وباعوا في بغيتهم بقيتهم ،
وأبدوا قوتهم في وهيبهم . وزعموا أنهم إذا عزموا نالوا فرصة ، ووجدوا
إذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاءوا إلى البلاد التي للخدم من إنعام أمير
المؤمنين - صلوات الله عليه - ليتملكوها ، واستسهلوا سبل الضلالة بعد
الهدى فسلكوها . واغترروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم ، وأصيبوا إذ
لم يصيبوا ببصائرهم وأبصارهم ، ودخلوا في دائرة السوء وخرجوا من
ديارهم .

واجتمع صاحب الموصل وأخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين
وحسدوا وحشدوا ، وما الظن بشر الخاسدين الحاشدين ! ووعدهم
الشیطان وأحزابه فصدقوا كذب الواعدين . وكان العم الملك العادل
سيف الدين قد توجه إلى تلك البلاد ؛ لإبقاء أمورها على السداد ؛ واثقا
منهم بالمواثيق ؛ محتفلا بالوفاق الحافل الأفوايق . وهو في خواصه وذوى
استخلاصه ، لم ينتظم عسكره ، ولم ينضم إليه معشره ، ولم يصف للقع
الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره .

فلما عرف نكرهم ؛ وعلم في مكرهم مكرهم ؛ توافت إليه الجموع ،
وحنت على قلبه الضلوع ، وحنت إلى أصله القروع . وتوافد إليه بنو أخيه
في الجنود ، وتوافوا نجدة ساعدت بالسعود . وأمد الأخ الملك الظاهر من

حلب بالأمداد المتظاهرة ، والأنصار المتناصرة . وندب الخادم أخاه الظافر خضرا وأنهضه ، وسار معه عسكره الذى بدمشق عرضه .

وسمع الأخ الملك العزيز خبر القوم ، وأنهم من حول ورد الردى على الحوم ، فأخرج المضارب وأبرزها ، وأنفق فى العساكر وجهازها ، وذكر عدة النجدة قائمىها ، واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها ، وأقبل على ذخيرة الفضيلة فأحرزها . وتحركت السواكن ، وثار الكوامن . وهاجت الأقطار وماجت البحار ، وشابت الأكدار ، وأصاب الأقدار . وأظهر الله قبل الاجتماع معجز آياته فى أهل الشمامه وخص جمعهم بالشتات ، وحبلهم بالبتات ، وحص من تلك الثبات أجنحة الثبات . وشغل كلا منهم بوباله وباله ، وحطه من يفاع اعتلائه إلى حضيض اعتلاله .

وأعادهم على أعقابهم ناكسين ، وبعثهم ناكسين ، وفى آرائهم وآراهم ناقسين . وأظهر الله فى كل واحد من أعداد الأعداء آية للعادة خارقة ، وقدرة لإقدار الأولياء للسعادة خالقة . وقتلهم وما قاتلوا ، وقابلهم وما قابلوا . وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتفكرين .

وعلم صاحب ماردين أنه أخطأ وما أصاب ، فأبان عن ندمه وأناب . وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالأمراء فى أمره وتذرع . فأبدت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ، وأجرى على القاعدة المستقرة له فى عهد الوالد رحمة الله عليه ، فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا إليه .

وكان الأخ الملك الظافر خضر قد وصل إلى الفرات ، حين حكم الله لجموع أولئك بالشتات . فعبه إلى سروج يوم السبت ثامن رجب ، وقلب العدو من الفتح الذى وجب وجب . وفتحها يوم الأحد ضحوة ، وجاءت هذه المنحة من الله حظوة . ورحل الملك العادل بالعساكر إلى الرقة ، لاسترجاع وديعتها المستحقة .

وهذه بركات استمرار العيد على طاعة المواقف المقدسة ، ويُسْمَن
الائتثار بأوامرها ، وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وما السعادة إلا لمن
شملته سعودها ، وما الجلد إلا لمن وصله جودها ، وما الكرامة إلا لمن
كرمت عنده بالوفاء عهدودها ، وما العصمة إلا لمن لزمته في حمده النعماء
عقودها .

ذكر سيف الإسلام باليمن

وإقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الإسلام طُغْتُكَيْن بن أيوب أخى السلطان . وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان ، مخصص في مكانه بالإمكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام ، فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه إلى أخيه ، وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الإسلام بغمه ، وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشأني عن الملك الأفضل يشتمل على شرح ما ألم ، وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو : « صدرت هذه المكتابة معربة عن النبأ العظيم ، والخطب الجسيم ، والرزء العميم ، والحادث الأليم ، والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت ، والمصاب الساحت (١) . والفجيعة الفاجية ، والنكبة الناكية ، والطارقة الطارية ، والملمة المولمة والبلية البارية . والواقعة الرائعة ، والصدمة الصاعدة ، والحلمة (٢) اللافحة ، والروعة الفادحة . والعمة التي غامت بها الأيام ، وغم لها الأنام ، واعتل منها الإسلام ، واختل النظام . فقد علمت المطالع ضياءها ، والمشارع صفاءها ، والثغور سدادةا ، والأمور سدادةا ، والعيون قرتها والثغور قراراها ، والقلوب ثباتها ؛ والجفون غرارها ، والأيدى أيدها ؛ والوجوه سفورها ، والصدور انشراحها ؛ والأسرار سرورها .

فقد فقدت الدنيا بهجتها ، وضلت العلياء محجتها . واهتدى الضلال إلى الهدى ، وأقوى نادى الندى . وأقفر مغاني الغنى ، واكفهرت مجالى السنى ، وأمرت مجانى المنى . وخفيت مناهج المناجع ، وعظمت مناهل المنائح . وعميت مذاهب المواهب ، وأظلمت مطالع المطالب ، وارتجت أبواب الفتوح ، ودجت أضواء الوضوح . ودرست معالم المعالي ، وطمست

(١) الساحت : فعله سحت . فيقال سحت الشحم عن اللحم بمعنى قشر .

(٢) الحلمة : صوت التهاب النار .

زواهر الليالى . واضطربت الدهماء ، واضطربت الدهماء . وبطلت مواسم
الحق ، وابهمت مظالم الخلق . وانتقطعت مسالك الجهاد ، وتفجعت ملك
البلاد . وأخلفت عدات الإعداء على الأعداء ، وانكسفت أنوار آمال الأولياء .

وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم ، وأظوره من سر قدره المكتوم .
بمصاب مولانا الملك الناصر - روح الله روحه ، وروض في جنان رضوانه
وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجل ، وحل عرا الجلد
حين حل ، وثلم غرب الصبر وقل . وأجرى غرب الدهوع ، وأزكى
كرب الضلوع . ويت حيل اللاجين ، وشت شمل الراجين .

وأعلمنا أن الدنيا الدنية جبالها رثاث ، وجباؤها غثاث ، وعقودها
أنكاث ، وسهولها أوعاث ، وقصورها أجداث ، وسرورها غرور
ومواهبها أحداث . وسكونها قلق ، وأمنها فرق . وصحتها سقم ، وأملها
ألم ، وغبظتها ندم ، ووجودها عدم . وبقاؤها فناء ، ونعيمها بلاء ، وراحتها
عناء . ومثلها هلك ، وسترها هتك ، وأخذها ترك ، وسلمها حرب
وصلحها فك . ووقاؤها غدر ، ووقاها مكر ، وعرفها نكر ، ووصلها
هجر ، وخيرها شر ، ونفعها ضر ، وجبرها كسر . ومتاعها قليل ،
وباعها في التناول طويل ، وما لئثارها مقيم ، ولا في ظلها مقبل .
ولا أرب فيها لأريب ، ولا إلباب فيها للييب .

فإن ظلها قاص ، وفضلها ناقص . وعمرها قصير ، وغنيها فقير .
وربها جرع ، وزيا خدع . وحليها عطل ، وسعيها زلل . وإجداؤها
إجذاب ، وإعطاؤها إعطاب . وإصباحها إظلام ، وإرغابها إرغام .
وسماحتها بخل ، وسجاجتها ختل . وعقدتها مفسوخ ، وعهدتها منسوخ .
وربها خسار ، وجرحها جبار ، ويسارها إفسار . وخصبها إعمال ،
وحبها محال . وعمارتها شعث ، وشيمتها (1) عيث وعبث . وتراها تراث ،
ولا لمسكنها أساس ولا لساكنها أثاث . ولأكيدها في كيدها يد ، ولا لمكرها
في جد مكرها جدد .

(1) ميث : إفساد .

والسعيد من استعد في معاشه للمعاد ، واستكثر مدة مقامه في الدنيا
لسفر الآخرة من الأزواد . ومن نظر إليها بعين القلب ، وعرف أنها دار
البلاء واليأس ، وتقوى فيها بالتقوى ؛ وجد في الإعراض عن جدواها
لنفوز يوم العرض بالجلوى .

ولقد كان السلطان السعيد - قدس الله روحه - بحقيقتها عارفاً، ولطريقتها
عازفاً، ولزخرفها عاتفاً، ومن ملكها أنفاً، وعن مالها متعففاً . فاشتغل عن الدنيا
بالدين، وخصه الله بتأييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي - صلوات الله
عليه - فما زاغ بصره وما طغى ، (ونهَى النفسَ عَنِ الْهَوَى ، فإن الجنة هي
المأوى (١)) . ووقف بحياته على إحياء معالم الهدى ، والإعلان بشعار التقى .
وإعلاء منار الجهاد ، وإشاعة سنن العدل والإحسان في البلاد والعباد .
وإفاضة سجال الفضل والأفضال ، حتى كفل جوده بفيض الأرزاق ووفى
بمنجح الآمال :

وأخلص لله عمله ، ولا ملك ملكاً ولا تمول مالا إلا في سبيل الله أنفقه
وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من كان لله كان الله
له) ، فلا جرم أذن الله له الملوك الأعزة ، ووهب لأعطاف الدولة
للتباهى بملكه الهزة . وملكه الأقاليم والأمصار ، وأجرى بإقداره الأقدار ،
فأزال عن مشارع الشريعة الأكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام ،
وقمع أعداء الإسلام .

ومد الله في عمره حتى بلغ المراد ، وفتح البلاد ، ووفى في حق
الجهاد ؛ الجِد والاجتهاد . وقد رعى على ما أعجز عنه الملوك ، ونهج في نصرته
الدين نهجاً أعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وأبادها ،
وملك عليها ديارها وبلادها . وأوهى على الكفرة معاقدها ، وطال
بحقه على باطلها .

وأقصى عن المسجد الأقصى مدنسيه ، وأزال عنه أيدي غاصبييه .
وأصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الأرجاس ، وأبعد عنها أجناس

(١) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة عبس .

الأنجاس . وقهر الكفر وخذله ، ونصر الإيمان وأخذ له ، وأحيا للكرم كل سنة حسنة :

واستمرت محاسن أيامه سنة بعد سنة . وتعديت بعدله الجوانح ، وتذلت بياسه الجوامح . ودانت ودنت له الممالك القاصية ، وأذعنت إذ عنت لحكمه الأمانى العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته ، وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته . ونفذت في الشرق والغرب مراسمه، وقامت بالحمد والشكر مواسمه ، ووفت بأمل الداني والقاصي ، والطائع والعاصي مكارمه .

وأسعدته الله وأمهله ، حتى حقق في ذويه أمله ، وولى في كل إقليم من يعمل لله في العدل والإحسان عمله . ثم توفاه حميد الأثر ، كريم الورد والصدر ، ظافر الرجاء رائج الظفر . صالح العمل ، ناجح الأمل . طاهر الفطرة ، ظاهر النصرة . كاسيا من الفخار ، عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب ، مرتويا من صوب الصواب . مبهيجا بنصرة النعم ، متأرجا بعرف نسيم التسليم .

وما كان أبهج الأيام بأيامه ، والأعصار بمزايته ، والأمصار بمحاسنه : والإسلام بسلطانه، والآفاق بسنى إحسانه . وما كان أسعدنا بجلوده ، وأجدنا بسعوده ، وأغنانا بعدله وجوده . فقد فقد الصباح فلا سنى ، ودفن السماح فلا جدى ولا جنى ، وغاض البحر فلا غنى . وهوى (١) الطود فلا ثبات ، وذوى الروض فلا نبات . وهوى الركن فلا سند ، وانتهى اليمن فلا جدد وغلب الكمد فلا جلد ، وعز الزاء فلا عزو ولا قوة ولا عضد .

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٢)) ، ولأمره تابعون ، ولحكمه طائعون . لاراد لإرادته ، ولا صادم لمشيئته . ولا صادف لمصادف قضائه ، ولا صارف لصرف بلائه . ولقد كادت الأنوار تغرب ، والأنواء تعزب . والمنابع تغور ، والصنائع تبور . والأحوال تحول ، والأهوال تهول : وأضواء المعارف

(١) في ب هو والتصحيح من ل .

(٢) الآية ١٥٦ سورة البقرة .

لا تضيء ، وأفياء العواطف لا تنيء . وزهر السماء لا تشرق ، وأزهار
الروض لا توثق . ومعاهد الإسلام تهي ، وميامن الأيام تنتهي . لولا أن الله
تدارك الارماق بألطافه ، وتلافى الآمال بإسعافه ، وجلل وجه النعمى من
خلال البوس ، وأهدى البشر بعد العبوس ، وأنزل السكينة عند الزلزال
على النفوس .

وأجرى الدولة على أحسن العوائد ، وأرشد المقاصد ، وأثبت القواعد .
من استمرارها على الائتنام ، واستقرارها في النظام . واستمرارها بأفوايق
الوفاق ، وإهلال بنورها غب المحاق ، وطلوع شمسها من الآفاق .
وارتفاع فروعها في سماء السمو ، وامتداد أصولها في منابت النمو ،
وافتحاح أحداقها التواظر عن نور الأبصار ، وافتتاح حدائقها النواضر
عن نوار الأزهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت ، وانتظمت
للألفة المتبددة وتأكدت ، وسكنت القلوب الراجفة وأنست ، وسكنت
الأكسنة المرجفة وخرست . وأنارت الخواطر المظلمة ، وأفاقت الظنون
الراجمة والأفكار المتقسمة . وزاد الرنق ، وزال الرنق ، وانجلي النسق ،
ونجلي القلق . واستقامت الأمور ، واستنامت إلى حفظها الثغور .

ووصلت الكتب العزيزة والظاهرة من مصر وحلب ، بكل ما أنجح
الأرب ، ووصل السبب ، ومرى در النصر وحلب . وبكل ما أظهر القوة.
وقوى الظهر ، وشد الأزر ، وأمر الأمر ، وسر السر ، ونصر الحق وحقق
النصر . من الموافقة والموافاة ، والموالة القاضية من الجلة المنجدة بالموالة.
والتابعة والمشايعية في كل أمر يبرم ، وكل حكم يحكم ، وكل عزم في
قمع العدا يصمم ، وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتم .

ووصل المولى الملك العادل فتولى أمر المملوك بكل ما وافق لإثارة ،
وأشاع على عادة الوالد - رحمه الله تعالى - شعاره ، ورفع مناره ، وأخطى
من كل شاغل باله ، ورفه أسراره ، وأراح أفكاره . وما في الجماعة إلا من
خطب الجمعية وخطب في الجمع ، وأعرض عن الهوى للحق المتبع .
فالكلمة متحدة وإن كانت الأنفس متعددة ، وما أخلقت هذه الدولة

بل استمرت على تجديد الأيام متجددة . وإنما أشفقت في حال الصدمة الأولى ؛ وبدء الرزية الطولى ؛ على بيت الله المقدس ، ومن غدر الترنج بقصدها ، فإن الغدر شيمة لهم في الأنفس . فوئى الله شرهم ، ودفع مكرهم ، وأوهى أمرهم . ولم يزل من قلوبهم الرعب ، ولم يوثروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بإبقاء السلم ، وخطبوا لإجرائهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شمات ، ووصاياها نفذت وكملت .

وتوجه الملك العادل إلى بلاده الجزرية شرقى الفرات ، لإصلاح تلك الولايات ، وإحمراس شفاشق الهادرين بالإرجاف من أهل السمات ، ليؤذن بهيبة الأسد جمع النقاد بالشتات . وليعيد إلى الأئس شارذ الولى الراشد ، بويد بالأس مكايده الحاسد الحاشد .

والحمد لله الذى أجد الأمن وقد عرت المخافة ، وأنزل الرأفة وقد فجأت الآفة . وأبقى الإسلام بعزه والكفر بذله ، وثبت قواعد الملك الناصرى بجمع شمل أهله ، وأحيا بهم سنتى إحسانه وعدله ، وشيمتى أفضاله وفضله . وفى دوام إقبال المجلس السامى دوام إقبالهم ، ونظام أحوالهم ، وسبوغ ظلالهم ، وبلوغ آمالهم .

ذكر ما افترضه الملك الأفضل من خدمة دار الخلافة المعظمة

وإنفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الأفضل بدمشق في مقام والده ؛ وشفع طارف ملكه بتالده ؛ وأضاف موروث الفضل إلى مكتسبه ؛ وأكرم نسبه بكرم حسبه ؛ بدأ بالأهم الأفاضل ، والأتم الأخص . فقدم إلى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب ، وأنهى الحال فيما ألم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى في الرسالة ، إلى منزل الرسالة وموقف الجلالة : وأصبحه عدة والده في الغزاة ، أو ان لقاء العداة ، وسيفه ودرعه وحصانه ، وأضاف إلى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ؛ ما استفد وسعه وإمكانه .

فما تهيأ مسير الرسول إلا في أواخر جمادى الآخرة ، حتى حصل كل ما أراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله ، حتى لا يظن أنه انفرد بسوله . وقصد مداراة إخوته ، وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد أن جدد نقش الدينار والدرهم بسمي أمير المؤمنين ، وولى العهد عدة الدين . وأمرني بإنشاء الكتب وتحريرها ، وتقريب المقاصد فيها وتقريبها .

فصل من الكتاب إلى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

أصدر العبد هذه الخدمة وصدرة مشروح بالولاء ، وقلبه معمور
بالصفاء ، ويده مرفوعة إلى السماء للابتهاال بالدعاء ، ولسانه ناطق بشكر
النعماء ، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء ، وطره
مغض من الحياء ، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء ، وهمته في العبودية
فارعة ذروة العلاء . وهو للأرض مقبل ، وللقرض متقبل ، وبالطاعة
مائل ، وللإستطاعة باذل .

وللجهد والإخلاص عارض ضارح ، وفجر فخره من الصحة والمناصحة
صاا صاا . وهو يمتّ بما قدمه من الموات ، وأسلفه من الخدمات ،
وذخره ذخرا الأوقات لهذه الأوقات ، واتخذ عاصمة من الثابتات ، وعوده
من الطارقات ، وعدة عند الملمات ، وعمدة لدى الخطوب الكارثات ،
ومصرفا لصروف الحاداثات ، ومؤلّفا (١) للشمل عند شمول الشتات ،
وعروة للإعتصام بها . في أزمن الأزمات ، وسلوة من الأسي وأسوأ لجراح
المصيبات .

ولا خفاء بما أخافه ، وفاض له من بحر البرح وضاافه ، وأغاض نظافه ،
وعاق أوان رجاء جنى النجاح قطافه ، لولا أن الله تداركه بفضله وأولاه
أطفافه . فإنه دهمه ما هدمه ، وفجأه ما فجعته ، وبتته من الرزء ما صد عنه
العيش وصدعه . ونابه ما رابه ، وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة
والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة ، ومحا عن صفحة صبحه آية الإياه (٢)
وأمّ بأمّ الأمل ، وأحال الحلّى إلى العطل ، وحلأ عن النهل والعلل . وأذهب
بهجة الأيام ، وأشمت الكفر بالإسلام . وسر الشرك منه ماساء التوحيد ،
وقرب من إشفاق القلوب وإشفاء الكروب البعيد ، وعطل الجهاد وأراح
الحديد .

(١) في له مألّفا والمذكور من ب وهو أنسب للسياق .

(٢) الإياه : الشمس نورها وحسها .

وشب حقوق العداة على أنها ما شبت إلا لتخمد ، وشام (١) حدود العناة على أنها ما شيمت إلا لتغمد . وهذا الحادث أرجف المرجفون بحديثه وأثاروا كومان النار ، وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل النفاق رعوسهم من كل نفق ، وعاد ثبات ثباتهم إلى نفاق وفاق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى ، مستلثما من عدد أيامها ومدد إنعامها بالدرع الأتوى الأتوى ، فإنه لا يحتفل بحقول أخلاق أهل الخلاف ، ولا يتحلحل طود حجاجه الرامى وحصاه الراسخ لعواصف ذوى الإجحاف (٢) .

وقد أحاطت العلوم الشريفة - مجدها الله - بأن الوالد السعيد ، الشديد السنيد ؛ المير للشرك المبيد ، لم يزل أيام حياته ، وإلى ساعة وفاته ؛ مستقيما على جلد الجدد ، مستنهما في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد . مستنفدا في كل ما يجوز به المراضى الشريفة وسعه ، مستفرغا طاقته في الشغل الدينى الذى يهدى بصره وسمعه . فكم قيض يدا بسطتها بالفننة الفتننة العادية . وكم فرض سنة أعلنت سناها للمجتلين ؛ وأحلت جناها للمجتدين الدعوة الهادية .

ولكم أحرص دعاة الأديان ، وحرس ولايات الأولياء . وكانت بكتابه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد ، ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بممالك الدار العزيزة وعبيدها عباديد . وأمطار بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب ، وأقام بها منار الإسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب . وأسعرها من كآاة الوغى وحداة الورى بمساعير ، وأنجدها بضومره ضومر الظفر بمضامير .

وهذه فتوحه فتوح بنشر النصر وتضوع ، وعقوده تروق في ملك الملك وتروع . ومصر بل الأعمار باجتهاده في الجهاد شامدة ، والأنجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة . والبيت المقدس من فتوحاته ، والملك

(١) شام : تطلع بيمره .

(٢) ذب الاحجاف والتصحيح من له .

العميق من نتائج عزماته ، وتوفره على العبودية للمالك رقه سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته ، وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته .

وما زال ظاهرا على العدا ، ناصرنا للهدى ، معليا معلم العلي ، محيا مواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه ، مديما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه . وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل أعتاقها ، وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصليان وقصم أصلابها ، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها ، ونظم أسباها . وسد الثغور ، وسدد الأمور . وأذل للدار العزيزة كل علو ، وأخذ لها على يد كل ذى عتو ، واستمرت على الأيام مساعيه فى الخلمة ناجحة ، ومعانيه على موازين الموازين راجحة . وسيرته حسنة وحسناته سائرة ، ومحاسنه ظاهرة ، وسريرته طاهرة .

وختم الله له بالسعادة ، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة ، وقضى وقد قضى من آرائه آراه ، وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محوط ، ووزره محطوط ، وعمله بالصلاح منوط ، وأمله بالتجاح مشروط ، وملكه بحفظ الله وكلامه مضبوط . والمذاهب مهذبة ، والمراتب مرتبة ، والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال حالية ، والأعمال راضية . والمصالح مصونة ، والمناجع مضمونة . والرعية مرعية ، والعوائد مرضية . والقواعد متائلة ، والمقاصد متحصلة . والثغور مسدودة ، والخطوب مصلودة .

وأصول الدولة ثابتة ، وفروع الدوحة نابئة . وما ترك أمرا بعده غير مستقيم ، ولا نهجا غير قويم . ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج إلى تقيبه وتقريره ، ولا أبقى لمن بقى له ما يفترق إلى تربيته وتدييره . وما خرج من الدنيا إلا وهو فى حكم الطاعة الإمامية داخل ، وبمجتزها الرابح إلى دار المقامة راحل

ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستعداد بسعادتها ، والاستعداد لعبادتها . والاستجارة بظلالها ، والاستنارة بجلالها ، والاستعاذة بفضلها ، والاستزادة من أفضالها . وما بنيت القواعد إلا على أساس وصاياها ، ولا أمضيت العوائد إلا على قياس سجاياها .

ولا أبرم إلا ما عقده ، ولا أحكم إلا ما أكده . واقتضت آثاره ، واجتليت أنواره ، واتبع إثاره ، وأثمرت في ائتمار الأوامر الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الإمامية الناصرية فإن الله ناصره .

وما يفتخر العبد إلا بما ورثه في ولائها من الفخار ، وبعثه من آلائها الغزار ، ونعشه برفعه من العثار ، وعرفه بعرفه المبر البار . ولا يتسم بالملك إلا من يتسامى بأنه لها مملوك ، ولا يوصل إلى السعادة الأبديّة إلا مسلك إلى رضاها مسلك . ولئن مضى الوالد على طاعة إمامه ؛ فالملك أؤلاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه ، والكفر بمفلول الغرب ، مخنول الحزب ، مجبول على الرعب ، مغلول بقيد السلم عن الحرب ، فإن الله أجرى المشركين مع كثرهم على حكم القلّة ، وخصهم لإبقاء عزة الثغور الإسلامية بالذلة .

وقد استمرت الحال إلى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون إذا أحسوا بالمكنة . فإن الغدر في طباعهم مركز ، والسوء في غرائزهم مغروز . والعبد آخذ بالخزم ، عائد بتأييد الله في العزم . متيقظ لمخوف غدرهم ، متحفظ من مكر مكرهم . مستعد بكل إمكان ، مستجد كل ما يفتقر إليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في أموره ، مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوته من أيديها وأيادها قوى بظهوره . مدل بما له من الموات الأكيدة ، والسوابق الحميدة . والشوافع المقبولة ، والنرائع الموصولة . موقن أن الرعاية تدركه ، وأن العناية تملكه . وأن اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص ، وأن فاتحة الحمد منه والإخلاص ، تفتح له باب الإحمام والاستخلاص .

ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول ؛ وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول ؛ عول على القاضى ضياء الدين في المثول بالخدمة الشريفة وإنهاء حاله ، والانتهاج إلى مناجح آماله . والسفارة فيما يسفر عن صريح المرشد ، ونجح المقاصد ، ونصح

العقائد ، وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفيه بالإبلاغ ،
ملية بإشباع القول ؛ في اعتفاء الطول الملى بالاسباغ . وقد فاوضه فيما
فوضه إليه ، واعتمد في استنتاجه واستنتاجه عليه . لا زالت أيادي الدار
العزيزة دارة غزيرة ، سارة أولياءها وبإحياء موات مواتها جديرة -
لأن شاء الله تعالى .

ذكر مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوقاً في سبيل الله بالإتفاق ، موقوفاً عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق . وما عقر في سبيل الله فرس أو جرح ؛ إلا وعوض مالكة بمثله ، وزاده من فضله . وحسب ما وهبه من الخليل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين (١) معه في صف الجهاد ؛ مدة ثلاث سنين ؛ مذ نزل الفرنج على عكاء في رجب سنة خمس وثمانين ، إلى يوم انفصالمهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين ، فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وحجر (٢) ، ولأكديش طمر (٣) . وذلك غير ما أطلقه من المال ، في أثمان الخليل المصابة في القتال .

ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم في طلبه ، وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً فركبه وهجر جياده ، فإذا نزل جاء صاحبه فاستعاده . فكلهم يركب خيله ، ويطلب خيره . وهو يستعير جوادا ، ويستعر في الجهاد اجتهدا .

وكان لا يلبس إلا ما يجل لبسه ، وتطيب به نفسه ؛ كالكتان والقطن والصوف ، وكسوته يخرجها في إسداء المعروف .

وكانت محاضره مصونة من الحظر ، وخلواته مقدسة بالظهر . ومجالسه منزهة من الهزل والمزلة ، ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط ، ولا لفظة فظة تسخط .

يغلظ على الكافرين الفاجرين ، ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد ، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المقيد . وكان لمدائمة الكلام مع الفقهاء ؛ ومشاركة القضاة في القضاء ، أعلم منهم بالأحكام الشرعية ، والأسباب المرضية ، والأدلة المرعية .

(١) في ب الحضرين والتصحيح من له ومن (١٢ : ش) .

(٢) الحجر : الأثني من الخول .

(٣) الطمر : الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستمد العدو .

وكان من جالسه لا يعلم أنه جليس السلطان ، بل يعتقد أنه جليس أخ
من الإخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات ، متجاوزا عن المفوات ، تقيا
تقيا ، وفيا صفييا . يعضى ولا يغضب ، وييشر ولا يتقطب . ما رد سائلا ،
ولا صد نائلا ، ولا أخجل قائلا ، ولا خيب آملا .

ومن جملة مناقبه ، أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان
مشتغلا بمهماتة ؛ فلما وصل سأله عن سبب تخلفه ، وما الذى وقفه عن
موقفه . فذكر أن غرماءه لجوا وألحوا ، وضنوا بإطلاقه وشحوا . فأحضر (١)
غرماءه وتقبل بالدين ، وتكفل بالعين . وأمرنى (٢) بأن أحيلهم على مصر
فحسبتها وهى اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها
على الحمل ، لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس فى سنة ثمان وثمانين ، كتب إليه سيف الدولة
ابن منقذ (٣) من مصر وهو بها نائبه ، وقد وضحت فى الكفاية مذاهبه ؛
أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنص منها ألفى دينار وتسحب ، وربما وصل
إلى الباب وتحيل وتمحل ؛ وخيل وكذب ، فجاء إلى السلطان من أخبره أن
الرجل على الباب وخال أنه إليه به تقرب . فقال : « قل له إن ابن منقذ
يطلبك فاجتهد ألا تقع فى عينه » ، فعجبنا من حلمه وكرمه ، بعد أن قلنا قدم
الرجل بقدمه إلى حينه .

ومما أذكره له فى أول سفرى معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين ؛
ووردت بها من فضله العذب المعين ؛ أنه حوسب صاحب ديوانه عما
تولاه فى زمانه ؛ فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه .

(١) فى ب فأحضرُوا والتصحيح من ل ومن أ (١٤ ش) .

(٢) فى أ (١٤ ش) فأمرنى .

(٣) سيف الدولة بن منقذ : هو أبو الميهون ، مبارك بن كامل بن منقذ ، مجد الدين ،
ولد سنة ٥٢٦ هـ ، كان من أمراء صلاح الدين ، وقد حبسه سنة ٥٧٧ هـ اثر وشاية ألقيت إليه ،
توفى سنة ٥٧٧ هـ (أنظر الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ : ٢٢٣ (و) النجوم الزاهرة ٦ : ٦٩)
و (الأعلام لزركل ج ٢) .

فأطلبها ولا ذكرها ، وأراه كأنه ما عرفها . على أن صاحب الديوان ما أنكرها .

وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صفوا ، ويحصل عذبا حاوا . وكله يخرج في الجود والجهاد ، ورعاية الوفاة والقصاد . ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة ؛ ولم ير انزواه في بيت العزلة ؛ فولاه ديوان جيشه ، وأولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة إحدى وثمانين ، عم بصدقاته الفقراء والمساكين ، وكتب إلى نوابه في الولايات ، بإخراج الصدقات وقال لي : « اكتب إلى الصني بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية » . فقلت له : « الذهب الذي عنده مصرى » ، قال : « فيتصدق بخمسة آلاف مصرية » ، وأشفق من صرف المصرى بالصورى فيكون حراما ، ويرتكب في كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح ، وتاجر (مع) الله وريح . وسمعت بعد ذلك الصني - وكان في الخير مجلى كل مضمار - يقول : « قد أحصيت فقهاء المدارس بدمشق - وكانوا ستمائة - فأطلقت لهم ستمائة دينار » . ولما عزم على الرحيل من حران ؛ أفاض بها الفضل وبث الإحسان .

وقال لي يوم الرحيل : « انظر كم بقى بالباب من الوافدين أبناء السبيل ، وهذه ثلاثمائة دينار اقسما عليهم بالقلم ، وفضل على أقدارهم في القسم » ، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة ، ولم نجد ميسرة ، فعينت لكل اسم قسما ، وعينت بهم خلقا منى ورسما . فبلغ أربعمائة دينار . ثم وقفت أفكر وأردد النظر إليه وأكربر . فسألني : « ما الذى عملت ، وهل قسمت المبلغ وكلت » ، فقلت : « جرى قلمى بقسمة أربعمائة دينار . فهل أنقص من كل اسم ربعا ؟ » . فقال « أجر ماجرى به القلم ، وأحسن صنعا » . وكان رحاه (١) إذا أطلق لعارف عارفه . وقلت له : « هذه ما تكفيه ردها مضاعفة » ، وكان أصحاب المظالم ، وأرباب المطالب ، والراغبون (٢) في

(١) رحاه : الرسى ، الصدر والمقصود هنا احسانه وكرمه .

(٢) سبق التعليق عليها .

الرغائب ، والذاهبون في المذاهب ، يحضرون عندي ، ويعرفون في إنجاز أمرهم وإنجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقعات بمتوقعاتهم ، وأنتهى في الإملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجربها ويمضيها ، ويضع علاماته فيها ويرتضيها ، وإذا ألني توقيعا بخطي علم فيه ، ولم يقف بشره على سر مطاويه . إلفا بما ألفه من صحبتي ومناصحتي ، وكفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتي .

وكان يأمرني بكتابة كتب الملوك وأصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتهم سلمهم وحرهم . وهي تشتمل على أسباب متنوعة ، وآراب متفرعة ، بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة . فإذا قلت له : « بماذا أكتب ، وما الذي أخطب ؟ فيقول : « أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا نتصرف » . فأكتب من عندي بالإجابة ، وتوافق منه الإصابة . فقد كنت مطلعاً على سره ، مضطعاً بأمره . ما يخفى عنى مراده ، وأنا متيقن لمن ولاؤه ووداده . فأني بمدانة الأغراض ، ومداواة الأمراض ، وموازنة الجواهر والأعراض ، والتمييز بين أهل القبول وأهل الإعراض . فكلم أصلح قلبي بينه وبين من عاداه ، وراض الجامح من سخطه وقاده إلى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر ، ولا يغضى عن الصغائر . ويرشد إلى الهدى ويهدي إلى الرشاد ، ويسدد الأمر ويأمر بالسداد . فكان مالميكه وخواصه ، بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد .

ورأى يوماً لى دواة ؛ بالفضة محلاة ، فأنكر حل الحلية ، وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة ؛ وطريق المناظرة والممانعة ؛ أو ليس تحمل حلية السلاح ، واصطحابه في الكفاح فدواء دواتي أنجع ، ومدد مدادى أنفع ، ويراعى براعتي القصير أطول ، وسلاح قلبي أجد وأحد وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلبي ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها من جوامع كلمي .

فقال : « ما هذا بدليل ، ولا يعيد تحريماً إلى تحليل » . حتى قلت له :

« إن الشيخ أبا محمد - والد الإمام أبي المعالي - قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه ، فلا وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه » ، فلم أكتب بعدها عنده إلا من دواة الشبه ، وتجنبت طرق الشبه . وتركت المحلاة - غلاة ، وعادت الشبهية (١) مجتناة .

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها ، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها ، فما رأيتته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة . وكان له إمام راتب ، ملازم مواظب . فإن غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم ، إذا عرفه متقيا متجنبنا للإثم . وكنت لللازمي إياه يقدمني إماما في الصلوات ومستشارا في المشورات .

وكان يأخذ بالشرع ويعطى به ، وينفق من حل المال وطيبه . ويجود بالموجود ، وبالمعلوم في الحال رجاء الوجود ، فما تتجدد جدة إلا ويستوعبها لإنجاز الوعود .

ولم يكن إلى المتعجم مصغيا ، ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجى لمن جاء بمين (٢) المنجمين ، ولا قبول لمنطق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ، ولا زمانا على زمان ، إلا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف (٣) ولا يتطير ، ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل إذا عزم توكل على الله ، وأقبل على محكم أمره وأعرض عن مظان الاشتباه . فكم قل سفه ذى الفلسفة ، ودل بمعرفه على المعرفة .

وما زال ناصرا للتوحيد ؛ قامعا جمع أهل البدع بالتبديد ؛ مستجليا سنى السنة ، مستحليا جنى الجنة . شافعي المذهب أصولا وفروعا ، معتقدا له معقولا ومسدوعا . يلنى أهل التنزيل ، ويقصى أهل التشبيه ، ويدمى استفادة فقه الفقيه ، واستزادته بنباهة النبيه ، ووجاهة الوحيه . فالعالمون

(١) الشبهية : النحاسية . الشبه ، النحاس الأصفر .

(٢) المين : الكلب ، فله مان يمين .

(٣) يتعيف : يتكهن بزجر الطير فيتشام أو يتفامل .

في عدله ، والعالمون في فضله ، والبلاد في أمنه ، والعباد في منه ، والبرية في بر سعيه . والإسلام في حماية حميته ، والدين في إدالة دولته .

وشرعة الشريعة صافية بصفائه ، ومادة المودة له وافية بوفائه . وقامت بعده طريرة طرية ، من العارعية ، ووبر البرية من الشائبات والشائبات برية ، وبالحرية حرية . وبسرور السرورية . فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها ، وأفضلها وظاهرها ، وفخرت بمفاخرها ، ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتبلجت الآفاق وتأرجت بحسن تابشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في أزهارها والسماء في زواهرها .

والحمد لله مجرى الأقدار ، ومصفى الأكدار ، ومدير الليل والنهار ، ومدير الإيراد والإصدار . وسلم تسليما كثيرا آمين .

المراجع التي اعتمدت عليها في التحقيق والشرح والتعليق

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
- ٣ - أوضح التفاسير لابن الخطيب (ط . مصطفى محمد)
الطبعة الخامسة .
- ٤ - غريب القرآن لابن الخطيب (. المطبعة المصرية ١٩٦٢ م) .
- ٥ - القاموس المحيط للفيروزابادي .
- ٦ - المنجد (للأب لويس معلوف) ، لسان العرب لابن منظور .
- ٧ - معجم البلدان لياقوت الحموي . ط بيروت .
- ٨ - معجم البلدان لياقوت الحموي ط . الخانجي .
- ٩ - معجم الأدباء لياقوت الرومي ط دار المأمون . تحقيق
د . فريد رفاعي .
- ١٠ - معجم الالفاظ الفارسية للدكتور محمد موسى دنداوي .
- ١١ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين
الخفاجي .
- ١٢ - الجواليقي (المغرب من الكلام الأعجمي تحقيق أحمد محمد
شاكر) ط . دار الكتب ١٣٦١ هـ
- ١٣ - الالفاظ الفارسية المعربة لادى شيرط . بيروت ١٩٠٨ م .
- ١٤ - صبح الأعشى للقلقشندی .
- ١٥ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .
- ١٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان .
- ١٧ - الأعلام للزركلي .

- ١٨ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى . ج ٦ ط دار الكتب
- ١٩ - الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة قسم أول وثانى تحقيق د . محمد حلمى أحمد .
- ٢٠ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل تحقيق د . جمال الدين الشيال ١٥٢١ و ٣٠ .
- ٢١ - السلوك للمقرئزى ج ١ تحقيق د . محمد مصطفى زيادة .
- ٢٢ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد تحقيق محمد محمود صبح . نشر الدار القومية ١٩٦٢ م .
- ٢٣ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ط . ليدن ١٧٣٢ م .
- ٢٤ - تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن .
- ٢٥ - تاريخ العرب العام لسديو . نشر النهضة المصرية .
- ٢٦ - فنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن .
- ٢٧ - تاريخ أبو انقاء ط المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ .
- ٢٨ - العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان بتعليق الدكتور حسين مؤنس .
- ٢٩ - تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان بتعليق الدكتور حسين مؤنس .
- ٣٠ - طبقات الشافعية للسبكى .
- ٣١ - الموسوعة التيمورية بقلم أحمد تيمور ط القاهرة ١٩٦١ م .
- ٣٢ - Lane poole, Saladin & The Fall OF Jerusalem , London
- ٣٣ - The Crusaders In The East
- ٣٤ - Dozy Supplements Dictionaire Arabe , V . II
- ٣٥ - Dozy Supplements Dictionaire Arabe. Vetements

- ٣٦ - الفتح القسبي في الفتح القديسي للعماد الاصفهاني ط . ليدن
١٨٨٨ م .
- ٣٧ - الفتح القسبي في الفتح القديسي ط . مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ .
- ٣٨ - الفتح القسبي في الفتح القديسي نسخة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية
مورخة ١١٦٦ هـ .
- ٣٩ - النثر الفني تطوره ومذاهبه ج ١ و ٢ للدكتور شوقي ضيف .
- ٤٠ - مذكرات في تاريخ الشرق وأوروبا في العصور الوسطى
لمحمد رفعت .

فهارس

شروح المصطلحات والكلمات الغربية ، والأعلام ، والبلدان
(١) شروح المصطلحات والكلمات الغربية

رقم صفحة الشرح	الكلمة	رقم صفحة الشرح	الكلمة	رقم صفحة الشرح	الكلمة
١٤٤	السران	٦٢	التركبول	١٢٢	الأبدال
٧٤	الردنيات	٧٠	الجاليش	٧٨	الإداوة
١٥٦	الوراق	٧٦	الجاندارية	٤٥	الأزياج
٧٢٠٦٣	الزجاج	٦٠٠٢٣٥	الجاروشيه والجاويش	٦٢	لاستارى ولاستارية
١٦٤	الزغف	١٠٤	الجروخ	٦٩	الأطلاب
١٦٣	الزنيوركات	١٠٥	الجفائق	١٥٨	آنة
١٤٤	الزيارات	٧٠	الحنايا	٦٢٤	أدوية مشتركان الأوج
٦٥٠٦٢	السابريات	٢٢٣	الحوالات	٣٦٥	باركاه
١٥٨	الستائر	٥٧٥	الخاتسون	١٠٦	الباشورة
٥٧	السخاب	٧٢	الخرصان	٤٦٠	البراكيس
١٠٩	الشيى	٦٣	الخركاه	٤٥٧	البطالين
٦٦	صليب الصليبوت	٢٢٣	الخوانسلار	٦٠٢٠٦٧	البطرك = البطرك
٣٤٢	الطرائد	٦٢	الداوى والداوية	٣٤٠	بطس
١٤٤٠٦٥	الطوارق = العطارقيات	١٠٥	الدبابة	١٠٠	البيض
٥٠٩	العدل			١٠٠٠٧٨	البيض
٥٠٣٠٣٤٥	المرادات	٢٧٥	الدمستور	٥٥٣٠١٩٩	البيكار
٦١٦	النفافير			٩٩	الترائك
٧٩	الفرنند				

رقم صفحة الشرح	الكلمة	رقم صفحة الشرح	الكلمة	رقم صفحة الشرح	الكلمة
		٢٢٣	النوالات	٦٠٢	القسطلان
		١٤٤	النيازك	١١٢	القواصل
		١٩٩	النيروز	٥٢٨	الكرج
		٧٣	اليزنيات	٨٠	كنود جمع كند
		١١٤	اليلب	٨٨	كوسات = كوس
				٤١٠	التوت
				٦٣	الهاذم
				٧٨	المران
				٧٣	المشرفيات
				٥٠	لنجينق والمنجنيقات
					المجانق
				٦١٦	الملايط
				١١٦	المهاميز
				١٦٣	التراكات والتارك
				٧٠	النشاب

(٢) فهرس الأعلام

(١)

- إبراهيم عليه السلام ، ص : ٤٦ ، ٩٨ .
إبراهيم بن الحسين المهران ، ص : ١١٣ .
إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم = عز الدين بن المقدم ، ص : ٢٥٢ ، ٣٦٢ ، ٤٣٤ ،
٥٤١ ، ٥٥٥ ، ٦٣٩ .
ابن الخشاب ، ص : ١٧٢ .
ابن قريش الكاتب ، القاضي المرتضى ، ص : ٤٦٤ ، ٥٢٥ .
ابن أيوب = والد صلاح الدين الأيوبي ، ص : ٢٥ .
أبو بكر ، أحمد بن علي بن الأشقر ، ص : ٢٣ .
أبو بكر ، أبو الشكر بن أيوب = الملك العادل ، سيف الدين ، ص : ٥٩ ، ٩٠ ، ١١٢ ،
١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ،
٣٣٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤٤٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ،
٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦٥ ، ٥٧٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ،
٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٢٦ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ،
٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٩ .
أبو بكر بن هبلوان محمد بن أيلدكز = نصر الدين أبو بكر ، ص : ٥٧٥ .
أبو زكريا المغربي ، الفقيه ، ص : ٢٦٣ .
أبو الفتح بن القابض ، صق الدين = صق بن القابض ، ص : ١٠٨ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٥٠٩ ،
٥٧٦ ، ٦٥٨ .
أبو فليته القاسم بن المهدي الحسيني ، عز الدين ، ص : ٨٩ ، ٢٦٣ .
أبو الطيب المتني ، ص : ٣٢٣ .
أبو القاسم بن الحسين ، ص : ٢٣ .
أبو عبد الله الفراوي ، ص : ٢٣ .
أبو المعالي الوركاني ، ص : ٢٣ .

- أبو هريرة رضى الله عنه ، ص : ٥٤٩
- أبو الهيثم السمين = حسام الدين أبو الهيثم ص ٤٥٦ ، ٥٦٢ .
- أحمد بن المستجد باقر العباسي ، أبو العباس ، الخليفة الناصر لدين الله ، ص : ٥٦ ، ١٢٢ ، ٢٧٩
- آخر أسلم ، ص : ٩٣ .
- آدم عليه السلام ، ص : ٤٤
- أرسل ، عز الدين ، ص : ٥٠٦
- أرسلان شاه ، نور الدين بن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ، ص : ٦٣٩ .
- أرناط ، ص : ٥٩ ، ٨٠ ، ١١٥ ، ٣٥٩
- أرباط الحيشي ، ص : ٤٦
- أسامة ، عز الدين ، ص : ٤١٧ ، ٦١٦
- أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ = شمس الدولة بن منقذ ، ص : ٢٦١
- إسحاق بن صلاح الدين الأيوبي = الملك المعز فتح الدين إسحاق ص : ٤٩٦
- الاسكندر : ٤٥
- أسعد بن الياس بن جرجس ، الطيب = الحكيم الموفق بن مطران ، ص : ٥٧٦
- أسعد بن يحيى بن موسى ، بهاء الدين ، الشاعر = ابن الهائم السنجاري : ٢٢٠
- إسمايل عليه السلام ، ص : ٤٦
- إسمايل بن جعفر الصادق ، ص : ٥٧٥ .
- إسمايل الصوفي الأرموي المكبي ، ص : ٣١٨
- إسمايل بن سيف الإسلام طنتكين بن أيوب ، شمس الملوك ، ص : ١٩١
- إسمايل بن محمد بن عبد كويه نسيبي = جمال الدين ، أبو الفتح ، ص : ٣٥٥
- إسمايل بن محمود بن زنكي = الصالح إسمايل بن نور الدين محمود ، ص : ٢٦
- آقستقر ، بدر الدين = الهزاردستاني : ٦٤٠
- أقوش ، ص : ٥١٤ .
- أكتافوس ، ص : ٤٥
- أماري = مري = أموري ، الملك ، ص : ٦٧ ، ١٢٨
- اياز الطويل ص : ٤٤٤ ، ٥٣٩
- إياز المهراني ، ص : ٥٥٩
- إياس بن قبيصة ، ص : ٤٧
- أيبيك الأخرش ، ص : ٢٩٠
- أيبيك الساق ، ص : ٢٩٥

أيد غمش المجلى ، الحاجب ، ص : ٣٥٧ .
 أيوب ، نجم الدين أبو الشكر = والد صلاح الدين الأيوبي ، ص : ٢٥
 أيوب بن كنان ، بدر الدين ، ص : ٥١١ ، ٦٥٧
 أوك صاحب جليل ، ص : ٨٠ ، ١٠٨ .

(ب)

باليان بن بارزان = ابن بارزاف ، ص : ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٩٧
 بختنصر = نبوخذ نصر ، ص : ٤٥ ، ٥٨٢ .
 البسوس بنت متقذ التميمية ، ص : ٤٧
 بشارة ، حسام الدين ، ص : ٢٧٦ ، ٤١١ ، ٤٤٢ ، ٥٣٣ ، ٥٥٥
 بفيض = أبو عيس ذبيان ، ص : ٤٧
 بكتمر = سيف الدين بكتمر بن عبد الله ، صاحب خلاط ، ص : ٣٣٤ ، ٥٦٧ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠
 بلنوين الثالث ، ص : ٦٧
 بلنيس ، الحكيم ، ص : ٢٣١
 بهرامشاه = الملك الأجد مجد الدين ، بن فرخشاه بن أيوب ، ص : ٤٣٤ ، ٤٧٢ ، ٦٣٣
 البهلوان محمد = بهلوان محمد بن ايلدكتر ، ص : ١٨١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
 بيرم = أخو صاحب باناس ، ص : ١٧١
 بيمند ، الابرنس ، ص : ٦١٦ ، ٦١٨

(ت)

تكش ، علاء الدين خوارزمشاه ، ص : ٣٥٤
 تمرتاش بن جاولى ، حسام الدين ، ص : ٥٠٦
 تيباط ، الكند ، ص : ٤٦

(ج)

جاءك ، سير ، ص : ٥٤٨
 جاولى الغيداق ، ص : ٥٥٩
 جبريل عليه السلام ، ص : ١٢٣ ، ٥٧٨
 جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، ص : ٤٧

جعفر الطيار = جعفر بن أبي طالب ، ص : ٣١٨

جفنة بن عمرو ، ص : ٤٦

جوردك = عز الدين جردك النوري ، ص : ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٥٠٩ ، ٥٣٣ ، ٥٨٥ ،

٦١١ ، ٦٣٠

(ح)

حامد ، تاج الدين أبو بكر ، ص : ١٨٣

حبيبي بن منصور بن ريعة ، ص : ٢٩٤

حسن بن غفراس ، اختيار الدين ، ص : ٢١٢

حسن بن قفجاق ، عز الدين ، ص : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٥٧٣

حسين بن ياريك ، حسام الدين ، ص : ٥١٣

الحسن بن علي بن اسحاق ، أبو علي = نظام الملك ، ص : ٥٧٤

الحسين بن عبد الله بن رواحة = أبو علي بن رواحة ، ص : ٣١٨

حمل بن بدر ، ص : ٤٧

حنة = أم العذراء مريم عليها السلام ، ص : ١٤٥

(خ)

الخاتون الايتانجية ، ص : ٥٧٥

خالد بن الوليد ، ص : ٤٧ ، ٣١٨

خرمشاه بن مسعود بن مودود بن زنكي = علاء الدين بن صاحب الموصل ، ص : ٤٠٥ ،

٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٩٦

خضر ، حسام الدين = أخو صاحب الموصل ، ص : ٥٥٧

خضر بن صلاح الدين الأيوبي ، الملك الظاهر ، مظفر الدين ، ص : ٣٦٤ ، ٤٤٢ ، ٦٣٢ ،

٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢

خليل بن قلاوون ، الملك الأشرف ، ص : ٢٢

(د)

داود عليه السلام ، ص : ١٢٢ ، ١٤٥

داود بن صلاح الدين الأيوبي ، الملك الزاهر ، مجير الدين ، ص : ٦٣٥

دلدرم الياروق ، بدر الدين = ابن ياروق ، ص : ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٤ ، ١٧٠ ، ٤٤٢ ، ٥٩٢ .

(ر)

رتشارد = ريكاردوس ، ص : ٣٣

رضوان ، ص : ٤٩٠

(ز)

زامل بن تبل بن مر بن ربيعة ، ص : ٢٩٤

زكريا عليه السلام ، ص : ٩٥

زنكى بن مودود بن زنكى = عماد الدين زنكى صاحب سنجار ، ص : ٢١ ، ٢٠ ، ١٩

٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٦٢ ، ٢١٦

٣٥٢ ، ٤٠٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩

زياد بن معاوية بن شباب الديباني = الثابتة الديباني ، ص : ٤٧

زيد بن حارثة ، الصحابي ، ص : ٣١٨

(س)

ست الشام = أخت صلاح الدين الأيوبي ، ص : ٩٥

سراستقر ، ص : ٣٥٧

سعيد بن علي بن أحمد ، أبو المال بن حديدة = الوزير معز الدين بن حديدة ، ص : ٢٧٩

سعيد بن محمد بن الوزان ، الشيخ أبو منصور ، ص : ٢٣

سكان بن محمد بن قرا أرسلان ، قطب الدين ، ص : ٢١٢

سلطان شاه بن قليج أرسلان بن مسعود ، نور الدين : ٦٢٤

سليمان بن جندر ، علم الدين ، ص : ٢٥٨ ، ٤٧٢ ، ٥٢٩ ، ٥٢٣ ، ٥٤٢ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥

. ٥٧١

سليمان بن داود ، ص : ٤٥ ، ١١٨ ، ١٢٢

سليمان بن عبد الملك ، ص : ٢٥٩ ، ٢٦٣

سنجر بن سليمان شاه ، معز الدين ، ص : ٥٧٣

سنجر شاه = بن غازي بن مودود بن زنكى = معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة ، ص : ٤٣٩

. ٤٤٢ ، ٤٥٤

ستقر الخلاطى ، حسام الدين ، ص : ٢٠٢ ، ٢٣٨ ، ٣٠٥

ستقر الدوى ، سيف الدين ، ص : ١٠١ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦

سوار ، ص : ٤٦٣ .

سياروخ النجى ، حسام الدين ، ص : ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١١

سيف بن ذى يزن ، ص : ٤٦

(ش)

الشافى ، الإمام ، ص : ٥٧٧

شاهر بن سكتان بن إبراهيم : ٦٤٠

شاهنشاه = عماد الدين شاهنشاه بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى ، ص : ٣٥٢

شاور ، ص : ٦٧ ، ١٧٢

شبيب عليه السلام ، ص : ١٩٦

شيركوه ، أسد الدين = أخو صلاح الدين ، ص : ٣٠ ، ٢٥ ، ٢٧

شيركوه ، أسد الدين ، بن محمد بن شيركوه ، الملك المجاهد ، ص : ٢٠٩ ، ٣٦٢ ، ٤٦٩ ،

٥١١ ، ٦٣٣ .

(ص)

صارو ، ص : ٥٩٩

صاقي ، ص : ٣١٠

(ض)

ضمر غام ، ص : ٦٧

(ط)

طاشتكين = مجير الدين بن عبد الله المقتضى ، ص : ١٨٨ ، ١٨٩

الطالبي ، عز الدين ، ص : ١٨١ .

طفتكين = سيف الاسلام ، ظهير الدين طفتكين بن أيوب ، ص : ١٩٠ ، ٣٥٣ ، ٤٢١ ،

٤٢٩ ، ٦٢٦ ، ٦٤٤ .

طغرل ، بن أرسلان = ركن الدين ، طغرليك شاه السلجوق ، ص : ٣٥٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ،

٥٧٤ .

طغرلشاه = طغرل بن أرسلان ، ص : ٣٥٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

طغرل الجاندار ، شجاع الدين ، ص : ٢٠٤ ، ٢٤٣ .

طمان = حسام الدين طمان بن غازي ، ص : ١٧٢ ، ٣٠٥ ، ٣١٦ .

(ع)

عبادة بن الصامت ، ص : ٢٢٨

العباس بن عبد المطلب ، ص : ٢٤

عبد الرحيم بن علي بن محمد البيهقي = القاضي الفاضل ، ص : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ،

٣٤ ، ٥٧ ، ٩٠ ، ٢١٧ ، ٢٧٥ ، ٤٦١ ، ٥٠٦

عبد القادر الحلبي ، ص : ٥٠٦

عبد العلي بن الشيخ أبي التيجيب السهروردي ، جمال الدين ، ص : ٩٠

عبد الله بن روضة الأنصاري ، ص : ٣١٨

عبد الله بن محمد بن أبي عمرو ، شرف الدين ، أبو سعد ، ص : ٣٥٥

عبد الملك بن مروان ، ص : ١٣٤

عبد مناف ، ص : ٤٨

عبد الوهاب بن علي بن سكينه ، ضياء الدين ، أبو محمد الصوفي ، ص : ٢٧٩

عبدان ، سابق الدين = عبدان بن الداية ، ص : ٣٦٢ ، ٤٣٤ ، ٥١١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢

عبدان بن عفان ، ص : ٤٥

عبدان بن صلاح الدين الأيوبي = الملك العزيز ، عماد الدين ، أبو الفتح ، ص : ٥٩ ، ١١٤ ،

١٤٤ ، ٤٥٦ ، ٦٣٠ ، ٦٤٢

العزيز بن رضى الدين ، ص : ٥٧٣

علي بن إبراهيم بن نجية (ابن نجبا) ، زين الدين أبو الحسن ، الفقيه ، ص : ١٤٠

علي بن أحمد المشطوب ، سيف الدين = المشطوب ، ص : ٥٣ ، ٤٤٢ ، ٤٥٧ ، ٥٠٥ ،

٥١٣ ، ٥٨٨ ، ٦١٣

علي بن صلاح الدين الأيوبي = الملك الأفضل ، نور الدين ، أبو الحسن ، ص : ٥٩ ، ٦٠ ،

٦٣ ، ٩٠ ، ١١٠ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ،

٤٤٢

علي بن هبة الله بن عبد السلام ، أبو الحسن ، ص : ٢٣ .

عمر بن شاهنشاه بن أيوب = الملك المنظر تقي الدين ، ص : ٩٩ ، ١٤٣ ، ١٧٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٦٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٦ ،

٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ،

٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٠

عمر بن الخطاب = الفاروق ، ص : ٢٤ ، ١٢٣ ، ٤٦٥ .

عمر بن عبد العزيز ، ص : ٢٦٣

عيسى عليه السلام ، ص : ١١٤ ، ١١٨ ، ١١٩ .

عيسى العوام ، ص : ٤٢٣ .

عيسى المحكاري ، الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد ، ص : ٩٠ ، ٣٥٥ ، ٥٧٩

(غ)

غازي بن سعد الدولة مسعود بن البصارو ، ص : ٢٩١ .

غازي بن صلاح الدين الأيوبي = الملك الناصر غياث الدين أبو منصور ، ص : ١٥٥ ، ١٦٧ ،

١٨٠ ، ٢٤٢ ، ٣٣٢ ، ٣٦٩ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٦٧ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،

٦٤١ ، ٦٣٤

(ف)

فخر الدين العالوي = الشريف فخر الدين ، ص : ٣٦٥ ، ٥٧٣

فردريك بربروس ، ص : ٣٣٠

فلك الدين = أخو الملك المادل ، ص : ٥٩٣

فيليب أغسطس ، ص : ٣٣ ، ٤٧٤

فيلبس = أبو الاسكندر ، ص : ٤٥ ، ١٢٨

فيلب الثاني = فيلبس أبو الاسكندر

فيروز عبد الخديرة بن سودة = أبو لؤلؤة المحبوس ، ص : ٤٦٥

(ق)

قايماز النجمي ، صارم الدين ، ص : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ ، ٣٧١ ،

٣١١ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤٤٢ ، ٥٠٨ ، ٥٤٤ .

القاسم بن يحيى بن عبد الله = القاضي ضياء الدين الشهرزوري ، ص : ٢٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٢٨٠

٣٠٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥ ، ٦٥٤

قتلغ أبة ، الصلاح ، ص : ٢١٢

قتلغ ايناتج بن هيلوان ، ص : ١٨١ ، ٥٧٥ .

قراوش = بهاء الدين قراوش بن عبد الله الأسدي ، ص : ٢٠٩ ، ٢٧٦ ، ٣٧١ ، ٤٦٠ ،

٥١٤ ، ٦١٤ ، ٦٢٠

قرنل أرسلان = مظفر الدين قرنل أرسلان بن ايلدكز ، ص : ١٨١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ،

٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤

قس بن ساعدة بن عمرو الإيادي ، ص : ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٨ ، ١٣٥

قصي بن كلاب ، ص : ٤٨

قلبي بن عامر بن حديدة الأنصاري الصحابي ، ص : ٢٧٩

قليج أرسلان ، عز الدين = بن مسعود بن سليمان ، ص : ٢١١ ، ٥٦٠ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ،

٦٢٥

قليج الساقى = فرس الدين قليج ، ص : ٩٤ ، ٢٤٧

قلويطره = كليوياترا ، ص : ٤٥

القومص = الكونت ريمون الثالث ، ص : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٩ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ١٠٩

قيس بن زهير ، ص : ٤٧ ، ١٣٢

قيصر ، علم الدين ، ص : ٥٦٤ ، ٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٦١١

قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ممز الدين قيصر شاه ، ص : ٥٥٢ ، ٥٥٧

(ك)

كرجي ، علم الدين ، ص : ٤٩٥

كسرى ، ص : ٥٦

كليج بن رييمة ، ص : ٤٧

كلشاه = آدم ، ص : ٤٤

كشبه الأسدي = سمد الدين كشبه ، ص : ٢٠٤ ، ٢٠٧

كوكبورى بن علي بكشكين = مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك صاحب اربيل ، ص : ٦١ ،

٦٣ ، ٩٣ ، ١٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩ ، ٤٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٥٣٢ ، ٦٢٥

كي = الملك المتيق ، ص : ٨٠ ، ٢٩٨ ، ٤٧٧ ، ٤٩٤

كيخسرو بن قليج أرسلان = غياث الدين كيخسرو ، ص : ٦٢٤

كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو ، ص : ٦٢٤

(ل)

لؤلؤ ، الحاجب = حمام الدين لؤلؤ الشيخ ، ص : ١١٥ ، ٢٤٠
لوجرت = ريكاردوس = ملك الانكبير ، ص : ٤٧٧

(م)

مالك ، ص : ٩٠

ماما خاتون ، ص : ٥٧٠

المبارك بن علي السمرقنتي ، أبو المكارم ، ص : ٢٣

مبارك بن كامل بن منقذ = سيف الدولة بن منقذ ، ص : ٦٥٧

مجد الدين بن الموفق ، ص : ٥٦٩

مجلي بن مروان ، ص : ٣٠٩

محمد بن أرككز ، جمال الدين ، ص : ٤٦٣

محمد بن عباد الدين زئكي = قطب الدين محمد ، ص : ٢١٧ ، ٣١٦ ، ٣٥٢

محمد بن عبد الطيف الخجنتي ، ص : ٢٣

محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، كمال الدين أبو الفضل ، ص : ٢٥

محمد بن عبد الملك بن جيرون ، ص : ٢٣

محمد بن عبد الملك بن المقدم : شمس الدين بن المقدم ، ص : ١٨٨ ، ٢٥٢ ، ٥٧٠ ، ٥٧٧

محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب = ناصر الدين ، الملك المنصور ، ابن تقي الدين عمر ،

ص : ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٣٥

محمد بن عمر بن لاجين = حمام الدين لاجين ، ص : ٩٥ ، ٣١١ ، ٤١١ ، ٤٤٢ ، ٥٧١

محمد بن قرا أرسلان = نور الدين بن قرا أرسلان ، ص : ٢١٣ ، ٥٦٦

محمد بن زكي الدين علي القرشي ، محيي الدين أبو المال ، ص : ١٣٩

محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد = الهادي الأصفهاني ، ص : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥

محمد بن محمد بن موسى = القاضي شمس الدين المعروف بابن الفرائش ، ص : ٦٢٥

محمد بن الموفق بن سعيد ، أبو البركات = نعيم الدين الخبوشاني ، ص : ٥٧٧

محمد بن الناصر لدين الله = الخليفة الباسي أبو نصر محمد ، ص : ٢٧٨

محمود بن بهرام الأرتقي ، عباد الدين ، ص : ٣٦٧

محمود بن زنكى = الملك العادل ، نور الدين ، ص : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،

٢٦ ، ٢٢ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢١٧

محمود بن محمد بن قرا أرسلان = قطب الدين بن نور الدين بن قرا أرسلان ، ص : ٥٢٠ ، ٥٩٦

حريم ، ص : ١١٩

المستنجد بأفقه العباسى ، ص : ٢٤

مسعود الصلتى ، ص : ١٧٧

مسعود بن مودود بن زنكى = عز الدين مسعود ، ص : ٣٥٠ ، ٦٣٧

مسعود بن صلاح الدين الأيوبي ، الملك المؤيد نجم الدين ، ص : ٤٩٦

المسيح عليه السلام ، ص : ٩٣ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٩١

مطرف بن ربيع بن ربيعة ، ص : ٢٩٤

معاوية ، ص : ٢٩

محمد بن عدنان ، ص : ٤٦

المقتضى بأمر الله العباسى ، الخليفة ، ص : ٥٧٤

المقتضى ، ص : ٢٤

ملكشاه بن فليح أرسلان = قطب الدين ملكشاه ، ص : ١٨ ، ٢١١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤

المنذر بن ماء السماء ، ص : ٤٧

محتكورس بن خمار تكين ، ناصر الدين ، ص : ٢٤٣

مردود ، شمس الدين = ابن الملك العادل الأيوبي ، ص : ٤٠٤

مردود ، عز الدين = والى دمشق ، ص : ٤٧٣

موسك بن جكو ، عز الدين ، ص : ٣٥٥

موسى عليه السلام ، ص : ١١٨ ، ١٨٩ ،

موسى ، الملك الأشرف ، ص : ٣٦٤

ميمون القصرى ، فارس الدين ، ص : ٥٨٦

(ن)

نصير الحميد ، ص : ٤٦٤

النهمان بن بشير الصحابي ، ص : ٢٦٣ ، ٤٦٧

النهمان بن المنذر ، ص : ٤٧

(هـ)

هاجر ، ص : ٤٦
هرقل ، ص : ٣١٨
هنرى الثامن ، ص : ٤٧٧
هرى ، الكتند ، ص : ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٤٥
هنرى ، ص : ٨٠ ، ٨٧ ، ١٢٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٤٩٤ ، ٥٤٢ ، ٥٩٠

(و)

الوليد بن عبيد = البحارى الشاعر ، ص : ٥٦

(ى)

يازكوج الأسدى ، سيف الدين يازكج ، ص : ٤٤٥ ، ٥٣٣ ، ٥٦٤ ، ٥٨٣
يحيى بن محمد بن هيرة ، عون الدين ابن هيرة ، ص : ٢٤ ، ٢٥
يرنقش ، مجاهد الدين = ابن طهان بن غازى ، ص : ٣١٦ ، ٤٩٥ ، ٥٥٧ ، ٥٩٦
يزدجرد ، ص : ٤٥
يوسف بن أيوب ، أبو المظفر ، الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين ، ص : ١٧ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٣٥ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٠ ،
٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٧٢ ،
١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٥٤ ، ٣٥٥ ، ٤٤٥ ، ٤٦١ ، ٤٧٧ ، ٤٩٦ ، ٦٠٠ ، ٦٢٩ ،
٦٣٧ ، ٦٤٥ ، ٦٥٧
يوسف بن رافع بن تميم = القاضى بهاء الدين شداد : ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
٤٠٦ ، ٥٦٢ ، ٥٥٥ ، ٦١٢
يوسف ذونواس = ذونواس ، ص : ٤٦
يوسف ، زين الدين بن على بن بكثكين ، ص : ٣٥٤ ، ٤٣٨
يونس عليه السلام ، ص : ٢٩٧

(٣) فهرس البلدان والأمكنة

(١)

- أبهر ، ص : ١٧٥
أبو الحسن (قلمة أبو الحسن) ، ص : ١٧١ ، ٢٠٠
أبو قبيس (قلمة أبو قبيس) ، ص : ٢٤٣
أذر بيجان ، ص : ١٨١ ، ٥٧٥
أران = أرائيه ، ص : ١٨١ ، ٥٧٥
أربيل ، ص : ٦١ ، ١٩٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٥ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ،
٦٢٥
أرتاح ، ص : ٢٦٢
الأردن ، ص : ٦١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٣٠٩ ،
٤٥٢ ، ٣٦٢ ، ٣١٠
أرز الروم = أرزن الروم ، ص : ٥٧٠ ، ٦٢٣
أرسوف ، ص : ٩٤ ، ١٩٩ ، ٥٤٦ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨
أرمينية ، ص : ١٨١ ، ٣٣٤ ، ٥٥٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٦٢٣
أرزنكان = أرزنجان ، ص : ٦٢٣
اسكندرونة ، ص : ٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٩٦
اسكندرية ، ص : ٢٢ ، ٤١٩
آسيا الصغرى = بلاد الروم ، ص : ٤٥ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٣٣٠ ، ٦٢٤
أصبهان = أصفهان ، ص : ٢٣ ، ١٨١ ، ٥٧٤
الأطرون ، ص : ٢٠٠
أفامية = نهر أفامية ، ص : ٢٥٢
إفريقية ، ص : ٢٢

الأقحوانة ، ص : ١٩٤
أقصرا = أقصرا ، ص : ٦٢٤
أكتيوم ، ص : ٤٥
البيرة ، ص : ١٢٨ ، ١٩٩ ، ٣٣١ ، ٦١٣ ، ٦٣٥
ألمانيا ، ص : ٢٠
آمد ، ص : ٢١٢ ، ٣٠٩ ، ٤٦٤ ، ٥٢٠ ، ٥٩٦
انجلترا = انكلترا ، ص : ٣٣ ، ٤٧٧
انطاكية ، ص : ١٨ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٤١٤ ، ٤٣٦ ، ٤٧٢ ، ٦٠٥
٦١٦

انطرطوس ، ص : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
الأهرام ، ص : ٢٠٩
أوه ، ص : ٥٧٥
إيران ، ص : ١٣١ ، ١٨١
أيلة ، ص : ٥٩

(ب)

باب التين ، ص : ٣٦٥
بابل ، ص : ٤٥
بازور = يازور ، ص : ٥٥٨
بالس ، ص : ٥٩٦
باتياس ، ص : ٦٩ ، ١٠١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٣٠ ، ٢٨٨ ، ٤٤٢
البراء ، ص : ٤٥
البحر الأبيض المتوسط = بحر الشام ، ص : ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢
١٤١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٥٤٥
برزيه ، ص : ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣
بسارابيا ، ص : ٣٣٠
البحنة ، ص : ٩٨
برج الدبان ، ص : ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠

ببرطلو ، ص : ٦٢٤

البصرة ، ص : ٢٤ ، ٥٨

بصرى ، ص : ٩١ ، ٤٤٢

بعلبك ، ص : ٢١٨ ، ٢٦٤ ، ٤٣٤ ، ٥٧٦ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٨

بغداد = دار السلام ، ص : ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ١٨٣ ، ٣٢٣ ،

٣٣٢ ، ٣٥٢ ، ٣٦٥ ، ٤٥٦

بغراس ، ص : ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٤٧٢

البيقاع ، ص : ٢١٨ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩

بيكاس ، ص : ٢٤٥

بيكسرايل ، ص : ٢٢٣

بيلاطس ، ص : ٢٤٤

بيليس ، ص : ٥٩٣

بيلقة ، ص : ٢٣٢

البلقاء ، ص : ٥٩ ، ٣١٨ ، ٦١١

البلقان ، ص : ٣٣٠

بلنياس ، ص : ٢٣١

بين النهرين ، ص : ٣٠٩

بني عامر = جبال بني عامر ، ص : ٩٩

بجرا = جبل بجرا ، ص : ٢٢٨

بيت جبريل = بيت جبرين ، ص : ١١٤ ، ٢٠٠ ، ٥٩٢

البيت الحرام ، ص : ١٢٣

بيت لحم ، ص : ١١٤ ، ٢٠٠

بيت المقدس = القدس

بيليت نوبة أو نوبا ، ص : ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٩٢

بيروت ، ص : ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٤١٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٧ ، ٤٨٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠١ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ،

٦١٩

بيسان ، ص : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٧٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٧٥ ، ٦١٣

(ت)

- تبريز = توريز ، ص : ٥٧٥
تبئين = تبئينا ، ص : ٦٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٦١٤
تل الأحمر ، ص : ٢٠٠
تل باشر ، ص : ٣٦٢ ، ٤٤٢
تل يرسيب ، ص : ٢٠٠
تل الجزر ، ص : ٥٨٦
تل الصافية ، ص : ٢٠٠ ، ٥٩٢ ، ٦٠٨
تل المياضية ، ص : ١٧٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٦٨ ، ٤٤٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٥٢٨
تل الفضول ، ص : ٤٧٩
تل كيسان ، ص : ٢٩٨ ، ٤٢٥ ، ٤٤٩ ، ٥٢٨
تل المصلبة ، ص : ٢٩٨ ، ٣٠٥
تلفيائنا = مرج تلفيائنا ، ص : ٦١٤
تنيس ، ص : ٢٢٥
تونة ، ص : ٢٢٥

(ث)

ثغر أفامية = أفامية

(ج)

- الجامع الأزهر ، ص : ٣٩
جبارة ، ص : ٧٩ ، ١٩٦
الجب = بركة الجب ، ص : ٦٣١
جب يوسف ، ص : ٢٩٧
جبيل هرا = هرا
جبلجور = جبل جور ، ص : ٥٦٧
جبيل نبوس ، ص : ٢١٨
٦٨٢

جبلّة ، ص : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٤٢٤ ، ٤٦٧ ،
 جبيل ، ص : ٨٠ ، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
 ٢٣٣ ، ٢٠١
 الجزائر ، ص : ١١٠
 الجزيرة = بلاد الجزيرة ، ص : ١٩ ، ٣٢ ، ٢١٩ ، ٣٠٩ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ ،
 ٤٥٤ ، ٥٣٩ ، ٥٦٦
 الجزيرة العربية ، ص : ٤٦
 جسر الحليد ، ص : ٢٥٥
 جسر دعوق ، ص : ٤٤٤
 الجش ، ص : ٦١٤
 الجليل ، ص : ٢٠٠ ، ٢٢٥
 جينيق ، ص : ٩٨ ، ١٩ ، ٦١٣

(ح)

حارم ، ص : ٢٥٥
 حانق ، ص : ٥٦٦ ، ٦٣٦
 الحويشة ، ص : ٤٦ ، ٣١٨
 الحجاز ، ص : ٢٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٣٤٠
 حران ، ص : ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٣٥٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٦٨ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ،
 ٥٩٦ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٥٨
 الحرم المكي ، ص : ٤٦ ، ١٢٣
 الحسي ، ص : ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣
 حصن الأكراد ، ص : ٢٢٥ ، ٢٢٧
 حضرموت ، ص : ٤٦ ، ١٩٠
 حطين ، ص : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٩٦ ، ٣٣٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ،
 حلب = الشهباء ، ص : ١٩ ، ٢٦ ، ٦٢ ، ١٥٥ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٣٢ ، ٣٥٥ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٤٩٣ ،
 ٥٩٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٨ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠

الحلّة ، ص : ١٨٩

حمام ، ص : ١٩ ، ٩٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣١٨ ، ٤٦٧ ،
٦٣٥ ، ٥٩٦

حمص ، ص : ١٩ ، ٢٦ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ،
٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٣٦٢ ، ٤٦٧ ، ٦٣٣ ، ٦٣٨

حوران ، ص : ٥٨ ، ٦٣ ، ١٩١ ، ٣١٠ ، ٥٦٦

الحولة = بحيرة الحولة ، ص : ٢٩٧

الحيرة ، ص : ٤٧

حيفا ، ص : ٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٤٦٦ ، ٥٣٣ ، ٥٣٥ ، ٥٤٦

(خ)

الخابور ، ص : ٣١٦ ، ٦٣٩

خراسان ، ص : ٢٩ ، ١٨١

الخروبة = الخرنوبية ، ص : ٢٩٧ ، ٣٢٥ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٤٢ ، ٤٩٥

خلاط = أخلاط ، ص : ٩٩ ، ٣٣٤ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٦٢٣ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠

الخليل ، ص : ١١١ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ٦١١

خوزستان ، ص : ١٨٩

الخولقة ، ص : ٥٩٣

(د)

دارا ، ص : ٣٦٧ ، ٤٦٨ ، ٦٣٩

الداروم = البارون ، ص : ١١٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٥٩١ ، ٦٠٨ ، ٦١١

دامغان ، ص : ٥٧٢

ديورية ، ص : ٩٧ ، ١٩٩

ديق ، ص : ٢٢٥

دريساك ، ص : ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨

درعا ، ص : ١٩١

الدهنية ، ص : ٢١٨

دمشق ، ص : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٨٧ ، ٩٠

٩٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ،
٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢١٨ ،
٣٣٥ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ٤٩٦ ، ٥٢٨ ، ٥٦٦ ، ٥٧٢ ،
٥٧٦ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٧ ، ٦١٣ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ،
٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨

دمياط ، ص : ٢٢ ، ٢٢٥

دقيسر ، ص : ٤٤٦ ، ٤٦٨

الدهناء ، ص : ٢٢٧

النور ، ص : ٢٤

ديار بكر ، ص : ٩٩ ، ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٣٠٩ ، ٤٦٨ ، ٥٦٦

ديار بئي جب ، ص : ٦٣١

ديار مفر ، ص : ٦٣٩

دير الراهب ، ص : ٥٤١

دير سمعان ، ص : ٢٦٣

(٣)

الذبان = برج الذبان ، ص : ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠

(٤)

واتزبون ، ص : ٣٣٠

رأس العين ، ص : ٤٤٦ ، ٦٣٩

رأس الماء ، ص : ٥٩ ، ٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٤٤١

الرباط ، ص : ١٤٥

الرحبة = رحبة دمشق ، ص : ٣٦٢ ، ٦٣٣

الرقعة ، ص : ١٧٢ ، ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٥٩٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢

الرملة ، ص : ٣٣ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ٥٤٩ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ،

٥٨٣ ، ٥٩٢ ، ٦٠٠

الرها ، ص : ١٨ ، ١٩ ، ٦١ ، ٤٣٩ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧

الري ، ص : ١٢١ ، ١٨١ ، ٣٥٤ ، ٥٧٢

ريحا = أريحا ، ص : ١٩٩

ريدان = ظفار ، ص : ٤٦

(ز)

زبيد ، ص : ١٩٠

زرعين ، ص : ٩٧ ، ١٩٩

زنكان = زنجبان ، ص : ٥٧٥

الزيب ، ص : ٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٩٦ ، ٤٣٦ ، ٤٦٩ ، ٤٩٥

(س)

سرمانيا = سرمينية ، ص : ٢٤٧

سروج ، ص : ١٩ ، ٦٣٩

السلع ، ص : ٢٠٠

سلمية ، ص : ٤٦٧

سمران ، ص : ١٣١

سمرقند ، ص : ١٣١

سمسطية ، ص : ٩٥ ، ١٩٩

سميساط ، ص : ٥٩ ، ٣٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٦٣٦

سنجار ، ص : ١٧٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤٩ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥

٤٤٢ ، ٤٥٤ ، ٤٩٥ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٩٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤١

سنجبل = سنجيل ، ص : ١٩٩ ، ٢٩٧

سودان مصر ، ص : ٣٣٥

سوريا ، ص : ١٩ ، ٢٠٠ ، ٤٩٧ ، ٥٦٦

سوق عكاظ : ٢٩ ، ٤٧ ، ٥٨

السويداء ، ص : ٥٦٦

سيواس ، ص : ٦٢٢

(ش)

الشام ، ص : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ١١٢ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٤٠٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٥ ، ٥٥٤ ، ٥٥٨ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٢٩ ، ٦٤٦ ، ٦٣٠

الشرقية ، ص : ٥٩٣

الشعر ، ص : ٢٤٥

شفرعم ، ص : ٥٢٧

شقيف أرنون = الشقيف ، ص : ١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٥٩

شقيف دركوش ، ص : ٢٥٥

شيران ، ص : ٥٦٩

شهرزور ، ص : ٦١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٤٣٩ ، ٦٢٥

الشويك ، ص : ٦٠ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧

شيزر ، ص : ٢٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٣٤ ، ٥١١ ، ٥٦٢

(ص)

صافيشا ، ص : ٢٢٧ ، ٤٦٧

الصباغين ، ص : ٥٣٣

صرفتد ، ص : ١٠٢ ، ١١٢ ، ٢٠٠

صفد ، ص : ١٠١ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٠٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢

صفورية ، ص : ٦٢ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٩٧

صفين ، ص : ٥٩٦

صقلية ، ص : ١٤٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩

الصنبرة ، ص : ٣٠٩

صنماء ، ص : ٤٨

صبيون ، ص : ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤١

صوبيا ، ص : ٢٠٠

صور ، ص : ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،

١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٣١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ،

٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٥٩ ، ٥٢٦ ، ٥٨٩ ، ٦٠٥ ، ٦٠٨

صياد ، ص : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٥٢ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ٢٠٠ ،

٢٠١ ، ٢٨٥ ، ٣٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٨٩ ، ٦١٤

(ض)

ضمير ، ص : ٦٢٦

(ط)

طبرستان ، ص : ٤٩٠

طبرية ، ص : ٦١ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٧٦ ، ٣٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ،

طرابلس ، ص : ١٨ ، ٣٦ ، ٦٥ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

٢٣١ ، ٢٥٣ ، ٢٨٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦٩ ، ٦٠٥

طرسوس ، ص : ٢٥٤ ، ٢٧٢

الطور ، ص : ٦١ ، ٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٩٦

طوروس = جبال طوروس ، ص : ٣٣٠

طوى = الوادي المقدس ، ص : ٤٢

(ع)

عالقين ، ص : ٩٠

عائلة = جبل عائلة ، ص : ١٠١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٦١٤

المرادة ، ص : ٢١٨

العراق ، ص : ١٨ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ١٣٢ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٧٩

مرقة = عرفات ، ص : ١٨٨ ، ٥٨١

مرقا = عرقة ، ص : ٢٢٥ ، ٢٢٧

العريش ، ص : ٢٠١

العريّة ، ص : ٢٢٧

مزاز = أمزاز ، ص : ٢٥٨ ، ٤٧٢

صقلان ، ص : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٥٨ ، ٢٧٥

٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٨٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٢

٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦١١ ، ٦١٢

عشرا ، ص : ٧٣ ، ١٩٣

عفرا ، ص : ٢٠٠

عفريلا ، ص : ١٧٧ ، ١٩٩

العقبة = خليج ، ص : ٤٥

عقبة ظهير حمار ، ص : ٦١٣

عقبة نيق = أفيق ، ص : ٣٠٩ ، ٣١٠

عكاه ، ص : ٣٣ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤

١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠

٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠

٣٦٧ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ٤٤٥

٤٥٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ ، ٥٠٥

٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩

٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ ، ٥٩٧ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٥٦

العيلد ، العيلو ، العيلون ، ص : ٢٤٤

عين بصة ، ص : ٢٩٦

عين الجبر ، ص : ٢١٨ ، ٦١٩

عين الذهب ، ص : ٦١٤

عين سلوان ، ص : ١٢٢

عين الأسود ، ص : ٥٣٣

(ع)

غياغب ، ص : ٥٧٢
غزة ، ص : ١١٢ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ٥٩١ ، ٦٠٨ ، ٦١١
غسان ، ص ٤٦
الغور ، ص : ١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٧٥ ، ٣١٠ ، ٤٥٢

(ف)

فارس ، ص : ٤٥
الفرات ، ص : ٢٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٢ ، ٤٦٧ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٩ ،
٦٤٢ ، ٦٤٩ .
فرنسا ، ص : ٢٠ ، ٤٧٤
الفريديسه ، ص : ٦١٣
فلسطين ، ص : ٣٣ ، ٦٤ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٩٧ ،
٥٤١ ، ٥٤٥ ، ٥٥٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٢
القولبة ، ص : ٩٧ ، ١٩٩

(ق)

القاهرة ، ص : ٣٦ ، ٣٩ ، ١١٤ ، ٢٠٩ ، ٣٦٤ ، ٤٩٥
قب إلياس ، ص : ٦١٤
قبة الصخرة ، ص : ١٤١
قبرس = جزيرة قبرص ، ص : ٦٦ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٥٩٠ .
قدس ، ص : ٢١٩
القدس = بيت المقدس ، ص : ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٩ ،
٦٢ ، ٦٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٢ ،
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٧٥ ، ٢٣٢ ، ٣٣٨ ، ٤٥٢

٤ ٥٧٢ ٤ ٥٦٥ ٤ ٥٦٣ ٤ ٥٦٢ ٤ ٥٦١ ٤ ٥٥٤ ٤ ٥٥٢ ٤ ٥٥٠ ٤ ٤٩٤ ٤ ٤٥٦
٤ ٥٩٧ ٤ ٥٩٥ ٤ ٥٩٤ ٤ ٥٩٢ ٤ ٥٩٠ ٤ ٥٨٧ ٤ ٥٨٢ ٤ ٥٨١ ٤ ٥٨٠ ٤ ٥٧٩ ٤ ٥٧٨
٦٤٩ ٤ ٦٣١ ٤ ٦٣٠ ٤ ٦١٣ ٤ ٦١١ ٤ ٦٠٨ ٤ ٦٠٦ ٤ ٦٠٣

قرتيا ، ص : ٢٠٠

القرشيہ ، ص : ٢٤٥

قزوين ، ص : ١٨١

التسطنطينية ، ص : ٦٧ ٤ ١٤٢ ٤ ٣٣٠ ٤ ٤١٤

التصبير ، ص : ٢٥٤

قلعة جدير ، ص : ٣٦٢ ٤ ٥٩٦ ٤ ٦٣٦

قلعة الجماهريين ، ص : ٢٤٤

قلعة الروم ، ص : ٤٥ ٤ ١٨١ ٤ ٣٣٠ ٤ ٣٣١

قلعة نجم ، ص : ٢٥٢

قلونية ، ص : ٥٩٢

قمامة ، كنيسة ، ص : ١١٨ ٤ ٥٦٣ ٤ ٥٨١ ٤ ٦٠٩ ٤ ٦١٣

قومي ، ص : ٥٧٢

قولية ، ص : ٦٢٤

قيسارية ، ص : ٩٤ ٤ ٢٠١ ٤ ٢١١ ٤ ٥٣٣ ٤ ٥٣٤ ٤ ٥٣٧ ٤ ٦٠٥ ٤ ٦٢٣ ٤ ٦٢٤

القيمون ، ص : ٩٨ ٤ ٢٠٨ ٤ ٥٣٣

(ك)

كامله ، جسر كامله ، ص : ٦١٤

كمرخ سامرا ، ص : ٢٧٩

الكرك ، ص : ٥٩ ٤ ٨٠ ٤ ١١٥ ٤ ١٩١ ٤ ٢٠٠ ٤ ٢٠٤ ٤ ٢٠٥ ٤ ٢٠٦ ٤ ٢٠٧ ٤ ٢٠٧ ٤ ٢١٦

كفر طاب ، ص : ٢٥٢

كفركنا ، ص : ٢٩٧

الكعبة ، ص : ٢٩١ ٤ ٣٨ ٤ ١٢٢

كليكنيا ، ص : ٣٣٠

كوكب ، ص : ١٧١ ٤ ١٧٧ ٤ ١٧٨ ٤ ٢٠٤ ٤ ٢١٠ ٤ ٢١٣ ٤ ٢٧٠ ٤ ٢٧٢ ٤ ٢١٣

كيفا = حصن كيفا ، ص : ٢١٢ ٤ ٢١٣ ٤ ٣٠٩

(ل)

- الألاذقية ، ص : ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٢٤ ، ٤٦٧ ،
لبنان ، ص : ١٧١ ، ٢٢٥
الجبون ، ص : ٩٨ ، ١٩٩
لد ، ص : ٢٠٠ ، ٥٥١ ، ٦٠٨
الكام ، جبل ، ص : ٢٥٤ ، ٤٧٢
لوييه = لوييا ، ص : ٨٨

(م)

- ماردين ، ص : ٣٦٧ ، ٤٦٨ ، ٥٦٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٢
مازندران ، ص : ٤٩٠
مجدل حراب ، ص : ٢٠٠ ، ٥٩١
مجدليابه ، ص : ٩١ ، ٢٠٠ ، ٥٣٤
المجر ، ص : ٣٣٠
المدرسة النظامية ، ص : ٢٣ ، ٥٧٤
المدينة المنورة ، ص : ٨٩ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ٢٦٣
مرج برغوث ، ص : ٢٨٥
مرج عيون ، ص : ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٥٩ ، ٥٩٧ ، ٦١٤
مرج قلميطية ، ص : ٦١٥
مرج القنبة ، ص : ٦١٤
مرج ييوس ، ص : ٦١٩
مرقب ، ص : ٢٣٠ ، ٢٣١
مرقية ، ص : ١٩٧
مرو الشاهمان ، ص : ٥٦٩
المسجد الأقصى ، ص : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٩٨ ، ٢٨٢ ،
٦٤٦ ، ٥٨٠
المسجد الحرام ، ص : ١٣٤
٦٩٢

(ن)

- نابلس ، ص : ٩٥ ، ٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٩٧ ، ٥٨٦ ، ٦١٣
الناصرية ، ص : ٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١
الناقورة ، ص : ١٧٦
لمسيحين ، ص : ٢١٨ ، ٣٠٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٧ ، ٤٤٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٣٧
المنطرون ، ص : ١١٤ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٩٢ ، ٥٩٨
المنقرة ، ص : ٢٩٤
نهر حيفا ، ص : ٥٤٦
نهر دجلة ، ص : ٣٠٩
نهر الرسن ، ص : ١٨١
نهر الزاب الأعلى والأسفل ، ص : ٣٣٤
نهر سالف ، ص : ٢٣٠
نهر الماصي ، ص : ٢١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٤٦٧
نهر الموجاه ، ص : ٥٤٥
نهر القصب ، ص : ٥٣٨ ، ٥٤٠
نهر اليرموك ، ص : ٢٨٥
النواقر ، ص : ٢٩٦
النوية ، ص : ٢٢
نيسابور ، ص : ٥٧٢

(هـ)

- هرمض ، ص : ٢٤٠
هرمين ، ص : ٥٧٥
هملدان ، ص : ١٨١ ، ٣٣٤ ، ٣٥٢ ، ٤٥٩ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤
الهدل ، ص : ١٢٠
هولنين ، ص : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٩٩ ، ٢٩٧ ، ٦١٤
هيت ، ص : ٦٣٣

(و)

وادی التیم ، ص : ۲۱۸ ، ۶۱۴ ، ۶۱۹

وادی العربیة ، ص : ۴۵

وادی القرى ، ص : ۳۶۲ ، ۵۹۱

وادی موسی ، ص : ۲۰۰

واسط ، ص : ۲۴

(ی)

یاغا ، ص : ۶۲ ، ۹۱ ، ۹۴ ، ۱۹۹ ، ۲۰۱ ، ۲۴۵ ، ۲۴۸ ، ۲۴۹ ، ۵۰۰ ، ۵۹۲ ،

۵۹۷ ، ۵۹۸ ، ۶۰۱ ، ۶۰۶ ، ۶۰۸

یرین ، ص : ۴۹۳

یبی = یبنا ، ص : ۱۱۴ ، ۲۴۹ ، ۵۵۱ ، ۵۸۵ ، ۶۰۸

یثرب = المدینة المنورة ، ص : ۸۹

یحمر = حصن یحمر ، ص : ۲۲۷

یحامة ، ص : ۲۲۸

یحین ، ص : ۲۲ ، ۴۶ ، ۴۸ ، ۱۹۰ ، ۳۵۳ ، ۴۲۹ ، ۶۱۱ ، ۶۲۶ ، ۶۴۴ ، ۶۴۶

یونان ، ص : ۴۵

الذخائر

سلسلة نصف شهرية



كتاب (الفتح القسى فى الفتح القدسى) هو الكتاب الثانى الذى تصدره الذخائر فى تاريخ صلاح الدين الأيوبى ، وهو يجمع - بصورة ما - بين الأدب ممثلاً فى إنشاء العباد ورسائله وحكاياته ، والتاريخ ممثلاً فى تسجيل بطولة وفروسية صلاح الدين الذى لم يحارب من أجل الحرب وإنما حارب من أجل السلام .. السلام القائم على الحق والعدل .. ولذلك ظل دائماً - حتى خلال الحرب - رافعاً شعار الحوار والتفاهم ، لكن الغرب جاءه رافعاً لواء العداة والصدام عزيزى القارىء .. إلى أين سيتهى المطاف بالعالم .. إلى الحوار أم إلى الصدام ؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين ، ولكن الذى أثبتته الأيام .. أنه حتى الحوار ، بلى وحتى الدعوة إلى السلام .. يحتاج كلاهما إلى قوة تحميه وتؤكدده ، بل وتفرضه ، شأنه فى ذلك تماماً شأن مسلك الصدام .

الكتاب القادم ديوان ابن سناء الملك

Bibliotheca Alexandrina



0587901